

تصوير أبو عبيد الرحمن الكروي

تفسير
القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي

تتبع
عبد الرزاق المحمدي

المجلد الخامس

سورة القصص - سورة الذاريات

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

للإمام الإمام أحمد بن حنبل
ابن كثير القرشي الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
عبد الرزاق الهادي

المجلد الخامس
سورة القصص - سورة الذاريات

الناشر
دار الناشر العربي

بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

1432 هـ - 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.



9 789953 270159

الناشر

دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت - شارع فردان - بناية بنك بيبيلوس - الطابق الثامن

ص.ب.: 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان

هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (+9611)

فاكس : 805478 (+9611) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb

www.dar-alkitab-alarabi.com

مواقعنا:

www.academiainternational.com



[٥١٠٥] قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - : حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسّر﴾ الميتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله - ﷺ -: حَبَابُ بنِ الْأَرْتِ. قال: فاتينا حَبَابَ بنِ الْأَرْتِ، فقرأها علينا، رضي الله عنه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّر﴾ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦

تقدّم الكلام على الحُرُوفِ الْمُقَطَّعة. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾، أي: هذه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، أي: الواضح الجليّ الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك شاهدٌ وكأنك حاضرٌ. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: تكبر وتجبّر وطغى، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي: أصنافاً، قد صرّف كلٌّ صنّف فيما يريد من أمور دولته. وقوله: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾، يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال، ويكذّبهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحیی نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخَوْفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوّف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلبّوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل، حين ورّد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعها منه بقدرته وسلطانه. فبشر إبراهيم - عليه السلام - ولده أنه سيولد من ضلّبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط

(١) أخرجه أحمد ٣٩٨٠ والطبراني ٣٦١٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٤/٧: رجاله ثقات.

تَنَحَّدَتْ بهذا عند فِرْعَوْنَ، فاحترز فِرْعَوْنُ من ذلك، وأمر بِقَتْلِ ذُكُورِ بني إسرائيل. ولَنْ يَنْفَعَ حَدْرَ من قَدْرِ، لَأَنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، ولكلُّ أَجَلٍ كِتَابٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّهُ أَنْ تُؤمَّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَنَسِيكَ لَمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَكَ وَجَعَلَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥٩﴾. وقد فَعَلَ تعالى ذلك بهم، كما قال: ﴿وَأَوْزَنَّا الْفُؤْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْمُونَ مُشْرِكِ الْأَرْضِ وَمَعْرَبِهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا وَكَمَّتْ لَكُمْ رَبِّكَ الْحُسْقَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْزِنَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩]، أراد فِرْعَوْنَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَنْ يَنْجُو من مُوسَى، فما نَفَعَهُ ذَلِكَ مع قَدْرِ الملك العظيم الذي لا يُخَالَفُ أمرُهُ الْقَدْرِي ولا يُغَالِبُ، بل نَفَذَ حكمَهُ وَجَرَى قَلْمُهُ فِي الْقِدَمِ بأن يكونَ هلاكُ فِرْعَوْنَ على يديه، بل يكونَ هذا الغلامُ الذي احترزت من وُجُودِهِ، وَقَتَلَتْ بسببِهِ الوفاً من الولدانِ إنما مَنَشُوهُ وَمَرْبَاهُ على فِرَائِيكَ، وفي دارِك. وَغِذَاؤُهُ من طَعَامِكَ، وَأَنْتَ تُرَبِّيهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتَتَفَدَّاهُ، وَحَتَفُكَ وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ جُنُودِكَ على يَدَيْهِ، ليتعلمَ أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا هو القاهرُ الغالبُ العظيم، العزيرُ القويُّ الشديداُ المحالِ، الذي ما شاء كانَ، وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَاكْلِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ فَأَلْقَطَهُهُ مَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَكَ وَجَعَلَهُمَا كَانُوا خَلَطِيعِينَ ﴿٨﴾﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بني إسرائيل خَافَتِ الْقَبِيضُ أَنْ يُفْنِي بني إسرائيل، فَيَلُونُ هُمُ ما كانوا يَلُونَهُ من الأعمالِ الشاقَّةِ، فقالوا لِفِرْعَوْنَ: إنه يُوشِيكَ - إن استمر هذا الحال - أن يموتَ شيوخُهُم وِعِلْمَانُهُم لا يقتلون، ونسأؤُهُم لا يمكن أن يُقَمَّنَ بما يَقُومُ به رجالُهُم من الأعمالِ، فَيَخْلُصَ إلينا ذلك. فَأَمَرَ بِقَتْلِ الولدانِ عَامًا وَتَرْكِهِمُ عَامًا، فَوُلِدَ هَارُونَ - عليه السلام - في السنة التي يَتْرُكُونَ فيها، ووُلِدَ موسى - عليه السلام - في السنة التي يَقْتُلُونَ فيها الولدانِ، وكان لِفِرْعَوْنَ أَناسٌ مُوَكَّلُونَ بذلك، وَقَوَابِلُ يُدْرَنُ على النساءِ، فَمَنْ رَأَيْتَها قد حَمَلَتْ أَحْصُوا اسْمَهَا، فإذا كانَ لِأَدْتِهَا لا يَقْبَلُهَا^(١) إلا نساءَ الْقَبِيضِ، فإن وُلِدَتِ المرأةُ جاريةً تَرَكَتْها وَذَهَبْنَ، وإن وُلِدَتِ غلامًا دَخَلَ أولئك الذبَّاحُونَ بأيديهِم الشَّفَارَ المُرَهْفَةَ^(٢)، فقتلوه وَمَضُوا قَبْحَهُمُ اللهُ. فلما حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى - عليه السلام - به لم يظهرَ عليها مَخَالِيلُ الحَمْلِ كَثِيرَها، ولم تَفْطِنَ لها الدَّايَاتِ، ولكن لما وَضَعَتْه ذَكَرًا ضَاقَتْ به دُرْعًا وَخَافَتْ عليه خَوْفًا شَدِيدًا وَأَحْبَبَتْهُ حُبًّا زَائِدًا. وكان مُوسَى - عليه السلام - لا يراه أَحَدٌ إلا أَحَبَّهُ، فالسعيدُ من أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبْرَةً مِثْقَلَةَ ذُرِّيَّةٍ﴾ [٣٩]. فلما ضَاقَتْ دُرْعًا به أَلْهِمَتْ فِي سِرِّها، وَأَلْقَيْتُ فِي خَلْدِها، وَوُفِّتَ فِي رُوجِها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَاكْلِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾. وذلك أَنَّهُ كانت دارُها على حَافَةِ النَّبيلِ، فاتخذت تَابُوتًا، ومَهَّدت فيه مَهْدًا، وجعلت تُرَضِعُ وَلَدَها،

(١) أي: لا يولدها إلا نساء القبض، والقابلة: المرأة التي تأخذ الولد عند الولادة.

(٢) المرهفة: المستنة المحددة.

فإذا دخل عليها أحدٌ ممن تخافه جعلته في ذلك التَّابُوتِ، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها. فلما كان في بعض الأيام دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التَّابُوتِ، وأرسلته في البحر وذهبت عن أن تربطه، فذهبت مع الماء واحتملته، حتى مرَّ به على دارِ فرعون، فالتقطه الجوارى فاحتملته، فذهبت به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، وخشيين أن يقتتن عليها في فتجه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلامٌ من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأباه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال: ﴿فَالْقَطْعُ مَالٌ فَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لامُ العاقبة لا لامُ التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نُظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل، لأن معناه أن الله - تعالى - قيضهم لالتقاطه ليجعل لهم عدوًّا وحزنًا فيكون أبلغ في إيصالِ حذرهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ يَخُونُ هُنَا كَأَنَّهُ خَطْبُيْنَ﴾. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق: «وموسى في علم الله السابق لفرعون عدوًّا وحزنًا، قال الله تعالى: ﴿وَرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ يَخُونُ هُنَا كَأَنَّهُ يَحْذَرُونَ﴾، وقلتم أنتم: لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصرًا، والله تعالى يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَإِنَّكَ لَا تَقْتُلُونَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠)، يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تحاج عنه وتذب دونه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَإِنَّكَ﴾، فقال: أما لك فتع، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه. وقد تقدم في حديث الفُشُونِ في «سورة طه» (١١) هذه القصة بطولها، من رواية ابن عباس مرفوعاً، عند النسائي وغيره. وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، أي: أرادت أن تتخذه ولداً وتبناها، وذلك أنها لم يكن لها ولدٌ منه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يدرُونَ ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة، والحجة البالغة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِطًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ أَنَّ رَبَّنَا عَلَّمَهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١) وَقَالَتْ لِأَخْتَيْهِ قُصَيْبَةَ بَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آمِيهِ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو عبيدة، والضحاك، والحسن البصري، وقتادة، وغيرهم. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾، أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبّر بحالها، لولا أن الله تبناها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لَوْ لَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّمَهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١) وَقَالَتْ لِأَخْتَيْهِ قُصَيْبَةَ، أي: أمرت ابنتها - وكانت كبيرة نعي

ما يُقَالُ لها - فقالت لها: ﴿فُصِيحٌ﴾، أي: أتبعي أثره، وخُذِي حَبْرَهُ، وَتَطْلُبِي شَأَنَهُ مِنْ نَوَاجِي الْبَلَدِ. فَخَرَجَتْ لَذَلِكَ، ﴿بَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾، قال ابنُ عَبَّاسٍ: عَنْ جَانِبٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾، عَنْ بَعْدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تُرِيدُهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَارِ فِرْعَوْنَ، وَأَحْبَبَتْهُ امْرَأَةُ الْمَلِكِ، وَاسْتَطْلَقَتْهُ مِنْهُ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَضِيعَ الَّتِي فِي دَارِهِمْ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا ثَدْيًا، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ امْرَأَةً تَصْلُحُ لِرِضَاعَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ. وَلَمْ تَظْهَرِ ذَلِكَ وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾، أَي: تَحْرِيمًا قَدْرِيًّا، وَذَلِكَ لِكِرَامَةِ اللَّهِ لَهُ صَانَهُ عَنْ أَنْ يَرْضَعَ غَيْرَ ثَدْيِ أُمِّهِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى رُجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ لِإَرْضَاعِهِ وَهِيَ آمِنَةٌ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَائِفَةً. فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَائِرِينَ فِيمَنْ يُرْضِعُهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَعْتُهُنَّ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ أَخَذُوهَا، وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يُدْرِيكَ نَصْحَهُمْ لَهُ وَشَفَقَتَهُمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: نَصَحْتُهُمْ لَهُ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي ظُورَةِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءُ مَنَفَعَتِهِ. فَأَرْسَلُوهَا. فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَ وَخَلَصَتْ مِنْ أَذَاهُمْ ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنَزَلِهِمْ، فَدَخَلُوا بِهِ عَلَى أُمِّهِ، فَأَعْطَتْهُ ثَدْيَهَا فَالْتَمَعَهُ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى، وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا، وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ لثَدْيِهَا. ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَسِيَّةُ أَنْ تُقِيمَ عِنْدَهَا فَتَرْضِعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدَكَ. وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ. فَأَجَابَتْهَا امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النِّفْقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوَى وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ. فَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بِوَلَدِهَا رَاضِيَةً مُرْضِيَةً، قَدْ أَبْدَلَهَا اللَّهُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهَا أَمْنًا، فِي عِزٍّ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍ.

[٥١٠٦] ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعة الخير، كمثل أم موسى تُرضع ولداً وتأخذ أجرها»^(١). ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة، أو نحوه، والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَبَعْدَ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آيَةِ رَبِّهِ كَمَا نَفَخْنَا فِيهَا مِنَّا﴾، أَي: بِهِ، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾، أَي: عَلَيْهِ، ﴿وَلِنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أَي: فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهَا، وَجَعَلِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْهُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَّتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ طَبْعًا وَشَرْعًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أَي: حُكَّمَ اللَّهُ فِي أَعْمَالِهِ وَعَوَاقِبِهَا الْمَحْمُودَةِ، الَّتِي هِيَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَرُبَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيهًا إِلَى النُّفُوسِ، وَعَاقِبَتُهُ مَحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَنَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

(١) لم أره مسنداً بهذا اللفظ. وأخرج ابن عدي ٢٩٥/١ عن معاذ مرفوعاً «مثل الذي يحج من أمي عن أمي مثل أم...»

نَفْسِي فَأَعْرِزْ لِي فَفَعَرَ لَهُمْ إِكْرَهُمُ الْفَقُورِ الرَّجِيمِ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً
لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَبْدَأَ أَمْرِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى، آتَاهُ اللَّهُ حُكْماً وَعِلْماً، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الثُّبُوءَ، «وَكَذَلِكَ نَجَزَى الْمُجْرِمِينَ». ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سَبَبَ وَضُوءِهِ إِلَى مَا كَانَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مِنَ الثُّبُوءِ وَالتَّكْلِيمِ فِي قُضِيَّةِ قَتْلِهِ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ، الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا»، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَقَالَ ابْنُ الْمُنْكَدَرِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ ذَلِكَ نِصْفَ النَّهَارِ. وَكَذَلِكَ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ. فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، أَي: يَتَنَازَعَانِ، وَبِتَنَازَعَانِ، هَذَا مِنْ شِبَعَتِهِ، أَي: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، أَي: قِبْطِيٍّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ. فَاسْتَعَاثَ الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَةً، وَهِيَ غَفْلَةُ النَّاسِ، فَعَمِدَ إِلَى الْقِبْطِيِّ «فَوَكَّرَهُ مَوْتِينَ فَفَضَى عَلَيْهِ». قَالَ مُجَاهِدٌ: وَكَرَّهَ، أَي: طَعَنَهُ بِجُمُوعِ كَفَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَرَّهَ بَعْضاً كَانَتْ مَعَهُ. «فَفَضَى عَلَيْهِ»، أَي: كَانَ فِيهَا حَتْمُهُ فَمَاتَ، «قَالَ» مُوسَى: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ» ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَعْرِزْ لِي فَفَعَرَ لَهُمْ إِكْرَهُمُ الْفَقُورِ الرَّجِيمِ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، أَي: بِمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزَّةِ وَالْمُنَّةِ «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً»، أَي: مُعِيناً «لِلْمُجْرِمِينَ»، أَي: الْكَافِرِينَ بِكَ، الْمُخَالَفِينَ لِأَمْرِكَ.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَرْتَفِبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَخْبِراً عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ «فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً»، أَي: مِنْ مَعْرَةِ مَا فَعَلَ، «يَرْتَفِبُ»، أَي: يَتَلَفَّتُ وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ يُقَاتِلُ آخِرَ، فَلَمَّا مَرَّ مُوسَى اسْتَصْرَخَهُ عَلَى الْآخِرِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ». أَي: ظَاهِرُ الْعَوَايَةِ كَثِيرُ الشَّرِّ. ثُمَّ عَزَمَ عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ، فَاعْتَقَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِحَوْرِهِ وَضَعْفِهِ وَذَلِيلَتِهِ أَنَّ مُوسَى إِثْمًا يَرِيدُ قُضْدَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ، فَقَالَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ: «يَبْطِشُ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ لَقِيَهَا مِنْ فِجْهٍ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ فَأَلْقَاهَا عِنْدَهُمْ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ، فَاشْتَدَّ حَتْمُهُ، وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، فَطَلَّبُوهُ وَبِعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضِرُوهُ لِذَلِكَ.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ

النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قَالَ تَعَالَى: «وَجَاءَ رَجُلٌ»، وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ، فَسَلَكَ طَرِيقاً أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بَعِثُوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: يَا مُوسَى، «إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ»، أَي: يَتَشَاوِرُونَ فِيكَ «لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ»، أَي: مِنَ الْبَلَدِ، «إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ».

﴿فَرَجَّ مِنْهَا حَافِيًا يَرْقُبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾

لَمَّا أَخْبِرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَّالًا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَحَدَهُ، وَلَمْ يَأْلَفْ ذَلِكَ قَبْلَهُ، بَلْ كَانَ فِي رِفَاهِيَّةٍ وَنَعْمَةٍ وَرِيَّاسَةٍ، ﴿فَرَجَّ مِنْهَا حَافِيًا يَرْقُبُ﴾، أَي: يَتَلَمَّسُ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أَي: مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ. فَذَكَرُوا أَنَّ اللَّهَ - سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى - بَعَثَ لَهُ مَلَكًا عَلَى فَرَسٍ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى الطَّرِيقِ، فَاللهُ أَعْلَمُ. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾، أَي: أَخَذَ طَرِيقًا سَالِكًا مَهْيَعًا فَرِحَ بِذَلِكَ، ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أَي: إِلَى الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ، فَفَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ، وَهَدَاهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾، أَي: وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا، وَكَانَ لَهَا بَثْرٌ تَرُدُّهُ رِعَاءُ الشَّاءِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾، أَي: جَمَاعَةً ﴿مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أَي: تُكَفِّفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرُدَّ مَعَ غَنَمِ أَوْلَادِكِ الرِّعَاءِ لِثَلَاثِ يَوْمَيْنِ. فَلَمَّا رَأَاهُمَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَقَّ لَهُمَا وَرَجِمَهُمَا، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، أَي: مَا خَبَرَكُمَا لَا تَرْدَانِ مَعَ هَؤُلَاءِ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، أَي: لَا يَحْصُلُ لَنَا سَقْيٌ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ هَؤُلَاءِ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، أَي: فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾.

قال أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، أَنبَأَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ الْأَوْدِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، قَالَ: فَلَمَّا فَرَعُوا أَعْدَاؤُا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبَثْرِ، وَلَا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتْهُ، فَأَتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذَنْبِيًا وَاحِدًا حَتَّى رَوَيْتِ الْعَنَمَ. إسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قال ابن عباس: سَارَ مُوسَى مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ، لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلُ وَالرَّقْ شَجَرِ، وَكَانَ حَافِيًا فَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمِهِ. وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ وَهُوَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ بَطَنَهُ لَاصَقَ بظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ خَضِرَةَ الْبَقْلُ لَثَرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لِمَحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ ثَمَرَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَالسُّدِّيُّ: جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَمْرِو الْعَنْقَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: حَتَّثْتُ عَلَى جَمَلٍ لِيْلَتَيْنِ، حَتَّى صَبَّحَتْ مَدْيَنَ، فَسَأَلْتُ عَنْ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوَى إِلَيْهَا مُوسَى، فَإِذَا شَجَرَةٌ خَضْرَاءُ تَرَفُّ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا جَمَلِي - وَكَانَ جَائِعًا - فَأَخَذَهَا جَمَلِي فَعَالَجَهَا سَاعَةً، ثُمَّ لَفَّظَهَا. فَدَعَا اللهُ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثُمَّ انصرفت^(١). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللهُ مِنْهَا مُوسَى، كَمَا سَيَأْتِي، وَاللهُ

(١) موقوف ضعيف. الحسين بن عمرو، قال عنه أبو زرعة: كان لا يصدق. وفيه عننة أبي إسحق، وهو مدلس.

اعلم. وقال السُّدِّي: كانت من شجر السَّمُر. وقال عطاء بن السائب: لما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أَسْمَعُ الْمَرَأَةَ.

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمَهُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ وَكَيْلٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما رجعت المرأتان سريعا بالنعيم إلى أبيهما أنكر حالهما ومجيئهما سريعا، فسألها عن خبرهما، فقضتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه ليدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - أنه قال: جاءت مستترية بكم ذرعا^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر - رضي الله عنه - جاءت تمشي على استحياء، فائلة بثوبها على وجهها، ليست يسلف من النساء، خراجة ولاجة، هذا إسناد صحيح. قال الجوهرى: السلف من الرجال: الجسور. ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبا مطلقا لثلا يوهم ربية، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، يعني: ليئيبك وبكافتك على سقيك لنعننا. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾، أي: ذكر له ما كان من أمره، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: طب نفسا وقر عيناً، فقد خرجت من مملكتهم فلا حركم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل: من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي - عليه السلام - الذي أرسل إلى أهل مدين. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. ورواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عبد العزيز الأوسي، حدثنا مالك ابن أنس: أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه موسى القصة، قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

[٥١٠٧] وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعيد العنزي أنه وقد على رسول الله - ﷺ - فقال له: مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى، هديت^(٢). وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى - عليه السلام - بمدة طويلة، لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِّنْكُمْ يَبْعِدُونَ﴾. وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل - عليه السلام - بنص القرآن، وقد علم أنه

(١) درع المرأة: قميصها - والمذرة: ثوب لا يكون إلا من صوف.

(٢) ضعيف. أخرجه البزار ٢٨٢٨ والطبراني ٦٣٦٤ من حديث سلمة بن سعد، وإسناده ضعيف، قال في «المجمع» ٦٥٩٠: فيه من لم أعرفهم، وكذا قال الحافظ في «الإصابة» ٦٥/٢.

كان بين موسى والخليل - عليهما السلام - مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل: إن شُعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احترازٌ من هذا الإشكال. ثم من المُقَوِّي لكونه ليس بِشُعيبٍ أنه لو كان إِيَّاه لأوشك أن يُنصَّص على اسمه في القرآن هاهنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصحَّ إسناده^(١)، كما سنذكره قريباً إن شاء الله. ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون. والله أعلم. وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: ويثرون هو ابن أخي شُعيب عليه السلام. وعن أبي حمزة، عن ابن عباس: الذي استأجر موسى يثري صاحب مدين. رواه ابن جرير، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لِمَ كَذَبْتُمَا يَتَابَتِ اسْتَجْرَةُ إِيَّاكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْقَوِيِّ الْآيِينَ﴾^(٢)، أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل. قيل: هي التي ذهبت وراء موسى - عليه السلام - قالت لأبيها: ﴿يَتَابَتِ اسْتَجْرَةُ﴾، أي: لِرغية هذه العنم. قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: ﴿إِيَّاكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْقَوِيِّ الْآيِينَ﴾، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنه لما جثت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورثاتي، فإذا اختلفت الطريق فاحذني بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه. قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تقفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرَمِي مَنُونَهُ﴾، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَابَتِ اسْتَجْرَةُ إِيَّاكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَةِ الْقَوِيِّ الْآيِينَ﴾. قال: ﴿إِيَّاكَ أُرِيدُ أَنْ أَكْحَمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ﴾، أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه، ويُروجه إحدى ابنتيه هاتين. قال شعيب الجبلي: وهما صفورا، وليا. وقال محمد بن إسحاق: صفورا وشرفا، ويقال: ليا. وقد استدلل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال: بعثك أحد هذين العبدین بمئة. فقال: اشتريت. أنه يصح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾، أي: على أن تزعي غنمي ثمانين سنين، فإن تَبَرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي ثمان كفاية، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدْتِ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، أي: لا أشاقك، ولا أؤذيك، ولا أماريك. وقد استدللوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال: بعثك هذا بعشرة نقداً، أو بعشرين نسيئة، أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح.

[٥١٠٨] وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود: «من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا»^(٢). على هذا المذهب. وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظراً، ليس هذا موضع بسطه لطوله. والله أعلم.

ثم قد استدلل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية. واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه في كتابه السنن، حيث قال:

(١) سيأتي بعد قليل إن شاء الله.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٣٤٦١ والحاكم ٤٥/٢ وابن حبان ٤٩٧٤ والبيهقي ٣/٣٤٣ من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن من أجل محمد بن عمرو، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

[٥١٠٩] باب استنجار الأجير على طعام بطنه: حدثنا محمد بن المصنفى الجهمي، حدثنا بقر بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن زياد قال: سمعت عتبة بن النضر يقول: كُنا عند رسول الله - ﷺ - فقراً: ﴿طَسَمَ ۙ﴾، حتى إذا بلغ قصة موسى قال: «إن موسى أجر نفسه ثمانين سنين - أو: عشر سنين - على عفة فزجه وطعام بطنه»^(١). وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف؛ لأن مسلمة بن علي - وهو الخشني الدمشقي البلاطي - ضعيف الرواية عند الأئمة، ولكن قد روي من وجه آخر، وفيه نظر أيضاً.

[٥١١٠] فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة - وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة - عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن زياد اللخمي قال: سمعت عتبة بن النضر السلمي - صاحب رسول الله - ﷺ - يُحدث أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن موسى أجر نفسه بعفة فزجه، وطعمة بطنه»^(٢). وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٣)، يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشرًا فمن عندي، فإنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، أي: فلا حرج علي مع أن الكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَجَلَّ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

[٥١١١] وقال رسول الله - ﷺ - لحمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه، وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر - فقال: «إن شئت فُصم، وإن شئت فأفطر»^(٤)، مع أن فعل الصيام راجع من دليل آخر. هذا وقد دل على أن موسى - عليه السلام - إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مزوان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبيرة قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس - رضي الله عنه - فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. هكذا رواه البخاري، وهكذا رواه حكيم بن جبيرة وغيره، عن سعيد بن جبيرة. ووقع في «حديث الفتون»^(٥)، من رواية القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبيرة: أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية. والأول أشبه. والله أعلم. وقد روي من حديث ابن عباس مرفوعاً.

[٥١١٢] قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال:

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٤٤٤، وإسناده ضعيف جداً، له علتان: بقية بن الوليد مدلس، وقد عنعن، ومسلمة بن علي الخشني، متروك الحديث روى مناهيره كثيرة، راجع الميزان.

(٢) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٩٤٢ و١٩٤٣ ومسلم ١١٢١ وأبو داود ٢٤٠٢ والترمذي ٧١١ والنسائي ١٨٧/٤ - ١٨٨ وابن

ماجه ١٦٦٢ وأحمد ٤٦/٦ و١٩٣ وابن حبان ٣٥٦٠ من حديث عائشة.

(٤) تقدم في سورة طه.

«سألت جبريلَ: أيُّ الأجلينِ قضى موسى؟ قال: أتمَّهُمَا وأكَمَلَهُمَا^(١). ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الحميدي، عن سفيان - وهو ابن عُيينة - حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب - وكان من أسناني أو أصغرَ مني، فذكره. قلت: وإبراهيمُ هذا ليس بمعروف. ورواه البزارُ عن أحمد بن أبان القُرشي، عن سفيان بن عُيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - فذكره. ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً عن ابن عباسٍ إلا من هذا الوجه.

[٥١١٢م] وقال ابن أبي حاتم: قُرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، عن يحيى بن ميمون الحضرمي، عن يوسف بن سزح أن رسول الله - ﷺ - سُئل: أيُّ الأجلينِ قضى موسى؟ قال: لا أعلمُ لي. فسأل رسول الله - ﷺ - جبريلَ، فقال: لا أعلمُ لي. فسأل جبريلَ ملكاً فوقه فقال: لا أعلمُ لي. فسأل ذلك الملكَ ربه - عزَّ وجلَّ - عما سأله عنه جبريلُ عما سأله عنه محمدٌ - ﷺ - فقال الربُّ - سبحانه وتعالى: أبرَّهُما وأبقاهُما. أو قال: أزكاهُما^(٢). وهذا مُرسَلٌ. وقد جاء مُرسلاً من وجه آخر.

[٥١١٣] فقال سُنيِد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: قال مجاهد: إن النبي - ﷺ - سأل جبريلَ: أيُّ الأجلينِ قضى موسى؟ فقال: سوف أسأل إسرأيلَ. فسأله فقال: سوف أسأل الربَّ عزَّ وجلَّ. فسأله فقال: أبرَّهُما وأوفاهُما^(٣).

[٥١١٤] طريقٌ أخرى مُرسلة أيضاً، قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: سُئل رسول الله - ﷺ -: أيُّ الأجلينِ قضى موسى؟ قال: أوفاهُما وأتمَّهما^(٤). فهذه طُرُقٌ مُتعاضدة، ثم قد روي هذا مرفوعاً من رواية أبي ذرٍّ - رضي الله عنه -.

[٥١١٥] قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق ابن إدریس، حدثنا عؤيد بن أبي عمران الجوني، عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ: أن النبي - ﷺ - سُئل: أيُّ الأجلينِ قضى موسى؟ قال: أوفاهُما وأبرَّهُما. قال: وإن سُئِلت أيُّ المرأتين تزوج؟ فقل:

(١) أخرجه الطبري ٢٧٤٠٩، وهو ضعيف لأجل إبراهيم بن يحيى، وهو مجهول. وهذا الإسناد أخرجه الحميدي ٥٣٥ وأبو يعلى ٢٤٠٨ لكن سقط من إسناد أبي يعلى «إبراهيم بن يحيى» فحسبه الشيخ سليم أسد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٥٠: رجال أبي يعلى رجال الصحيح غير الحكم بن أبان، وهو ثقة اه وهذا منهما جرياً على ظاهره. وأخرجه البزار ٢٢٤٥ وفيه ذكر إبراهيم هذا. وكذا عند الحاكم ٤٠٧/٢ لكن قال: عن حفص بن عمر العدني وإبراهيم بن يحيى كلاهما عن الحكم به، وضححه، وتعقبه الذهبي بقوله: حفص واه وإبراهيم لا يعرف. اه وتابعهما إبراهيم بن أعين وهو ضعيف كما في «الميزان» (٤٥).

وورد من حديث أبي ذر أخرجه الطبراني في «الصغير» ٨١٥ والبزار ٢٢٤٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٥٢: إسناد البزار، فيه إسحق بن إدریس، وهو متروك. وإسناد الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» حسن اه قلت: بل في إسناد الطبراني عويد الجوني، وهو متروك. وورد مرسلًا كما سيأتي، فلعل الحديث يتقوى بمجموع طرقه وشواهد، والله أعلم، وانظر «الصحيحة» ١٨٨٠.

(٢) إسناده ضعيف، فهو مرسل، ومرسله مجهول.

(٣) ضعيف جداً. فهو مرسل، وسنيِد ضعيف، وابن جريج عن مجاهد منقطع.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٧٤٠٨ مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، وابن وكيع ضعيف، وأبو معشر ضعفه غير واحد. وبعضه شاهد لما تقدم، وبعضه الآخر غريب، وانظر ما بعده.

الصغرى منهما^(١). ثم قال البزار: لا نعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عوبد بن أبي عمران، وهو ضعيف، وقد روي أيضاً نحوه من حديث عتبة بن الثدر بزيادة غريبة جداً.

[٥١١٦] فقال أبو بكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن الثدر يقول: إن رسول الله - ﷺ - سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما وأفاهما. ثم قال النبي - ﷺ -: إن موسى - عليه السلام - لما أراد فراق شعيب - عليه السلام - أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به. فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لؤن. قال: فما مرّت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها، وولدت ثنتين وثلاثاً، كل شاة ليس فيها فشوش، ولا ضبوب، ولا كمشة تُفوت الكف، ولا تُعول. وقال رسول الله - ﷺ -: إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها، وهي السامرية^(٢). هكذا أورده البزار. وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا، فقال:

[٥١١٧] حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن الثدر السلمي - صاحب رسول الله - ﷺ - يحدث أن رسول الله - ﷺ - قال: إن موسى - عليه السلام - أجر نفسه ببيعة فزجه وطعمته بطيه. فلما وفى الأجل قيل: يا رسول الله، أي الأجلين؟ قال: أبرهما وأفاهما. فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب لؤن من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسنة. فانطلق موسى - عليه السلام - إلى عصاه فسماها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة: قال: فأتت وأنت، ووضع كلاً قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين، ليس فيها فشوش. قال يحيى: ولا ضبوب. وقال صفوان: ولا ضبوب - قال أبو زرعة: الصواب طنوب - ولا عزوز ولا ثعول ولا كمشة تُفوت الكف. قال النبي - ﷺ -: لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم، وهي السامرية^(٣).

وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان قال: سمعت الوليد قال: سألت ابن لهيعة: ما الفشوش؟ قال: التي تفس بلبيها واسعة الشخب. قلت: فما الطنوب؟ قال: الطويلة الضرع تجره. قلت: فما العزوز؟ قال: ضيقة الشخب. قلت: فما الثعول؟ قال: التي ليس لها ضرع إلا كهينة حلماتين. قلت: فما الكمشة؟ قال: التي تُفوت الكف، كمشة الضرع، صغير لا يدركه الكف. مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري - وفي حفظه سوء - وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم. وينبغي أن يروى: ليس فيها فشوش ولا عزوز، ولا ضبوب ولا ثعول، ولا كمشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة. وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك - موقوفاً عليه - ما يقارب بعضه بإسناد جيد، فقال: حدثنا محمد بن المثنى،

(١) إسناده ضعيف جداً، أخرجه البزار ٢٢٤٤ وفيه إسحاق بن إدريس، وهو متروك. وشيخه «عوبد الجوني» متروك أيضاً، وقد تفردا بذكر «الصغرى منهما» وأما أصل الحديث فله شواهد وطرق كما تقدم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه البزار ٢٢٤٦ والطبراني ١٧/١٣٤ - ١٣٥ وفيه ابن لهيعة، وقد تفرد بهذا الزيادة، وهي غريبة جداً - كما قال الحافظ ابن كثير - وأما صدره فله شواهد كما تقدم.

(٣) إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، وقد تفرد فيه بالفاظ منكرا، والظاهر أنه رواه بعد اختلاطه، وعجزه باطل شبه موضوع.

حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: لما دعا نبي الله موسى - عليه السلام - صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلک ولذها. فعمد فرفع خيالا على الماء، فلما رأيت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدت كلهن بلقا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَدُوعٍ أَوْ أَمْطَمَطُورٌ ﴾ (٢٩) ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِلَىٰ آتَا اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٠) ﴿ وَأَنْ أَلِيَّ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا أَهْتَزَّ بِكَفِّهَا جَانًّا وَلَىٰ مَدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَّ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾ (٣١) ﴿ أَسْأَلُكَ بِدَعْوَىٰ جِبِّكَ تَخْرُجُ بِيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٣٢)

قد تقدّم في تفسير الآية قبلها أن موسى - عليه السلام - قضى أتم الأجلين وأوقاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾، أي: الأكمل منهما، والله أعلم. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: قضى عشر سنين، وبعدها عشرًا أخرى. وهذا القول لم أزه لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فزعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من العثم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً، فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾، أي: رأى ناراً نضية له على بُعد، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، أي: حتى أذهب إليها، ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾. وذلك لأنه كان قد أضل الطريق، ﴿أَوْ بَدُوعٍ أَوْ أَمْطَمَطُورٌ﴾، أي: قطعة منها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: تتدفقون بها من البرد. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لخب الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه: ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: رأيت الشجرة التي نودي منها موسى - عليه السلام - سمرة خضراء ترف. إسناد مقارب^(١). وقال محمد بن إسحاق، عن بعض من لا يتهم، عن وهب بن منبه قال: شجرة من العليق، وبعض أهل الكتاب يقول: من العوسج. وقال قتادة: هي من العوسج، وعصاه من العوسج. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَمْوِسَّ إِلَىٰ آتَا اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين،

(١) بل ضعيف. له علل ثلاث، الأولى: سفيان بن وكيع ضعفه غير واحد. والثانية: أبو عبيدة لم يدرك أباه عبد الله بن مسعود، والثالثة: الأعمش مدلس وقد عنعن، والخبر شبه موضوع.

الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ مُمَاتِلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، سُبْحَانَهُ!

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ﴾ أي: التي في يديك. كما قرره على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْسُكُ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَاكَ أَنْوَكْتُهَا وَعَلَيْهَا وَأَمْسُكُ بِهَا عَلَيَّ غَنِي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى. والمعنى: أما هذه عصاك التي تُمْسِكُهَا؟ ﴿أَلْفَمَا يَمْسُكُ﴾ (١٨) فَأَلْفَمَهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَمُ (٢٠) [طه: ١٧ - ٢٠]، فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُكَلِّمُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ. كما تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي «سورة طه». وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَيَّرَ﴾، أي: تَضَرَّبَ ﴿كَأَنَّمَا جَاءَهُ﴾: أي: فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ مَعَ عِظَمِ خَلْقَتِهَا وَقَوَائِمِهَا وَأَتْسَاعِ فَوْعِهَا، وَاصْطِطْكَائِكِ أُنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا، فَتُنْحَدِرُ فِي فِيهَا تَتَقَعَّقُ، كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ. فعند ذلك ﴿وَلَنْ نُنْذِرَكَ وَلَا نَكْفُرُ بِكَ﴾، أي: وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَفِتُ، لِأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ. فلما قال الله له: ﴿يَمْسُكُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، رَجَعَ فَوْقَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿أَسَأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْحِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سُورٍ﴾. أي: إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَلَالُأً، كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرَقِ. ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُورٍ﴾، أي: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ إِلَيْكَ جَائِعُونَ﴾، قال مجاهد: مِنَ الْفَرْعِ. وقال قتادة: مِنَ الرَّعْبِ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مِمَّا حَصَلَ لَكَ مِنْ خَوْفِكَ مِنَ الْحَيَّةِ. والظاهر أَنَّ الْمُرَادَ أَعْمُ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ أَمِيرٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ، وَهِيَ يَدُهُ، إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ. وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْاِقْتِدَاءِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَوْ يَخَافُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبِهِ الثَّقَةُ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم، عن مجاهد، قال: كان موسى - عليه السلام - قد ملئ قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم، إني أذراً بك في نحره، وأعوذ بك من شره. ففرغ الله ما كان في قلب موسى - عليه السلام - وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الجمار.

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ﴾، يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسمى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، أي: وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكِبْرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾، أي: خَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، مُخَالِفِينَ لِذِي اللَّهِ. والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْدِينَا أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾ (٣٥)

لما أمره الله - تعالى - بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، يعني ذلك القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، أي: إِذَا رَأَوْنِي. ﴿وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، وذلك أن موسى - عليه السلام - كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خير بينها وبين التمرة أو الدرّة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا

قال: ﴿وَأَسَلْتُ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ﴿٣٧﴾ بِفَقْهَرَأ قَوْلِي ﴿٣٨﴾ وَأَحْمَلُ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٣٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٤٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى ﴿٤١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٢٧ - ٣٢]، أي: يُؤنِّسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد. ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾، أي: وزيراً معيناً ومُقرباً لأمري، ﴿يَصِدِّقُنِي﴾، فيما أقوله وأخبر به عن الله - عز وجل - لأن خبير اثنين أنجع في النفوس من خبير الواحد، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يَصِدِّقُنِي﴾، أي: يُبين لهم عني ما أكلّمهم به، فإنّه يفهم عني ما لا يفهمون. فلما سأل ذلك قال الله تعالى: ﴿سَسُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، أي: سَتَقْرِي أَمْرَكَ، وَتُعَزُّ جَانِبَكَ بِأَخِيكَ، الذي سألت له أن يكون نبيّاً معك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ رَزَمْنَاهُ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مریم: ٥٣]، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظمَ مِنّه على أخيه من موسى على هارونَ عليهما السلام، فإنه شَفَعَ فيه حتى جعله الله نبيّاً ورَسُولاً معه إلى فِرْعَوْنَ ومَلئِهِ، ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا﴾، أي: حُجَّةً قاهرة، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا﴾، أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكمما بسبب إبلاغكم آيات الله، كما قال الله تعالى لرسوله محمد - ﷺ -: ﴿يَأْتِيَا الرَّسُولَ بِبَعْضِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَحْسَبُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩]، أي: وكفى بالله ناصرًا ومُعينًا ومُؤيدًا. ولهذا أخبرهما أنّ العاقبة لهما ولمن اتَّبَعَهُمَا في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِيكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]. وَوَجَّهَ ابنُ جرير على أن المعنى ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثم يبتدئ فيقول: ﴿يَأْتِيَانِي أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، تقديره: أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ بِأَيِّتِنَا. ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَىٰ وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي آيَاتِنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارونَ إلى فِرْعَوْنَ ومَلئِهِ، وعرضه ما أتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا عن الله - عز وجل - من توحيده واتباع أوامره. فلما عاين فِرْعَوْنَ ومَلؤُهُ ذلك وشاهدوه وتحفّفوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة، وذلك لبطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَىٰ﴾، أي: مُفْتَعَلٌ مصنوعٌ وأرادوا معارضة بالحيلة، فما صعد معهم ذلك.

وقولهم: ﴿وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي آيَاتِنَا الْأُولَىٰ﴾، يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ما رأينا أحدًا من آبائنا على هذا الدين، ولم نَرِ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مع الله آلهةً أخرى. فقال موسى - عليه السلام - مُجيباً لهم:

﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِي﴾، يعني مني ومنكم، وسيُفصل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾، أي: النصرَةُ والظفرُ والتأييدُ، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: المشركون بالله.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهَنَّمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِي مُوسَىٰ وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الكاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْتَبِرُ الْحَقَّ وَظَنًّا أَنَّهُمْ إِنِّسَانًا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ وافتراءه في دَعْوَى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ فَوْقَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤]. وذلك لأنه دَعَاهُمْ إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك لقلَّة عقولهم وسخافة أذهانهم، ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، قال تعالى إخباراً عنه: ﴿فَحَمَّرَ فَأَذَىٰ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٧﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَتَّقِي ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٦]. يعني: أنه جَمَعَ قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصْرِحاً لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقم الله تعالى منه، فَجَعَلَهُ عِبْرَةً لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجهَ موسى الكليم بذلك فقال: ﴿لَئِن أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهَنَّمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِي مُوسَىٰ﴾، أي: أمر وزيره هامان ومدير رعيته وعشيرته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، يعني ليُشجذ له أجزراً لبناء الصرح، وهو القصرُ المُنِيفُ الرفيعُ العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَنَّمُنْ آتِنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْمَانَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِي مُوسَىٰ وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِيْرِعُونَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]، وذلك لأن فِرْعَوْنَ بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناءً أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دَعْوَى إله غير فِرْعَوْنَ، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الكاذِبِينَ﴾، أي: في قوله إن ثم رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله أرسله، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال: ﴿لَئِن أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. وهذا قول ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْتَبِرُ الْحَقَّ وَظَنًّا أَنَّهُمْ إِنِّسَانًا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾﴾، أي: أطعوا وتجبَّروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٣٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ ﴿٤٠﴾﴾ [الفجر: ١٣ - ١٤]. ولهذا قال تعالى هاماناً: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، أي: أغرقناهم في البحر في صبيحية واحدة، فلم يبقَ منهم أحدٌ، ﴿فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، المجرمين، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾، أي: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرسل وتعميل الصانع، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أي: فاجتمع عليهم جزئي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كُنُوزٌ فَلَا تَأْمُرُ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فِرْعَوْنَ على السنة المؤمنين من عباده المثبِّعين رُسُلَهُ، وكما

أنهم في الدنيا مَلْعُونُونَ عَلَى السَّنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ، كَذَلِكَ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾. قال قتادة: وهذه الآية كقولهِ تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَسَنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الرَّفُودُ﴾ ﴿٤٤﴾ [هود: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ - عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ - مِنْ إِنْزَالِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾، يَعْنِي أَنَّهُ بَعْدَ إِنْزَالِ التَّوْرَةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَةٍ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَكَ وَالْمُؤْتَمِكِينَ بِالْحَاطِئَةِ﴾ ﴿٤١﴾ فَمَعَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ لِنَذْرَةِ رَبِّيَّةٍ ﴿٤٢﴾ [الحاقة: ٩ - ١٠]. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ الْوَهَّابِ قَالَا: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَمَا أَنْزَلْتَ التَّوْرَةَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ مُسَّخُوا قَرْدَةً، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ الْآيَةَ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ أَبِي جَمِيلَةَ الْأَعْرَابِيِّ، بِنَحْوِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ الْبُرَّازِيُّ فِي مَسْنَدِهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَلِيِّ الْفَلَاسِ، عَنْ يَحْيَى الْقَطَّانِ، عَنْ عَوْفٍ، عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْقُوفًا.

[٥١١٨] ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ عَوْفٍ، عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ. قَالَ: مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا قَبْلَ مُوسَى، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾، أَي: مِنَ الْعَمَى وَالْعَمَى، ﴿وَهُدًى﴾ إِلَى الْحَقِّ، ﴿وَرَحْمَةً﴾، أَي: إِرْشَادًا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أَي: لَعَلَّ النَّاسَ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِسَبِيلِهِ.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ لَفَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُتَّبِعًا عَلَىٰ بُرْهَانِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ خَبْرًا كَانَ سَامِعَهُ شَاهِدًا وَرَاءَ لِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّي لَا يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْكِتَابِ، نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَزْيَمٍ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمْنَاهُمْ أَيُّهُمْ

(١) الصحيح موقوف. أخرجه البزار ٢٢٤٧ و ٢٢٤٨ موقوفاً ومرفوعاً، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٥٣: ورجالهما رجال الصحيح اهـ. قلت: تفرد برفعه عبد الأعلى بن عبد الأعلى، وهو وإن روى له الأئمة، فقد لبث ابن سعد وخالفه محمد وعبد الوهاب فروياه كما في تفسير الطبري ٢٧٤٦٠ عن عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد موقوفاً، وتابعهما على ذلك يحيى بن سعيد القطان، وهو أحفظ وأثبت من عبد الأعلى، فالصواب موقوف والمرفوع منكر باطل. والله أعلم.

يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤] الآية، أي: ما كنتَ حاضرًا لذلك، ولكن الله أوحاه إليك. وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَلْمِهُمَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٩] الآية. وقال في آخر السورة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرِيِّ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠]، وقال بعد ذكر قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٢] الآية. وقال في سورة طه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١٤﴾﴾، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إichاء الله إليه وتكليمه له: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾، يعني: يا محمد، ما كنتَ بجانب الجبل الغربي الذي كلّم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليجعله حجة وبرهاناً على قرونٍ قد تطاولَ عهدُها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوُا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾، أي: وما كنتَ مقيماً في أهل مدينَ تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبئها شعيب، وما قال لقومه، وما ردوا عليه، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولا. ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، قال أبو عبد الرحمن النسائي، في التفسير من سننّه: أخبرنا علي بن حنجر، أخبرنا عيسى - وهو ابن يونس - عن حمزة الزيات، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، قال: «نودوا: أن يا أمة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبل أن تدعوني». وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث جماعة، عن حمزة - وهو ابن حبيب الزيات - عن الأعمش. ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زُرْعَةَ - وهو ابن عمرو بن جرير - أنه قال ذلك من كلامه، والله أعلم.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بُعثت. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، موسى. وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾، ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك، وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَتَذَاتِنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: ما كنتَ مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم، ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يهتدون بما جنتهم به من الله عز وجل. ﴿وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَعَقَلُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة وليتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فاحتجوا بأنه لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَائِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أو تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ فَجَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا

مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ١٩]. والآيات في هذا كثيرة، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد - صلوات الله وسلامه عليه - قالوا على وجه التعنت واليناد والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾، يعنون - والله أعلم - من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد، والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله على يدي موسى - عليه السلام - حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أَجِئْنَا بِتِلْكَ آيَاتِنَا عَنَّا وَجَدْنَا عَلَيْكَ آبَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ الْكَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُكَذِبِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ [المؤمنون: ٤٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾^(١)، أي: تعاونا، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾، أي: بكل منهما كافرون ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون، دلّ ذكر أحدهما على الآخر، كما قال الشاعر:

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمُمْتُ أَرْضاً أريدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أي: فما أدري أيُّهم الخير أو الشر؟ قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا للمحمد - ﷺ - ذلك، فقال الله: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾، يعني موسى وهارون عليهما السلام. ﴿تَظَاهَرَا﴾، أي: تعاونتا وتناصرتا وصدق كل منهما الآخر. وهكذا قال سعيد بن جبير وأبو زرير في قوله: ﴿سَاحِرَانِ﴾، يعنون موسى وهارون. وهذا قول جيد قوي، والله أعلم. وقال مسلم بن يسار، عن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾، يعني موسى ومحمداً ﷺ. وهذا رواية عن الحسن البصري. وقال الحسن وقتادة: يعني عيسى ومحمداً ﷺ. وهذا فيه بُعد، لأن عيسى لم يجز له ذكر هاهنا، والله أعلم.

وأما من قرأ ﴿سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾، فقال علي بن أبي طلحة والعمري، عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن. وكذا قال عاصم الجحدري، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال السدي: يعني صدق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل. وهو رواية عن أبي زرعة، واختاره ابن جرير. وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن. والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب. والظاهر على

(١) هذه قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، وقرأ الكوفيون من السبعة: «سحران».

قراءة: ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن، لأنه قال بعده ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتُبِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا آتَيْتُمُوهُ﴾، وكثيراً ما يقرون الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ﴾، إلى أن قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤ - ١٥٥]، وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. وقد عُلم بالضرورة لِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْزِلْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَعَدَّةِ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ أَكْمَلٌ وَلَا أَشْمَلٌ وَلَا أَفْصَحُ وَلَا أَعْظَمُ وَلَا أَشْرَفُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ - ﷺ - وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران - عليه السلام - وهو التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْتَدِي بِهَا الْبَنَاتُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبِيِّينَ وَالْأَحْبَارَ يَمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل إنما نزل مُتَمَامًا لِلتَّوْرَةِ وَمُحَلًّا لِبَعْضِ مَا حُرِّمَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتُبِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا آتَيْتُمُوهُ﴾، أي: فيما تُدْفِعُونَ بِهِ الْحَقَّ وَتَعَارِضُونَ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾، أي: فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُعْمِرُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: بلا دليل ولا حجة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾، أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾، قال مجاهد: فُصِّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ. وقال السدي: بيَّنا لهم القول. وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ﴾، يعني قرئشاً. وهذا هو الظاهر، لكن قال حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ قال: نزلت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا أحدهم. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديثه.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) وَإِذَا يُنَالِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ يَمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُبْفِقُونَ﴾ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَىٰ

الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥)

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْعِلْمِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخَوِّنُونَ لِأَذْقَانِ سَجْدًا﴾ (٥٦) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَسْتَبِشِرُونَ وَهُمْ بَشَا وَأَنْتُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ رَجَعُوا عَلَيْهِمْ يَقِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣]. قال سعيد بن جبیر: نزلت في سبعين من القيسيين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي - ﷺ - قرأ عليهم: ﴿يَسَّ﴾ (٥٨) وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ﴾، حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩) وَإِذَا يُنَالِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ . يعني: من قبل هذا القرآن كُنَّا مُسْلِمِينَ. أي: مُؤَحَّدِينَ مخلصين لله مستجيبين له. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: هؤلاء الْمُتَّصِفُونَ بهذه الصِّفَةِ الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بإيمانهم بالرسول الأول ثم الثاني. ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على اتِّبَاعِ الحق؛ فَإِنَّ تَجَشُّمَ مثلِ هذا شديدٌ على النفوس.

[٥١١٩] وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي مُوسَى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمنَ بي، وعبُد مملوك أَدَى حَقِّ الله وَحَقِّ مواليه، وَرَجُلٌ كانت له أَمَةٌ فأَدَّبها فأَحْسَنَ تَأديبها، ثم أعتقها فَتَزَوَّجها»^(١).

[٥١٢٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيْلَجِينِي، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله - ﷺ - يومَ الفتح، فقال قولاً حَسَنًا جميلًا، وقال فيما قال: مَنْ أسلم من أهل الكتابين فله أجره مَرَّتَيْنِ، وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين، فله أجره، وله ما لنا، وعليه ما علينا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَّ بِالْحَسَنَةِ أَلْسِنَةً﴾، أي لا يُقَابِلُونَ على السيء بمثله، ولكن يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ. ﴿وَمِمَّا زَيَّفْتَهُمْ يَفْضَحُونَ﴾، أي: ومن الذي رزقهم من الحلال يُنْفِقُونَ على خَلْقِ الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات، وصدقات الثَّغْلِ والقُرْبَاتِ. وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، أي: لا يُخَالِطُونَ أهله ولا يُعَايِرُونَهُمْ، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُ بِاللَّغْوِ مَرَأُ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. ﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: إذا سَفِهَ عليهم سَفِيهًا، وكَلَّمَهُمْ بما لا يَلِيْقُ بهم الجوابُ عنه، أَعْرَضُوا عنه ولم يُقَابِلُوهُ بمثله من الكلام القبيح، ولا يَصْدُرُ عنهم إلا كلام طَيِّبٌ. ولهذا قال عنهم: إنيهم قالوا: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: لا نُريد طَرِيقَ الجاهِلِينَ ولا نُجِئها.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثُمَّ قَدِمَ على رسول الله - ﷺ - وهو بمَكَّةَ عِشْرُونَ رَجُلًا. أو قَرِيبَ من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خَبْرُهُ من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فَجَلَسُوا إليه وكَلَّمُوهُ وساءلوه - ورجال من قريش في أُنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أَرَادُوا دَعَاؤُهُ إلى الله وتلأ عليهم القرآن، فلما سَمِعُوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصَفُ لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نَفَرٍ من قريش، فقالوا لهم: حَيِّبُكُمْ اللهُ مِنْ ركب! بَعَثَكُمْ مِنْ وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تَطْمَئِنُّ مجالسُكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال! ما نعلم ركباً أحق منكم! أو كما قالوا لهم. فقالوا: سلامٌ عليكم، لا نُجاهِلُكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألْ أنفسنا خيراً. قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أيُّ ذلك كان قال: ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٩٧ و٣٠١١ و٣٤٤٦ ومسلم ١٥٤ وأبو داود ٢٠٥٣ والترمذي ١١١٦ والنسائي ١١٥/٦ وابن ماجه ١٩٥٦ وأحمد ٣٩٥/٤ و٤٠٢ وابن حبان ٢٢٧.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/٢٥٩ والطبراني ٧٧٨٦ و٧٨٥٦. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٣٤: فيه القاسم أبو عبد الرحمن، وقد ضعفه أحمد وغيره. اه وفيه أيضاً ابن لهيعة، ضعفه الجمهور.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ لِكُنْتَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٧) إلى قوله: ﴿لَا تَبْلَغِي آلَ جَاهِلِينَ﴾. قال: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات: فيمن أنزلن؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا انهن أنزلن في النجاشي وأصحابه، والآيات اللاتي في سورة المائدة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمُ قَبِيلَ قَيْسِيَّةٍ وَزُهَبَانَا﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتَبْتَ مَعَ الشَّهِيدِينَ﴾^(١).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)

يقول تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - : إنك يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣). وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية. وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ - وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه ويحبه حبا طبيعيا لا شرعيا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ - إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة.

[٥١٢١] قال الزهري: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، عَنْ أَبِيهِ - وهو المسيب بن حزن المخزومي، رضي الله عنه - قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ - فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ -: يا عم، قل: «لا إله إلا الله»، كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ - يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ -: أما لاستغفركم لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله - عز وجل -: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢). أخرجاه من حديث الزهري.

[٥١٢٢] وهكذا رواه مسلم في صحيحه، والترمذي، من حديث يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ - فقال: يا عم، قل: «لا إله إلا الله»، أشهد لك بها يوم القيامة. فقال: لولا أن تعيرني بها قريش، يقولون: ما حمّله عليه إلا جزع الموت، لأقررت بها عينك، لا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)^(٣). وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن يزيد بن كيسان، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ. وهكذا قال ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي، وقادة: إنها أنزلت في أبي طالب

(١) هذا معضل، لم يسنده ابن إسحق.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٠ و ٣٨٨٤ ومسلم ٢٤ والنسائي ٩٠/٤ وأحمد ٤٣٣/٥ وابن حبان ٩٨٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥ والترمذي ٣١٨٨.

حين عَرَضَ عليه رسولُ الله - ﷺ - أن يقول: «لا إلهَ إلا اللهُ»، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابنِ أخي، مِلَّةَ الأشياخ. وكان آخر ما قال: هو على مِلَّةِ عبدِ المطلب.

[٥١٢٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حَمَادُ بن سلمة، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن أبي راشد قال: كان رسولُ قيصرَ جاراً لي، قال: كتب معي قيصرُ إلى رسول الله - ﷺ - كتاباً، فأتيته فدفعتُ الكتابَ، فوضعه في جِحره، ثم قال: ومِن الرجل؟ قلت: من تَنُوخ. قال: هل لَكَ في دين أبيك إبراهيم الحنيفة؟ قلت: إني رسولُ قوم، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم. فَضَحِكَ رسولُ الله - ﷺ - ونظر إلى أصحابه وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْمُدَيِّ مَعَكَ تَتَّخِطَفُ مِن أَرْضِنَا﴾، يقولُ تعالى مُخبراً عن اعتذار بعض الكُفَّار في عَدَمِ اتِّبَاعِ الهُدَى حيثُ قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن تَتَّبِعِ الْمُدَيِّ مَعَكَ تَتَّخِطَفُ مِن أَرْضِنَا﴾، أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهُدَى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتَّخِطَفُونَا أينما كنا، فقال الله تعالى مُجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِن لَّهُمْ حَرَمًا مَّأْمُونًا﴾، يعني هذا الذي اعتذروا به كَذِبٌ وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلدِ آمين، وحَرَمٌ مَعْظَمٌ آمِنٌ منذ وُضِعَ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلمُوا وتابَعُوا الحق؟! وقوله تعالى: ﴿يَجِيءُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾، أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائِفِ وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿وَرَزَقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: من عندنا، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهذا قالوا ما قالوا. وقد قال النسائي: أنبأنا الحسن بنُ محمَّد، حدثنا الحجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني ابنُ أبي مُليكة قال: قال عمرو بن شعيب، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه -: أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: ﴿إِن تَتَّبِعِ الْمُدَيِّ مَعَكَ تَتَّخِطَفُ مِن أَرْضِنَا﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيْبَةٍ بَطَرْتِ مَعِيْشَتَهَا فَبَلَغَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ يَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَمِسُوا مِنْهُمْ مَا يُبْتَلَىٰ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩)

يقولُ تعالى مُعَرِّضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيْبَةٍ بَطَرْتِ مَعِيْشَتَهَا﴾، أي: طَعَتْ وأُشِرَتْ وكَفَرَتْ نعمةُ الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَصَرَفَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيْبَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِئَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٥٧) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥٦) [النحل: ١١٢ - ١١٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَلَغَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ يَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيْلًا﴾: أي: دَثُرَتْ ديارهم فلا تُرى إلا مَسَاكِنُهُمْ. وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾، أي: رَجَعَتْ خَرَابًا ليس فيها أحد.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سَمِعَ كعباً يقول لعمر: إن سليمان - عليه السلام - قال للهاية - يعني البومة - مالك لا تأكلين الزُّرْعَ؟ قالت: لأنه أُخْرِجَ آدمُ بسببه من الجنة. قال: فَمَالِكُ لا تُشْرِبين الماء؟ قالت: لأن الله أغرق قومَ نوح به. قال: فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب؟ قالت: لأنه ميراثُ الله - عزَّ وجلَّ - ثم تلا: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾. ثم قال تعالى مُخبراً عن عذله، وأنه لا يُهلك أحداً ظالماً له، وإنما

يُهْلِك مَنْ أَهْلَكَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا﴾ - وهي مكة - ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، فيه دلالة على أن النبي الأمي، وهو محمد - صلوات الله وسلامه عليه - المبعوث من أم القرى، رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجم، كما قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [مرد: ١٧].
وتمام الدليل: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَطَّوْرًا﴾ [الإسراء: ٥٨]. فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى، لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها.

[٥١٢٤] وثبت في الصحيحين عنه - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْصَرِ وَالْأَسْوَدِ»^(١). ولهذا ختم به الرسالة والنبوة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باقي بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة. وقيل: المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا﴾، أي: أصلها وعظيبتها، كأهيات الرسائيق والأقاليم. حكاها الزمخشري وابن الجوزي، وغيرهما، وليس يبعيد.

﴿وَمَا أُرْسِلُ مِنْ شَيْءٍ فَتَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٠] ﴿أَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيمٌ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [٦١]

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْقُذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ [٦١] وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [٦١] [الأعلى: ١٦ - ١٧].

[٥١٢٥] وقال رسول الله - ﷺ - : «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فليظنر ماذا يرجع إليه»^(٢).

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفلا يعقل من يُقَدِّم الدنيا على الآخرة؟! وقوله: ﴿أَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيمٌ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [٦١]، يقول تعالى: أَمَنْ هو مؤمن مُصَدِّق بما وعدّه الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مُكَذِّب ببقاء الله وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فهو مُمْتَع في الحياة الدنيا أياماً قلائل، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾. قال مجاهد وقتادة: من المعدّبين. ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله - ﷺ - وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة، أو حمزة وعلي وأبي جهل. وكلاهما عن مجاهد. والظاهر أنها عامة، وهذا كقولته تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات وذاك في الدرجات: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجِنَّةَ إِنَّمَا لَهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ٢٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٨٥.

﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ بَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يُؤخَّرُ به الكفار المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿بَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ . يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا علي سبيل التقرير والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤] . وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ، يعني من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر، ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوه، ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَدُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢] ، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦] ، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَبَلَغْتُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ، وقال الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّاءُ الْعَذَابِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعُ اللَّهُ مَنَّا كَمَنْ هُوَ لَنَعْلَمَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧] . ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ ، أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ، أي: وتيقنوا أنهم صابرون إلى النار لا محالة . وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ، أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكَاءِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٢ - ٥٣] . وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ، النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبداً لله ورسوله . وأما الكافر فيقول: هاه! هاه! لا أدري . ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ . وقال مجاهد: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ، فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَسْبَابِ . وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ، أي: في الدنيا، ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ، أي: يوم القيامة «وعسى» من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة .

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ
وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالِاخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مَنَازِعٌ وَلَا مَعْقَبٌ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، أَي: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ، وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمُ الْخَيْرَةُ﴾، نَفِي عَلَى أَصْحَ الْقَوْلِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ رِسْوَلَهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٣٦]. وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ (مَا) هَاهُنَا بِمَعْنَى «الَّذِي»، تَقْدِيرُهُ: وَيَخْتَارُ الَّذِي لَهُمْ فِيهِ خَيْرَةٌ. وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذَا الْمَسْلُوكِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى وَجُوبِ مِرَاعَاةِ الْأَصْلِحِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا نَافِيَةٌ. كَمَا نَقَلَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ أَيْضًا، فَإِنَّ الْمَقَامَ فِي بَيَانِ انْفِرَادِهِ تَعَالَى بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ وَالِاخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أَي: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، الَّتِي لَا تَخْلُقُ وَلَا تَخْتَارُ شَيْئًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٦٦﴾، أَي: يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ الضَّمَانِ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرَ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظُّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ، ﴿سَوَاءٌ يَنْتَكِرُ مِنْ أَسْرِّ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلْتِيلٍ وَسَارِيٍّ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أَي: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، كَمَا لَا رَبَّ يَخْلُقُ وَيَخْتَارُ سِوَاهُ، ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾، أَي: فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ، لِعِزِّهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾، أَي: الَّذِي لَا مَعْقَبَ لَهُ، لِقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أَي: جَمِيعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَأَ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَأَ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنِّئًا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اللَّذِينَ لَا قِيَامَ لَهُمْ بَدُونَهُمَا، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلَ دَائِمًا عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَضْرَّ ذَلِكَ بِهِمْ، وَأَسْتَمْتَمَتِ النَّفُوسُ وَانْحَصَرَتْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾، أَي: تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ بِسَبِيهِ، ﴿أَمْ لَأَ تَسْمَعُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا دَائِمًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَضْرَّ ذَلِكَ بِهِمْ، وَتَلْتَبَّتِ الْأَبْدَانُ وَكَلَّتْ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ﴾، أَي: تَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ، ﴿أَمْ لَأَ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ، أَي: بِكُمْ ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أَي: خَلَقَ هَذَا وَهَذَا، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أَي: فِي اللَّيْلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، أَي: فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّرْحَالِ، وَالتَّحْرِكَاتِ وَالْأَشْغَالِ. وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أَي: تَشْكُرُونَ اللَّهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَمِنْ فَاتِهِ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وهذا أيضاً نداء ثانٍ على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يُناديهم الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أي: في الدار الدنيا. ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، قال مجاهد: يعني رسولاً. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾، أي: لا إله غيره، أي: فلم ينطقوا ولم يُحيروا جواباً، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: ذهبوا فلم ينتفعوهم.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبِعَى عَلَيْهِمْ وَءَايَاتِنَا مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنَّوْا بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾، قال: كان ابن عمه. وهكذا قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك ابن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جريج، وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. قال ابن جريج: هو قارون بن يصره بن قاهت، وموسى بن عمران بن قاهت. وزعم محمد بن إسحاق بن يسار: أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام. قال ابن جرير: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم. وقال قتادة بن دعامه: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يُسمى المَنُورَ لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طولاً، ترفعاً على قومه. وقوله: ﴿وَءَايَاتِنَا مِنْ الْكُتُوبِ﴾، أي: الأموال: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنَّوْا بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾، أي: لِيُنْقَلَ حَمْلُهَا الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ لِكَثْرَتِهَا. قال الأعمش، عن خيثمة: كانت مفاتيح كُتُورِ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الْإِصْبَعِ كُلُّ مِفْتَاحٍ عَلَى خِزَانَةٍ عَلَى جِدَّتِهِ، إِذَا زَكِبَ حَمَلَتْ عَلَى سَتِينَ بَغْلًا أَعْرُ مَحْجَلًا. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، أي: وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من الأموال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. قال ابن عباس: يعني المرحين. وقال مجاهد: يعني الأشيرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي تحصل لك الثواب في الدار الآخرة. ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، أي: ما أباح الله فيها من المآكل والمشرب والملابس والمسكن والمنافع، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك^(١) عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه. ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، أي: أحسن إلى

خَلَقَهُ كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا تَكُنْ هِمَّتَكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ الْأَرْضَ، وَتُسَيِّءَ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْتَلَّ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨)

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقويبه، حين نَصَّحُوهُ وَأرْسَدُوهُ إِلَى الْخَيْرِ، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لِعَلِّمِهِ بَأَنِي أَسْتَحْجِقُهُ وَلِمَحَبَّتِهِ لِي، فَتَقْدِيرُهُ: إِنَّمَا أُعْطِيْتَهُ لِعِلْمِ اللَّهِ فِي أَنِّي أَهْلٌ لَهُ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]. أي: على عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِي، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ أَدْقَنْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: هذا أَسْتَحْجِقُهُ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ أَرَادَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، أي: إنه كان يعاني عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ. وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ فِي نَفْسِهِ عِلْمٌ بَاطِلٌ، لِأَنَّ قَلْبَ الْأَعْيَانِ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ١٧٣].

[٥١٢٦] وفي الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه قال: يقول الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليُخْلَقُوا ذَرَّةً، فَلْيُخْلَقُوا شَعِيرَةً»^(١)، وهذا ورد في الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ فِي مُجَرَّدِ الصُّورَةِ الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يُحِيلُ ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زورٌ ومحال، وجهلٌ وضلالٌ. وإنما يقدرُونَ على الصَّبْغِ في الصُّورَةِ الظاهرة، وهو كَذِبٌ وَرَعْلٌ وَتَمْوِيهٌ، وَتَرْوِيحٌ أَنَّهُ صَحِيحٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ قَطْعاً لَا مُحَالَه، وَلَمْ يَثْبُتْ بِطَرِيقِ شَرْعِي أَنَّهُ صَحَّحَ مَعَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَعَاطَاهَا هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ الْفَسِقَةُ الْأَفَاكُونَ الْمُزَوَّرُونَ، فَأَمَّا مَا يُجْرِيهِ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ خَزَقِ الْعَوَائِدِ عَلَى يَدَيْ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَلْبِ بَعْضِ الْأَعْيَانِ ذَهَباً أَوْ فِضَّةً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فَهَذَا أَمْرٌ لَا يُنَكِّرُهُ مُسْلِمٌ، وَلَا يَرِيئُهُ مُؤْمِنٌ، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الصَّنَاعَاتِ، وَإِنَّمَا هَذَا عَنْ مَشِيئَةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَاخْتِيَارِهِ وَفَعَلِهِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ حَيَّوَةَ بْنِ شَرِيحِ الْمِضْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ سَأَلَهُ سَائِلٌ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطِيهِ، وَرَأَى ضَرُورَتَهُ، فَأَخَذَ حَصَاةً مِنَ الْأَرْضِ فَأَجَالَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ أَلْقَاهَا إِلَى ذَلِكَ السَّائِلِ فِإِذَا هِيَ ذَهَبٌ أَحْمَرٌ. وَالأَحَادِيثُ وَالآثَارُ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَطُولُ ذِكْرُهَا.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله فتمول بسببهِ؛ والصحيح المعنى الأول، ولهذا قال الله - تعالى - راداً عليه فيما ادَّعاه مِنِ اعْتِنَاءِ اللَّهِ بِهِ فِيمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْمَالِ: ﴿أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن مَحَبَّةٍ مِنْهُ لَهُ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يُسْتَلَّ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، أي: لِكَثْرَةِ دُنُوبِهِمْ. قَالَ قَتَادَةُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، عَلَى خَيْرِ عِنْدِي. وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَلَى عِلْمِ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ. وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قَالَ: لَوْلَا رِضَا اللَّهِ عَنِّي وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ، وَقَرَأَ: ﴿أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٥٣ ومسلم ٢١١١ وأحمد ٢٥٩/٢ وأبو يعلى ٦٠٨٦ من حديث أبي هريرة.

قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْتَلْعُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾. وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه: لولا أن يستحق ذلك لما أعطي.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون: أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتَجَمَّلَ باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: ذو حظ وافر من الدنيا. فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون، كما في الحديث الصحيح:

[٥١٢٧] يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقربوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [السجدة: ١٧]»^(١). وقوله: ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ﴾، قال السدي: وما يُلقى الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يُلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجعله من كلام الله - عز وجل - وإخباره بذلك.

﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَابُ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

لما ذُكِرَ - تعالى - اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقَّب ذلك بأنه خَسَفَ به وبداره الأرض.

[٥١٢٨] كما ثبت في الصحيح - عند البخاري من حديث الزهري، عن سالم -: أن أباه حَدَّثَهُ: أن رسول الله - ﷺ - قال: «بيننا رجلٌ يجزُّ إزاره إذ خُصِفَ به، فهو يتَجَلَّجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ»^(٢). ثم رواه من حديث جرير بن زيد، عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - نحوه.

[٥١٢٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «بيننا رجل فيمن كان قبلكم خرج في بُردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتَجَلَّجَلُ فيها إلى يومِ القيامةِ»^(٣)، تُفَرِّدُ به أحمد، وإسناده حسن.

(١) والحديث سيأتي عند تفسيرها إن شاء الله.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٩٠ من حديث سالم، وأخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٣) متن صحيح. أخرجه أحمد ٤٠/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٢٦/٥ وقال: رواه أحمد والبخاري بأسانيد، وأحد أسانيد البخاري رجاله رجال الصحيح. ولعل المصنف حسنه لشواهد، وإلا ففيه عطية، وهو ابن سعد العوفي ضعيف. وفي الباب أحاديث أخرى.

[٥١٣٠] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا معلّى بن منصور، أخبرني محمد بن مسلم، سمعت زباداً النميري يحدث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: بينا رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين فاحتال فيهما، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجملجمل فيها إلى يوم القيامة^(١). وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب العجائب الغربية بسنده عن نوفل بن ماسح قال: رأيت شاباً في مسجد نجران، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله، فقال: مالك تنظر إلي؟ فقلت: أعجب من جمالك وكمالك! فقال: إن الله ليعجب مني. قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر، فأخذه بعض قرابته في كفه ودّهب^(٢).

وقد ذكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبي الله موسى عليه السلام. واختلف في سببه، فمن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تبته موسى بحضرة الملا من بني إسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله، فتقول: يا موسى، إنك فعلت بي كذا وكذا. فلما قالت في الملا ذلك لموسى - عليه السلام - أزعج من الفرق، وأقبل عليها بعدما صلت ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذي فرق البحر، وأنجلكم من فرعون، وفعل كذا وكذا، لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت؟ فقلت: أما إذ نشدنتي فإن قارون أعطاني كذا وكذا، على أن أقول لك، وأنا استغفر الله وأتوب إليه. فعند ذلك خز موسى الله - عز وجل - ساجداً، وسأل الله في قارون. فأوحى الله إليه أنني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه. فأمر موسى الأرض أن تبثله وذآره، فكان ذلك. وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدمه ثياب الأزجوان المصبغة، فمر في جحفة ذلك على مجلس نبي الله موسى - عليه السلام - وهو يذكرهم بأيام الله. فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله، ينظرون إلى ما هو فيه. فدعاه موسى - عليه السلام - وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى، أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن فلتدعون علي وأدعو عليك. فخرج وخرج قارون في قومه، فقال موسى: تدعو أو أدعو أنا؟ قال: بل أنا أدعو. فدعا قارون فلم يجب له. ثم قال موسى: أدعوا؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم، مر الأرض أن تطيعني اليوم. فأوحى الله إليه أنني قد فعلت. فقال موسى: يا أرض، خذيهم. فأخذتهم إلى أقدابهم. ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم. قال: فأقبلت بها حتى نظروا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوى. فاستوت بهم الأرض. وعن ابن عباس أنه قال: خسيف بهم إلى الأرض السابعة. وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فهم يتجملجون فيها إلى يوم القيامة. وقد ذكر هاهنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ فَتْرَةٍ يَصُورُوهَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾، أي: ما أغنى عنه ماله وما جمعه، ولا خدمه وحشمه. ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه متصيراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾، أي: الذين لما رأوه في زينته قالوا ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا فِي قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُونَ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٣)، فلما خسيف به أصبحوا يقولون: ﴿وَوَكَاتُكَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ

(١) متن صحيح. أخرجه أبو يعلى ٤٣٠٢ وإسناده ضعيف لضعف زياد النميري، لكن للحديث شواهد كما ترى.

(٢) نوفل تابعي ثقة؛ لكن لم يذكر المصنف الإسناد إلى نوفل، والظاهر أنه مركب مصنوع.

يَشَاكُهُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُهُ، أي: ليس المال ببدالٍ على رضا الله عن صاحبه من عباده؛ فإن الله يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُضَيِّقُ وَيُوسِّعُ، ويخفِّضُ ويرفَعُ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة.

[٥١٣١] وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يُعْطِي المالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»^(١). ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأننا وبدننا أن نكون مثله. ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، يعنون أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى هاهنا: ﴿وَيَكَاذِبُ﴾، فقال بعضهم: معناها: «وَيْلَكَ أَعْلَمَ أَنْ»، ولكن حُقِّقَتْ فْقِيل: «وَيْلَكَ» ودلّ فتح «أَنْ» على حذف «اعلم». وهذا القول ضَعْفُهُ ابنُ جرير. والظاهر أنه قَوِيٌّ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «وَيَكَاذِبُ». والكتابة أمرٌ وضْعِيٌّ اصطلاحِيٌّ، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. وقيل: معنى «ويكاذب» أي: ألم تر أن. قاله قتادة. وقيل: معناها «وَيْلَكَ كَانَ»، ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحسب، قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنى: ألم تر أن، واستشهد بقول الشاعر:

سَأَلْتَنِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَنِي قَلَّ مَالِي، قَدْ جَشْتُمَانِي بِتُكْرٍ
وَيْكَاذِبُ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُخْ بَبِّ، وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشُ ضُرِّ

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِبِينَ﴾^(٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ حَيْرٌ مِمَّا مَنَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَصْعَلُونَ^(٨٤) ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَتَعِيْمَهَا الْمُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، أي: تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ، وَلَا فُسَادًا فِيهِمْ. كما قال عكرمة: العُلُوُّ: التجبر. وقال سعيد بن جببر: العُلُوُّ: البغي. وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن منصور، عن مسلم البطين: العُلُوُّ فِي الْأَرْضِ: التَّكْبُرُ بِغَيْرِ حَقِّ. والفساد: أخذ المال بغير حق. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَشْعَثِ السَّمَانِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَامٍ الْأَعْرَجِ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لِيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكٍ نَعْلُهُ أَنْ يَكُونَ أَجودَ مِنْ شِرَاكٍ صَاحِبِهِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِبِينَ﴾^(٨٤). وهذا محمولٌ على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاوُلَ على غيره، فإن ذلك مذمومٌ.

[٥١٣٢] كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»^(٢) وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به.

[٥١٣٣] فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنني أحب أن يكون رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً، أَمِنَ الْكِبْرَ ذَلِكَ؟ فقال: «لا، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال»^(٣). وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾، أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٦٥ وأبو داود ٤٨٩٥ وابن ماجه ٤٢١٤ من حديث عياض بن حمار.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩١ والترمذي ١٩٩٩ وأحمد ٥١١/١ من حديث ابن مسعود.

حَزَّ مِتْنَهَا، أي: ثواب الله خيرٌ من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه ضعافاً كثيرة، وهذا مقام الفضل. ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسِّيْفَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَيْكَ عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسِّيْفَةِ فَكَبَّتْ وَجْهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَمْعَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]. وهذا مقام الفضل العذلي.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْكُفْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى أمرأ رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - ببلّغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومُخبراً له بأنه سيُرَدُّه إلى معادٍ، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾، أي: افترض عليك أداءه إلى الناس، ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: إلى يوم القيامة فسالك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجْتَبَرْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالسِّيْفَةِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يقول: لرادُّك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن. قال السدي: وقال أبو سعيد مثلاً. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قال: إلى يوم القيامة. ورواه مالك، عن الزهري. وقال الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، إلى الموت. ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وفي بعضها: لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ مِنَ الْجَنَّةِ. وقال مجاهد: يُجيبك يوم القيامة. وكذا زوي عن عكرمة، وعطاء، وسعيد بن جببر، وأبي قزعة، وأبي مالك، وأبي صالح. وقال الحسن البصري: إي والله، إن له لمعاداً، يبعثه الله يوم القيامة، ثم يُدخِلُه الجنة. وقد زوي عن ابن عباس غير ذلك. كما قال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل، أنبأنا يعلى، حدثنا سُفيان العُصْفَرِيُّ، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قال: إلى مكة. وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه، وابن جرير، من حديث يعلى - وهو ابن عُبيد الطنائيسي - به. وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها. وقال محمد بن إسحاق، عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، إلى مؤلِّدِك بمكة.

قال ابن أبي حاتم: وقد زوي عن ابن عباس، ويحيى بن الجزار، وسعيد بن جببر، وعطيّة، والضحاك، نحو ذلك. حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير قال: قال سُفيان: فسمِعناه من مُقاتِل منذ سبعين سنة، عن الضحاك قال: لما خَرَجَ النبي ﷺ - من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مكة^(١). وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنيّة، وإن كان مجموعُ السورة مكياً، والله أعلم. وقد قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ

(١) هذا مرسل، وهو من قسم الضعيف. ومقاتل، هو ابن سليمان، ضعفه غير واحد وكذبه بعضهم.

مَعَادٍ»، قال: هذه مما كان ابن عباس يكتهما. وقد رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ عَنِ نُعَيْمِ الْقَارِيءِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قال: إلى بيت المقدس. وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول مَنْ فُسِّرَ ذَلِكَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ هُوَ أَرْضُ الْمُحَشَّرِ وَالْمُنَشَّرِ، وَاللَّهُ الْمُوفِقُ لِلصَّوَابِ. وَوَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ فُسِّرَ ذَلِكَ تَارَةً بِرُجُوعِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَهُوَ الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَمَارَةٌ عَلَى اقْتِرَابِ أَجَلِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - كَمَا فُسِّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بِسُورَةِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، أَنَّهُ أَجَلَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - نُعِيِي إِلَيْهِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَوَافَقَهُ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ مِنْهَا غَيْرَ الَّذِي تَعْلَمُ. وَلِهَذَا فُسِّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ تَارَةً أُخْرَى قَوْلَهُ: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بِالْمَوْتِ، وَتَارَةً بِالْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ جَزَاؤُهُ وَمَصِيرُهُ عَلَى آدَاءِ رِسَالَةِ اللَّهِ وَإِبْلَاغِهَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَلِأَنَّهُ أَكْمَلَ خَلْقَ اللَّهِ، وَأَفْصَحَ خَلْقَ اللَّهِ، وَأَشْرَفَ خَلْقَ اللَّهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: قل لمن خالفك وكذّبك - يا محمد - من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم، قل: رَبِّي أَعْلَمُ بِالْمَهْتَدِيِّ مِنْكُمْ وَمَنِي، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنَّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذْكَرًا لِنَبِيِّهِ نِعْمَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يَلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾، أي: ما كنت تظنُّ قَبْلَ أَنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ، وَلَكِنْ رَحِمْتَهُ مِنْ رَبِّكَ، أي: إِنَّمَا أَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبَبِكَ، فِإِذَا مَنَحَكَ بِهَذِهِ النُّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾، أي: مُعِينًا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، وَلَكِنْ فَارِقُهُمْ وَتَابِدُهُمْ وَخَالَفَهُمْ. ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: لَا تَتَأَثَّرُ بِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَضَدُّهُمْ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ، وَلَا تَلْوِي عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَبَالِهَ، فَإِنَّ اللَّهَ مُعَلِّمُ كَلِمَاتِكَ، وَمُؤَيِّدُ دِينِكَ، وَمُظَهِّرُ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَادْعُ لِي رَبِّي﴾، أي: إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِكَاءِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لَا تَلْبِسُ الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَتَّبِعِي الْإِلَهِيَّةَ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَاهُنَا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: إِلَّا إِيَّاهُ.

[٥١٣٤] وقد ثبت في الصحيح، من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمةُ لبيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلٌ^(١)

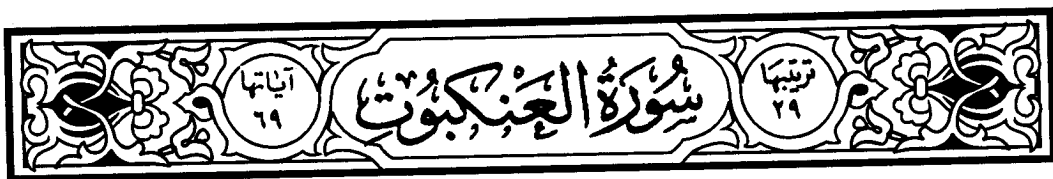
وقال مجاهدٌ والثوريُّ في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ، وَحَكَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ كَالْمُقَرَّرِ لَهُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَيَسْتَشْهَدُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُخَصِّصِيَهُ رَبِّ الْعِبَادِ، إِلَيْهِ السَّجْدَةُ وَالْعَمَلُ

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كُُلِّ الْأَعْمَالِ بِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ -

عَزَّ وَجَلَّ - من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مُقتَضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته - تعالى وتقدَّس - فإنه الأول الآخر الذي هو قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وبعْدَ كُلِّ شَيْءٍ . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب التفكير والاعتبار: حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا عمْر بن سُلَيْم الباهلي، حدثنا أبو الوليد قال: كان ابن عمْر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخَيْرَةَ فيقفُ على بابها، فينادي بصوت حزين فيقول: أَيْنَ أَهْلُكَ؟ ثم يَزْجِعُ إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ . وقوله: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾، أي: الْمَلِكُ والتصرُّف، ولا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ، ﴿وَلِئَلَّا تُرْجِعُونَ﴾، أي: يومَ مَعَادِكُمْ، فيجزِيكُمْ بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والله أعلم.

آخر تفسير سورة القصص، والله الحمد والمنة



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم أول «سورة البقرة». وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه أن الله - سبحانه وتعالى - لا بد أن يبتلي عبادَه المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح:

[٥١٣٥] «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء»^(١). وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَمْتَسِكِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومثلها في «سورة براءة»، وقال في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِاسَاءِ وَالْفِتْرَةِ وَذُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ءَلَا إِنَّا نَصَّرْنَا اللَّهَ قَرِيبًا﴾ ﴿١٤﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ ﴿٣﴾، أي: الذي صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله - سبحانه وتعالى - يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مُجمَع عليه عند أئمة السنة والجماعة، ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، إلا لنرى. وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلّق بالمعدوم والموجود.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٤﴾، أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان؛ فإن من ورائهم من العقوبة والتكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾، أي: يفوتونا، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: بس ما يظنون.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعَمِلَ الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاؤه، ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، فإن ذلك كان لا محالة، لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]، أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على اتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف. ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم مع إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال هاهنا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى أمرأ عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْغُنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن دُونِهِمْ قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٨٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤]. ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرأة إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حُباً دينياً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

[٥١٣٦] قال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشر ومحمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبه، عن سيمالك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد، قال: نزلت في أربع آيات. فذكر قصة. وقالت أم سعد: اليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر. قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهما، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ... الآية (٨)﴾. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضاً، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن صفات قوم من المُكذِّبين الذين يَدْعُونَ الإيمانَ بالسُّنتهم، ولم يثبت الإيمانَ في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنةٌ ومحنةٌ في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نعمة الله - تعالى - بهم، فارتدوا عن الإسلام. ولهذا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْبٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: ولئن جاء نصرٌ قريبٌ من ربِّك - يا محمد - وفتحٌ ومغائِمٌ، ليقولنَّ هؤلاء لكم: إنا كنا معكم. أي: إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْتَضُونَ يَكْفُرُونَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَيْبَكُمْ وَنَنصَحْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَقَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضَيِّبُوا عَلَيَّ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ يَدْرِين﴾ [المائدة: ٥٢]. وقال تعالى مُخبراً عنهما هاهنا: ﴿مِن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تُكئنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، أي: وليختبرنَّ الله الناس بالضرء والسراء، ليميزنَّ هؤلاء من هؤلاء، مَنْ يُطِيعُ الله في الضراء والسراء، ومَنْ إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ حَقَّ تَبْلُوهٍ الْمُجَاهِدِينَ مَنكُرًا وَالْعَدِيَّةِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أُحُدِ التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]... الآية. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم وأتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، وأتبعوا سبيلنا، ﴿وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾، أي: أتاكم إن كانت لكم آثامٌ، وذلك علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: «افعل هذا وخطيئتك في رقبتي». قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: فيما قالوه: إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم. فإنه لا يحمل أحدٌ وزراً أحد، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَلْعَبَ مُمْسَقَةٌ إِلَيْكَ لِجَهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِثْلَ شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيءٌ حِمِيًّا ﴿١٤﴾ يَمْشُرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠ - ١١]. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، إخبارٌ عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزاراً أُخَرَ بسبب ما أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

[٥١٣٧] وفي الصحيح: «من دعا إلى هُدَى كان له من الأجر مثل أجور من أتبعه إلى يوم القيامة، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من أتبعه إلى يوم القيامة، ومن دعا إلى هُدَى كان له من الأجر مثل أجور من أتبعه إلى يوم القيامة، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من أتبعه إلى يوم القيامة» (١).

[٥١٣٨] وفي الصحيح: «ما قُتلت نفس ظُلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَ القَتْلَ» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنَّا كَأَنَّهُنَّ يَكْفُرُونَ﴾، أي: يكذبون ويختلقون من البهتان.

[٥١٣٩] وقد ذكر ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان أبو حفص ابن أبي العاتكة، حدثني سليمان بن حبيب المَحَاربي، عن أبي أمامة أنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بَلَغَ ما أُرْسِلَ به، ثم قال: إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فإن الله يعزُّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيقول: وعزَّتي وجلالي لا يجوزُّني اليومَ ظلمٌ! ثم ينادي مناد فيقول: أين فلانُ ابنُ فلانٍ؟ فيأتي يتبعهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ أمثالَ الْجِبَالِ، فيشخصُ النَّاسَ إليها أبصارهم حتى يقومَ بين يَدَيِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ - ثم يأمرُ المَنَادِي فينادي: من كانت له تِبَاعَةٌ - أو: ظَلَامَةٌ - عند فلان بن فلان، فَهَلُمَّ. فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يَدَيِ الرَّحْمَنِ، فيقول الرَّحْمَنُ: اقضوا عن عبدي. فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول لهم: خذوا لهم من حسناتِهِ. فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حَسَنَةٌ. وقد بقي من أصحابِ الظَّلاماتِ، فيقول: اقضوا عن عبدي. فيقولون: لم يبقَ له حَسَنَةٌ. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه. ثم نَزَعَ النَّبِيُّ - ﷺ - بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنَّا كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٣).

[٥١٤٠] وهذا الحديث له شاهدٌ في الصحيح من غير هذا الوجه: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أمثالِ الْجِبَالِ، وقد ظَلَمَ هذا، وأخذَ مالَ هذا، وأخذَ من عِزِّهِ هذا. فيأخذُ هذا من حَسَنَاتِهِ، وهذا من حَسَنَاتِهِ، فإذا لم يبقَ له حَسَنَةٌ أخذَ من سيئاتهم فَطَرِحَ عليه» (٤).

[٥١٤١] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بنُ أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا أبو بشر الحَدَّاءُ، عن أبي حمزة الثَّمَالِيِّ، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال لي رسولُ اللَّهِ - ﷺ -: يا معاذُ، إنَّ المؤمنَ يُسألُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عن جميعِ سَعْيِهِ، حتى عن كُحْلِ عَيْنِيهِ، وعن فُتَاتِ الطُّيْنَةِ بِإِضْبَعِيهِ، فلا أَلْفَيْتُكَ تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وأحدُ أسعدُ بما آتاهُ اللَّهُ منك (٥).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤)

﴿فَأَجْمِنَ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَ وَجَمَلَنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٥)

هذه تسليمة من الله تعالى لعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - يُخبره عن نوح عليه السلام:

(١) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٧٧ وغيره، وقد تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٣٠.

(٣) إسناده ضعيف. صدقة هو ابن عبد الله، ضعفه غير واحد وكذا شيخه عثمان. وأصله شاهد، وهو الآتي.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨١ والترمذي ٢٤٢٠ وأحد ٣٧١/٢ وأبو يعلى ٦٤٤٩ من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٥) ضعيف جداً. فإن بين أبي حمزة الثَّمَالِيِّ، وبين معاذ رجلين، فهذا معضل، وله علة ثانية، وهي أن الثَّمَالِي واسمه ثابت بن أبي صفية، متروك الحديث. راجع الميزان ١٣٥٨.

أَنه لَبِثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنِ الْحَقِّ، وَإِعْرَاضًا عَنْهُ، وَتَكْذِيبًا لَهُ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ غَالِيُونَ﴾، أَي: بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَّحَ فِيهِمُ الْبَلَغُ وَالْإِنذَارُ، فَأَنْتَ - يَا مُحَمَّدَ - لَا تَأْسَفُ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْدِئُ الْأَمْرَ وَالْآخِرَ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلِمَتَ رَبِّكَ لَا يَأْمُرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُكَ وَيَنْصُرُكَ وَيُؤَيِّدُكَ، وَيُذِلُّ عَدُوَّكَ وَيَكْثِبُهُمْ وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ سَافِلِينَ.

قَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ يُوْسُفَ بْنِ مَاهِكَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بُعِثَ نُوحٌ وَهُوَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِينَ عَامًا، حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ وَفُشُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ: يُقَالُ: إِنَّ عُمَرَ كُلَّهُ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، لَبِثَ فِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوهُمْ ثَلَاثُمِئَةَ سَنَةٍ، وَدَعَاهُمْ ثَلَاثُمِئَةَ، وَلَبِثَ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثَلَاثُمِئَةَ وَخَمْسِينَ سَنَةً. وَهَذَا قَوْلٌ غَرِيبٌ، وَظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا. وَقَالَ عَوْفُ بْنُ أَبِي شَدَّادٍ: إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسِينَ وَثَلَاثُمِئَةَ سَنَةٍ، فَدَعَاهُمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، ثُمَّ عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثُمِئَةَ وَخَمْسِينَ سَنَةً. وَهَذَا أَيْضًا غَرِيبٌ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَقْرَبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كَهَيْلٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ: كَمْ لَبِثَ نُوحٌ فِي قَوْمِهِ؟ قَالَ قُلْتُ: أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، قَالَ: فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَزَالُوا فِي نَقْصَانٍ مِنْ أَعْمَارِهِمْ وَأَحْلَامِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ إِلَى يَوْمِكَ هَذَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَصْحَبْنَا السَّيْفِينَةَ﴾، أَي: الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَكَرَ ذَلِكَ مُفْصَلًا فِي «سُورَةِ هُودٍ»، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أَي: وَجَعَلْنَا ذَلِكَ السَّفِينَةَ بَاقِيَةً، إِمَّا عَيْنُهَا كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْيُودِيِّ، أَوْ نَوْعُهَا جَعَلَهُ لِلنَّاسِ تَذْكَرَةً لِئَعْيَمَهُ عَلَى الْخَلْقِ، كَيْفَ نَجَّاهُمْ زَمَنَ الطُّوفَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّهَا لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَالِكِ الْمَشْهُورِ ﴿١٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَاسِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّمَا تَفْرِقُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُفْقَدُونَ ﴿١٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِنَّ جِبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ٤١ - ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا خَلَقْنَا الْمَاءَ حَمَلَتُّكَ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١٦﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذْكَرَةً وَنَمِيمًا أَذَّنَ رِجْعَةً ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]، وَقَالَ هَامِدَانَا: ﴿فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَصْحَبْنَا السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّدرِجِ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّاطِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥]، أَي: وَجَعَلْنَا نَوْعَهَا رَجُومًا، فَإِنَّ التِّي يُرْمَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي زَيَّنَّا السَّمَاءَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مُكِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣]، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَوْ قِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، عَائِدٌ إِلَى الْعُقُوبَةِ، لَكَانَ وَجْهًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِقُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِأَمْرٍ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيمَ إمام الحُفَاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطَلَب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكورُ على الثَمِّ، لا مُسْئِد لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾، أي: اخلصوا له العبادة والخوف، ﴿ذَلِكَ كَرَّ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان لا تُضُرُّ ولا تنفَع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا رَوَى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدي. وروى الوالبي، عن ابن عباس: وتصنعون إفكاً، أي: تَنجِثونها أصناماً - وبه قال مجاهد، في رواية، وعكرمة، والحسن، وقاتدة وغيرهم، واختاره ابن جرير رحمه الله - وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿١٩﴾، ﴿رَبِّ آيِنِي لِي عِنْدَكَ يَتَّخِذَ فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]، ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾، أي: فاطلبوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾، أي: كُلُّوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم القيامة، فيجازي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمْرٌ مِنْ بَيْنِكُمْ﴾، أي: فبلغكم ما حلَّ بهم من العذاب والثكال في مخالفة الرسل، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغُ النَّبِيِّ﴾، يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله - تعالى - به من الرُسالَةِ، والله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمْرٌ مِنْ بَيْنِكُمْ﴾، قال: يُعْزِي نَبِيَّهُ ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾. وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كُلَّ هذا من كلام إبراهيم الخليل لقومه، يحتج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ يَعْدَبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل - عليه السلام - أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي يُنكروته، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وُجِدُوا وصاروا أناساً سامعين مُبصرين، فالذي بدأ هذا قادرٌ على إعادته؛ فإنه سهلٌ عليه، ييسرُ لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الأفاق من الآيات المشاهدة الباهرة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب الثيرة، الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهادٍ وجبال، وأوديةٍ وبراريٍ وقفار، وأشجارٍ وأنهار، وثمارٍ وبحار، كل ذلك دالٌّ على خدوتها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كُنْ، فيكون، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ

يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿٢٤﴾، أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهذا المقام شبيهة بقوله تعالى: ﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَّاكِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [نصلت: ٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ مَنَّهُ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقَّب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعُدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن:

[٥١٤٢] «إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْبَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾، أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنشَأَ بِمُحْجِرَاتِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، أي: لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقيز إليه، وهو الغني عما سواه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٦٣﴾، أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أُولَٰئِكَ يَسُؤُونَ مَنْ رَحِمَ﴾، أي: لا نصيب لهم فيها ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾، أي: موجع شديد في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى إستعمال جاههم وقوة ملجهم، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْخِجْرِ﴾ ﴿٦٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿الصفوات: ٩٧ - ٩٨﴾، وذلك أنهم حسدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحزطوا حولها، ثم أضرموها فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء. ولم ثوقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكثفوه وألقوه في كفة المُنْجَبِقِ، ثم قدفوه بها فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للفران، وجعل ماله للضيغان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان. وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾، أي: سلمه الله منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يقول لقومه مقررأ لهم وموبخاً على سوء صنيعهم، في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخذتم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط. ﴿ثُمَّ

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٦٩٩ وابن ماجه ٧٧ وأحمد ١٨٢/٥ و١٨٩ وابن حبان ٧٢٧ والبيهقي ٢٠٤/١٠ من حديث زيد بن ثابت، وإسناده قوي. وانظر صحيح أبي داود ٣٩٣٢.

يَوْمَ أَلْقَيْتُمَا بِنِعْمَتِي هَذَا الْحَالِ، فَبَقِيَ هَذِهِ الصَّدَاقَةُ وَالْمُودَةُ بَغْضَةً وَسَنَاتَانَا، ثُمَّ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَي: تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، أَي: يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمُتَبَوِّعِينَ، وَالْمُتَبَوِّعُونَ الْأَتْبَاعُ، ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُنْثَى لَمَنْتَ أَخْبَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِمَنْعُهُمْ لَبِئْسَ عَدُوًّا إِلَّا الْمُنْفِقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ أَلْقَيْتُمَا بِبَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوِنُكُمْ الْآثَارُ﴾ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ، أَي: وَمَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُكُمْ، وَلَا مُنْقِذٍ يُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُخَلِّفُ ذَلِكَ.

[٥١٤٣] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَخْمَسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ الثَّقَفِيُّ، الرَّبِيعُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ جَعْفَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ الْمَخْزُومِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أُمِّ هَانِيَةَ - أَخْتِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - قَالَتْ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ - ﷺ - أَخْبِرُكَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَمَنْ يَذْرِي أَيْنَ الطَّرْفَانَ؟ فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ فَيُشْرِئُونَ - قَالَ أَبُو عَاصِمٍ: يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ - ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ. ثُمَّ يُنَادِي الثَّلَاثَةَ: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ. قَالَ: فَيَقُومُ النَّاسُ قَدْ تَعَلَّقَ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلُمَاتِ الدُّنْيَا - يَعْنِي: الْمَظَالِمَ - ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، لِيَعْفُو بِبَعْضِكُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَعَلَى اللَّهِ الثَّوَابُ»^(١).

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢٦] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَّابَ وَعَآيِنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٧]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ آمَنَ لَهُ لُوطٌ، يُقَالُ: إِذْنُهُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، يَقُولُونَ هُوَ: لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ أَرْز. يَعْنِي: وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِوَاهُ وَسَارَةَ امْرَأَةَ الْخَلِيلِ. لَكِنْ يُقَالُ: كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَارِ، فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ سَارَةَ: مَا هِيَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: أُخْتِي. ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: إِنِّي قُلْتُ لَكَ: «إِنَّكَ أُخْتِي»، فَلَا تُكذِّبِينِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرُكَ وَغَيْرِي، فَأَنْتَ أُخْتِي فِي الدِّينِ. وَكَانَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ زَوْجَانِ عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرِي وَغَيْرُكَ، فَإِنَّ لُوطًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، ثُمَّ أُرْسِلَ فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَى أَهْلِ «سَدُومَ» وَإِلْقِيمَهَا، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سِيَّاتِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، يَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَقَالَ﴾ عَلَى لُوطِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ: وَهُوَ الْمَكْنَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أَي: مِنْ قَوْمِهِ. ثُمَّ أَخْبِرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجِرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ابْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الْقَدْرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ.

[٥١٤٤] وَقَالَ قَتَادَةُ: هَاجَرَ جَمِيعًا مِنْ كُوثَى وَهِيَ مِنْ أَرْضِ سِوَادِ الْكُوفَةِ إِلَى الشَّامِ. قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ

(١) إسناده ضعيف جداً، فيه الربيع بن إسماعيل، قال الذهبي في «الميزان» ٢٧٢٩: عن الجعدي من ولد جعدة بن هبيرة، قال أبو حاتم: منكر الحديث اهـ وفي الإسناد مجاهيل أيضاً.

نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - قال: إنها ستكون هجرة بعد هجرة، ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلها، حتى تَلْفِظَهُمْ أَرْضُهُمْ وَتَقْدَرُهُمْ رُوحُ اللَّهِ - عز وجل -، وَتَحْشُرُهُم النَّارُ مَعَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، تَبَيَّتْ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُلُ مَا سَقَطَ مِنْهُمْ^(١).

[٥١٤٥] وقد أسند الإمام أحمدُ هذا الحديثُ قَرَوَاهُ مُطَوَّلًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: لَمَّا جَاءَنَا بَيْعَةُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ، قَدِمَتِ الشَّامُ فَأَخْبِرْتُ بِمَقَامِ يَوْمِ نَوْفِ الْبَكَّالِيِّ، فَجِئْتُهُ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ، فَانْتَبَذَ النَّاسَ وَعَلَيْهِ خَمِيصَةٌ، وَإِذَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ. فَلَمَّا رَأَى نَوْفَ أَمْسَكَ عَنِ الْحَدِيثِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَيُنْحَازُ النَّاسُ إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا شَرَارُ أَهْلِهَا، فَتَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ، وَتَقْدَرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ، تَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، تَبَيَّتْ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُلُ مِنْهُمْ مَنْ تَخَلَّفَ». قَالَ: وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «سَيَخْرُجُ أَنَا مِنْ أُمَّتِي مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ - حَتَّى عَدَّهَا زِيَادَةٌ عَلَى عَشْرِينَ مَرَّةً - كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَخْرُجَ الدَّجَالُ فِي بَقِيَّتِهِمْ»^(٢). وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَاوُدَ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ، كِلَاهِمَا عَنْ هِشَامِ الدُّسْتَوَائِيِّ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ.

[٥١٤٦] وقد رواه أبو داود في سُنَنِهِ، فَقَالَ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي سَكْنَى الشَّامِ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخَيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجِرَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شَرَارُ أَهْلِهَا، تَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ وَتَقْدَرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ»^(٣).

[٥١٤٧] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، أَخْبَرَنَا أَبُو جَنَابٍ يَحْيَى بْنُ أَبِي حَيَّةَ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا صَاحِبُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ بِأَحَقَّ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُنَا بِأَخْرَجَةَ الْآنَ وَالِدِينَارُ وَالدِّرْهَمُ أَحَبُّ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «لَئِنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقْرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ^(٤)، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَيَلْزِمَنَّكُمْ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي أَعْنَاقِكُمْ لَا تُنَزَعُ مِنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، وَتَتَوَبَّعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «لَتَكُونَنَّ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا شَرَارُ أَهْلِهَا وَتَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ، وَتَقْدَرُهُمْ رُوحُ الرَّحْمَنِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، تَقِيلُ حَيْثُ قَالُوا وَتَبَيَّتْ حَيْثُ يَبْتَئُونَ، وَمَا سَقَطَ مِنْهُمْ فَلَهَا»، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «يَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يُسَيِّئُونَ الْأَعْمَالَ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ - قَالَ يَزِيدُ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ عِلْمُهُ مَعَ عِلْمِهِمْ،

(١) هذا مرسل، أخرجه الطبري ٢٧٧٣٠ لكنه شاهد لما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ١٩٩/٢ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شهر بن حوشب، وأخرجه الحاكم ٥١٠/٤ - ٥١١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. ويشهد له ما بعده.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٢٤٨٢ وهو حسن في الشواهد.

(٤) العينة: هو أن يبيع من الرجل سلعة بشمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به.

يقتلون أهل الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، فطوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه، كلما طلع منهم قرن قطع الله. فردد ذلك رسول الله - ﷺ - عشرين مرة، أو أكثر، وأنا أسمع^(١).

[٥١٤٨] وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النصر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الأوزاعي، عن نافع - وقال أبو النصر، عن حدثه، عن نافع - عن عبد الله ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - قال: «سَيَهَاجِرُ أَهْلُ الْأَرْضِ هِجْرَةَ بَعْدَ هِجْرَةِ، إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ، حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا سُورَاؤُ أَهْلِهَا تَلْفِظُهُمُ الْأَرْضُونَ وَتَقْدِرُهُمُ رُوحُ الرَّحْمَنِ، وَتَحْشَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، لَهَا مَا سَقَطَ مِنْهُمْ»^(٢). غريب من حديث نافع. والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء، والله أعلم. وروايته من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص أقرب إلى الحفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْكُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، أي: إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولده له ولد صالح نبي في حياة جده. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَدَّو إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به عينكما. وكون يعقوب ولداً لإسحاق نص عليه القرآن، وثبتت به السنة النبوية، قال الله تعالى: ﴿أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدَاكَ إِزَاهِرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

[٥١٤٩] وفي الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»^(٣). فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم» فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد، فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، هذه جلعمة سنيّة عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله له للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم - عليه السلام - إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب الغزباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله.

(١) أخرجه أحمد ٨٤/٢، في إسناده يحيى بن أبي حية، قال في التريب: ضعفه لكثرة تدليسه اه وهو شاهد لما قبله يحسن به، والله أعلم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» ٩٧١ ومع ضعف إسناده حيث فيه راو لم يسم، لكن يعتبر به على أنه شاهد لما قبله، والله أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة مريم عند آية: ٤٩.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ﴾، أي: جَمَعَ اللهُ له بين سَعَادَةِ الدُّنْيَا الموصولة بِسَعَادَةِ الآخِرَةِ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيئ والم منزل الرُحْبِ، والمُورِدُ العَذْبُ، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن فكلُّ أحدٍ يُحِبُّه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَهِمَ الَّذِي وَكَّلَ﴾ [النجم: ٢٧]، أي: قام بجميع ما أمر به وكَمَّلَ طاعة ربِّه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ابْتِهَامَهُ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النجم: ٢٧] شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آتَيْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنَّ فِي الآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الفُلْحَمَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٠] أَيْتَكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

﴿المفسدين﴾ (٣٠)

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيِّه لوط - عليه السلام - أنه أنكر على قومه سوءَ صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من فَبِيعِ الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحدٌ من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالِفُونَ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا يُنْكِرُ بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في المَلَامَةِ، قاله مجاهدٌ. ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قاله عائشة - رضي الله عنها - والقاسم. ومن قائل: كانوا يُنَاطِحُونَ بين الكِبَاشِ، وَيُنَاقِرُونَ بين الدُّيُوكِ، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شراً من ذلك.

[٥١٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا سِمَاكُ بن حَرْبٍ، عن أبي صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾، قال: يَحْدِقُونَ أَهْلَ الطَّرِيقِ، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وذلك المُنْكَرُ الذي كانوا يأتونه^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة، عن أبي يونس القشيري حاتم بن أبي صغيرة به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سَمَاكٍ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَةَ، حدثنا محمد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحَكَمِ، عن مجاهد: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: الصَّفِيرُ، ولَعِبَ الحَمَامِ

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٩٠ وأحمد ٦/٢٤١ والطبري ١٧٧٤٣ و١٧٧٤٤ والحاكم ٢/٤٠٩. حسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووقع في التلخيص «على شرط البخاري ومسلم»! والصواب أن إسناده ضعيف، وليس على شرط واحد منهما. فمداره على أبي صالح واسمه باذام، قال في «الميزان»: ضعفه البخاري، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن معين: ما به بأس، وقال إسماعيل بن أبي خالد: كان أبو صالح، يكذب. وله علة ثانية: سماك بن حرب تغير بأخرة، لذا ضعفه الجمهور. ثم إن المتن منكر، فإن ظاهر الآيات تشير إلى أن المنكر الذي كانوا يقتربون منه هو «اللواط» وذلك جهاراً حتى في ناديتهم. وإن كانوا يقارون منكرات أخرى، لكن أشدها ما ذكره القرآن، والله أعلم.

والجلاهيق، والتبول في المجلس، وحل أززار القباء. وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْلِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم. ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِيْنَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرٰهِيْمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوْا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظٰلِمِيْنَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيْهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيْهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْتَكَمُ مِنْ الْغٰفِرِيْنَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرِّيًّا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تُكٰتَمُ مِنَ الْغٰفِرِيْنَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُوْكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنْ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُوْنَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴿٣٥﴾﴾

لما استنصر لوط - عليه السلام - الله عليهم، بعث الله لئصرته ملائكة فَمَرُوا على إبراهيم - عليه السلام - في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام تكبرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويُسرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة «هود» وال«حجر». فلما جاءت إبراهيم البشري، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع عنهم يُظنون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوْا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ فِيْهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيْهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُكٰتَمُ مِنَ الْغٰفِرِيْنَ﴾، أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تُماليهم على كفرهم وبغيهم وذريهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سِوَىٰ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرِّيًّا﴾، أي: اغتم بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضيفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة، ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تُكٰتَمُ مِنَ الْغٰفِرِيْنَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُوْكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنْ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُوْنَ﴾، وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قُرَاهِم من قَرَارِ الأرض، ثم رَفَعَهَا إلى عَنَانِ السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم ججارة من سجيل منضود، مُسَوِّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة مُتِنَّة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾، أي: واضحة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبًا ﴿٣٧﴾ وَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴿٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

﴿وَالِى مَدِيْنَةٍ شُعَيْبًا فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِيْنَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوْهُ فَآخَذْتَهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جٰثِمِيْنَ ﴿٣٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب - عليه السلام - أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم معناه: واخشوا اليوم الآخر. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الاحزاب: ٢١]. وقوله: ﴿وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقضون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وضحية أخرجت

القلوب من حناجرها، وعذاب يَوْمِ الظَّلَّةِ الذي أزهق الأرواح من مُسْتَقَرِّهَا، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدّمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف، وهود، والشعراء. وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾، قال قتادة: مَبْتِين. وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتترج في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود - عليه السلام - وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحِجْرَ قرياً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾، أي: كانت عقوبته بما يُناسبه، ﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟! فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عتات السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده، فيبقى بدنًا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر. ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجّة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألو سواً بسواً، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخدمت الأصوات منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبادره الأرض، فهو يتجملجل فيها إلى يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾، أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم. وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللّف والثشّر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهت على هذا لأنه قد زوي أن ابن جرير قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قوم لوط. ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾، قال: قوم نوح. وهذا منقطع عن ابن عباس؛ فإن ابن جرير لم يدرکه. ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق. وقال قتادة: ﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قوم لوط، ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، قوم شعيب. وهذا بعيد أيضاً لما تقدّم، والله أعلم.

﴿مَثَلِ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دُونِ الله، يرجون نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو عِلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ. وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يُحْسِنُ الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ فَإِنَّهُ مُتَمَسِّكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا، لِقْوَتَهَا وَثَبَاتَهَا.

ثم قال تعالى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ بِهِ: إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَيَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ، وَسَيَجْزِيهِمْ وَضَفَّهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتصلون منه.

[٥١٥١] قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ابن لهيعة، عن أبي قبيبل، عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَلْفَ مَثَلٍ. وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - حيث يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾. وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ سِنَانٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ قَالَ: مَا مَرَزْتُ بَابِيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْرَزْتَنِي، لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَى مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، يعني: لا على وَجْهِ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ، ﴿لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [طه: ٤٥]، ﴿لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: لدلالة واضحة على أَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ. ثم قال تعالى أَمْرًا رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ قِرَاءَتُهُ وَإِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ. ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يعني: أَنِ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، أَي: إِنَّ مُوَاطَّئَتَهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ. وقد جاء في حديث عمران، وابن عباس مرفوعاً: «من لم تنته صلته عن الفحشاء والمنكر، لم تَرُدَّهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا».

ذِكْرُ الْأَثَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ :

[٥١٥٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المخرومي الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد - دُرُخْتُ - حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حصين قال: سئل النبي - ﷺ - عن قول الله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قال: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ»^(١).

[٥١٥٣] وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَزُوعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ بِهَا مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا»^(٢). ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية.

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْمُسَيْبِ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قَالَ: فَمَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ بِصَلَاتِهِ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا. فهذا موقف.

[٥١٥٤] قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: وَحَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ هَاشِمِ بْنِ الْبَرِيدِ، عَنْ جُوَيْرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِيعِ الصَّلَاةَ. وَطَاعَةُ الصَّلَاةِ أَنْ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». قَالَ: وَقَالَ سُفْيَانُ: ﴿تَأْمُرُكَ﴾؟ قَالَ: سُفْيَانُ: إِي وَاللَّهِ، تَأْمُرُهُ وَتَنْهَاهُ^(٣).

[٥١٥٥] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ، عَنْ جُوَيْرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَقَالَ أَبُو خَالِدٍ مَرَّةً: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ -: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِيعِ الصَّلَاةَ، وَطَاعَةُ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»^(٤). وَالْمَوْقُوفُ أَصْحُ، كَمَا رَوَاهُ الْأَعْمَشُ، عَنْ مَالِكِ ابْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: قِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ: إِنْ فَلَانًا لِيُطِيلَ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: إِنْ الصَّلَاةَ لَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ أَطَاعَهَا.

[٥١٥٦] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: وَقَالَ عَلِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ تَنْهَهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ بِهَا مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا»^(٥). وَالْأَصْحُ فِي هَذَا

(١) ضعيف. له علتان، عمر بن أبي عثمان، وهو مجهول. والحسن عن عمران، منقطع. راجع مراسيل ابن أبي حاتم. والصواب أنه عن الحسن مرسل. أخرجه القضاعي ٥٠٨ وإسناده ضعيف، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» ١٥٠/١: رواه علي بن معبد في «كتاب الطاعة والمعصية» من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني ١١٠٢٥ وابن أبي حاتم، وابن مردويه، كما في الدر ٢٧٩/٥. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٥٥٧: فيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس اهكذا قال الهيثمي، وقال الحافظ عنه في «التقريب»: صدوق، اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك اهوله طريق آخر أخرجه القضاعي ٥٠٩ وفيه حفص ابن سليمان، وهو ضعيف. والصواب وقفه على ابن عباس، كما رواه غير واحد، وانظر الآتي.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٧٧٨٤، فيه جوير، وهو متروك متهم، والضحاك لم يلق ابن مسعود، ولا أدركه. وقد أخرجه الطبري ٢٧٧٨٢ موقوفاً، وهو الصواب.

(٤) إسناده ضعيف جداً كسابقه، والصواب الوقف كما قال ابن كثير رحمه الله.

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٧٧٨٥، عن الحسن مرسلًا، ومرسلات الحسن واهية، لأنه يحدث عن كل أحد، كما هو مقرر في كتب المصطلح. وأسنده الطبري ٢٧٧٨٦ عن الحسن من قوله. وهو أصح، وكرره ٢٧٧٨٧ عن الحسن وقتادة موقوفاً عليهما. وقد اختار ابن جرير الوقف في هذه الأحاديث جميعاً.

كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأعمش، وغيرهم، والله أعلم.

[٥١٥٧] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير - يعني ابن عبد الحميد - عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أراه عن جابر - شك الأعمش - قال: قال رجل للنبي - ﷺ -: إن فلاناً يُصلي فإذا أصبح سرق! قال: «سينهاه ما تقول»^(١).

وحدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي - ﷺ - بنحوه، ولم يشك. ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش، واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو غيره، وقال قيس، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر. وقال جرير وزياد بن عبد الله: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر.

[٥١٥٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش قال: أخبرنا أبو صالح، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق! فقال: إنه سينهاه ما تقول»^(٢).

وتستعمل الصلاة على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أي: أعظم من الأول، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم. وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ الْمَكَلُوتَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خلال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذکر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذکر الله القرآن يأمره وينهاه. وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ الْمَكَلُوتَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، يعني: ما دُمت فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يقول: ولذکر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه. وكذا زوى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك، قلت: فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول؟ قال: وأي شيء يقول؟ قلت: قال: يقول الله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ أَكْبَرُ﴾، فلذکر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه. قال: صدق. قال: وحدثنا أبي، حدثنا الثقبلي، حدثنا إسماعيل، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرّمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشيم، أنبأنا عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسيخ والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولاً عجباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا

= تنبيه: ثم إن المتن فيه لفظ «لم يزد من الله إلا بعداً» يعارضه الحديث الآتي وهو قوله «إن صلاته سنتها» والثاني أصح إسناداً، والله تعالى أعلم.

(١) حديث صحيح. أخرجه البزار كما في «المجمع» ٢/٢٥٨ من حديث جابر، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.
(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢/٤٤٧ والبزار كما في «المجمع» ٢/٢٥٨ وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح اهـ.

ذكر ثموه أكبر من ذكركم إياه. وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس. وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم، واختاره ابن جرير.

﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦)

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥) [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَكُمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْتَقِ ﴾ [طه: ٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾، أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ يُسْقَلُ من الجدال إلى الجلاد، ويُقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرَفُ رُسُلَهُ وَالغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١٧) [الحديد: ٢٥]. قال جابر: أُمِرْنَا مَنْ خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ أَنْ نُضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ. قال مجاهد: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾، يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية. وقوله: ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مُجَمَّلاً مُعْتَقاً على شرط، وهو أن يكون مُتَزَلِّاً، لا مُبَدِّلاً ولا مُؤَوِّلاً.

[٥١٥٩] قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله - ﷺ -: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون^(١). وهذا الحديث تفرد به البخاري.

[٥١٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة: أن أبا نملة الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالس عند رسول الله - ﷺ - جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنابة؟ قال رسول الله - ﷺ -: الله أعلم. قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله - ﷺ -: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم»^(٢). قلت: وأبو نملة هذا هو: عمار، وقيل: عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصاري، رضي الله عنه. ثم ليعلم أن أكثر ما يحدثون به غالبه كذب عمار.

(١) أخرجه البخاري ٤٤٨٥، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٦٤٤ وأحمد ١٣٦/٤ وابن حبان ٦٢٥٧ والبيهقي ١٠/٢ وإسناده لين، ابن أبي نملة هو نملة وثقه ابن حبان وحده، وهو مقبول، ولم يتابع على صدره، وعجزه صحيح بشاهده.

ويُهتَان، لأنه قد دخله تحريفٌ وتبديلٌ وتغييرٌ وتأويلٌ، وما أقلُّ الصدقِ فيه، ثم ما أقلُّ فائدةٍ كثيرٍ منه لو كان صحيحاً. قال ابنُ جريرٍ: حدثنا ابنُ بشارٍ، حدثنا أبو عاصمٍ، حدثنا سُفيانٌ، عن سليمان بن عامرٍ، عن عُمارة بن عُميرٍ، عن خُرَيْث بن ظُهَيْرٍ، عن عبد الله - هو ابن مسعودٍ - قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدؤكم وقد ضلُّوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال.

وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابتكم الذي أنزل إليكم على رُسوله - ﷺ - أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وقال البخاري: وقال أبو اليماني: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قریش بالمدينة - وذكر كعب الأخبار - فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحذنين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبئوا عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغفً من غير قصد، لأنه يحدث عن ضحفٍ هو يحسب بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظٌ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك، كل بحسبه، والله الحمد والمثنة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكُتُبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُ بِبَيِّنَاتٍ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي سُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قال ابنُ جريرٍ: يقول الله تعالى: «كما أنزلنا الكُتُبَ على من قبلك - يا محمد - من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب». وهذا الذي قاله حسنٌ، ومناسبتُهُ وارتباطُهُ جيّدٌ. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكُتُبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: الذين أخذوه فتلّوه حقّ تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، وأشباههما. وقوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، يعني: العرب من قریش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾، أي: ما يكذب بها ويجحدها حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيئات! ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُ بِبَيِّنَاتٍ﴾، أي: قد لبست في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسب الكتابة، بل كلُّ أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجلٌ أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكُتُب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الاعراف: ١٥٧]. وهكذا كان - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - لا يحسب الكتابة ولا يخط سطرأ ولا حرفاً بيده. بل كان له كُتُب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه، أنه عليه السلام كتب يوم

الحديثية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»، وإنما حملته على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثم أخذ فكتب». وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب»^(١). ولهذا اشتد النكير من فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً، وخطبوا به في محافلهم. وإنما أراد الرجل - أعني الباجي، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة.

[٥١٦١] كما قال - ﷺ - إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه: كافر». وفي رواية: «ك ف ر»، يقرؤها كل مؤمن»^(٢).

[٥١٦٢] وما أوردته بعضهم من الحديث أنه لم يمُت - ﷺ - حتى تعلم الكتابة^(٣)، فضعيف لا أصل له. قال الله تعالى: «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا»، أي: تقرأ «بِأَن قِيلَ مِنْ كِتَابٍ» لتأكيد النفي «وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ»، تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: «وَلَا تَلْمِزْهُمْ بِطُغْيَانِهِمْ» [الأنعام: ٣٨].

وقوله تعالى: «إِذَا لَازَبَتِ الْأَبْطُلُونَ»، أي: لو كنت تحسبها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: «وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوْلِيَاءُ أَكْتَنَبَهَا فِيهِ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» [الفرقان: ٦]، وقال هاهنا: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُورِ الْآيَاتِ أَوْثُورًا أَلِيمًا»، أي: هذا القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهيماً وخبراً، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» [القم: ١٧].

[٥١٦٣] وقال رسول الله - ﷺ -: «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»^(٤).

[٥١٦٤] وفي حديث عياض بن جمار، في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: «إني مبتليك ومبتل بك، ومُنزَّل عليك كتاباً لا يغيبه الماء، تقرؤه نائماً ويقظان»^(٥). أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل.

[٥١٦٥] كما جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب ما أحرقتة النار»^(٦). لأنه محفوظ في

(١) هو بعض حديث الحديثية المشهور، وفيه ذكر الصلح. انظر صحيح البخاري ٢٦٩٨ و ٢٦٩٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧١٣١ و ٧٤٠٨ و مسلم ٢٩٣٣ و أبو داود ٤٣١٦ و ٤٣١٧ و أحمد ١٧٣/٣ و الترمذي ٢٢٤٦ و أبو يعلى ٣٠١٦ و ٣٠١٧ من حديث أنس.

(٣) ذكره الحافظ في «فتح الباري» ٥٠٤/٧ وقال: أخرجه ابن أبي شيبة، وعمر بن شبة من طريق مجاهد عن عون بن عبد الله، وهذا مرسل، قال مجاهد: وذكرته للشعبي، فقال: صدق. قد سمعت من يذكر ذلك اهـ وهذا الأثر عن عون والشعبي مرسل. ولا يحتج بالمراسيل في هذا المقام فإن عدة آيات من القرآن الكريم تصف رسول الله ﷺ بأنه أمي، وكذا جاء في الأحاديث الصحيحة.

(٤) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٤.

(٥) تقدم في تفسير سورة الفرقان عند آية: ٢٠.

(٦) أخرجه الدارمي ٣١٩٢، وأبو يعلى ١٧٤٥ وأحمد ١٥١/٤ - ١٥٥ والطبراني ٣٠٨/٧ من حديث عقبة بن عامر، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٢٧: فيه ابن لهيعة، وفيه خلاف اهـ والراوي عنه أحد العبادة، وهو عبد الله بن يزيد المقرئ، فالإستناد لا بأس به إن شاء الله. وورد من حديث عصمة بن مالك أخرجه الطبراني ١٨٦/١٧ وأعله الهيثمي ١١٦٢٨ =

الصدر، مُسَرَّ على الألسنة، مُهَيِّمٌ على القلوب، معجز لفظاً ومعنى. ولهذا جاء في الكُتُب المتقدمة، في صِفة هذه الأمة: أَنَا جِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ.

واختار ابن جرير أَنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطئه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رَوَاهُ العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْعَلُ يَتَابِعَاتًا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، أي: ما يُكذِّبُ بها وَيَبْحَسُ حَقَّهَا ويرُدُّها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَحِيدُونَ عَنْهُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - تُرشدُهم إلى أَنَّ محمداً رسول الله، كما جاء صالح بناتته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم إنما قُضِدْكم التعتُّ والامتحان، فلا يُجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآيَاتُنَا نُمُودَ النَّفَاقَةِ مُبِمِرَّةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أي: إنما بعثت نذيراً لكم بَيْنَ النَّذَارَةِ فَعَلِي أَنْ أبلغكم رسالة الله تعالى، و﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ مَرْتَدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَيَسَّ عَلَيْنَا هُدًى مَوْلَانَا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث طلبوا آيات تُدلُّهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم به، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾، أي: أولم يكفهم آية أننا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خَبَرٌ ما قبلهم، ونَبَأٌ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمِّي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تُخالط أحداً من أهل الكتاب، فجننتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ

= بالفضل بن المختار، وأنه ضعيف اهـ وله علة ثانية أحمد بن رشدين، متهم بالكذب. وورد من حديث سهل بن سعد أخرجه الطبراني ٥٩٠١ وابن عدي ٢٩٥/٥ و٤٦٩/٦ وأعله الهيثمي ١١٦٢٩ بعيد الوهاب بن الضحاك، وأنه متروك. وأحسن هذه الطرق، طريق ابن لهيعة. فالحديث حسن أو يشبه الحسن، والله أعلم.

يَعْلَمُ عَلَّمَتُوا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩٧﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا ابْنَ آدَمَ مِنَ رَبِّهِ ؎ أَوَلَمْ نَأْتِهِم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَّا لَعَلَّ هُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [طه: ١٢٣].

[٥١٦٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١). أخرجاه من حديث الليث. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَرِذْقَةً لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: إن في هذا القرآن ﴿رَحْمَةً﴾، أي: بياناً للحق، وإزاحةً للباطل، و﴿رِذْقَةً﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَرَ بِاللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَنَاتُكُمْ شَيْدًا﴾. أي: هو أعلم بما تُفِيضُونَ فيه من التَّكْذِيبِ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنتُ كاذباً عليه لانتقم مني. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الْوَيْبَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَمْرِ عَنَّا حَجْرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وإنما أنا صادقٌ عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: لا تخفى عليه خافية. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

﴿وَسْتَعْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعَثَةٌ وَهَمَّ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَشْفَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَآتِنَا حِكْمَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَدَادٍ آيِسٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿وَسْتَعْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، أي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاههم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعَثَةٌ﴾، أي: فجاءة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة. قال شعبة، عن سيماء، عن عكرمة قال في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: البحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مُجَالِدٍ، حدثنا أبي، عن مُجَالِدٍ، عن الشعبي: أنه سمع ابن عباس يقول: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، وجهتهم هو هذا البحر الأخضر، تنشر الكواكب فيه، وتكثور فيه الشمس والقمر، ثم يستوقد فيكون هو جهنم.

[٥١٦٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حبيب، حدثنا صفوان بن يحيى، عن أبيه أن النبي - ﷺ - قال: «البحر هو جهنم». قالوا ليغلي. فقال: ألا ترون أن الله

تعالى يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا رَبُّهُمْ سَرُودًا﴾، قال: لا، والذي نفسُ يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله، ولا يُصَيَّبُ منها قطرةٌ حتى أعرض على الله عز وجل^(١). هذا تفسيرٌ غريبٌ، وحديثٌ غريبٌ جداً، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْتَسْخِطُونَ الْعَذَابَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَيَنْتَحِبُونَ أَنْ يُعْلِمَهُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَنْجِئْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ غَوَايِبٌ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَنْجِئْهُمْ قَوْلُهُمْ ظُلْمٌ مِنَ الظَّالِمِينَ وَمِنْ تَحْنُوتِهِمْ ظُلْمٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ أَنشَارٌ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذابِ الحسي. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ دُورًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تهديدٌ وتقريعٌ وتوبيخٌ، وهذا عذابٌ معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُورًا مَسَّ سَقَرَ﴾ [٥٨] ﴿إِنَّمَا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [٥٩] ﴿القمع: ٤٨-٤٩﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ لِمَنْ تَارَ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [٥٣] ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [٥٤] ﴿أَفِيسْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [٥٥] ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٥٦] [الطور: ١٣-١٦].

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ [٥٦] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [٥٧] ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمٌ أَجْرٌ الْعَمَلِينَ﴾ [٥٨] ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٥٩] ﴿وَكَأَن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٦٠]

هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرُونَ فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يؤخِّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ [٥٦].

[٥١٦٨] قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني جبير بن عمرو القرشي، حدثني أبو سعد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله - ﷺ -: «البلادُ بلادُ الله، والعبادُ عبادُ الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم»^(٢). ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خيرَ المنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة - رحمه الله - وآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيُوماً ببلادِهِ. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله - ﷺ - وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [٥٧]، أي: أينما كنتم يدرِككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خيرٌ لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا مَحِيدَ عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووفاه تمام الثواب. ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) حديث منكر. تقدم تخريجه في تفسير سورة الكهف عند آية: ٢٩، وقد ركب الصحابة رضي الله عنهم، البحر في الغزو وغيره، والله أعلم.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ١٦٦/١، ١٤٢٠ وفيه مجاميل كما في «المجمع» ٦٢٩٨، فهو واهٍ.

الْفَلْيَلِكْتِ لَتُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٥٦﴾، أي: لَنُسَكِّنَنَّاهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، مِنْ مَاءٍ وَخَمِيرٍ، وَعَسَلٍ وَلَبَنٍ، يُصْرَفُونَهَا وَيُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مَا كَيْفِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا، ﴿يَغْمُزُ أَعْرَ الْعَمِلِينَ﴾، نَعَمَتِ هَذِهِ الْغُرُفُ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: عَلَى دِينِهِمْ، وَهَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ، وَنَابَذُوا الْأَعْدَاءَ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرِبَاءَ، ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ، وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ، وَتَضَلُّيقًا مَوْعِدِهِ.

[٥١٦٩] قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذن، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جدّه أبي سلام الأسود، حدثنا أبو معاوية الأشعري: أن أبا مالك الأشعريّ حدثه، أن رسول الله - ﷺ - حدثه: «أن في الجنة عُرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتاب الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»^(١). ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببتعة، بل رزقه تعالى عامٌ لخلقها حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَايُنَ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، أي: الله يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا، وَيُبَسِّرُهَا عَلَيْهَا، فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُصْلِحُهُ حَتَّى التُّرْبُ فِي قَرَارِ الْأَرْضِ، وَالطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ، وَالْحَيْثَانِ فِي الْمَاءِ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا وَمِمَّا وَسَفَرًا مُمْسِكًا بِرِزْقِهَا﴾ [هود: ٦].

[٥١٧٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهزوي، حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - حدثنا الجراح بن منهال الجزري - هو أبو العطوف - عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله - ﷺ - حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من الثمر ويأكل، فقال لي: يا ابن عمر، ما لك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسول الله. قال: لكئي أشتهيه، وهذه صنح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجد، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكيسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين؟ قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَايُنَ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فقال رسول الله - ﷺ -: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يُريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكيز ديناراً ولا درهماً، ولا أخبأ رزقاً لغد»^(٢). هذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف. وقد ذكروا أن الغراب إذا قفس عن فراجه البيض خرجوا وهم بيض، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش، فيظل القرخ فاتحاً فاه، يتفقد أبويه. فيبيض الله له طيراً صغاراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه، والأبوان

(١) جيد. أخرجه أحمد ٣٤٣/٥ وابن حبان ٥٠٩ والطبراني ٣٤٦٦ وإسناده قوي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/٢٥٤: ورجاله ثقات. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد ١٧٣/٢ والحاكم ٣٢١/١، وفي الباب أحاديث.

(٢) أخرجه الواحد في «أسباب النزول» ٦٧٣، وإسناده ضعيف جداً لأجل الجراح بن منهال، كما قال ابن كثير رحمه الله. وعند ابن أبي حاتم علة أخرى، وهي الراوي عن ابن عمر لم يسم. وكذا ضعفه السيوطي في «أسباب النزول» ٦٧٣. قلت: الجراح اتهمه ابن حبان بالكذب؛ راجع المروجين ٢١٨/١، وما يدل على وهنه ما رواه الشيخان «أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم».

يَتَّقُدَانَهُ كُلَّ وَقْتٍ، فكلما رأوه أبيض الرِّيش نَفَرَا عنه، فإذا رأوه قد أسودَّ ريشه عَطَفَا عليه بِالْحَضَانَةِ وَالرُّزْقِ، ولهذا قال الشاعر:

يَا رَازِقَ النَّعَابِ فِي عُشِّهِ وَجَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ الْمَهِيضِ^(١)

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر: كقول النبي - ﷺ -: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتُرْزُقُوا».

[٥١٧١] قال البيهقي: أخبرنا إمام أبو الحسن علي بن أحمد عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن زداد - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا»^(٢). قال: ورويناه عن ابن عباس.

[٥١٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن ذراج، عن عبد الرحمن بن حنيفة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «سَافِرُوا تَرِيحُوا، وَصُومُوا تَصِحُّوا، وَاغْزُوا تَغْنَمُوا»^(٣). وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً، وعن معاذ بن جبل موقوفاً. وفي لفظ: «سَافِرُوا مَعَ ذَوِي الْجِدِّ وَالْمَيْسِرَةِ»^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّيِّحُ الْمَكِيدُ﴾، أي: لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١١) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ ﴿١٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مُقَرَّرًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - مُعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْمُسْتَقَلُّ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ وَمُقَدِّرُ أَجَالِهِمْ

(١) النعاب: فرخ الغراب، والقصود: كل طائر. والعظم المهيض: المكسور بعدما كاد ينجبر.

(٢) يشبه الحسن. أخرجه البيهقي ١٠٢/٧ وابن عدي ١٩٠/٦ والخطيب ٣٨٧/١٠ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٥٢٨١ وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الله بن هارون، وهو ضعيف. قلت: تابع عبد الله بن هارون، غير واحد، وإنما علته محمد بن عبد الرحمن بن زداد. فقد ضعفه الجمهور، وبه أعله ابن عدي، وقال: وعامة ما يرويه لا يتابع عليه. وذكره ابن أبي حاتم في «العلل» ٢٢٣٠ من هذا الوجه، وقال: قال أبي: هذا حديث منكر. وله شاهد من حديث ابن عباس. أخرجه ابن عدي ٥٧/٧ وفيه نيشل بن سعيد متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، لكن ورد من طريق آخر أخرجه البيهقي ١٠٢/٧ وفيه القاسم بن عبد الرحمن، وهو الأنصاري قال ابن معين ضعيف جداً. كما في الميزان ٦٨٢٠ وعنه بسطام بن حبيب، لم أجد من ترجمه. وورد من حديث أبي سعيد، أخرجه ابن عدي ٤٥٤/٣ وأعله بسوار بن مصعب، وقال: عامة ما يرويه غير محفوظ. وفيه عطية العوفي، ضعيف. وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٨٠/٢ والطبراني في «الأوسط» ١/٢٢٥/٢/٨٤٧٧ من طريقين عن أبي هريرة، أما طريق الإمام أحمد، ففيه ابن لهيعة، وهو ضعيف عند الجمهور، وذراج، ضعفه غير واحد، وقال الهيثمي عن رواية الطبراني ٥٠٧٠ «مجمع»: ورجاله ثقات. وهو كما قال إلا أنه معلول، فإن زهير بن محمد روى عنه أهل الشام مناكير كثيرة كما قال الإمام أحمد والبخاري، وقد أجاد الحفاظ العراقي إذ قال في «الإحياء» ٧٥/٣: إسناده ضعيف. وورد عن عمر موقوفاً أخرجه عبد الرزاق ٤٣٤/١١ وفيه إرسال بين طاوس وعمر. الخلاصة: ورد من طرق عدة وكلها ضعيفة، وبعضها أشد ضعفاً من بعض، والمتن منكر وحسبه الوقف، والله تعالى أعلم.

(٤) لا أصل له في المرفوع بهذا اللفظ، وإنما هو موقوف، والله أعلم.

واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم، ومن يستحق العنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلييتهم: «ليتك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْمَلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن حَقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دَوَامَ لها، وغاية ما فيها لهوٌ ولعبٌ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مُستَمِرَّةٌ أبد الأبد. وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لأنتموا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعون وحده لا شريك له، فهلاً يكون هذا منهم دائماً! ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْمَلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية. وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

[٥١٧٣] وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما افتتح رسول الله - ﷺ - مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا يتنجي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا يتنجي في البحر غيره فإنه لا ينجي غيره في البر أيضاً، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد، فلاجدته رؤوفاً رحيماً^(١). وكان كذلك. وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا﴾، هذه اللام يُسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة، لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرَاتٌ﴾ [القصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا مَنَا وَنَحْفَظُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِي الْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى مُمتثناً على قریش فيما أحلهم من حرمة، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَأْتِيَنَّكَ الشَّرُّ﴾ [١]، ﴿لِيَأْتِيَنَّكَ الشَّرُّ وَالصَّيْفُ﴾ [٢]، ﴿لِيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [٣]، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [٤]. وقوله تعالى: ﴿أَفِي الْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾،

(١) هذا معضل، فهو ضعيف بهذا اللفظ. وأما خبر رجوع عكرمة بعد أن فر يوم الفتح، فإنه خير مشهور.

أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد و﴿بَدَلُوا بِمَتَّ اللَّهُ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فكفروا بنبي الله وعبيده ورَسُوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادَةِ لله، والأل يُشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فَكَذَّبُوهُ وَقَاتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، ولهذا سَلَبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وَقُتِلَ مِنْ قَتْلٍ مِنْهُمْ بِيَدِهِ، وصارت الدولة لله ولرسوله، ففتح الله على رَسُوله مَكَّةَ، وأرغم أنافهم وأذل رِقَابَهُمْ. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ يَأْلَحُّ لَنَا جَاهَةً﴾، أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه. ولم يُوحِ إليه شيء. ومن قال: سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ، فالأول مفتَر، والثاني مُكذَّب، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لَلْكَافِرِينَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾، يعني الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، ﴿لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لتبصُرَنَّهُمْ سُبُلَنَا، أي: طُرُقَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عَكَا - في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم لما لا يعلمون. قال أحمد بن الحَوَارِيِّ: فحدثت به أبا سليمان - يعني الداراني - فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في قلبه. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الرُّيِّ، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المُغيرة، عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مَرْزِيمَ - عليه السلام - إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. والله أعلم.

آخر تفسير سورة العنكبوت، والله الحمد والمنة



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ ١﴾ غَلَبَتِ الرَّوْمُ ﴿٢﴾ فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّغَلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي يَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴿

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطر هرقل ملك الروم حتى الجاه إلى القسطنطينية، وحاصره مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي.

[٥١٧٤] قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا معاوية بن عمرو، حَدَّثَنَا أبو إسحاق، عن سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿الذِّكْرُ ١﴾ غَلَبَتِ الرَّوْمُ ﴿٢﴾ فِي آدَقِ الْأَرْضِ ﴿٣﴾، قال: غَلَبَتِ وَعَلَبَتِ. قال: كان المشركون يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فِارِسُ عَلَى الرَّوْمِ، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرَّوْمُ عَلَى فِارِسَ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ. فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجْلاً، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا. فَجَعَلَ أَجْلاً خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ - لِلنَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ؟! - أَرَاهُ قَالَ: الْعَشْرَ - قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ. ثُمَّ ظَهَرَتِ الرَّوْمُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الذِّكْرُ ١﴾ غَلَبَتِ الرَّوْمُ ﴿٢﴾ فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي يَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴿^(١)﴾. هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعاً، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ حُرَيْثٍ، عَنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَرَزَارِيِّ، عَنِ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدِ الثَّوْرِيِّ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ، عَنِ حَبِيبٍ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ الصَّغَانِيِّ، عَنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ أَبُو سَعِيدِ التَّغْلِبِيُّ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ: ابْنُ أَسْعَدَ، مِنْ أَهْلِ طَرَسُوسَ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْفَرَزَارِيُّ، فَذَكَرَهُ. وَعِنْدَهُمْ: قَالَ سُفْيَانَ: قَبِلْتَنِي أَنَّهُمْ غَلِبُوا يَوْمَ بَدْرٍ.

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٩١٣ والنسائي في «التفسير» ٤٠٩ وأحمد ٢٧٦/١ و٣٠٤ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٣٠ - ٣٣١ وصححه الحاكم ٤١٠/٢ على شرطهما ووافقه الذهبي. وله شواهد.

حديث آخر، قال سُلَيْمان بن مهران الأعمش، عن مُسلم، عن مَسْرُوق قال: قال عبدُ الله: حَمَسَ قَد مَصِين: الدخان واللُّزَام، والبَطْشَةُ، والقَمَر، والرُّوم. أخرجاه.

[٥١٧٥] وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا المُحاريبي، عن داوُد بن أبي هند، عن عامر، هو الشَّعْبِيُّ - عن عبد الله - هو ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه - قال: كانت فارسُ ظاهرةً على الروم، وكان المشركون يُحِبُّون أن تظَهَّرَ فارسُ على الروم. وكان المسلمون يُحِبُّون أن تظَهَّرَ الروم على فارس، لأنهم أهلُ كتابٍ وَهُمْ أَقْرَبُ إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَقِيلُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾، قالوا: يا أبا بكر، إنَّ صاحبك يقول: إن الروم تظَهَّرَ على فارس في بضع سنين؟! قال: صدق. قالوا: هل لك إلى أن تُقَامِرَكَ؟ فبايعوه على أربع قلائصٍ إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففَرِحَ المشركون بذلك وشقَّ على المسلمين، فذَكَرَ ذلك للنبي - ﷺ - فقال: ما بضع سنين عندهم؟ قالوا: دُونَ العَشْرِ. قال: اذهب فزايدهم وازدَد سنَّتَيْنِ في الأجل. قال: فما مضت السنَّتَانِ حتى جاءت الركبَانِ بظُهُورِ الرُّومِ على فارس، ففرح المسلمون بذلك، وأنزل الله: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَحْلِفُ اللَّهُ وَعَدَمٌ﴾ (١).

[٥١٧٦] حديث آخر، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عُمَرَ الوكيعي، حدثنا مؤمل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَقِيلُونَ ﴿٣﴾، قال المشركون لأبي بكر: ألا تَرَى إلى ما يقولُ صاحبك؟ يزعمُ أن الرومَ تَغْلِبُ فارساً! قال: صدق صاحبي. قالوا: هل لك أن نُخاطِرَكَ؟ فَجَعَلَ بينه وبينهم أجلاً، فَحَلَّ الأجلُ قبل أن تَغْلِبَ الرومُ فارساً، فبلغ ذلك النبي - ﷺ - فسأه ذلك وكَرِهَهُ، وقال لأبي بكر: ما دَعَاكَ إلى هذا؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: تَعَرَّضَ لهم وأعْظَمَ الخَطَرَ، واجعله إلى بضع سنين. فاتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإنَّ العودَ أحمَدُ؟ قالوا: نعم. فلم تَمُضِ تلك السنين حتى غَلَبَتِ الرومُ فارساً، وَرَبَطُوا خِيُولَهُم بِالْمَدَائِنِ، وَبَنَوْا الرُّومِيَةَ. فجاء به أبو بكر إلى النبي - ﷺ - فقال: هذا السُّخْت، قال: تَصَدَّقْ بِهِ (٢).

[٥١٧٧] حديث آخر، قال أبو عيسى الترميذي: حدثنا مُحَمَّد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أُويس، أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي الزُّنَاد، عن أبي الزُّنَاد، عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْر، عن نِيَّارِ بن مَكْرَمِ الأَسْلَمِيِّ قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي آدَقِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَقِيلُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظُهُورَ الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهلُ كتاب، وفي ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وكانت قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهلُ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية

(١) أخرجه الطبري ٢٧٨٧٦ فيه إرسال، الشعبي لم يدرك ابن مسعود، لكن يصلح حديثه شاهداً لما قبله، والله أعلم. وفي بعض ألفاظه غرابة، وحديث ابن عباس المتقدم أحسن سياقاً، والله أعلم.

(٢) رجاله ثقات سوى مؤمل، وهو ابن إسماعيل، قال عنه الحافظ في التقریب: صدوق، سبى الحفظ، وجاء في «الميزان» ٨٩٤٩: وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: صدوق، كثير الخطأ، وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير. وذكره أبو داود، فغضمه، ورفع من شأنه اهـ فالرجل ليس بمتروك، لكنه سبى الحفظ، وقد خالف في حديثه هذا، وجاء بالألفاظ منكرة، ومنها «أن أبا بكر ربح الخطر...» وحديث ابن عباس، وهو أصح هذه الروايات، وكذا حديث نيار بن مكرم الآتي، مفادها أنه لم يربح الخطر، كما ترى، والله الموفق.

خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿اللَّهُ (١) عَلِيَّتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُكُمْ (٣) فِي بَضْعِ سِينِينَ﴾، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل؟ البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فسئوا بينهم ست سنين. قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، عاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال: ﴿فِي بَضْعِ سِينِينَ﴾. قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير^(١). هكذا ساقه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد. وقد روي نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والزهرري، وغيرهم.

[٥١٧٨] ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيّد بن داود في تفسيره حيث قال: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعثك إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فاشيري عليّ، أيهم أستعمل؟ فقالت: هذا فلان، وهو أروغ من ثعلب، وأحذر من صقر. وهذا فرخان، وهو أنفذ من سنان. وهذا شهر بزاز، وهو أحلم من كذا - تعني أولادها الثلاثة - فاستعمل أيهم شئت. قال: فإني قد استعملت الحلیم. فاستعمل شهر بزاز، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم، وخرب مدينتهم وقطع ريتونهم. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال ما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا. قال: أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت، والزيتون الذي قطع، فأتيت الشام بعد ذلك فرأيتها. قال عطاء الخراساني: حدثني يحيى بن يعمر: أن قيصر بعث رجلاً يدعى قطعة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهر بزاز، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلتيت فارس الروم، فغلبتهم فارس. ففرحت بذلك كفار قريش، وكرهه المسلمون. قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي - ﷺ - فقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهروا عليكم، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ (١) عَلِيَّتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُكُمْ (٣) فِي بَضْعِ سِينِينَ﴾ لله الأثر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿١﴾ يتصر الله ينصر من يشاء. فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا. ولا يُقرن الله أعيُنكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت يا أبا فضيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: أناجيك، عشر فلا يص^(٢) مني وعشر فلا يص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت، إلى ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلى النبي - ﷺ - فأخبره، فقال: ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع. فزايد

(١) أخرجه الترمذي ٣١٩٤ وإسناده قوي، إلا أن لفظ «فأسلم عند ذلك ناس كثير» غريب وباقي الحديث قوي، وهو شاهد حسن لحديث ابن عباس المتقدم في أول هذه الروايات، وهو أحسن سياقاً، والله أعلم. وللحديث طرق أخرى، وهي مرسله، كما ذكر المصنف رحمه الله.

(٢) النحب: المراهنة. القلوص من الإبل: الشابة الباقية على السير.

في الحَظَر ومادَّة في الأجل. فخرج أبو بكر فَلَقِي أَيْبًا فقال: لَمَلَكٌ نَدِمْتُ؟ فقال: لا، تَعَالَ أزيدُكَ في الحَظَر وأمادُكَ في الأجل، فاجعلها مئةَ قَلُوصٍ لَمئةَ قَلُوصٍ إلى تسعِ سِنِينَ. قال: قد فَعَلْتُ. فظَهَرَتِ الرومُ على فارسَ قبل ذلك، فَغَلِبَهُمُ المسلمون. قال عكرمةٌ: لَمَّا أن ظَهَرَتِ فارسٌ على الروم، جلسَ فَرُحَانُ يشربُ هو وأخوه شَهْرَبُرَازَ، فقال لأصحابه: رأيتُ كأنِّي جالسٌ على سريرِ كِسْرَى، فَبَلَّغْتُ كِسْرَى، فكتبَ كِسْرَى إلى شَهْرَبُرَازَ: إذا أتاك كتابي فابعثْ إليَّ برأسِ فَرُحَانَ. فكتبَ إليه: أيها الملك، إنك لن تجدَ مثلَ فَرُحَانَ، له نكايَةٌ وصوتٌ في العدو، فلا تفعل. فكتبَ إليه: إن في رجالِ فارسَ خَلْفًا منه. فَعَجَّلَ إليَّ برأسه. فراجعَه، فَغَضِبَ كِسْرَى فلم يُجِبْه، وبعثَ بَرِيدًا إلى أهلِ فارسَ: إني قد نزعْتُ عنكم شَهْرَبُرَازَ، واستعملتُ عليكم فَرُحَانَ، ثم دَفَعَ إلى البَريدِ صَحيْفَةً لطيفةً صغيرةً فقال: إذا وُلِّيَ فَرُحَانُ الملكَ وانقادَ له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرَأَ شَهْرَبُرَازَ الكتابَ قال: سمعًا وطاعةً. ونزلَ عن سريره، وجلسَ فَرُحَانُ، ودَفَعَ إليه الصَحيْفَةَ قال: اتنوني بِشَهْرَبُرَازَ، وَقَدِّمَهُ ليضربَ عنقه، قال: لا تفعلْ حتى أَكْتُبَ وَصِيَّتِي، قال: نعم. فدَعَا بالسَّفَطِ فأعطاه ثلاثَ صحايفَ وقال: كُلُّ هذا راجعٌ فيكَ كِسْرَى، وأنت أردتُ أن تَقْتُلَنِي بكتابٍ واحدٍ. قرَدَ الملكَ إلى أخيه شَهْرَبُرَازَ، وكتبَ شَهْرَبُرَازَ إلى قيصرِ ملكِ الروم: إن لي إليك حاجةٌ لا تحملها البُرْدُ ولا تحمِلُها الصُحُفُ، فالقني ولا تَلْتَنِي إلا في حَمْسِينَ روميًّا، فأني ألقاك في خمسينَ فارسيًّا. فأقبلَ قيصرُ في خمسمئةِ ألفِ روميٍّ، وجعلَ يضعُ العيونَ بين يديه في الطريق، وخاف أن يكونَ قد مَكَّرَ به، حتى أتاه عيونُه أنه ليس معه إلا خمسونَ رَجُلًا. ثم بَسِطَ لهمُ والتقى في قُبَّةٍ ديباجَ ضُربتَ لهما، مع كُلِّ واحدٍ منهما سِكِّينٌ، فدَعَا تَرَجُمانًا بينهما، فقال شَهْرَبُرَازَ: إن الذين خزَّبوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كِسْرَى حَسَدَنَا وأراد أن أَقْتَلَ أخِي فأبيتُ، ثم أمرَ أخِي أن يَقْتُلَنِي. وقد خلعناه جميعًا. فنحن نَقَاتِلُهُ مَعَكَ. قال: قد أصبِئنا. ثم أشارَ أحدهما إلى صاحبه أن السَرَّ بين اثنين فإذا جاوزَ اثنين فشا. قال: أجل. فَقَتَلَا التَرَجُمانَ جميعًا بِسِكِّينِهِمَا، فأهلكَ اللهُ كِسْرَى، وجاء الخبرُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ - يومَ الحُدَيْبيةِ، فَفَرِحَ والمسلمون معه^(١). فهذا سياقٌ غريبٌ، وبناءٌ عجيبٌ.

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقلوه تعالى: ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قد تَقَدَّمَ الكلامُ على الحُرُوفِ الْمُقَطَّعةِ في أوائلِ السور، في أولِ سُورَةِ البقرة. وأما الرومُ فهم من سلالةِ العيصِ بنِ إسحاقِ بنِ إبراهيم، وهم أبناءُ عَمِّ بني إسرائيل، ويقال لهم: بَنُو الأصْفَرِ. وكانوا على دينِ اليونان، واليونانُ من سلالةِ يَافَثِ بنِ نُوحٍ، أبناءُ عَمِّ التُّركِ. وكانوا يَعْبُدُونَ الكواكِبَ السَّيَّارةَ السبعة، ويقال لها: المُتَحَيِّرة، وَيُصَلُّونَ إلى القُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وهم الذين أُسُّوا دِمَشقَ، وَبَنُوا مَعْبَدَهَا، وفيه محاريبٌ إلى جِهَةِ الشَّمالِ. فكان الرومُ على دينهم إلى بعدِ مَبْعَثِ المسيحِ بنحو من ثلاثمئةِ سنة، وكانَ مَنْ ملكَ الشَّامَ مع الجزيرةِ منهم يقال له: قِصْرُ. فكان أولُ مَنْ دخلَ في دينِ النَّصارى من ملوكِ الرومِ قَسطنطينُ بنِ قسطنس، وأمه مريمُ الهيلانية الغنداقانية من أرضِ حَرَّانَ، كانت قد تَنَصَّرَتِ قبله، فدَعَمته إلى دينها، وكان قبل ذلك قَيْلسُوفًا، فتابعها - يقال: تَقِيَّةٌ - واجتمعت به النَّصارى، وتناظروا في زمانه مع عبدِ اللهِ بنِ أريوس، واختلفوا اختلافًا كثيرًا منتشِرًا مُتَشَتِّتًا لا يَنْضَبِطُ، إلا أنه اتَّفَقَ من جماعتهم ثلاثمئةٌ وثمانيةٌ عَشَرَ أسقفًا، فوضعوا لِقسطنطينِ العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحَقيرة، وَوَضَعُوا له القوانين، يَعْنُونَ كُتُبَ الأحكامِ من تحليلِ

(١) أخرجه الطبري ٢٧٨٧٣ مع اختصار في بعض ألفاظه، وهو مرسل غريب كما قال الحافظ ابن كثير، وتقدم ما يغني عنه، والله أعلم.

وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وعَيَّرُوا دِينَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزادوا فيه ونقصوا منه. وصلَّوْا إِلَى الْمَشْرِقِ واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبَدُوا الصُّلَيْبَ وأحلُّوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس. وغير ذلك من البَوَاعِيثِ والشَّعَائِنِ، وجعلوا له البابا وهو كبيرهم، ثم البَتَّارِكَةَ ثم المَطَّارَنَةَ، ثم الأساقفة والقَسَائِسَةَ، ثم الشَّمَائِسَةَ. وابتدعوا الرهبانية. وبنَى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثه محارِبَ، وبنيت أمه القَمَامَةَ، وهؤلاء هم المَلِكِيَّةُ، يعنون الذين هم على دين المَلِكِ. ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فِرَقٌ وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله - ﷺ -:

[٥١٧٩] «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة»^(١). والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلُّما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل. وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملَّك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة، فناواه كسرى ملك الفرس، ومَلَّك البلادَ كالعراق وخراسان والري، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقه الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار. فتقدَّم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تُعظِّمه تعظيماً زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلاد، ولا أمكنه ذلك لخصانتها، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم البيرة والمدد من هنالك. فلما طال الأمرُ دبر قيصر مكيده، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يُقلِّعَ عن بلاده على مالٍ يُصالحه عليه، ويشتريه عليه ما شاء. فأجابته إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوارٍ وخُدَّامٍ وأصنافٍ كثيرة. فطارعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقلَّ عقله لَمَّا طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعتجزت قدرتهما عن جمع عُشره، وسأل كسرى أن يُمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فانا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها، فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدةً في جيش متوسط، هذا وكسرى مُخيِّم على القسطنطينية ينتظر ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعات في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المُقاتِلَةِ، أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كُرسِي مملكة كسرى، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحرَّيمه، وخلق رأس ولده، وركبه على حمار وبعت معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذ. فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من النَمِّ ما لا يُحصيه إلا الله عز وجل، واشتدَّ حنقه على البلد، فاشتدَّ في حصارها بكلِّ ممكن فلم يقدر على ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا مسلك لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم

(١) تقدم تخريجه، وهو حديث صحيح.

قيصرٌ بذلك احتال بحيلةٍ عظيمةٍ لم يسبق إليها، وهو أن أُرصدَ جُنده وحواصله التي معه عند فَم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من الثبن والبعر والرُوث فحَمَلت مَعَه، وسار إلى قَرِيبٍ من يوم في الماء مُصْعِداً، ثم أمر باللقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مَرَّت بِكِسْرَى ظَنَّ هو وجنُده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فَشَغَرَت المخاضة عن الفرس، وقَدِمَ قَيْصَرُ فَأَمَرَهُم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كِسْرَى وجنوده، ودخلوا القُسطنطينية. وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقي كِسْرَى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلاذهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا دَراريهم. فكان هذا من غلب الروم فارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم. وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات ويصري، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم. ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع.

[٥١٨٠] وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - قال لأبي بكر في مناجية ﴿الْعَرَبُ غَلَبَتِ الرُّومَ﴾ الآية: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع؟»^(١) ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وروى ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك؛ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَبَيْنَ بَعْدُ﴾، أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبنى على الضم لما قطع المضاف، وهو قوله «قبل» عن الإضافة، وثويت. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يتصير الله، أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كِسْرَى، وهم المجوس. وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسدي، وغيرهم.

[٥١٨١] وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم، والبخاري، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يتصير الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم^(٢).

وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس يوم الحديبية؛ قاله عكرمة، والزهري، وقاتدة، وغير واحد، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكِسْرَى ليمشي من جنص إلى إيلياء،

(١) أخرجه الترمذي ٣١٩١ والطبري ٢٧٨٦٦ وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وتقدم باستيفاء.

(٢) منكر، أخرجه الترمذي ٢٩٣٥ و٣١٩٢ والطبري ٢٧٨٨٠ والواحدى ٦٧٥ من حديث أبي سعيد، وقال الترمذي: حسن غريب! بل هو ضعيف، عطية العوفي، ضعيف الحديث، روى منابر كثيرة، وربما روى أحاديث عن الكلبي، وهو متروك وكان يكنى بأبي سعيد، فيظن الناس أنه أبو سعيد الخدري، راجع ذلك في الميزان. وللحديث علة أخرى، وهي نكارة المتن، فإن الخبر فيه أن هذه الآيات نزلت في المدينة يوم بدر، مع أن السورة كلها مكية باتفاق كما قال القرطبي. تنبيه: وقد وهم الألباني حيث جعل حديث أبي سعيد هذا في صحيح الترمذي ١١٢٥٥٠. وانظر تفسير القرطبي ٤٨٨٨ بتحقيقه.

وهو بيت المقدس، شكر الله - عز وجل - ففعل، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ، الذي بعثه مع دحية بن خليفة، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش وكانوا في غزاة، فجيء بهم إليه، فجلسوا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه -: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذبوه. فقال أبو سفيان: فوالله لولا أن يأتروا علي الكذب لكذبت. فسأله هرقل عن نسبه وصفته، فكان فيما سأله أن قال: فهل يعدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ - وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين - فاستدلوا بهذا على أن نضر الروم على فارس كان عام الحديبية، لأن قيصر إنما وقى بندره بعد الحديبية، والله أعلم.

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشتتت، فما تمكّن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي إصلاحه وتفقّد بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفي نذره، والله أعلم. والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك، لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيَّةٌ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَرْسَلُوا زَعًا أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣]. وقال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِغُ الْمَوْثِقُونَ ﴿٨٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٨٥﴾﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثني أسيد الكلابي، قال: سمعت الغلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه، قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ وَعَدَمٌ﴾، أي: هذا الذي أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: يحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا واكتسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذائق أذكيا في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كان أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظهره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن يصلي. وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْءَىٰ أَن كَذَّبُوا
بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مثبها على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فاعلموا أنها ما خلقت سدى، ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها موجهة إلى أجل مُسمى، وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ يَفْقَهُوْنَ رَبَّهُمْ لَكُفْرُونَ﴾. ثم نبههم على صدق رُسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرمهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشراً ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم. واستغلوا أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من وافي، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذلك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١١﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا آيَاتِهِمْ وَأَبْصُرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوْلَٰ مَرَرَةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ آثَمًا يُرِيدُ أَنَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وعلى هذا تكون السوأي منصوبة مفعولاً لأساؤوا، وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْءَىٰ﴾ أي: كانت السوأي عاقبتهم، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأي منصوبة خبر كان. هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاک بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، لقوله: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفِي قُلُوبِهِمْ حَبْطٌ مُّغْلَبٌ فَهِيَ الْآخِرَةُ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أي: كما هو قادر على بدآته فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم القيامة، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٢﴾، قال ابن عباس: يَبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يَكْتَتِبُ

المجرمون. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا﴾، أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخأثوهم أحوج ما كانوا إليهم. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ تَفَرَّقُونَ ﴿١٧﴾﴾، قال قتادة: هي - والله - الفرقة التي لا اجتماع بعدها. يعني أنه إذا رُفِعَ هذا إلى عَلِيِّينَ، وخُفِضَ هذا إلى أسفل السَّافِلِينَ، فذاك آخرُ العهدِ بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٨﴾﴾، قال مجاهد وقاتادة: يَنْعَمُونَ. وقال يحيى بنُ أبي كثير: يعني سَمَاعَ الغناء. والخَبْرَةُ أعمُ من هذا كُلِّه، قال العجاج:

فالحمدُ لله الذي أَعْطَى الحَبْرَ مَوَالِيَ الحَقِّ، إن المَوْلى شَكَرَ

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ

﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الحَيِّتِ وَيُخْرِجُ الحَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

هذا تَسْبِيحٌ منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشادٌ لعباده إلى تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفارُ النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح، وهو التَّحْمِيدُ، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هو المَحْمُودُ على ما خَلَقَ في السموات والأرض. ثم قال تعالى: ﴿وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء هو: شدةُ الظلام، والإظهار: قُوَّةُ الضياء. فسبحان خالقِ هذا وهذا، ﴿فَأَنقِ الإِبْرَاجَ وَجَعَلِ الأَيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ﴿٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا يَشْنُهَا﴾ [الشمس: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَشْنُ ﴿١﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾﴾ [الليل: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١-٢]، والآيات في هذا كثيرة.

[٥١٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زَبَّانُ بن فَائِدٍ، عن سَهْلِ بن معاذ بن أَنَسِ الجُهَنِيِّ، عن أبيه عن رَسُولِ الله ﷺ، أنه قال: أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَى اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَى؟ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾^(١).

[٥١٨٣] وقال الطَّبْرَانِيُّ: حدثنا مُطَلِّبُ بن شَعِيبِ الأَزْدِيِّ، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث ابن سعد، عن سعيد بن بَشِيرٍ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البَيْلَمَانِيِّ، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ - قال: من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾... الآية بكمالها، أدرك ما فاتته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته^(٢). إسناده ضعيف. ورواه أبو داود في سننه.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الحَيِّتِ وَيُخْرِجُ الحَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾، هو ما نحن فيه من قدرته على خَلْقِ الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خَلْقَهُ الأشياء وأضدادها، ليدلُّ

(١) أخرجه أحمد ٤٣٩/٣، وإسناده ضعيف جداً: ابن لهيعة، وابن فائد، وابن معاذ، ثلاثهم ضعفاء، وتقدم تحريجه.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٠٧٦ من طريق الليث بهذا الإسناد، وكذا ابن عدي في «الكامل» ٣/٣٩٠ وإسناده ضعيف جداً، فيه سعيد بن بشير النجرائي، أجمعوا على ضعفه، وبه أعله ابن عدي، ونقل عن البخاري قوله: لا يصح حديثه. وله علة ثانية، محمد بن عبد الرحمن البيلماني، متروك، واتهمه ابن حبان بالوضع. فلا يتقوى بما قبله لشدة ضعفهما.

خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات. والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من الططفة، والططفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كقوله: ﴿وَمَا آيَةٌ لِّمَنَ الْأَرْضِ الْحَيَّةُ أَحْيَيْنَهَا وَأَمْرَحْنَا مِنهَا حَبًّا قَيْتَهُ بِأَكْلُونِ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّجْمٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرًا فِيهَا مِنَ الْعِيُونِ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٢٣ - ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتِ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَّقِنُ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتُ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥ - ٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا فَأَقَالَا سُقْتُهُ لِيَكُو مَيْتًا فَآزِلُنَا بِهِ الْمَاءَ فَآخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ نَذِيرٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظَّمته وكَمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصوّر فكان علقه، ثم مُضغته، ثم صار عظاماً مُشكَّلةً على شكل الإنسان، ثم كَسَا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير. ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحضون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكر وعور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل يحسبه. فسبحان من أقدَرهم وسيرهم وسخرهم وصرهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٥١٨٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وعُندرا قال: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله - ﷺ -: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك^(١). ورواه أبو داود والترمذي من طريق، عن عوف الأعرابي به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: خلق لكم من جنسكم إنثاء يكون لكم أزواجاً، ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إنثاهم من جنس آخر من غيرهم، إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة، وهي المحبة، ورحمة، وهي الرافة، فالرجل يُسبك المرأة

(١) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ١٢.

إما لمحبيته لها أو لرحمته بها، بأن يكون لها منه ولدٌ، أو محتاجةً إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ أَسْنِيكُمْ وَالْوَدَّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣) يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشُفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبالٍ وأودية، وبحارٍ وقفارٍ، وحيوانٍ وأشجارٍ. وقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَقْنَا أَسْنِيَكُمْ﴾، يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتَرَّ لهم لغةٌ أخرى، وهؤلاء كُرْجٌ، وهؤلاء رُومٌ، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَزْر، وهؤلاء تَكْزور، وهؤلاء حَبَشَةٌ، وهؤلاء هنودٌ، وهؤلاء عَجَمٌ، وهؤلاء صَقَالِبَةٌ، وهؤلاء خَزْرٌ، وهؤلاء أَرَمَنٌ، وهؤلاء أكرادٌ، إلى غير ذلك مما لا يَعْلَمُهُ إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حُلَاهم، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خَلَقَ اللهُ آدم إلى قيام الساعة: كُلُّ له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وقَمٌ وخَدَانٌ. وليس يشبه واحدٌ منهم الآخرَ، بل لا بدُّ أن يفارقه بشيء من السُمب أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهرُ عند التأمل، كُلُّ وجهٍ منهم أسلوبٌ بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعةٌ في صفةٍ من جمالٍ أو قبح، لا بدُّ من فارقٍ بين كُلِّ واحدٍ منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾، أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار، وهذا ضدُّ النوم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يَعُونَ.

[٥١٨٥] قال الطبراني: حدثنا حجاج بن عمران السُدوسيُّ، حدثنا عمرو بن الحُصين العُقيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلانة، حَدَّثني ثور بنُ يزيد، عن خالد بن مَعْدَانَ، سَمِعْتُ عبد الملك بن مروانَ يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال: أصابني أرْقٌ من اللَّيْلِ، فَسَكَوتُ ذلكَ إلى رسولِ الله - ﷺ - فقال: «قُل: اللَّهُمَّ، غَارِبِ النَّجُومِ، وَهَدَاتِ الْعِيُونَ، وَأَنْتَ حَيُّ قَيُّومٌ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، أَنْمِ عَيْنِي وَأَهْدِيءْ لِي لَيْلِي». فقلتها، فذهب عني^(١).

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةَ مَنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَحْرُجُونَ﴾ (٢٥)

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمتها أنه ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مُزعجة، أو صواعقٍ متلفة، وتارة تَرُجُونَ وَمِيضُهُ وما يأتي بعده من المَطَرِ المُحتاجِ إليه، ولهذا

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني ٤٨١٧ وابن السني ٧٥٤ وابن عدي ١٧٩٩/٥ من حديث زيد بن ثابت، وأعله ابن عدي بعمرو بن حصين العُقيلي، وقال: تفرد به عمرو بن حصين، وهو مظلم الحديث، وحدث عن الثقات بمناكير، لا يروها غيره. ووافقه ابن حجر. راجع «الفتوحات الربانية» ١٧٧/٣.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَهْرَزْتُمْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتَسْمِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّفُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا اجتهد في اليمين يقول: «لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره». أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعايته إياهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، أي: من الأرض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمِيصٍ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ بِنُجْمَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿١٣﴾ إِذْآ هُمْ بِالسَّمَوَاتِ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً إِذْآ هُمْ بِجَمِيعٍ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣].

﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ فَلَيُنُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ملكه وعبيده، ﴿كُلُّ لَمْ فَلَيُنُونَ﴾، أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً.

[٥١٨٦] وفي حديث دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، مرفوعاً: «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة»^(١). وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أيسر عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البدأة، والبدأة عليه هيّن. وكذا قال عكرمة وغيره.

[٥١٨٧] قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: قال الله تعالى: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَتْ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»^(٢). انفرد بإخراجه البخاري كما انفرد بروايته أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة به. وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس سليم بن جبير، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - بنحوه، أو مثله. وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. قال العوفي، عن ابن عباس: كلُّ عليه هيّن. وكذا قال الربيع بن خثيم. ومال إليه ابن جرير. وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ إِلَى الْخَلْقِ، أَيْ: وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَى الْخَلْقِ. وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره، وقال مثل

(١) ضعيف. وتقدم في سورة البقرة: ١١٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٧٤، وقد تقدم.

هذا ابن جرير. وقد أشهد بعض المُفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إِذَا سَكَنَ الْعَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ وَجُنِبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ التُّسِيمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِلاَ امْتِرَاءٍ كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ
كَذَلِكَ قُلُوبُ أَزْيَابِ التُّجَلِي يُرَى فِي صَفْوِهَا اللهُ الْعَظِيمُ

﴿وَهُوَ الْعَدِيرُ﴾: الذي لا يُغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه
﴿الْحَكِيمُ﴾: في أفعاله وأقواله، شزعا وقدرًا. وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنكدر،
في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، قال: لا إله إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ
سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا مثل ضرب به الله - تعالى - للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك
مُعترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك،
إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من
أنفسكم: ﴿هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾، أي: أبرزتني أحد منكم أن
يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء! ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تخافون أن
يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذلك، كذلك الله لا
شريك له. والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه. وهذا كقوله تعالى:
﴿وَيَقُولُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
إنثاء، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من
سوء ما يبشر به، أيتمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله،
فنسبوا إليه ما لا يرضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبده
وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه.
ولو شاء لقسمه عليه، تعالى الله عنه ذلك علواً كبيراً.

[٥١٨٨] قال الطبراني: حدثنا محمود بن الفرج الأصبهاني، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدثنا
حماد بن شعيب، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان يُلبي أهل الشرك:
لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فأنزل الله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِّنْ
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾^(١). ولما كان التنبيه بهذا
المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى مُبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سقهاً من أنفسهم وجهلاً، ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا﴾، أي: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾،

(١) أخرجه الطبراني ١٢٣٤٨ وإسناده ضعيف، لضعف حماد بن شعيب، انظر «جمع الزوائد» ٢٢٣/٣.

أي: لا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾، أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه. لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَرِهَ النَّاسُ أَنْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

[٥١٨٩] وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتألتهم عن دينهم»^(١). وسنذكر في الأحاديث أن الله - تعالى - فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبْدِيلُ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾، قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خيراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبز على بابه، ومعناه: أنه - تعالى - ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجيلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾، أي: لدين الله. وقال البخاري قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾: لدين الله، ﴿خَلْقَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]: دين الأولين، و«الفطرة»: الإسلام.

[٥١٩٠] حدثنا عبدنا، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ﴾^(٢). ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به. وأخرجاه أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ.

وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة:

[٥١٩١] فمنهم الأسود بن سريع التميمي: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن، عن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله - ﷺ - وغزوت معه، فأصبث ظفراً، فقتل الناس يومئذ، حتى قتلوا الولدان. فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال: ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟! (١)

(١) تقدم تخريجه. أخرجه مسلم وغيره.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٧٩.

فقال رجل: يا رسول الله، أما هم أبناء المشركين؟ فقال: ألا إنما خياركم أبناء المشركين. ثم قال: لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية. وقال: كُلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبْوَاهَا يَهُودًا يَهَا أَوْ يُنَصْرَانَهَا^(١). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ السَّيْرِ، عَنْ زِيَادِ بْنِ أَيُّوبَ، عَنْ هُشَيْمٍ، عَنْ يُونُسَ - وَهُوَ ابْنُ عُيَيْدٍ - عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، بِهِ.

[٥١٩٢] ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»^(٢).

[٥١٩٣] ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - سُئِلَ عَنْ أَوْلَادِ الْمَشْرِكِينَ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ»^(٣). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَشْرٍ جَعْفَرِ بْنِ إِيَّاسِ الْيَشْكِرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا بِذَلِكَ.

[٥١٩٤] وقد قال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أنبأنا عمارة بن أبي عمارة، عن ابن عباس قال: أتى عليّ زمان وأنا أقول: «أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين»، حَتَّى حَدَّثَنِي فَلَانٌ عَنْ فَلَانٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - سُئِلَ عَنْهُمْ فَقَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ. قَالَ: فَلَقَيْتُ الرَّجُلَ فَأَخْبَرَنِي، فَأَمْسَكَتُ عَنْ قَوْلِي^(٤).

[٥١٩٥] ومنهم عياض بن جمار المجاشعي: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مطرف، عن عياض بن جمار أن رسول الله - ﷺ - حَظَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «إِنَّ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهَلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَا نَحَلْتَهُ عِبَادِي حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنْفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ أَنْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ، وَعَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْيِبُهُ الْمَاءُ تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: يَا رَبُّ، إِذَا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً»^(٥). قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْزِهِمْ نَغْرَكَ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسُنْفِقْ عَلَيْكَ. وَابْعَثْ جَيْشًا نَبَعْتُ خَمْسَةَ مِثْلِهِ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ. قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدِقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ فَقِيرٌ مُتَّصِدِقٌ. وَأَهْلُ النَّارِ

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ٨٦١٦/٣ وأحمد ٤٣٥/٤ و٢٤/٤ وأبو يعلى ٩٤٢ والطبراني ٨٢٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣١٦/٥: وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح اهـ قلت: لكن فيه عننة الحسن، وهو مدلس، ولم يثبت سماعه من الأسود، ولبعضه شواهد وانظر «الصحيح» ٤٠٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥٣/٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢١٨/٧: وفيه أبو جعفر الرازي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات اهـ، قلت: أبو جعفر ضعفه غير واحد، وفيه عننة الحسن، لكن لأصله شواهد.

(٣) تقدم في تفسيره سورة الإسراء عند آية: ١٥.

(٤) أخرجه أحمد ٧٣/٥ وانظر ما تقدم، فإنه في الصحيحين.

(٥) أي يثدخو رأسي، ويشجوه كما يثدخ الخبز، أي يكسر.

خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يَبْتَغُونَ أهلاً ولا مالاً. والمخائن الذي لا يخفى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خَانَهُ. ورجُلٌ لا يُصْبِحُ ولا يُمسي إلا وهو يُخَادِعُكَ عن أهلك ومالك. وذكر البخيل، أو الكذاب. والشتنظير: الفحاش^(١). انفرد بإخراجه مسلم. فرواه من طُرُقٍ عن قتادة، به.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كَفَرْنَا بِهِ﴾، أي: التمسك بالشرعية والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وإن تطلع أكثر من في الأرض يُعْضِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]... الآية. وقوله تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ لِآيِهِ﴾ - قال ابن زيد، وابن جريح: راجعين إليه، ﴿وَأَتَقَوْهُ﴾، أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه. قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر - رضي الله عنه - بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ الَّذِي فَكَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة وهي الجملة، والطاعة وهي العزيمة. فقال عمر: صدقت. حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا أيوب عن أبي قلابة: أن عمر قال لمعاذ: ما قوام هذا الأمر؟ فذكر نحوه.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٣٦﴾، أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرَّقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه وأمَّنوا ببعض وكفَرُوا ببعض. وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم»، أي: تزكوه وراء ظهرهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أُنشِئُوا لِلَّهِ ثُمَّ بَدَّلُوا دِينَهُمْ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراءٍ وميلٍ باطلة كلها، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه.

[٥١٩٦] كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سُئِلَ - عليه السلام - عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٢).

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٣﴾
 ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به
 يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾
 أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٢) حديث حسن صحيح، وتقدم مراراً.

عليهم التعم إذا فريق منهم في حال الاختيار يُشركون بالله، ويعبدون معه غيره. وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾، هي لام العاقبة عند بعضهم، ولأم التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتمييز الله لهم ذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس دزب لخفت منه، فكيف والمتوعد هاهنا هو الذي يقول للشيء: كُن، فيكون. ثم قال تعالى مُنْكَرًا على المشركين فيما اختلفوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، أي: حجة، ﴿فَهُوَ يَنْكُرُكُمْ﴾، أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ﴾، وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن شيء من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٦١﴾﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَنَفْعٌ فَخُورٌ﴾ [مرد: ١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [مرد: ١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح:

[٥١٩٧] ﴿عَجِبًا لِلْمُؤْمِنِ! لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعذله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَاتَّذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُهُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيدُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُهُم مِّن ذَكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن دَلِكُمْ مَن شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى أمرًا بإعطاء ذي القربى حقه، أي: من البر والصلة، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾، وهو الذي لا شيء له يُنفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا وفي الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُهُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيدُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله. بهذا فسره ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي. وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب له فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ - خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَنَزَّهْ سَعْيَكُ﴾ [المدثر: ٦]، أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الرِّبَا رِبَاءَانِ، قريباً لا يصح، يعني ربا البيع، ورباً لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُهُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيدُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وإنما الثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُهُم مِّن ذَكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء.

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٥٣.

[٥١٩٨] كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله^(١)، حتى تصير التمرة أعظم من أحد»^(٢).

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، أي: هو الخالق الرازق، يُخرج الإنسان من بطن أمه غرباناً لا يعلم له ولا سمع ولا بصر ولا قوًى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرِّيش واللباس والمال والأملك والمكاسب.

[٥١٩٩] كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سلام بن شرحبيل، عن حبة وسواءِ ابني خالد قالوا: دخلنا على النبي - ﷺ - وهو يصلح شيئاً فأعناه، فقال: «لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما؛ فإن الإنسان تليده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله - عز وجل -»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ﴾، أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، أي: يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾، أي: الذين تعبدونهم من دون الله، ﴿مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً﴾، أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله - سبحانه وتعالى - هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة. ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾
 ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: المراد بالبر هاهنا: القيافي، وبالبحر: الأمصار والقري، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار، والقري ما كان منها على جانب نهر. وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر: البحر المعروف. وقال زيد بن ربيع: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر يعني دوابه. رواه ابن أبي حاتم. وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، عن سفيان، عن حميد بن قيس الأعرج، عن مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد البحر: أخذ السفينة غضباً. وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقري، وبالبحر: جزائره. والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر.

[٥٢٠٠] ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله - ﷺ - صالح ملك أيلة، وكتب له ببحره، يعني ببلده^(٤). ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، أي: بان

(١) الفلوة: المهر، والفصيل: ولد الناقة.

(٢) انظر حديث عائشة المتقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧٦. وحديث أبي هريرة المتقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤٧٠/٣ ح ١٥٤٢٨ و١٥٤٢٩، ومداره على سلام بن شرحبيل، وهو مقبول كما في التقريب، وثقه ابن حبان وحده، وبقية رجاله رجال الصحيح، وفيه عننة الأعمش، فالإسناد ضعيف.

(٤) هذا معضل، وانظر «الطبقات» ١/ ٢٢٠ لابن سعد.

النقص في الثمار والرزوع بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

[٥٢٠١] ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لَحَدَّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(١). والسبب في هذا أن الحدود إذا أُقيمت انكف الناس - أو أكثرهم، أو كثير منهم - عن تعاطي المُحَرَّمات، وإذا تُركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض، ولهذا إذا نزل عيسى - عليه السلام - في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المُطَهِّرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية - وهو تزكها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك. فياكل من الرُّمَّانة الفِثَام من الناس، وَيَسْتَظِلُّون بِقِخْفِهَا، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس. وما ذلك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله - ﷺ - فكلما أُقيمت العدل كثرت البركات والخير.

[٥٢٠٢] ولهذا ثبت في الصحيحين: «أَنَّ الْفَاجِرَ إِذَا مَاتَ تَسْتَرِيحُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالِدَوَابُّ»^(٢).

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا مُحَمَّدُ وَالْحُسَيْنُ قَالَا: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ أَبِي قَحْذَمٍ قَالَ: وَجَدَ رَجُلًا فِي زَمَانِ زِيَادٍ - أَوْ: ابْنِ زِيَادٍ - صُرَّةً فِيهَا حَبٌّ - يَعْنِي مِنْ بُرٍّ - أَمْثَالِ النَّوَى عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ: هَذَا نَبَتْ فِي زَمَانٍ كَانَ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْعَدْلِ. وَرَوَى مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ الْمَرَادَ بِالْفَسَادِ هَاهُنَا الشَّرْكَ. وَفِيهِ نَظَرٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية، أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختياراً منه لهم، ومجازة على صنيعهم، ﴿لَمَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَمَلَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبلكم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾، أي: فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾، أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: يُجَازِيهِمْ مَجَازَاةَ الْفَضْلِ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يحوز.

(١) تقدم في تفسير سورة النور عند آية: ٢ وهو حديث حسن.

(٢) غريب هكذا. ومراد المصنف حديث أبي قتادة الذي أخرجه البخاري ٦٥١٢ ومسلم ٩٥٠ وأحمد ٢٩٦/٥ بنحوه.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِمَّن رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَهَاءُ وَهْمٌ بِالْيَأْسَنِتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرِّيح مُبَشِّرَاتٍ بين يَدَي رَحْمَتِهِ، بمجيء المطر والغيث عَقبِهَا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِمَّن رَحْمَتِهِ﴾، أي: المَطَرُ الذي ينزله فَيُحْيِي به العبادَ والبلادَ، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾، أي: في البحر، وإنما سَيَّرَهَا بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: في التجاراتِ والمعاشِ، والسَّيْرِ من إقليم إلى إقليم، وقَطَرُ إلى قَطَرٍ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكروُن الله على ما أنعمَ به عليكم من النعم الظاهرةِ والباطنةِ، التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَهَاءُ وَهْمٌ بِالْيَأْسَنِتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، هذه تسليةٌ من الله لعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه وإن كَذَبَهُ كثيرٌ من قومه ومن الناس، فقد كَذَبَتِ الرُّسُلُ المتقدِّمون مع ما جاؤوا أُممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كَذَبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حَقٌّ أوجبَه على نفسه الكريمة، تَكْرُمًا وَتَفَضُّلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيَّ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

[٥٢٠٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيْلٍ، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يقول: ما من امرئٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عن عِرْضِ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُمُ كَيْفَ فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسَبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَمَلِي الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

بَيَّنَّ تعالى كيف يَخْلُقُ السحابَ التي يَنْزِلُ منها الماء فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله - عزَّ وجلَّ - ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، أي: يَمُدُّه فيكثره وَيُنَمِّيه، ويجعل من القليل كثيراً، يُنْشِئُ سحابةً فَتَرَى في رأي العين مثل الثرس، ثم يَبْسُطُهَا حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحابُ من نحو البحر ثِقَالًا مملوءة ماءً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِقَالًا سَقَنَّا لِكُلِّ وَاغِيَةٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الاعراف: ٥٧]، وكذلك قال هاهنا. ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُمُ كَيْفَ﴾، قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر

(١) أخرجه أحمد ٤٤٩/٦ وإسناده ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم، وشيخه شهر سنيء الحفظ، وأصله شواهد، والوهن فقط في ذكر الآية. وانظر «المجمع» ٧/٢٦٧.

الزَّاقِ، وِقْتَادَةٌ: يعني قطعاً. وقال غيره: مُتْرَاكِمًا، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تَرَاهُ مَدْلَهُمَا ثَقِيلًا قَرِيبًا مِنَ الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: فتري المَطْرَ، وهو القَطْرُ، يخرج من بين ذلك السحاب، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ سَيْئَاهُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾، أي: لحاجتهم إليه يَفْرَحُونَ بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِينَ﴾ (٤٦)، معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين آزرين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم على فاقية، فوقع منهم موقعاً عظيماً. وقد اختلف النحاة في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ﴾، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ﴾، أي: الإِنْزَالِ ﴿لَمُبْلِينَ﴾. ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً، أي: قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إبانته فتأخر، فَمَضَتْ مُدَّةُ فِتْرَتِهِ فِتْرَتُهُ فَتَأَخَّرَ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والفنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هامة أصبحت وقد اهتزت ورتبت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، يعني المَطْرَ، ﴿كَفَيْتُ يَحْيَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. ثم تبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَدْوِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١)، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه، ونبت وشب واستوى على سويقه، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: قد اصفرَّ وشرع في الفساد، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَدْوِهِ﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كَحَرُثُونَ﴾ (٤٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٤٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَلًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا لَمَكْرُومُونَ﴾ (٤٦) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٤٧) [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يعسى بن الطباع، حدثنا هُشَيْمٌ، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: «الرياح ثمانية، أربعة منها رحمة، وأربعة عذاب، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمُرسلات والذاريات، وأما العذاب فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر». فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رُخَاءً ورحمة ونشراً بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب يلقيه بحمل الماء، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل. وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً أليماً، وجعله نعمة على من يشاء من عباده، فجعله صرصرًا وعاتياً ومفسداً لما يمرُّ عليه. والرياح مختلفة في مهابها، صباً ودبوراً، وجنوباً وشمالاً، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتُعطيها، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه.

[٥٢٠٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عبد الله ابن عيَّاش، حدثني عبد الله بن سليمان، عن درَّاج، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الريح مُسْحَرَةٌ من الثانية - يعني الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، فقال: يا رب، أرسل عليهم من الريح قَدْرَ مِثْحَرِ الثَّوْرِ. قال له الجبار تبارك وتعالى: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهي التي قال الله في

كتابه: ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَمَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾^(١) [الذاريات: ٤٢]. هذا حديث غريب، ورفعهُ مُنْكَر. والأظهر أنه من كلام عبيد الله بن عمرو، رضي الله تعالى عنه.

﴿فَأَنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُدْرِينَ﴾^(٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعُوا إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣)

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها، ولا تبليغ كلامك الضم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك، كذلك لا تقدِرُ على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحدٍ سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٤) [الأنعام: ٣٦].

[٥٢٠٥] وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾، على توهيم عبيد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي - ﷺ - القتلى الذين ألقوا في القليب قليب بذر، بعد ثلاثة أيام، ومُعَاتَبَتِهِ إِيَّاهُمْ وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تُخاطب من قوم قد جُفُوا؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأقولٍ لهم، ولكن لا يجيبون^(٥). وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق». وقال قتادة: أحيأهم الله له حتى سمعوا مقالته تقيحاً وتويخاً وبقمة. والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة.

[٥٢٠٦] من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مُصَحَّحاً له، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا ردَّ عليه روحه، حتى يردُّ عليه السلام»^(٦).

[٥٢٠٧] وثبت عنه - ﷺ - لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلاماً من يخاطبونه فيقول المسلم: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»^(٧). وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا

(١) والحديث لا أصل له في المرفوع، فيه دراج أبو السمع، روى منكير كثيرة، وضعفه الجمهور. وفيه عبد الله بن سليمان، وهو الحميري المصري، قال البزار: حدث بأحاديث لا يتابع عليها، وله علة ثالثة: ابن أخي عبد الله بن وهب ضعفه الجمهور، وذكر بعضهم أنه يخطئ ويصر على ذلك. راجع الميزان. فالإسناد ضعيف جداً، والمتن باطل، فإن الريح ليست من الأرض الثانية كما ورد في هذا الخبر. ثم إن فيه «أنه أرسل على عاد ريحاً بقدر خاتم» وهذا غير صحيح أيضاً، وهو من الإسرائيليات بلا شك، والظاهر أنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو بن العاص يوم اليرموك، وقد وهم بعض الرواة، فجعله مرفوعاً. وهو مسلسل بالضعفاء كما تقدم. والله الموفق.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ٤٤.

(٣) صححه ابن عبد البر كما ذكر المصنف، وعبد الحق كما في «الإحياء» ٤/٤٧٥.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٤٩ والنسائي ٩٣/١، ٩٥ وابن ماجه ٤٣٠٦ ومالك في «الموطأ» ٢٨/١ وأحمد ٣٠٠/٢ و٤٠٨ وابن حبان ١٠٤٦ وابن خزيمة في «صحيحه» ٦ والبخاري في «شرح السنة» ١٥١ والبيهقي ٨٢/١ - ٨٣، كلهم من حديث أبي هريرة.

بِمَنْزِلَةِ الْمَعْدُومِ وَالْجَمَادِ. وَالسَّلْفُ مُجْمَعُونَ عَلَى هَذَا. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَثَارُ عَنْهُمْ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يَعْرِفُ بَزِيَارَةِ الْحَيِّ لَهُ وَيَسْتَبْشِرُ.

[٥٢٠٧م] قَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْقُبُورِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إِلَّا اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ»^(١). وَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ يَعْرِفُهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسناده عن رجلٍ من آلِ عاصم الجَحْدَرِيِّ قال: رأيتُ عاصمًا الجَحْدَرِيَّ فِي مَنْامِي بَعْدَ مَوْتِهِ بِسِتِّينَ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ مَاتَ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَأَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَنَا وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِي نَجْتَمِعُ كُلَّ لَيْلَةٍ جُمُعَةً وَصَبِيحَتِهَا إِلَى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ فَتَتَلَقَى أَخْبَارَكُمْ. قَالَ: قُلْتُ: أَجْسَامَكُمْ أَمْ أَرْوَاحَكُمْ؟ قَالَ: هِيَهَاتَ، قَدْ بَلَيْتِ الْأَجْسَامَ، وَإِنَّمَا تَتَلَقَى الْأَرْوَاحَ. قَالَ: قُلْتُ: فَهَلْ تَعْلَمُونَ بَزِيَارَتِنَا إِيَّاكُمْ؟ قَالَ: نَعْلَمُ بِهَا عَشِيَّةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ كُلَّهُ وَيَوْمَ السَّبْتِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ: قَالَ: قُلْتُ: فَكَيْفَ ذَلِكَ دُونَ الْأَيَّامِ كُلِّهَا؟ قَالَ: لِفَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَعَظَمَتِهِ^(٢).

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثنا بكر بن محمد، حدثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كلِّ غداةٍ سبَّتٍ حتى نأتي أهل الجبان فنقفُ على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم، ثم ننصرف. فقلتُ ذات يومٍ: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. قال: حدثنا محمد، حدثنا عبد العزيز بن أبان، قال: حدثنا سُفيان الثوري قال: بلغني عن الضحَّاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس عليم الميِّت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لِمَكَانِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

حدثنا خالد بن خدَّاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التَّيَّاح يقول: كان مُطَّرَفٌ يَغْدُو إِذَا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَذْلَجًا. قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا التَّيَّاحِ يَقُولُ: بَلَّغْنَا أَنَّهُ كَانَ يَنْزِلُ بِقَوَاطِعَ، فَأَقْبَلَ لَيْلَةً حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الْمُقَابِرِ يَقُومُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، فَرَأَى أَهْلَ الْقُبُورِ، كُلُّ صَاحِبِ قَبْرٍ جَالِسًا عَلَى قَبْرِهِ. فَقَالُوا: هَذَا مُطَّرَفٌ يَأْتِي الْجُمُعَةَ. قَالَ: وَتَعْلَمُونَ عِنْدَكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَنَعْلَمُ مَا يَقُولُ فِيهِ الطَّيْرُ. قُلْتُ: وَمَا يَقُولُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ.

حدثني محمد بن الحسين: حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا الفضل بن الموقِّق ابن خال سُفيان بن عُيَيْنَةَ قَالَ: لَمَّا مَاتَ أَبِي جَزَعْتُ عَلَيْهِ جَزَعًا شَدِيدًا، فَكُنْتُ أَتِي قَبْرَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، ثُمَّ قَصَّرْتُ عَنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُهُ يَوْمًا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ الْقَبْرِ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ قَبْرَ أَبِي قَدْ انْفَرَجَ، وَكَأَنَّهُ قَاعِدٌ فِي قَبْرِهِ، مُتَوَشِّحٌ أَكْفَانَهُ، عَلَيْهِ سَخَنَةُ الْمَوْتَى، قَالَ: فَكَأَنِّي بَكَيْتُ لِمَا رَأَيْتُهُ، قَالَ: يَا بُنْتِي مَا بَطَأَ بِكَ عَنِّي؟ قُلْتُ:

(١) ذكره العراقي في «تخریج الإحياء» ٤/٤٧٥، وعزاه لابن أبي الدنيا، وقال: فيه عبد الله بن سمعان، ولم أقف على حاله، ورواه ابن عبد البر من حديث ابن عباس، وصححه عبد الحق اهـ.

وله شاهد أخرجه الديلمي في زهر الفردوس ١٣/٤ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ضعيف، لا شيء. والله تعالى أعلم.

(٢) هذا الأثر، وما بعده، ذكره المصنف للبعظة فحسب.

وإنك لتعلمُ بمجيبتي؟ قال: ما جئتُ مرّةً إلا عَلمتها، وقد كنتُ تأتيني فأَسْرُ بكِ وَسُرُّ من حولي بِدُعائك. قال: فكنتُ آتية بعد ذلكَ كثيرًا.

حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، حدثنا عثمان بن سُويد الطُفاوي - قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة - قال: لما احتضرت رَفَعَت رأسها إلى السماء فقالت: يا دُخري ودُخيرتي، ومَن عليه اعتمادادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذُلني عند الموت ولا تُوحِشني. قال: فماتت، فكنتُ آتيتها كُلَّ جُمعة فأدعو لها وأستغفرُ لها ولأهل القُبور، فرأيتها ذات يوم في مَنامي، فقلت لها: يا أمه، كيف أنت؟ قالت: أي بُني، إنَّ للموتِ لكرُبة شديدة، وإني بحمد الله لفي بَرزخ محمود، يُفَرَس فيه الرِّيحان، وتنوسدُ السندس، والإِسْتَبْرَقُ إلى يومِ الثُّور. فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تَدْعُ ما كنتُ تصنَعُ من زيارتنا والدعاءِ لنا، فإني لأبشُرُ بمجيئِك يومَ الجُمعة إذا أقبلتُ مِن أهلك، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنتك قد أقبل، فأَسْرُ وُسْرُ بذلك مَن حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمنُ الطاعون كان رجلٌ يَخْتَلِفُ إلى الجَبانِ فيشهُدُ الصلاةَ على الجنائز، فإذا أمسى وَقَفَ على المقابر، فقال: آنسَ اللهُ وحشتكم، ورحمَ غربتكم، وتجاوزَ عن مُسِيئتكم، وقَبِلَ حَسَنَاتِكُمْ. لا يَزِيدُ على هؤلاء الكلمات، قال: فأَمْسَيْتُ ذاتَ ليلَةٍ وانصرفتُ إلى أهلي ولم آتِ المقابرَ فأدعُو كما كنتُ أدعُو. قال: فبينما أنا نائمٌ إذا بخلقٍ قد جَاؤوني فقلت: ما أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهلُ المقابرِ، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتُنا منك هديّةً عند انصرافِكِ إلى أهلك. قلت: وما هي؟ قالوا: الدعواتُ التي كنتُ تدعُو بها. قال: قلت: فإني أعودُ لذلك، قال: فما تركتها بعدُ. وأبلُغُ مِن ذلكَ أن الميِّتَ يعلمُ بِعَمَلِ الحيِّ من أقاربه وإخوانه؟ قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثورُ بن يزيد، عن أبي رُهم، عن أبي أيوب قال: تُعَرِّضُ أعمالُ الأحياءِ على الموتى، فإذا رأوا حَسَنًا فَرَحُوا واستبشروا، وَإِنْ رَأَوْا سُوءًا قالوا: اللّهُمَّ راجعْ به.

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحَوَارِي قال: حدثني محمد أخي قال: دخل عبادُ بن عبادٍ على إبراهيم بن صالح، وهو على فِلَسْطِينِ فقال: عظني. قال: بِمِ أعظُك، أصلحك اللهُ؟ بلَغَني أن أعمالَ الأحياءِ تُعَرِّضُ على أقاربهم من الموتى فانظر ما يُعَرِّضُ على رسولِ الله - ﷺ - من عملك. فبَكَى إبراهيم حتى أخضَلَ لحيته.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحُسَيْنِ، حدثني خالد بن عمرو الأموي، حدثنا صدقة بن سليمان الجَعْفَرِيُّ قال: كانت لي شِيرةٌ سَمِجة، فمات أبي، فثَبَّتْ وتَدِمْتُ على ما فَرَطْتُ، ثم زَلَلْتُ أيما زَلَّةٍ فرأيتُ أبي في المنام فقال: أي بُني، ما كان أشدَّ فَرَحِي بكِ وأعمالك تُعَرِّضُ عَلَيْنَا، فَتَشْبَهُهَا بأعمالِ الصالحين، فلما كانت هذه المرّة استحييتُ لذلك حياةً شديدةً، فلا تُخزني فيمَن حولي من الأموات. قال: فكنتُ أسمعُه بعد ذلك يقولُ في دُعائه في السُّحر، وكان جاراً لي بالكوفة: أسألكُ إِيابَةَ لا رجعةَ فيها ولا حَوْرَ، يا مُصلِحَ الصالحين، ويا هادي المُضِلِّين، ويا أرحمَ الرَّاحِمِينَ.

وهذا بابٌ فيه آثار كثيرة عن الصُّحابة، وكان بعضُ الأنصار من أقارب عبد الله بن رَوَاحَةَ يقول: اللّهُمَّ إنني أعودُ بك من عَمَلِ أُخْرَى به عند عبد الله بن رَوَاحَةَ، كان يقولُ ذلك بعد أن استشهدَ عبدُ الله. وقد شرعَ السلامُ على الموتى، والسلامُ على مَن لم يشعر ولا يَعْلَمُ بالمُسَلَّمِ محالً.

[٥٢٠٨] وقد عَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ -؛ أُمَّتُهُ إِذَا رَأَوْا الْقُبُورَ أَنْ يَقُولُوا: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاجِحُونَ، يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمُنْكَمُ وَالْمُسْتَخْرِينَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلِكُمْ الْعَاقِبَةَ»^(١).
فهذا السَّلامُ والخطابُ والنداءُ لِمَوْجُودٍ يَسْمَعُ وَيُخَاطَبُ وَيَعْقِلُ وَيُرَدُّ، وَإِن لَمْ يَسْمَعْ الْمُسَلِّمُ الرَّدَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(٥٤)

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَنَقُّلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ خَالًا بَعْدَ حَالٍ، فَاصْلَهُ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ، ثُمَّ يَصِيرُ عَظْمًا ثُمَّ يَكْسَى لِحْمًا، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقَوَى. ثُمَّ يَشِبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا، ثُمَّ حَدَثًا، ثُمَّ مُرَاهِقًا، ثُمَّ شَابًا. وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النِّقْصِ فَيَكْتَهِلُ، ثُمَّ يَشِيخُ ثُمَّ يَهْرَمُ، وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ. فَتَضَعُفُ الْهَمَةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ، وَتَشِيْبُ اللَّمَّةُ، وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أَي: يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَصَرَّفُ فِي عَيْبِهِ بِمَا يُرِيدُ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

[٥٢٠٩] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ فَضْلِ بْنِ وَزِيدٍ، حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ مَرْزُوقٍ، عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ: قَالَ قَرَأَتْ عَلِيٌّ ابْنُ عَمْرِو: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، فَقَالَ ابْنُ عَمْرِو: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً»، ثُمَّ قَالَ: قَرَأَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - كَمَا قَرَأَتْ عَلَيَّ، فَأَخَذَ عَلَيٌّ كَمَا أَخَذْتَ عَلَيْكَ^(٢).
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ - وَحَسَنَهُ - مِنْ حَدِيثِ فَضِيلِ بْنِ وَزِيدٍ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ عَطِيَّةِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، بِنَحْوِهِ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾^(٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْنَا إِلَّا يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥٦)
فِيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾^(٥٧)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ جَهْلِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَكُونُ مِنْهُمْ جَهْلٌ عَظِيمٌ أَيْضًا، فَمَنْهَ إِقْسَامُهُمْ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ عَدَمُ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُنْظَرُوا حَتَّى يُعَذَّرَ إِلَيْهِمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾^(٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْنَا إِلَّا يَوْمَ الْبَعْثِ^(٥٦)، أَي: فَيُرَدُّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعُلَمَاءُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ لَهُمْ حِينَ يَحْلِفُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ: ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٤ ح ١٠٣ والنسائي ٩١/٤ - ٩٣ وأحمد ٢٢١/٦ من حديث عائشة مطولاً.

(٢) أخرجه أحمد ٥٨/٢ وأبو داود ٣٩٧٨ والتِّرْمِذِيُّ ٢٩٣٦ وفيه عطية العوفي، وهو وإو. لكن يتأيد بأنه مذهب جمهور القراء. قال القرطبي في تفسيره سورة الروم، آية ٥٤: قرأ حمزة وعاصم بفتح الضاد فهين، أي في «ضعف» «ضعف» «ضعفًا» والباقون بالضم. والضم لغة النبي ﷺ، وقال الفراء: الضم لغة قريش. والفتح: لغة تميم، وقال الجوهري: الضعْفُ، والضغْفُ، خلاف القوة اه باختصار.

اللَّهُ، أي: في كتاب الأعمال ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَيْتِ﴾، أي: من يوم خُلِقْتُمْ إلى أن بعثتم، ﴿وَلَا يَكْفُرُ كُفْرًا لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿قَبِيحٌ مِّمَّا كَفَرْتُمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾، أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ﴾، أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، أي: اصبر على مخالفتهم وعتابهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن أتبعك في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مزية فيه، ولا تعديل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق منحصر فيه. قال سعيد، عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً - رضي الله عنه - وهو في الصلاة، صلاة الغداة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٦٥]، فأنصت له علي حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ، عَنْ شَرِيكٍ، عَنْ عِثْمَانَ بْنِ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: نادى رجل من الخوارج علياً وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾، فأجابه علي وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾.

طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، أَخْبَرَنَا شَرِيكٌ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ ظَبْيَانَ، عَنْ أَبِي يَحْيَى قَالَ: صَلَّى عَلِيٌّ - رضي الله عنه - صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فأجابه علي، وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾.

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة، واستحباب قراءتها في الفجر:

[٥٢١٠] قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، سَمِعْتُ شَيْبَةَ أَبَا رُوْحٍ يُحَدِّثُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - صَلَّى بِهِمْ فِي الصَّبْحِ فَقَرَأَ

فيها الرّوم فأَوْهَمَ، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يُصَلُّونَ مَعَنَا لا يُحْسِنُونَ الوُضُوءَ»^(١)، فمن شَهِد الصلاةَ معنا فليُحْسِن الوُضُوءَ. وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سرٌّ عَجِيب، وَنَبَأٌ غَرِيب، وهو أنه - ﷺ - تأثر بنقصان وُضُوءٍ من اتَّمتَّ به، فَدَلَّ ذلك أن صلاة المأموم متعلّقة بصلاة الإمام.

آخر تفسير سورة الروم، ولله الحمد والمنة

(١) أخرجه أحمد ٤٧١/٣ و٣٦٨/٥ وإسناده إلى أبي روح صحيح. وأبو روح وثقه ابن حبان، وروى عنه جمع، وقال ابن القطان: لا نعرف له عدالة. فالرجل مختلف فيه، ولا يتابع على عجزه، فالله أعلم، وأما صدره فله شواهد. فالخبر يستأنس به، ولا حجة فيه.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تقدم في أول «سورة البقرة» عامة الكلام على ما يتعلّق بصدر هذه السورة، وهو أنه - تعالى - جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في أتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراياتهم وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَمْ يُسْمِعْهَا كَانَ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَرَهُ

بِعَذَابٍ آخِرٍ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفغنون بسماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ لَلْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابَعًا فَتَضَعُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الزمر: ٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾. قال: «هو - والله - الغناء».

قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فقال عبد الله: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو. يرددها ثلاث مرات. حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا حميد الخراط، عن عمارة، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء: أنه سأل ابن مسعود عن قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، قال: الغناء. وكذا قال ابن عباس، وجابر، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد،

ومكحول، وعمرو بن شعيب، وعلي بن بديمة. وقال الحسن البصري: أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِبَعْرِ عِلْمِهِ﴾ في الغناء والمزامير. وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِبَعْرِ عِلْمِهِ﴾، والله لعله لا يُنفِق فيه مالا، ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: أراد بقوله: ﴿يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ﴾ اشتراء المغنيات من الجوّاري.

[٥٢١١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي: حدثنا وكيع، عن خلاد الصفار، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ - قال: لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله - عز وجل - علي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ﴾^(١). وهكذا رواه الترمذي وابن جرير، من حديث عبيد الله بن زحر، بنحوه. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. وضعف علي بن يزيد المذكور. قلت: علي، وشيخه، والراوي عنه، كلهم ضعفاء، والله أعلم.

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ﴾، قال: يعني الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختار ابن جرير أنه كل كلام يضد عن آيات الله واتباع سبيله. وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: إنما يصنع هذا ليخالف الإسلام وأهله. وعلى قراءة فتح الباء، تكون اللام لام العاقبة، أو تعليلاً للأمر القدرى، أي: فيضوا لذلك ليكونوا كذلك. وقوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، قال مجاهد: وتتخذ سبيل الله هزواً، يستهزئ بها. وقال قتادة: يعني يتخذ آيات الله هزواً. وقول مجاهد أولى.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتٌ مِّنْهُنَّ﴾، أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهيونا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِ ءَأَنشَأُوا مِن لَّدُنْهَا كَذِبًا لَّيْسَ بِذِكْرِ إِتْقَانِهَا أَن يَأْتِيَهَا مِن سُدُورٍ رَّجِيءٍ﴾، أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية وتلى عنها وأعرض وأدبر وتضام وما به من ضم، كأنه ما يسمعها، لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: يوم القيامة، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتُ النَّعِيمِ﴾ ⑧ خَلِيدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨

هذا ذكر مال الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله، ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَنَّتُ النَّعِيمِ﴾، أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمساكن، من المآكل والمشارب، والملابس والمسكن، والمراكب، والنساء والنظرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون ولا يبعثون عنها جولا. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾، أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء

(١) حسن دون نزول الآية. أخرجه الترمذي ٣١٩٥ والطبري ٨٠٣٥ و٢٨٠٣٦ و٢٨٠٣٧ من حديث أبي أمامة، وإسناده ضعيف جداً، ابن زحر، وعلي بن يزيد، والقاسم، ثلاثهم ضعفاء، كما قال ابن كثير رحمه الله. وضعفه الترمذي بقوله: غريب وأعله بعلي بن يزيد اهـ وأضعف الثلاثة علي بن يزيد فإنه متروك. والوهن فقط في عجزه «وفيهم أنزل الله... الحديث. ولعله مدرج، فقد أخرجه ابن ماجه ٢١٦٨ من وجه آخر دون هذه الزيادة للمرفوع شواهد كثيرة، والتن حسن.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٍ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آيَاتِهِمْ وَقُرْآنِهِمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] الآية، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَواسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَيَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرْوِفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

يُبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها. وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول «سورة الرعد» بما أغنى عن إعادته. ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ﴾، يعني: الجبال أرسب الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي: لئلا تميد بكم. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾، أي: وذراً فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها. ولما قرر سبحانه أنه الخالق تبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس أيضاً من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلَقُ اللَّهِ﴾، أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقهم وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرْوِفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾، يعني المشركين بالله العابدين معه غيره، ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، أي: جهل وعمى، ﴿مُبِينٍ﴾، أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ﴾

حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

اختلف السلف في لقمان - عليه السلام - هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثر على الثاني. وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً تجاراً. وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفتس الأنف من الثوبة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر^(١)، أعطاه الله الحكمة ومنه النبوة. وقال الأوزاعي رحمه الله: حدثني عبد الرحمن بن حزملة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسود ثوبياً^(٢) ذا مشافر.

(١) المشفر: الشفة الغليظة.

(٢) الثوبية: بلاد واسعة للسودان بجنوب الصعيد اه قاموس.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الرُبَيْعِي قال: كان لقمانَ عبداً حَبَشِيًّا نَجَاراً، فقال له مولاه: اذْبَحْ لنا هذه الشاةَ. فذبحها، قال: أَخْرَجْ أَطْيَبَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذْبَحْ لنا هذه الشاةَ. فذبحها، فقال: أَخْرَجْ أَحَبَّتْ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فأخرج اللسان والقلب. فقال له مولاه: أَمَرْتُكَ أَنْ تَخْرُجَ أَطْيَبَ مُضْغَتَيْنِ فَأَخْرَجْتَهُمَا، وَأَمَرْتُكَ أَنْ تَخْرُجَ أَحَبَّتْ مُضْغَتَيْنِ فَأَخْرَجْتَهُمَا. فقال لقمانُ: إنه ليس من شيءٍ أَطْيَبَ مِنْهُمَا إِذَا طَابَا، وَلَا أَحَبَّتْ مِنْهُمَا إِذَا حَبَّتَا. وقال شعبة، عن الحَكَم، عن مجاهد: كان لقمانُ عبداً صالحاً، ولم يَكُنْ نَبِيًّا.

وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسودَ عظيمَ الشَّفْتَيْنِ، مُشَقَّقَ القَدَمَيْنِ. وقال حَكَّام بن سَلَم، عن سَعِيدِ الرُّبَيْدِيِّ، عن مجاهد: كان لقمانَ الحَكِيمِ عبداً حَبَشِيًّا غَلِيظَ الشَّفْتَيْنِ، مُصْفَحَ القَدَمَيْنِ، قَاضِيًّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. وذكر غيره أنه كَانَ قَاضِيًّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا الحَكَم، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ قَالَ: كَانَ لِقْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَبْدًا أَسْوَدَ غَلِيظَ الشَّفْتَيْنِ، مُصْفَحَ القَدَمَيْنِ، فَاتَاهُ رَجُلٌ وَهُوَ فِي مَجْلِسِ أَنَاسٍ يُحَدِّثُهُمْ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ الَّذِي كُنْتُ تَرَعَى مَعِيَ الْغَنَمَ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: فَمَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى؟ قَالَ: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَالصَّنْتُ عَمَّا لَا يَعْنِينِي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد، عن جابر قال: إن الله رَفَعَ لِقْمَانَ الحَكِيمِ بِحِكْمَتِهِ، فَرَأَاهُ رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلَسْتَ عَبْدَ بَنِي فُلَانِ الَّذِي كُنْتُ تَرَعَى بِالْأَمْسِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى؟ قَالَ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَأَدَاءَ الْأَمَانَةِ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَتَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي. فهذه الآثارُ مِنْهَا مَا هُوَ مُصْرَحٌ فِيهِ بِنَفِي كَوْنِهِ نَبِيًّا، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُشْعِرٌ بِذَلِكَ، لِأَن كَوْنَهُ عَبْدًا قَدْ مَسَّهُ الرَّقُّ يَنَافِي كَوْنَهُ نَبِيًّا؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ كَانَتْ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا. ولهذا كَانَ جَمْهُورُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا يُقْتَلُ كَوْنَهُ نَبِيًّا عَنْ عَكْرَمَةَ - إِنْ صَحَّ السَّنَدُ إِلَيْهِ - لِإِنَّ رِوَاةَ ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ وَكَيْعٍ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ عَكْرَمَةَ قَالَ: كَانَ لِقْمَانَ نَبِيًّا. وجابر هذا هو ابن يزيد الجُعْفِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عيَّاش القُتَيْبَانِي، عَنْ عَمْرِو مَوْلَى عُفْرَةَ قَالَ: وَقَفَ رَجُلٌ عَلَى لِقْمَانَ الحَكِيمِ فَقَالَ: أَنْتَ لِقْمَانُ، أَنْتَ عَبْدُ بَنِي الحَسْحَاسِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ رَاعِي الغَنَمِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ الْأَسْوَدُ؟ قَالَ: أَمَا سَوَادِي فَظَاهِرٌ، فَمَا الَّذِي يُعْجِبُكَ مِنْ أَمْرِي. قَالَ: وَطَاءُ النَّاسِ بِسَاطِئِكَ، وَغَشِيهِمْ بِأَبْكَ، وَرِضَاهُمْ بِقَوْلِكَ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ صَغَيْتَ إِلَى مَا أَقُولُ لَكَ كُنْتُ كَذَلِكَ. قَالَ لِقْمَانُ: غَضِي بَصْرِي، وَكَفِّي لِسَانِي، وَعِقَّةُ طَعْمَتِي، وَجِفْظِي فَرَجِي، وَقَوْلِي بِصَدْقِي، وَوَفَائِي بِعَهْدِي، وَتَكْرُمَتِي ضَيْفِي، وَجِفْظِي جَارِي، وَتَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي، فَذَلِكَ الَّذِي صَبَّرَنِي كَمَا تَرَى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عبدة بن زَبَّاح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال يوماً - وَذَكَرَ لِقْمَانَ الحَكِيمَ - فَقَالَ: مَا أَوْتِي مَا أَوْتِي عَنْ أَهْلِ وَلَا حَالٍ وَلَا حَسَبٍ وَلَا خِصَالٍ وَلَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا صَمَامَةً سَيِّئًا طَوِيلَ التَّفَكِيرِ عَمِيقَ النَّظَرِ لَمْ يَنْمِ نَهَارًا قَطُّ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ يَبْرُقُ وَلَا يَنْتَخِعُ، وَلَا يَبُولُ وَلَا يَتَغَوُّطُ، وَلَا يَغْتَسِلُ، وَلَا يَعْثُ وَلَا يَضْحَكُ. وَكَانَ لَا يُعِيدُ مِنْطِقًا نَطْقَهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ حِكْمَةً يَسْتَعِيدُهَا إِثَاءَ أَحَدٍ، وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَ وَوُلِدَ لَهُ أَوْلَادٌ، فَمَاتُوا فَلَمْ يَبِكْ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ يَغْتَشَى السُّلْطَانَ، وَيَأْتِي الحُكَّامَ، لِيَنْظُرَ وَيَتَفَكَّرَ وَيَعْتَبِرَ، فَبِذَلِكَ أَوْتِي مَا أَوْتِي.

وقد ورد أثرٌ غريبٌ عن قتادةٍ رواه ابنُ أبي حاتم. فقال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الْخَزَاعِيِّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ بِشِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: خَيْرُ اللَّهِ لِقْمَانَ الْحَكِيمِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْحَكْمَةِ، فَاخْتَارَ الْحَكْمَةَ عَلَى النَّبِيِّ. قَالَ: فَاتَاهُ جَبْرِيلُ وَهُوَ نَائِمٌ فَذَرَّ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ - أَوْ: رَشَّ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ - قَالَ: فَاصْبَحَ يَنْطِقُ بِهَا. قَالَ سَعِيدٌ: فَسَمِعْتُ عَنْ قَتَادَةَ يَقُولُ: قِيلَ لِقْمَانَ: كَيْفَ اخْتَرْتَ الْحَكْمَةَ عَلَى النَّبِيِّ وَقَدْ خَيْرَكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَوْ أُرْسِلَ إِلَيَّ بِالنَّبِيِّ عَزْمَةً لَرَجَوْتُ فِيهِ الْفَوْزَ مِنْهُ، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ أَمُوتَ بِهَا، وَلَكِنَّ خَيْرَنِي فَخِفْتُ أَنْ أَضَعُفَ عَنِ النَّبِيِّ، فَكَانَتِ الْحَكْمَةَ أَحَبَّ إِلَيَّ. فَهَذَا مِنْ رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ بِشِيرٍ، وَفِيهِ ضَعْفٌ قَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِسَبَبِهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالَّذِي رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، أَي: الْفَقْهَ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، أَي: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالتَّعْبِيرَ، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾، أَي: أَمْرَانَهُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّصَهُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ جَنَسِهِ وَأَهْلِ زَمَانِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، أَي: إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَثَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، أَي: غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ، لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ.

﴿وَلِذَلِكَ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْطُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَلِّ لَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرِّ إِلَيَّ نُرًّا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّةِ لِقْمَانَ لَوْلَدِهِ - وَهُوَ: لِقْمَانُ بْنُ عِنْقَاءَ بْنِ سَدُونٍ. وَاسْمُ ابْنِهِ ثَارَانُ فِي قَوْلِ حِكَاةِ السَّهَيْلِيِّ. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ. وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحْبُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ، وَلِهَذَا أَوْصَاهُ أَوْلًا بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ مُحَذِّرًا لَهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، أَي: هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ.

[٥٢١٢] قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَبْرِيلُ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَرَرُوا بِبَيْتِهِمْ بِظُلْمٍ﴾^(١) [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبَسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لِقْمَانَ: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، بِهِ. ثُمَّ قَرَأَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدِّهِ الْبِرَّ بِالْوَالِدِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وَكَثِيرًا مَا يَقْرَنُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَشَقَّةٌ وَهْنُ الْوَالِدِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَهْدًا عَلَىٰ جَهْدٍ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: ضَعْفًا عَلَىٰ ضَعْفٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّلْنَاهُ فِي عَامَيْنِ﴾، أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْ كَامِلِيٍّ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّئَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمَلُهُ وَصَلُّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. ولهذا قال: ﴿إِنْ أُنْكُرْ لِي وَلَوْلَايَكَ لَأِنِّي لَأَلْمَسِيرُ﴾، أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

[٥٢١٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي شيبة، ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا عبيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قديم علينا معاذ بن جبل، وكان بعته النبي - ﷺ - فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إني رسول رسول الله - ﷺ - إليكم: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا ألوكم خيراً، وإن المصير إلى الله، وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ جَهْدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا﴾، أي: وإن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمتنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي محسناً إليهما، ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، يعني المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند: أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية: ﴿وَلَنْ جَهْدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا﴾... الآية، وقال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قلت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه. فقلت: لا تفعل يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلّي، وإن شئت لا تأكلي. فأكلت.

﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكَّ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْقَىٰ أَقِيرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرٌ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَعْيِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكَّ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: إن المظلّمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل. وجوز بعضهم أن

(١) إسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم، وأخرجه الحاكم ٨٣/١ من وجه آخر عن حديث معاذ، وصححه وقال الذهبي: ومسلم بن خالد إمام أهل مكة، ومفتيهم، وقد ثبت. قلت: لكنه توبع عند أبي نعيم في «صفة الجنة» ١٠٧ لكن سقط من إسناده عمرو بن ميمون بين ابن سابط ومعاذ بن جبل.

يكون الضمير في قوله: ﴿وَيَقَالَ﴾ ضمير الشأن والقصة، وجوز على هذا رفع ﴿وَيَقَالَ﴾ والأول أولى. وقوله: ﴿يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾، أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُغْلِبُ النَّفْسَ الشَّيْئَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِن ثِقَالَ حَبْكَةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ الذَّرَّةَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. ولو كانت تلك الذرة مَحْصَنَةً مُحَجَّبَةً في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. أي: لطيف العليم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دُفَّت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بديب النمل في الليل البهيم.

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾، أنها صخرة تحت الأرضين السبع، وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي، وأبي مالك، والثوري، والمنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا - والله أعلم - كأنه مُتَلَقَى من الإسرائيليات التي لا تُصَدَّق ولا تُكذَّب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حَقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيبيدها ويظهرها بلطيف علمه.

[٥٢١٤] كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله - ﷺ - قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لَخَرَجَ عمله للناس كائناً ما كان»^(١).

ثم قال: ﴿يَبْتِئُ أَقْبَرُ الصَّكْوَةِ﴾، أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأْتَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾. عليم أن الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا بُدَّ أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عَزَمَ الْأُمُورِ. وقوله: ﴿وَلَا تُصَبِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلّمْتهم أو كلّموك، احتقاراً منه لهم، واستكباراً عليهم. ولكن أين جانك، وإسبط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث:

[٥٢١٥] «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يُحبها الله»^(٢).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَبِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك. وكذا روى العوفي وعكرمة، عنه. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَبِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، لا تتكلّم وأنت معرض. وكذا زوي عن مجاهد وعكرمة، ويزيد بن الأصم، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم. وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشديد في الكلام. والصواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تُلَفَّت أعناقها عن رؤوسها، فيسبّه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حني التغلبي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ أَقْمَنَّا لَهُ مِنْ مَنِيلِهِ فَتَقَوْنَا

(١) ضعيف. وتقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٥.

(٢) تقدم تحريجه.

وقال أبو طالب في شعره:

وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نَقِرُّ ظِلَامَةً إِذَا مَا نُنُوا صُغَرَ الرُّؤُوسِ نُقِيمَهَا
 وقوله: ﴿وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا﴾، أي: جدلاً متكبِّراً جباراً عنيدياً، لا تفعل ذلك يُبْغِضَكَ اللهُ، ولهذا
 قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: مُخْتَال مُعْجَب فِي نَفْسِهِ، فَخُورُ أَي: عَلَى غَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ لِيَالِ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧]، وَقَدْ تَقَدَّمَ
 الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ.

[٥٢١٦] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن
 عَمْرَانِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَيْسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ ثَابِتِ بْنِ
 قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ قَالَ: ذُكِرَ الْكَبِيرُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَشُدِّدَ فِيهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾.
 فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لِأَغْسِلُ ثِيَابِي فَيُعْجِبُنِي بِيَاضِهَا، وَيُعْجِبُنِي شِرَاكُ تَعْلِي، وَعِلَاقَةُ
 سَوَاطِي، فَقَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ الْكَبِيرُ، إِنَّمَا الْكَبِيرُ أَنْ تَسْفَهَ الْحَقَّ وَتَغْمِصَ النَّاسَ»^(١). وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى
 بِمِثْلِهِ، وَفِيهِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ، وَمَقْتَلٌ ثَابِتٌ وَوَصِيئَةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وقوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ﴾، أي: امش مشياً مُقْتَصِداً لَيْسَ بِالْبَطِيءِ الْمُتَثَبِّطِ وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمَفْرَطِ، بَلْ
 عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾، أي: لَا تَبْلُغْ فِي الْكَلَامِ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ
 فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُخْمِيرِ﴾، قَالَ مَجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ وَاحِدٌ: إِنْ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ
 لَصَوْتُ الْحَمِيرِ. أَي: غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفَعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللَّهِ
 تَعَالَى. وَهَذَا الشَّبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:
 [٥٢١٧] «لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوِّءِ، الْعَائِدُ فِي هَيْبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَبْقَى ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْبِهِ»^(٢).

[٥٢١٨] وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن جعفر بن ربيعة،
 عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صَبَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا
 سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحَمِيرِ فَمُتَّعُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا»^(٣). وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ سِوَى
 ابْنِ مَاجَةَ، مِنْ طَرِيقٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ رَبِيعَةَ، بِهِ. وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «بِاللَّيْلِ»، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.
 فَهَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ جَدًّا، وَهِيَ مِنْ قِصَصِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ. وَقَدْ رَوَى عَنْهُ مِنَ الْحُكْمِ
 وَالْمَوَاعِظِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، فَلْتَذَكَّرْ مِنْهَا أَنْمُودَجًا وَدُسْتُورًا إِلَى ذَلِكَ.

[٥٢١٩] قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا سفيان، أخبرني
 نَهْشَلُ بْنُ مُجَمِّعِ الضُّبَيْيِّ، عَنْ قَرَعَةَ، عَنْ ابْنِ عَمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «أَنَّ
 لُقْمَانَ الْحَكِيمِ كَانَ يَقُولُ: إِنْ اللَّهُ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حَفِظَهُ»^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» ١٣١٧ وَالبَزَارُ ٣٥٧٨ «كَشَفَ» وَفِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، وَهُوَ صَدُوقٌ
 سَيِّءُ الْحِفْظِ، لَكِنِ لِلْحَدِيثِ شَوَاهِدٌ رَاجِعٌ «الْمَجْمَعِ» ١٣٣/٥ - ١٣٥ وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحِ بِغَيْرِ هَذَا السِّيَاقِ.

(٢) تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ آيَةِ: ١٧٧.

(٣) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ ٣٣٠٣ وَمُسْلِمٌ ٢٧٢٩ وَأَبُو دَاوُدَ ٥١٠٢ وَالتِّرْمِذِيُّ ٣٤٥٩ وَالنَّسَائِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ» ٤١١.

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٨٧/٢ وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الشَّعْبِ» ٣٣٤٤ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، رَجَالُهُ ثِقَاتٌ غَيْرُ نَهْشَلٍ، وَهُوَ صَدُوقٌ، وَكَرَّرَهُ البَيْهَقِيُّ
 ٣٣٤٣ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

[٥٢٢٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار»^(١). وقال: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا ضمرة، حدثنا السري بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوّل عنهم إلى غيرهم. وحدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضمرة، عن حفص بن عمر - رضي الله عنه - قال: وضع لقمان جراباً من خز دل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خز دلته، حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني، لقد عطتكم موعظة لو وعظها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه.

[٥٢٢١] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، حدثنا أبين بن سفيان المقدسي، عن خليفة بن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - : «اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة، لقمان الحكيم، والنجاشي، ويلال المؤذن»^(٢). قال أبو القاسم الطبراني: أراد الحبش.

فصل في الخمول والتواضع: وذلك متعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً، ونحن نذكر منه مقاصده، قال:

[٥٢٢٢] حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامة بن زيد، عن حفص ابن عبيد الله بن أنس، عن جده أنس بن مالك: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «رُب أشعث ذي طمرين يصفح عن أبواب الناس، لو أقسم على الله لأبره»^(٣). ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن

(١) مرسل، القاسم بن مخيمرة، تابعي، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني ١١٤٨٢ وابن حبان في «المجروحين» ١٨٠/١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٣١/٢ - ٢٣٢ من حديث ابن عباس. قال ابن حبان: أبين بن سفيان، شيخ يقرب الأخبار، وثمان بن عبد الرحمن، قد تبرأنا من عهده، هذا متن باطل لا أصل له. ووافقه ابن الجوزي، وأما الهيثمي فقال في «المجمع» ٧٢٠٩: فيه أبين بن سفيان، وهو ضعيف، قلت: الإسناد ضعيف جداً. وجاء بدون لفظ «اتخذوا» ورد من حديث وثالة، أخرجه الحاكم ٢٨٤/٣ لكن جعل بدل «النجاشي» «مهجع مولى رسول الله ﷺ» وصححه الحاكم، وقال الذهبي: كذا قال: «مولى رسول الله ﷺ» ولا أعرف من ذا هـ وقال الحافظ في «الإصابة» بعد أن ذكر هذا الحديث في ترجمة مهجع مولى رسول الله ﷺ، أخشى أن يكون مهجع هو العكي مولى عمر اهـ وفي إسناده إسماعيل بن محمد بن الفضل الشعرائي عن جده. قال الذهبي في «الميزان» ٩٣٩: قال الحاكم: ارتبت في لقيه بعض الشيوخ. وله شاهد مرسل أخرجه ابن عساکر كما في «اللائق» المصنوعة ٤٤٨/١، وعلى العموم إسناده الحديث غير قوي لكن فضل لقمان، والنجاشي، ويلال، ومهجع، ثابت، وإن لم يصح الحديث، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨٦٥ و١٠٤٨٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٦٤/١: وفيه عبد الله بن موسى التيمي، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. قلت: قد توبع عند البيهقي، وللحديث شواهد أحدها في صحيح مسلم ٤٠٢٤. تنبيه: لم أره في كتاب ابن أبي الدنيا «التواضع والخمول» من هذا الوجه، ولعله سقط من المطبوع.

زيد، عن أنس، عن النبي - ﷺ - فذكره، وزاد: منهم البراء بن مالك^(١).

[٥٢٢٣] رَوَى أَيْضاً عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «طُوبَى لِلأَثْقِيَاءِ الأَثْرِيَاءِ الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرِفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ مُجَرَّدُونَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ غَبْرَاءَ مُشْتَتَةٍ»^(٢).

[٥٢٢٤] وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ سَهْلِ التَّمِيمِيِّ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْزَمٍ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ عِيَّاشِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عِيْسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، عَنْ أَبِيهِ: عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ يَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا مَعَاذُ؟ قَالَ: حَدِيثَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ السَّيِّيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شَرٌّ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَثْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الأَثْرِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرِفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلَمَةٍ»^(٣).

[٥٢٢٥] حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ شُجَاعٍ، حَدَّثَنَا عَثْمُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عِطَاءِ الأَعْرَجِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «رُبَّ ذِي طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ، لَوْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ، وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً»^(٤).

[٥٢٢٦] وَقَالَ أَيْضاً: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعَاوِيَةَ، عَنْ الأَعْمَشِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنْ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى بَابَ أَحَدِكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَاراً أَوْ دَرهماً أَوْ فِلْساً لَمْ يُعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَلَوْ سَأَلَ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا، وَمَا يَمْنَعُهَا إِيَّاهُ لَهْوَانَهُ عَلَيْهِ، ذُو طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»^(٥). وَهَذَا مُرْسَلٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

[٥٢٢٧] وَقَالَ أَيْضاً: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنْ مِنْ مَلُوكِ الْجَنَّةِ كُلِّ أَسْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الأَمْرَاءِ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُمْ، وَإِذَا حَظَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا، وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْتَصَبْ لَهُمْ، حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَجَلَّجَلُ فِي صَدْرِهِ، لَوْ قَسَمَ نَوْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ»^(٦). قَالَ: وَأَنْشَدَنِي عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ، عَنْ ابْنِ عَاشَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:

(١) جعفر عن ثابت عن أنس، رجال الصحيح. وأخرجه الحاكم ٢٩١/٣ و ٢٩٢٠ من وجه آخر، وإسناده لا بأس به، ويصلح شاهداً لما قبله، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) لم أره في «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا، ولا عند غيره من حديث أنس ولعله سقط من المطبوع، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٩٨٩ والحاكم ٤/١ وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» ٨، وفي إسناده عيسى بن عبد الرحمن الزرقى وهو متروك، ومع ذلك صححه الحاكم! وسكت الذهبي.

(٤) صدره صحيح. إسناده ضعيف لضعف حميد الأعرج، والوهن فقط في عجزه، وصدره عند مسلم.

وأخرج البزار ٣٦٢٨ صدره من وجه آخر من حديث ابن مسعود، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٢٦٤: رجاله رجال الصحيح غير جارية بن هرم، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه اهـ.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١) عن ابن أبي الجعد مرسلًا. وهو ضعيف بهذا التمام. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٧٥٤٤ من حديث ثوبان دون قوله «ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما يمنعها إياه لهوانه عليه» وصححه إسناده الهيثمي في «المجمع» ١٠/٢٦٤ والعراقي في «تخريج الإحياء».

(٦) إسناده ضعيف، عوف لم يدرك أباً هريرة. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٤٨٦ و ١٠٤٨٧ من طريق عوف عن الحسن عن أبي هريرة، وهو منقطع أيضاً. الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

أَلَا رُبُّ ذِي طَمْرَيْنٍ فِي مَثْوَلِ غَدَا
زَرَابِيئُهُ مَبْنُوءَةٌ وَتَمَارِقُهُ
قَدِ اطَّرَدَتْ أَنهَارُهُ تَحْتَ قَضْرِهِ
وَأَشْرَقَ، وَالتَّفْتُ عَلَيْهِ حَدَائِقُهُ

[٥٢٢٨] وَرَوَى أَيْضاً مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زُخْرٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدٍ^(١)، عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ مَرْفُوعاً: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «مَنْ أَعْطَى أَوْلِيَاءِي عِنْدِي مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ»^(٢)، ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ، أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السَّرِّ، وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ، لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، إِنْ صَبَّرَ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: ثُمَّ نَقَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ وَقَالَ: «عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ، وَقُلُّ ثَرَاثُهُ، وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الْغُرَبَاءُ. قِيلَ: وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: الْفَرَارُونَ بِدِينِهِمْ، يُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ. وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: بَلَّغَنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أَنْعِمْ عَلَيْكَ؟ أَلَمْ أُعْطِكَ؟ أَلَمْ أُسْئِرْكَ؟ أَلَمْ أَسْأَلْكَ؟ أَلَمْ أَسْأَلْكَ ذِكْرًا خَامِلاً. وَكَانَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي عِنْدَكَ مِنَ الْأَرْفَعِ خَلْقِكَ، وَاجْعَلْنِي فِي نَفْسِي مِنَ الْأَوْضَعِ خَلْقِكَ، وَعِنْدَ النَّاسِ مِنَ الْأَوْسَطِ خَلْقِكَ.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الشُّهُرَةِ:

[٥٢٢٩] ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَيْسَى الْمِصْرِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ الْحَارِثِ وَابْنِ لَهْيَعَةَ، عَنْ يَزِيدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ سِنَانِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ - إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ - أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهِ. وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ^(٤). وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ الْبُهْلُولِ، عَنْ ابْنِ قُدَيْكٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْأَخْنَسِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَرْفُوعاً. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ مَرْسَلًا نَحْوَهُ، فَقِيلَ لِلْحَسَنِ: فَإِنَّهُ يُشَارُ إِلَيْكَ بِالْأَصَابِعِ، فَقَالَ: إِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ يُشَارُ إِلَيْهِ فِي دِينِهِ بِالْبِدْعَةِ وَفِي دُنْيَاهِ بِالْفِسْقِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: لَا تَبْدَى لِأَنَّ تَشْتَهَرَ، وَلَا تَرْفَعْ شَخْصَكَ لِتُذَكَّرَ وَتُعَلَّمَ وَتَكْتُمَ، وَاصْنُتْ تَسْلَمَ، تَسُرَّ الْأَبْرَارَ، وَتَغِيظُ الْفَجَّارَ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ - رَجَمَهُ اللَّهُ -: مَا صَدَقَ اللَّهُ مِنْ أَحَبِّ الشُّهُرَةِ. وَقَالَ أَيُّوبُ: مَا صَدَقَ اللَّهُ عَبْدٌ إِلَّا سَرَّهُ إِلَّا يُشَعَّرَ بِمَكَانِهِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ: مِنْ أَحَبِّ اللَّهِ أَحَبُّ الْأَيُّوفِ النَّاسِ. وَقَالَ سِمَاكُ بْنُ سَلْمَةَ: إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاءِ. وَقَالَ أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ: إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَسْلَمَ لَكَ دِينُكَ فَأَقِلْ مِنَ الْمَعَارِفِ. وَكَانَ أَبُو الْعَالِيَةِ إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ نَهَضَ وَتَرَكَهُمْ.

(١) وَقَعَ فِي الْأَصْلِ «عَلِيٌّ بْنُ زَيْدٍ»، وَالتَّصْوِيبُ عَنْ كِتَابِ التَّرَاجِمِ.

(٢) الْحَاذِ: قَلِيلُ الْمَالِ وَالْعِيَالِ.

(٣) ضَعِيفٌ. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ ٢٣٤٧ وَابْنُ مَاجَةَ ٤١١٧ وَأَحْمَدُ فِي «الزَّهْدِ» ١١ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «التَّوَاضِعِ وَالْحَمُولِ» ١٣ وَفِي الْإِسْنَادِ عَلِيُّ بْنُ يَزِيدَ الْأَلْهَانِيَّ مَتْرُوكٌ، وَشَيْخُهُ الْقَاسِمُ ضَعْفُهُ الْجُمْهُورُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكِلَاهُمَا تَوْبَعٌ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ، وَعِنْدَهُ أَيُّوبُ بْنُ سَلِيمَانَ، مَجْهُولٌ.

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا (٣٠) وَفِيهِ سِنَانُ بْنُ سَعْدٍ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ، وَكَرَّرَهُ ٣١ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَفِيهِ مَجَاهِيلٌ. وَكَرَّرَهُ ٣٢ عَنْ الْحَسَنِ مَرْسَلًا. وَوَرَدَ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَمْرِو أَبِي أَمَامَةَ أَنْظَرِ «الْعَلَلُ الْمُنْتَهِيَةَ» ٣٤٠/٢ وَ«إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» ٢٦٩/٣ وَ«إِتِّحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ» ٢٣٣/٨، وَشُعْبَةُ الْإِيمَانِ ٢٠٦/٢ وَالتَّطَبُّرَاتُ ٢١٠/١٨ - ٢٢٨ وَ«الْحَلِيقَةُ» ٥/٢٤٧ فَالْحَدِيثُ يَتَقَرَّبُ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الشُّوَاهِدِ، وَعَجَزَهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ.

وقال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَوْفٍ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ قَالَ: رَأَى طَلْحَةَ قَوْماً يَمْشُونَ مَعَهُ، فَقَالَ: ذُبَابٌ طَمَعَ، وَفَرَّاشٌ النَّارِ.

وقال ابنُ إدريس، عن هارون بن عثرة، عن سُلَيْمِ بْنِ حَنْظَلَةَ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ حَوْلَ أَبِي إِذْ عَلَاهُ عُمَرُ ابْنِ الْخَطَّابِ بِالذَّرَّةِ وَقَالَ: إِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلتَّابِعِ، وَفِتْنَةٌ لِلْمَتَّبِعِ. وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ، عَنِ الْحَسَنِ: خَرَجَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَاتَّبَعَهُ أَنَسُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَغْلَقْتُ عَلَيْهِ بَابِي مَا اتَّبَعَنِي مِنْكُمْ رَجُلَانِ. وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: كُنَّا إِذَا مَرَرْنَا عَلَى الْمَجْلِسِ، وَمَعَنَا أَيُّوبُ، فَسَلَّمْ رَدَاؤاً شَدِيداً، فَكَانَ ذَلِكَ يُعْتَمَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ، عَنِ الْحَسَنِ: خَرَجَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَاتَّبَعَهُ أَنَسُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَغْلَقْتُ عَلَيْهِ بَابِي مَا اتَّبَعَنِي مِنْكُمْ رَجُلَانِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ: كَانَ أَيُّوبُ يَطِيلُ قَمِيصَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنْ الشَّهْرَةَ فِيمَا مَضَى كَانَتْ فِي طُولِ الْقَمِيصِ، وَالْيَوْمَ فِي تَشْمِيرِهِ. وَاصْطَنَعَ مَرَّةً نَعْلَيْنِ عَلَى حَذْوِ نَعْلِي النَّبِيِّ ﷺ - فَلَبِسَهُمَا أَيَّاماً ثُمَّ خَلَعَهُمَا، وَقَالَ: لَمْ أَرِ النَّاسَ يَلْبِسُونَهُمَا. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: لَا تَلْبَسْ مِنَ الثِّيَابِ مَا يَشْتَهَرُ الْفُقَهَاءُ، وَلَا مَا يَزِدُّ رِيكَ السُّفَهَاءِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: كَانُوا يَكْرَهُونَ مِنَ الثِّيَابِ الْجِيَادَ، الَّتِي يُشْتَهَرُ بِهَا، وَيَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهَا أَبْصَارَهُمْ، وَالثِّيَابَ الرَّدِيئَةَ الَّتِي يُحْتَقَرُ فِيهَا، وَيَسْتَدَلُّ دِينَهُ.

وحدثنا خالد بن خدّاش: حدثنا حمّاد، عن أبي حنّسة صاحب الزبّاديّ قال: كنّا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجُلٌ عليه أكسيّة، فقال: إيّاكم وهذا الحمار الثّاق. وقال الحسن رحمه الله: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه، ما لهم تفأقروا؟! وفي بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبني إسرائيل: ما لكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذنّاب؟! البسوا ثياب الملوك، وألبسوا قلوبكم بالحشّيّة.

فصل في حسن الخلق:

[٥٢٣٠] قال أبو التّياح، عن أنس - رضي الله عنه -: كان رسول الله ﷺ - من أحسن الناس خلقاً^(١).
 [٥٢٣١] وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقاً^(٢).
 [٥٢٣٢] وعن نوح بن عبّاد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبد ليبلّغ بحسن خلقه درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلّغ بسوء خلقه درك جهنّم وهو عابد»^(٣).
 [٥٢٣٣] وعن سنان بن هارون، عن حميد، عن أنس مرفوعاً: «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٠٣ ومسلم ٢٣١٠ وأبو داود ٤٧٧٣ والترمذي ٢٠١٥ وابن أبي الدنيا ١٦٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٩ وابن أبي الدنيا ١٦٥ وقال البوصيري في «الزوائد»: فروة بن قيس مجهول، وكذلك الراوي عنه، وخبره باطل؛ قاله الذهبي في «طبقات التهذيب» اهـ. وورد من وجه آخر، أخرجه البيهقي في «الشعب» ٧٩٩٣ وإسناده ضعيف لضعف عبيد الله بن سعيد. وحسنه الألباني في «الصحيحه» ١٣٨٤.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٦٨ بهذا الإسناد ورجاله ثقات، سوى نوح بن عباد القرشي وقد وثقه ابن حبان.

(٤) أخرجه أبي الدنيا ١٦٩، ورجاله ثقات سوى سنان بن هارون، قال عنه أبو حاتم: شيخ، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، فالإسناد غير قوي، لكن في الباب أحاديث، والله أعلم.

[٥٢٣٤] والمطلب، عن عائشة مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار»^(١).

[٥٢٣٥] وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس، أخبرني أبي وعمي، عن جدي، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - سئل رسول الله - ﷺ - عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الأجوفاً القم والفرج^(٢).

[٥٢٣٦] وقال أسامة بن شريك: كنت عند رسول الله - ﷺ - فجاءته الأعراب من كل مكان، فقالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «حسن الخلق»^(٣).

[٥٢٣٧] وقال يعلی بن مملک، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء - يبلغ به - قال النبي - ﷺ -: «ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن»^(٤). وكذا رواه عطاء، عن أم الدرداء، به.

[٥٢٣٨] وعن مسروق، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً»^(٥).

[٥٢٣٩] حدثنا عبد الله بن أبي الدنيا، حدثنا مُحَمَّد بن عبيد، عن محمد بن أبي سارة، عن الحسن ابن علي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يفتدو عليه الأجر ويروح»^(٦).

[٥٢٤٠] وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً، الشرازون المتشدقون المتفيهقون»^(٧).

[٥٢٤١] وعن أبي أويس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً: «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون»^(٨).

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٤٧٩٨ وأحمد ٩٤/٦ وابن حبان ٤٨٠ وإسناده ضعيف إلا أن له شواهد يقوى بها، منها حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد ٢٢٠/٢.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٠٤ وابن ماجه ٤٢٤٦ وابن حبان ٤٧٦ وابن أبي الدنيا ١٧٠ بهذا الإسناد، ورجاله ثقات، سوى داود بن يزيد الأودي، فقد ضعفه الجمهور، وأصله في الصحيح.

(٣) صحيح. أخرجه ابن أبي الدنيا ١٧١ وأحمد ٢٧٨/٤ والحاكم ١٢١/١ وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان ٤٨٦ من وجه آخر عن زياد بن علاقة به مطولاً وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٠٠٢ وابن أبي الدنيا ١٧٢ وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ وإسناده حسن في الشواهد. وأخرجه أبو داود ٤٧٩٩ والترمذي ٢٠٠٣ وابن أبي الدنيا ١٧٣ من وجه آخر عن عطاء به، وقال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه اهـ. قلت: رجاله ثقات وللحديث شواهد فهو صحيح.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٥٩ ومسلم ٢٣٢١ وأحمد ١٦١/٢ وابن أبي الدنيا ١٧٤.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٧٦ بهذا الإسناد، وفيه محمد بن أبي سارة، لا يعرف له سماع من الحسن قاله البخاري، ونقله عنه الذهبي في «الميزان» ٧٥٧٠ والمتن غريب.

(٧) أخرجه أحمد ١٩٣/٤ وابن أبي الدنيا ١٧٧ وابن حبان ٤٨٢ وإسناده منقطع، وله شاهد من حديث جابر عند الترمذي ٢٠١٨ وانظر صحيح الترمذي ١٦٤٢.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٧٨ والبيهقي في «الشعب» ٨١١٨ وإسناده غير قوي لأجل أبي أويس، لكن له شواهد يحسن بها.

[٥٢٤٢] وقال الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة، عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما حسن الله خلق رجلٍ وحُلَقَه فَنُطِعَ النَّارَ»^(١).

[٥٢٤٣] وعن عبد الله بن غالب الحداني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «خَصَلْتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مَوْمِنٍ: الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ»^(٢).

[٥٢٤٤] وقال ميمون بن مهران، عن رسول الله - ﷺ -: «ما من ذَنْبٍ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ، وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَخْرُجُ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعَ فِي آخَرٍ»^(٣).

[٥٢٤٥] قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَغِيرَةِ الْأَحْمَسِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَرِيْشٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الْخُلُقَ الْحَسَنَ لَيُذِيْبُ الذَّنُوْبَ كَمَا تُذِيْبُ الشَّمْسُ الْجَلِيْدَ، وَإِنَّ الْخُلُقَ السَّيِّئَ لَيُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»^(٤).

[٥٢٤٦] وقال عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إِنكُمْ لَا تَسْعَوْنَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وُجُوْهِ وَحُسْنُ خُلُقٍ»^(٥). وقال محمد بن سيرين: «حُسْنُ الْخُلُقِ عَوْنٌ عَلَى الدِّينِ».

فصل في ذم الكبر:

[٥٢٤٧] قال علقمة، عن ابن مسعود - رَفَعَهُ -: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبَرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(٦).

[٥٢٤٨] وقال إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ»^(٧).

[٥٢٤٩] حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ رَاشِدٍ، عَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلْمَةَ، عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعاً: «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْجَبَّارِيْنَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٠ هكذا مرسلًا، بكر بن أبي الفرات، تابعي، وهو غير مشهور والتن غريب شبه موضوع.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٢ والترمذي ١٩٦٢ وإسناده ضعيف لأجل صدقة بن موسى الدقيقي.

(٣) باطل. أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٣ وهو مرسل، ميمون بن مهران، تابعي. وله علة ثانية، فيه مروان بن سالم، متروك الحديث.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه ابن أبي الدنيا ١٨٤ بهذا الإسناد، وهو معلول عبد الرحمن بن إسحاق، أبو شيبة الواسطي، ضعفه الجمهور، وشيخه لم يسم، فهاتان علتان للحديث. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨٥٤ من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف انظر «المجمع» ٢٤/٨.

(٥) حسن. أخرجه أبو يعلى ٦٥٥٠ وابن أبي الدنيا ١٩٠ والبخاري ١٩٧٧ والحاكم ١٢٤/١ وقال المنذري في «الترغيب» ٣٩٣٥: رواه أبو يعلى والبخاري من طرق أحدها حسن. وانظر «مجمع الزوائد» ٢٢/٨. فللحديث شواهد يمحس بها إن شاء الله تعالى.

(٦) أخرجه مسلم ٩١ وأبو داود ٤٠٩١ والترمذي ١٩٩٨ وابن ماجه ٤١٧٣ وأحمد ٤١٣/١ وأبو حنبل ٢٢٤ وابن أبي الدنيا ١٩٢.

(٧) جيد. أخرجه أحمد ٢١٥/٢ وابن أبي الدنيا ١٩٦ وقال المنذري في «الترغيب» ٤٢٩١: رواه أحمد، ورواه راوة الصحيح. وانظر «المجمع» ٩٨/١.

العذاب»^(١). وقال مالك بن دينار: رَكِبَ سُلَيْمَانُ بَنُ دَاوُدَ - عليهما السلام - ذات يوم البَسَاطَ في متني ألف من الإنس، وملتني ألف من الجن، فَرَفَعَ حَتَّى سَمِعَ تَسْبِيحَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ خَفَضُوهُ حَتَّى مَسَّتْ قَدَمُهُ مَاءَ الْبَحْرِ، فَسَمِعُوا صَوْتًا: لَوْ كَانَ فِي قَلْبِ صَاحِبِكُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ لَخَبِيفٌ بِهِ أَبَعَدَ مِمَّا رُفِعَ. قال: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَخْطُبُنَا فَيَذْكُرُ بَدَأَةَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى إِذَا أَحَدُنَا لَيَقْدِرُ نَفْسَهُ، يَقُولُ: خَرَجَ مِنْ مَجْرَى الْبَوْلِ، مَرَّتَيْنِ.

وقال الشعبي: من قَتَلَ اثْنَيْنِ فَهُوَ جَبَّارٌ، ثم تلا: ﴿أَتَرَيْدُ أَنْ قَتَلْتَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۗ إِنَّ تُرَيْدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩]. وقال الحسن: عَجَبًا لِابْنِ آدَمَ يَغْسِلُ الْخُزَّةَ بِيَدِهِ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَتَكَبَّرُ! يعارض جبار السموات! قال: حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ خِدَاشٍ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ سَفْيَانَ، فَذَكَرَ حَدِيثَ^(٢): ضَرَبَ مِثْلَ الدُّنْيَا بِمَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ. وَقَالَ الْحَسَنُ، عَنْ عَتِيٍّ، عَنْ أَبِي قَالَ: إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ ضَرْبٌ مِثْلًا لِلدُّنْيَا وَإِنْ فَرَّحَهُ^(٣) وَمَلَّحَهُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - مِنْ وَلَدِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: مَا دَخَلَ قَلْبَ رَجُلٍ شَيْءٌ مِنْ كِبَرٍ إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ بِقَدَرِ ذَلِكَ. وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عَبِيدٍ: لَيْسَ مَعَ السُّجُودِ كِبَرٌ، وَلَا مَعَ التَّوْحِيدِ نِفَاقٌ. وَنَظَرَ طَاوُوسٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَخْلَفَ، فَطَعَنَ طَاوُوسٌ فِي جَنْبِهِ بِإصْبَعِهِ، وَقَالَ: لَيْسَ هَذَا مِشْيَتِي مِنْ فِي بَطْنِهِ خُزَّةٌ! فَقَالَ لَهُ كَالْمَعْتَدِرِ إِلَيْهِ: يَا عَمَّ، لَقَدْ ضَرَبَ كُلُّ غُضُو مِني عَلَى هَذِهِ الْمِشْيَةِ حَتَّى تَعَلَّمْتَهَا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا: كَانَتْ بَنُو أُمِّيَّةٍ يَضْرِبُونَ أَوْلَادَهُمْ حَتَّى يَتَعَلَّمُوا هَذِهِ الْمِشْيَةَ.

فصل في الاختيال:

[٥٢٥٠] عن ابن أبي ليلى، عن ابن بريدة، عن أبيه مرفوعاً: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ»^(٤). ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً، مثله.

[٥٢٥١] وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكَارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ»^(٥).

[٥٢٥٢] وَقَالَ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]^(٦): «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي بُرْدِيهِ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٧). وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ: بَيْنَمَا رَجُلٌ . . . إِلَى آخِرِهِ^(٨).

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٠٠ وابن أبي الدنيا ١٩٨ وإسناده ضعيف، لضعف عمر بن راشد اليمامي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ليس بمرفوع.

(٣) القزح: التابل، والمقزحة: نحو من المملحة.

(٤) متن صحيح. أخرجه ابن أبي الدنيا ٢٣٨، وإسناده غير قوي لأجل محمد بن عبد الرحمن. وأخرجه البخاري ٥٧٨٤ ومسلم ٢٠٨٥ وأبو داود ٤٠٨٥ والنسائي ٢٠٨/٨ وابن ماجه ٣٥٦٩ من حديث ابن عمر.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٨ ومسلم ٢٠٨٧ وابن أبي الدنيا ٢٣٢ وابن ماجه ٣٥٧١.

(٦) زيادة عن «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا ٢٣٣.

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ وهو عجز المتقدم عند ابن أبي الدنيا ٢٣٣.

(٨) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٨٥ و٥٧٩٠ والنسائي ٢٠٦/٨ من حديث ابن عمر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى مُتَّبِعًا خَلَقَهُ عَلَى نِعْمَةٍ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ مِنْ نُجُومٍ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، وَمَا يَخْلُقُ فِيهَا مِنْ سَحَابٍ وَأَمْطَارٍ وَتَلَجٍ وَبَرَدٍ، وَجَعَلَهُ إِيَّاهَا لَهُمْ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَمَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَرَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ. وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةَ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ، وَإِزَاحَةِ الشُّبُهَةِ وَالْعِلَلِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، بَلِ مِنْهُمْ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ، أَي: فِي تَوْجِيهِهِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ. وَمَجَادَلَتُهُ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَا مُسْتَدٍّ مِنْ حُجَّةٍ صَّحِيحَةٍ، وَلَا كِتَابٍ مَّاثُورٍ صَّحِيحٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾، أَي: مُبِينٍ مُّضِيِّ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أَي: لَهُؤُلَاءِ الْمَجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، أَي: عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَطَهَّرَةِ، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، أَي: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَبَاءِ الْأَقْدَمِينَ، قَالَ اللَّهُ: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ خَلَفْتُمْ لَهُمْ فِيهَا كَانُوا فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٗٓ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أَي: أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلَ وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ وَأَتَمَّ شَرْعَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أَي: فِي عَمَلِهِ، بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أَمْرٌ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجْرٌ، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، أَي: فَقَدَ أَخْذَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ مَتِينًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ﴾، أَي: لَا تَحْزَنُ يَا مُحَمَّدُ عَلَيْهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَمَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ قَدْرَ اللَّهِ نَافِذٌ فِيهِمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا، أَي: فَيُخَبِّرُهُمْ عَلَيْهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ. ثُمَّ قَالَ: ﴿نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا﴾، أَي: فِي الدُّنْيَا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾، أَي: نُلْجِمُهُمْ ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أَي: فَطَيِّعَ صَنْعَبَ يَسْتَقُ عَلَى النَّفُوسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْفُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٢٤﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩ - ٧٠].

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلَقَتْ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. إِذْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِاعْتِرَافِهِمْ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: هو خَلْقُه ومِلْكُه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أي: الغني عما سواه، وكلُّ شيء فقيرٌ إليه، الحميدُ في جميع ما خَلَقَ، له الحمد في السموات والأرض على ما خَلَقَ وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عَظَمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحُسنى وصفاته العُلا وكلماته الثَّامة التي لا يحيطُ بها أحدٌ، ولا اطلاع لبشرٍ على كُنْهها وإخصائها؛ كما قال سيِّد البشر وخاتم الرسل:

[٥٢٥٣] «لا أَحْصِي ثناءَ عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»^(١)، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾، أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعِلت أقلاماً، وجُعِل البحرُ مداً وأمدُه سبعةُ أبْحُرٍ معه، فَكُتِبَتْ بها كلماتُ الله الدالَّةُ على عَظَمته وصفاته وجلاله لتَكتسرت الأقلامُ، ونَفِدَ ماءُ البحار، ولو جاء أمثالها مداً. وإنما ذُكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يَزِد الحصرُ ولا أنْ تُمَّ سبعةُ أبْحُرٍ موجودة تُحيطُ بالعالم، كما يقوله من تَلَفَّاهُ من كلام الإسرائيليين التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّبُ، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المرادُ بقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخرُ فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هلُمَّ جِزاً، لأنه لا حصرَ لآياتِ الله وكلماتِهِ، كما قال الحَسَنُ البصريُّ: لو جُعِلَ شَجَرُ الأرضِ أقلاماً، وجُعِلَ البحرُ مداً، وقال الله: إن من أمرِي كذا، ومن أمرِي كذا. لَنَفِدَ ما في البُحُورِ، وتَكتسرت الأقلامُ.

وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلامُ يوشِك أن ينفَدَ، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾، أي: لو كان شَجَرُ الأرضِ أقلاماً، ومَعَ البحرِ سبعةُ أبْحُرٍ، ما كان لِنَفْدِ عجائبِ رَبِّي وحكمته وخَلْقُه وعِلْمُه. وقال الربيعُ بن أنس: إن مَثَلُ علم العباد كلِّهم في علم الله قطرةٌ من ماء البُحُورِ كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾... الآية. يقولُ: لو كان ذلك البحرُ مداً لكلماتِ الله، والشجَرُ كلها أقلاماً، لانكسرت الأقلامُ، وفني ماءُ البحرِ، وبقيت كلماتُ الله قائمةٌ لا يَفِينُها شيءٌ، لأنَّ أحداً لا يستطيعُ أن يقدِّرَ قَدْرَه، ولا يُثني عليه كما ينبغي، حتى يكونَ هو الذي يُثني على نفسه، إن ربنا كما يقولُ، وفوق ما نقول. وقد رُوِيَ أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود.

[٥٢٥٤] قال ابن إسحاق: حَدَّثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جُبَيْرٍ أو عكرمة، عن ابن عباس: أن أحبارَ يهود قالوا لرسولِ الله - ﷺ - بالمدينة: يا مُحَمَّدُ، أرايتَ قولكَ: ﴿وَمَا أوتيتُهُ مِنْ أَمْرٍ إِلَّا قِيلًا﴾^(٢) [الإسراء: ٨٥] إيانا تُريد أم قومك؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: كلاكُما. فقالوا: ألسنتُ تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتيتنا التوراةَ فيها تبيان كلِّ شيء؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: إنها في علمِ الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم. وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾... الآية. وهكذا رُوِيَ عن عكرمة، وعطاء بن يسار. وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنيَّة لا مكِّيَّة، والمشهور أنها مكِّيَّة، فالله أعلم.

(١) تقدم تخريجه، وهو صحيح.

(٢) والحديث أخرجه الطبري ٢٨١٤٩، وفيه محمد بن أبي عماد، وهو مجهول لا يعرف، قاله الذهبي في الميزان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيزٌ قد عزَّ كلُّ شيءٍ وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكميه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشروعه وجميع شؤونه. وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكِبُكُمْ إِلَّا كَتَفَيْنِ وَاحِدَةً﴾، أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يومَ المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلقِ نفس واحدة، الجميع حين عليه، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده. ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١٣] ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّاهِرَةِ﴾ [١٤] [النازعات: ١٣-١٤]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسميعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكِبُكُمْ إِلَّا كَتَفَيْنِ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [٢٩] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [٣٠]

يخبرُ تعالى أنه ﴿يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾. بمعنى يأخذ منه في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قيل: إلى غايةٍ محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح.

[٥٢٥٥] ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين: أن رسول الله - ﷺ - قال: «يا أبا ذرٍّ، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيؤشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»^(١).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جرير، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلکها، فإذا غربت جرت بالليل في فلکها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر»^(٢). إسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، ومعنى هذا أنه تعالى الخالقُ العالمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [١٧] [الطلاق: ١٢]. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ﴾، أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل؛ فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعيَّده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرةٍ إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٢) ما ذكره ابن عباس، فيه نظر.

ذُوهُ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ، أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، وكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

يُخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّرَ البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة تُحَمَلُ بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾، أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: صَبَّارٍ في الضراء، شَكُورٍ في الرخاء. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾، أي: كالجبال والعمام ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾، قال مجاهد: أي كافر. وكأنه فسر المقتصد هاهنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد ههنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مراداً ههنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يُقَابِلَ ذلك بالعمل التام، والدأب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مُقْتَصِراً والحالة هذه، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾، فالخَسَّار: هو العَدَار. قاله مجاهد، والحسن، وقاتدة، ومالك، عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخَسْر: أتم العَدْر وأبلغه، قال عمرو بن معد يكرب:

وَأَنْتَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عَمِيرٍ مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ عَدْرِ وَخَسْرِ

وقوله تعالى: ﴿كَفُورٍ﴾، أي: جحود للنعمة لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُورًا رِيكًا وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى مُنذِراً للناس يوم المَعَاد، وأمرأ لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ﴾، أي: لو أراد أن يقديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي: لا تلهيكنم بالطمانينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾، يعني: الشيطان. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقاتدة. فإنه يُغَرُّ ابن آدم ويَعِدُّه ويُمنيه، وليس من ذلك شيء، بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ أَشَقِيلُنَّ إِلَّا عَرُودًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

قال وهب بن منبه: قال عزير عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي، وأرق نومي، فصرعت إلى ربي، وصليت وضمنت، فانا في ذلك أتصرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفع

أرواح المصدقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء ومُلْك ظاهر، ليس فيه رُحْصَةٌ، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والدٌ عن ولده، ولا وُلْدٌ عن والده، ولا أخٌ عن أخيه، ولا عبدٌ عن سيده، ولا يهتم أحد بهم غيره، ولا يحزن لِحزنه، ولا أحد يرحمهُ، كلُّ مُشْفِقٍ على نفسه، لا يؤخذ إنسانٌ عن إنسانٍ، كلُّ يَهُمُّ هَمَّهُ، ويبيكي عَوْلَهُ، ويَحْمِلُ وِزْرَهُ، ولا يَحْمِلُ وِزْرَهُ مَعَهُ غيرُهُ. رواه ابن أبي حاتم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلمت وقت الساعة لا يعلمه نبيٌ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ، ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقِيًّا إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، لكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكِّلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقيّاً أو سعيداً، علم الملائكة الموكِّلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفسٌ بما في الأرحام، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أيِّ بلادٍ الله كان، لا علمٌ لأحدٍ بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]... الآية. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

[٥٢٥٦] قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعتُ أبي بريدة يقول: سمعت رسول الله ﷺ - ﷺ - يقول: «خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾^(١). هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يُخرجه.

[٥٢٥٧] حديث ابن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ - ﷺ -: «مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾^(٢). انفرد بإخراجه البخاري فرواه في كتاب الاستسقاء من صحيحه، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان بن سعيد الثوري، به.

[٥٢٥٧م] ورواه في التفسير من وجهِ آخر فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ - ﷺ -: «مفاتيح الغيب خمسٌ». ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾^(٣). انفرد به أيضاً.

[٥٢٥٨] ورواه الإمام أحمد عن عُثْدَر، عن شعبة، عن عمر بن محمد: أنه سمع أباه يُحدِّث، عن ابن

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٥٣/٥ والبخاري ٢٢٤٩ وإسناده على شرط مسلم وانظر «المجمع» ٨٩/٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٥٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٨.

عمر، عن النبي - ﷺ - قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤)» (١).

[٥٢٥٩] حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله: «أوتي نبيكم - ﷺ - مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤)» (٢). وكذا رواه عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، به. وزاد في آخره: «قال: قلت له: أنت سمعته من عبد الله؟ قال: نعم. أكثر من خمسين مرة». ورواه أيضاً عن وكيع، عن مسعر، عن عمرو بن مرة به. وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخبروه.

[٥٢٦٠] حديث أبي هريرة، قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق، عن جرير، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. فقال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة رببتها فذاك من أشراطها. وإذا كان الحفاة العراء رؤوس الناس فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾... الآية، ثم انصرف الرجل فقال: زدوه علي، فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» (٣). ورواه البخاري أيضاً في «كتاب الإيمان». ومسلم من طريق، عن أبي حيان، به. وقد تكلمنا عليه في أول «شرح البخاري» وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم.

[٥٢٦١] حديث ابن عباس، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: جلس رسول الله - ﷺ - مجلساً له، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله - ﷺ - واضعاً كفيه على ركبتي النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال رسول الله - ﷺ -: «الإسلام أن تسلم وجهك لله - عز وجل - وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت. قال: يا رسول الله، فحدثني ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبين، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره. قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت. قال: يا رسول الله، حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله - ﷺ -: «الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله،

(١) أخرجه أحمد ٨٥/٢ والطبراني في «الكبير» ١٣٣٤٦ ورجال أحمد رجال الصحيح كما في «المجمع» ٨/٤٦٢.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٤٤٥/١ وأبو يعلى ٥١٥٣ وإسناده حسن لأجل عبد الله بن سلمة، وهو مختلف فيه وانظر «المجمع» ٢٦٣/٨.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٧ ومسلم ٩ من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

فَحَدَّثَنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: هِيَ - سَبْحَانُ اللَّهِ - فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَسْخَرُ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك، قال: أجل يا رسول فحدثني، قال رسول الله ﷺ: إذا رأيت الأمة ولدت رزيتها - أو: رزبها - ورأيت أصحاب الشاء يتناولون في البنيان. ورأيت الحفاة الجياع العالة رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأساطرها. قال: يا رسول الله، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: العرب^(١). حديث غريب، ولم يخرجوه.

[٥٢٦٢] حديث رجل من بني عامر، روى الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن ربيعة بن جراث، عن رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبي - ﷺ - فقال: أألج؟ فقال النبي - ﷺ - لخادمه: اخرجني إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولني له: فليقل: «السلام عليكم، أ أدخل؟» قال: فسمعته يقول ذلك، قلت: السلام عليكم، أ أدخل؟ فأذن فدخلت، فقلت: بئ آتيتنا به؟ قال: لم آتكم إلا بخير، آتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات؛ وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقارنكم. قال: فقال: هل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: قد علم الله - عز وجل - خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَسْخَرُ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾. وهذا إسناد صحيح.

[٥٢٦٣] وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: جاء رجل من أهل البادية؛ [قال أبو جعفر أحسبه أنا قال إلى النبي ﷺ]^(٣) فقال: إن امرأتي حُبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مُجْدِبَةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ - قال مجاهد: وهن مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٤) [الأنعام: ٥٩]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال الشعبي، عن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - قال: من حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي عَدِي فَقَدْ كَذَبَ، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ - قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَسْخَرُ مَا فِي الْأَرْضِ﴾، فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمراً أو أسود، وما هو؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري

(١) حسن. أخرجه أحمد ٣١٩/١ وفي إسناده شهر بن حوشب، وحديثه حسن في الشواهد، ويتأيد بما قبله.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣٦٩/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٤٢/٢٧ - ٤٣: ورجاله كلهم ثقات أئمة.

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من تفسير الطبري.

(٤) والحديث ضعيف. أخرجه الطبري ٢٨١٧٣ عن مجاهد مرسلًا. فهو ضعيف، وذكر نزول الآية منكر، فإن السورة مكية.

أين مَضَجَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ، أفي بَحْرِ أَمْ بَرٍّ، أَوْ سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ. وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبدٍ بَارِضٍ، جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً».

[٥٢٦٤] فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير، في مسند أسامة بن زيد: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي الْمُلَيْحِ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مَنِيَّةً عَبْدٍ بَارِضٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً»^(١).

[٥٢٦٥] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الْحَفَرِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ مَطَرِ بْنِ عُكَّامٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا قَضَى اللَّهُ مَنِيَّةَ عَبْدٍ بَارِضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً» وهكذا رواه الترمذي في «القدر» من حديث سفيان الثوري، به. ثم قال: «حسن غريب، ولا يعرف لمطر عن النبي - ﷺ - غير هذا الحديث»^(٢). وقد رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «المراسيل»، فالله أعلم.

[٥٢٦٦] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ أَبِي الْمُلَيْحِ بْنِ أُسَامَةَ، عَنْ أَبِي عَزَّةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بَارِضٍ جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً - أَوْ قَالَ: بِهَا - حَاجَةً»^(٣). وأبو عَزَّةَ هَذَا هُوَ: يَسَارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَيُقَالُ: ابْنُ عَبْدِ الْهُدَلِيِّ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - وَهُوَ ابْنُ عَلِيَّةَ - وَقَالَ: صَحِيحٌ.

[٥٢٦٧] وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِصَامٍ الْأَصْفَهَانِيُّ، حَدَّثَنَا الْمُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي الْمُلَيْحِ، عَنْ أَبِي عَزَّةَ الْهُدَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بَارِضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً، فَلَمْ يَنْتَهَ حَتَّى يَقْدِمَهَا». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ رِعَازًا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(٤).

[٥٢٦٨] حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر البزار: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ ثَابِتِ الْجَحْدَرِيِّ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْقَطَمِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بَارِضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»^(٥). ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه^(٦) إلا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ الْمَقْدُمِيُّ.

(١) صحيح. أخرجه الطبراني في «الكبير» ٤٦١ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٩٦/٧: رجاله رجال الصحيح. اهـ قلت:

إسحق حديثه صحيح في الشواهد، ومن فوقه رجال البخاري ومسلم، لكن صحابيه هو أسامة بن عمير والد أبي المليح.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤٦ وأحمد ٢٢٧/٥ والقضاعي ١٣٩٦ وصححه الحاكم ٤٢/١ ووافقه الذهبي وقال الترمذي:

حسن غريب اهـ وفي إسناده أبو إسحاق مدلس، وقد عنعن. لكن للحديث شواهد وطرق كما ترى.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤٧ وأحمد ٤٢٩/٣ والبخاري في «الأدب المفرد» ١٨١٥ والقضاعي ١٣٩٢ وصححه

الحاكم ٤٢/١ ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

(٤) إسناده ضعيف جداً. عبيد الله بن أبي حميد، متروك الحديث، والمتن إلى قوله «حاجة» محفوظ، والوهن في باقيه. وأخرجه

الطبراني في «الأوسط» ٨٤٠٧ من وجه آخر من حديث أبي عزة، وفي إسناده عباد بن صهيب، وهو متروك واتهم بالوضع،

وقد وثقه أبو داود كما في «المجمع» ١٩٦/٧.

(٥) متن صحيح. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٩٨٨٩ من حديث ابن مسعود، وقال: تابعه هشيم ومحمد بن خالد الوهبي عن

إسماعيل اهـ. وإسناده الحديث ضعيف، عمر بن علي وإن روى له الشيخان إلا أنه كثير التدليس، ومع ذلك فقد توبع كما

ذكر البيهقي، وللحديث شواهد.

(٦) تقدم أنه رفته غير واحد، ولعل مراد البزار - رحمه الله - حديث عبد الله بن مسعود فحسب، والله أعلم.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سليمان بن أبي شيخ قال: أنشدني مُحَمَّدُ بن الحَكَمِ لأعشى هَمْدان:

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ سِوَى حَنُوطِ عَدَاةِ الْبَيْنِ مَعَ خِرْقِي^(١)
وَعَيْرَ نَفْحَةِ أَعْوَادِ تُشْبُّ لَه وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادِ لِمُنْطَلِقِي!
لَا تَأْسَيْنِ عَلَى شَيْءٍ، فَكُلَّ فَتَى إِلَى مَنِيَّتِهِ يَسِيرُ فِي عَنَقِ^(٢)
وَكُلَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْتَ يُخْطِئُهُ مُعَلَّلٌ بِأَعَالِيلٍ مِنَ الْحَمَقِ
بِأَيِّمَا بَلَدَةٍ تُفَدَّرُ مَنِيَّتُهُ إِنَّ لَا يَسِيرُ إِلَيْهَا طَائِعاً يُسْقِي

أورده الحافظ ابن عساكر - رحمه الله - في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشى هَمْدان، وكان الشعبي زَوْجَ أُخْتِهِ، وهو مُزَوَّجٌ بِأَخْتِ الشعبي أيضاً، وقد كان مِمَّنْ طَلَبَ الْعِلْمَ وَتَفَقَّهَ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى صِنَاعَةِ الشَّعْرِ فَعُرِفَ بِهِ.

[٥٢٦٩] وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَرُ بن شُبَّة، كلاهما عن عُمر بن علي مرفوعاً: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أو تبتت إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أثره، قَبَضَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فتقول الأرض يوم القيامة: رَبِّ، هذا ما أودعنتي»^(٣).

[٥٢٧٠] قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض، إلا جعل له إليها حاجة»^(٤).

آخر تفسير «سورة لقمان»

والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) الخنوط: كل طيب يخلط للमित. والبين: الفرقة والبعد.

(٢) العنق: السير السريع.

(٣) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٦٣ والبيهقي في «الشعب» ٩٨٨٩ من حديث ابن مسعود وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وانظر الحديث السابق.

(٤) تقدم قبل خمسة أحاديث، وهو صحيح، وأسامة هو ابن عمير والد أبي المليح، وليس ابن زيد كما وقع أولاً.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

آياتها
٧٣ترتيبها
٣٢

وهي مكية

[٥٢٧١] قال البخاري في كتاب الجمعة: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ السجدة، ﴿وَهَذَا آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^(١). ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري، به.

[٥٢٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كان النبي ﷺ - لا ينام حتى يقرأ ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ السجدة، ﴿وَتَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢). تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادتي هاهنا. وقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ، أي: لا شك فيه ولا مزية أنه منزل من رب العالمين، ثم قال مخبراً عن المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ﴾، بل يقولون: ﴿أَفْتَرَاهُ﴾، أي: اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٨٩١ ومسلم ٨٨٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٠٤ والدارمي ٤٥٥/٢ والحاكم ٤١٢/٢ وأحمد ٣/٣٤٠ من طريق ليث عن أبي الزبير عن جابر به. قال الترمذي وكذا الحاكم: وروى زهير - بن معاوية - هذا الحديث، عن أبي الزبير، قال: قلت له: سمعته من جابر؟ قال: لم أسمع من جابر، إنما سمعته من صفوان، أو ابن صفوان اهـ ومع ذلك، صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي!! والصواب أن ليث بن أبي سليم، لم يرو له مسلم في الأصول، وإنما روى له متابعة. وقد ضعفه الجمهور، وأبو الزبير مدلس، وقد أقر أنه لم يسمعه من جابر، وإنما سمعه من شيخه، وهو صفوان بن عبد الله بن أمية. وهو تابعي، ولم يذكر أبو الزبير أن صفوان بن عبد الله رواه عن جابر، فالخبر غير قوي. ولفظ «لا ينام» غريب، ولو كان «كان يقرأ» فلا يعني أنه على الدوام. فهذا أقرب.

يُخبر تعالى أنه الخالقُ للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ﴾، أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المُدبِّر لكل شيء القادر على كل شيء، فلا ولي لخالقه سواه، ولا شفيح إلا من بعد إذنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عدل، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

[٥٢٧٣] وقد أورد النسائي هاهنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثنا أبو غبيدة الحداد، حدثنا الأخضر بن عجلان، عن ابن جريج المكي، عن عطاء، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - أخذ بيدي فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، فَخَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَالْجِبَالَ يَوْمَ الْآحَدِ، وَالشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَالْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثِ، وَالنُّورَ يَوْمَ الْارْبَعَاءِ، وَالذُّوَابَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَأَدَمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَخَلَقَهُ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، بِأَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، وَطَيْبِهَا وَخَبِيثِهَا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ»^(١). هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً، وقد أخرج مسلمٌ والنسائي، أيضاً من حديث الحجاج بن محمد الأعمري، عن ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - ينحو من هذا السياق. وقد علَّله البخاري في كتاب «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضهم: أبو هريرة عن كعب الأبحار، وهو أصح». وكذا علَّله غير واحد من الحفاظ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَذَرُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾، أي: ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنزِلُ الْأَمْرَ بِبَيِّنَاتٍ لِّعَلَّامَاتٍ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمئة سنة، وشمك السماء خمسمئة سنة. وقال مجاهد، وقاتدة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمئة عام، وصعوده في مسيرة خمسمئة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَأْتِي بِشَيْءٍ﴾. ﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْقَبِيبُ وَالشَّهَادَةُ﴾، أي: المدبِّر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وخفيرها، وصغيرها وكبيرها، هو ﴿الْمُزِينُ﴾ الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأنقنها وأحكمها. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، قال: «أحسن خلق كل شيء». كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾، يعني خلق أبا

(١) تقدم الكلام عليه باستيفاء في سورة البقرة آية ٢٩ وهو ضعيف وإن كان في صحيح مسلم.

البشر آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُم مِّنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ، أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين ضلْب الرجل وتزائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾، يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويًا مستقيمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، يعني: العقول: ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾، أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله - عز وجل - فالسعيد من استعملها في طاعة ربه - عز وجل .

﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَتُوقَنكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: تَمَزَّقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض ودَهبت، ﴿أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي: أئنا لتعود بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيدٌ بالنسبة إلى قُدْرهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدرة الذي بَدَأهم وخلقهم من العَدَم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوقَنكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخصٌ معيَّن من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في «سورة إبراهيم»، وقد سُمِّي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حُويت له الأرض فُجِعِلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. ورواه زهير بن محمد، عن النبي - ﷺ - بِتَحْوِهِ مرسلاً^(١). وقاله ابن عباس رضي الله عنهما.

[٥٢٧٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ، حدثنا عمرو بن شمر قال: سمعت جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله - ﷺ - إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي - ﷺ -: يا ملك الموت، أرفق بصاحبي فإنه مؤمن. فقال ملك الموت: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً فأني بكل مؤمن رقيق، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر، في بر ولا بحر، إلا وأنا أنصفه في كل يوم خمس مرات، حتى إنني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله - يا محمد - لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها. قال جعفر: بلغني أنه إنما يتصفحهم في مواقيت الصلاة، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك، ودفع عنه الشيطان، ولقنه الملك «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، في تلك الحال العظيمة^(٢). وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهداً يقول: ما

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٣٣٢ لابن أبي حاتم عن زهير بن محمد، وهذا معضل، لا مرسل. وهو ضعيف بكل حال، وهو صحيح من جهة معناه. والله تعالى أعلم.

(٢) باطل، أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٤٧٥ وهذا معضل، وله علة ثانية، عمرو بن شمر متروك الحديث، وقد اتهمه ابن حبان بالوضع. ووصله الطبراني، والبيزار كما في «المجمع» ٣٩٢٨ وابن شاهين في «الجنائز» وابن مندة في «المعرفة» وابن قانع كما في «الإصابة» ١/ ٤٢٥ كلهم عن عمرو بن شمر عن جعفر بن محمد عن أبيه سمعت الحارث بن الخزرج الأنصاري عن أبيه مرفوعاً، قال الحافظ: عمرو بن شمر، متروك اهـ وأما الهيثمي فقال في «المجمع»: فيه عمر بن شمر الجعفي، والحارث بن الخزرج، ولم أجد من ترجمهما اهـ وقد أصاب - رحمه الله في الحارث، فهو مجهول، وأما عمرو - فتحرف =

على ظهر الأرض من بيت شعرٍ أو مدرٍ إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين. وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات. ينظر هل فيه أحد أمر به أن يتوفاه. رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَكَ رَبِّكَمُ تَرْحُمُونَ﴾، أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وقالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ يُنصَّرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]. وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدار الدنيا، ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه ولو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رُسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِسَبْعِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩]. وقال هاهنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئِمًا﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، أي: من الصنفين، قد ذرأتهم للنار، لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك. ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: يُقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وتوعدكم، وتناسيكم له، إذ عاملتموه مُعاملة من هو ناسٍ له، ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ أي: ستعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ نَسَنُوا كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجنائية: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ إِلَّا جِئِمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْصِينَتُهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَرِيَكُمُ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢٤ - ٣٠].

= عندنا إلى «عمر» لذا قال لم أجده، وهو متروك منهم كما تقدم، والحديث منكر، بل موضوع، والحمل فيه على عمرو بن شمر. جاء في «الميزان» ٦٣٨٤: قال يحيى: ليس بشيء، وقال الجوزجاني: زائغ كذاب. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال سليمان الشاذكوني: كان يضع على الروافض.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٥) ↑
 نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا
 أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾، أي: إنما يُصدِّقُ بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾، أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، أي: عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعلُه الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾، يعني بذلك قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفراش الوطينة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ ﴾، يعني بذلك قيام الليل. وعن أنس، وعكرمة، ومحمد بن المنكدر، وأبي حازم، وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد. وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة. ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾، أي: خوفاً من وبيل عقابه، وطمعاً في جزييل ثوابه. ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، فيجمعون بين فعل الفُرْبَات اللازمة والمتعدية، ومقدّم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله - ﷺ - كما قال عبد الله بن رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَنْتَلُو كِتَابَهُ
 إِذَا انشَقَّ مَغْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ
 أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى، فَقَلُّوْنَا
 بِهِ مَوْقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالْ وَأَقِعْ
 إِذَا اسْتَشَقَلْتُ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعِ
 يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنِ فِرَاشِهِ

[٥٢٧٥] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا رُوْحٌ وَعِفَانُ قَالَا: حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، أَخْبَرَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ مَرْةِ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ مِنْ وَطَائِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ جِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فيقول ربنا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوَطَائِهِ، وَمِنْ بَيْنِ جِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي. وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَيْقَ دَمَهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أَهْرَيْقَ دَمَهُ»^(١). وهكذا رواه أبو داود في «الجهاد» عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة بِتَحْوِهِ.

[٥٢٧٦] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَغْمَرٌ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيْبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَخْبَرَنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تَطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَمْلِكُونَ ﴾. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٢٥٣٦ وأحمد ٤١٦/١ وابن حبان ٢٥٥٧ وصححه الحاكم ١١٢/٢، ووافقه الذهبي، وهو حسن، وحماد سمع من عطاء قبل اختلاطه، وفي الباب أحاديث.

سَنَامَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ: كُفْتُ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمَوَاطِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: نِتَكَلْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكْتُبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاحِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ^(١). ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سُنَنِهِمْ، مِنْ طَرَفِ عَنِ مَعْمَرٍ، بِهِ. وَقَالَ التَّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٢٧٧] وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنِ الْحَكَمِ قَالَ: سَمِعْتُ عُرْوَةَ بِنَ الزُّبَيْرِ يَحْدُثُ عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ لَهُ: أَلَا أُدَلِّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَقِيَامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢). وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ مَنصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنِ مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنِ مَعَاذِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِنَحْوِهِ. وَمِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنِ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ وَالْحَكَمِ، عَنِ مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ عَنِ مَعَاذٍ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ.

[٥٢٧٨] وَمِنْ حَدِيثِ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنِ شَهْرِ، عَنِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، قَالَ: «قِيَامُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّيْلِ»^(٣).

[٥٢٧٩] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَيَّانٍ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حَدَّثَنَا فُطْرُ ابْنِ خَلِيفَةَ، عَنِ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ وَالْحَكَمِ وَحَكِيمِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِأَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٤).

[٥٢٨٠] ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوْلِيْنَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَاءَ مَنَادٌ فَنَادَى بِصَوْتِ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ الْيَوْمَ مَنْ أَوْلَى بِالكَرَمِ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: لِيَقُمْ الَّذِينَ كَانَتْ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾... الْآيَةَ، فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ»^(٥).

[٥٢٨١] وَقَالَ الْبَزَّازُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ عَطَاءِ بْنِ الْأَعْرُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ ابْنِ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنِي مُصْعَبٌ، عَنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنِ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ بِلَالٌ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، كُنَّا نَجْلِسُ فِي الْمَجْلِسِ، وَنَأْسُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يُصَلُّونَ بَعْدَ الْمَغْرَبِ

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٦١٦ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٩٢ وابن ماجه ٣٩٧٣ وأحمد ٢٣١/٥ وقال الترمذي حسن صحيح. قلت: أبو وائل عن معاذ منقطع، ووصله أحمد ٢٣٥/٥ - ٢٤٥ - ٢٤٨ من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ، وهذا إسناد حسن في الشواهد، وله طرق.

(٢) حسن. أخرجه الطبري ٢٨٢٣٧ وهو منقطع بين عروة ومعاذ، لكن له طرق.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٢٤٠ وإسناده ضعيف لانقطاعه، وهو بهذا اللفظ ضعيف، والصواب ما قبله.

(٤) حسن. رجاله ثقات، لكن ميمون لم يثبت سماعه من معاذ، وللحديث طرق يحسن بها، وأخرجه الطبري ٢٨٢٣٨ و٢٨٢٣٩ من طرق عن ميمون به.

(٥) تقدم في سورة النور: ٣٧.

إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تَنَجَّافِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(١). ثم قال: لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يُطلع على مثلها أحد، لَمَّا أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثوابِ جزاءً وفاقاً؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم العمل فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.

[٥٢٨٢] قال البخاري: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾... الآية. حَدَّثَنَا علي ابن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله، قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأني شيء؟^(٢). قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح: قرأ أبو هريرة: «قرأت أعين». ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

[٥٢٨٣] ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ذخراً من بله ما أطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣). انفرد به البخاري من هذا الوجه.

[٥٢٨٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله - ﷺ -: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٤). أخرجه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق. ورواه الترمذي في التفسير، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - بمثله. ثم قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

[٥٢٨٥] وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال حماد: أحسبه عن النبي - ﷺ - قال: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبِئْسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ، فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٥). رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به.

[٥٢٨٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، أن أبا حازم حدثه

(١) أخرجه البزار ٢٢٥٠ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ٩٠/٧: رواه البزار عن شيخه، وهو ضعيف اهـ والثنى غريب، والصحيح ما تقدم وأن المراد قيام الليل.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧٩ ومسلم ٢٨٢٤ والترمذي ٣١٩٧ وابن حبان ٣٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٠ ومسلم ٢٨٢٤ وابن ماجه ٤٣٢٨ وأحمد ٤٦٦/٢.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤٩٨ وأحمد ٣١٣/٢ ولم أره في «صحيح مسلم» من رواية عبد الرزاق؛ وأخرجه أحمد ٣١٣/٢ والطبري ٢٨٢٥٣ من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة به.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٣٨٣٦ وأحمد ٣٦٩/٢ و٤٠٧ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٩٧.

قال: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ، حَتَّى انْتَهَى، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿تَنَجَّافِي جُنُودَهُمْ عَنِ اللَّصَّاحِجِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾^(١). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ هَارُونَ بْنِ مَعْرُوفٍ، وَهَارُونَ بْنِ سَعِيدٍ، كِلَاهُمَا عَنْ ابْنِ وَهَبٍ، بِهِ.

[٥٢٨٧] وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْعَبَّاسُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا سَلَامٌ بْنُ أَبِي مُطْعِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَزُورِي عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٢). لَمْ يَخْرُجْهُ.

[٥٢٨٨] وَقَالَ مُسْلِمٌ أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ وَغَيْرُهُ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، حَدَّثَنَا مُطَرِّفُ بْنُ طَرِيفٍ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ سَعِيدٍ، سَمِعَا الشَّعْبِيَّ يَخْبُرُ عَنِ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُهُ عَلَى الْمَنْبِرِ - يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنْازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَحْذَانَهُمْ؟ فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيْتُ رَبِّي. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعِشْرَةٌ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَدَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّي قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، عَزَّسْتُ كِرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَرَ، بِهِ وَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ». قَالَ: «وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ الْمَغِيرَةَ وَلَمْ يَرْفَعَهُ، وَالْمَرْفُوعُ أَصَحُّ».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُنِيرِ الْمَدَائِنِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَدْرِ شَجَاعُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ خَيْثَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُحَادَةَ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَمْكُثُ فِي مَكَانِهِ سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَلْتَفِتُ فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ فِيهِ، فَتَقُولُ لَهُ: قَدْ آتَى لَكَ أَنْ يَكُونَ لَنَا مِنْكَ نَصِيبٌ. فَيَقُولُ: مِنْ أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا مِنَ الْمَرْيَدِ. فَيَمْكُثُ مَعَهَا سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَلْتَفِتُ فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ فِيهِ، فَتَقُولُ لَهُ: قَدْ آتَى لَكَ أَنْ يَكُونَ لَنَا مِنْكَ نَصِيبٌ. فَيَقُولُ: مِنْ أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا الَّذِي قَالَ اللَّهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. وَقَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ: حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: تَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ فِي مِقْدَارِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مَعَهُمُ التَّحَفُّ مِنَ اللَّهِ مِنْ جَنَاتٍ عَدَدِ مَا لَيْسَ فِي جَنَاتِهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وَيُخْبِرُونَ أَنَّ اللَّهَ عَنْهُمْ رَاضٍ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيِّ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي الْيَمَانِ الْهَوَزِيِّ - أَوْ غَيْرِهِ - قَالَ: الْجَنَّةُ مِثْلُ دَرَجَةٍ، أَوْ لَهَا دَرَجَةٌ فِضَّةٌ، وَأَرْضُهَا فِضَّةٌ، وَمَسَاكِنُهَا فِضَّةٌ، وَأَبْنِيَّتُهَا

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٢٥ وأحمد ٥/٣٣٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٢٥٦ وأبو نعيم في «الحلية» ٢/٢٦٢ وإسناده غير قوي، سلام ثقة لكن في روايته عن قتادة ضعف، ومع ذلك للحديث شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٩، والترمذي ٣١٩٨ وابن حبان ٦٢١٦.

فِضَّةً وَتَرَابُهَا الْمَسْكُ. والثانية ذهب، وأرضها ذهب، ومساحتها ذهب، آنتها ذهب وترابها المسك. والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساحتها اللؤلؤ، وآنتها اللؤلؤ، وترابها المسك، وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

[٥٢٨٩] وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - عن الروح الأمين قال: «يُؤْتَى بحسنات العبد وسيئاته، فَيُنْقَضُ بعضها من بعض، فإن بقيت حسنة واحدة وَسَّعَ اللهُ له في الجنة، قال: فدخلت على يزيداد فحدثت بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فإن ذهبت الحسنه؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَّبَلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾. قلت قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، قال: العبد يعمل سراً أسره إلى الله، لم يعلم به الناس، فأسر له يوم القيامة قُرَّةً أعين^(١).

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُنذِرَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبوعاً لرسله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسل الله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَن نَّجْعَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَر نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي أَحْسَبُ النَّارِ وَأَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآبِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾، أي: عند الله يوم القيامة. وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي معيط. ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات، ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾، أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية، ﴿نُزُلًا﴾، أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، أي: خَرَجُوا عن الطاعة، ﴿فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾، كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]. قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة ترفعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وقوله: ﴿وَلَنُنذِرَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٨٢٥٥، وإسناده ضعيف، الحكم غير قوي، والغطريف، وهو: أبو هارون اليماني. ذكره البخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم من غير جرح ولا تعديل، ووثقه ابن حبان على قاعدته في توثيق المجاهيل. فإنه روى عنه الحكم بن أبان فحسب، فهو مجهول، ويزداد ويقال: ازداد، قال أبو حاتم: مجهول، والله أعلم.

الْأَكْبَرِ ﴿٢٣﴾، قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مَصَائِبَ الدنيا وأَسْقَامَهَا وآفَاتَهَا، وما يحل بأهلها مما يتبلي الله به عباده ليتوبوا إليه. وَرُوي مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجَزْرِي، وَخُصِيف، وقال ابن عباس - في رواية عنه -: يعني به إقامة الحدود عليهم. وقال البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر.

وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة، عن عبد الله: ﴿وَلْيَذِيقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ ذُوَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، قال: سِتُونَ أصابتهُم. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني عبيد الله بن عمَر القَوَارِيرِي، حدثنا يحيى بن سَعِيد، عن شُعْبَةَ، عن قتادة، عن عروَةَ، عن الحسن العُزَينِي، عن يحيى بن الجَزَار، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، في هذه الآية: ﴿وَلْيَذِيقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ ذُوَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللزام^(١). ورواه مسلم من حديث شعبة، به موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود، نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً، في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم. قال السُدِّي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزنُ على قَتِيل له أو أسير، فأصيبوا أو غرِموا، ومنهم من جُمع له الأمران. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فُرِيَ عَنْهَا﴾، أي: لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضَّحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدَها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها. قال قتادة - رَحِمَهُ اللهُ - إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغترَّ أكبر الغرَّة، وأغورَّ أشدَّ الغورَّة، وعظَّم من أعظم الذُّنُوبِ. ولهذا قال متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾، أي: سأنقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

[٥٢٩٠] وقال ابن جرير: حَدَّثني عمرانُ بن بَكَار الكَلَاعِي، حدثنا محمد بن المُبارك، حدثنا إسماعيل بن عِيَّاش، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبادة بن نَسِي، عن جُنَادَة بن أبي أمية، عن معاذِ ابن جَبَل قال: سَمِعْتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ثلاثٌ من فَعَلَهُنَّ فقد أجزَمَ، من عَقَدَ لواءَ في غير حَقِّ، أو عَقَّ والديه، أو مَشَى مع ظالم ينصره، فقد أجزَمَ، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾^(٢). وَرَوَاهُ ابنُ أَبِي حاتم، من حديث إسماعيل بن عِيَّاش، به. وهذا حديثٌ غَرِيبٌ جَدًّا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه آتاه الكتاب وهو التوراة. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾، قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء.

[٥٢٩١] ثم روى عن أبي العالية الرِّيَاحِي قال: حَدَّثني ابنُ عمِّ نَبِيِّكُم - يعني ابنَ عباس - قال: قال

(١) موقوف صحيح. أخرجه أحمد ١٢٨/٥ وأصله عند مسلم.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٨٢٩٨، والطبراني ٦١/٢٠، وفيه عبد العزيز بن عبيد الله الصهبي قال الذهبي في الميزان ٥١١٥: وإه، ضعفه أبو حاتم وابن معين وابن المدني. ما روى عنه سوى إسماعيل بن عياش اه، وضعفه الهيثمي في المجمع ١١٢٦٩ بعد العزيز.

رسول الله - ﷺ -: «أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بِنُ عِمْرَانَ رَجُلًا أَدَمَ طَوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْثَةَ. وَرَأَيْتُ عَيْسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ، إِلَى الضُّمْرَةِ وَالْبِيَاضِ، سَبَطَ الرَّاسَةَ. وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالِدِجَالَ، فِي آيَاتِ آرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَبٍ مِّنْ لِّقَابِهِ﴾، أَنَّهُ قَدْ رَأَى مُوسَى، وَلَقِيَ مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ^(١).

[٥٢٩٢] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن علي الخلواني، حدثنا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حدثنا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، قَالَ: «جَعَلَ مُوسَى هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٢)، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَبٍ مِّنْ لِّقَابِهِ﴾، قَالَ: «مِنْ لِقَاءِ مُوسَى رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -». وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾، أَي: الْكِتَابَ الَّذِي آتَيْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٣)، أَي: لَمَّا كَانُوا صَابِرِينَ عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ وَتَرَكَ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرَهُ، وَتَصَدَّقَ رَسَلَهُ، وَاتَّبَاعَهُمْ فِيمَا جَاؤَهُمْ بِهِ، كَانَ مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَخَرَفُوا وَأَوْلُوا سُلْبِيئًا ذَلِكَ الْمَقَامَ، وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً، يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَلَا عَمَلَ صَالِحًا، وَلَا اعْتِقَادَ صَحِيحًا. وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾. قَالَ قَتَادَةُ وَسَفِيَانُ: «لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا». وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ. قَالَ سَفِيَانُ: هَكَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ حَتَّى يَتَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا. وَقَالَ وَكَيْعٌ: قَالَ سَفِيَانُ: لَا بَدَ لِلدُّنْيَانِ مِنَ الْعَمَلِ، كَمَا لَا بَدَ لِلْجَسَدِ مِنَ الْخُبْزِ. وَقَالَ ابْنُ بِنْتِ الشَّافِعِيِّ: قَرَأَ أَبِي عَلِيٍّ عَمِي، أَوْ عَمِّي عَلَى أَبِي: سُئِلَ سَفِيَانُ عَنْ قَوْلِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّاسِ مِنَ الْجَسَدِ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾، قَالَ: لَمَّا أَخَذُوا بِرَأْسِ الْأَمْرِ صَارُوا رُؤُوسًا. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدُّنْيَا. وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِذْقَةَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ نَهْمًا وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْآخَرِينَ﴾^(٤) وَمَا آتَيْنَاهُمْ يَنْتَسُونَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ [الجنائيات: ١٦ - ١٧]، كَمَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٥)، أَي: مِنَ الْاعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ.

﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(٦) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾^(٧)

(١) أخرجه الطبري ٢٨٢٩٩ ورجاله ثقات، لكن فيه عننة قتادة، ومع ذلك فلا ضل عليه شواهد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٢٧٥٨، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٧٠: رجاله رجال الصحيح! كذا قال رحمه الله. مع أن شيخ الطبراني، وهو محمد بن عثمان بن أبي شيبة ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٩٣٤ فقال: وثقه صالح جزرة، وقال ابن عدي، لم أر له حديثاً منكراً، وأما عبد الله بن أحمد، فقال: كذاب. وقال ابن خراش: كان يضع الحديث. وقال مُعَلِّينٌ: هو عصا موسى، تلقف ما يأفكون. وقال ابن عقدة: سمعت عبد الله بن أسامة الكلبي، وإبراهيم بن إسحق الصواف، وداود بن يحيى يقولون: محمد بن عثمان، كذاب اهد باختصار، والأشبه في هذا، الوقف فيه على ابن عباس، ولا يصح، فالراجح أن الهدى هو التوراة.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، أي: أولم يُبَيِّنْ لهؤلاء المكذِّبين بالرُّسل ما أهلك الله قبْلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءهم به من قويم السبيل، فلم يبقَ منهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ؟ ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مَنَ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾، ولهذا قال: ﴿يَسْتَوُونَ فِي مَسْكِئَتِهِمْ﴾، أي: وهؤلاء المكذِّبون يمشون في مساكن أولئك المكذِّبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَتَّبِعُوا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَكَأَن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُورُ الْمُعْتَظَّةُ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ - ٤٦]. ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، وآيات وعبراً ومواعظ، ودلالات ظاهرة. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السَّيْح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال، إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، وهي: التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]، أي: يَبْسَأُ لا تنبت شيئاً، وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثيرٌ من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مُرَادَةٌ قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رِخْوَةٌ غَلِيظَةٌ تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمَّله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سَبْحَةٌ^(١) مُرْمَلَةٌ محتاجةٌ إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماءٍ جديدٍ مطوَّرٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً.

قال ابنُ لهيعة، عن قيس بن حجاج، عمن حدَّثه قال: لما فتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص، وكان أميراً بها، حين دخل بثؤنة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا سنة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا ما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بثؤنة والنيل لا يجري، حتى هموا بالجللاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه، إنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل. فلما قَدِمَ كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل، فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم^(٢)». رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له. ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ الْجُرُزِ فَتُخْرِجُ بِهِمْ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٨﴾ أَنَّا صَبَّأْنَا الْمَاءَ صَبًّا

(١) السبخة: أرض ذات نر وملح.

(٢) خبر واه، ابن لهيعة ضعيف، وفي الإسناد من لم يسم، والخبر شبه موضوع.

﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبًّا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَمَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَسَدَائِقَ غَلًّا ﴿٣٠﴾ وَلَكُمْ مَاءً وَابًا ﴿٣١﴾ مَنَّمَا لَكُمْ وَلَا تَمَيِّزُوا ﴿٣٢﴾ ﴿عبس: ٢٤ - ٣٢﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَلَا يَتَّبِعُونَ﴾.

وقال ابن أبي نجیح، عن رجل، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، قال: هي التي لا تُمطر إلا مطراً لا يُغني عنها شيئاً، إلا ما يأتيها من السيول. وعن ابن عباس، ومجاهد: هي أرض باليمن. وقال الحسن رحمه الله: هي قرى فيما بين اليمن والشام. وقال عكرمة، والضحاك، وقناة، والسدي، وابن زيد: الأرض الجُرُز: التي لا نبات فيها وهي مُعْبِرَةٌ. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَمَمٍ الْأَرْضِ الْأَيْبَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا حَبًّا قَبْلَ مَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتَ مِنْ قَيْسِ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْونِ ﴿٣٤﴾ لِأَكْلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿يس: ٣٣ - ٣٥﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكديباً وعناداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾، أي: متى تنصر علينا يا محمد كما تزعم أن لك وقتاً تُدال علينا، ويُنتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ قَلِيلِينَ ذَلِيلِينَ! قال الله تعالى: ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾، أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ وَمَا لَكُم بِهِمْ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلُوا آلَاءَنَا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ كَمَا بِهِمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١١﴾ قَلَّمَ لَكَ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلُوا آلَاءَنَا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ كَمَا بِهِمْ مُشْرِكِينَ ﴿١١﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥]. ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعَدَ الثَّجَعَةَ، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله - ﷺ - إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من الفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم، لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبَيَّنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿قَدْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رِثَانًا يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾ [سبا: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ سَتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿أَلَيْعَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانتظر فإن الله سَيَنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، وَسَيَنْصُرُكَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، إنه لا يُخْلَفُ الميعاد. وقوله: ﴿إِيْمَانُهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾، أي: أنت مُنْتَظِرٌ وهم مُنْتَظِرُونَ، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ ﴿١٦٦﴾ [الطور: ٣٠]، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأييدك، وَسَيَجِدُونَ غَيْبَ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ، ومن يبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم. والله أعلم.

آخر تفسير سورة السجدة، والله الحمد والمنة



وَهِيَ مَدِينَةٌ

[٥٢٩٣] قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا خَلْفُ بن هشام، حدثنا حَمَادُ بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَةَ، عن زِرِّ قال: قال لي أَبِي بن كعب: كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سورة الأحزاب؟ أو كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قَطُّ! لقد رأيتها وإنما لتُعَادِلَ سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخُ والشيخةُ إذا زَنِيَا فارجُومهُمَا البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم»^(١). ورواه النسائي من وجه آخر، عن عَصَامٍ - وهو ابن أَبِي النَّجُودِ، وهو ابن بَهْدَلَةَ - به. وهذا إسناد حسن، وهذا يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نُسِخَ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتِّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله فلأن ياتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى. وقد قال طَلْحُ بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، أي: لا تسمع منهم ولا تستشيرهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: من قرآن وسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، أي: فلا تخفى عليه خافية. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، أي: وكفى به وكيل لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْفِي تَظَاهِرُونَ مِّنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاعَكُمْ أَسْبَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْرَجُوهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً حسيماً معروفاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد

(١) حسن. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زيادات المسند» ١٣٢/٥ والنسائي في «الكبرى» ٧١٥٠ وابن حبان ٤٤٢٩ وفي إسناده عاصم بن بهدلة، وهو صدوق له أوهام، وحديثه حسن.

قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظهر منها بقوله: أنت علي كظهر أمي، أمأ له، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَهُمُ النَّاسِ تَطْلُهِمُونَ مِنْهُنَّ أَهْنِيكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أَهْنِيكُمْ إِنَّمَهُنَّ هُمُ اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَرُذُولًا﴾ [المجادلة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَهْنَاءَكُمْ﴾، هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ - كان النبي ﷺ - قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: «زيد بن محمد»، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَهْنَاءَكُمْ﴾، كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. وقال هاهنا: ﴿ذَلِكَم قولكم يافؤوهكم﴾، يعني تبتئكم له قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً؛ فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للرجل الواحد قلبان. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، قال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾، أي: العدل. وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، أي: الصراط المستقيم.

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له «ذو القلبين»، وأنه كان يزعم أن له قلبيين، كل منهما بعقلٍ وافر. فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليه. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. وقاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، واختاره ابن جرير.

[٥٢٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن قابوس - يعني ابن أبي ظبيان - أن أباه حدثه قال: قلت لابن عباس: رأيت قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ﴾، ما عنى بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ - يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبيين، قلباً معكم وقلباً معهم؟ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ﴾^(١). وهكذا رواه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن صاعدي الحزاني - وعن عبد بن حميد، عن أحمد بن يونس - كلاهما عن زهير، وهو ابن معاوية، به ثم قال: «وهذا حديث حسن». وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث زهير، به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ﴾، قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة، ضرب له مثل، يقول: ليس ابن رجل آخر ابتك. وكذا قال مجاهد، وقاتدة، وابن زيد: إنها نزلت في زيد بن حارثة. وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير. والله أعلم. وقوله: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأعداء، فأمر تبارك وتعالى بردهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر.

[٥٢٩٥] قال البخاري رحمه الله: حدثنا مَعْلَى بْنُ أَسَدٍ، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا موسى بن عقبة قال: حدثني سالم، عن عبد الله بن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ - ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢). وأخرجه مسلم والترمذي

(١) أخرجه الترمذي ٣١٩٩ وأحمد ١/١٦٨، وإسناده ضعيف، لأجل قابوس بن أبي ظبيان. جاء في «الميزان» ٦٧٨٨: كان ابن معين شديد الخطأ عليه، على أنه قد وثقه، وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان: رديء الحفظ، ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، وربما رفع المرسل، وأسند الموقوف اهـ باختصار.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٢ ومسلم ٢٤٢٥ والترمذي ٣٢٠٩ والنسائي في «التفسير» ٤١٦.

والنسائي، من طُرُق، عن موسى بن عُقْبَةَ، به. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك.

[٥٢٩٦] ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله، إننا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عليّ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال - ﷺ -: أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ... الحديث^(١). ولهذا لما نُسِخَ هذا الحكم أباح تعالى زوجة الدَّعِيِّ، وتزوَّج رسول الله - ﷺ - بزَيْنَب بنت جحش مُطَلَقَةَ زَيْد بن حارثة، وقال عز وجل: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدَّعِيِّ، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة فَمُنْزَل منزلة ابن الصلب شُرْعاً، بقوله - ﷺ - في الصحيحين:

[٥٢٩٧] «حَرَمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرَمُ مِنَ النِّسْبِ»^(٢).

فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحيب فليس مما نُهي عنه في هذه الآية.

[٥٢٩٨] بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، من حديث سفيان الثوري، عن سلمة ابن كهيل، عن الحسن العرنبي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَعْيَلِمَةَ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَلَى حُمُرَاتٍ لَنَا مِنْ جَمْعٍ، فَجَعَلَ يَلْطُخُ أَفْخَادَنَا وَيَقُولُ: «أُبَيِّنِي لَا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»^(٣). قال أبو عبيد وغيره: «أُبَيِّنِي»: تصغير بَيَّنَّ. وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عَشْرٍ، وقوله: «ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ» في شأن زيد بن حارثة، وقد قُتِلَ في يوم مؤتة سنة ثَمَانٍ.

[٥٢٩٩] أيضاً ففي - الصحيح - لمسلم، من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكري، عن الجعد أبي عثمان البصري، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: «يَا بُنَيَّ»^(٤). ورواه أبو داود والترمذي. وقوله - عز وجل - : «فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِحْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ»، أمر تعالى برد أنساب الأعداء إلى آبائهم، إن عَرَفُوا، فإن لم يَعْرِفُوا آبَاءَهُمْ فَهَمُ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيَهُمْ، أي: عِوَضاً عما فَاتَهُمْ مِنَ النِّسْبِ.

[٥٣٠٠] ولهذا قال رسول الله - ﷺ - يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء، وتبعتهم ابنة حمزة تنادي: يَا عَمُّ، يَا عَمُّ. فأخذها علي وقال لفاطمة: دُونَكَ ابْنَةُ عَمِّكَ فَاحْتَمِلِيهَا. فاحتصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أيهم يكفلها، فكل أدلى بِحُجَّتِهِ، فقال علي: أنا أحقُّ بها وهي ابنة عمي. وقال زيد: ابنة أخي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحتي - يعني أسماء بنت عميس - فقضى النبي - ﷺ - لخالتها، وقال: «الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ». وقال لعلي: «أنت مني، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقِي وَخَلْقِي». وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». ففي هذا الحديث أحكام كثيرة مِنْ أَحْسَنِهَا أَنَّهُ - ﷺ - حَكَمَ بِالْحَقِّ،

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٥٣ وأبو داود ٢٠٦١ وابن حبان ٤٢١٤ من حديث عائشة بألفاظ مختلفة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٩٤٠ والنسائي في «الكبرى» ٤٠٧٠ وابن ماجه ٣٠٢٥ وأحمد ١/٢٣٤ و٣٢٦ و٣٤٣ وإسناده حسن، رجاله ثقات.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٥١ وأبو داود ٤٩٦٤ والترمذي ٢٨٣١.

وَأَرْضَى كُلًّا مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَقَالَ لَزِيدٍ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»^(١)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾.

[٥٣٠١] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْبٍ، عَنْ عُسَيْبَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرَةَ: قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾، فَانَا مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ أَبُوهُ، وَأَنَا مِنْ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ. قَالَ: قَالَ أَبِي: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُظَنُّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ حِبَارًا لَاتَّعَمَى إِلَيْهِ»^(٢).

[٥٣٠٢] وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ أَدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ»^(٣). وَهَذَا تَشْدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، فِي التَّبْرِيِّ مِنَ النِّسْبِ الْمَعْلُومِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ»، أَيْ: إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً، بَعْدَ الْجَاهِدِ وَالِاسْتِفْرَاحِ الْوُسْعِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ الْحَرَجَ فِي الْخَطَا وَرَفَعَ إِثْمَهُ، كَمَا أُرْشِدُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ أَمْرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

[٥٣٠٣] وَثَبِتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : قَدْ فَعَلْتَ»^(٤).

[٥٣٠٤] وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَاصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٥).

[٥٣٠٥] وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنِّسْيَانَ، وَمَا يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ»^(٦).

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، أَيْ: وَإِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ الْبَاطِلَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحُوقِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

[٥٣٠٦] وَفِي الْحَدِيثِ الْمَتَّقِمِ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ أَدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ»^(٧). وَفِي الْقُرْآنِ الْمَنْسُوحِ: «فَإِنْ كَفَرْنَا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ».

[٥٣٠٧] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثَيْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - ﷺ - بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ مَعَهُ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ. ثُمَّ قَالَ: قَدْ كُنَّا نَقْرَأُ: «وَلَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كَفَرٌ بِكُمْ» أَوْ: «إِنْ كَفَرْنَا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ»، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥١ وأحمد ٤/٢٩٨ وابن حبان ٤٨٧٣ من حديث البراء مطولاً.

(٢) حسن. أخرجه الطبري ٢٨٣٣٢ بإسناد حسن. رجاله ثقات.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٠٨ ومسلم ٦١ من حديث أبي ذر.

(٤) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٨٦.

(٥) تقدم في تفسير سورة الأنبياء عند آية: ٧٩.

(٦) تقدم تخريجه، وهو غير قوي.

(٧) تقدم قبل ثلاثة أحاديث.

أَطْرَبِي عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وربما قال معمرٌ: «كما أطربت النصارى ابنَ مريم»^(١).

[٥٣٠٨] ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كُفِرَ: الطعن في النسب، والثياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم»^(٢).

﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِذَا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أَوْلَىٰ بِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُورًا ﴿٦﴾

قد عَلِمَ اللهُ تعالى شَفَقَةَ رَسُولِهِ - ﷺ - على أمته، ونَصَحَهُ لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحُكِمَ فيهم مُقَدِّمًا على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦٥].

[٥٣٠٩] وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»^(٣).

[٥٣١٠] وفي الصحيح أيضاً أن عُمَرَ - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «لا يا عُمَرُ، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عُمَرُ»^(٤). ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

[٥٣١١] وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فليح: حدثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عُمَرَ، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فإيما مؤمن ترك مالا فليريه عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، فَإِن تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَاتِنِي فَإِنَّا مَوْلَاهُ»^(٥). تفرد به البخاري. ورواه أيضاً في «الاستقراض»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طُرُق، عن فليح، به. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبي حُصَيْن، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسول الله - ﷺ -.

[٥٣١٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبي - ﷺ - كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤٧/١ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٢) صحيح. أخرجه الحاكم ٣٨٣/١ وابن حبان ١٤٦٥ من حديث أبي هريرة، وفيه «شق الجيب» بدل «الاستسقاء بالنجوم» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد. وأخرجه مسلم ٦٧ وأحمد ٣٧٧/٢ من حديث أبي هريرة بلفظ «اثنان في الناس ما بهم كفر» «الطعن في النسب، والثياحة على الميت». وأخرجه مسلم ٩٣٤ وابن ماجه ١٥٨١ وأحمد ٣٤٢/٥ - ٣٤٣ وأبو يعلى ١٥٧٧ من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ «أربع في أمتي...» وذكر منه «الاستسقاء بالنجوم».

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٢٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٣٢ من حديث عبد الله بن هشام.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣٩٩ و٤٧٨١ وأحمد ٣٥٦/٢ والطبري ٢٨٣٣٧.

من نفسه، فأَيُّمَا رجلٍ ماتَ وَتَرَكَ ديناً فإِلَيَّ، وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ» (١). ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل، به نحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْوَيْتُمْ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوزُ الخُلوةُ بهنَّ، ولا يتشتر التحريم إلى بناتهنَّ وأخواتهن بالإجماع، وَإِنْ سَمِيَ بعضُ العلماء بناتهنَّ أخواتِ المؤمنين، كما هو منصوصُ الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يُقال لمعاوية وأمثاله: خالُ المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء، ونصُّ الشافعي على أنه يُقال ذلك. وهل يُقال لهنَّ: أمهاتُ المؤمنات، فيدخلُ النساء في جمع المذكر السالم تغليياً؟ فيه قولان، صحَّح عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: لا يُقال ذلك. وهذا أصحُّ الوجهين في مذهب الشافعي رحمه الله. وقد روي عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبُّ لهم». وروي نحوه هذا عن معاوية، ومجاهد، وعكرمة، والحسين، وهو أحدُ الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره.

[٥٣١٣] واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا عبدُ الله بن محمد الثَّقَلِي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إنما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستعطب بيمينه». وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الزوث والرمة (٢). وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان. والوجه الثاني: أنه لا يُقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾، أي: القرباب أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالجلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجريُّ يرثُ الأنصاريُّ دون قَرَاباته ودوي رَحِمه، للأخوة التي أخی بينهما رسولُ الله - ﷺ -. وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف.

[٥٣١٤] وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام - رضي الله عنه - فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبِي - من ساكني بغداد - عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام - رضي الله عنه - قال: أنزل الله - عزَّ وجلَّ - فينا خاصةً معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وذلك أنا - معشر قريش - لما قَدِمنا المدينة قَدِمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نغم الإخوان، فوَاخيناهم ووارثناهم، فأخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عُمَر فلاناً، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق، سعد الزرقني، ويقول بعضُ الناس غيره. قال الزبير: وواخيتُ أنا كعب بن مالك، فنجثه فابتعلت فوجدت السلاح قد أثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فَرَجَعنا إلى موارثنا (٣).

(١) صحيح . أخرجه أحمد ٢٩٦/٣ وأبو داود ٣٣٤٣ وابن حبان ٣٠٦٤ من حديث جابر .

(٢) حسن . أخرجه أبو داود ٨ والنسائي ٣٨/١ وابن ماجه ٣١٢ وأحمد ٢/٢٥٠ وابن حبان ١٤٤٠ وإسناده حسن من أجل محمد بن عجلان .

(٣) أخرجه الحاكم ٤/٣٤٤ - ٣٤٥ بنحوه .

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾، أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية. وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مُقَدَّر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يُبدل، ولا يُعَيَّر. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي، وقضائه القَدْرِي الشرعي والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذا هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطية الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم نصاً في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على الترتيب. فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه - صلوات الله وسلامه عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم.

[٥٣١٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة الدمشقي، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾... الآية، قال النبي - ﷺ -: «كنت أول النبيين في الخلق وأجزهم في البعث، فبدأ بي قبلهم»^(١). سعيد بن بشير فيه ضعف. وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلأ، وهو أشبه. ورواه بعضهم عن قتادة موقوفأ. والله أعلم. وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وخيرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. موقوف، وحمزة فيه ضعف. وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب

(١) إسناده ضعيف جداً، والمتن باطل، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ٣ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً، فيه سعيد بن بشير، وهو ضعيف منكر الحديث، وساق الذهبي هذا الحديث في ترجمته في الميزان ٣١٤٣ على أنه من منكراته. وله علة ثانية: وهي أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، فالإسناده ضعيف جداً، لا شيء. وورد عن قتادة مرسلأ، أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/١١٩ والمرسل من قسم الضعيف، وله علة ثانية: سعيد بن أبي عروبة، تغير بأخرة. وعلة ثالثة: فيه عطية بن عبد الوهاب الخفاف وثقه قوم، وضعفه أحمد بقوله: ضعيف مضطرب الحديث. وأما المتن فباطل. بل أول من خلق الله من البشر، آدم عليه السلام. هذا وقد خلط بعضهم هذا الحديث بحديث «كنت نبياً، وآدم بين الروح والجسد» فإن هذا الأخير له شواهد كثيرة، لكنه لا يثبت أولية الخلق وإنما فيه إثبات أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، أو في علم الله تبارك وتعالى. فتنبه، فإن هذا الحديث الأخير، يخالف الأول ويفارقه، والله تعالى أعلم.

آدم، كما قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم يعني ذريته - وإن فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لو سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم النور، وحضوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِنْ تَوَجَّهْتَ إِلَى الْبَنِي إِسْرَائِيلَ فَقُلْ أُولَئِكَ أُخَذُوا مِنَ اللَّهِ عَهْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾... الآية. وهذا قول مجاهد أيضاً. وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْلِمُ الَّذِينَ يَدِينُونَ عَنْ مِلَّةِ رَبِّهِمْ﴾، قال مجاهد: المبلّغين المؤدّين من الرسل. وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم، ونصّحوا الأمم وأفضّحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال، كما يقول أهل الجنة: لقد جاءت رسلنا بالحق.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وقضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إيّاهم عام تألّبوا عليهم وتحزّبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عقبة وغيره: كانت في سنة أربع. وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرأ من أشرف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلّاهم رسول الله - ﷺ - من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام ابن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرّجوا إلى مكة واجتمعوا بأشرف قريش، وألبّوهم على حزب رسول الله - ﷺ - ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرّجوا إلى غطفان فدعاهم فاستجابوا لهم أيضاً. وخرّجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجمع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي المشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله - ﷺ - التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحة. وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، وخرّج رسول الله - ﷺ - ومن معه من المسلمين، وهم نحو من ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والدّراري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي - ﷺ - وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حبي بن أخطب النَّضْرِي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالوا الأحزاب على رسول الله - ﷺ - فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ آتَى الْمُرْسَلُونَ وَرَأَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مَنَاطِدٍ كَاتِبَةٍ مُسَوِّمَاتٍ لِيُكَلِّمَهُنَّ بَعْضُ الرُّسُلِ وَأُولَئِكَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ الْعَلِيمَ ﴿١١﴾﴾. ومكثوا مُحاصرين للنبي - ﷺ - وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبديّة العامري، وكان من الفرسان الشجعان

المشهورين في الجاهلية، ركب ومعه فوارس فافتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين. فندب رسول الله - ﷺ - خيل المسلمين إليه فيقال: إنه لم يبرز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاوزا ساعة، ثم قتله علي - رضي الله عنه -، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله - عز وجل - على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولا ثوقد لهم ناز، ولم يقر لهم قرأز حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾. قال مجاهد: وهي الصبا.

[٥٣١٦] وَيُؤَيِّدُ الْحَدِيثَ الْآخَرَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتَ عَادَ بِالذَّبُورِ»^(١). وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عكرمة قال: قالت الجَنُوبُ لِلشَّمَالِ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ: انطلقني نصر رسول الله - ﷺ -. فقالت الشَّمَالُ: إن الحُرَّةَ لَا تُسْرِى بِاللَّيْلِ. قال: فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا. ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره.

[٥٣١٧] وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني عبد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في بزد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف، قال: فاستأذنت رسول الله - ﷺ - فأذن لي، وقال: «مَنْ آتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ بِرِجْمُوا». قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي - ﷺ -. قال: فما يلوي أحد منهم عنقه. قال: وكان معي تروس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضرته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأنفذهما إلى الأرض^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان، إلي. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء النجاء. لِمَا أَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّعْبِ.

[٥٣١٨] وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيت رسول الله - ﷺ - وصحبه؟ قال: نعم، يا ابن أخي. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة: يا ابن أخي، والله لو رأيتنا مع رسول الله - ﷺ - بالخندق وصلى رسول الله - ﷺ - هويًا^(٣) من الليل، ثم التفت فقال: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ؟ يَشْرَطُ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ - أنه يرجع - أدخله الله الجنة. قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله - ﷺ - هويًا من الليل، ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل. ثم صلى رسول الله - ﷺ - هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرَطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الرَّجْعَةَ - أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَافِعِي فِي الْجَنَّةِ». فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يبق أحد، دعاني رسول الله - ﷺ - . فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٣٦١ وإسناده ضعيف لضعف عبد الله بن عمر العمري.

(٣) الهوي: الساعة من الليل.

فانظر ما يفعلون، ولا تُخَدِّقَنَّ شيئاً حتى تأتينا». قال: فَهَذَّبْتُ فدخلتُ في القوم، والريح وجنودُ الله - عزَّ وجلَّ - تفعلُ بهم ما تفعلُ، لا تُقِرُّ لهم قِدرًا ولا ناراَ ولا بِناءً. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قُرَيْشٍ. لينظر امرؤٌ من جلسيْه. قال حُذَيْفَةُ: فأخذتُ بيد الرجل الذي إلى جنبي. فقلت: مَنْ أنت؟ فقال: أنا فلانُ بنُ فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قُرَيْشٍ، إنكم والله ما أصبَحْتُمْ بدار مَقام، لقد هَلَكَ الكِرَاعُ والخُفُّ، وأخلفتنا بنو قُرَيْظَةَ. ويَلْعَنُنا عنهم الذي نكرهه، ولقينا من هذه الريح ما تَرَوْنَ. والله ما تَطْمِئِنُّ لنا قِدرٌ، ولا تَقُوم لنا نازٌ، ولا يستمسكُ لنا بِناءٌ، فارتحلوا فإني مُرتحل. ثم قام إلى جملة وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث: فما أطلق عِقَالَه إلا وهو قائم. ولولا عهدُ رسولِ الله - ﷺ - إلي: «لا تُحدِثُ شيئاً حتى تأتيني» لو شِئتُ لقتلته بِسَهْمٍ. قال حُذَيْفَةُ: فرجعتُ إلى رسولِ الله - ﷺ - وهو قائمٌ يصلِّي في ميزط لبعض نساءه مُرَجَّل، فلما رأني أدخلني بين رِجْلَيْه، وطَرَحَ عليَّ طرف المِزط^(١)، ثم رَكَع، وسَجَدَ وإني لفيهِ، فلما سَلَّمَ أخبرته الخَبِرَ. وَسَمِعْتُ عَطْفَانَ بما فعلت قُرَيْشٌ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم^(٢).

[٥٣١٩] وقد رواه مسلمٌ في صحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كُتِبَ عند حُذَيْفَةَ بنِ اليمَان - رضي الله عنه - فقال له رجلٌ: لو أدركتُ رسولَ الله - ﷺ - قاتلت معه وأبليت. فقال له حُذَيْفَةُ: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسولِ الله - ﷺ - ليلةَ الأحزاب في ليلة ذات رِيحٍ شديدةٍ وقُرٌّ، فقال رسولُ الله - ﷺ -: «ألا رجلٌ يأتي بخبر القوم، يكون معي يوم القيامة». فلم يُجِبْه منا أحدٌ، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله. ثم قال: «يا حُذَيْفَةُ، قُم فأتنا بخبر من القوم». فلم أجد بدأً إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «اتتني بخبر القوم، ولا تَدْعُزْهم عليّ». قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمَامٍ حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلِّي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كِبِدِ قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرتُ قولَ رسولِ الله - ﷺ -: «لا تَدْعُزْهم عليّ»، ولو زَمَيْتَه لأصبته. قال: فرجعتُ كأنما أمشي في حَمَامٍ، فأتيت رسولَ الله - ﷺ - ثم أصابني البردُ حين قُرَعْتُ وقُرِزْتُ، فأخبرت رسولَ الله - ﷺ - - والبسنِي من فُضْلِ عِبَاءَةَ كانت عليه يصلِّي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحتُ قال رسولُ الله - ﷺ -: «قم يا نومان»^(٣).

[٥٣٢٠] ورواه يونس بن بكير، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحُذَيْفَةَ - رضي الله عنه -: نشكو إلى الله صُحبتكم لرسولِ الله - ﷺ - إنكم أدركتموه ولم تُدركه، ورأيتُموه ولم تَره. فقال حُذَيْفَةُ: ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تَروه، والله لا تُذري يا ابن أخي لو أدركتَه كيف كنت تكون. لقد رأيتنا مع رسولِ الله - ﷺ - ليلة الخندق في ليلة باردةٍ مَطِيرَةٍ^(٤). . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً. ورَوَى بلال بن يحيى العبسي، عن حُذَيْفَةَ نحو ذلك أيضاً.

[٥٣٢١] وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حُذَيْفَةَ قال: ذَكَرَ حُذَيْفَةَ مشاهدتهم مع رسولِ الله - ﷺ - فقال جلساؤهُ: أما

(١) المرط: كساء من صوف أو خز.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٣٦٢ بهذا الإسناد، وفيه راو لم يسم لكن أصله عند مسلم كما هو الآتي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٨ وابن حبان ٧١٢٥ والبيهقي في «الدلائل» ٤٤٩/٣ - ٤٥٠.

(٤) صحيح. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٥٤/٣ وأبو نعيم في «الدلائل» ٤٣٣، ولم يذكر زيد سماعاً من حذيفة. وأخرجه الحاكم ٣١/٣ والبيهقي ٤٥٠/٣ من طريق بلال بن يحيى العبسي عن حذيفة بنحوه. وإسناده حسن لأجل بلال، وأصله عند مسلم كما هو المتقدم، وصححه الحاكم والذهبي.

والله لو كُنَّا شَهِدْنَا ذَلِكَ لَفَعَلْنَا وَلَفَعَلْنَا. فقال حُذَيْفَةُ: لَا تَمْتُوا ذَلِكَ. لَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَنَحْنُ صَافُونَ قُعُودٌ، أَبُو سَفِيَانٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَحْزَابِ فَوْقَنَا، وَقُرَيْظَةُ الْيَهُودِ أَسْفَلَ مِنَّا نَخَافُهُمْ عَلَى دَرَارِينَا، وَمَا آتَتْ عَلَيْنَا لَيْلَةٌ قَطُّ أَشَدُّ ظُلْمَةً وَلَا أَشَدُّ رِيحًا، فِي أَصْوَابٍ رِيحِهَا أَمْثَالُ الصَّوَاقِقِ، وَهِيَ ظُلْمَةٌ مَا يَرَى أَحَدُنَا إصْبَعَهُ. فَجَعَلَ الْمَنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ - ﷺ - وَيَقُولُونَ: إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ. فَمَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أذِنَ لَهُ، وَيَأْذَنُ لَهُمْ فَيَسْتَلْلُونَ، وَنَحْنُ ثَلَاثِمِئَةٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، إِذَا اسْتَقْبَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى آتَى عَلَيَّ وَمَا عَلَيَّ جُنَّةٌ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا مِنَ الْبَرْدِ إِلَّا مِزْطٌ لَامِرَاتِي، مَا يُجَاوِزُ رَكْبَتِي. قَالَ: فَآتَانِي وَأَنَا جَائِثٌ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: «مِنْ هَذَا؟» فَقُلْتُ: حُذَيْفَةُ. قَالَ: حُذَيْفَةُ! فَتَقَاصَرْتُ بِالْأَرْضِ فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، كِرَاهِيَةٌ أَنْ أَقُومَ، قَالَ: قُمْ، فَقُمْتُ فَقَالَ: «إِنَّهُ كَائِنٌ فِي الْقَوْمِ خَبِيرٌ، فَآتَنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، قَالَ: وَأَنَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فَرَعًا، وَأَشَدَّهُمْ قُرْأً. قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «اللَّهُمَّ، احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمَنْ فَوْقَهُ وَمَنْ تَحْتَهُ». قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ فَرَعًا وَلَا قُرْأً فِي جَوْفِي إِلَّا خَرَجَ مِنْ جَوْفِي، فَمَا أَجِدُ فِيهِ شَيْئًا. قَالَ: فَلَمَّا وَايَيْتُ قَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ، لَا تُحَدِّثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي». قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا دَنُوتُ مِنْ عَسْكَرِ الْقَوْمِ نَظَرْتُ فِي ضَوْءِ نَارٍ تَوَقَّدَ إِذَا رَجُلٌ أَهَمَّ صَخْمٌ يَقُولُ بِيَدِهِ عَلَى النَّارِ، وَيَمْسُحُ خَاصِرَتَهُ، وَيَقُولُ: الرَّحِيلُ الرَّحِيلُ. وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَبَا سَفِيَانٍ قَبْلَ ذَلِكَ، فَانْتَزَعْتُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي أبيضَ الرِّيشِ، فَأَضَعُهُ فِي كَبِدِ قَوْسِي لِأَرْمِيَهُ بِهِ فِي ضَوْءِ النَّارِ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: لَا تُحَدِّثَنَّ فِيهِمْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي». فَامْسَكْتُ وَرَدَدْتُ سَهْمِي إِلَى كِنَانَتِي، ثُمَّ إِنِّي سَجَعْتُ نَفْسِي حَتَّى دَخَلْتُ الْعَسْكَرَ، فإِذَا أَدْنَى النَّاسِ مِنِّي بَنُو عَامِرٍ يَقُولُونَ: يَا آلَ عَامِرِ، الرَّحِيلُ الرَّحِيلُ، لَا مَقَامَ لَكُمْ. وَإِذَا الرِّيحُ فِي عَسْكَرِهِمْ مَا تُجَاوِزُ عَسْكَرَهُمْ شِبْرًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتَ الْحِجَارَةِ فِي رِحَالِهِمْ وَفُرْشِهِمْ الرِّيحُ تُضْرِبُهُمْ بِهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ نَحْوَ النَّبِيِّ - ﷺ - فَلَمَّا انْتَصَفْتُ بِي الطَّرِيقِ أَوْ نَحْوَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَنَا بِنَحْوِ مِنْ عَشْرِينَ فَارِسًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مُعْتَمِنِينَ، فَقَالُوا: أَخْبِرْ صَاحِبِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَفَاهَ الْقَوْمَ. فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُشْتَبِلٌ فِي شِمْلَةِ يَصُلِّي، فَوَاللَّهِ مَا عَدَا أَنْ رَجَعْتُ رَاجِعِنِي الْفَرُّ وَجَعَلْتُ أَقْرَقِفُ فَاوْمًا إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِيَدِهِ وَهُوَ يَصُلِّي، فَدَنُوتُ مِنْهُ، فَاسْبَلُ عَلَيَّ شِمْلَتَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى، فَأَخْبَرْتَهُ خَبِيرَ الْقَوْمِ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي تَرَكْتُهُمْ يَرْتَحِلُونَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (١).

[٥٣٢٢] وأخرج أبو داود في سننه منه، «كان رسول الله - ﷺ - إذا حزبه أمر صلى» (٢) من حديث

عكرمة بن عمار، به.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، أي: الأحزاب، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، تقدّم عن حذيفة أنهم بنو قريظة، ﴿وَإِذْ رَأَعَتْ الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾، أي: من شدّة الخوف والفرع، ﴿وَنظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾. قال ابن جرير: ظنّ بعض من كان مع رسول الله - ﷺ - أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَإِذْ رَأَعَتْ الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾: ظنّ المؤمنون كلّ ظن، ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف -: كان محمد يعدنا أن نأكل كثور كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط. وقال الحسن في قوله - عز وجل -:

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٥٠/٣ - ٤٥٣ وإسناده حسن في الشواهد والمتابعات، محمد بن عبد الله مقبول.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٤٥، وهو حديث حسن.

﴿وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾: ظنونٌ مختلفةٌ، ظنُّ المنافقون أن محمداً وأصحابه سيُستأصلون. وأيقن المؤمنون أن ما وعدنا الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

[٥٣٢٣] وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبي، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا الزبير - يعني ابن عبد الله، مولى عثمان بن عفان - عن زبيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال - ﷺ -: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا. قال: فضرب وجوه أعدائه بالربيع، فهزّمهم بالربيع^(١). وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي عامر العقدي.

﴿هَذَا كَأْتِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله - ﷺ - بين أظهرهم: أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزلاً شديداً. فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، أما المنافق فتجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة، ضعف حاله فتتفلس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، يعني المدينة

[٥٣٢٤] كما جاء في الصحيح: «أريت في المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين فذهب وهلي أنها هَجْرٌ، فإذا هي يثرب»^(٢)، وفي لفظ: «المدينة».

[٥٣٢٥] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا صالح بن عمر، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ سَمِيَ الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ فَلَيْسَتْغْفِرَ اللَّهُ، هِيَ طَابَةٌ، هِيَ طَابَةٌ»^(٣). تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم. وإنما كان أصل تسميتها «يثرب» برجل نزلها من العماليق، يقال له: يثرب بن عبيل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. قاله السهيلي، قال: وزوي عن بعضهم أنه قال: إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطيبنة، والمسكينة، والجابرة، والمحيبة، والمحبوبة، والفاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة. وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة: يا طيبة، ويا طابة، ويا مسكينة، لا تقبلي الكنوز أرفع أجاجيرك على أجاجير القرى.

وقوله: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾، أي: هاهنا، يعنون عند النبي - ﷺ - في مقام المرابطة، ﴿فَارْجِعُوا﴾، أي: إلى

(١) أخرجه أحد ٣/٣ وإسناده لين، رُبيح مقبول، والمرفوع منه له شواهد دون القصة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٢٢ و٤٠٨١ ومسلم ٢٢٧٢ وابن حبان ٦٢٧٦ من حديث أبي موسى.

(٣) أخرجه أبو يعلى ١٦٨٨ وأحمد ٢٨٥/٤، وإسناده ضعيف لأجل يزيد بن أبي زياد. قال الحافظ عنه في التريب: ضعيف، كبير تغفیر وصار يتلقن، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ٥٧٨٤: رجاله ثقات! نعم ورد تسميته لها عليه الصلاة والسلام في أحاديث أخر بـ «طابة»

بِوَيْتِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ. ﴿١٤﴾ وَبَسَّتْنَا فِي سُرُوقِهِمْ مِّنْهُمْ أُنثَىٰ. قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُم بَنُو حَارِثَةَ قَالُوا: بِيُوْتْنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرْقَ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ أَوْسُ بْنُ قِيْظِي. يَعْنِي: اعْتَدَرُوا فِي الرَّجُوعِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِأَنهَا عَوْرَةٌ، أَي: لَيْسَ دُونَهَا مَا يَحْجُبُهَا عَنِ الْعَدُوِّ، فَهَمَّ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، أَي: لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ، ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أَي: هَرَبًا مِنَ الرَّحْفِ.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآدْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكَ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَيَلِيَا وَلَا نَضِيرًا ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ هَوْلِ الَّذِينَ ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بِيُوْتْنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أَنَّهُمْ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنَ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ، وَقَطَّرَ مِنْ أَقْطَارِهَا، ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ، وَهِيَ الدَّخُولُ فِي الْكُفْرِ، لَكَفَرُوا سَرِيعًا. وَهَمَّ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَدْنَى خَوْفٍ وَقَرْعٍ. هَكَذَا فَسَّرَهَا قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ. وَهَذَا ذَمُّ لَهُمْ فِي غَايَةِ الذَّمِّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ: ﴿لَا يُؤْتُوا الْآدْبُرَ﴾، وَلَا يُفِرُّونَ مِنَ الرَّحْفِ، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾، أَي: وَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْأَلُهُمْ عَنِ ذَلِكَ الْعَهْدِ، لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَالَهُمْ، وَلَا يَطْوِلُ أَعْمَارَهُمْ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غِرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذًا لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أَي: بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ. ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكَ مِنَ اللَّهِ﴾، أَي: يَمْنَعُكُمْ، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَيَلِيَا وَلَا نَضِيرًا﴾، أَي: لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لغيرهم مِنْ دُونِ اللَّهِ مُجِيرٌ وَلَا مُعِينٌ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألْسِنَةٍ حَدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُعَوِّقِينَ لغيرهم عَنِ شُهُودِ الْحَرْبِ، ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ﴾، أَي: أَصْحَابِهِمْ وَعُسْرَانِهِمْ وَخُلَطَّائِهِمْ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أَي: إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَالشُّمَارِ، وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ، أَي: بِخَلَاءِ بِالْمَوْدَةِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ﴾، أَي: فِي الْغَنَامِ. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾، أَي: مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ. وَهَكَذَا خَوْفُ هَوْلِ الْجَبَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أَي: فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيجًا فَصِيحًا عَالِيًا، وَأَدْعُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ فِي الشُّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ، وَهَمَّ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿سَلَقُوكُمْ﴾، أَي: اسْتَقْبَلُوكُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَاشْحَ قَوْمٌ وَأَسْوَأُ مَقَاسِمَةً: أَعْطُونَا، أَعْطُونَا، قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ. وَأَمَا عِنْدَ الْبَاسِ فَاجْبُنْ قَوْمٌ: وَأَخَذْهُ لِلْحَقِّ. وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ، أَي: لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ، قَدْ جَمَعُوا الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ وَقَلَّةَ الْخَيْرِ، فَهَمَّ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفِي السَّلْمِ أَغْيَارًا جَفَاءً وَغِلْظَةً

وفي الحزب أمثال النساء العوارك

أي: في حال المسالمة كأنهم الحُمُر. والأعيار: جمع غير، وهو الجمار. وفي الحرب كأنهم النساء الخيض. ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَوْتِنُوا فَلَاحِظْ اللَّهُ عَمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلاً هيئناً عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٠﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بل هم قريب منهم، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَلِئِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبِيَائِهِمْ﴾، أي: ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً، لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم. والله سبحانه وتعالى العالم بهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَمَا رَمَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿٢٢﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي - ﷺ - يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومُرابطته ومُجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - عز وجل -، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - ولهذا قال تعالى: للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: هلاً اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرًا﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بوعود الله لهم، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمَا رَمَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، قال ابن عباس وقتاده: يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة». ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿١١٠﴾ أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، والله الحمد والمنة. ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾، أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله ﷺ.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا

رَحِيمًا﴾ ﴿٢٤﴾

لما ذكر - عز وجل - عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و«صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَةً»، قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده. وهو يرجع إلى الأول. «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدَيْلاً»، أي: وما غَيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه.

[٥٣٢٦] قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيْب، عن الزهري قال: أخبرني خارجة بن زيد ابن ثابت، عن أبيه قال: لما نَسَخْنَا الصُّحُفَ فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ «سُورَةِ الْأَحْزَابِ» كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقْرُؤُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُرَيْمَةَ بِنْتِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ - الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ -: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»^(١). انفرد به البخاري دون مسلم. وأخرجه أحمد في مسنده. والترمذي والنسائي - في التفسير من سننهما - من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

[٥٣٢٧] وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري: حدثني أبي، عن ثُمَامَةَ، عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»^(٢). انفرد به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرقٍ أُخْر.

[٥٣٢٨] قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ سُمِّيَتْ بِهِ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَ بَدْرٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ: أَوْلَ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - - غُيِّبَتْ عَنْهُ لِئِنْ أَرَانِي اللَّهَ مَشْهُدًا فِيمَا بَعْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - لَيَرَيْنَ اللَّهَ مَا أَصْنَعُ. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ وهاهنا لريح الجنة أجده دون أحد! قال: فقاتلهم حتى قُتِلَ قال: فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٌ وَرَمِيَّةٌ، فَقَالَتْ أخته - عَمَّتِي الرَّبِيعَةُ ابْنَةُ النَّضْرِ -: فما عرفتُ أخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ. قال: فنزلت هذه الآية: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَةً وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدَيْلاً»^(٣). قال: فكأثوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه^(٤). ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به. ورواه النسائي وابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، به نحوه.

[٥٣٢٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حميد، عن أنس أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر فقال: غُيِّبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ قَاتِلِهِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - الْمُشْرِكِينَ، لَنْ أَشْهَدَنِي اللَّهَ قِتَالًا لِلْمُشْرِكِينَ لَيَرَيْنَ اللَّهَ مَا أَصْنَعُ. قال: فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فلقبه سعد - يعني ابن معاذ - دون أحد، فقال: أنا معك. قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع. قال: فَوُجِدَ فِيهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ ضَرْبَةً سَيْفٍ، وَطَعْنَةٌ رُمح، وَرَمِيَّةٌ سَهْم. وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه نزلت: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَةً وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ»^(٤). وأخرجه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد، والنسائي فيه

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٠٧ و٤٧٨٤ والترمذي ٣١٠٤ والنسائي في «التفسير» ٤٢١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٣.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٠٣ والترمذي ٣٢٠٠ والنسائي في «التفسير» ٤٢٢ وأحمد ١٩٤/٣ والطبري ٢٨٤٢٧.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٠٥ والترمذي ٣٢٠١ والنسائي في «التفسير» ٤٢٣ والطبري ٢٨٤٢٨.

أيضاً عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارونَ به. وقال الترمذي: حسن. وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس به. ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابنُ جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس، به.

[٥٣٣٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمد بن الفضل العسقلاني، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، حدثني أبي، عن جدي، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة قال: لما أن رجع النبي - ﷺ - من أحد صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعزى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ . . . الآية كلها. فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فأقبلتُ وعليّ ثوبان أخضران خضرميان فقال: «أيها السائل، هذا منهم»^(١). وكذا رواه ابنُ جرير من حديث سليمان بن أيوب الطلحي، به. وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً وابنُ جرير، من حديث يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابني طلحة، عن أبيهما، به. وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس.

[٥٣٣١] وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عامر - يعني العَقَدِي - حدثنا إسحاق - يعني ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال: دخلتُ على معاوية - رضي الله عنه - فلما خرجتُ دعاني فقال: ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثاً سمعته من رسولِ الله - ﷺ -؟ أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «طلحة ممن قضى نجه»^(٢).

[٥٣٣٢] ورواه ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحي، عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سفيان فقال: إني سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «طلحة ممن قضى نجه»^(٣). ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾، قال: عهدَه، ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾، قال: يوماً فيه قتال فيصدق في اللقاء. وقال الحسن: ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾، يعني موته على الصدق والوفاء، ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يُبدل تبديلاً. وكذا قال قتادة، وابنُ زيد. وقال بعضهم: ﴿نَجْبَهُ﴾: نذره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالخذل، بل استمروا على ما

(١) أخرجه الطبري ٢٨٤٣٢ من طريق سليمان بن أيوب به، وإسناده ساقط، سليمان ضعيف، وفيه مجاهيل. وورد من طرق عن طلحة بن يحيى عن موسى وعيسى ابني طلحة عن طلحة، أخرجه الترمذي ٣٢٠٣ و٣٧٤٢ وأبو يعلى ٦٦٣ والطبري ٢٨٤٣٠ و٢٨٤٣٢ وهذا إسناده حسن، طلحة بن يحيى روى له مسلم ووثقه غير واحد، ولينه آخرون، وتفرد البخاري بقوله: منكر الحديث. وله طرق واهية، وهذا أحسنها إسناداً، وله شواهد. لذا ذكره الألباني في «الصحيحة» ١٢٥، وهو من جهة الإسناد يبلغ درجة الصحيح بطرقه وشواهد، لكن المتن يُستغرب، إذ ظاهر الآية المراد أن من قضى نجه هو من مات قبل نزول الآية. وأما من مات بعدها فهو ممن ينتظر، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٤٠ وابن ماجه ١٢٦ وابن سعد ١٥٥/٣/١ والطبري ٢٨٤٣١، وإسناده ضعيف لضعف إسحاق بن يحيى.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٤٣١، وإسناده وفيه إسحاق واه، والحماني ضعيف، فهذه روايات واهية، وانظر «الصحيحة» ١٢٥ و١٢٦، فهذه شواهد أخرى لكن في المتن غرابة، والله أعلم.

عاهدوا الله عليه، وما نَقَضُوهُ كَفَعَلَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ يَتُونَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (٣٣) ... ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَذَى﴾. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل لِيُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَيُظْهِرَ أَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ، وَأَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ، حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلَمُهُ فِيهِمْ، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّى تَمْلَأَ الْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُؤُوا تَبْلَاءَ كَرًّا﴾ (٣٦) (١)، فهذا عِلْمٌ بِالشَّيْءِ بَعْدَ كَوْنِهِ، وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ السَّابِقُ حَاصِلًا بِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ. وكذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْطِيَكَ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، أي: بِصَبْرِهِمْ عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَقِيَامِهِمْ بِهِ، وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهِ. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾، وهم النَافِضُونَ لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مَشِيئَتِهِ فِي الدُّنْيَا، إِنْ شَاءَ اسْتَمْرَأَ بِهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ حَتَّى يَلْقَوْهُ فَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرشَدَهُمْ إِلَى النُّزُوعِ عَنِ النِّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَتُهُ وَرَأْفَتُهُ بِخَلْقِهِ هِيَ الْغَالِبَةُ لِعُقُوبِهِ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ (٢٥)
يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الرِّيحِ وَالْجُنُودِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ عَلَى عَادٍ، وَلَكِنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءَ فَرَقَ شَمْلَهُمْ، كَمَا كَانَ سَبَبَ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قِبَالِ شَتَّى، أَحْزَابٌ وَأَرَاءَ، فَنَاسَبَ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بَغِيظِهِمْ وَحَتَقَهُمْ، لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا، مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظُّفْرِ وَالْمَغْتَمِّ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ مِمَّا تَحْمَلُوهُ مِنَ الْآثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِالْعَدَاوَةِ، وَهَمَّهُمْ بِقَتْلِهِ، وَاسْتِصْصَالَ جَيْشِهِ. وَمَنْ هُمْ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفَعْلِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، أي: لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ، بَلْ كَفَى اللَّهُ وَحْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ.

[٥٣٣٣] ولهذا كان رسول الله - ﷺ - يقول: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جُنْدَهُ، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده (٢). أخرجه من حديث أبي هريرة.

[٥٣٣٤] وفي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله - ﷺ - على الأحزاب فقال: اللهم مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم (٣). وفي قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم.

[٥٣٣٥] قال محمد بن إسحاق: فلما انصرف أهل الخندق قال رسول الله - ﷺ - فيما بلغنا: «لن

(١) عمدة: ٣١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١١٤ ومسلم ٢٧٢٤ والبيهقي في «الدلائل» ٤٥٦/٣ من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤١١٥ ومسلم ١٧٤٢ ح ٢١ والبيهقي ٤٥٦/٣.

تَغزَوْكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغزُونَهُمْ^(١). فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان هو يغزؤهم بعد ذلك، حتى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَةَ. وهذا الحديث الذي ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

[٥٣٣٦] كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سُفْيَانَ، حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «الآن نَغزُوهُمْ وَلَا يَغزُونَا»^(٢). وهكذا رواه البخاري في صحيحه، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾، أي: بحوله وقوته زدّهم خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدّق وعده، ونصّر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (٢٦) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢٧)

[٥٣٣٧] قد تقدّم أن بني قريظة لما قُدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - من العهد، وكان ذلك بسفارة حبيّ بن أسفارة خبيّ بن أخطب النضريّ - لعنه الله - دخل حصنهم، ولم يزل يسئدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك! قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحبابيها، وغطفان وأبعاها، ولا يزالون هاهنا حتى يستاصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل، والله أتيتني بذل الدهر. ويحك يا حبيّ. إنك مشووم، فدعنا منك. فلم يزل يقتله في الدرة والغارب حتى أجابه، واشترط له حبيّ إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم. فلما نقضت قريظة، وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - ساءه، وشقّ عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيده الله ونصره، وكبت الأعداء وردّهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله - ﷺ - إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضّع الناس السلاح. فبينما رسول الله - ﷺ - يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدّى له جبريل مُعْتَجِرًا^(٣) بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة بن ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تَضَعِ أسلحتها، وهذا الآن رُجوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. وفي رواية فقال له: عذيرك من مقاتل. أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكننا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء. قال: «أين؟». قال: بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم. فنهض رسول الله - ﷺ - من قوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». فسار الناس، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله - ﷺ - إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعْتَفَ واحداً من الفريقين. وتبعهم رسول الله - ﷺ - وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نازلهم رسول الله - ﷺ - وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيّد

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤٥٨/٣ عن ابن إسحاق مرسلًا. ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١١٠ وأحمد ٢٦٢/٤ و٣٩٤/٦ والبيهقي في «الدلائل» ٤٥٧/٣.

(٣) الاعتجار: لف العمامة دون التحفي.

الأوس، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية واعتقدوا أنه يُحسن إليهم في ذلك، كما فعلَ عبدُ الله بن أبي بن سلُول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله - ﷺ - فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم، كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً - رضي الله عنه - كان قد أصابه سهمٌ في أكَحْلِهِ أيام الخندق، فكواه رسول الله - ﷺ - في أكَحْلِهِ، وأنزله في قُبَّةِ في المسجد ليعودَه من قريب. وقال سعدٌ فيما دعا به: **اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئاً فَأَبْقِنِي لَهَا. وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَافْجُرْهَا وَلَا تُمَتِّنِي حَتَّى تَقْرَعَ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.** فاستجاب الله دعاءه، وقَدَّرَ عليهم أن نَزَلُوا على حُكْمِهِ باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله - ﷺ - من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمارٍ قد وطَّؤوا له عليه، جعل الأوس يلودون به ويقولون: يا سعدُ، إنهم مواليك، فأحس فيهم. ويرقُّونه عليهم ويُعطفونهم، وهو ساكت لا يَزُدُّ عليهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. فَعَرَفُوا أنه غيرُ مُسْتَبْقِيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله - ﷺ - قال رسولُ الله - ﷺ -: **«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ».** فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذَ لحكمه فيهم. فلما جَلَسَ قال له رسول الله - ﷺ -: **«إِنْ هَؤُلاءِ - وَأَشَارَ إِلَيْهم - قَد نَزَلُوا على حُكْمِكِ، فَاحْكُمْ فِيهم بما شئت».** قال: **«وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: «نعم».** قال: **«وعلى مَنْ في هذه الخيمة؟ قَالَ: «نعم».** قال: **«وعلى مَنْ هَاهُنَا. وَأَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُعْرَضٌ بِوَجْهِهِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِجْلَالاً وَإِكْرَاماً وَإِعْظَاماً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «نعم».** فقال: **«إني أحكم أن تقتل مَقَاتِلَتَهُمْ، وتُسبى ذُرَيْتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.** فقال له رسول الله - ﷺ -: **«لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، وفي رواية: «لقد حكمت فيهم بحكم المَلِكِ».** ثم أمر رسول الله - ﷺ - بالأخاديد فحُذَّت في الأرض، وجيء بهم مَكْتَفِين، فَضْرَبَ أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم^(١). وهذا كُلُّه مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسُطه في كتاب السيرة؛ الذي أفرده موجزاً وبسيطاً، والله الحمدُ والمِنَّةُ. ولهذا قال تعالى: **﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمُ﴾**، أي: عاونوا الأحزابَ وساعدوهم على حَرْبِ رسول الله - ﷺ - **﴿وَمِنَ أَهْلِ آلِ كَتَيْبٍ﴾** يعني بني قُرَيْظَةَ من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزلَ آبَاؤُهُم الحجازَ قديماً، طَمَعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾**، فعَلَيْهِم لعنةُ الله.

وقوله تعالى: **﴿مِنَ صَيَاصِيهِمْ﴾**، يعني: حُصُونَهُمْ. كذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والسدي، وغيرهم من السلف. ومنهُ سُمِّيَت صَيَاصِي البَقَرِ، وهي قُرُونُهَا، لأنه أعلى شيء فيها. **﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾**، وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مألُواً المشركين على حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وليس من يَعْلَمُ كمن لا يَعْلَمُ، فأخافوا المسلمين ورأوا قتلهم ليعجزوهم في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم الفال، انشمرَ المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العزَّ ذلُّوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: **﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْبِرُونَ فَرِيقًا﴾**، فالذين قتلوا المقاتلة، والأسراء هم الأصغرُ والنساء.

[٥٣٣٨] قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمُ بن بَشِيرٍ، حدثنا عبد الملك بن عَمِيرٍ: عن عَطِيَّةِ الرُّطْبِيّ قال: عَرَضَتْ على النبي - ﷺ - يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَشَكَوْا فِي. فأمر بي النبي - ﷺ - أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم

يَجِدُونِي آتِبْتُ، فَخَلَى عَنِي وَأَلْحَقَنِي بِالسَّبِي (١). وكذا رواه أهل السنن كُلُّهُمْ من طُرُقٍ، عن عبد الملك بن عُمَيْرٍ، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح»، ورواه النسائي أيضاً، من حديث ابن جريج، عن ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، أي: جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا﴾، قيل: خيبر. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم، وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الْجَمِيعُ مراداً. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

[٥٣٣٩] قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد: أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرني عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أفقو الناس، فسمعت وئيد (٢) الأرض وزايتي، فإذا أنا بسعد بن معاذٍ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحول ميمنة؛ قالت: فجلست إلى الأرض فمر سعدٌ وعليه دِزَعٌ من حَدِيدٍ قد حَرَجَتْ منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد؛ قالت: وكان سعدٌ من أعظم الناس وأطولهم، فمرَّ وهو يرتجز ويقول:

لَبْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت: فممت فافتحمت حديفة فإذا فيها نفرٌ من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَةٌ له - تعني البغفر - فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري والله إنك لَجَرِيئةٌ، وما يؤمنك أن يكون بلاءٌ أو يكون تحوز (٣). قالت: فما زال يلومني حتى تمثيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذٍ، فدخلت فيها. فرفع الرجلُ التَسْبِغَةَ عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك! إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟! قالت: ويرمي سعداً رجلاً من قريش، يقال له: ابنُ العرقعة بسهم، وقال له: خذها وأنا ابنُ العرقعة فأصاب أكله فقطعه، فدعا الله سعداً فقال: اللهم، لا تُمِثني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فقرأت كُلمته، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلجق أبو سفيانٌ ومن معه بهامة، ولحق عيينة بن بدرٍ ومن معه بنجدٍ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم، ورجع رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، وأمر بقبعة من آدم فضربت على سعدٍ في المسجد، قالت: فجاهه جبريلٌ عليه السلام وإن على ثناباه لتقع الغبار، فقال: أوقد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، أخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله - ﷺ - لأمته، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله - ﷺ - فمر على بني غنم وهم جيران المسجد حوله، فقال: من مرَّ بكم؟ قالوا: مرَّ بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي - تشبه ليحيته وسننه ووجهه جبريل - عليه السلام - فاتاهم رسول الله - ﷺ - فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حُكم رسول الله - ﷺ - . فاستشاروا أبا ثابة ابن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبُح. قالوا: ننزل على حُكم سعد بن معاذ. فقال رسول الله - ﷺ - : «انزلوا على حُكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله - ﷺ - إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار عليه إكاف من ليفٍ قد حُمل عليه، وحفَّ به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت. قالت: ولا

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٠٤ والترمذي ١٥٨٤ والنسائي ١٥٥/٦ وابن ماجه ٢٥٤١ وأحمد ٣١٠/٤ و٣٨٣ وابن حبان ٤٧٨٠ وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قال: إسناده على شرط الشيخين.

(٢) الوئيد: صوت الوطاء على الأرض يسمع من بعيد كالدوي. والمجن: الترس.

(٣) انحاز القوم: تركوا مركزهم إلى آخر، وتحاوز الفريقان: انحاز كل واحد عن الآخر.

يُزَجَعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمُ التَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: قَدْ آنَ لِي الْآبَالِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا. قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَلَمَّا طَلَعَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «قَوْمُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ». فَقَالَ عُمَرُ: سَيِّدُنَا اللَّهُ.. قَالَ: «أَنْزِلُوهُ». فَأَنْزَلُوهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «أَحْكُمْ فِيهِمْ». قَالَ سَعْدٌ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسَبَّى ذُرَارِيَهُمْ، وَتَقْسَمُ أُمُورُهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِ رَسُولِهِ». ثُمَّ دَعَا سَعْدَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ عَلَيَّ نَبِيَّكَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، وَإِنْ كُنْتَ قَطَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ. قَالَ: فَانْفَجَرَ كَلْمُهُ، وَكَانَ قَدْ بَرِيَءَ مِنْهُ إِلَّا مِثْلَ الْخُرْصِ، وَرَجَعَ إِلَى قُبَّتِهِ الَّتِي ضَرَبَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَضَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَقَالَتْ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ بَكَاءَ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَكَاءِ عُمَرَ، وَأَنَا فِي حُجْرَتِي. وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. قَالَ عُلُقَمَةُ: فَقُلْتُ: أَيُّ أُمَّةٍ، فَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يَصْنَعُ؟ قَالَتْ: كَانَتْ عَيْنُهُ لَا تَدْمَعُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ إِذَا وَجَدَ فَإِنَّمَا هُوَ آخِذٌ بِبَلِيحَتِهِ^(١). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ غُرُوةَ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ عَائِشَةَ نَحْوًا مِنْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَخْضَرَ مِنْهُ، وَفِيهِ دُعَاءُ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -.

﴿يَكْفُرُهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِرِزْوَانِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَرُدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمِّيَعُنَّ وَأَسْرَحُنَّ سَرَلًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تَرُدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ فِي الْأَخْرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا

عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِأَنْ يُخَيَّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ، فَيَذِهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَحْضُلُ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ، وَلَهُنَّ عِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، فَاخْتَرْنَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ.

[٥٣٤٠] قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ - أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُخَيَّرَ أَزْوَاجَهُ، فَبَدَأَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبَكْرًا»، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبُوبَكْرًا لَمْ يَكُنْ يَأْمُرُنِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَكْفُرُهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِرِزْوَانِكَ﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ، فَقُلْتُ لَهُ: فَقِي أَيُّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبُوبَكْرًا، فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ؟^(٢).

[٥٣٤١] وَكَذَا رَوَاهُ مُعَلَّقًا عَنِ اللَّيْثِ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنِ عَائِشَةَ. فَذَكَرَهُ وَزَادَ: «قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ - مِثْلَ مَا فَعَلْتُ»^(٣). وَقَدْ حَكَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ مَعْمَرًا اضْطَرَبَ فِيهِ، فَتَارَةً رَوَاهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ أَبِي سَلَمَةَ، وَتَارَةً رَوَاهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ غُرُوةَ، عَنِ عَائِشَةَ.

[٥٣٤٢] وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّمِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنِ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٦/١٤١ - ١٤٢ وابن حبان ٧٠٢٨ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو. وأخرجه البخاري ٤١٢٢

ومسلم ١٧٦٩ من وجه آخر بنحوه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٥.

(٣) ذكره البخاري ٤٧٨٦ معلقاً.

[٥٣٤٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر - رضي الله عنه - يستأذن على رسول الله - ﷺ - والناس ببابه جلوس، والنبى - ﷺ - جالس، فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا، والنبى - ﷺ - جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبى - ﷺ - لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفأ، فوجأت عنقها. فضحك النبى - ﷺ - حتى بدا نواجذه، وقال: «هئن حولي كما ترى يسألنني النفقة». فقام أبو بكر - رضي الله عنه - إلى عائشة ليضربها، وقام عمر - رضي الله عنه - إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبى - ﷺ - ما ليس عنده! فنهاهما رسول الله - ﷺ -. فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله - عز وجل - الخيار، فبدأ بعائشة فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك». قالت: ما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا تَزِيلُكَ﴾... الآية، قالت عائشة: أفيك استأمري أبوي؟ بل اختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثني معتقاً، ولكن بعثني معلماً مسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها^(١). انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه هو والنسائي، من حديث زكريا بن إسحاق المكي، به.

[٥٣٤٨] وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا شريح بن يونس حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد الله بن علي بن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - خيّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق^(٢). وهذا منقطع، وقد زوي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَعَالَمَاتٌ لَّمْ يَكُنَّ لهنَّ سِرَاجٌ﴾، أي: أعطيتكن حقوقكن وأطلق سراحكن. وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نساء، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وكانت تحته ﷺ صفيّة بنت حبيّ النضريّة، وميمونة بنت الحارث الهلاليّة، وزينب بنت جحش الأسديّة، وجويرية بنت الحارث المصطليقيّة، رضي الله عنهن وأرضاهن.

﴿يُنَاسِئُ النَّبِيَّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٢١﴾

كَرِيمًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي - ﷺ - اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله - ﷺ - فناسب أن يخبرن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهو النشوز وسوء الخلق - وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٧٨ وأحمد ٣/٣٢٨ والنسائي في «الكبرى» ٩٢٠٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/٧٨ وإسناده ضعيف، فهو منقطع بين علي بن الحسين - زين العابدين - وعلي رضي الله عنهما. وله علة ثانية: فيه محمد بن عبيد الله المدني. ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٩٠٤ وقال: ضعفه. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال يحيى: ليس بشيء. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً ذاهب اهـ فالإستاد ضعيف لهاتين العلتين. والله أعلم.

أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿الزمر: ٦٥﴾، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَادِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَلَفَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. فلما كانت محلَّتُهُنَّ رفيعةً، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مُغلظاً، صيانةً لجنابهنَّ وجِبابهنَّ الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ يَفْجِسْهُ فُبِحَسًا يَضَعَفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، قال: في الدنيا وفي الآخرة. وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلاً هيناً. ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْتَنُ يَفْتَنُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، أي: تطيع الله ورسوله وتستجيب ﴿تَوَقَّأَ آجْرَهُمَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله - ﷺ -، في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [٣٢] ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٣٣] ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [٣٤]

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي - ﷺ -، ونساء الأمة تبعَ لهنَّ في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي بأنهنَّ إذا اتقين الله كما أمرهنَّ فإنه لا يشبههنَّ أحدٌ من النساء، ولا يلحقهنَّ في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾. قال السدِّي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال. ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، أي: دغل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه تزخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها. وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، أي: الزمْنَ بيوتكنَّ فلا تخرجنَّ لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله - ﷺ -:

[٥٣٤٩] «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجنَّ وهن ثفلات»، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن»^(١).

[٥٣٥٠] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روح بن المسيب ثقة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس - رضي الله عنه - قال: جئن النساء إلى رسول الله - ﷺ - فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عملٌ ندرِكُ به عملَ المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «من قعدت - أو كلمة نحوها - ومنكنَّ في بيتها فإنها تُدرِكُ عملَ المجاهدين في سبيل الله»^(٢). ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابتٍ إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور.

(١) تقدم في تفسير سورة النور عند آية: ٣٧.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه البزار ١٤٧٥ وأبو يعلى ٣٤١٦ وابن الجوزي في «العلل» ١٠٤١ وابن حبان ١٩٩/١ وابن عدي ١٤٤/٣، ومداره على روح بن المسيب، وثقة البزار كما ترى، وقال ابن معين: صويلح. وضعفه ابن عدي بقوله: أحاديثه غير محفوظة، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات، لا تحمل الرواية عنه اهـ اليزان ٢٨١٢، وذكر له الذهبي هذا الحديث على أنه من مناكيره. وقال ابن الجوزي: لا يصح.

[٥٣٥١] وقال البرزاز أيضاً: حدثنا محمد بن المنثري، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مَورِق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي - ﷺ - قال: «إن المرأة عورة، فإذا خَرَجَتْ استشرَفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة رُبها وهي في قعر بيتها»^(١). ورواه الترمذي، عن بندار، عن عمرو بن عاصم، به نحوه.

[٥٣٥٢] ورَوَى البرزاز بإسناده المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبي - ﷺ - قال: «صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حُجرتها»^(٢). وهذا إسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجِ الْجَنَهِلَةَ الْأُولَى﴾، قال مجاهد: كانت المرأة تخرُج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرُّج الجاهلية. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجِ الْجَنَهِلَةَ الْأُولَى﴾، يقول: إذا خَرَجَتْ من بيوتكن - وكانت لهن مِشية وتكسر وتغشج - فنهى الله عن ذلك. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجِ الْجَنَهِلَةَ الْأُولَى﴾، والتبرُّج: أنها تُلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري فلائدها وقِرطها وعُنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرُّج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرُّج.

وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود - يعني ابن أبي الفرات - حدثنا علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجِ الْجَنَهِلَةَ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرُّج النساء للرجال، قال: ويتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن. فتلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجِ الْجَنَهِلَةَ الْأُولَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي - ﷺ - في أهل البيت هاهنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل في قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح. ورَوَى ابن جرير، عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، نزلت في نساء النبي - ﷺ - خاصة. وهكذا روى ابن أبي حاتم، قال: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، قال: نزلت في نساء النبي - ﷺ - خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلتها أنها نزلت في أزواج النبي - ﷺ -. فإن كان المراد أنهم

(١) إسناده على شرط البخاري ومسلم، وله شواهد كثيرة. وأخرج الترمذي ١١٧٣ صدره فقط من حديث ابن مسعود، وقال: حسن غريب. وأصله في «صحيح مسلم» ١٤٠٣ من حديث جابر.

(٢) تقدم في تفسير سورة النور عند آية: ٣٧، وهو جيد كما ذكر المصنف رحمه الله.

كُنْ سَبَبَ التَّزْوِيلِ دُونَ غَيْرِهِمْ فَصَحِيحٌ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّهُنَّ الْمَرَادُ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهِمْ فَفِي هَذَا نَظَرٌ، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ :

[٥٣٥٣] الحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: إن رسول الله ﷺ - كان يمرُّ بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١). ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عفان، به، وقال: حسن غريب.

[٥٣٥٤] حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ -، قال: رأيت رسول الله ﷺ - إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: «الصلاة الصلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»^(٢). أبو داود الأعمى هو: نفع بن الحارث، كذاب.

[٥٣٥٥] حديث آخر، وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن مضعب، حدثنا الأوزاعي، عن شداد أبو عمارة قال: دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا علياً - رضي الله عنه -، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ -؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: توجّه إلى رسول الله ﷺ -. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ - ومعه علي وحسن وحسين، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فادنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه - أو قال: كساءه - ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»^(٣).

[٥٣٥٦] وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه، زاد في آخره: «قال وائلة، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلِكَ؟ قال: «وأنت من أهلي» قال وائلة: إنها من أزجى ما أرتجي»^(٤).

[٥٣٥٧] ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل، عن الفضل بن دكين، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي عمارة قال: إني لجالس عند وائلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ - إذ جاء علي وفاطمة وحسن

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٣٠٦ والحاكم ١٥٨/٣ وأحمد ٢٥٩/٣ - ٢٨٥ والطبري ٢٨٤٨٩ كلهم من حديث أنس. قال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والصواب أن إسناده ضعيف لأجل علي بن زيد، فقد ضعفه الحافظ في التقريب، لكن وقع في المستدرک «عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد، وحيد، عن أنس. والظاهر أن هذه متابعة، وليس كذلك والحمل في هذه المتابعة على الحسين بن الفضل البجلي، فإن لم أجد له ترجمة، أو عن دونه، وقد رواه جمع عن حماد بن سلمة فقالوا: عن علي بن زيد فحسب، والله أعلم. وانظر ضعيف الترمذي ٦٢٧.

(٢) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٨٤٩١ و٢٨٤٩٢ بهذا الإسناد، وفيه أبو داود النخعي وهو متروك متهم بالكذب، كما قال الحافظ ابن كثير.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٠٧/٤ وأبو يعلى ٧٤٨٦ والطبراني ٢٦٧٠ والبيهقي ١٥٢/٢ وصححه الحاكم ١٤٧/٣ ووافقه الذهبي، وإسناده على شرط الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ١٠٧/٤ وابن حبان ٦٩٧٦ والحاكم ١٤٧/٣ والطبري ٢٨٤٩٤ من طرق عن الوليد به وإسناده على شرط الصحيح، وقد صرح الوليد فمن فوقه بالتحديث، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وحسين، فالتقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: «اللَّهُمَّ هؤُلاءِ أَهلُ بيتي، اللَّهُمَّ أَذهبِ عنهم الرِجسَ وَطَهِّرْهم تطهيراً». قلتُ: يا رسولَ الله، وأنا؟ قال: «وأنت»، قال: فَوأله إنْها لأوثقُ عَمَلِي عِنْدِي^(١).

[٥٣٥٨] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سُلَيْمان، عن عطاء بن أبي رباح، حَدَّثني من سَمِعَ أم سَلَمَةَ تَذْكَرُ أنَ النبي - ﷺ - كانَ في بيتها، فأنته فاطمة - رضي الله عنها - بِرَمَةِ فيها حَزِيرَةٌ^(٢)، فدخلت بها عليه فقال لها: ادعي زوجك وابنيك. قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الحزيرة، وهو على مَنَامَةٍ له، وكان تحتَه كساءٌ حَبِيرِي، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: قالت: فأخذ فضل الكساء فغطَّاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللَّهُمَّ هؤُلاءِ أَهلُ بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرِجسَ وَطَهِّرْهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلتُ: وأنا معكم يا رسولَ الله؟ فقال: إنك إلى خيرٍ، إنك إلى خيرٍ^(٣). في إسناده من لم يُسَمَّ، وهو شيخُ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

[٥٣٥٩] طريقٌ أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن أبي المُعَدَّلِ عَطِيَّةَ الطَّفَاوِي، عن أبيه أن أم سَلَمَةَ حَدَّثته قالت: بينما رسول الله - ﷺ - في بيتي يوماً إذ قالت الخادم: إن فاطمة وعليًا بالسُّدَّةِ قالت: فقال لي: قومي فَتَنَحَّيْ لي عن أهل بيتي. قالت: فقمْتُ فَتَنَحَّيت في البيت قَرِيباً، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيَّين فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقبل فاطمة وقبل علياً، وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال: اللَّهُمَّ، إليك لا إلى النارِ أنا وأهل بيتي. قالت: فقلتُ: وأنا يا رسولَ الله؟ صلى الله عليك. قال: وأنت^(٤).

[٥٣٦٠] طريقٌ أخرى، قال ابن جرير: حدثنا أبو كَرِيبٍ حدثنا الحسن بن عَطِيَّةَ، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت في بيتها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلتُ: يا رسولَ الله، ألسْتُ من أهل البيت؟ فقال: «إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي - ﷺ -». قالت: وفي البيت رسول الله - ﷺ - وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، - رضي الله عنهم -^(٥).

[٥٣٦١] طريقٌ أخرى، رواه ابن جرير أيضاً، عن أبي كَرِيبٍ، عن وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن أم سلمة بنحوه^(٦).

(١) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٣ والطبراني في «الكبير» ٢٦٦٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٨/٩: رواه الطبراني بإسنادين ورجال السياق رجال الصحيح، غير كلثوم بن زياد، وثقه ابن حبان، وفيه ضعف اهـ. ولاصله طرق، وتقدم.

(٢) البرمة: القدر. والحزيرة: شبه عصيدة بلحم أو حساء من الدسم والدقيق.

(٣) أخرجه أحمد ٢٩٢/٦ وفيه راوٍ لم يسم، لكن له طرق وشواهد أخرى.

(٤) أخرجه أحمد ٢٩٦/٦ و٣٠٤ و٣٠٥ والطبراني ٣٩٣/٢٣ وفيه عطية الطفاوي، قال الذهبي في الميزان ٥٦٧٤: وهما الأزدي اهـ. وتفرّد فيه بألفاظ منكّرة.

(٥) أخرجه أحمد ٣٠٤/٦ والترمذي ٣٨٧٠ والطبري ٢٨٤٩٧ وأبو يعلى ٦٨٨٨ وفيه عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف، لكن توبع كما ترى. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو أحسن شيء روي في هذا الباب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٥، وشهر لم يصرح بالتحديث، لكن توبع، وللحديث طرق وشواهد.

[٥٣٦٢] طريقاً أخرى، قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا خالد بن مخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زَمعة قال: أخبرني أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جار إلى الله - عز وجل -، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم فقال: أنت من أهلي^(١).

[٥٣٦٣] طريق أخرى، رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه بنحو ذلك^(٢).

[٥٣٦٤] طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مُصعب بن المقدم، حدثنا سعيد ابن زُرَيْب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله - ﷺ - ببُرْمة لها قد صَنعت فيها عَصِيدَة تحمِلها على طَبَق، فوضَعتها بين يديه فقال: أين ابنُ عمك وإبنك؟ فقالت: في البيت. فقال: «ادعهم»: فجاءت إلى عليّ فقالت: أجب رسول الله أنت وإبنك. قالت أم سلمة: فلما رأهم مقبلين مَدَّ يده إلى كساء كان على المنامة، فمَدَّهُ وَيَسَطَّهُ، وأجلسَهُم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بِشِماله، فَصَمَّهُ فوق رؤوسهم، وأوماً بيده اليمنى إلى رَبِّه - عز وجل - فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(٣).

[٥٣٦٥] طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرونا عليّ بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قالت أم سلمة: جاء رسول الله - ﷺ - إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحد». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجدّه، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه، ثم جاء عليّ فلم أستطع أن أحجبه فاجتمعوا فجللهم رسول الله - ﷺ - بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير»^(٤).

[٥٣٦٦] حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مُصعب بن شيبَة، عن صفية بنت شيبَة قالت: قالت عائشة - رضي الله عنها - : خرج رسول الله - ﷺ - ذات غداة، وعليه مِرْطٌ مَرْحَلٌ^(٥) من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم

(١) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٨ وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤٩٩٩ بإسناد حسن، وله شواهد وطرق.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٤٩٦ وفي إسناده سعيد بن زربي، وهو ضعيف لكن تويح كما ترى.

(٤) ضعيف بهذا اللفظ. أخرجه الطبري ٢٨٥٠٢، فيه عبد الله بن عبد القدوس، وهو ضعيف، متروك الحديث. ولاصله شواهد كما ترى.

(٥) مرط: مرخل: إزار خز فيه علم.

جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١). ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن محمد بن بشر، به.

[٥٣٦٧] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سريج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن عم له قال: دخلت مع أبي علي عائشة، فسألته عن علي - رضي الله عنه -، فقالت - رضي الله عنها -: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله - ﷺ -، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله - ﷺ - دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تتخي، فإنك على خير»^(٢).

[٥٣٦٨] حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زبائن العنزي، حدثنا منذل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن وحسين، وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٣). قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة كما تقدم. وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعيد العجلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، والله أعلم.

[٥٣٦٩] حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بكر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعيد قال: قال سعد: قال رسول الله - ﷺ -: حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «زب. هؤلاء أهلي وأهل بيتي»^(٤).

[٥٣٧٠] حديث آخر، وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، وشجاع بن مخلد جميعاً، عن ابن علية، قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حيان، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله - ﷺ - وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله - ﷺ -. قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله - ﷺ -. فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوني. ثم قال: قام رسول الله - ﷺ - يوماً فينا خطيباً بماء يدعى حُمًا - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين،

(١) هذا السياق، أقرب وأصح من غيره، لكونه عند الإمام مسلم ٢٤٢٤. ومع ذلك فيه مصعب بن شيبة، ضعفه الجمهور: أبو حاتم وأحمد وأبو داود والدارقطني، مع أنه من رجال مسلم!!

(٢) ضعيف جداً، فيه راو لم يسم، ثم إن المتن منكر، فهذا الخبر يعرف من حديث أم سلمة. والله أعلم.

(٣) باطل بهذا اللفظ، أخرجه الطبري ٢٨٤٨٧، وفيه عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف روى عن أبي سعيد مناكير كثيرة. وفيه بكر بن يحيى بن زبائن مجهول، وهو باطل مرفوعاً، فالآية نزلت في أزواج النبي ﷺ خصوصاً، ودخل فاطمة وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم في عموم ذلك. والحمل فيه على عطية العوفي فإنه كان يدلس أبا سعيد الكلبي المتهم، بأبي سعيد الخدري، لذا جاءت في رواياته المناكير الكثيرة. وهو من كلام أبي سعيد أشبه، ومع ذلك، هو غير صحيح، والله أعلم.

(٤) أخرجه الطبري ٢٨٥٠١ وإسناده غير قوي لأجل بشير بن مسمار.

أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، ثَلَاثًا. فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدٌ؟ أَلَيْسَ نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ: نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حَرَمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمُ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ. قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حَرَمِ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ»^(١).

[٥٣٧١] ثم رواه عن محمد بن بَكَّار بن الرِّثَّانِ، عن حَسَّان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حَيَّان، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وإيم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العَصْرَ مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ يُطَلَّقُهَا فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حُرِّمُوا الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ^(٢). هكذا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ وَالْأَوَّلَى أَوْلَى، وَالْأَخْذُ بِهَا حَرَجِي. وَهَذِهِ الثَّانِيَةُ تَحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْأَهْلِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ، إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِمْ آلُ الَّذِينَ حُرِّمُوا الصَّدَقَةَ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْأَهْلِ الْأَزْوَاجَ فَقَطْ، بَلْ هُمْ مَعَ آلِهِ، وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ أَرْجَحُ؛ جَمْعًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّوَايَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَجَمْعًا أَيْضًا بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِنْ صَحَّحَتْ، فَإِنَّ فِي بَعْضِ أَسَانِيدِهَا نَظْرًا^(٣)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ الَّذِي لَا يَشْكُ فِيهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ أَنْ نَسَاءَ النَّبِيِّ - ﷺ - دَاخِلَاتٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ مَعَهُنَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، أَيِ وَاِعْمَلْنَ بِمَا يَنْزِلُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي بُيُوتِكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَادَّكُرْنَا هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي حُصِّصَتْ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، إِنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُمْ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، وَعَاشَتْهُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ، أَوْلَاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَأَحْضَاهُنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الْوَحْيَ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لِأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرَأٍ سِوَاهَا، وَلَمْ يَنْمَ مَعَهَا رَجُلٌ فِي فِرَاشِهَا سِوَاهَا، فَنَاسَبَ أَنْ تُحْصَصَ بِهَذِهِ الْمِزْيَةِ، وَأَنْ تَفْرُدَ بِهَذِهِ الرَّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ أَزْوَاجُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَرَابَتُهُ أَحَقُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ^(٤)».

[٥٣٧٢] وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَقَالَ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا^(٥)». فَهَذَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْآخَرَ. وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَاكَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَوْلَى بِتَسْمِيَتِهِ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي جَمِيلَةَ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - اسْتَخْلَفَ حِينَ قُبِلَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي إِذْ وَثَبَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَطَعَنَهُ بِخَنْجَرٍ، وَزَعَمَ حُصَيْنٌ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ الَّذِي طَعَنَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَحَسَنٌ

(١) أخرجه مسلم ٢٤٠٨ والنسائي في «الكبرى» ٨١٧٥ وأحمد ٣٦٦/٤ والطحاوي في «المشکل» ٣٤٦٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٠٨ والطبراني ٥٠٢٦.

(٣) تقدم الحكم على كثير من تلك الأحاديث بالوهن، وبعضها الآخر، حسن، والله أعلم.

(٤) هو بعض الحديث ٥٣٥٨.

(٥) تقدم في التوبة: ١٠٨.

ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها أشهراً، ثم برأ فقعده على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وضيقاتكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يحنُّ بكاء. وقال السدي، عن أبي الذئلم قال: قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِلٌ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أي: يلطفه بكنْ بَلغَتْهُ هذه المنزلة، وبخبرته بكنْ وَأَنْتَ أَهْلٌ لذلك أعطاكُنْ ذلك وَحَصَّكَ بِذلك. قال ابن جرير: واذكرن نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تنلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِلٌ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أي: ذا لطفٍ بكنْ، إذ جعلكن في البيوت التي تنلى فيها آياته والحكمة - وهي السنه - خبيراً بكنْ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة: ﴿وَأَذَكَّرَنَّا مَا يَتْلُو فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِلٌ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، يعني: لطيفٌ باستخراجها، خبيرٌ بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى الربيع بن أنس، وقاتدة، رجمها الله.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

[٥٣٧٣] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شيبان، قال سمعت أم سلمة زوج النبي - ﷺ - تقول: قلت للنبي - ﷺ -: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ويداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح شعري، فلقيت شعري، ثم خرجت إلى حُجرتي حُجرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾... إلى آخر الآية^(١). وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله.

[٥٣٧٤] طريق أخرى عنها، قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سويد، أخبرنا عبد الله، عن شريك، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أم سلمة أنها قالت للنبي - ﷺ -: يا نبي الله، مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فانزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٢).

[٥٣٧٥] وقد رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة:

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٦/٣٠٥ في «التفسير» ٤٢٥ والطبراني ٢٣/٦٥٠ وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» ٤٢٤، ورجاله ثقات، سويد هو ابن نصر، وثقه غير واحد، لكن فيه إرسال، لأن أبي سلمة رواه بواسطة كما هو الآتي، لكن له طرق.

أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: حَدَّثَهُ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْذَكُرُ الرِّجَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تُذَكَّرُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾... الآية (١).

[٥٣٧٦] طريق أخرى، قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قَالَتْ أُمُّ سَلْمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يُذَكَّرُ الرِّجَالُ وَلَا تُذَكَّرُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾... الآية (٢).

[٥٣٧٧] حديث آخر، قال ابن جرير: حَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَيَّارُ بْنُ مُظَاهِرِ الْعَنَزِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْبَةَ يَحْيَى بْنُ الْمَهَلَّبِ، عَنْ قَابُوسِ بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّسَاءُ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -: مَا لَهُ يُذَكَّرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُذَكَّرُ الْمُؤْمِنَاتِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾... الآية (٣).

[٥٣٧٨] وحديثنا بشر، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: دَخَلَ نِسَاءً عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ - ﷺ -، فَقُلْنَ: قَدْ ذَكَرَكُنَّ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ تُذَكَّرْ بِشَيْءٍ، أَمَا فِينَا مَا يُذَكَّرُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ (٤) الآية. فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

[٥٣٧٩] وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (٥). فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه، كما قررناه في أول شرح البخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَاتِ﴾، القنوت: هو الطاعة في سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِينٌ ءَأَنَاءَ آيَاتِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِينُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو الإيمان، ثم القنوت ناشى عنهما. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة، ولهذا كان بعض الصحابة لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمانة على النفاق، ومن صدق نجا، [كما في الحديث] (٦):

[٥٣٨٠] «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (٧). والأحاديث فيه كثيرة جداً. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾، هذه سجيئة الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٨٥٠٩ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، لكن لحديثه شواهد وطرق وباقي الإسناد رجال مسلم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٥١١، وفيه إرسال بين مجاهد وأم سلمة، لكن يصلح متابعا.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٥١٠ بإسناد ضعيف لضعف قابوس، لكن له طرق كما ترى، فالمتن صحيح.

(٤) أخرجه الطبري ٢٨٥٠٥ مرسلًا، وهو شاهد لما قبله.

(٥) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٩١.

(٦) زيادة يقتضيها السياق.

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٩٤ ومسلم ٢٦٠٧ وابن حبان ٢٧٣ من حديث ابن مسعود.

كائن لا محالة، وتَلْقَى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أوّل وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجّية وثباتها. ﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشَمَتِ﴾، الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته.

[٥٣٨١] كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾، الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاوِج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب، يُعْطُونَ من فضول الأموال طاعةً لله، وإحساناً إلى خلقه.

[٥٣٨٢] وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يُظْلَمُ اللهُ في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه» فذكر منهم: «ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٢).

[٥٣٨٣] وفي الحديث الآخر: «والصدقة تُطْفِئُ الحَظِيئَةَ كما يُطْفِئُ الماء النار»^(٣) والأحاديث في الحثّ عليها كثيرة جداً، له موضعٌ بذاته. ﴿وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ﴾. وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه:

[٥٣٨٤] «الصوم زكاة البدن»^(٤)، أي: يُزَكِّيهِ وَيُطَهِّرُهُ وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً. كما قال

سعيد بن جبيرة: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ﴾.

[٥٣٨٥] ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله - ﷺ -: «يا معشر

الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٥) - ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾، أي: عن المحارم والمآثم لا عن المباح، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥١﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَا تَمْنَنَ فِتْنَتُهُمْ وَعِندَ

مَلَأُومِيكَ ﴿٥٢﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ زَوْجَةً فَذَلِكَ فَالْوَالِدَاتِ هُنَّ حَادِرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

[٥٣٨٦] وقوله: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِرَاتِ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن

عبيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلياً ركعتين، كُتِبَتْ لَهَا الليلة من

الذكارين الله كثيراً والذكارات»^(٥). وقد رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش عن علي بن الأقرم عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هريرة، عن النبي - ﷺ -، بمثله.

[٥٣٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي

سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه قال: قلت: يا رسول الله أي العباد أفضل درجة عند الله تعالى يوم

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: (١).

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧١.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه ابن أبي شيبة ٧/٣. وابن ماجه ١٧٤٥ وابن عدي ٣٣٦/٦ من حديث أبي هريرة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده الطريقتين معاً ضعيف، فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو متفق على تضعيفه. وورد عن أبي هريرة موقوفاً، أخرجه وكيع في «الزهد» ٨٢/٣/٢.

(٤) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٣.

(٥) حديث صحيح، إسناده حسن في الشواهد لأجل محمد بن جابر، وقد تويع. وأخرجه أبو داود ١٣٠٩ والنسائي في «الكبرى» ١٣١٠ وابن ماجه ١٣٣٥ وابن حبان ٢٥٦٩ من طرق عن سعيد وأبي هريرة، صححه الحاكم ٣١٦/١ على شرطهما، ووافقه الذهبي.

القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». قال: قلت: يا رسول الله، ومن الغَازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضَرَبَ سيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه»^(١).

[٥٣٨٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان النبي ﷺ - يسيّر في طريق مكة، فأتى على جُمندان فقال: هذا جُمندان، سيروا فقد سبق المُفَرَّدون؟ قالوا: وما المُفَرَّدون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً ثم قال: «اللهم اغفر للمحلّقين». قالوا: والمُفَصِّرين؟ قال: «اللهم، اغفر للمحلّقين». قالوا: والمُفَصِّرين قال: «والمُفَصِّرين»^(٢). تفرّد به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره.

[٥٣٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد - مولى عبد الله بن عيَاش بن أبي ربيعة - أنه بلغه عن مُعَاذ بن جَبَل - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما عَمِلَ آدمي عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى له من عذاب الله من ذِكْرِ الله». وقال معاذ: قال رسول الله - ﷺ -: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجَاتكم، وخير لكم من تعاطي الذَّهَبِ والفضَّةِ، ومن أن تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ غَدًا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ذكر الله - عزَّ وجلَّ»^(٣).

[٥٣٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابنُ لهيعة، حدثنا زَبَّان بنُ فائِد، عن سهل بن مُعَاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله - ﷺ -: «أن رجلاً سأله فقال: «أيُّ المجاهدين أعظمُ أجراً يا رسول الله؟ فقال: «أكثرُهم لله ذكراً». ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله - ﷺ -: «أكثرُهم لله ذكراً». فقال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما -: ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله - ﷺ -: «أجل»^(٤). وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٣٦﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٧﴾﴾ الآية، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، خَبَّرَ عن هؤلاء المذكورين كُلِّهِمْ، إن الله - سبحانه - قد أعد لهم، أي: هيأ لهم مَغْفِرَةً منه لذنوبهم، و﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الْجَنَّةُ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

(١) أخرجه أحمد ٤١١/٢ وإسناده حسن، وأصله في الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/٣، وفي إسناده علتان، ابن لهيعة، وإيه، وكذا دراج وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم. ثم إن المتن منكر، فإن المجاهد أفضل من الذاكر، حيث إن المجاهد يستطيع أن يذكر الله وهو في جهاده، بخلاف الذاكر.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣٩/٥، وإسناده ضعيف، زياد بن أبي زياد، لم يدرك معاذًا كما قال الهيثمي - رحمه الله - في «المجمع» ١٦٧٤٤.

(٤) إسناده ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٤٣٨/٣ وابن المبارك ١٤٢٩ والطبراني ١٨٦/٢٠، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٤٨: فيه زَبَّان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وثق. وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات. اهـ وله علة ثالثة: سهل بن معاذ، ذكره الذهبي في «الميزان» ٣٥٩٢ وقال: ضعفه ابن معين، وقال ابن حبان في «الثقات» لست أدري أَوْقَعَ التخليط منه، أو من صاحبه زَبَّان بن فائد، والله أعلم.

[٥٣٩١] قال العوفي، عن ابن عباس، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾... الآية، وذلك أن رسول الله - ﷺ - انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسديّة فخطبها، فقالت: لسئ بنايحتي. فقال رسول الله - ﷺ -: بل فأنكحيه، قالت: يا رسول الله، أوامر في نفسي. فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾... الآية، قالت: قد رضيته لي منكحاً يا رسول الله؟ قال: نعم: قالت: إذا لا أعصي رسول الله - ﷺ -، قد أنكحته نفسي^(١).

[٥٣٩٢] وقال ابن لهيعة، عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله - ﷺ -: زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾... الآية كلها^(٢). وهكذا قال مجاهد، وقاتدة، ومقاتل بن حيان: أنها نزلت في زينب بنت جحش الأسديّة حين خطبها رسول الله - ﷺ - على مولاه زيد بن حارثة، فامتعت ثم أجاثت.

[٥٣٩٣] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط، وكانت أول من هاجر من النساء - يعني بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي - ﷺ -، فقال: قد قبلت. فزوجها زيد بن حارثة - يعني والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله - ﷺ - فزوجنا عبده. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾... إلى آخر الآية. قال: وجاء أمر أجمع من هذا: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قال: فذاك خاص وهذا إجماع^(٣).

[٥٣٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت البناني، عن أنس قال: خطب النبي - ﷺ - على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمر أمها، فقال النبي - ﷺ -: فنعم إذا. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله إذا، ما وجد رسول الله - ﷺ - إلا جلييباً، وقد منعناها من فلان وفلان. قال: والجارية في سترها تسمع، قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي - ﷺ - بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تزودوا على رسول الله - ﷺ - أمره، إن كان قد رضي لكم فأنكحوه. قال: فكانها جلت عن أبيها، وقالوا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال: «فإني قد رضيته». قال: فزوجها. ثم فرغ أهل المدينة، فركب جلييب فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفت بيت بالمدينة^(٤).

[٥٣٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي بزة الأسلمي أن جلييباً كان أمراً يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكن جلييب، فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم: هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا؟ فقال رسول الله - ﷺ - لرجل من الأنصار:

(١) أخرجه الطبري ٢٨٥١٣ بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي لكن لأصله شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٥١٦ بإسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة لكن توبع كما ترى.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٨٥١٧ عن ابن زيد، وهذا معضل وابن زيد واو.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ١٣٦/٣ وابن حبان ٤٠٥٩، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٦٨/٩ وقال: ورجال أحمد، رجال

الصحيح، وهو كما قال، إسناده على شرطهما.

«رَوِّجْنِي ابْنَتَكَ». قال: نعم، وكرامة يا رسول الله، ونعمة عين. فقال: إني لسأت أريدها لنفسني. قال: فليمن يا رسول الله؟ قال: ليُجَلِّبِيْب. فقال: يا رسول الله، أشاوِرُ أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله - ﷺ - يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجلييب. فقالت: أجلييب إني؟ أجلييب إني؟ لا، لَعَمْرُ اللَّهِ لا تزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله - ﷺ - فخيبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليك؟ فأخبرتها أمها. وقالت: أتردون على رسول الله - ﷺ - أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يضيئني. فانطلق أبوها إلى رسول الله - ﷺ - وقال: شأنك بها. فزوجه جلييباً. قال: فخرج رسول الله - ﷺ - في غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نفقد فلاناً ونفقد فلاناً. قال: انظروا هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا. قال: لكني أفقد جلييباً. قال: فاطلبوه في القتلى. فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فاتاه رسول الله - ﷺ - فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه! هذا مني وأنا منه. مرتين أو ثلاثاً، ثم وضعه رسول الله - ﷺ - على ساعديه وحفر له، ما له سرير إلا ساعد النبي - ﷺ -، ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله - رضي الله عنه -. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً: هل تعلم ما دعا لها رسول الله - ﷺ -؟ فقال: «اللهم، صب عليها الخير صباً، ولا تجعل عيشها كذا». كذا قال، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. هكذا أورده الإمام أحمد بطوله^(١)، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله - ﷺ - أمره؟ نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وقال ابن جريج: أخبرني عامر بن مُصعب، عن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنه -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحدٍ مخالفته ولا اختيار لأحدٍ هاهنا ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا زَوَّجَكَ لِأَيُّمُوتَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجْدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥) [النساء: ٦٥].

[٥٣٩٦] وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تباعاً لما جئت به»^(٢)، ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لِيَكُنِيَ لَكَ يَوْمَئِذٍ نَسِيئًا﴾

﴿الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (١٧)

يقول تعالى مخبراً عن نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤/٤٢٢ و٤٢٥ وابن حبان ٤٠٣٥ وإسناده على شرط مسلم، وأخرجه مسلم ٢٤٧٢ وأحمد ٤/٤٢١ والنسائي في «فضائل الصحابة» ١٤٢ من حديث أبي برزة مختصراً.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٢٤، وهو حديث إلى الضعف أقرب.

عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول - ﷺ -: ﴿وَأَنْفَسَتَ عَلَيْهِ﴾، أي: بالعتق من الرّق، وكان سيّداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبي - ﷺ -:، يقال له الحبّ، ويقال لابنه أسامة: الحبّ ابنُ الحبّ.

[٥٣٩٧] قالت عائشة - رضي الله عنها -: ما بعثه رسول الله - ﷺ - في سرّية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه^(١)، رواه الإمام أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهيّ عنها.

[٥٣٩٨] وقال البرّاز: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عوانة (ح) - وحدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة - أخبرني عمّار بن أبي سلّمة، عن أبيه: حدثني أسامة بن زيد قال: كنت في المسجد، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما -، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله - ﷺ -. قال: فأتيت رسول الله فأخبرته، فقلت: علي والعباس يستأذنان؟ فقال: «أندري ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: لكنني أدري، قال: فأذن لهما. قال: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أي أهلِكَ أحبُّ إليك؟ فقال: «أحبُّ أهلي إليّ فاطمة بنتُ محمدٍ». قال: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فأسامة بن زيد الذي أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه»^(٢).

وكان رسول الله - ﷺ - قد زوّجه بابنة عمّته زينب بنت جحش الأسديّة - وأمها أميمة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرةً دينارين، وستين درهماً، وخمّاراً، وملحفةً، ودرعاً، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرة أمّدادٍ من تمر، قاله مقاتل بن حيان. فمكثت عنده قريباً من سنةٍ أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله - ﷺ - فجعل رسول الله - ﷺ - يقول له: «أمسيك عليك زوجك وأتق الله». قال الله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديهِ وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشيه﴾. ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم هاهنا آثراً عن بعض السلف - رضي الله عنهم -، أحببنا أن نُضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نُوردها. وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً، من رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً.

[٥٣٩٩] وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا معلى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك: إن هذه الآية: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة رضي الله عنهما^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عبيّته، عن علي بن زيد بن جُدعان قال: سألتني علي بن الحسين: ما يقول الحسنُ في قوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديهِ وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشيه﴾، فذكرت له فقال: لا، ولكن الله أعلم نبيّه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوّجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله، وأمسيك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أنني مُزوَّجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديهِ. وهكذا روى عن السديّ أنه قال نحو ذلك.

(١) أخرجه أحمد ٦/٢٢٧ و٢٥٤ و٢٨١ وفيه إرسال بين البهيّ وعائشة، فالإسناد ضعيف، ولم يثبت أنه أمره مطلقاً.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٨١٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح. بل ضعيف لضعف عمر بن أبي سلمة. وأخرج الحاكم ٣/٥٩٦ عجزه فقط وسكت عنه وقال الذهبي: عمر بن أبي سلمة ضعيف. وكون النبي ﷺ يحبه، أخرجه البخاري ٣٧٣٠ ومسلم ٢٤٢٦.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٧ و٧٤٢٠ والترمذي ٣٢١٢ والنسائي في «التفسير» ٤٢٧ وابن حبان ٧٠٤٥ وأحمد ٣/١٤٩

[٥٤٠٠] وقال ابن جرير: حدثني إسحاق بن شاهين، حدثني خالد، عن داود، عن عامر، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: لو كنتم محمد - ﷺ - شيئاً مما أوحى الله إليه من كتاب الله لكنتم: ﴿وَتَخَفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخَفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، الوطر: هو الحاجة والأرب، أي لما فرغ منها وفازها زوّجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله - عز وجل -، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر.

[٥٤٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - يعني ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله - ﷺ - لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرها عليّ، فانطلق حتى أتاها وهي تُخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله - ﷺ - ذكرها، فولّيتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله - ﷺ - يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي - عز وجل - . فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله - ﷺ - فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله - ﷺ - أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله - ﷺ - واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن. ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخير - قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾... الآية^(٢). ورواه مسلم والنسائي من طرق، عن سليمان بن المغيرة به.

[٥٤٠٢] وقد روى البخاري - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي - ﷺ - فتقول: زوّجكن أهاليكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات^(٣). وقد قدّمنا في «سورة النور» عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب - رضي الله عنها -: أنا التي نزل تزويجي من السماء. وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري من السماء. فاعترفت لها زينب - رضي الله عنها - .

[٥٤٠٣] وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي - ﷺ -: إني لأدُل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تُدِلُّ بهن: إن جدّي وجدك واحد، وإني أتكخنيك الله من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، أي: إنما أبحننا لك تزويجها وفعلنا ذلك، لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج المطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله - ﷺ - كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: «زيد بن محمد»، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى:

(١) أخرجه الطبري ٢٨٥٢٢ وإسناده منقطع بين الشعبي، وبين عائشة.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٨ ح ٨٩ والنسائي ٧٩/٦ وأحمد ١٩٥/٣ - ١٩٦ وأبو يعلى ٣٣٣٢. وأخرجه البخاري ٤٧٩١ ومسلم ١٤٢٨ وأحمد ٢٦٢/٣ وابن حبان ٥٥٧٨ من طرق من حديث أنس.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤٢٠ من حديث أنس.

(٤) مرسل. أخرجه الطبري ٢٨٥٢٦ عن الشعبي مرسلًا. فهو ضعيف، والصحيح ما رواه البخاري قبله.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٣٨﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله - ﷺ - بزَيْنَب بنتِ جَحْشٍ لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، لِيُحْتَرَزَ مِنَ الابْنِ الدَّعِيِّ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْعُولًا﴾، أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحُتِّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي - ﷺ -.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا

مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾، أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن حارثة. وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾، أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَكُمْ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا

أَحَدٍ مِمَّنْ رَجَّلِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يمدح تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾، أي: إلى خلفه ويؤدونها بأمانتها، ﴿وَيَحْشُونَكُمْ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحدٍ عن إيلاج رسالات الله، ﴿وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، أي: وكفى بالله ناصرًا ومعيناً. وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام - محمد رسول الله - ﷺ -، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله يُبعث إلى قومه خاصة، وأما هو - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَكْفِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضي الله عنهم -، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسيره وعلايته، فَرَضِي اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. ثم ورثه كل خلفٍ عن سلفهم إلى زماننا هذا، فَيُثَوَّرُهُمْ يَقْتَدِي المَهْتَدُونَ، وعلى منهجهم يسلك الموقفون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

[٥٤٠٤] قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يخقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق من أن يخشى». (١). ورواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن الثوري، عن زبير، عن عمرو بن مرة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كريب، عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، به.

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٠٠٨ وأحمد ٣/٣٠ ٤٧ و ٧٣ و ٩١ وإسناده صحيح رجاله ثقات. قاله البوصيري في

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، نَهَى أَنْ يُقَالَ بِعَدِ هَذَا «زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ»، أَي: لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَيَّنَ، فَإِنَّهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرَ حَتَّى بَلَغَ الْمُحْلَمُ؛ فَإِنَّهُ وَلَدُ لَهُ الْقَاسِمُ، وَالطَّيِّبُ، وَالطَّاهِرُ، مِنْ خَدِيجَةَ فَمَاتُوا صَغَارًا وَوُلِدَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةَ الْقَبْطِيَّةِ، فَمَاتَ أَيْضًا رَضِيعًا. وَكَانَ لَهُ مِنْ خَدِيجَةَ أَرْبَعُ بَنَاتٍ: زَيْنَبُ، وَرُقَيْةُ، وَأُمُّ كَلثُومَ، وَفَاطِمَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - فَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ثَلَاثٌ وَتَأَخَّرَتِ فَاطِمَةُ حَتَّى أُصِيبَتْ بِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّتَيْنِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ عَلَى أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بَعْدَهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْآخِرَى، لِأَنَّ مَقَامَ الرَّسَالَةِ أَخْصَصَ مِنْ مَقَامِ النَّبِوَّةِ، فَإِنْ كُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَا يَنْعَكْسُ. وَبِذَلِكَ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ:

[٥٤٠٥] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْهَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ الطَّفِيلِ بْنِ أَبِي بِنْتِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبَنِيَانِ وَيَعْبَجُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبْنَةِ! فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبْنَةِ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ بُنْدَارٍ، عَنْ أَبِي عَامِرٍ الْعَقْدِيِّ، بِهِ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٥٤٠٦] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْوَاحِدُ بْنُ زِيَادٍ، حَدَّثَنَا الْمُخْتَارُ بْنُ فُلْقُلٍ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الرَّسَالَةَ وَالنَّبِوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ. قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ قَالَ: قَالَ: وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النَّبِوَّةِ»^(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ الزُّعْفَرَانِيِّ، عَنْ عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ بِهِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الْمُخْتَارِ بْنِ فُلْقُلٍ.

[٥٤٠٧] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا سَلِيمُ بْنُ حَيَّانَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَيْمَانَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا فَتَنَظَّرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبْنَةِ! فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ، حَتَّى يَمُوتَ بِي الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(٣). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ طَرِيقٍ، عَنْ سَلِيمِ بْنِ حَيَّانَ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

[٥٤٠٨] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَثَلِي وَمَثَلُ النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا إِلَّا لَبْنَةً وَاحِدَةً، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتَمَّمْتُ تِلْكَ اللَّبْنَةَ»^(٤). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ الْأَعْمَشِ، بِهِ.

[٥٤٠٩] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ

(١) صحيح . أخرجه الترمذي ٣٦١٣ وأحمد ١٣٧/٥ وقال الترمذي: هذا حديث حسن . وإسناده قوي وله طرق وشواهد .

(٢) صحيح . أخرجه الترمذي ٢٢٧٢ وأحمد ٢٦٧/٣ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه اهـ . وإسناده على شرط مسلم .

(٣) صحيح . أخرجه البخاري ٣٥٣٤ ومسلم ٢٢٨٧ والطيالسي ١٧٨٥ .

(٤) صحيح . أخرجه مسلم بإثر ٢٢٨٦ ح ٢٢ وأحمد ٩/٣ .

عُبَيْدِ الرَّاسِي قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الطَّفِيلِ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَا نُبُوءَ بَعْدِي إِلَّا الْمُبَشِّرَاتِ. قَالَ: قِيلَ: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ - أَوْ قَالَ -: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»^(١).

[٥٤١٠] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَأَجْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْتَةَ مِنْ زَاوِيَةِ مَنْ زَوَّايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ وَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هَاهُنَا لَبْتَةَ قَيْتَمَ بِنْيَانِكَ؟! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: فَكُنْتُ أَنَا اللَّبْتَةُ»^(٢). . . أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ.

[٥٤١١] حَدِيثٌ آخَرَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضاً، قَالَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ وَقُتَيْبَةُ وَعَلِي بْنُ خُجْرٍ قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنِ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ: أُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهَوْرًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٥٤١٢] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَاتَمَّتْهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْتَةَ وَاحِدَةً، فَجِئْتُ أَنَا فَاتَمَمْتُ تِلْكَ اللَّبْتَةَ»^(٤). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَبِي كُرَيْبٍ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، بِهِ.

[٥٤١٣] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سُوَيْدِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى بْنِ هِلَالِ السَّلْمِيِّ، عَنِ الْعَرِيضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ - ﷺ -: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٌ فِي طَبِئَتِهِ»^(٥).

[٥٤١٤] حَدِيثٌ آخَرَ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ بْنِ مَطْعَمٍ، عَنْ أَبِيهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنْ لِي أَسْمَاءٌ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكَفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»^(٦). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ.

[٥٤١٥] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ عَبْدِ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤٥٤/٥ وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ١٧٣/٧: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ أَهْلٌ. وَفِيهِ عِثْمَانُ الرَّاسِي، وَثِقَةُ ابْنِ حَبَانَ، لَكِنْ لِحَدِيثِهِ شَوَاهِدٌ تَقَدَّمَتْ.

(٢) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٣٥٣٥ وَمُسْلِمٌ ٢٢٨٦ وَأَحْمَدُ ٣١٢/٢ وَابْنُ حَبَانَ ٦٤٠٥.

(٣) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ٥٢٣ وَالتِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ ١٥٥٣ وَابْنُ مَاجَةَ ٥٦٧ مَخْتَصَرًا وَأَحْمَدُ ٤١١/٢ - ٤١٢.

(٤) هُوَ الْمُتَقَدِّمُ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ.

(٥) تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ آيَةِ: ١٢٩، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٦) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٣٥٣٢ وَ٤٨٩٦ وَمُسْلِمٌ ٢٣٥٤ وَالطَّبْرَانِيُّ ٩٢٤ وَأَحْمَدُ ٨٠/٤ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ ١٩٦٥٧ وَالتِّرْمِذِيُّ

٢٨٤٠ وَابْنُ حَبَانَ ٦٣١٣ وَالْحَمِيدِيُّ ٥٥٥.

الرحمن بن جُبَيْر قال: سَمِعْتُ عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله - ﷺ - يوماً كالمودع، فقال: «أنا محمد النبي الأمي - ثلاثاً - ولا نبيّ بعدي، أُوتيتُ فواتحَ الكَلِمِ وجوامعَهُ وخَوَاتمه، وَعَلِمْتُ كم خَزَنَةُ النارِ وخَمَلَةُ العرشِ، وتُجَوِّزُ بي، وعُوفِيَتْ أمتي، فاسمَعُوا وأطِيعُوا ما دُمْتُ فِيكُمْ، فإذا ذُهِبَ بي فَعَلَيْكُمْ بكتابِ الله، أَجَلُوا حَلالَهُ وحَزَمُوا حَرَامَهُ»^(١). تَفَرَّدَ به الإمامُ أحمد.

[٥٤١٦] ورواه أحمدُ أيضاً عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرَةَ، عن عبد الله ابن شريح الخولاني، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن عمرو، فذكر مثله سواء^(٢). والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله بالعباد إرسالُ محمد - صلواتُ الله وسلامُهُ عليه - إليهم، ثم من تشريفه له ختمُ الأنبياء والمرسلين به، وإكمالُ الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنّة المتواترة عنه: أنه لا نبيّ بعده، ليَتعلموا أن كلَّ مَنْ ادَّعى هذا المقامَ بعده فهو كذاب أفك، دَجَال ضالٌّ مُضِلٌّ، ولو تَخَوَّقَ وشَغِبَذَ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والتَّيْرِنَجِيات^(٣)، فكلُّها محالٌ وضلالٌ عند أولي الألباب، كما أجرى الله - سبحانه وتعالى - على يد الأسود العنسي باليمن، ومُسيِّلة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كلُّ ذي لبٍ وفهمٍ وحجىٍ أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كلُّ مُدْعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكلُّ واحدٍ من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطفِ الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأثرون بمعروفٍ ولا ينهون عن منكرٍ إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفُجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنبِئُكُمْ عَنْ مَن تَنَزَّلُ السَّيِّطِينُ﴾^(٤) تَنَزَّلُ عَنْ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢] الآية: وهذا بخلاف الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم في غاية البرِّ والصدقِ والرشد والاستقامة والعَدْلِ فيما يقولونه ويأثرون به وينهون عنه، مع ما يؤيِّدُون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات. فصلواتُ الله وسلامُهُ عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرضُ والسمواتُ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٥) وَسَيَحُوهُ بَكْرًا وَأَصِيلًا﴾^(٦) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٧) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾^(٨)

يقولُ تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف العِزِّ، لما لهم في ذلك من جَزِيل الثواب، وجَمِيل المآب.

[٥٤١٧] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عيَّاش، عن أبي بحرته، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ١٧٢/٢ - ٢١٢ من حديث ابن عمرو، وإسناده ضعيف لأجل ابن لهيعة، والوهن فيه لفظ «وعلمت خزنة النار... وعوفيت أمتي» وأما صدره، فله شواهد، وكذا لعجزه شواهد.

(٢) هو المتقدم.

(٣) التَّيْرِنَج: أخذ كالسحر، وليس به.

فَتَضَرَّبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: ذَكَرُ الله - عَزَّ وَجَلَّ -^(١). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد - مولى ابن عياش - عن أبي بحريّة - واسمه عبد الله بن قيس التَّراغُمِي - عن أبي الدرداء، به. قال الترمذي: «ورواه بعضهم عنه فأرسله». قلت: وقد تقدّم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأحزاب: ٣٥] في مسند أحمد، من حديث زياد بن أبي زياد، مولى عبد الله بن عياش: أنه بلغه عن معاذ ابن جبل، عن رسول الله - ﷺ -، بنحوه، فالله أعلم.

[٥٤١٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فَرْجُ بن قَصَّالَةَ، عن أبي سَعْدِ الجَنْصِي قال: سَمِعْتُ أبا هُرَيْرَةَ يقول: دُعَاءُ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - لَا أَدْعُهُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَكْبَرُ شُكْرِكَ، وَأَتْيَعُ نَصِيحَتِكَ، وَأَكْبُرُ ذِكْرِكَ، وَأَحْفَظُ وَصِيَّتَكَ»^(٢). ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفَرَجِ بن قَصَّالَةَ، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هُرَيْرَةَ، فذكر مثله وقال: غريب. وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فَرْجِ بن قَصَّالَةَ، عن أبي سعيد المدني، عن أبي هريرة فذكره.

[٥٤١٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْرٍ يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «من طال عُمرُه وَحَسَنَ عَمَلُه». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شَرَائِعَ الإسلامِ قد كَثُرَتْ علينا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبُّهُ بِهِ. قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ»^(٣). وَرَوَى التَّرْمِذِيُّ وابن ماجه منه الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح، به، وقال الترمذي: «حَسَنٌ غَرِيبٌ».

[٥٤٢٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث أن دَرَجًا أبا السَّمْحِ حَدَّثَهُ، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ أن رسول الله - ﷺ - قال: أكثرُوا ذَكَرَ اللهُ حتى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ^(٤).

[٥٤٢١] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عُقْبَةُ بنُ مُكْرَمِ العَمِّي، حدثنا سَعِيدُ بنُ سَفِيَانَ الجَحْدَرِيُّ، حدثنا الحسن بن أبي جَعْفَرٍ، عن عُقْبَةَ بن أبي ثَبِيَّتِ الرُّاسِبِيِّ، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس

(١) الراجح وقفه. أخرجه الترمذي ٣٣٧٧ وابن ماجه ٣٧٩٠ وأحمد ٤٤٦/٦ والحاكم ٤٩٦/١ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٧٣: رواه أحمد وإسناده حسن. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: وقد روى بعضهم هذا الحديث عن عبد الله بن سعيد مثل هذا بهذا الإسناد، وروى بعضهم عنه فأرسله اهـ. والراجح وقفه، وعبد الله بن سعيد، وإن وثقه أحمد ويحيى، فقد قال القطان: يعرف وينكر، وضعفه أبو حاتم، وقد أخرجه مالك ٢١١/١ عن زياد عن أبي الدرداء موقوفاً.

(٢) أخرجه أحمد ٣١١/٢ و٤٧٧ وإسناده ضعيف، أبو سعد ويقال: أبو سعيد، مجهول.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ١٩٠/٤ والترمذي ٣٣٧٥ وابن ماجه ٣٧٩٣ وصححه الحاكم ٤٩٥/١ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه اهـ وفي إسناده معاوية بن صالح وهو صدوق له أوهام لكنه توبع عند أحمد ١٨٨/٤.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٦٨/٣ والحاكم ٤٩٩/١ وابن حبان ٨١٧ وأبو يعلى ١٣٧٦ وابن عدي ١١٣/٣ والبيهقي في «الشعب» ٥٢٦، وإسناده ضعيف لأنه من رواية أبي السَّمْحِ، واسمه دَرَجٌ عن أبي الهيثم. ومع ذلك صححه الحاكم وسكت الذهبي! وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٦١: فيه دَرَجٌ، وقد ضعفه جماعة. ووثقه غير واحد، وبقية رجاله ثقات اهـ، وجاء في «الميزان» ٢٦٦٧: قال أحمد عن دَرَجٍ: عنده مناكير، ولينه، وقال يحيى، ثقة، وقال فضلك الرازي: ما هو ثقة ولا كرامة، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف، وقال الدارقطني: متروك، ثم ذكر الذهبي له أحاديث ومنها هذا الحديث، وعده من مناكيره.

قال: قال رسول الله - ﷺ -: اذكروا الله ذكراً يقول المنافقون: تُزَاوُونَ^(١).

[٥٤٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي، سمعت أبا الوائز جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه إلا زأه حسرة يوم القيامة»^(٢). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إن الله تعالى لم يفرض فريضة إلا عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذب أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ يَمَنًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾^(٣)، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته. والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنّف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين التواتي رحمه الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾^(٤)، أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿تَسْبِّحَنَ اللَّهُ حِينَ تَسْتَوُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^(٥) ولله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحِينَ تَطْهَرُونَ^(٦) [الروم: ١٧ - ١٨].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾، هذا تهيب إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُكُوعًا وَعَلَّمْنَاهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٧) فَادْكُرُوا أذْكَرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ^(٨) [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

[٥٤٢٣] وقال النبي - ﷺ -: «يقول الله تعالى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأ خَيْرِ مِنْهُمْ»^(٩). والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاة البخاري عن أبي العالية، ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه. وقال غيره: الصلاة من الله الرحمة. وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(١٠) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(١١) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ^(١٢) [غافر: ٧ - ٩]... الآية. وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطبراني ١٢٧٨٦ وأبو نعيم ٨٠/٣ - ٨١، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٦٧٦٦٢: فيه الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف اهـ وأخرجه ابن المبارك في «الزهة» ١٢٧٨٦ عن أبي الجوزاء مرسلًا وفيه سعيد بن زيد، أخو حماد بن زيد، وهو ضعيف أيضاً ووثقه بعضهم.

تنبيه: هذا المرسل، لا يقوي الوصول المتقدم لأن طريقيهما واحد، نعم يتقوى الوصول بالمرسل إذا اختلف المخرج، كما هو مقرر في كتب المصطلح، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٤/٢ ورجال رجال الصحيح كما في «المجمع» ٨٠/١٠ وهو حديث حسن. وللحديث شواهد انظر حديث أبي هريرة عند آية ٥٦ من هذه السورة والترغيب والترهيب، ٢٢٤٠ - ٢٢٤٣.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٥٢.

والضلال إلى نور الهدى واليقين، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هذاهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّره الطريق الذي ضلّ وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغّام^(١)، وأما رحمته بهم في الآخرة فأمّنتهم من الفرع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبخارة بالفوز بالجنة والشّارة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

[٥٤٢٤] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: مرّ النبي - ﷺ - في نقر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: بني! بني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فحفضهم رسول الله - ﷺ - وقال: ولا الله لا يلقى حبيبه في النار^(٢). إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

[٥٤٢٥] ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أن رسول الله - ﷺ - رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فالصقت إلى صدرها، وأرضعتها فقال: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟ قالوا: لا. قال: فوالله الله أرحمّ بعباده من هذه بولدها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلْمٌ﴾، الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿يَجِيئُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى يوم يلقونه ﴿سَلْمٌ﴾، أي: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير.

قلت: وقد يستدل بقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفِيئَهُمْ فِيهَا سَلْمٌ وَعَاجِزٌ دَعْوَاهُمْ أَنِ لِمَسُدِّ لِي رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِمَن تَجَرَّ كَرِيمًا﴾، يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكين، والمناجيح، والملاذ والمناظر، وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٤٥] وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً [٤٦] ونذيراً للمؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً [٤٧] ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً [٤٨]

[٥٤٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله - ﷺ - في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وجزراً للمؤمنين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق: ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن

(١) الطغّام: أوغاد الناس.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ١٨.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٤٣.

يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً^(١). وقد رواه البخاري في «البيوع» عن محمد بن سنان، عن فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، به. ورواه في «التفسير» عن عبد الله - قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، به. وقال البخاري في البيوع: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام.

وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعيا - أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطلق لسنانك بوحى، وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعيناً كُمها، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته. وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد التكره، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهوا متشتتة، وأستقيده به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، مؤخدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رُسلي. ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومقالبهم ومثاهم، يصلون لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيلي ضفوفاً ورُخوفاً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم ومآثمهم، وأناجيلهم في صدورهم زهبان بالليل ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته: السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون. أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغي عليهم، أو أراد أن يتزع شيناً مما في أيديهم. اجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأه بأولهم، ذلك فضلي أوتيته من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رحمه الله.

[٥٤٢٧] ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ - وقد كان أمر علياً ومُعَاذاً أَنْ يَسِيرَا إِلَى الْيَمَنِ -، فقال: «انطلقا فَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، إِنَّهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾»^(٢).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢١٢٥ و ٤٨٣٨، وأحد ١٧٤/٢ والبغوي في «الأنوار» ٤٥٥.

(٢) ضعيف منكر. أخرجه الطبراني ١١٨٤١، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١١٢٧٧ بعبد الرحمن بن محمد العرزمي، وأنه ضعيف اهـ وفي الجزم بتضعيفه نظر، فقد قال أبو حاتم في الجرح والتعديل ٢٨٢/٥ فيما ذكر ابنه: ليس بقوي. وقال ابن حبان في «الثقات»: يعتبر بحديثه، إن لم يكن من روايته عن أبيه. وللحديث علة ثانية: وهي عبد الرحمن بن صالح =

[٥٤٢٨] وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ بْنِ حُمَيْدِ الْبَغْدَادِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَالِحِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْعَزْزَمِيِّ، بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ. وَقَالَ فِي آخِرِهِ: «فَإِنَّهُ قَدْ أَنْزَلَتْ عَلَيَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ عَلَى أُمَّتِكَ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بِالْجَنَّةِ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ مِنَ النَّارِ، ﴿وَدَاعِيًا﴾ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِإِذْنِهِ، ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ بِالْقُرْآنِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾: أي: الله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَذِهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾، أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك. ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾، أي: وأمرك ظاهراً فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معانداً. وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعٰ اذْنَهُمْ﴾، أي: لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه، ﴿وَدَعٰ اذْنَهُمْ﴾، أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله، فإن فيه كفاية لهم، ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩)

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق، وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدم نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فَعَقِبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى. وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله إلى صحة الطلاق قبل النكاح، فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق. فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كُلُّ امْرَأَةٍ أَتَزَوَّجُهَا فَهِيَ طَالِقٌ». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه. فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

= الأزدي ثقة، لكن قال أبو داود: ألف كتاباً في مثالب الصحابة، رجل سوء. وقال الحاكم: خولف في بعض حديثه اهـ الميزان ٤٨٨٩.

وللحديث علة ثالثة: وهي أنه قد اشتهر في الصحاح إرسال أبي موسى الأشعري ومعاذ، وذكر الحديث دون الآية، فالخير منكر مقلوب، وله علة رابعة: وهي عنينة قتادة.

(١) هو حديث منكر، وإسناده كسابقه. وانظر «المجمع» ٩٢/٧.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس - يعني ابن أبي إسحاق - قال: سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إذا قال: «كُلُّ امرأة أتزوجها فهي طالق»، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ... الآية. وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن مَطَر، عن الحسن بن مسلم بن يثاق، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح. وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فلا طلاق قبل النكاح.

[٥٤٢٩] وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله - ﷺ - «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك»^(١). رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب».

[٥٤٣٠] وهكذا روى ابن ماجه، عن علي، والمسور بن مخرمة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح»^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾، هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طُلقَت قبل الدخول بها لا عِدَّة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يُستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله تعالى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا﴾، المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سُمي لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَمَ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوْبِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْقَفْرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

[٥٤٣١] وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أسيد أن رسول الله - ﷺ - تزوج أَمِيمة بنت شراحيل، فلما أُذخِلت عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يُجهزها ويكسوها ثوبين رازقين^(٣). قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: إن كان سُمي لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سُمي لها صداقاً فامتعتها على قدر عُسرِهِ وِيسْرِهِ، وهو السَّرَاحُ الْجَمِيلُ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّاتِ الَّذِيَاتِ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عَمِكَ وَنِسَاءَ عَمَلِكَ وَنِسَاءَ خَالَكَ وَنِسَاءَ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٢١٩٠ - ٢١٩٢ والترمذي ١١٨١ وابن ماجه ٢٠٤٧ وأحمد ١٨٩/٢ و١٩٠ والحاكم ٣٠٥/٢ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو أحسن شيء في هذا الباب، وهو قول أكثر أهل العلم اهـ. وهو حديث حسن، وله شواهد وتقدمت في البقرة.

(٢) حديث حسن صحيح، أخرجه ابن ماجه ٢٠٤٨ من حديث المسور بن غرمة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن، وأخرجه أيضاً ٢٠٤٩ من حديث علي، وقال البوصيري: إسناده ضعيف، لاتفاقهم على ضعف جوير بن سعيد. وللحديث شواهد أخرى انظر كتاب «العدة» بتحقيقي ص ٤٨٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٥٦.

نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن
مهورهن، وهي الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشاً،
وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمئة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه مهرها عنه النجاشي - رحمه
الله - أربعمئة دينار، وإلا صفية بنت حبي فإنه اصطفاها من سبني خبير، ثم أعتقها وجعل عتقها صدقها.
وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أذى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله
عن جميعهن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ يَمَانًا أَفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾، أي: وأباح لك التسري مما أخذت من
الغنائم، وقد ملك صفية وجويرية وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه
إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراي، - رضي الله عنهما - . وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ
خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون
المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته،
فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة،
وتحريم ما قرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شنيع فظيع. وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ
خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ فَرَحَدَ لَفْظِ الذِّكْرِ لَشَرْفِهِ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِنَقْصِهِنَّ كَقَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَيَجْعَلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]،
وله نظائر كثيرة.

[٥٤٣٢] وقوله تعالى: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. قال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا محمد بن عمار ابن
الحارث الرازي: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أسدي، عن أبي صالح، عن أم هانئ
قالت: خطبني رسول الله - ﷺ - فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَسَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي مَأْتَتْ
أُجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ يَمَانًا أَفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، قالت: فلم أكن
أجل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء^(١). ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن عبيد الله بن
موسى، به. ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح، عنها بنحوه. ورواه
الترمذي في جامعه. وهكذا قال أبو زرين وقتادة: إن المراد: من هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن
قتادة: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، أي: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «واللاتي هاجرن معك».

(١) أخرجه الترمذي ٣٢١٤ وابن سعد ١٢١/٨ والحاكم ٤٢٠/٢ والطبري ٢٨٥٤٦ والبيهقي ٥٤/٧، وإسناده ضعيف مداره
على أبي صالح، واسمه باذام، وضعفه البخاري، والنسائي، ومغيرة، وغيرهم، ومع ذلك صححه الحاكم ووافقه الذهبي
وحسنه الترمذي! وأما الألباني فذكره في ضعيف الترمذي ٦٣٠ وقال: ضعيف جداً، وفي هذا نظر، فقد ورد من وجه آخر
أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ترجمة ٤١٤٥ من طريق الكلبي، وهو متروك، وكرره بنحوه مرسلًا باختصار عن عامر
الشعبي، وهو مرسل حسن، وكرره من مرسل أبي نوفل بن أبي عقرب، وهو مرسل قوي. فالحديث بلفظ المصنف
ضعيف، وأما كونه عليه السلام خطب أم هانئ فاعتذرت فهو حسن. فكيف يقول الألباني: ضعيف جداً؟! والظاهر أنه
لم يطلع على روايات ابن سعد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ﴾، أي: ويحلُّ لك - يا أيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَفْضَحُوا نَجْوَىٰ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسى: ﴿يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنُكُمْ بِاللَّهِ فَقَالِيهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ تُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال هاهنا: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾.

[٥٤٣٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعيد الساعدي: أن رسول الله - ﷺ - جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك. فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة! فقال رسول الله - ﷺ -: هل عندك من شيء تُصدفها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزارِي هذا! فقال رسول الله - ﷺ -: إن أعطيتها إزارَكَ جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً. فقال: لا أجد شيئاً. فقال: التمس ولو خاتماً من حديد. فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي - ﷺ -: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا - ليسور يسميها - فقال له رسول الله - ﷺ -: زوجتكها بما معك من القرآن^(١). أخرجه من حديث مالك.

[٥٤٣٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سمعتُ ثابتاً يقول: كنتُ مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: «جاءت امرأة إلى النبي - ﷺ - فقالت: يا نبي الله، هل لك في حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءَها! فقال: هي خيرٌ منك، رغبت في النبي، فقرضت عليه نفسها»^(٢). انفرد بإخراجه البخاري، من حديث مرحوم بن عبد العزيز، عن ثابت البثاني، عن أنس، به.

[٥٤٣٥] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا سنان بن ربيعة الحضرمي، عن أنس بن مالك: أن امرأة أتت النبي - ﷺ - فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا - فذكرت من حُسنها وجمالها - فأثرتك بها. فقال: «قد قبلتها». فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تُصدع ولم تُشكك شيئاً قط، فقال: «لا حاجة لي في ابنتك»^(٣). لم يُخرجه.

[٥٤٣٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا ابن أبي الوضاح - يعني محمد بن مسلم - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي - ﷺ - خولة بنت حكيم^(٤).

[٥٤٣٧] وقال ابن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص، من بني سليم، كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله - ﷺ -^(٥).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣١٠ و٥١٣٥ ومسلم ١٤٢٥ وأبو داود ٢١١١ والترمذي ١١١٤ والنسائي ١١٣/٦ وابن ماجه ١٨٨٩ وأحمد ٣٣٦/٥ وابن حبان ٤٠٩٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥١٢٠ و٦١٢٣ وأحمد ٣/٢٦٨.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ١٥٥/٣ وأبو يعلى ٤٢٣٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/٢٩٤: ورجاله ثقات اهـ. قلت: بل فيه سنان بن ربيعة، وهو وإن وثقه ابن حبان والعجلي، فقد قال أبو حاتم: شيخ مضطرب، وقال ابن معين والنسائي: ليس بالقوي، والمتن غريب، فهو ضعيف.

(٤) صحيح. وإسناده حسن، رجاله رجال مسلم، لكن محمد بن مسلم صدوق بهم.

(٥) صحيح. هو مرسل صحيح، ومراسيل عروة جياذ، وتقدم موصولاً.

[٥٤٣٨] وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ - وكانت امرأةً صالحَةً^(١). فَيَحْتَمِلُ أن أم سُلَيْم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأةٌ أخرى.

[٥٤٣٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ - ثلاث عشرة امرأة، سَتٌّ من قُرَيْش: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ -، وزينب أم المساكين وامرأة من بني بكر بن كلاب من الفُرطاء، وهي التي اختارت الدنيا. وامرأة من بني الجون، وهي التي استعادت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسيتين صفية بنت حُبي ابن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية^(٢). وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس: ﴿وَأَمْرَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، قال: هي ميمونة بنت الحارث. فيه انقطاع^(٣). هذا مرسل^(٤)، والمشهور أن زينب التي كانت تُدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ - في حياته، فالله أعلم. والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ - كثير، كما قال البخاري:

[٥٤٤٠] حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامة، قال هشام بن عروة، حدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من لرسول ﷺ - وأقول: أتهدب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿زُجِيَ مَن نَشَأَ مِنْهُنَّ وَقُوِيَّ إِلَيْكَ مَن نَشَأَ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هোক^(٥).

[٥٤٤١] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفي، حدثنا يونس بن بكير، عن عبيدة بن الأزر، عن سيماء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ - امرأةٌ وهبت نفسها له^(٦). ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن يونس بن بكير. أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به، لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾، أي: إن اختار ذلك.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما. أي: إنها إذا فوّضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دَخَلَ بها وَجِبَ لها عليه مهرٌ مثلها،

(١) صحيح. أخرجه ابن سعد ١٢٥/٨ وهو مرسل صحيح.

(٢) هذا مرسل، ومع إرساله فيه موسى بن عبيدة الريدي، وهو ضعيف. وأكثر حديثه هذا محفوظ، لكن الصواب أن زينب بنت خزيمة بقيت عنده ﷺ. وهو الذي أثبت ابن سعد. راجع ترجمتها في «الطبقات» ٤١٣٣.

(٣) أي بين قتادة، وابن عباس.

(٤) يعود على ما رواه موسى بن عبيدة، وهو المتقدم قبل أثر ابن عباس.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٨ ومسلم ١٤٦٤ والنسائي ٥٤/٦.

(٦) ضعيف، سماك اختلط بأخرة، وعنيسة لا يحتج به. وتقدم أن ميمونة بنت الحارث، من اللاتي وهبت نفسها، والله أعلم.

[٥٤٤٢] كما حكم به رسول الله - ﷺ - في بَرَوْعِ بِنْتِ وِاشِقٍ لَمَّا قَوَّضَتْ، فحُكِمَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِصَدَاقٍ مِثْلِهَا لَمَّا تَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا^(١)، والموتُ والدخولُ سواءَ في تقريرِ المهرِ وثبوتِ مهرِ المثلِ في المفوضة لغيرِ النبي - ﷺ -، فأما هو عليه السلام فإنه لا يجبُ عليه للمفوضة شيءٌ ولو دَخَلَ بها، لأن له أن يتزوّجَ بغيرِ صداقٍ ولا وِليٍّ ولا شهودٍ، كما في قصةِ زينبِ بنتِ جحشٍ - رضي الله عنها - . ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿حَالِصَةُ لَكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأةٍ تهبُ نفسها لرجلٍ بغيرِ وِليٍّ ولا مهرٍ إلا للنبي - ﷺ - .

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقاتدة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾، أي: من خضرتهم في أربع نسوةٍ حرائرٍ وما شأوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم تُوجب عليك شيئاً منه، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءِ مِثْنٍ وَقَوِيٍّ إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أُنْبَغِيَّتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَكَ بِمَا آيَأْتِيَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١)

[٥٤٤٣] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - : أنها كانت تُعَيِّرُ النساءَ اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله - ﷺ - قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغيرِ صداقٍ؟ فأنزل الله - عز وجل - : ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءِ مِثْنٍ وَقَوِيٍّ إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أُنْبَغِيَّتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إني أرى رَبِّكَ يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاك^(٢). وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أسامة، عن هشام بن عروة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجَى﴾ أي: تُؤَخَّرُ ﴿مِنْ نَشَاءِ مِثْنٍ﴾ أي: من الواهبات، ﴿وَقَوِيٍّ إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ أي: من شئت قبلتها، ومن شئت ردّدتها ومن رددتها أنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدّت فيها فأويئها. ولهذا قال: ﴿وَمِنْ أُنْبَغِيَّتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

قال عامرُ الشعبي في قوله: ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءِ مِثْنٍ وَقَوِيٍّ إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ كُنْ نِسَاءً وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ للنبي - ﷺ -، فدخَلَ ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنكحن بعده، منهن أم شريك. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءِ مِثْنٍ وَقَوِيٍّ إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾، أي: من أزواجك، لا حَرَجَ عليك أن تترك القسمَ لهن، فتتقدّم من شئت، وتؤخّر من شئت، وتترك من شئت. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقاتدة، وأبي رزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. ومع هذا كان - صلوات الله وسلامه عليه - يقسمُ لهن. ولهذا ذهب طائفةٌ من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسمُ واجباً عليه - صلوات الله وسلامه عليه - واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

[٥٤٤٤] وقال البخاري: حدثنا جبان بن موسى: حدثنا عبد الله - هو ابن المبارك - أخبرنا عاصم الأحول، عن معاذة عن عائشة: أن رسول الله - ﷺ - كان يستأذن في يوم المرأةٍ متى بعد أن نزلت هذه الآية:

(١) تقدم هذا الحديث مطولاً في البقرة، وهو حسن.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥١١٣ ومسلم ١٤٦٤ ح ٥٠ وابن ماجه ٢٠٠٠ وأحمد ١٥٨/٦.

﴿تُرْجَىٰ مَن قَسَاءَ يَتَنَّهُنَّ وَتُفَوِّجُ إِلَيْكَ مَن قَسَاءَهُ وَمَن ابْتِغَيْتَ مَعَنَ عَزَّاتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنتِ تقولين؟ فقلت: كنتُ أقول: إن كان ذلك إليّ فإني لا أريدُ يا رسول الله أن أوثرَ عليك أحداً^(١). فهذا الحديث عنها يدلُّ على أن المراد من ذلك عَدَمَ وَجُوبِ الْقَسَمِ، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات. ومن هاهنا اختار ابنُ جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مُخَيَّرَ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمِ. وهذا الذي اختاره حسنٌ جيدٌ قويٌّ، وفيه جمعٌ بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْفَعُ أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضَايَكَ يَمَّا آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾، أي: إذا علمن أن الله قد وَضَعَ عَنكَ الْحَرْجَ فِي الْقَسَمِ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسَمْ، لا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فَرَحْنُ بِذَلِكَ واستبشرون به وحَمَلنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ، واعترفن بِمَيْتِكَ عَلَيْهِنَ فِي قَسَمِكَ لَهُنَّ وَتَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ وَإِنصَافِكَ لَهُنَّ وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه. [٥٤٤٥] كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(٢). ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة، وزاد أبو داود بعد قوله: «فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾، أي: بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ، ﴿حَلِيمًا﴾، أي: يحلم ويغفر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم -: أن هذه الآية نزلت مجازاةً لأزواج النبي - ﷺ - ورضاً عنهن، على حُسنِ صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لِمَا خَيْرَهن رسول الله - ﷺ - كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله - ﷺ - كان جزاؤهن أن الله قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حُسْنُهُنَّ إِلَّا الْإِمَاءَ وَالسَّرَارِي فَلَاحْجَرَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ. ثم إنه تعالى رَفَعَ عَنْهُ الْحَجَرَ فِي ذَلِكَ وَنَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَبَاحَ لَهُ التَّزْوِجَ، وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزْوِجٌ لِتَكُونَ الْمَثَلُ لِلرَّسُولِ، عَلَيْهِنَّ.

[٥٤٤٦] قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما مات رسول الله - ﷺ - حتى أحلَّ الله له النساء^(٣). ورواه أيضاً من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سُنَنِهِمَا.

[٥٤٤٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شَيْبَةَ، حدثني عُمر بن أبي بكر، حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الجَزَامِيُّ، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عبد

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٨٩ ومسلم ١٤٧٦ وأبو داود ٢١٣٦ وأحمد ٧٦/٦ وابن حبان ٤٢٠٦.

(٢) تقدم الكلام عليه في تفسير سورة النساء عند آية: ١٢٩، وهو غير قوي.

(٣) موقوف، أخرجه الترمذي ٣٢١٦ والنسائي ٥٦/٦ وأحمد ٤١/٦ وابن حبان ٦٣٦٦ وإسناده صحيح على شرطهما، لكن هو اجتهاد من عائشة، وقد خلفها غير واحد من الصحابة وأئمة التفسير.

الله بن وهب بن زَمَعَةَ، عن أم سلمة أنها قالت: لم يمّت رسول الله - ﷺ - حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم؛ وذلك قول الله - عز وجل -: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِثْنًا وَقَوِيَٰ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾^(١). فجعلت هذه الآية ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عِدَّةِ الْوَفَاةِ فِي الْبَقْرَةِ، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. قال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ﴾، أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نِسَائِكَ اللاتي آتيت أَجُورَهُنَّ وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبية، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحلّ لك، وهذا مروى عن أبي بن كعب، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك - في رواية - وأبي رزین - في رواية عنه - وأبي صالح، والحسن، وقتادة - في رواية - والسدي، وغيرهم.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود بن أبي هند، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زياد - رجل من الأنصار - قال: قلت لأبي بن كعب: رأيت لو أن أزواج النبي - ﷺ - تُؤفِن، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت: قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ﴾. فقال: إنما أحلّ الله له ضرباً من النساء، فقال: ﴿بِتَأْيِئِهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. ثم قيل له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ﴾. ورواه عبد الله بن أحمد من طُرُق، عن داود، به.

[٥٤٤٨] وروى الترمذي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نُهِيَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحلّ الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَإِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] وقال تعالى: ﴿بِتَأْيِئِهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء^(٢). وقال مجاهد: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ﴾، أي: من بعد ما سُمي لك، من مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة. وقال أبو صالح: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ﴾، أمير الأيتزوج أعرابية ولا غريبة، ويتزوج بعد من نساء تهامة، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمة. وقال عكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ﴾، أي: التي سُمي الله. واختار ابن جرير - رحمه الله - أن الآية عامّة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عِصْمَتِهِ وَكُنَّ تَسَعًا. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم. ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله - ﷺ - طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِن بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عِصْمَتِهِ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدةً منهن من غير استبدال، والله أعلم.

[٥٤٤٩] فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها -، وهي سبب نزول قوله تعالى:

(١) موقوف. إسناده ضعيف، عمر بن أبي بكر مجهول.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٢١٥ وقال: حسن. قال ابن حنبل: لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَهْلِهَا قُتُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(١) [النساء: ١٢٨] الآية.

[٥٤٥٠] وأما قضيّة حفصة فَرَوَى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، من طُرق، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حَيٍّ، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، عن عُمَرُ: «أن رسول الله - ﷺ - طَلَّقَ حفصة ثم رَاجَعَهَا»^(٢). وهذا إسناد قوي.

[٥٤٥١] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بكير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دَخَلَ عُمَرُ على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله - ﷺ - طَلَّقَكَ! إنه قد كان طَلَّقَكَ مرّةً ثم رَاجَعَكَ من أجلي، والله لئن كان طَلَّقَكَ مرّةً أخرى لا أَكَلُمُكَ أبداً^(٣). ورجاله على شرط الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعَجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما مَلَكَت يمينه.

[٥٤٥٢] وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا فقال: حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حَرْب، عن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادئني امرأتك وأبادئك بامرأتي. أي: تَنْزِلُ لي عن امرأتك، وأنزلُ لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعَجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. قال: فدخل عَيِّنَةُ بن جَضِنِ الفَزَارِيُّ على النبي - ﷺ - وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله - ﷺ -: «فأين الاستئذان؟» فقال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَرٍّ منذ أدركت. ثم قال: من هذه الحُمَيْراء إلى جَنَيْبِكَ؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «هذه عائشة أم المؤمنين»، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال: يا عَيِّنَةُ، إن الله قد حَرَّمَ ذلك. فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: «هذا أحمرق مطاع، وإنه على ما ترينَ لَسَيْدُ قَوْمِهِ»^(٤). ثم قال البزار: إسحاق ابن عبد الله لِيُنَ الحديثِ جداً، وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبيّنا العلة فيه.

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَجِئُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِئُ مِنْ أَحَدٍ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ

(١) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٢٨٣ والنسائي ٢١٣/٦ وابن ماجه ٢٠١٦ وابن حبان ٤٢٧٥ وصححه الحاكم ١٩٧/٢ على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ١٧٢ وابن حبان ٤٢٧٦ والطبراني ٣٠٥/٢٣، وفي إسناده يونس بن بكير، وهو صدوق روى له مسلم متابعه، وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/٢٤٤: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. ويتأيد بما قبله.

(٤) باطل. أخرجه البزار ٢٢٥١ والدارقطني ٣/٢١٨، وضعفه البزار كما ذكر المؤلف. ونقل الآبادي في «التعليق المغني» عن ابن حجر في «الفتح» قوله: ضعيف جداً، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/٩٢: إسحق متروك اهـ. والمتن باطل، فإن الحادثة بعد نزول الحجاب، وأمارة الوضع لائحة على هذا الحديث.

لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وأداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال:

[٥٤٥٣] وافقت ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًى، فأنزل الله: ﴿وَأَنْتُمْ ذُوَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي - ﷺ - لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾^(١) [التحریم: ٥]، فنزلت كذلك. وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة^(٢).

[٥٤٥٤] وقد قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حميد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب، يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب^(٣). وكان وقت نزولها في صبيحة غزس رسول الله - ﷺ - بزینب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما. وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم.

[٥٤٥٥] قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي - ﷺ - ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي - ﷺ - إنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فالتقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾... الآية^(٤). وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم، والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به. ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - بنحوه.

[٥٤٥٦] ثم قال: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي - ﷺ - بزینب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فعدوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه. قال: «ارفعوا طعامكم». وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي - ﷺ - فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم - أهل البيت - ورحمة الله وبركاته». قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهللك، بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة،

(١) وتقدم تفريغ الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ١٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٠.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩١ ومسلم ١٤٢٨ والنسائي في «التفسير» ٤٤٠.

وَيَقْلُنْ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ. ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَإِذَا رَهَطٌ فِي الْبَيْتِ ثَلَاثَةٌ يَتَحَدَّثُونَ. وَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَمَخْرَجَ مُنْطَلِقاً نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَدْرِي أَخْبِرْتُهُ أَمْ أُخْبِرَ أَنْ الْقَوْمَ خَرَجُوا فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أَسْكُفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً، وَأُخْرَى خَارِجَةً، أَرَخَى السُّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ^(١). انْفَرَدَ بِهِ الْبَخَارِيُّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السُّنِّيَّةِ، سِوَى النَّسَائِيِّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْوَارِثِ. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ إِسْحَاقَ - هُوَ ابْنُ مَنْصُورٍ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرِ السُّهْمِيِّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، بِنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَالَ: «رَجُلَانِ» انْفَرَدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ.

[٥٤٥٧] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَظْفَرِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ الْجَعْفِدِ أَبِي عَثْمَانَ الْيَشْكُرِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَعْرَسَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِبَعْضِ نِسَائِهِ، فَصَنَعَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْسَاءً ثُمَّ وَضَعَتْهُ فِي تَوْرٍ^(٢)، فَقَالَتْ: أَذْهَبَ بِهَذَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَأَقْرَبْتُهُ مَنِيَّ السَّلَامَ، وَأَخْبِرُهُ أَنْ هَذَا مِثْلُ لَه قَلِيلٌ. قَالَ أَنَسٌ: وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ فِي جَهْدٍ، فَجِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَعَثْتَ بِهَذَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِلَيْكَ، وَهِيَ تُقَرِّئُكَ السَّلَامَ، وَتَقُولُ: «أَخْبِرْهُ أَنْ هَذَا مِثْلُ لَه قَلِيلٌ». فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «ضَعُوهُ» فَوَضَعْتُهُ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «أَذْهَبْ فَادْعُ لِي فَلَانًا وَفَلَانًا». وَسُمِّيَ رَجُلًا كَثِيرًا، وَقَالَ: «وَمَنْ لَقِيْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». فَدَعَوْتُ مَنْ قَالَ لِي، وَمَنْ لَقِيْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجِئْتُ وَالْبَيْتَ وَالصَّفَّةَ وَالْحِجْرَةَ مَلَأَى مِنَ النَّاسِ - فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَثْمَانَ كَمْ كَانُوا؟ قَالَ: كَانُوا زُهَاءً ثَلَاثِمِئَةً - قَالَ أَنَسٌ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «جِيءَ بِهِ». فَجِئْتُ بِهِ إِلَيْهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَدَعَا وَقَالَ: «مَا شَاءَ اللَّهُ!» ثُمَّ قَالَ: «لِيَتَخَلَّقَ عَشْرَةَ عَشْرَةَ، وَلِيُسْمُوا، وَلِيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ». فَجَعَلُوا يُسْمُونَ وَيَأْكُلُونَ، حَتَّى أَكَلُوا كُلَّهُمْ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «ارْفَعَهُ». قَالَ: فَجِئْتُ فَأَخَذْتُ التَّوْرَ فَنَظَرْتُ فِيهِ فَمَا أَدْرِي أَمْ حِينَ وَضَعْتُ أَكْثَرَ أَمْ حِينَ أَخَذْتُ؟ قَالَ: وَتَخَلَّفَ رَجُلًا يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَزَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الَّتِي دَخَلَ بِهَا مَعَهُمْ مُؤَلِيَةٌ وَجَهَّهَا إِلَى الْحَائِطِ، فَطَالُوا الْحَدِيثَ، فَشَقُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً - وَلَوْ عَلِمُوا كَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ عَزِيزًا - فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَخَرَجَ وَسَلَّمَ عَلَى حُجْرِهِ وَعَلَى نِسَائِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ جَاءَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ تَقَلَّبُوا عَلَيْهِ، ابْتَدَرُوا الْبَابَ فَخَرَجُوا، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى أَرَخَى السُّتْرَ، وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَأَنَا فِي الْحُجْرَةِ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي بَيْتِهِ يَسِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِنْ طَمَأْنَغَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمًا﴾. قَالَ أَنَسٌ: فَقَرَأَهُنَّ عَلَيَّ قَبْلَ النَّاسِ، فَأَنَا أَخَذْتُ النَّاسَ بِهِنَّ عَهْدًا^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ جَمِيعًا، عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَعَلَّقَهُ الْبَخَارِيُّ فِي كِتَابِ النِّكَاحِ فَقَالَ: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ الْجَعْدِ أَبِي عَثْمَانَ، عَنْ أَنَسٍ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّزَاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الْجَعْدِ، بِهِ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ شَرِيكَ، عَنْ بَيَّانِ بْنِ بَشِيرٍ؛ عَنْ أَنَسٍ، بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ الْبَخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ طَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ، عَنْ بَيَّانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَحْمَسِيِّ الْكُوفِيِّ، عَنْ أَنَسٍ، بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي نَضْرَةَ الْعَبْدِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٣ والنسائي في «اليوم والليلة» ٢٧٢.

(٢) الحيس: تمر ينزع نواه ويدق مع أقط (لبن مجفف) ويعجنان بالسمن. والتور: إناء يشرب فيه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٨ ح ٩٤ ٩٥ والترمذي ٣٢١٨ وعلقه البخاري ٥١٦٣.

مالك، بنحوه، ولم يخرجه. ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهري، عن أنس، بنحو ذلك.

[٥٤٥٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله - ﷺ - لزيد: «أذهب فاذكرها علي». قال: فانطلق زيد حتى أتاهما، قال: وهي تُخَمَّر عجينها، فلما رأيتها عظمت في صدري... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ نِكَاحَهَا وَطَلَّقَهَا﴾^(١) [الأحزاب: ٣٧]، وزاد في آخره بعد قوله: وَوَعظَ الْقَوْمَ بِمَا وَعِظُوا بِهِ. قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بِيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامِهِ غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَإِنَّا دُعِينَا فَاذْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعِينِينَ لِيُذِيَتْ إِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِينِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِينِي مِنَ الْحَقِّ﴾. وقد أخرجه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به.

[٥٤٥٩] وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخي ابن وهب - حدثني عمي عبد الله ابن وهب، حدثني يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله - ﷺ - كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع - وهو صعيد أبيض - وكان عمر يقول لرسول الله - ﷺ -: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله - ﷺ - ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي - ﷺ - وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. جزواً أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب^(٢). هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب.

[٥٤٦٠] كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فراها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانتكفأت راجعة، ورسول الله - ﷺ - في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق^(٣)، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إنني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إلي، ثم رفع عنه وإن العرق في يده، ما وضعه. فقال: إنه قد أذن لئن أن تخرجن لحاجتك^(٤). لفظ البخاري.

فقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بِيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله - ﷺ - بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة.

[٥٤٦١] ولهذا قال رسول الله - ﷺ -: «إياكم والدخول على النساء»^(٥). ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامِهِ غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحنيين نضجه

(١) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨٦١٩، ورجاله ثقات معروفون، سوى أحمد بن عبد الرحمن فيه كلام، لكن توبع على هذا السياق، فقد أخرجه الطبري ٢٨٦٢٢ من طريق آخر.

(٣) العرق: العظم بلحمه، ويطلق على ما أكل منه اللحم.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٥ ومسلم ٢١٧٠ وأحمد ٥٦/٦ وأبو يعلى ٤٤٣٣.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٢ ومسلم ٢١٧٢ والترمذي ١١٧١ وأحمد ١٤٩/٤ وابن حبان ٥٥٨٨ من حديث عقبة بن عامر.

واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام إذا طُبِخَ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفل، وهو الذي تُسميه العرب الضيقن، وقد صنّف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين. وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾.

[٥٤٦٢] وفي صحيح مسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجِبْ، غُزُماً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ»^(١). وأصله في الصحيحين.

[٥٤٦٣] وفي الصحيح أيضاً، عن رسول الله - ﷺ -: «لو دُعِيتُ إلى ذِرَاعٍ لَأَجِبْتُ، ولو أُهْدِي إلي كُرَاعٍ لَقَبِلْتُ. فإذا فَرَعْتُمْ من الذي دُعِيتُمْ إليه فَخَفُّوا عن أهل المنزل، وانتشِرُوا في الأرض»^(٢). ولهذا قال: ﴿وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِیَدِیْهِ﴾، أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شق ذلك على رسول الله - ﷺ -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ مِنِّي مَنَعَتِي. مِنْكُمْ وَاللَّهِ لَا يَسْتَعِي. مِنَ الْحَقِّ﴾. وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كَانَ يَشُقُّ عليه وَيَتَأَذَى به، لكن كان يكره أن ينههم عن ذلك من شدة حياته عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهِ لَا يَسْتَعِي. مِنَ الْحَقِّ﴾، أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وَرَجَرَكُم عنه. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلمة، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

[٥٤٦٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن مسعر، عن موسى بن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي - ﷺ - خبثاً في قعب^(٣) فمرَّ عمر فدعاه فأكل، فأصابته إصبعة إصبعي، فقال: حسّ - أو: أوه - لو أطاع فيكن ما رأتكُن عین. فنزل الحجاب^(٤). ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاحَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي - ﷺ - بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: ذكروا ذلك. وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٩ ح ١٠٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٦٨ و ٥١٧٨ وأحمد ٤٢٤/٢ وابن حبان ٥٢٩١ من حديث أبي هريرة.

(٣) القعب: القدر الضخم.

(٤) إسناده ضعيف، والمتن منكر، أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤١٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف له علتان: موسى بن أبي كثير، وثقه غير واحد، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يجمع به، وقال ابن حبان: يروي المناكير عن المشاهير، فلما كثر ذلك بطل الاحتجاج به، إلا فيما وافق الثقات. وللحديث علة أخرى، مجاهد عن عائشة منقطع. وقد أخرجه الواحدي ٧٠٩ عن مجاهد مرسلًا، وهو ضعيف بكل حال، ثم إن المتن غريب، بل منكر، وانظر تخريج الكشاف للحافظ ٥٥٥/٣.

رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَيْنَ اللَّهُ لِيَأْكُلَ مِنْ شَجَرٍ عَلَيْهِمْ﴾، أي: واخشيتنه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، قرابين الرقيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: ﴿يُصَلُّونَ﴾: يُبْرَكُونَ. هكذا علّفه البخاري عنهما. وقد رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية كذلك. وروى مثله عن الربيع أيضاً. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم. وقال أبو عيسى الترمذي: «وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار».

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة قال الأعمش: أراه عن عطاء بن أبي رباح: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، قال: صلته تبارك وتعالى: سُبُوحٌ قُدُوسٌ، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي. والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يُثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تُصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر - يعني ابن المغيرة - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يُصلي ربك؟ فناداه ربه: يا موسى، سألوك: هل يُصلي ربك؟ فقل: نعم، أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورُسلي. فأنزل الله - عز وجل - على نبيه - ﷺ -: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦). وقد أخبر أنه سبحانه وتعالى يُصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (٤٣) وقال تعالى: ﴿وَنَسِيرَ الصَّيْرِيكِ إِذَا صَبَّتْهُنَّ مُمْسِكَةً قَالَوا إِنَّا لِلَّهِ وَلِئلاَّ يَأْتِيَهُمْ رُجُومٌ﴾ (٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (٥٧) [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

[٥٤٦٦] وفي الحديث: «إن الله وملائكته يُصَلُّون على ميامين الصُّفوف»^(١).

[٥٤٦٧] وفي الحديث الآخر: «اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»^(٢).

[٥٤٦٨] وقال رسول الله - ﷺ - لامرأة جابر - وقد سألته أن يُصلي عليها وعلى زوجها -: «صلى الله عليك وعلى زوجك»^(٤). وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله - ﷺ - بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان:

(١) أخرجه أبو داود ٦٧٦ وابن ماجه ١٠٠٥ وابن حبان ٢١٦٠ من حديث عائشة وقال الحافظ في «الفتح» ٢/٢١٣: أسامة بن زيد هو الليثي مولا هم أبو زيد استشهد به البخاري ومسلم، وهو مختلف فيه، وأعدل الأقوال فيه أنه حسن الحديث اهـ. بل ضعفه أحمد والقطان، وفي الإسناد معاوية بن هشام، وهو صدوق يخطئ. فالحديث غير قوي. ورواه غيره عن أسامة به بلفظ «... يصلون الصفوف» أخرجه ابن حبان ٢١٦٣ وهو أصح.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٣.

[٥٤٦٩] قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبي، عن مسعر، عن الحكم، عن ابن أبي ليلي، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عَرَفْنَاهُ، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»^(١).

[٥٤٧٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم قال: سمعت ابن أبي ليلي قال: لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرَج علينا رسول الله - ﷺ - فقلنا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا - أو: عرفنا - كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم، صل على مُحَمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهم، بارك على مُحَمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»^(٢). وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرق مُتَعَدِّدة، عن الحكم - وهو ابن عُتَيْبَةَ - زاد البخاري: وعبد الله بن عيسى، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلي، فذكره.

[٥٤٧١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم بن بَشِير، عن يزيد بن أبي زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلي، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا السلام، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميدٌ مجيدٌ». وكان عبد الرحمن بن أبي ليلي يقول: «وَعَلَيْنَا معهم»^(٣). ورواه الترمذي بهذه الزيادة. ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عَرَفْنَاهُ»، هو الذي في التشهد الذي كان يُعَلِّمهم إياه، كما كان يُعَلِّمهم السورة من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

[٥٤٧٢] حديث آخر، قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن الهادي، عن عبد الله بن خَبَّاب، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صَلَّيْتَ على آل إبراهيم. وبارك على مُحَمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ، كما باركت على آل إبراهيم». قال أبو صالح، عن الليث: «على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم»^(٤).

[٥٤٧٣] حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والدرارزدي، عن يزيد - يعني ابن الهادي - قال: «كما صَلَّيْتَ على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»^(٥). وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن الهادي به.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٧٠ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٥٩ وأحد ٢٤٤/٤ وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٣٥٧ ومسلم ٤٠٦ وأبو داود ٩٧٦ و٩٧٧ والنسائي ٤٨/٣ وابن ماجه ٩٠٤ وأحد ٢٤١/٤ وابن حبان ٩١٢.

(٣) فيه يزيد بن أبي زياد، ضعفه الجمهور، لكن توبع عند الترمذي ٤٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٩٨.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري بإثر ٤٧٩٨ و٦٣٥٨ والنسائي ٤٩/٣ وابن ماجه ٩٠٣ من حديث أبي سعيد.

[٥٤٧٤] حديث آخر، قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سليم أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نُصَلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»^(١). وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذي، من حديث مالك، به.

[٥٤٧٥] حديث آخر، قال مسلم: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي قال: قرأت على مالك، عن نعيم ابن عبد الله المَجْمِر، أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري - قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أريي النداء بالصلاة - أخبره عن أبي مسعود الأنصاري - قال: أتانا رسول الله - ﷺ - ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نُصَلِّي عليك يا رسول الله، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: فسكت رسول الله - ﷺ - حتى تَمَثَّينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله - ﷺ -: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميدٌ مجيدٌ، والسلام كما قد علمتم»^(٢). وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير من حديث مالك، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٥٤٧٦] وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن جبان، والحاكم في مستدرکه، من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، عن أبي مسعود البَدْرِي أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نُصَلِّي عليك إذا نحنُ صَلَّينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد...»^(٣) وذكره. ورواه الشافعي - رحمه الله - في مسنده عن أبي هريرة، بمثله. ومن هاهنا ذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أنه يجبُ على المصلي أن يُصَلِّي على رسول الله - ﷺ - في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته. وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشْتَع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرَّد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع على خلافه، وقال ما لم يُحِط به خُبراً، فإنه قد رَوِينا وُجُوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله - ﷺ - في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومُفسَّر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود، وأبو مسعود البَدْرِي، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان. وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب أحمدٌ أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي، به. وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المؤازر المالكي - رحمهم الله - حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه - ﷺ - كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٦٩ ومسلم ٤٠٧ وأبو داود ٩٧٩ والنسائي ٤٩/٣ وابن ماجه ٩٠٥.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٤٠٥ وأبو داود ٩٨٠ والترمذي ٣٢٢٠ والنسائي ٤٥/٣.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٩٨١ وابن خزيمة ٧١١ وابن حبان ١٩٥٩ وأحمد ١١٩/٤ وصححه الحاكم ٢٦٨/١ على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الدارقطني ٣٥٤/١ - ٣٥٥: هذا إسناد حسن متصل. وهو كما قال، وصرح ابن إسحاق بالتحديث.

الآل فيما حكاه البَنْدِينَجِي، وسَلِيم الرَازِي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمامُ الحرَمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيحُ أنه وَجْهٌ، على أن الجمهورَ على خلافه، وَحَكُوا الإجماع على خلافه. وللقولِ بوجوبه ظواهرُ الحديث، والله أعلم. والغرضُ أن الشافعي رَجَمَهُ اللهُ - لقوله بوجوب الصلاة على النبي - ﷺ - في الصلاة - سَلَفٌ وَخَلَفٌ كما تقدم، والله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

[٥٤٧٧] ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي - وصحَّحه - والنسائي وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما، من رواية حيوة بن شريح المِصْرِي، عن أبي هانئٍ حَمِيد بن هانئ، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنَبِي، عن فضالة بن عُبيد - رضي الله عنه - قال: سَمِعَ رسول الله - ﷺ - رَجُلًا يدعُو في صلاته، لم يمجّد الله ولم يُصَلِّ على النبي - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «عَجَلْ هذا». ثم دَعَاهُ فقال له أو لغيره: «إذا صَلَّى أحدكم فَلْيُبَدِّأْ بتحميد الله - عَزَّ وَجَلَّ - والثناء عليه، ثم يُصَلِّ على النبي، ثم لِيَدْعُ بَعْدَ ما شاء»^(١).

[٥٤٧٨] وكذا الحديث الذي رَوَاهُ ابنُ ماجه، من رواية عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعيد الساعدي، عن أبيه، عن جَدِّه، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لا صلاة لمن لا وُضوءَ له، ولا وُضوءَ لمن لم يَذْكَرْ اسمَ الله عليه، ولا صلاة لمن لم يُصَلِّ على النبي، ولا صلاة لمن لا يُحِبُّ الأنصار»^(٢). ولكن عبد المهيم هذا متروك. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أبي بن عباس»، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية «عبد المهيم»، والله أعلم.

[٥٤٧٩] حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن يزيد قال: قلنا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا كيف نُسَلِّمُ عليك، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وبركاتِكَ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»^(٣). أبو داود الأعمى اسمه: نُفَيْعُ بنُ الحارث، متروك.

حديث آخر موقوف، ورواه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندي: أن عَلِيًّا - رضي الله عنه - كان يُعَلِّمُ الناسَ هذا الدعاء: اللهم داجي المذخوات، وبارئ السمموكات، وَجَبَّارُ القُلُوبِ على فُطْرَتِهَا شَقِيهَا وَسَعِيدِهَا، اجعلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، ونَوَامِي بركاتِكَ، ورأفةً تحثيك، وفضائل آلانك، على محمدٍ عبدك ورسولك، الخاتم لما سَبَقَ، والفتاح لما أغلقت، والمُعَلِّينَ الحقَّ بالحق، والدامغَ جَيْشَاتِ الأباطيل، كما حُمِّلَ فاضطَلَعَ بأمرِكَ لطاعتك، مُسْتَوْفِزًا في

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٨١ والترمذي ٣٤٧٧ والنسائي ٤٤/٣ وأحمد ١٨/٦ وابن خزيمة ٧٠٩ و٧١٠ وابن حبان ١٩٦٠ وصححه الحاكم ٢٣٠/١ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٤٠٠ والدارقطني ٣٥٥/١ والحاكم ٢٦٩/١ والبيهقي ٣٧٩/٢. قال الدارقطني: عبد المهيم، ليس بالقوي، وقال الذهبي عنه: وإه. وقال البيهقي: ضعيف لا يحتج بروايته. وقال البوصيري: ضعيف، لاتفاقهم على ضعف عبد المهيم. وقال السندي: ولكن تابعه ابن أخيه في هذا الحديث، وحكم الحافظ في «تلخيص الحبير» ٢٦٢/١ بضعف إسناده، قال أقوى من هذا حديث فضالة بن عبيد اه أي المتقدم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٣/٣٥٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٨٦٩ و١٧٣٠٣: فيه أبو داود الأعمى، وهو ضعيف اه وقال عنه ابن كثير: متروك وهو كما قال.

مرضاتك، غير نكّل في قَدَم، ولا واهن في عَزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهديك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أُرَى قبساً لقابِس، آلاء الله تَصِلُ بأهله أسبابه، به هُديت القلوب بعد حَوَاصِبِ الْفِتَنِ وَالْإِثْمِ، وَأَنْهَجَ مُوَضِّحَاتِ الْأَعْلَامِ، وَمُؤَيِّرَاتِ الْإِسْلَامِ وَنَائِرَاتِ الْأَحْكَامِ، فهو أمينك المأمون، وخازنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وشَهِيدِكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَيَعِيْنُكَ نِعْمَةً، ورسولُك بالحق رَحْمَةً. اللهم افسح له مَفْسِحَاتٍ فِي عَذْبِكَ، واجزه مُضَاغَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. مُهْنَاتٍ لَهُ غَيْرَ مَكْدَرَاتٍ، مِنْ قُوْرٍ ثَوَابِكِ الْمَعْلُولِ وَجَزِيلِ عَطَائِكَ الْمَجْمُولِ. اللهم، أعل على بناء البانين بُنيانه، وأكرم مَثْوَاهُ لَدَيْكَ وَنَزَلَهُ. وَأتمم له نُورَهُ، واجزه من ابتعائك له مقبولَ الشَّهَادَةِ، مرضي المقالة، ذا منطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطَّةٍ فَضْلٍ، وَحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ عَظِيمٍ^(١). هذا مَشْهُورٌ مِنْ كَلَامِ عَلِيِّ - رضي الله عنه - وقد تَكَلَّمَ عَلَيْهِ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي مُشْجَلِ الْحَدِيثِ، وكذا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسِ اللُّغَوِيِّ فِي جُزْءِ جَمْعِهِ فِي فَضْلِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - إِلَّا أَنْ فِي إِسْنَادِهِ نَظْرًا. قَالَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ أَبُو الْحِجَّاجِ الْجَزْيِيُّ: سَلَامَةُ الْكِنْدِيِّ هَذَا لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ، وَلَمْ يُدْرِكْ عَلِيًّا. كَذَا قَالَ، وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ هَذَا الْأَثْرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الصَّائِغِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ سَلَامَةَ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ - رضي الله عنه - يُعَلِّمُنَا الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فيقول: اللهم، داحي المَذْحُوحَاتِ، وَذَكَرَهُ.

حديث آخر موقوف، قال ابن ماجه حدثنا الحسين بن بيان، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: إذا صَلَّيْتُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَحْسِنُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعْلَ ذَلِكَ يُفْرَضُ عَلَيْهِ. قال: فقالوا له: فَعَلَّمْنَا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يُغْبِطُهُ بِهِ الْأَوْلَادُ وَالْآخَرُونَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ، بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وهذا موقوف، وقد رَوَى إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - أو: عُمَرُ - عَلَى الشُّكِّ مِنَ الرَّوَايَةِ قَرِيباً مِنْ هَذَا.

[٥٤٨٠] حَدِيثٌ آخَرُ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْرَائِيلَ، عَنْ يُونُسَ بْنِ خُبَّابٍ قَالَ: خَطَبْنَا بِفَارِسٍ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَكَلَيْكُمُ يُسَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فقال: أنبأني من سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: هَكَذَا أَنْزَلَ. فَقُلْنَا - أو: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِمْنَا السَّلَامَ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ، كَمَا رَحِمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(٢). فَيَسْتَدِلُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى جَوَازِ التَّرْحُمِ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -، كَمَا هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ.

[٥٤٨١] وَيَعْضُدُهُ حَدِيثُ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ: «اللَّهُمَّ، ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرَحِّمْ مَعْنَا أَحَدًا. فَقَالَ

(١) موقوف ضعيف جداً. وله علتان: سلامة الكندي مجهول، وهو لم يدرك علياً، قاله المزي، كما ذكر ابن كثير، وأبو حاتم في «الجرح والتعديل» ٤/٣٠٠، والخبر شبه مصنوع.

(٢) أخرجه الطبري ٢٨١٣٥ فيه راوٍ لم يسم، لكن المتن محفوظ، له طرق وشواهد كثيرة، كما ترى.

رسول الله - ﷺ - : «لقد حَجَّرت واسعاً»^(١). وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

[٥٤٨٢] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عُبيد الله قال: سَمِعْتُ عبد الله بن عامر بن رَبِيعَةَ يُحَدِّثُ عن أبيه قال: سَمِعْتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صلاةً لم تَزَلْ الملائكةُ تُصَلِّيْ عليه ما صَلَّى عليه ما صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيَقِلْ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيَكْتَبِرْ»^(٢). ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة، به.

[٥٤٨٣] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الحزاعي، ويونس هو ابن محمد قالوا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قال: خَرَجَ رسول الله - ﷺ - فاتَّبَعْتُهُ حتى دَخَلَ نَخْلًا، فَسَجَدَ فأطال السجودَ، حتى خفت - أو: خَشِيتُ - أن يكون الله قد تَوَفَّاهُ أو قَبَضَهُ. قال: فَجِئْتُ أَنْظُرَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقال: «مَالِكُ يا عَبْدَ الرحمن؟» قال: فذَكَرْتُ ذلكَ له فقال: «إن جبريلَ - عليه السلام - قال لي: ألا أَبشُرُكَ؟ إن الله - عزَّ وجلَّ - يقول: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عليه، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عليه»^(٣).

[٥٤٨٤] طريق آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خَرَجَ رسول الله - ﷺ - فتَوَجَّهَ نحو صَدَفَتِهِ، فدخل فاستقبل القبلة، فَخَرَّ ساجداً، فأطال السجودَ، حتى ظننْتُ أن الله قد قَبَضَ نَفْسَهُ فيها، فدنوتُ منه ثم جلستُ، فرفع رأسه فقال: «مَنْ هذا؟» قلتُ: عبدُ الرحمن. قال: «ما سألتُ؟» قلت: يا رسول الله، سجدتُ سجدةً خشيتُ أن يكونَ الله - عزَّ وجلَّ - قبضَ نَفْسِكَ فيها. فقال: «إن جبريلَ أتاني فبَشَّرَنِي أن الله - عزَّ وجلَّ - يقول: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عليه، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عليه. فسجدتُ لله - عزَّ وجلَّ - شُكْرًا»^(٤). ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه عن يحيى بن عبد الحميد، عن الدَّرَاوَزِيِّ، عن عمرو، عن عبد الواحد بن محمد، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه من وجِهٍ آخر عن عبد الرحمن بن عوف.

[٥٤٨٥] حديث آخر، قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بحير بن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن الحَكَمِ بن عُثَيْبَةَ، عن إبراهيم النخعي، عن الأسود بن يزيد، عن عَمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: خرج رسول الله - ﷺ - لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، فَفَزِعَ عَمَرَ، فأتاه بِمَطْهَرَةٍ من خَلْفِهِ، فوجد النبي - ﷺ - ساجداً في مَسْرُوبَةٍ^(٥)، فتنحى عنه

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٦٠١٠ وأبو داود ٣٨٠ والترمذي ١٤٧ والنسائي ١٤/٣ وأحمد ٢٣٩/٢ وابن حبان ٩٨٧ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٩٠٧ وأحمد ٤٤٥/٣ وإسماعيل القاضي في «الصلاة على النبي ﷺ» ٦ وقال البوصيري في «الزوائد» إسناده ضعيف لأن عاصم بن عبيد الله قال فيه البخاري وغيره: منكر الحديث اهـ. وللحديث شواهد انظر «جلاء الأفهام» ٥٣ بتخريري وانظر صحيح ابن ماجه ٧٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ١٩١/١ والحاكم ٣٣٣/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجموع» ٢/٢٨٧ وقال: رواه أحمد ٨٤٥/٣ ورجاله ثقات اهـ.

(٤) أخرجه أحمد ١٩١/٥ وإسماعيل القاضي ١٠ وإسناده ضعيف: عمرو غير قوي، وعبد الواحد لم أجد له ترجمة. وفي الرواية الآتية يحيى بن عبد الحميد الحماني، وهو متروك، لكن للحديث طرق وشواهد.

(٥) جماعة النخل.

من خَلْفِهِ حَتَّى رَفَعَ النَّبِيُّ - ﷺ - رَأْسَهُ، فَقَالَ: «أَحْسَنْتَ يَا عُمَرُ حِينَ وَجَدْتَنِي سَاجِدًا فَتَنَحَّيْتُ عَنِّي، إِنْ جَبْرِيلُ أَتَانِي فَقَالَ: مِنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَرَفَعَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ»^(١).
وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين». وقد رواه إسماعيل القاضي، عن القَعْنَبِيِّ، عن سَلْمَةَ بْنِ وَرْدَانَ، عن أَنَسِ، عن عُمَرَ، بنحوه. ورواه أيضاً عن يَعْقُوبَ بْنِ حَمِيدٍ، عن أَنَسِ بْنِ عِيَّاضٍ، عن سَلْمَةَ بْنِ وَرْدَانَ، عن مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ، عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - بنحوه.

[٥٤٨٦] حديث آخر، قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَارٌ، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثني موسى بن يعقوب الزمعي، حدثني عبد الله بن كيسان، أن عبد الله بن شداد أخبره، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله - ﷺ - قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»^(٢). تفرد بروايته الترمذي - رحمه الله - ثم قال: «هذا حديث حسن غريب».

[٥٤٨٧] حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أتاني آت من ربي فقال لي: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرًا». فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائي لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ - كان بمكة، يقال له: منيع - لسفيان: عن أسنده؟ قال: لا أدري^(٣).

[٥٤٨٨] حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان - يعني الثوري - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله - ﷺ - يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». قال أبي: يا رسول الله، إني أصلي من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله - ﷺ -: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله - ﷺ -: «الثلثان». قال: أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن يغفر الله لك ذنبك كله»^(٤).

[٥٤٨٩] وقد رواه الترمذي بنحوه فقال: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما

(١) أخرجه إسماعيل القاضي ٥ والطبراني في «الصغير» ١٠١٦ من طريقين من حديث عمر، وذكره البخاري في «القول البدیع» ص ١٠٣ وقال: إسناده جيد بل صححه بعضهم اهـ.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٤٨٤ والبخاري في «التاريخ الكبير» ١٧٧/٥ وابن حبان ٩١١ وفي إسناده موسى بن يعقوب الزمعي سيء الحفظ، وعبد الله بن كيسان لم يوثقه غير ابن حبان. وله شاهد من حديث أبي أمامة عند البيهقي ٢٤٩/٣ وذكره الحافظ في «الفتح» ١٦٧/١١ وقال: لا بأس بإسناده.

(٣) حسن. أخرجه إسماعيل القاضي ١٣ عن يعقوب مرسلاً، بإسناد صحيح، ويشهد له ما بعده.

(٤) حسن. أخرجه إسماعيل القاضي ١٤ من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف جدا فيه سعيد بن سلام العطار، متروك متهم، وانظر ما بعده، فالإسناد الآتي وما بعده من قسم الحسن.

شئت». قلت: الربيع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلاثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفى همك، ويُغفر لك ذنبك»^(١). ثم قال: «هذا حديث حسن».

[٥٤٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك»^(٢).

[٥٤٩١] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه: أن رسول الله - ﷺ - جاء ذات يوم، والسرور يُرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور في وجهك. فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يُرضيك أن ربك - عز وجل - يقول: إنه لا يُصلي عليك أحد من أمتك إلا صَلَّيْتُ عليه عشرًا، ولا يُسلم عليك أحد من أمتك إلا سَلَّمْتُ عليه عشرًا؟ قلت: بلى»^(٣). ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة، به. وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أريس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عبيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة، بنحوه.

[٥٤٩٢] طريق آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا أبو معشر، عن إسحاق بن كعب ابن عَجْرَةَ، عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله - ﷺ - يوماً طيب النفس، يُرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس، يُرى في وجهك البشر؟ قال: أجل، أتاني آت من ربي - عز وجل - فقال: من صلَّى عليك من أمتك صلاة كَتَبَ اللهُ له بها عشر حسنات، ومحا عنه عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، ورفَعَ له عشر درجات، وَرَدَّ عليه مثلها»^(٤). هذا أيضاً إسناد جيد، ولم يُخرجه.

[٥٤٩٣] حديث آخر، روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من صلَّى عليَّ واحدة صلَّى اللهُ عليه بها عشرًا»^(٥). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعَمَّار، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب».

[٥٤٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ، وَسَلُّوا اللهُ لِي الْوَسِيْلَةَ، فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي أَعْلَى

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٤٥٧ وأحمد ١٣٦/٥ وصححه الحاكم ٥١٣/٢ ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ وإسناده لا بأس به من أجل ابن عقيل، لكن للحديث طرق.

(٢) أخرجه أحمد ١٣٦/٥ وانظر الحديث المتقدم، فهو حسن.

(٣) حسن. أخرجه النسائي ٥٠/٣ وأحمد ٣٠/٤ و١٥٢ وابن حبان ٩١٥ وإسماعيل القاضي (٢) وصححه الحاكم ٤٢٠/٢ ووافقه الذهبي. وأخرجه إسماعيل القاضي (١) من وجه آخر من حديث أنس عن أبي طلحة بنحوه. وانظر ما بعده.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٢٩/٤ وانظر ما قبله.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٤٠٨ وأبو داود ١٥٣٠ والترمذي ٤٨٥ والنسائي ٥٠/٣. وابن حبان ٩٠٦ وإسماعيل القاضي ٩ وأحمد ٣/٣٧٢ من حديث أبي هريرة.

الجنة، لا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»^(١). تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

[٥٤٩٥] وقد رواه البَرَّازُ من طريق مجاهد، عن أبي هُرَيْرَةَ، بنحوه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق البَكَّالِي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا ذؤاد بن علبَةَ^(٢)، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ، وَسَلُّوا اللَّهَ لِي الدَّرَجَةَ الوَسِيلَةَ مِنَ الْجَنَّةِ. فَسَأَلْنَاهُ - أَوْ: أَخْبَرْنَا - فَقَالَ: هِيَ دَرَجَةٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَهِيَ لِرَجُلٍ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ»^(٣) فِي إِسْنَادِهِ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ.

[٥٤٩٦] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن مريح الخولاني، سمعت أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صَلَّى على رسول الله - ﷺ - صلاة، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقلَّ عبدٌ من ذلك أو ليُكَيَّرْ. وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله - ﷺ - يوماً كالمودع فقال: «أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام، وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوَّز بي، عُوقِيتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، أَجْلُوا حَلَاكَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ»^(٤).

[٥٤٩٧] حديث آخر، قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو سلمة الخراساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلْيَصِلْ عَلَيَّ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيَّ عَشْرًا»^(٥). ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي داود الطيالسي، عن أبي سلمة - وهو المغيرة بن مسلم الخراساني - عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي، عن أنس، به.

[٥٤٩٨] حديث آخر عن أنس، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو - يعني يونس ابن أبي إسحاق - عن يزيد بن أبي مريم، عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ»^(٦).

[٥٤٩٩] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد: حدثنا سليمان بن بلال، عن عُمَارَةَ بْنِ عَزْبَةَ، عن عبد الله بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه: أن رسول الله - ﷺ -

(١) أخرجه أحمد ٣٦٢/٢ وأبو يعلى ٦٤١٤ وإسماعيل القاضي ٤٦ وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، ولمعجزة شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم ٣٨٤ وأبي داود ٥٢٣ وابن حبان ١٦٩١ وانظر ما بعده.

(٢) وقع في الأصل «داود بن علبَةَ» والتصويب من «المجمع» ٣٣٢/١.

(٣) أخرجه البزار ٣٦٣ «كشف» وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٣٢/١ وقال: وفيه: ذؤاد بن علبَةَ ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، ووثقه ابن نمير، وقال موسى بن داود الضبي: حدثنا ذؤاد بن علبَةَ، وأثنى عليه خيراً اهـ وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف. ومع ذلك فإن التثنية له شواهد كثيرة.

(٤) في إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف، وتقدم ترجمته عند آية: ٤٠ من هذه السورة.

(٥) جيد. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٩٨٨٩ وأبو يعلى ٤٠٠٢ والطيالسي ٢١٢٢.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٣ والنسائي في «الكبرى» ٩٨٩٠ وأحمد ١٠٢/٣ و٢٦١ وابن حبان ٩٠٤ من حديث أنس، وإسناده جيد، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم ٣٨٤ والترمذي ٣٦١٤ والنسائي ٢٥/٢.

قال: «البخيل من ذُكرت عنده ثم لم يُصَلِّ عليَّ». وقال أبو سعيد: «فلم يُصَلِّ عليَّ»^(١). ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب صحيح». ومن الرواة مَنْ جعله من مُسند «الحسين بن علي»، ومنهم من جعله من مُسند «علي» نفسه.

[٥٥٠٠] حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن معبد بن بلال العنزي، حدثني رجلٌ من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن أبخل الناس من ذُكرت عنده فلم يُصَلِّ عليَّ»^(٢).

[٥٥٠١] حديث آخر مرسل، قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعتُ الحسن يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «بحسب امرئٍ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّي عليَّ». صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

[٥٥٠٢] حديث آخر، قال الترمذي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا رُبَعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يُصَلِّ عليَّ. ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبَّر فلم يُدخلاه الجنة»^(٤). ثم قال: «حسن غريب».

قلت: وقد رَوَاهُ البخاري في الأدب، عن محمد بن عبَّيد الله، حدثنا ابنُ أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً، بنحوه. ورواه^(٥) من حديث محمد ابن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به. قال الترمذي: «وفي الباب عن جابر وأنس». قلت: وابن عباس، وكعب بن عجرة، وقد ذكرتُ طُرُقَ هذا الحديث في أول كتاب الصيام، وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلْفَنُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وهذا الحديث والذي قبله دليلٌ على وجوب الصلاة عليه - ﷺ - كلُّما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء، منهم الطحاوي والحلي.

[٥٥٠٣] ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابنُ ماجه: حدثنا جبارة بن المغلس، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِيءٌ طَرِيقَ الْجَنَّةِ»^(٦). جُبَارَةٌ ضَعِيفٌ.

[٥٥٠٤] ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِيءٌ طَرِيقَ الْجَنَّةِ»^(٧)، وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله. والله أعلم.

(١) جيد. أخرجه الترمذي ٣٥٤٦ والنسائي ٩٨٨٤ (كبرى) وأحمد ٣٠١/١ وإسماعيل القاضي ٣٥ وابن حبان ٩٠٩. صححه الحاكم ٥٤٩/١ ووافقه الذهبي. وذكره ابن حجر في «الفتح» ١٦٨/١١ وقال: لا ينحط عن درجة الحسن.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي ٣٧، وفيه راوٍ لم يُسمِّ، لكن الحديث حسن في الشواهد. وانظر «القول البدیع» للسخاوي ص ١٤٣.

(٣) أخرجه إسماعيل القاضي ٣٨، وهو مرسل، لكنه شاهد لما بعده.

(٤) تقدم في تفسير سورة الإسراء عند الآية: ٢٤.

(٥) يعود الضمير على البخاري في «الأدب المفرد» والترمذي.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٩٠٨ وأعله البوصيري بضعف جبارة بن مغلس.

(٧) هذا مرسل. أخرجه إسماعيل القاضي ٤١، وهو يشهد لما قبله، والله أعلم.

وذهب آخرون إلى أنه تَجِبُ الصلاة في المجلس مرّةً واحدةً، ثم لا تَجِبُ في بقية ذلك المجلس، بل تُسْتَحَبُّ. نقله الترمذي عن بعضهم.

[٥٥٠٥] ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن صالح - مولى الثؤامة - عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يُصلُّوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترةٌ، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم»^(١). تفرد به الترمذي من هذا الوجه ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون، كلاهما عن ابن أبي ذئب، عن صالح - مولى الثؤامة - عن أبي هريرة، مرفوعاً مثله ثم قال الترمذي: «هذا حديث حسن». وقد روي عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - من غير وجه.

[٥٥٠٦] وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة، عن سليمان، عن ذكوان، عن أبي سعيد قال: «ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يُصلُّون على النبي - ﷺ - إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة، وإن دخلوا الجنة لما يرون الثواب»^(٢). وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - ﷺ - في المرّة واحدة، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال. وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه - ﷺ - في الجملة. قال: وقد حكى الطبري أن مخمّل الآية على الندب، وأدعى فيه الإجماع. قال: «ولعله فيما زاد على المرّة، والواجب منه مرّة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام، وشيخار أهله». قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجبٌ ومنها مستحبٌ على ما نبيته.

[٥٥٠٧] فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا خيثمة، حدثنا كعب بن علقمة، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول: إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبيد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»^(٣). وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن علقمة.

[٥٥٠٨] طريق أخرى، قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عُمر بن علي، عن أبي بكر الجشمي، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَقَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

(١) عجزه باطل. أخرجه الترمذي ٣٣٨٠ وأحمد ٤٤٦/٢ و٤٨١ و٤٨٤ وإسماعيل القاضي ٥٤ وابن حبان ٥٩٠. وسفيان سمع من صالح بعد الاختلاف. وقد رواه زياد بن سعد عند أحمد ٤٩٥/٢ وابن أبي ذئب عند أحمد أيضاً ٤٥٣/٢ وكلاهما من سمع من صالح قبل الاختلاف، وليس فيه «فإن شاء...»، فهذا باطل.

(٢) موقوف صحيح. أخرجه إسماعيل القاضي ٥٥، وتقدم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) تقدم في تفسير سورة المائدة. عند الآية: ٣٥.

(٤) أخرجه إسماعيل القاضي ٥٠، وفي إسناده عمر بن علي وأبو بكر الجشمي عيسى بن طهمان، وفيهما مقال. لكن الحديث صحيح بشواهد.

[٥٥٠٩] حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب - هو كعب الأحبار - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ عَلَيَّ زَكَاةٌ لَكُمْ، وَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ». قال: فإما حدثنا وإما سألناه، فقال: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل»^(١). ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن مُعتمر، عن ليث - وهو ابن أبي سُليم - به.

[٥٥١٠] وكذا الحديث الآخر؛ قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سَوادة، عن زياد بن نعيم، عن وقاء الحضرمي، عن دُوَيْفَعِ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ: أن رسول الله - ﷺ - قال: «من صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَقَالَ: اللَّهُمَّ، أَنْزِلْهُ الْمَقْعَدَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَّتْ لَهُ شِفَاعَتِي»^(٢). وهذا إسناد لا بأس به، ولم يُخْرِجُوهُ.

أثر حسن: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا، سفيان، حدثني معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعَةَ مُحَمَّدِ الْكُبْرَى، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام. إسنادٌ جيّدٌ قويٌّ صحيحٌ.

[٥٥١١] ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه، للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - قالت: كان رسول الله - ﷺ - إذا دخل المسجد صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَسَلَّمُ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرَّجَ صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَسَلَّمُ، ثم قال: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وافتح لي أبواب فضلك»^(٣).

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان بن عُمر التميمي، عن سليمان الضبي، عن علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: إذا مررتُم بالمساجد فَصَلُّوا عَلَيَّ النَّبِيِّ - ﷺ -. وأما الصلاة عليه - ﷺ - في الصلاة، فقد قدّمنا الكلام عليها في التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء منهم الشافعي وأحمد. وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تُسْتَحَبُّ؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك الصلاة عليه، في صلاة الجنائز، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يُصَلِّيُ عَلَيَّ النَّبِيِّ، وفي الثالثة يدعُو للميت، وفي الرابعة يقول: اللَّهُمَّ، لا تحرمنا أجره، ولا تفتننا بعده.

[٥٥١٢] قال الشافعي رحمه الله: حدثنا مطرف بن مازن، عن معمر، عن الزهري: أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجلٌ من أصحاب النبي - ﷺ -: أن السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام،

(١) تقدم تحريجه.

(٢) أخرجه أحمد ١٠٨/٤ وإسماعيل القاضي ٥٣ والطبراني في «الأوسط» ٣٣٠٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/١٦٣: وأسانيدهم حسنة. قلت: بل مداره على ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٤ وابن ماجه ٧٧١ وأحمد ٤٢٥/٥ وابن السني ٨٦. قال الترمذي: حسن، وليس إسناده بمتصل: فاطمة بنت الحسين لم تدرِك فاطمة الكبرى. وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه النسائي في «الكبرى» ٩٩١٨ وابن ماجه ٧٧٣، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات.

ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سِرّاً في نفسه، ثم يصلي على النبي - ﷺ - ويخلص الدعاء للجنّاة، في التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سِرّاً في نفسه^(١). ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره. وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة ابن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة في الصلاة على الجنّاة... فذكره^(٢). وهكذا رُوِيَ عن أبي هريرة، وابن عمر، والشعبي.

[٥٥١٣] ومن ذلك في صلاة العيد، قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة قبل العيد يوماً، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتيح بها الصلاة، وتحمّد ربك، وتصلّي على النبي - ﷺ -، ثم تدعو، وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلّي على النبي - ﷺ -، ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن^(٣). إسناده صحيح.

ومن ذلك أنه يستحبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ، قال الترمذي: حدثنا أبو داود، أخبرنا النضر ابن شميل، عن أبي قرّة الأسدي، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك^(٤). وكذا رواه أيوب بن موسى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب، قوله، ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعاً.

[٥٥١٤] وكذا رواه ززين بن معاوية في كتابه مرفوعاً، عن النبي - ﷺ - قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد حتى يصلّي عليّ، فلا تجعلوني كغمر الراكب، صلّوا عليّ أول الدعاء وأوسطه وآخره^(٥)». وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي حيث قال:

[٥٥١٥] حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا موسى بن عبدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال: جابر: قال لنا رسول الله - ﷺ -: «لا تجعلوني كغمر الراكب، إذا علّق تعاليقه أخذ قدح فملاه من الماء، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب، وإلا أهرأق ما فيه.

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» ٢٣٩/١ - ٢٤٠ والبيهقي ٣٩/٤، وإسناده ساقط لأجل مطرف بن مازن، لكن توبع عند الحاكم ٣٦٠/١ وإسماعيل القاضي ٩٤، وصححه الحاكم على شرطهما وواقفه الذهبي.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي ٩٤ عن أبي أمامة عن سعيد بن المسيب. وأخرجه الحاكم ٣٦٠/١ والبيهقي ٣٩/٤ - ٤٠ عن أبي أمامة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ... فذكره، ثم قال الزهري: حدثني بذلك أبو أمامة وابن المسيب يسمع اهـ. وانظر «جلاء الأفهام» ص ٢١٠ بتخريري.

(٣) حسن. أخرجه إسماعيل القاضي ٨٨، وهو حسن لأجل حماد بن أبي سليمان.

(٤) موقوف. أخرجه الترمذي ٤٨٦ عن عمر قوله، وفي إسناده أبو قرّة الأسدي، وهو مجهول.

(٥) أخرجه ززين كما في «جامع الأصول» ٢١٢١/٤ من حديث عمر، وليس بشيء، بل هو الموقوف المتقدم، وانظر ما بعده.

اجعلوني في أول الدعاء، وفي وسط الدعاء، وفي آخر الدعاء»^(١). فهذا حديث غريب، وموسى ابن عبيدة ضعيف الحديث.

[٥٥١٦] ومن أكد ذلك دعاء القنوت؛ لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وابن خزيمة، وابن جبان، والحاكم، من حديث أبي الجوزاء، عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال: علمني رسول الله - ﷺ - كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت»^(٢). وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على النبي محمد^(٣).

ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة.

[٥٥١٧] قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي: عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الثقفي. قال رسول الله - ﷺ -: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ - يعني وقد بليت - قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(٤). ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة، وابن جبان، والدارقطني، والنووي في «الأذكار».

[٥٥١٨] حديث آخر، قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سواد المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عبادة بن نسي، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة، فإنه مشهود تشهد الملائكة. وإن أحداً لن يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها». قال قلت: وبعد الموت؟ قال: وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبى الله حي يرزق»^(٥). هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عبادة بن نسي وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود، عن النبي - ﷺ -^(٦) في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم. وروي مرسلًا عن الحسن البصري.

- (١) أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٥٧٨ والبزار كما في «المجمع» ١٥٥/١٠ من حديث جابر، وقال الهيثمي: وفيه موسى بن عبيدة، هو ضعيف متروك.
- (٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٢٥ والترمذي ٤٦٤ وابن ماجه ١١٧٨ وأحمد ٢٠٠/١ وابن حبان ٩٤٥.
- (٣) هذه الزيادة عند النسائي ٢٤٨/٣، وهي ضعيفة، في الإسناد عبد الله بن علي، وهو مقبول، ولم يدرك الحسن بن علي.
- (٤) صحيح. أخرجه أبو داود ١٠٤٧ والنسائي ٩١/٣ - ٩٢ وابن ماجه ١٠٨٥ وابن حبان ٩١٠ وإسماعيل القاضي ٢٢ وأحمد ٨/٤ من حديث أوس، وصححه الحاكم ٢٧٨/١ ووافقه الذهبي.
- (٥) أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧ وفيه إرسال كما ذكر ابن كثير رحمه الله، لكن يشهد لما قبله، وقد اختلف مخرجهما، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا الحديث صحيح. إلا أنه منقطع في موضعين اهـ.
- (٦) حديث أبي أمامة أخرجه البيهقي ٢٤٩/٣ وذكره السخاوي في «القول البدع» ص ١٥٣ وقال: رواه البيهقي بسند حسن لا بأس به، إلا أن مكحولاً قيل: لم يسمع من أبي أمامة في قول الجمهور. ولكن في «مسند الشاميين» للطبراني التصريح بسماعه منه.

[٥٥١٩] فقال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن - وهو البصري - يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تأكل الأرض جسداً من كلمه روح القدس»^(١). مرسل حسن.

[٥٥٢٠] وقال القاضي: وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي - ﷺ - قال: «إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة علي»^(٢). هذا مرسل. وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي - ﷺ - يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرطاً، فوجب ذكر الرسول - ﷺ - فيها كالأذان والصلاة، هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله.

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره - صلوات الله وسلامه عليه -.

[٥٥٢١] قال أبو داود: حدثنا ابن عوف هو محمد، حدثنا المقرئ، حدثنا حيوة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما منكم من أحد يسلم علي إلا رزق الله علي رزقي، حتى أرد عليه السلام»^(٣). تفرد به أبو داود، وصححه النووي في الأذكار.

[٥٥٢٢] ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»^(٤). تفرد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمد، عن سريج، عن عبد الله بن نافع - وهو الصائغ - به. وصححه النووي أيضاً. وقد روي من وجه آخر عن علي - رضي الله عنه -.

[٥٥٢٣] قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه: «فضل الصلاة على النبي - ﷺ -»: حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عمّن أخبره من أهل بيته، عن علي بن الحسين بن علي: أن رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي - ﷺ - ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي بن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحب السلام على النبي - ﷺ -. فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟ قال: نعم، فقال له علي بن الحسين: أخبرني أبي عن جدّي أنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي وسلموا حيثما كنتم، فستبلغني صلاتكم وسلامكم»^(٥). في إسناده رجل مبهم لم يُسم. وقد روي من وجه آخر مرسلًا.

(١) مرسل. أخرجه إسماعيل القاضي ٢٣، لكن له شواهد كثيرة.

(٢) مرسل أيضاً. أخرجه الشافعي في «المسند» ١/١٧٢، لكن يصلح شاهداً للأحاديث المتقدمة، والله أعلم.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٠٤١ وأحمد ٥٢٧/٢، وإسناده غير قوي لأجل حميد بن زياد؛ ومع ذلك صححه النووي فيما ذكر المصنف.

(٤) تقدم في مقدمة تفسير سورة البقرة، وهو قوي.

(٥) أخرجه إسماعيل القاضي ٢٠ وأبو يعلى ٤٦٩، وفيه راو لم يُسم، لكن المرفوع منه يشهد له ما قبله.

[٥٥٢٤] قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجل - يقال له: سهيل - عن الحسن بن الحسن بن علي قال: رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبي - ﷺ - قال: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ حيثما كنتم، فإنّ صلاتكم تبلغني». فلعله رأيهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم^(١). وقد روي أنه رأى رجلاً يبتاب القبر فقال: «يا هذا، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواة»، أي: الجميع يبلغه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

[٥٥٢٥] وقال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رشد بن المضرّي، حدثنا سعيد بن أبي مزيم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - عن أبيه أن رسول الله - ﷺ - قال: «صلوا عليّ حيثما كنتم، فإنّ صلاتكم تبلغني»^(٢).

[٥٥٢٦] ثم قال الطبراني: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون، حدثنا شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قالوا: يا رسول الله - ﷺ -: «أرأيت قول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾؟ فقال: «إن هذا من المكتوم، ولولا أنّكم سألتُموني عنه لما أخبرتكم، إن الله - عز وجل - وكلّ بي ملكين لا أذكرُ عند عبد مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذاك الملكان: «عَفَرَ اللهُ لَكَ». وقال الله وملائكته جواباً لذبيك الملكين: «أَمِينَ». ولا يصلي عليّ أحد^(٣) إلا قال ذاك الملكان: «لا عَفَرَ اللهُ لَكَ». ويقول الله وملائكته جواباً لذبيك الملكين: «أَمِينَ»^(٤). غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد.

[٥٥٢٧] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنّ لله ملائكةً سياحين في الأرض، يبلغونني عن أمتي السلام»^(٥). وهكذا رواه النسائي من حديث شفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب، به.

[٥٥٢٨] فأما الحديث الآخر: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ بَعِيدٍ بُلِّغْتُهُ»^(٦) - ففي إسناده نظر، تُفَرَّدُ به محمد بن مروان السدي الصغير - وهو متروك - عن الأعمش، عن أبي صالح، عن

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٦٧٢٦، وفي إسناده سهيل، وهو مجهول. وأخرجه أبو يعلى ٦٧٦١ من وجه آخر من حديث الحسن بن علي، وإسناده ضعيف لضعف عبد الله بن رافع، لكن للحديث شواهد.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٦٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/١٦٢: وفيه حميد بن أبي زينب لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. لكن له شواهد.

(٣) أي يترك الصلاة على النبي ﷺ.

(٤) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ٢٧٥٣، وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٨٣: هو كذاب.

(٥) أخرجه النسائي ٤٣/٣ وأحمد ١/٣٨٧ و٤٤١ وعبد الرزاق ٣١١٦ وصححه الحاكم ٤٢١/٢ ووافقه الذهبي. وإسناده حسن.

(٦) ضعيف جداً، أخرجه العقيلي ٤/١٣٦ - ١٣٧ بهذا الإسناد، من حديث أبي هريرة، وقال: لا أصل له من حديث الأعمش. وليس بمحفوظ، ولا يتابعه إلا من هو دونه اهـ ذكره في ترجمة محمد بن مروان السدي، وأعله به، وأنه متهم بالكذب..

أبي هريرة مرفوعاً. قال أصحابنا: وَسُتَحَبُّ لِلْمُحْرِمِ إِذَا لَبَّى وَإِفْرَغَ مِنْ تَلْبِيئِهِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - لما رواه الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كَانَ يُؤَمِّرُ الرَّجُلَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ تَلْبِيئِهِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِذَا قَدِمْتُمْ فَطُوفُوا بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلُّوا عِنْدَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ اتَّوَا الصَّفَا فقوموا عليه من حيث تَرَوْنَ الْبَيْتَ، فَكَبِّرُوا سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ، تَكْبِيرًا بَيْنَ حَمْدِ اللَّهِ وَثَنَاءٍ عَلَيْهِ وَصَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -، وَمَسْأَلَةٌ لِنَفْسِكَ، وَعَلَى الْمَرْوَةِ مِثْلَ ذَلِكَ». إسناد جيد حَسَنٌ قَوِيٌّ. وقالوا: وَسُتَحَبُّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - مع ذكر الله عند الذبح، واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿رَوَقْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: لَا أَذْكَرُ إِلَّا ذُكِّرْتُ مَعِيَ^(١). وخالفهم في ذلك الجمهور، وقالوا: هذا موطن يُفَرِّدُ فِيهِ ذَكَرَ الرَّبِّ تَعَالَى، كَمَا عِنْدَ الْأَكْلِ، وَالِدُخُولِ، وَالْوِقَاعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَمْ تَرِدْ فِيهِ السَّنَةُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -.

[٥٥٢٩] حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عُمَرُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «صَلُّوا عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُمْ كَمَا بَعَثَنِي»^(٢). في إسناده ضعيفان، وهما عُمَرُ بْنُ هَارُونَ وَشَيْخُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقد رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن موسى بن عبيدة الرَبْدِيِّ، به. ومن ذلك أنه يُسْتَحَبُّ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ عِنْدَ طَيِّبِ الْأَذْنِ، إِنْ صَحَّ الْخَيْرُ فِي ذَلِكَ.

[٥٥٣٠] على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال: حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله بن علي بن أبي رافع، عن أبيه، عن أبي رافع قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِذَا طُتَّتْ أذُنُ أَحَدِكُمْ فَلْيَذْكُرْنِي وَلْيُصَلِّ عَلَيَّ، وَلْيَقُلْ: ذَكَرَ اللَّهُ مَنْ ذَكَرْنِي بِخَيْرٍ»^(٣). إسناده غريب، وفي ثبوته نظر، والله أعلم.

(١) هو بعض حديث واو، يأتي في سورة الانشراح.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي ٤٣٥، وإسناده ضعيف، له ثلاث علل. عمر بن هارون، وشيخه موسى بن عبيدة، هو الربذي، وكلاهما ضعيف، وهما أحدهما كثير رحمه الله، وله علة ثالثة. محمد بن ثابت قال ابن معين: لا أعرفه اهـ وقد توبع عمر بن هارون فيما ذكر المصنف، فبقي للحديث علتان فقط، والله أعلم.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه ابن السنني في «اليوم والليلة» ١٦٥ والطبراني ٩٥٨ وفي «الصغير» ١١٠٤ والخراطي في «مكارم الأخلاق» ٥٤٥ «منتخب السلفي» والبزار ٣١٢٥ وابن عدي ١١٣/٦ - ٥٥١ والعقيلي ١٠٤/٤ - ٢٦١ وابن حبان ٢٥٠/٢ من حديث أبي رافع، ومداره على محمد بن عبيد الله بن أبي رافع. قال الذهبي في «الميزان» ٧٩٠٤: ضعفه. قال البخاري، منكر الحديث. وقال يحيى: ليس حديثه بشيء. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، ذاهب، ثم ذكر الذهبي له هذا الحديث على أنه من مناكيره اهـ وقال ابن حبان في «المجروحين» في ترجمة محمد بن عبيد الله: منكر الحديث جداً، يروي عن أبيه ما ليس يشبه حديث أبيه، فلما غلب المناكير على روايته، استحق الترك. كان ابن معين شديد الحمل عليه اهـ. وحكم ابن الجوزي بوضعه وكذا قال العقيلي: ليس له أصل، وذكره السخاوي في «المقاصد» ٧٠ وقال: وسنده ضعيف، بل قال العقيلي: ليس له أصل، وبهذا تعلم أن قول الهيثمي في «المجمع» ١٧١٤٢: إسناد الطبراني في «الكبير» حسن. ليس بصواب. بل له علة ثانية في «الكبير»، وهي ضعف حبان بن علي. وكذا لم يصب النواوي حيث قال في «الفيض» ٣٩٩/١: المتن صحيح، فقد رواه ابن خزيمة في صحيحه، وهو قد التزم تخريج الصحيح. كذا قال المناوي رحمه الله، =

مسألة: وقد استحب أهل الكتابة أن يكرّر الكاتب الصلاة على النبي - ﷺ - كلما كتبه.

[٥٥٣١] وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رَحْمَةَ، عن نَهْشَل، عن الضحّاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من صَلَّى عَلَيَّ في كتابٍ لم تَزَلِ الصلاةُ جاريةً له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»^(١). وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة، وقد رُوِيَ من حديث أبي هريرة، ولا يصح أيضاً، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا: أحسبه موضوعاً. وقد رُوِيَ نحوه عن أبي بكر، وابن عباس. ولا يصح من ذلك شيء. والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه: «الجامع لأدب الراوي والسامع»، قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «أنه كثيراً ما يكتب اسم النبي - ﷺ - من غير ذكر الصلاة عليه كتابة». قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

فصل: وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدّم في الحديث:

[٥٥٣٢] «اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته»^(٢) فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك. واحتجوا بقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ»، ويقولون: «أَوْلَيْتَهُمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ» [البقرة: ١٥٧]، ويقولون: «خَدَّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَّوْتَكَ سَكَنٌ لَكُمْ» [التوبة: ١٠٣].

[٥٥٣٣] ويحدث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللهم صلّ عليهم». وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»^(٣). أخرجه في الصحيحين.

[٥٥٣٤] ويحدث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صلّ عليّ وعلى زوجي. فقال: «صلّي الله عليك وعلى زوجك»^(٤). وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز أفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صلّي الله عليه». أو «قال عليّ صلّي الله عليه». وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: «قال محمد - عزّ وجلّ -»، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن

= ولم أجد في المطبوع من صحيح ابن خزيمة، ولعله في القسم الذي لم يطبع بعد، وأياً كان، فقد ساق الحافظ ابن كثير إسناد ابن خزيمة، وفيه محمد بن عبيد الله أيضاً، فلم يروه من طريق آخر، فالخبر واه، ولما كان المتن منكراً زاده ذلك ضعفاً ووهناً، والأشبه أنه موضوع، كما ذهب إليه ابن الجوزي، والعقيلي، وغيرهما، والله أعلم.

(١) باطل. أخرجه الأصبهاني في «ترغيبه» كما في «اللائل» ٢٠٥/١ من حديث ابن عباس، وهو معلول بثلاث علل: الأولى كادح بن رحمة، كذاب، وشيخه نهشل بن سعيد متروك، وكذبه إسحق بن راهويه. وله علة ثالثة: الضحّاك لم يلق ابن عباس، فهو منقطع. وله شاهد من حديث أبي هريرة. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٨٥٦ وابن الجوزي ٢٢٨/١، وقال: هذا موضوع يزيد بن عياض كذبه مالك، وقال الدراقطني: كذاب متروك. وقال ابن حبان: يضع الحديث اه وأعله الهيثمي في «المجمع» ٥٧٧ ببشر بن عبيد الدراسي، وقال: كذبه الأزدي وغيره اه وكذا ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة بشر وقال: وهذا موضوع ٣٢٠/١. وورد من حديث أبي بكر الصديق. أخرجه ابن عدي ٢٤٩/٣ ومن طريقه ابن الجوزي ٢٢٨/١ وقال ابن عدي: وضعه أبو داود النخعي، وكان وضاعاً بإجماع العلماء. ووافقه ابن الجوزي، وورد عن جعفر بن محمد من قوله أخرجه عنه ابن عساكر كما في «اللائل» ٢٠٥/١، وهو الصواب. وقد وصله بعض الكذابين.

(٢) تقدم في أول البحث.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة، عند الآية: ١٠٣.

(٤) تقدم في تفسير سورة التوبة، عند الآية: ١٠٣.

هذا من شعار ذَكَرَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - . وَحَمَلُوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسُنَّةِ على الدُّعاء لهم، ولهذا لم يُثَبِّت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامراته. وهذا مسلِّكٌ حسنٌ.

وقال آخرون: لا يجوزُ ذلك، لأن الصلاةَ على غير الأنبياء قد صارت من شعارِ أهل الأهواء، يُصَلُّون على من يَعْتَقِدُونَ فيهم، فلا يُقْتَدَى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاهما الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب «الأذكار». ثم قال: «والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه، لأنه شعارُ أهل البدع، وقد نُهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما وَرَدَ فيه نهْيٌ مقصودٌ. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلفِ بالأنبياء - صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم؛ كما أن قولنا - عَزَّ وَجَلَّ -، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: «مُحَمَّدٌ - عَزَّ وَجَلَّ -» وإن كان عزيزاً جليلاً - لا يقال أبو بكر أو عليٌّ: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، هذا لفظه بحروفه. قال: «وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يُفْرَدُ به غير الأنبياء، فلا يقال: «علي عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيُخاطَبُ به، فيقال: سلامٌ عليكم، أو سلامٌ عليك، أو السلامُ عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه». انتهى ما ذكره. قلت: وقد غَلَبَ هذا في عبارة كثير من النسخ للكتب، أن يفرد علي - رضي الله عنه - بأن يقال: «عليه السلام»، من دون سائر الصحابة، أو: «كُرِّمَ اللهُ وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يساوى بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمانُ أولى بذلك منه، - رضي الله عنهم - أجمعين.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثني عثمان ابن حكيم بن عباد بن حُثَيْف، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي - ﷺ - ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار. وقال أيضاً: حَدَّثَنَا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حُسين بن علي، عن جَعْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ قال: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رحمه الله -: «أما بعد، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القُصَّاصِ قد أحدثوا في الصلاة على خُلَفائهم وأمرائهم عِدْلَ الصَّلَاةِ على النبي - ﷺ -، فإذا جاءك كتابي هذا فَمُرِّهِمْ أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُمْ على النَّبِيِّينَ ودعائهم للمسلمين عامة، وَيَدْعُوا ما سِوَى ذلك». أثر حسن.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا مُعَاذُ بْنُ أَسَدٍ، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا ابن لهيعة، حدثني خالد بن يزيد، عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عن نُبَيْهِ بْنِ وَهَبٍ: أَنَّ كَعْباً دَخَلَ على عائشة - رضي الله عنها - فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ - ﷺ - فقال كعبٌ: ما من فجر يطلع إلا نَزَلَ سبعون ألفاً من الملائكة حتى يَحُفُّوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصَلُّون على النبي - ﷺ -، سبعون ألفاً بالليل، وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خَرَجَ في سبعين ألفاً من الملائكة يَرِفُونَهُ^(١).

فروع: قال النووي: إذا صَلَّى على النبي - ﷺ - فَلْيَجْمَعْ بين الصَّلَاةِ والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: «صلى الله عليه فقط، ولا: «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله مُنْتَزَعٌ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلِّم تسليماً.

(١) هو من قول كعب الأحبار، قاله من عند نفسه، فلا حجة فيه، عامة ما يرويه من الإسرائيليات فإن صح هذا عنه يكون منه نقولاً، لكن فيه ابن لهيعة واو.. وهو وإن رواه عنه ابن المبارك، فقد ضمه بعضهم مطلقاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعَثْنَا بِهِنَّ وَإِنَّمَا يُؤْذُونَ

يقول تعالى مُتَهَدِّدًا ومتوعِّدًا من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسوله بعبث أو بنقص، عيادًا بالله من ذلك. قال عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قال: نزلت في المصورين.

[٥٥٣٥] وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يقول الله - عز وجل -: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره»^(١). ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا. فَيَسْبُدُونَ أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله - عز وجل -، فهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نزلت في الذين طَعَنُوا في تزويجه صَفِيَّة بنت حُيَيِّ بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، من آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله؛ كما قال الإمام أحمد:

[٥٥٣٦] حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عبيدة بن أبي ربيعة الحذاء الثميمي، عن عبد الرحمن، عن عبد الله بن المغفل المُرَني قال: قال النبي - ﷺ -: «الله الله في أصحابي! لا تتخذوهم غرصاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(٢). وقد رواه الترمذي من حديث عبيدة بن أبي ربيعة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل، به. ثم قال: «وهذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدْ أَحْتَسَبُوا بِهِنَّ وَإِنَّمَا يُؤْذُونَ﴾، وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه. على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرَّاهم الله منه، ويصفونهم بتقصيص ما أخبر الله عنهم، فإن الله - عز وجل - قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين.

[٥٥٣٧] وقال أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته»^(٣). وهكذا رواه الترمذي، عن قُتَيْبَةَ، عن الدَّرَاوَزِيِّ، به، ثم قال: «حسن صحيح».

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٢٦ ومسلم ٢٢٤٦ وأبو داود ٥٢٧٤ وأحمد ٢٣٨/٢ وابن حبان ٥٧١٦.

(٢) أخرجه أحمد ٨٧/٤ والترمذي ٣٨٦٢ وابن حبان ٧٢٥٦ وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد ويقال: عبد الله بن عبد الرحمن ويقال عبد الرحمن بن عبد الله، وهو مجهول وقال الترمذي: هذا حديث غريب اهد. وصدده متفق عليه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٩ وأبو داود ٤٨٧٤ والترمذي ١٩٣٤ وأحمد ٣٨٤/٢ وابن حبان ٥٧٥٨.

[٥٥٣٨] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: «أي الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أربى الربا عند الله استحلال عِرض امرئ مسلم». ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعَثَ مَا اسْتَسَبُّوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا طِينًا﴾ (٥٩) ﴿١﴾.

﴿يَتَأَيَّبُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَرًا رَحِيمًا﴾ (٥٩) ﴿٢﴾ لَيْنَ لَمْ يَنْهَهُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعُغْرَتِكَ بِهِمْ يُرَى لَوْ يَجَارُونَكَ فِيهَا إِلَّا فَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا قَتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴿٣﴾

يقول تعالى أمرأ رسولہ - ﷺ - تسليمًا - أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلابيبهن، ليمتيزن عن سيمات نساء الجاهلية وسمات الإمام. والجلباب هو: الرداء فوق الخمار، قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد. وهو بمنزلة الإزار اليوم. قال الجوهري: الجلباب؛ الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تَمَشِي النِّسْرُ إِلَيْهِ وَهِيَ لِأَهِيَّةٍ مَشِي الْعَدَايِ عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يعطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويدين عيناً واحدة. وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. وقال عكرمة: تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدينه عليها.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الطهرازي فيما كتب إلي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن حنيم، عن صفية بنت شيبة، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾، خرج نساء الأنصار كان على رؤوسهن العزبان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسهنها. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه - يعني الزهري - هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات، وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾. ورؤي عن سفيان الثوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة، لا لحرمتهن. واستدل بقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾، أي: إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر، لسن بإمام ولا عواهر.

قال السدي في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾، قال: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين

حَاجَتَهُنَّ، فَكَانَ أَوْلَئِكَ الْفُسَاقُ يَتَّبِعُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَإِذَا رَأَوْا امْرَأَةً عَلَيْهَا جِلْبَابٌ قَالُوا: هَذِهِ خُرَةٌ، كُفُّوا عَنْهَا. وَإِذَا رَأَوْا امْرَأَةً لَيْسَ عَلَيْهَا جِلْبَابٌ، قَالُوا: هَذِهِ أُمَّةٌ. فَوُتِبُوا إِلَيْهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَتَجَلَّبَنَ فَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ حَرَائِرُ فَلَا يَعْزُضُ لَهُنَّ فَايْتِقُ بَأَذَى وَلَا رِيْبَةً. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾، أَي: لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ، وَهَمُ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُحِبُّونَ الْكُفْرَ: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ - قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ: هُمُ الزَّانَةُ هَاهُنَا. ﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، يَعْنِي: الَّذِينَ يَقُولُونَ: جَاءَ الْأَعْدَاءُ، وَجَاءَتِ الْحُرُوبُ. وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ - لِئَن لَمْ يَنْتَهَوْا عَنْ ذَلِكَ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ ﴿لَتُنْفِتَنَّكَ بِهِمْ﴾، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَي لِنَسْلُطَنَّكَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَتُحَرِّشَنَّكَ بِهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَتُعَلِّمَنَّكَ بِهِمْ. ﴿ثُمَّ لَا يَجُودُونَكَ فِيهَا﴾، أَي: فِي الْمَدِينَةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿مَلْعُونِينَ﴾ حَالُ مِنْهُمْ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مُدَّةَ قَرِيبَةِ مَطْرُودِينَ مَبْعَدِينَ، ﴿أَيْنَمَا تُفْعَلُونَ﴾، أَي: أُجِدُوا، ﴿أُخِذُوا﴾ لِيَذَلَّتْهُمْ وَقَلَّتْهُمْ، ﴿وَقَتِلُوا قَتِيلًا﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، أَي: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكَفَرُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يَسْلُطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقَهْرُونَهُمْ، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أَي: وَسُنَّةَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا تَبْدُلَ وَلَا تُغَيِّرُ.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿٦٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَنَا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً لرسول - ﷺ -: أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك. وأرشده أن يزُدَّ علمها إلى الله - عزَّ وجلَّ -، كما قال له في سورة الأعراف، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمرَّ الحال في رُدِّ علمها إلى الذي يبيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كما قال: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَوْمُ﴾ ﴿١﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا سَتْمَجِوَةٌ لَهُ﴾ [النحل: ١]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ﴾، أَي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، أَي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، ﴿خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، أَي: مَا كَثُرَ مُسْتَمْرِّينَ، فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا، ﴿لَا يُجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا﴾، أَي: وَلَيْسَ لَهُمْ مُعِيثٌ وَلَا مُعِينٌ يَنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾، أَي: يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ، وَتَلْوَى وَجُوهُهُمْ عَلَى جَهَنَّمَ، يَقُولُونَ وَهَمُ كَذَلِكَ، يَتَمَتُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْعَرَضَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَسُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَوْ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنْسٰنِ خَدُوْلًا ﴿٢٤﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]. وقال تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الحجر: ٢]. وهكذا أخبر عنهم في حالهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ ﴿١٧﴾، وقال طاوس: سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم. أَي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿رُبَّمَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، أَي: بِكَفْرِهِمْ

وإغواهم إيانا، ﴿وَأَلَعْتُمْ لَمَنَّا كَيْبَرًا﴾. قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثناة، وهما قريباً المعنى.

[٥٥٣٩] كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمني دُعاءً أدعُوه به في صلّاتي. قال: قل: «اللهم، إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١). أخرجاه في الصحيحين، يروى «كبيراً» و«كثيراً»، وكلاهما بمعنى صحيح. واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دُعائه. وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مُخَيَّر بين القراءتين، أيّتهما قرأ فحَسَن، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا ضِرَارُ ابن صَرْدٍ، حدثنا علي بن هاشم، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن أَبِي رَافِعٍ، عن أبيه، في تسمية من شهد مع علي - رضي الله عنه -: الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّةَ، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِرَامَنَا قَاصِلُونًا أَسْبِيلاً﴾^(٢) رَبَّنَا عَائِمِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَابِ لَمَنَّا كَيْبَرًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٦٩)

[٥٥٤٠] قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بن إبراهيم، حَدَّثَنَا رُوحُ بن عُبَادَةَ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عن الحسن ومحمد وِجْلَاسَ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن موسى كان رجلاً حَيًّا»^(٣)، وذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٦٩). هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً.

[٥٥٤١] وقد رواه في أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حَيًّا سَيِّئاً، لا يُرَى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يَسْتَشِرُّ هذا التَسْتَشِرُّ إلا من عَيِبَ بجلده، إما بَرَصٍ وإما أُذْرَةَ»^(٣) وإما آفة. وإن الله - عزَّ وجلَّ - أراد أن يُبْرِئَهُ مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حَجَرٍ، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحَجَرَ عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلَّبَ الحَجَرَ، فجعل يقول: ثوبي حَجَرٌ، ثوبي حَجَرٌ. حتى انتهى إلى مَلَأٍ من بني إسرائيل، فرأوه غريبان أحسن ما خلق الله - عزَّ وجلَّ - وأبراه مما يقولون، وقام الحَجَرُ، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ، فوالله إن بالحَجَرِ لَنَدْباً من أثر ضَرْبِهِ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً -، قال: فذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٦٩). وهذا سياقٌ حَسَنٌ مطوَّلٌ، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم.

[٥٥٤٢] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا رُوحٌ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عن الحَسَنِ، عن النبي - ﷺ - وِجْلَاسِ

(١) صحيح وقد تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٩٩.

(٣) انتفاخ في الخصى.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٠٤ والترمذي ٣٢٢١ والنسائي في «التفسير» ٤٤٤ والطبري ٢٨٦٧٣، وفي الإسناد روح ابن عباد، وهو وإن روى له الشيخان، فقد تكلم فيه وفي شيخه عوف، والحسن لم يسمع أبا هريرة ومثله وِجْلَاسِ، وهذا الحديث من غرائب الصحيح.

ومحمد، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - أنه قال في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾، قال: قال النبي - ﷺ -: «إن موسى كان رجلاً حَيِّياً سَتِيراً، لا يكاد يُرَى من جلده شيء استحياء منه...»^(١). ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مُطَوَّلًا، ورواه في تفسيره عن روح، عن عوف، به. ورواه ابن جرير من حديث الثوري، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - بنحو هذا. وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ قال: قال قومه له: إنك آذُر. فخرج ذات يوم يغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، وخرج يتبعها عريانا حتى انتهت به مجالس بني إسرائيل، قال: فراوه ليس بأذُر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾. وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس سواء.

[٥٥٤٣] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدمي قالوا: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النبي - ﷺ - قال: «كان موسى عليه السلام رجلاً حَيِّياً، وإنه أتى أحسبه قال: الماء - ليغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، وكان لا يكاد تبذو عورته، فقالت بنو إسرائيل: إن موسى آذُر وبه آفة، يعنون أنه لا يضع ثيابه. فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء مجالس بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى - عليه السلام - كأحسن الرجال، أو كما قال. فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عبّاد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدثنا الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - في قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾، قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلتها، كان ألين لنا منك وأشد حياة. فأذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عَرَف موضع قبره إلا الرُحْم، وإن الله جعله أصم أبكم. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسى الطوسي، عن عبّاد بن العوام، به. ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله - عز وجل - . قلت: يحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم.

[٥٥٤٤] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قَسَم رسول الله - ﷺ - ذات يوم قَسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله - ﷺ - بما قلت. قال: فذكرت ذلك للنبي - ﷺ - فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوديت بأكثر من هذا فصبر»^(٣). أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به..

(١) أخرجه أحمد ٥١٥/٢ وانظر ما قبله، وله طريق آخر عن جابر الجعفي وهو متروك عند الطبري ٢٨٦٦٩، والراجح كونه من مرسل الحسن.

(٢) أخرجه البزار ٢٢٥٢ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ٩٣/٧ - ٩٤: وفيه علي بن زيد، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات اهـ. بل هو ضعيف كما جزم الحافظ في «التقريب».

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٣٥ ومسلم ١٠٦٢ وأحمد ٢٣٥/١ وابن حبان ٢٩١٧.

[٥٥٤٥] طريقٌ أخرى، قال الإمام أحمدُ: حدثنا حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهمداني، عن زيد بن زائدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه: «لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَإِنِّي سَلِيمٌ الصِّدْرِ». فأتى رسول الله - ﷺ - مال فقسّمه، قال: فمررتُ برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمدٌ بِقِسْمَتِهِ وَجَهَ اللَّهِ وَلَا الدَارَ الآخِرَةَ. قال: فَتَنَبَّأْتُ حَتَّى سَمِعْتُ مَا قَالَا، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ قُلْتَ لَنَا: «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئاً»، وَإِنِّي مَرَرْتُ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَهُمَا يَقُولَانِ كَذَا وَكَذَا. فَاحْمَرُّ وَجَهَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَشَقَّ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: «دَعْنَا مِنْكَ، لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا، فَصَبِرَ»^(١).

[٥٥٤٦] وقد رواه أبو داود في الأدب، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل، عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً: «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصِّدْرِ»^(٢). وكذا رواه الترمذي في «المناقب»، عن الذهلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد، كلاهما عن إسرائيل، عن السدي، عن الوليد بن أبي هشام، به مختصراً أيضاً، فزاد في إسناده السدي، ثم قال: «غريبٌ من هذا الوجه». وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾، أي: له وجاهةٌ وجاءه عند ربّه - عزّ وجلّ - . قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله. وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن مُنِعَ الرؤية لما يشاء الله - عزّ وجلّ - . وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، وقال: ﴿وَرَهْبَانًا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ وَقَوْلُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادةً من كانه يراه، وأن يقولوا: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي: مُستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يُلبهم التوبة منها. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، وذلك أنه يُجار من النار، ويصير إلى النعيم المقيم.

[٥٥٤٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عون، حدثنا خالد، عن ليث، عن أبي بردة، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال صلى بنا رسول الله - ﷺ - صلاة الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً». ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً»^(٣).

[٥٥٤٨] وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ١/٣٩٥ - ٣٩٦ وإسناده ضعيف لجهالة الوليد، والصحيح ما قبله.

(٢) ضعيف. أخرجه أبو داود ٤٨٦٠ والترمذي ٣٨٩٦، أبو يعلى ٥٣٨٨ وفي إسناده الوليد، وهو مجهول وانظر ضعيف أبي داود ١٠٣٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٣٩١ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٨٥: فيه ليث بن أبي سليم، وهو مضطرب الحديث، وبقي رجاله ثقات. اهـ بل ليث ضعيف الحديث.

عمران الزهري، حدثنا عيسى بن سُمرة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما قام رسول الله - ﷺ - على المنبر إلا سمعته يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) . . . الآية^(١). غريب جداً. ورَوَى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس موقوفاً: من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله. قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد: الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧١) لِيَعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٢)

قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، عَرَضَهَا عليهم قبل أن يَعْرِضَهَا على آدم فلم يُطِيقْنَهَا. فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يُطِيقْنَهَا، فهل أنت أخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت. فأخذها آدم فَتَحَمَلَهَا، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائض، عَرَضَهَا الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عَذَّبهم الله. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، يعني: غرّاً بأمر الله.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس أنه قال في هذا الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، قال: عَرِضْتُ على آدم فقال: خُذْهَا بما فيها، فإن أطعتْ غَفَرْتُ لك، وإن عصيتْ عَذَّبْتُكَ. قال: قَبِلْتُ فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخبيثة. وقد رَوَى الضحاک، عن ابن عباس، قريباً من هذا. وفيه نظر وانقطاع بين الضحاک وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاک، والحسن البصري، وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق: قال أُبَيُّ بن كعب: من الأمانة أن المرأة أُوْتِمِنَتْ على فَرْجِهَا. وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أُتِيبَ، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضَعْفِهِ وَجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ، إلا من وَفَّقَ الله، وبالله المستعان.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري، حدثنا حماد بن واقد - يعني أبا عمر الصقفار - سمعت أبا معمر - يعني عَوْزَ بن معمر - يُحَدِّثُ عن الحسن - يعني البصري - أنه تلا هذه

(١) ضعيف، فيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف، متروك الحديث. قال الذهبي في «الميزان» ٥١١٩: قال البخاري: لا يكتب حديثه. وقال النسائي وغيره: متروك اه وهو منكر بهذا اللفظ، وورد عن عروة مرسلًا بلفظ «أكثر ما كان رسول الله ﷺ، إذا قعد على المنبر، يقول: اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً» وهذا أصح.

الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾، قال: عَرَضَهَا عَلَى السَّيِّعِ الطَّبَاقِ الطَّرَائِقِ الَّتِي زُيِّنَتْ بِالنَّجْمِ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، فَقِيلَ لَهَا: تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا؟ قَالَتْ: وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: قِيلَ لَهَا: إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيَّتِ، وَإِنْ أَسَأْتَ عُوقِبَتْ. قَالَتْ: لَا. عَرَضَهَا عَلَى الْأَرْضِينَ السَّيِّعِ الشَّدَادِ، الَّتِي شَدَّتْ بِالْأَوْتَادِ، وَذَلَّتْ بِالْمَهَادِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهَا: هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا؟ قَالَتْ: وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: قِيلَ لَهَا: إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيَّتِ، وَإِنْ أَسَأْتَ عُوقِبَتْ. قَالَتْ: لَا. ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْجِبَالِ الشَّمِّ الشَّوَامِخِ الصَّعَابِ الصَّلَابِ، قَالَ قِيلَ لَهَا: هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا؟ قَالَتْ: وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: قِيلَ لَهَا: إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيَّتِ، وَإِنْ أَسَأْتَ عُوقِبَتْ. قَالَتْ: لَا. وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: إِنْ اللَّهُ حِينَ خَلَقَ خَلَقَهُ جَمَعَ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْحِجْنِ، وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَبَدَأَ بِالسَّمَوَاتِ فَعَرَضَ عَلَيْهِنَّ الْأَمَانَةَ وَهِيَ الطَّاعَةُ، فَقَالَ لِهِنَّ: أَنْتَحِمِلْنَ هَذِهِ الْأَمَانَةَ، وَلَكِنْ عَلَى الْفَضْلِ وَالْكَرَامَةِ وَالثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ؟ فَقُلْنَ: يَا رَبِّ، إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَيْسَتْ بِنَا قُوَّةً، وَلَكِنَّا لَكُمْ مُطِيعِينَ. ثُمَّ عَرَضَ الْأَمَانَةَ عَلَى الْأَرْضِينَ، فَقَالَ لِهِنَّ: أَنْتَحِمِلْنَ هَذِهِ الْأَمَانَةَ وَتَقْبَلْنَهَا مِنِّي، وَأَعْطِيكُنَّ الْفَضْلَ وَالْكَرَامَةَ؟ فَقُلْنَ: لَا صَبِرْنَا عَلَى هَذَا يَا رَبِّ وَلَا نُطِيقُ، وَلَكِنَّا لَكُمْ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، لَا نَعْصِيكَ فِي شَيْءٍ تَأْمُرْنَا بِهِ. ثُمَّ قَرَّبَ آدَمَ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَحِمِلْ هَذِهِ الْأَمَانَةَ وَتَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا؟ فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ آدَمُ: مَا لِي عِنْدَكَ؟ قَالَ: يَا آدَمُ، إِنْ أَحْسَنْتِ وَأَطَعْتِ وَرَعَيْتِ الْأَمَانَةَ فَلَكَ عِنْدِي الْكَرَامَةُ وَالْفَضْلُ وَحَسَنُ الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ. وَإِنْ عَصَيْتِ وَلَمْ تَزْعَمِ حَقَّ رِعَايَتِهَا وَأَسَأْتَ فَإِنِّي مُعَذِّبُكَ وَمُعَاقِبُكَ وَأَنْزِلُكَ النَّارَ. قَالَ: رَضِيْتُ رَبِّ. وَتَحَمَّلَهَا، فَقَالَ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ: قَدْ حَمَلْتُكُنَّهَا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: عَرَضَهَا عَلَى السَّمَوَاتِ فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، حَمَلْتَنِي الْكُوكَبِ وَسُكَّانَ السَّمَاءِ وَمَا دُكِّرَ، وَمَا أُرِيدُ ثَوَابًا وَلَا أَحْمِلُ فَرِيضَةً. قَالَ: وَعَرَضَهَا عَلَى الْأَرْضِ فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، عَرَسْتَ فِي الْأَشْجَارِ، وَأَجْرِيَتْ فِي الْأَنْهَارِ وَسُكَّانِ الْأَرْضِ وَمَا دُكِّرَ، وَمَا أُرِيدُ ثَوَابًا وَلَا أَحْمِلُ فَرِيضَةً. وَقَالَتْ الْجِبَالُ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ إِنَّكُمْ كَانُمْ ظُلُومًا جَهُولًا﴾ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ. وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ. وَعَنْ ابْنِ أَسْوَعٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا عَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ حَمْلَ الْأَمَانَةِ، ضَخَّجْنَ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلِيَالِيهِنَّ، وَقُلْنَ: رَبَّنَا، لَا طَاقَةَ لَنَا بِالْعَمَلِ، وَلَا تُرِيدُ الثَّوَابَ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هَارُونَ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَبِي الزَّرْقَاءِ الْمَوْصِلِيِّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾، فَقَالَ الْإِنْسَانُ: بَيْنَ أذُنِي وَعَاتِقِي. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي مَعِينُكَ عَلَيْهَا، أَيُّ مَعِينُكَ عَلَى عَيْنَيْكَ بِطَبَقَتَيْنِ، فَإِذَا نَازَعَكَ إِلَى مَا أَكْرَهَ فَاطْبِقْ. وَمَعِينُكَ عَلَى لِسَانِكَ بِطَبَقَتَيْنِ، فَإِذَا نَازَعَكَ إِلَى مَا أَكْرَهَ فَاطْبِقْ. وَمَعِينُكَ عَلَى فَرْجِكَ بِبِلْبَاسٍ، فَلَا تَكْشِفْهُ إِلَى مَا أَكْرَهَ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي حَازِمٍ نَحْوَ هَذَا. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ فَأَيُّكُمْ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَرَضَ عَلَيْهِنَّ الْأَمَانَةَ أَنْ يَفْتَرَضَ عَلَيْهِنَّ الدِّينَ، وَيَجْعَلَ لَهُنَّ ثَوَابًا وَعِقَابًا، وَيَسْتَأْمِنُهُنَّ عَلَى الدِّينِ. فَقُلْنَ: لَا، نَحْنُ مَسْخَرَاتٌ لَأَمْرِكَ لَا تُرِيدُ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا. قَالَ: وَعَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: بَيْنَ أذُنِي وَعَاتِقِي. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: أَمَا إِذْ تَحَمَّلْتَ هَذَا فَسَأَعَيْنُكَ، أَجْعَلُ لِبَصْرِكَ حِجَابًا، فَإِذَا خَشِيتُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ فَأَزْخِ عَلَيْهِ حِجَابَهُ، وَأَجْعَلُ لِلسَّانِكِ بَابًا وَعَلَقًا، فَإِذَا خَشِيتُ فَأَغْلِقْ. وَأَجْعَلُ لِفَرْجِكَ لِبَاسًا فَلَا تَكْشِفْهُ إِلَّا عَلَى مَا أَحَلَّلْتُ لَكَ.

[٥٥٤٩] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو السُّكُونِيُّ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ، حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ الْحَكَمِ بْنِ عَمِيرٍ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «إِنْ الْأَمَانَةَ وَالْوَفَاءَ نَزَّلَا عَلَى آدَمَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَرْسَلُوا بِهِ. فَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ رَسُولٌ،

[٥٥٥٢] ومما يتعلّق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حُدَيْقَةَ رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ. ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ، فَقَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، فَتَقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَحْرَجَتْهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً^(١)» وليس فيه شيء. - قال: ثم أخذ حصي فدحرجه على رجليه. - قال: «فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَابِعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، حَتَّى يُقَالَ: إِنْ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلَدَهُ وَأَظْرَفَهُ وَأَعْقَلَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ، إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيرُدُّهُ عَلَيَّ دِينَهُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لِيرُدَّنِي عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا^(٢). وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، بِهِ.

[٥٥٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - قال: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا، حَفِظَ أَمَانَةً، وَصَدَّقَ حَدِيثًا، وَحَسَنَ خَلِيقَةً، وَعَقَّةَ طُعْمَةً^(٣)». هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

[٥٥٥٤] وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمرو بن الخطاب: حدثنا يحيى بن أيوب العلاف المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ابن حُجْبِرَةَ، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حَفِظَ أَمَانَةً، وَصَدَّقَ حَدِيثًا، وَحَسَنَ خَلِيقَةً، وَعَقَّةَ طُعْمَةً^(٤)». فزاد في الإسناد: «ابن حُجْبِرَةَ»، وجعله في مسند ابن عمرو. وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب «الزهد»: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق الشيباني، عن حُثَّاسِ بْنِ سُحَيْمٍ - أو قال: جَبَلَةَ بْنِ سُحَيْمٍ - قال: أقبلت مع زياد بن حُدَيْرٍ مِنَ الْجَابِيَةِ فَقَلْتُ فِي كَلَامِي: لَا وَالْأَمَانَةَ. فَجَعَلَ زِيَادٌ يَبْكِي وَيَبْكِي، فَظَنَنْتُ أَنِّي أَتَيْتُ أَمْرًا عَظِيمًا، فَقَلْتُ لَهُ: أَكَانَ يُكْرَهُ هَذَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَنْهَى عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَمَانَةِ أَشَدَّ النَّهْيِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ مَرْفُوعٌ.

[٥٥٥٥] قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائي،

(١) الوكت: الأثر السير في الشيء. - المجل: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل. ومتبراً: متوزماً.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٩٧ و٧٠٧٦ ومسلم ١٤٣ والترمذي ٢١٧٩ وابن ماجه ٢٠٥٣ وأحمد ٣٨٣/٥ وابن حبان ٦٧٦٢ والبيهقي ١٠/١٢٢.

(٣) ضعيف، أخرجه أحمد ١٧٧/٢ ح ٦٦١٤. له علتان: ضعف ابن لهيعة، والانقطاع بين الحارث بن يزيد وعبد الله بن عمرو بن العاص. ووصله الطبراني كما سيذكر المصنف فجعل بينهما واسطة، فزال علة منهما، لكن خلط فيه ابن لهيعة فجعله من حديث ابن عمر، مع أن إسناده مصري، ثم إن المتن منكر. ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١٨١٢٣: رواه أحمد والطبراني، وإسنادهما حسن!

(٤) تقدم أن صوابه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه أقام في مصر، وأكثر عنه المصريون، وأما ابن عمر، فروى عنه أهل المدينة. وبكل حال مداره على ابن لهيعة، وهو ضعيف.

عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مَثًا»^(١)، تفرَّد به أبو داودَ، رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، أي: إنما حَمَلَ ابنُ آدمِ الأمانةَ وهي التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يُظهرون الإيمانَ خوفاً من أهله ويُبطئون الكفرَ متابعَةً لأهله، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ومخالفة رُسُلِهِ، ﴿وَيَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ العاملين بطاعته، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظُومًا رَجِيمًا﴾.

آخر تفسير سورة الأحزاب، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه أبو داود ٣٢٥٣ وأحمد ٣٥٢/٥ وإسناده حسن، وله شواهد. انظر «الصحيحة» ٩٤.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المُنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصاص: ٧٠]. ولهذا قال تعالى ما هنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: الجميع ملكه وعبيده، وتحت قهره وتصرفه، كما قال: ﴿وَرَبَّنَا لَنَا لِكَفْرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣].

ثم قال - عز وجل -: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فهو المعبود أبدأ، المحمود على طول المدى. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾، أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. وقال مالك عن الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره. ولهذا قال - عز وجل -: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبدور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك، عدده وكيفيته وصفاته، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: من قطر وريق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾، أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِي الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث اللاتي لا رابع لهن، مما أمر الله رسوله - ﷺ - أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فأحدها في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَسْتَفِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦٠﴾﴾، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴿٧﴾. والثالثة في التغابن: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْتَمَدَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْتَمَدُنَّ ثُمَّ لَتُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾. فقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويفرره فقال: ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. وقال مجاهد وقناة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، لا يغيب عنه. أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن ثلاثت وتفرقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَمْ يُغَيِّرْ رِزْقَهُمْ كَرِيمٌ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾، أي: سَعَوْا في الصدء عن سبيل الله وتكذيب رُسُلِهِ، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغَيِّرْ رِزْقَهُمْ كَرِيمٌ﴾، أي: لَيَنْتَعَم السعداء من المؤمنين، وَيُعَذَّب الأشقياء من الكافرين، كما قال - عز وجل - : ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْمَىٰ النَّارِ وَأَعْمَىٰ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلُوا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾، هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها. وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كُتُبِ الله في الدنيا راوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿أَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الاعراف: ٤٣]، ويقال أيضاً: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَيْتِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَيْتِ﴾ [السرور: ٥٦]. ﴿وَرَبِّي الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلُوا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾﴾، العزيز الحميد الذي لا يغالب ولا يُمانع، بل قد فُهِر كل شيء، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعيه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَرْجٍ إِنَّكُمْ لَعِنَىٰ حَقِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول - ﷺ - في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَرْجٍ﴾، أي: تفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت فيها كل مذهب، وتمزقت كل ممزق: ﴿إِنَّكُمْ﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿لَعِنَىٰ حَقِيدٍ﴾، أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك! وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين، إما أن يكون قد تعدد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون. ولهذا قالوا: ﴿أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟﴾ قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد - ﷺ - هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾، أي: الكفر المُفْضِي بهم إلى عذاب الله تعالى، ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا.

ثم قال منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلَقَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، أي: حيثما تَوَجَّهوا وَذَهَبُوا فالسماة مُظَلَّة لهم مُظَلَّلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمَانٍ وَاِنَّا لَمُؤَيَّدُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَيَوْمَ الْمُنْهَدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٨].

قال عَبْدُ بَن حُمَيْدٍ: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِنْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَيِّفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمُ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: لو شئنا لنعلمنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عِبَرٍ مُّبِينٍ﴾، قال معمر، عن قتادة: ﴿مُنِيبٌ﴾ نائب. وقال سفيان عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله - عز وجل -. أي: إن في النظر إلى خلقي السماء والأرض لدلالة لكل عبد قَظِنٍ لبيب رَجَّاعٍ إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها وأتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ ﴿٨١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِيءُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّدِ وَأَعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يُخْبِرُ تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود - صلوات الله وسلامه عليه - مما آتاه من الفضل المُبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذَوِي العَدَدِ والعُدَدِ، وما أعطاه ومَنَحَه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سَبَّحَ به تُسَبَّحَ معه الجبالُ الراسياتُ، الصمُّ الشامخاتُ، وتَقِفُ له الطيورُ السارحاتُ، والغاياتُ والرائحاتُ، وتجاوبه بأنواع اللغات.

[٥٥٥٦] وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - سَمِعَ صوتَ أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: «لقد أوتي هذا مِرْمَارًا من مزامر آل داود»^(١). وقال أبو عثمان التُّهَدي: ما سمعت صوتَ صَنْجٍ^(٢) ولا بَرَبِيطٍ ولا وَتَرٍ أَحْسَنَ من صوتِ أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -. ومعنى قوله: ﴿أَوِي﴾، أي: سَبَّحِي. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد. وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سَبَّحِي بلسان الحبشة. وفي هذا نظرٌ، فإن التَّأوِيبَ في اللغة هو التَّرجيعُ، فأمرت الجبالُ والطيورُ أن تُرْجَعَ معه بأصواتها.

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه «الجمل» في باب النداء منه: ﴿يَجِيءُ أَوِي مَعَهُ﴾، أي: يسيّرني معه بالنهار كلُّه، والتَّأوِيبُ: سيْرُ النهارِ كلُّه، والإِسَادُ: سيْرُ الليلِ كلُّه. وهذا لفظه، وهو غريبٌ جدًّا لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدةٌ من اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصوابُ أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوِي مَعَهُ﴾، أي: رَجَعِي مُسْتَبِحَةً معه، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾، قال الحسنُ البصري، وقاتدة، والأعمشُ وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله نارًا ولا يضره بمطرقة، بل كان يَقْتَلُهُ بيده مثل الخيوط، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِ﴾، وهي

(١) تقدم في تفسير سورة الأنبياء عند آية: ٧٩.

(٢) الصنج: صفيحة مدورة من صُفْرِ يُضْرَبُ بها على أخرى مثلها؛ والبريط: العود (وهما من آلات الموسيقى).

الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الحلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن سماعه، حدثنا ابن ضمرة، عن ابن شاذب قال: كان داود - عليه السلام - يزق في كل يوم درعاً فيبيعهما بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف يزهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري. ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، هذا إرشاد من الله لنبيه داود - عليه السلام - في تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾: لا تدق المسمار فيلق في الحلق، ولا تغلظه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال الحكم بن عتيبة: لا تغلظه فيفصم، ولا تدقه فيلق. وهكذا روي عن قتادة، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد: حلق الحديد. وقال بعضهم: يقال: ذرع مسرودة: إذا كانت مسرودة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ، أَوْ صَنَعُ السُّوَابِغِ تُبَعُّ

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود - عليه السلام - من طريق إسحاق بن بشر - وفيه كلام - عن أبي إلياس، عن وهب بن منبه ما مضمونه: أن داود - عليه السلام - كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله - صلوات الله وسلامه عليه - قال وهب: حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل، فلقبه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً. قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين. يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود - عليه السلام - إلى ربه في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله، فالأن له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدرع، وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾، يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله ذرعاً باعها، فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابيط والصنوج إلا على أصناف صوته. وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطي سبعين زمزماً في حلقه. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾، أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، ﴿إِنِّي يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء.

﴿وَلِسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحِهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لِمَ عَيْنَ القَطْرِ وَمِنَ الجِنَّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مَنَّهُمْ عَن أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢) ﴿يَعْمَلُونَ لِمَ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَّجِيفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِن عِبَادِي الشُّكُورُ﴾ (١٣)

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان بن داود من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها، ويذهب راتحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لِمَ عَيْنَ القَطْرِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، وقاتدة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد: القطر التحاس.

قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام. قال السدي: وإنما أُسبِلَتْ له ثلاثة أيام. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَمْعَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُأْذِنُ لِمَن يَشَاءُ﴾، أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره، وتسخيرهم لهم بمشيئته ما يشاء من البنائيات وغير ذلك. ﴿وَمِنَ بَرِيءٍ مِّنْهُمْ عَن شَرِّهَا﴾، أي: ومن يعيدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نَذِقَهُ مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، وهو الحريق.

[٥٥٥٧] وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، عن أبي ثعلبة الخشني: أن رسول الله - ﷺ - قال: «الجن على ثلاثة أصناف: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون»^(١). رفعه غريب جداً. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا خزيملة، حدثنا ابن وهب، أخبرني بكر بن مضر، عن محمد بن يحيى، عن ابن أنعم أنه قال: الجن ثلاثة: صنف لهم الثواب وعليهم العقاب، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنف حيات وكلاب. قال بكر بن مضر: ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنس ثلاثة: صنف يُظَلِّمُهم الله بظلم عرشه يوم القيامة، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا سلمة - يعني ابن الفضل - عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

وقوله تعالى: ﴿يَمْلِكُونَ لَكُمْ مَّا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْثِيْلٍ﴾، أما المحارِب فيهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدوره. وقال مجاهد: المحارِب ببيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي القصور والمساجد. وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطية العوفي، والضحاك والسدي: التماثيل، الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين ومن زجاج. وقوله تعالى: ﴿وَجَفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾، الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجسى فيه الماء، كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تَرُوحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ^(٢)

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (كالجواب)، أي: كالجوية من الأرض. وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتادة، والضحاك وغيرهم. والقُدُورُ الراسيات: أي الثابتات في أماكنها، لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمتها. كذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما. وقال عكرمة: أثارها منها. وقوله: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدنيا

(١) ضعيف جداً، أخرجه الحاكم ٥٥٦/٢ والطبراني كما في «المجمع» ١٣٣٨٦ وأبو نعيم ١٣٧/٥ والخراطي في «هواتف الجان» (٢)، ورجاله ثقات رجال مسلم سوى عبد الله بن صالح، جاء في «الميزان» ما ملخصه: قال أحمد: كان أول أمره متمسكاً، ثم فسد. وقال أبو حاتم: أخرج أحاديث في آخر عمره أنكروها عليه تُرى أنها مما افتعل خالد بن نجيح، وكان أبو صالح يصحبه، وقال صالح جزرة: كان ابن معين يوثقه، وهو عندي يكذب في الحديث. وقال ابن خزيمة: كان له جار يضع الحديث على شيخ أبي صالح، ويكتبه بخطه يشبه خط أبي صالح، ويرميه في داره، فيظن أنه خطه فيحدث به اهـ ٤٣٨٣. ومع ذلك، صححه الحاكم! وواقفه الذهبي! وقال الهيثمي: رجاله وثقوا، وفي بعضهم خلاف.

(٢) الجفنة: القصعة. وتفهق: تنصب من الامتلاء.

والدين. وشكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أَفَادَتْكُمْ السُّعْمَاءُ مَنِي ثَلَاثَةَ: يَدِي، وَلِسَانِي، وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبِ

قال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكرٌ، والصيام شكرٌ، وكلٌ خير تعمه له شكر. وأفضلُ الشكرِ الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابنُ أبي حاتم، عن محمد بن كعب القُرظي قال: الشكر تقوى الله والعملُ الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود - عليه السلام - كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر - يعني ابن سليمان - عن ثابت البناني قال: كان داود - عليه السلام - قد جَزَأَ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسانٌ من آل داود قائم يصلي، فَعَمَرْتَهُمْ هذه الآية: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

[٥٥٥٨] وفي الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إن أحبَّ الصلاة إلى الله تعالى صلاةُ داودَ، كان ينأَمُ نصف الليل، ويقومُ ثلثه، وينامُ سُدُسُه، وأحبَّ الصيامِ إلى الله تعالى صيامُ داودَ، كان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً. ولا يقرُّ إذا لاقى»^(١).

[٥٥٥٩] وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سنيد بن داود، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بُتَي، لا تُكثِرِ النومَ بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن داود - عليه السلام - هاهنا أثرًا غريباً مطولاً جداً، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى، حدثنا أبو يزيد فيض بن إسحاق الرقي قال: قال فضيل في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين قلت: إن النعمة مني». وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾، إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان - عليه السلام - وكيف عمى الله موته على الجنِّ المسخرين له في

(١) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ٥١.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه ابن ماجه ١٣٣٢ والبيهقي ٤٧٤٦ «شعب»، وابن الجوزي في «الموضوعات» ٦٨/٣ وابن حبان في «المجروحين» ١٣٦/٣، وقال ابن الجوزي - رحمه الله -: لا يصح، ويوسف - بن محمد - لا يتابع على حديثه، قال الدارقطني: يوسف ضعيف، وقال ابن حماد: متروك اهـ وله علة ثانية: وهي ضعف سنيد بن داود. وقد أحله البوصيري في الزوائد بسنيد ويوسف جميعاً، وقال: هما ضعيفان اهـ وخالف السيوطي ابن الجوزي في «اللآلئ» ٣١/٢ فذهب إلى أن الحديث ضعيف فحسب، وليس بموضوع. والذي قاله السيوطي فيه نظر، فقد أخرجه العقيلي من وجه آخر ٤٥٦/٤ عن محمد بن المنكدر، قال: «قالت أم سليمان...» وكرره من طريق آخر عن ربيعة بن زيد من قوله أيضاً، فالوهم في رفعه إما من يوسف، أو من سنيد، والله أعلم، والذي اختاره ابن حبان هو أن الحمل فيه على يوسف حيث قال: يروي عن أبيه ما ليس من حديثه، من المناكير التي لا يشك عوام أصحاب الحديث أنها مقلوبة.

الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكناً على عصاه - وهي منسأته، كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض - وهي الأرضة - ضَعَفَتْ وسقط إلى الأرض، وعُلِمَ أنه قد كان مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبيّنت الجنُّ والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد وَرَدَ في ذلك حديثٌ مرفوعٌ غريبٌ، وفي صحّته نظر.

[٥٥٦٠] قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «كان سليمان نبي الله - عليه السلام - إذا صَلَّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس عُرسَتْ، وإن كانت لدواء كُيِّتَتْ». فبينما هو يُصَلِّي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخُرُوبُ. قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم، عمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون الغيب. فَنَحَتْهَا عَصاً، فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا حَوْلًا مَيْتًا، والجن تعمل، فأكلتها الأرضة، فَتَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنْ الْجِنُّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَيْثُوا حَوْلًا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ. قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك. قال: فشكرت الجنُّ للأرضة فكانت تأنيها بالماء^(١). وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طهمان، به. وفي رَفِيعِهِ غَرَابَةٌ وَنَكَارَةٌ، والأقرب أن يكون موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات، وفي بعض حديثه نَكَارَةٌ.

وقال السدي في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس. وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - قال: كان سليمان يَتَحَرَّدُ^(٢) في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يُدْخِلُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فِدْخَلُهُ فِي الْمِرَّةِ الَّتِي تُؤْفَى فِيهَا. وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوماً يصبح فيه إلا تَبَّتْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ شَجَرَةٌ، فَيَأْتِيهَا فَيَسْأَلُهَا: مَا اسْمُكَ؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس عُرسَهَا، وإن كانت تَبَّتْ دَوَاءً لِكَذَا وَكَذَا، فَيَجْعَلُهَا كَذَلِكَ، حَتَّى تَبَّتْ شَجَرَةٌ يُقَالُ لَهَا: الْخُرُوبَةُ، فَيَسْأَلُهَا: مَا اسْمُكَ؟ فقالت: أنا الخُرُوبَةُ. قال: ولأي شيء تَبَّتْ؟ قالت: تَبَّتْ لِخَرَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ؟ قال سليمان: ما كان الله لِيُخْرِبَهُ وَأَنَا حَيٌّ؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فَتَزَعُّهَا وَغَرَسَهَا فِي حَائِطِ لَهُ، ثُمَّ دَخَلَ الْمِحْرَابَ فَقَامَ يُصَلِّي مُتَّكِنًا عَلَى عَصَاهُ، فَمَاتَ وَلَا تَعْلَمُ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْمَلُونَ لَهُ، يَخَافُونَ أَنْ يَخْرُجَ فَيَعَاقِبَهُمْ. وكانت الشَّيَاطِينُ تَجْتَمِعُ حَوْلَ الْمِحْرَابِ، وَكَانَ الْمِحْرَابُ لَهُ كَوِيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَخَلْفَهُ، فَكَانَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَخْلَعَ يَقُولُ: أَلَسْتُ جَلْدًا إِنْ دَخَلْتُ فَخَرَجْتُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ؟ فَيَدْخُلُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَيَدْخُلُ شَيْطَانٌ مِنْ أَوْلَئِكَ فَمَرَّ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْطَانٌ يَنْظُرُ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي الْمِحْرَابِ إِلَّا احْتَرَقَ. فَمَرَّ وَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ سُلَيْمَانَ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَمْ يَسْمَعْ، ثُمَّ رَجَعَ فَوَقَعَ فِي الْبَيْتِ وَلَمْ يَحْتَرَقْ. وَنَظَرَ إِلَى سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

(١) الصواب موقوف. أخرجه الطبري ٢٨٧٧٧، وهو ضعيف، فيه عطاء بن السائب، صدوق إلا أنه اختلط بأخزة. وقد وهم في هذا الحديث رفعه، والصواب موقوف على ابن عباس كما رواه الطبري ٢٨٧٧٨ وعن ابن مسعود موقوفاً عليهما. وهو الصواب، وللحديث المرفوع علة أخرى، موسى بن مسعود، وإن روى له البخاري فقد تكلم فيه أحمد، وضعفه الترمذي، وقال الفلاس: لا يحدّث عنه من يبصر الحديث. وقال بندار: ضعيف. وقال أبو حاتم: صدوق. وقال أحمد: هو من أهل الصدق اهـ الميزان ٨٩٢٣، وانظر ما بعده.

(٢) متحرّد: معتزل ومتنحّ.

قد سقط ميتاً. فَخَرَجَ فَأَخْبَرَ النَّاسَ أَنْ سُلَيْمَانَ قَدْ مَاتَ. فَفَتَحُوا عَنْهُ فَأَخْرَجُوهُ. وَوَجَدُوا مِنْسَاتَهُ - وهي العَصَا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضُ، ولم يعلموا منذ كم مات؟ فوضِعوا الأرضَ على العصا، فأكلت منها يوماً وليلاً، ثم حَسَبُوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سَنَةٍ. وهي في قراءة ابن مسعود: «فَمَكَثُوا يَدُوبُونَ لَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ حَوْلًا» فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يَكْذِبُونَ نَهْمَ ولو أنهم عَلِمُوا الغيب لَعَلِمُوا بِمَوْتِ سُلَيْمَانَ ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة، وذلك قولُ الله - عَزَّ وَجَلَّ -: «مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِي إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ»، يقول: تَبَيَّنَ أمرهم للناس أنهم كانوا يَكْذِبُونَ نَهْمَ. ثم إن الشياطين قالوا للأرضِ: لو كُنْتَ تَأْكُلِينَ الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقلُ إليك الماء والطين. قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت، قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جُوفِ الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطينُ تَشْكُرُ لها. وهذا الأثر، والله أعلم، إنما هو مما تُلقِي من علماء أهل الكتاب، وهي وَفَقَ لَا يُصَدِّقُ مِنْهَا إِلَّا مَا وَافَقَ الْحَقَّ، وَلَا يُكْذِبُ مِنْهَا إِلَّا مَا خَالَفَ الْحَقَّ، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال ابنُ وهب وأصْبَغُ بنُ الفَرَجِ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: «مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِي إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ»، قال: قال سُلَيْمَانُ - عليه السلام - لملك الموت: إذا أَمِرْتُ بي فأعلمني. فأتاه فقال: يا سليمان، قد أَمِرْتُ بِكَ، قد بَقِيْتُ لَكَ سُوَيْعَةً. فدعا الشياطين فَنَبَّأُوا عليه صراحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يُصَلِّي فاتكأ على عصاه، قال: فدخَلَ عليه مَلَكُ الموت، فقبضَ رُوحَهُ وهو متوكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت. قال: والجن تَعَمَلُ بين يديه وينظرون إليه، يحسبون أنه حي. قال: فبعث الله - عَزَّ وَجَلَّ - دابة الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان - يقال لها: القادح - فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوفَ العصا ضَعُفَتْ، وَثَقُلَ عَلَيْهَا فَخَرَّ مَيْتًا، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا، قال: فذلك قوله: «مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِي إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ». قال أصْبَغُ: بلغني عن غيره أنها أقامت سنة تأكل منها قبل أن يَخْرُ. وقد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ نَحْوًا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَقْلٍ وَشَعِثٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التباينة منهم، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم، وكانوا في نعمة وغبطة من بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله تعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والفرق في البلاد أيدي سبأ، شَدَّرَ مَذْرَ كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

[٥٥٦١] قال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن وعلجة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ - عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، ولقد عَشْرَةٌ، فَسَكَنَ الْيَمْنَ سَنَةً، وبالشام منهم أربعة، فاما اليمانيون فَمَدْحِجٌ وَكِنْدَةٌ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وجمير. وأما الشامية فَلَخْمٌ، وَجُدَامٌ، وَغَامِلَةٌ،

وَعَسَّانُ^(١). ورواه عبد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به. وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الْقَضْدُ وَالْأَثْمُ»، بمعرفة أُسُولِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعلّة، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقد روى نحوه من وجه آخر.

[٥٥٦٢] وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَابِ يحيى بن أبي حَيَّةِ الكلبي، عن يحيى بن هانيء بن عروة، عن قزوة بن مسيك قال: أتيت رسول الله - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مُدْبِرَهُمْ؟ قال: «نعم»، فقاتلت بمقبل قومك مُدْبِرَهُمْ». فلما وليت دعائي فقال: «لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام». قلت: يا رسول الله، أرايت سبأ أوايد هو أو رجل، أم ما هو؟ قال: «بل رجل من العرب، ولُدَّ له عَشْرَةٌ فِتْيَانَمَنْ سِتَّةٌ وَتِشَاءَمَنْ أَرْبَعَةٌ، تِيَامَنْ الْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُونَ، وَجَمِيْرٌ، وَكِنْدَةٌ، وَمَذْحِجٌ، وَأَنْمَارُ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ بَجِيلَةٌ، وَخَثْعَمٌ. وَتِشَاءَمَنْ لَخْمٌ، وَجُدَامٌ، وَعَامِلَةٌ، وَعَسَّانُ^(٢)». وهذا أيضاً إسنادٌ جَيِّدٌ وَإِنْ كَانَ فِيهِ أَبُو جَنَابِ الْكَلْبِيُّ، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ.

[٥٥٦٣] ولكن رواه ابن جرير عن أبي كزيب، عن العنقزي، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانيء المُرَادِي، عن عمه أو عن أبيه - يشك أسباط - قال: قدم قزوة بن مسيك على رسول الله ﷺ فذكره^(٣).

[٥٥٦٤] طريق أخرى لهذا الحديث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة، عن ثوبة بن نمر، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عبيدة بن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً: ما أظنُّ قوماً بأرض إلا وهم من أهلها. فقال علي بن رباح: كلاً، قد حدثني فلان أن قزوة بن مسيك العُطَيْفِيُّ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: «إِنْ سَبَا قَوْمٌ كَانَ لَهُمْ عِزٌّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَرْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ أَفَاقَاتِلُهُمْ فَقَالَ: «مَا أَمِرْتُ فِيهِمْ بِشَيْءٍ بَعْدَ». فَأَنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ» . . . الْآيَاتِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا سَبَا، فَذَكَرَ مَثَلَ حَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ: أَنْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - سُئِلَ عَنْ سَبَا: مَا هُوَ؟ أَبْلَدٌ، أَمْ رَجُلٌ، أَمْ امْرَأَةٌ؟ قَالَ: «بَلْ رَجُلٌ، وَلَدَ عَشْرَةَ فَتَيَانٍ يَسْكُنُ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَالشَّامَ أَرْبَعَةٌ، أَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ، وَكِنْدَةٌ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَجَمِيْرٌ غَيْرَ مَا حَلَّهَا. وَأَمَّا الشَّامُ فَلَخْمٌ، وَجُدَامٌ، وَعَسَّانُ^(٤)». فِيهِ غَرَابَةٌ مِنْ حَيْثُ ذَكَرَ الْآيَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَالسُّورَةَ مَكِّيَّةً كُلَّهَا، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٥٥٦٥] طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا أبو كزيب، حدثنا أبو أسامة، حدثني الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سبيرة النخعي، عن قزوة بن مسيك العُطَيْفِيُّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي: عَنْ سَبَا، مَا هُوَ؟ أَرْضٌ، أَمْ امْرَأَةٌ؟ قَالَ: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةً، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ، فَتِيَامَنْ سِتَّةٌ وَتِشَاءَمَنْ

(١) أخرجه أهد ٣١٦/١ وإسناده لا بأس به لأنه من رواية أبي عبد الرحمن أحد العبادة عن ابن لهيعة. وله طرق، وشواهد سيذكرها المصنف رحمه الله. وأخرجه الحاكم ٤/٤٢٣ من وجه آخر عن عبد الله بن هبيرة به وصححه ووافقه الذهبي، وفيه عبد الله بن عياش ضعفه أبو حاتم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف أبي جناب. وأخرجه الطبراني ١٨/٨٣٤ من طريق أبي جناب.

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٧٨٤ وإسناده ضعيف، يحيى بن هانيء وثقه ابن حبان وحده. وأخرجه الحاكم ٢/٤٢٤ من وجه آخر، وسكت عليه هو والذهبي.

(٤) إسناده ضعيف جداً. فيه ابن لهيعة ضعيف، وفيه راو لم يسم. وأخرجه الطبراني ١٨/٨٣٥ من وجه آخر عن البراء بن عبد الرحمن عن قزوة به.

أربعة، فأما الذين تشاءموا فلختم وجذام وعائلة وغسان وأما الذين تيامنوا فكندة، والأشعريون، والأزد، ومذحج، وحيمر، وأنمار. فقال رجل: ما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة»^(١). ورواه الترمذي في جامعه، عن أبي كريب وعبد بن حميد قالا: حدثنا أبو أسامة . . . فذكره أبسط من هذا، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب».

[٥٥٦٦] وقال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث ابن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري أن رجلاً أتى رسول الله - ﷺ - فسأله عن سبأ . . . فذكر مثله^(٢)، فقوي هذا الحديث وحسن. قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ عبد بن شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبى في العرب. وكان يقال له الرائش، لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسُمي الرائش، والعرب تسمى المال: ريشاً وريشاً. وذكروا أنه بشر برسول الله - ﷺ - في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سَيْمَلِكُ بَعْدَنَا مُلْكاً عَظِيماً	نَبِيٌّ لَا يُرَخَّصُ فِي الْحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ	يَدِينُونَ الْعِبَادَ بِغَيْرِ دَامٍ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِمَّا مُلُوكٌ	يَصِيرُ الْمُلْكُ فِينَا بِاِقْتِسَامٍ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ	تَقِيٌّ جَبِينُهُ خَيْرُ الْأَنَامِ
وَسُمِّيَ أَحْمَدُ يَا لَيْتَ أَنِي	أَعْمُرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامٍ
فَاعْضُدْهُ وَأَحْبُوه بِنَضْرِي	بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ زَامٍ
مَتَى يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِيه	وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَابِيه

ذكر ذلك الهمداني في كتاب «الإكليل». واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال، أحدها: أنه من سلالة إزم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق. والثاني: أنه من سلالة عابر، وهو هوذ عليه السلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. والثالث: أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر الثمري رحمه الله، في كتابه: «الإنباء على ذكر أصول القبائل الرواة».

ومعنى قوله عليه السلام: «كان رجلاً من العرب»، يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام، من سلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم.

[٥٥٦٧] وفي صحيح البخاري أن رسول الله - ﷺ - مرّ بنفر من «أسلم» ينتضلون، فقال: «ارموا بني

(١) أخرجه أبو داود ٣٩٨٨ والترمذي ٣٢٢٢ وابن سعد في «الطبقات» ٣٨/١ - ٣٩ والطبري ٢٨٧٨٣ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب اهـ وإسناده حسن في الشواهد، أبو سيرة مقبول لكن للحديث طرق. وانظر صحيح أبي داود ٣٣٧٣.

(٢) حديث حسن بطرقه وشواهد. وحسنه ابن عبد البر في «الاستيعاب» ١٢٦١/٣ وابن كثير وغيرهما لكن من حديث فروة بن مسيك.

إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً^(١). فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ - نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله - عز وجل - عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غسان، بقاء نزلوا عليه قبيل: باليمن، وقيل: إنه قريب من المُشَلَّل، كما قال حسان بن ثابت:

إِنَّمَا سَأَلْتَ فَلِئِنَّمَا مَغَشَّرَ نُجُوبَ الْأَزْدِ نَسَبَيْنَا، وَالْمَاءَ غَسَّانُ

ومعنى قوله: «وَلَدَ عَشْرَةَ مِنَ الْعَرَبِ»، أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب. ومعنى قوله: «فَتِيَامَنُ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ»، أي: بعد ما أرسل عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نَزَحَ عنها إلى غيرها. وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام، فبنوا بينهما سدّاً عظيماً مُحَكِّمًا حتى ارتفع الماء، وحكّم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن. كما ذكره غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مِكْتَلٌ أو زَنْبِيلٌ، وهو الذي تُخْتَرَفُ فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يُحْتَاجَ إلى كَلْفَةٍ ولا قَطَافٍ، لكثرتِه ونضجِه واستوائِه. وكان هذا السدُّ بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاثٌ مراحل، ويعرف بسدِّ مأرب. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيءٌ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيءٌ من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ»، ثم فسرها بقوله: «جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ»، أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ»، أي: غفور لكم إن استمرزتم على التوحيد.

وقوله تعالى: «فَأَعْرَضُوا»، أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال مُذَهَّبٌ سَلِيمَانُ: «وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ» (٢٢) «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عُرِضَ عَظِيمٌ» (٢٣) «وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ الْكَيْبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ» (٢٤) [النمل: ٢٢ - ٢٤]. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبّه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً. وقال السدي: أرسل الله - عز وجل - إليهم اثني عشر ألف نبياً. فإله أعلم.

وقوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ»، قيل: المراد بالعرم المياة. وقيل: الوادي. وقيل: الجرد. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «مسجد الجامع» و«سعيد كرز»، حكى ذلك السهيلي. وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبّه، وقتادة، والضحاك، أن الله - عز وجل - لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابةً من الأرض، يقال لها «الجردة» نقبتُه، قال وهب بن منبّه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرد فكانوا يرصدون عنده السنائر برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنائر، وولجت إلى السد فنقبتُه، فانهار عليهم. وقال قتادة وغيره: الجرد: هو الخلد، نقبت أسافله حتى إذا ضعفت وهمت، وجاءت أيام السيول، صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن

الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، قَبِيَسَتْ وتحطّمت، وتبدّلت تلك الأشجارُ المشيرةُ الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن، وقتادة، والسدي: هو الأراك، وأكله البربر. ﴿وَأَثَلٍ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطّرفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السمُر. فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَشَقِوْا مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، لما كان أجود هذه الأشجار المُبدلُ بها هو السدْرُ قال: ﴿وَتَقِوْا مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تينك الجنة إلى، بعد الشمار النَّضِيحَة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدّلت إلى شجر الأراك والطّرفاء والسدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحقّ وعدولهم عنه إلى الباطل. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَكْفُرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾ (١٧)؟ أي: عاقبتهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يُعاقَب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم: لا يُعاقَب بمثل فعله إلا الكفور. وقال طاوس: لا يُناقَش إلا الكفور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمير بن النحاس الرّملي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح الثعلبي، عن ابن خزيمة - وكان من أصحاب علي، - رضي الله عنه - قال: جزاء المَعْصِيَةِ الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادق لذةً خلافاً إلا جاءه من يَنْغُصُه إياها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيْالِيًا وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (١٨) فقالوا ربنا بُعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومرقنهم كل مرقق إن في ذلك لآية لكل صبار شكور ﴿١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغيبة والثعنة، والعيش الهنيئ الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمر، ويقبل في قرية ويبعث في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، قال وهب بن مثنبه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك. وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: يعني قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقال العوفي، عن ابن عباس، القرى التي باركنا فيها بيت المقدس. وقال العوفي، عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام. ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾، أي: بيئنة واضحة، يعرفها المسافرون، يقبلون في واحدة ويبعثون في أخرى. ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سَيْرُوا فِيهَا لَيْالِيًا وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ - وقرأ آخرون: «بعُد بين أسفارنا»، وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد - وأحبوا مفاوزَ ومهابة يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يُخرج الله لهم مما تُنبِت الأرض، من بقلها وقثائها وقومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنْ وسلوى وما يشتهون من مأكَل ومشارب وملابس مرتفعة، ولهذا قال لهم: ﴿أَسْتَبِيرُكَ الَّذِي هُوَ أَدْفَكَ بِاللَّيْلِ هُوَ حَيْزٌ

أَهْلُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِّتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالسُّكْنَةُ وَبَاءُوا بِبَعْضِ مِيثَاقِ اللَّهِ ﴿١٨﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَيْعَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ آيَةً مَآئِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل: ١١٢]. وقال في حق هؤلاء: ﴿وَوَلَّكُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَمَهُمْ كُلَّ مَرْقَمٍ﴾، أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خببرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ما هنا وما هنا. ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: «تفرقوا أيدي سبأ» و«أيادي سبأ» و«تفرق شذر مذر».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سمعت عكرمة بحدث بحديث أهل سبأ، قال: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ» إلى قوله: «فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ»: وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال، وإنه خبير أن زوال أمرهم قد دنا، وأن العذاب قد أظلمهم. فلم يدر كيف يصنع، لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيه، وهو أعزهم أخوالاً: إذا كان غداً وأمرك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتك فانتهرني، فإذا تناولتك فالطمني. فقال: يا أبت، لا تفعل، إن هذا أمر عظيم، وأمر شديد. قال: يا بني، حدث أمر لا بد منه. فلم يزل به حتى واتاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمع الناس، قال: يا بني، افعل كذا وكذا. فأبى، فانتهره أبوه، فأجابته، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه، فوثب على أبيه فلطمه، فقال: ابني يطمني؟! علي بالسفرة. قالوا: وما تصنع بالسفرة؟ قال: أذبحه. قالوا: تريد أن تذبح ابنك؟! لطمه أو اصنع ما بدا لك، قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: أخذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبحه. قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي. فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره، فلما صار الثمن في يده وأحزره، قال: أي قوم، إن العذاب قد أظلمكم، وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم داراً جديداً، وجمي شديداً، وسقراً بعيداً، فليلحق بعمان. ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير وكلمة - قال إبراهيم: لم أحفظها - فليلحق ببصرى، ومن أراد الراسخات في الوخل، المطاعم في المخل، المقيمات في الضخل، فليلحق بيثرب ذات نخل. فأطاعه قومه، فخرج أهل عمان إلى عمان. وخرجت عسان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل، قال: فأتوا على بطن مرق قال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا نبغي به بدلاً. فأقاموا به، فسموا لذلك خزاعة، لأنهم انزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عمان إلى عمان، وتوجهت عسان إلى بصرى. هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن، بسبب استنصاره بإرسال العرم عليهم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثني أبو زيد الأنصاري - أنه رأى جرداً يحفر في سد مارب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على الثقلة عن اليمن، وكاد قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم

وجهي فيها أصغرُ ولدي. وعَرَضَ أمواله، فقال أشرفُ من أشرف اليمن: اغتصموا غَضْبَةَ عمرو. فاشترؤا منه أمواله، وانتقل هو في ولده وولَدِ ولده. وقال الأزْد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم وخرجوا معه، فساروا حتى نزلوا بلاد «عَك» مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عَك، وكانت حربهم سبجالاً. ففي ذلك يقول عَبَّاس بن مرداس السَلَمي رضي الله عنه:

وَعَكَ بَنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا بِغَسَّانَ، حَتَّى طُرِّدُوا كُلُّ مَطْرِدِ

وهذا البيت من قصيدة له. قال: ثم ارتحلوا عنهم ففترقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مَرَأ. ونزلت أزدُ السراة السراة، ونزلت أزدُ عُمان عُمان: ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله - عزَّ وجلَّ - هذه الآيات. وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق، إلا أنه قال: «فأمر ابن أخيه»، مكان «ابنه»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، ففترقوا». رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حَمِيد، أخبرنا سَلَمَةُ، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر وهو عمُ القوم، كان كاهناً، فرأى في كهنته أن قومه سَيَمَزُقُونَ وَيُبَاعِدُ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ. فقال لهم: إني قد علمتُ أنكم سَيَمَزُقُونَ، فمن كان منكم ذا هَمٍّ بعيدٍ وَجَمَلٍ شديدٍ، وَمَزَادٍ جَدِيدٍ فَلْيَلْحَقْ بِكَاسٍ أَوْ كِرودٍ. قال: فكانت وادِعَةً بن عمرو. ومن كان منكم ذا هَمٍّ مُذِنٍ، وَأَمْرٍ دَعْنٍ، فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِ شَنْ. فكانت عوفُ بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يُريدُ عيشاً آتياً، وَحَرَمًا آمناً، فَلْيَلْحَقْ بِالْأَرزِينَ. فكانت خُزاعة. ومن كان منكم يريدُ الراسيات في الوحل، المطعمات في المَحَلِّ، فَلْيَلْحَقْ بِثَرِبِ ذَاتِ النَّخْلِ. فكانت الأوس والخزرجُ، وهما هذان الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريدُ حَمِراً وَخَميراً، وَذَهَباً وَحَريراً، وَمُلْكاً وَتَأميراً، فَلْيَلْحَقْ بِكُوْتَى وَبُصْرَى، فكانت غَسَّانُ بنو جَفنة ملوكُ الشام، ومن كان منهم بالعراق. قال ابن إسحاق: وقد سمعتُ بعضَ أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهنتها ذلك، فالله أعلم أيُّ ذلك كان. وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غَسَّانُ فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا ببهامة، وأما الأزْد فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل مُمزَّقٍ. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشى -

أعشى بني قيس بن ثعلبة - واسمه: ميمون بن قيس:

وَمَآرِبَ عَفَى عَلَيْهَا الْقَرَمُ وَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِي أَسْوَةٌ
إِذَا جَاءَ مَآوَاهُ لِمَ يَرْمُ رُخَامَ بَنَاتِهِ لَهُمْ جَمِيْرٌ
عَلَى سَعَةِ مَآوَاهُمْ إِذْ قُسِمَ فَأَزْوَى الزُّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا
نَ مِنْهُ عَلَى شَرْبِ طِفْلِ قُطْمِ فَصَارُوا أَيَادِي مَا يَفْتَدِرُو

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النِّقمة والعذاب، وتبديل النِّعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبوها من الكفر والآثام - لعبرة وذلالة لكلِّ عبدٍ صَبَّارٍ على المصائب، شكور على النعم.

[٥٥٦٨] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني، قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العيزار بن حُرَيْث، عن عَمْرٍ بن سعد، عن أبيه - هو سَعْدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمَدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمَدَ

رَبِّهِ وَصَبْرٍ، يُؤَجِّرُ الْمُؤْمِنَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ أَمْرَاتِهِ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبْيَعِيِّ، بِهِ - وَهُوَ حَدِيثٌ عَزِيزٌ - مِنْ رِوَايَةِ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ.

[٥٥٦٩] وَلَكِنْ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ! لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ^(٢)». قَالَ عَبْدُ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ شَيْبَانَ، عَنْ قَتَادَةَ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيِّنَ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، قَالَ: كَانَ مُطَّرَفٌ يَقُولُ: نَعَمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشَّكُورُ، الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٢١﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ سَبَأَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانَ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالِهِمْ مَنْ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَى، وَخَالَفَ الرَّشَادَ وَالْهُدَى، فَقَالَ: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هَذِهِ آيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ، ثُمَّ قَالَ: «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَمَّا أَخَّرْتَنِي إِنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَخْسَبُكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» [الإسراء: ٦٢]، وَقَالَ: «ثُمَّ لَأَيِّنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمَنْ أَيْمَنُهُمْ وَمَنْ شَمَالُهُمْ وَلَا تَحُدُّ عَنْهُمْ شِكَايَتُكَ ﴿١٧﴾» [الأعراف: ١٧]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَعَهُ حَوَاءُ، هَبَطَ إِبْلِيسُ فَرَحًا بِمَا أَصَابَ مِنْهُمَا، وَقَالَ: «إِذَا أَصَبْتَ مِنَ الْبُؤْسِ مَا أَصَبْتُ، فَالذُّرِّيَّةُ أضعفُ وَأضعفُ». وَكَانَ ذَلِكَ ظَنًّا مِنْ إِبْلِيسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾»، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ إِبْلِيسُ: «لَا أَفَارِقُ ابْنَ آدَمَ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ، أَعْرُهُ وَأَمْتِيهِ وَأَخْدَعُهُ». فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَحْجُبُ عَنْهُ التَّوْبَةَ مَا لَمْ يَغْرُغِرْ بِالْمَوْتِ، وَلَا يَدْعُونِي إِلَّا أَجَبْتَهُ، وَلَا يَسْأَلُنِي إِلَّا أَعْطَيْتَهُ، وَلَا يَسْتَغْفِرُنِي إِلَّا غَفَرْتُ لَهُ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ مِنْ حُجَّةٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَاللَّهُ مَا ضَرَبَهُمْ بَعْضًا، وَلَا أَكْرَهُهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَمَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَأَمَانِي دَعَاهُمْ إِلَيْهَا فَأَجَابُوهُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾»، أَيُّ: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ لِيُظْهِرَ أَمْرًا مِنْهُ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَقِيَامِهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ، فَيُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾»، أَيُّ: وَمَعَ جَفِيفُهُ ضَلَّ مِنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ، وَبِحَفِيفِهِ وَكَلَامَتِهِ سَلِمَ مِنْ سَلَمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرَّسْلِ.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْكُمْ شَيْئًا وَلَا يَسْتَمْتُونَ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَيْءٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهْرِ ٱلْأَرْضِ وَلَا نَفْعٌ لَكُمْ مِنْهُ إِذَا قُرِئَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾﴾

يُبَيِّنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ، الْفَرْدَ الصَّمَدَ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ هُوَ

(١) صحيح. أخرجه النسائي في «اليوم واللييلة» ١٠٧٥ وأحمد ١٧٧/١ و١٧٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٠٩/٧ وقال: رواه أحمد بأسانيد، ورجالها كلها رجال الصحيح. وهو كما قال.

(٢) تقدم ترجمته، رواه الشيخان.

المستقل بالأمر وخذة، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا دُونَ مَا يَدْعُونَ﴾ [فاطر: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكَ﴾، أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْهُنَّ مِن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه. قال قتادة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْهُنَّ مِن ظَهِيرٍ﴾، من عون يعينه بشيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾، أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجتريء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَرَّمْنَا مَلَكِي فِي السَّمَوَاتِ لَا تَقْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَرَضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن آذَنَ لَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

[٥٥٧٠] ولهذا ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»^(١)... الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾. وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، فسمع أهل السموات كلامه أزعجوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل العشي، قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما. فإذا فزع عن قلوبهم، أي: زال الفزع عنها، قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السلمى، والشعبي، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والحسن، وقاتدة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: جلي عن قلوبهم.

[٥٥٧١] وقرأ بعض السلف، وجاء مرفوعاً: «حتى إذا فزع» بالعين المعجمة^(٢)، ويرجع إلى الأول.

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضاً: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيخبر بذلك حاملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾، أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، يعني المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ف قيل لهم: ﴿الْحَقُّ﴾، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: كُشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: «حتى إذا فزع عن قلوبهم»، يعني: ما فيها من الشك والتكذيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، قال: فزع الشيطان عن قلوبهم ففارقهم وأمانيتهم وما كان يضلهم، ﴿قَالُوا

(١) تقدم تخريجه في سورة الإسراء.

(٢) هو في المستدرک ٢/٢٤٨ من حديث أبي هريرة، وقد نسب السيوطي في الدرر ٥/٤٤٢ لابن مردويه أيضاً.

مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ^(١)، قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقرؤا حين لا ينفعهم الإقرار. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مزية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولتذكر منها طرفاً يدل على غيره:

[٥٥٧٢] قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: حدثنا الحُمَيْدِي، حدثنا سُفْيَان، حدثنا عمرو قال، سَمِعْتُ عَكْرَمَةَ يَقُولُ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَّيْتُ الْمَلَائِكَةَ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ^(١)»، ف «إِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا» للذي قال: «الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقِ السَّمْعِ، وَمُسْتَرْقِ السَّمْعِ - هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سُفْيَانُ بِيَدِهِ - فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ. فربما أدرَكَه الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا، وَرُبَّمَا الْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَه، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبِيَّةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ^(٢). انفرد بإخراجه البخاريّ دون مسلم من هذا الوجه. وقد رواه أبو ادود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، به؛ والله أعلم.

[٥٥٧٣] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق، قالا: أخبرنا معمر، أخبرنا الزُّهْرِيُّ، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق: من الأنصار - فَرُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ ﷺ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ يُؤَلَّدُ عَظِيمٌ، أَوْ يَمُوتُ عَظِيمٌ - قلت للزهري: أكان يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قال: نعم، ولكن غَلَطْتُ حين بعث النبي ﷺ - قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبَّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلَ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، وَيُخْبِرُ أَهْلَ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبِيرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، وَتَخَطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيُرْمُونَ، فَمَا جَاؤُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنْهُمْ يُفَرِّقُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ^(٣). هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث صالح بن كيسان، والأوزاعي، ويونس، ومعقل بن عبيد الله، وأربعتهم عن الزُّهْرِيِّ، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار به. وقال يونس: عن رجال من الأنصار. وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزُّبَيْدِيِّ، عن الزُّهْرِيِّ، به. ورواه الترمذي فيه عن الحُسَيْنِ بْنِ حَرِيثٍ، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزُّهْرِيِّ، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، قاله أعلم.

[٥٥٧٤] حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، وأحمد بن منصور بن سَيَّارِ الرُّمَادِيِّ - والسياق لمحمد بن عوف - قالا: حدثنا نُعَيْمُ بْنُ حَمَادٍ، حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن خيثمة، عن النّوّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ: رِعْدَةً -

(١) الصفوان: هو الحجر الأملس.

(٢) تقدم في تفسير سورة الحجر عند آية: ١٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٢٢٩ والترمذي ٣٢٢٤ وأحمد ٢١٨/١ وابن حبان ٦١٢٩ والنسائي في «التفسير» ٢٩٢.

شديدة؛ من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صَبَعُوا وَخَرُّوا لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا، فيكون أول من يَرْفَعُ رَأْسَهُ جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مرَّ بِسَمَاءٍ سَمَاءٍ يَسْأَلُهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جَبْرِيْلُ؟ فيقول: قَالَ الْحَقُّ، وهو العليُّ الكبير. فيقولون كلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جَبْرِيْلُ، فيتهيئ جبريل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض^(١). وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة، عن زكريا بن أبان المِضْرِيِّ، عن نعيم بن حماد، به. وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم، رحمه الله. وقد رَوَى ابن أبي حاتم من حديث العوفي، عن ابن عباس، وعن قتادة: أنهم فسَّروا هذه الآية بابتداء إحياء الله سبحانه إلى محمد - ﷺ - بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى. ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِرُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مُقَرَّرًا تَقَرُّدَهُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يَعْتَرِفُونَ بأنه لا يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - أي: بما يُنْزَلُ مِنَ الْمَطَرِ وَيُنْبِتُ مِنَ الزَّرْعِ - إلا الله، فكذلك فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، هذا من باب اللَّفِّ وَالتَّنْشِيرِ، أي: واحد من الفريقين مُبْطِلٌ وَالْآخَرُ مُحَقِّقٌ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مُصِيبٌ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فَذَلَّ عَلَى بَطْلَانِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ. ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد - ﷺ - للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لَمُهْتَدٍ. وقال عكرمة وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحنُ وعلى هدى، وإنكم لفي ضلالٍ مُبِينٍ. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِرُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾، معناه التبري منهم، أي: لستم بنا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيدهِ وإفراد العبادة له، فإن أجبتُم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتُم فنحن بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنَّا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْفُونَ مِمَّا عَمَلْتُمْ وَأَنَا بَرِيْفٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، أي: يوم القيامة، يجمع الخلائق في صعيد واحد، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزئ كلَّ عاملٍ بِعَمَلِهِ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والثَّصْرَةُ والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَقُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفَعَلُوا بِالْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٤ - ١٦]. ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾،

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنن» ٥١٥ ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» ٢٣٦/١ والطبري ٢٨٨٤٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٤٣٥ وإسناده ضعيف، نعيم بن حماد روى من أكبر، والوليد مدلس، وقد عنعن، وأصله شاهد عن ابن مسعود. انظر «الصحيحة» ١٢٩٣.

أي: الحاكِمُ العادل العالمُ بحقائقِ الأمور. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتِ الَّذِينَ أَحَقَّهُمْ بِرِشْرَكَاتِهِمْ﴾، أي: أروني هذ الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً؟ ﴿كَلَّا﴾، أي ليس له نظير ولا نديب، ولا شريك ولا عديل. ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾، أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿الْمَرِيضُ الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وعَلَّبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشزجه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً. والله أعلم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْتِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

سَتَقْدِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى لعبده ورَسُوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: تُبَشِّرُ مَنْ أطاعك بالجنة، وتُنذِرُ مَنْ عصاك بالنار. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ رَحِمْتَ يَثْمُورِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَلَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُعْطُونَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، يعني إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمداً - ﷺ - إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله أطوعهم لله - عز وجل - . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم - يعني ابن أبان - عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن الله فضل محمداً - ﷺ - على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ فَوَيْدِهِ لِئَلْيَسَّرَ لِمَنْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال للنبي - ﷺ - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله إلى الجن والإنس.

[٥٥٧٥] وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أعطيته خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالعرب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأَيُّما رَجُلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وأُعطيته الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة»^(١).

[٥٥٧٦] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله - ﷺ - قال: «بُعِثْتُ إلى الأسود والأحمر»^(٢). قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم. والكُلُّ صحيح.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكُفَّار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذه الآية كقوله عز وجل: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَمُنَى ﴿٣١﴾ [الشورى: ٤١٨]... الآية. ثم قال تعالى: ﴿قَدْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: لكم ميعادٌ مؤجلٌ معدودٌ محرزٌ، لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يُقدِّم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤٤]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّتَدَوِّرٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوقٍ وَمَسِيءٌ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ١٠٤ - ١٠٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وبما أخبر به من أمر المَعَادِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قال الله تعالى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا، ومُخْبِرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاضعهم وت حاجتهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا﴾ منهم، وهم الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم قاداتهم وساداتهم: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، أي: لولا أنتم تصدونا لكُنَّا اتبعنا الرسل وأما بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾، أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنادعونكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا بُرهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ تَجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرُّونا وتُثْمِنونا، وتخبرونا أننا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطلٌ وكذِبٌ ومينٌ. قال قتادة، وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، يقول: بل مكرهم بالليل والنهار. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكرهم بالليل والنهار. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾، أي: نطراء وآلهة معه، وثقيمونا لنا شُبُهًا وأشياء من المُحَالِ، تُضِلُّونَا بها. ﴿وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾، أي: الجميع من السادة والاتباع، كلٌ نديم على ما سلف منه. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهي السلاسل التي تجتمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنما نُجَارِيكُمْ بأعمالكم، كلٌ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللاتباع بحسبهم؛ ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

[٥٥٧٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قروة بن أبي المَعْرَاءِ، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنانٍ صِرَارِ بْنِ صُرْدٍ، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن جهنم لما سبق إليها أهلها تلقاهم لهبها، ثم لَفَحَتْهم لَفْحَةً فلم يبق لحم إلا سقط على العُرْقُوبِ»^(١). وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن

(١) ضعيف جداً، فيه ضرار بن صرد، وهو متروك، منهم.

يحيى الخُشني قال: ما في جهنم دارٌ ولا مغَارٌ ولا غُلٌّ، ولا قيدٌ، ولا سلسلةٌ، إلا اسمٌ صاحبه عليها مكتوبٌ. قال: فحدثه أبا سليمان - يعني الداراني، رحمة الله عليه - فبكى ثم قال: ويحك! فكيف به لو جُمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجله، والغُلُّ في يديه والسلسلة في عنقه، ثم أدخل النار، وأدخل المغَار؟! اللهم سلِّم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لِمَ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْفِضُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مُسَلِّيًا لِنبيه ﷺ، وأمر له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومُخبره بأنه ما بعث نبيًا في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضَعَفَاؤُهُمْ، كما قال قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا زِيَاكَ أَتَيْتُكَ إِلَّا الْذِيكَ هُمُ ارَادُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَمْتَلَمُونَ أَتَىٰ صَالِحًا مَّرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَتْلُوا ءَهْوَاءَهُمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ أَلْفَافًا أَتَتْهُمُ الْغُلُوبُ وَالشَّكُوبُ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُّجْرِمِيهَا لِيَعْتَكِرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال جلٌ وعلا: ﴿وَلِإِنَّا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال هاهنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، أي: نبيٍّ أو رسولٍ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾، أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

[٥٥٧٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي - ﷺ - كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه: إنه لم يتبعه أحدٌ من قريش، إنما أتبعه أراذل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دُلّني عليه - قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب - قال: فأتى النبي - ﷺ - فقال: إلام تدعو؟ قال: «إلى كذا وكذا». قال: أشهد أنك رسول الله. قال ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبيٍّ إلا أتبعه رُذَالَةُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، قال: فأرسل إليه النبي - ﷺ -: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت»^(١).

[٥٥٧٩] وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: «وسألتك: أضعفاء

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف عند علماء الحديث.

الناس أتبعه أم أشرفهم؟ فرمعت: بل ضِعْفَاوَهُمْ، وهم أَتْبَاعُ الرُّسُلِ»^(١).

وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾^(٣٥)، أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يُعَذِّبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك! قال الله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ أَنَّمَا يُنذِرُ بِهِ مِنْ قَبْلِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٥٥﴾ شَايِعٌ لَهُمْ فِي كُفْرَتِهِمْ بَلْ لَا يُفَتِّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿ذَرَى وَمَنْ حَلَقَتْ وَجِدَا ﴿١١﴾ وَجَعَلَتْ لَهُمْ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودَا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدَتْ لَهُمْ مَعْيَدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينَا ﴿١٦﴾ سَاءَ زُفْرَةٌ سَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ١١ - ١٧]. وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنيتين: أنه كان ذا مالٍ وولَدٍ وتمرٍ، ثم لم تُغْنِ عنه شيئاً، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يعطي المال لمن يُحبُّ ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويُغني من يشاء، وله الحكمة الثامنة البالغة، والحجة الدامغة الفاطمة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم.

[٥٥٨٠] قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا كثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢). رواه مسلم وابن ماجه، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر بن بزقان، به. ولهذا قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: إنما يُقَرِّبكم عندنا زُلْفَى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: تُضاعف لهم الحسنه بعشره أمثالها، إلى سبعمئة ضعف. ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ أَعْيُنُونَ﴾، أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأسٍ وخوفٍ وأذى، ومن كل شرٍ يُخَذَّر منه.

[٥٥٨١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قروة بن أبي المغراء الكندي، حدثنا القاسم وعلي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الثعمان بن سعد، عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن في الجنة لُغْرَفًا تُرى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا». فقال أعرابي: لِمَنْ هي؟ قال: لمن طَيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»^(٣).

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾، أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع رُسله، والتصديق بآياته: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، أي: جميعهم مُجْزِيُونَ بأعمالهم فيها بحسبها. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾، أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيراً، ويُضيق على هذا ويُقتَر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]، أي: كما هم مُتَّفَاوِثُونَ في الدنيا، هذا فقير مُدْفِع، وهذا غني مُوسِع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في العُرفَات في

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان، وتقدم.

(٢) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٣٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة: ٧٢ وإسناده ضعيف لكن لأصله شواهد، وتقدمت.

أعلى الدرجات، وهذا في العَمَرَات في أسفل الدرجات. وأطيبُ الناس في الدنيا كما قال رسول الله - ﷺ -:
 [٥٥٨٢] «قد أفلح من أسلم وورق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(١). رواه مسلم من حديث ابن عمرو.
 وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم
 فهو يُخْلِفُه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث:
 [٥٥٨٣] «يقول الله تعالى: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ»^(٢).

[٥٥٨٤] وفي الحديث أن ملكين يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعط مُسِيكاً تَلْفَافاً»، ويقول
 الآخر: «اللهم أعط مُتَفِقاً خَلْفاً»^(٣).

[٥٥٨٥] وقال رسول الله - ﷺ -: «أَنْفَقَ بِلَا، ولا تخش من ذي العرش إقللاً»^(٤).
 [٥٥٨٦] وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، عن يزيد بن عبد العزيز الفلاس، حدثنا هُشَيْم، عن الكوثر بن
 حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَلَا إِنَّ بَعْدَكُمْ زَمَانٌ عَضُوضٌ،
 يعض الموسر على ما في يده جَذَارَ الْإِنْفَاقِ». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
 الرَّزُقِينَ﴾^(٥).

[٥٥٨٧] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا روح بن حاتم، حدثنا هُشَيْم، عن الكوثر بن حكيم،
 عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَلَا إِنَّ بَعْدَ زَمَانِكُمْ هَذَا زَمَانٌ عَضُوضٌ،
 يَعَضُّ الْمُوسِرُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ جَذَارَ الْإِنْفَاقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
 الرَّزُقِينَ﴾، وَتَهْتَدُ شِرَارُ الْخَلْقِ يَبِيعُونَ كُلُّ مَضْطَرٍّ، أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمُضْطَرِّينَ حَرَامٌ، أَلَا إِنَّ بَيْعَ الْمُضْطَرِّينَ
 حَرَامٌ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَعْرُوفٌ فَعُدْ بِهِ عَلَى أَخِيكَ، وَإِلَّا فَلَا تَزِدْهُ
 هَلَاكاً إِلَى هَلَاكِهِ»^(٥). هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عن أبي
 يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾: إذا
 كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَآئِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ
 دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِنَّ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
 وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُقْرَعُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كَانُوا الْمُشْرِكِينَ
 يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ لِيَقْرَبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَهْلُوا لَآئِكُمْ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتهم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا صُرَفُ
 هَذِهِ الْأُمَمِ هُمْ ضَالُّوا السَّبِيلِ ﴿١٧﴾﴾، وكما يقول لعيسى: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا نَسِيسٌ لِّلنَّاسِ أَتَّخِذُونَ وَإِنِّي لَمَلَكٌ مِنَ دُونِ اللَّهِ قَالَ

(١) تقدم في تفسير سورة النحل عند آية: ٩٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة هود عند آية: ٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة: ٢١٢.

(٤) إسناده ضعيف، له علتان. فيه كوثر بن حكيم وهو متروك. راجع الميزان ٦٩٨٣. وله علة ثانية، وهي الانقطاع بين

مكحول ومعاذ. وضعفه السيوطي في «الدر المنثور» ٤٤٨/٥.

(٥) إسناده كسابقه. لم أجده في مسند أبي يعلى المطبوع، والظاهر أنه في الكبير، ولم أجده في «المجمع» أيضاً.

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴿١١٦﴾ [المائدة: ١١٦]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي: تعاليت وتقدّست عن أن يكون معك إله. ﴿أَنْتَ وَرِثْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾، أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آٰلِهَةً﴾، يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زوّنا لهم عبادة الأوثان وأصلوهم، ﴿أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ تُمُوتُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]، قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَتَّبِعُكَ بِتِئَانٍ لِيَمِيزَ لَئِيمًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشئناكم وكرهكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ - وهم المشركون - ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: يقال لهم ذلك، تقريباً وتوبيخاً.

﴿وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آٰلِهَتُهُمْ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنَّا كَمَا كَانَ يَصُدُّ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَا آٰلِهَتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَعْثَارَ مَا آٰلِهَتُهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا نتلى عليهم آياته بيناتٍ يسمعونها غصّةً طريّةً من لسان رسوله - ﷺ - ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنَّا كَمَا كَانَ يَصُدُّ آبَاؤَكُمْ﴾، يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾، يعنون القرآن، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آٰلِهَتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾، أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذيرٌ أو أنزل علينا كتاب، لكننا أهدى من غيرنا، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم، ﴿وَمَا بَلَّغُوا وَعْثَارَ مَا آٰلِهَتُهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذا قال قتادة، والسدي، وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآٰيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الاحقاف: ٢٦]، ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [خاف: ٨٢]، أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا زده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسوله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرُسلي؟!

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ مُرَّةً أَوْ قُرَّةً أَوْ مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾، أي: إنما أمركم بواحدة، وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ مُرَّةً أَوْ قُرَّةً أَوْ مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، أي: تقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصخ بعضكم بعضاً، ﴿مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ﴾، أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد - ﷺ - ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَذَةٍ مُرَّةً أَوْ قُرَّةً أَوْ مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾. هذا

معنى ما ذكره مجاهدٌ، ومحمدُ بن كعب، والسُدِّي، وقتادةٌ، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم:

[٥٥٨٨] حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «أُعْطِيَتْ ثَلَاثًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا فَخْرٌ: أُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِمَنْ قَبْلِي، كَانُوا قَبْلِي يَجْمَعُونَ غَنَائِمَهُمْ فَيَحْرِقُونَهَا. وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَكَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ. وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، أَيْتِمُّمُ بِالضَّعِيفِ، وَأَصْلِي فِيهَا حَيْثُ أَدْرَكْتَنِي الصَّلَاةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَرَتِكُمْ﴾، وَأَعْنَتْ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَيْنَ يَدَيْ»^(١). فهو حديث ضعيف الإسناد، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفردى بعيد، ولعله مُفْحَمٌ في الحديث من بعض الرواة، فإن أصله ثابت في الصحاح وغيرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

[٥٥٨٩] قال البخاري عندها: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خازم، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: صعد النبي - ﷺ - الصفا ذات يوم، فقال: يا صباها. فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: رأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبأ لك! الهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(٢). وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣).

[٥٥٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله - ﷺ - يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس، تدرؤن ما مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يترأى لهم، فيبينا هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بشوبه: أيها الناس، أوتيتم. أيها الناس، أوتيتم. ثلاث مرّات»^(٤).

[٥٥٩١] وبهذا الإسناد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسيقني»^(٥). تفرد به الإمام أحمد في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٤٧) قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَلِنَمَّا أَصِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِيقًا إِنَّمَا أَسْمِعُ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

(١) إسناده ضعيف جداً فهو مسلسل بالضعفاء، عثمان عن علي عن القاسم. وعلي بن يزيد، أشدهم ضعفاً. وأصل الحديث في الصحيحين، دون ذكر الآية وتفسيرها.

(٢) تقدم في تفسير سورة الشعراء: ٢١٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٤٨/٥ وإسناده غير قوي، بشير بن مهاجر، وإن روى له مسلم فقد قال أبو حاتم، لا يحتج به، وقال أحمد: منكر الحديث، وقال ابن عدي: فيه ضعف، وأصل حديثه ما يعضده.

(٤) أخرجه أحمد ٣٤٨/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣١١/١٠: رجاله رجال الصحيح. قلت: فيه ابن مهاجر كما تقدم، وعجزه منكر لا يتابع عليه.

يقول تعالى أمرأ رسولہ ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ فَهَوَ لَكُمْ﴾، أي: لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، ونُصحي إليكم، وأمركم بعبادة الله، ﴿إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إليي إليكم، وما أنتم عليه. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْعَلْ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨)، كقولہ تعالیٰ: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]، أي: يُرسل المَلَك إلى مَنْ يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو عَلَامُ الْغُيُوبِ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩)، أي: جاء الحق من الله والشَّرع العظيم، وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاضْمَحَلَّ، كقولہ تعالیٰ: ﴿وَلَنْ نَقْدِرَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُمْ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

[٥٥٩٢] ولهذا لما دَخَلَ رسول الله ﷺ - المسجد الحرام يوم الفتح، وَوَجَدَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ، جعل يَطْعَن الصنم بسِيَّةِ قَوْسِهِ، ويقرأ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩). رواه البخاري ومسلم والترمذي، والنسائي وحده عند هذه الآية، كُلُّهُم من حديث الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي مخمر عبد الله ابن سَخْبَرَةَ، عن ابن مسعود به. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة. وَزَعَم قتادة والسُّدي: أن المراد بالباطل هاهنا إبليس، أي: إنه لا يخلق أحداً ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَلَأِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّي﴾، أي: الخبير كله من عند الله، وفيما أنزله الله - عز وجل - من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضلَّ فإنما يضل من تلقاء نفسه.

[٥٥٩٣] كما قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - لما سئل عن تلك المسألة في المُفَوَّضَةِ: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فميتي ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان منه^(٢). وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾، أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. [٥٥٩٤] وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصَّحِيحَيْنِ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غابياً، إنما تدعون سميعاً قريباً»^(٣).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرَعُونَ فَلَاقَتْ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ - يا محمد - إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة، ﴿فَلَاقَتْ﴾، أي: فلا مفرَّ لهم، ولا وَّزَرَ ولا ملجأ. ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أي: لم يَمَكَّنُوا أن يُمَعَّثُوا في الهَرَبِ، بل أُخِذُوا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٧٨ ومسلم ١٧٨١ والترمذي ٣١٣٨ والنسائي في «التفسير» ٣١٧ و٤٤٨.

(٢) هو حديث يعرف بحديث «بروح بنت واشق». وتقدم مراراً. وله قصة.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ٥٥.

من أوّل وهلة. قال الحسن البصري: «حين خَرَجُوا من قبورهم». وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقناة: «من تحت أقدامهم». وعن ابن عباس والضحاك: «يعني عذابهم في الدنيا». وقال عبد الرحمن بن زيد: «يعني قتلهم يوم بدر». والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكّر مُتَصِلًا بذلك. وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يُخَسَفُ بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس. ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكُليّة^(١). ثم لم يُنبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه. ﴿وَقَالُوا مَا مَتَّأ بِهٖ﴾، أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبملائكته وكتبه ورسله. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّمَا مُوقِنُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [السجدة: ١٧٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَكُمْ اَلْتَنَاوُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بَعَدُوا عن مَحَلِّ قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَكُمْ اَلْتَنَاوُشُ﴾، قال: التناول لذلك. وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا. وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا يُتَال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد. وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة. وكذا قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهٖ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا، وكذبوا الرسل؟! ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْقَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْقَيْبِ﴾، قال: بالظن. قلت: كما قال تعالى: ﴿رَبَّمَا بِالْقَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: ﴿إِنْ نَطُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَطِقِينَ﴾ [الجناب: ٣٢]. قال قتادة ومجاهد: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار. وقوله تعالى: ﴿وَجِبَلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني الإيمان. وقال السدي: ﴿وَجِبَلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، وهي التوبة. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وَجِبَلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروي نحوه عن ابن عباس وابن عمر، والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعة. والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد جبل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمُنِعُوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثراً غريباً عجيباً جداً، فلنذكره بطوله، فإنه قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حَجَرِ السَّامِي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَّرْقِيّ بن قَطَامِي، عن سعد ابن طريف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله - عز وجل -: ﴿وَجِبَلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾... إلى آخر الآية، قال: كان رجلٌ من بني إسرائيل فاتحاً - أي: فتح الله تعالى له مالا - فمات فَوَرَّثَهُ ابْنٌ له تافهٌ - أي: فاسد - فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فَعَدَلُوهُ ولائهم، فَصَجَّرَ الفتى فباع عَقَارَهُ بصامت، ثم رَحَلَ فأتى عيناً تُجَاوِزُ فَسْرَحَ فيها ماله، وابتنى قصرأ. فبينما هو ذات يوم جالس إذ سَمَلَتْ عليه ريحٌ بامرأة من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أريجاً - أي: ريحاً - فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا.

قالت: فكيف يَهْنِك العيش ولا زوجة لك؟ قال: قد كان ذلك، فهل لك من بَعْلٍ؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل، فإذا كان غدٌ فَتَزُودُ زادَ يومٍ واثنين، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يَهْولُكَ. فلما كان من الغد تَزُودُ زادَ يومٍ وانطلق، فانتهدى إلى قصر، ففَرَعَ رَتَاجَهُ^(١)، فخرج إليه شابٌ من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أَرْجاءً - أي: ريحاً - فقال: من أنت يا عبدَ الله؟ فقال: أنا الإسرائيليُّ. قال: فما حاجتك؟ قال: دعنتي صاحبةٌ هذا القصرِ إلى نَفْسِهَا. قال: صدقت، فهل رأيت في طريقك هولاً؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأسَ عليَّ لهالني الذي رأيت. قال: ما رأيت؟ قال: أقبلت حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ إذا أنا بكَلْبَةٍ فاتحةٍ فاهها، فَفَزَعْتُ، فَوَثِبْتُ فإذا أنا من ورائها، وإذا جِراؤها يَنْبَحْنَ في بطنها. فقال له الشاب: لست تُدْرِكُ هذا، هذا يكونُ في آخرِ الزَّمانِ، يقاعدُ الغلامُ المشيخةَ في مَجْلِسِهِمْ وَيَتَرْتَمُ حَدِيثِهِمْ. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ إذا أنا بمنةٍ عَنَزَ حُفْلٌ^(٢)، وإذا فيها جُدِّي يَمْصُهَا، فإذا أتى عليها وَظَنَّ أنه لم يترك شيئاً فَتَفَحَّ فاه يلتمس الزيادة. فقال: لست تُدْرِكُ هذا، هذا يكون في آخر الزمان، مَلِكٌ يَجْمَعُ صَامِتِ النَّاسِ كُلَّهُمْ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فَتَفَحَّ فاه يلتمس الزيادة. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ إذا أنا بشجر، فأعجبني عُصْنٌ من شَجَرَةٍ منها ناضراً، فأردتُ قطعَه، فنادتني شَجَرَةٌ أخرى: «يا عبد الله، مِتِّي فَخُذْ». حتى ناداني الشجرُ أَجْمَعُ: «يا عبد الله، مِتْنَا فَخُذْ». قال: لست تُدْرِكُ هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يَقِلُّ الرَّجَالُ وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ، حتى إن الرجلَ يخطبُ امرأةً فتدعوهُ العشرُ والعشرون إلى أنفسِهِنَّ. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ إذا أنا برجلٍ قائمٍ على عَيْنٍ، يَغْرِفُ لكلِّ إنسانٍ مِنَ المَاءِ، فإذا تَصَدَّعُوا عنه صَبَّ في جِزْتِهِ فلم تَعْلُقْ جِزْتُهُ من الماء بشيءٍ. قال: لست تُدْرِكُ هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاصُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ العِلْمَ ثم يُخَالِفُهُمْ إلى معاصي الله تعالى. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ إذا أنا بِعَظْمٍ، وإذا بقومٍ قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجلٌ قد أخذ بقرنيتها، وإذا رَجُلٌ قد أخذ بِذَنَبِهَا، وإذا رجلٌ قد رَكِبَهَا، وإذا رجلٌ يَحْلِبُهَا. فقال: أما العنزُ فهي الدنيا، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عَيْشِهَا، وأما الذي قد أخذ بقرنيتها فهو يُعالِجُ من عَيْشِهَا ضَيْقاً، وأما الذي أخذ بِذَنَبِهَا فقد أدبرت عنه، وأما الذي قد ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فَبِخَ بَخ، ذهب ذلك بها. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ، إذا أنا برجلٍ يَمْتَحُ على قَلْبِ، كلما أخرج ذَلَوَهُ صَبَّه في الحوض، فانساب الماء راجعاً إلى القَلْبِ. قال: هذا رجلٌ رَدَّ اللهُ صَالِحَ عَمَلِهِ، فلم يقبله. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ، إذا أنا برجلٍ يَنْدُرُ بَدْرًا فَيَسْتَحْصِدُ، فإذا حِنَطَةٌ طَيِّبَةٌ. قال: هذا رجلٌ قَبِلَ اللهُ صَالِحَ عَمَلِهِ، وأزكاه له. قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيلُ، إذا أنا برجلٍ مُسْتَلْقٍ على قفاه، قال: يا عبدَ الله، ادنُ مني فَخُذْ بِيَدِي وَأَقْعِدْنِي، فوالله ما قعدتُ منذ خلقني اللهُ - عزَّ وجلَّ - فأخذت بيده، فقام يسمعي حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عُمرُ الأبعد نَيْدًا، وأنا ملك الموت، وأنا المرأة التي أتتك. أمرني اللهُ تعالى بِقَبْضِ رُوحِ الأبعد في هذا المَكَانِ، ثم أَصْبِرْهُ إلى نارِ جَهَنَّمَ. قال: ففيه نزلت هذه الآية: ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٣). . . الآية. وهذا أثرٌ غَرِيبٌ، وفي

(١) الرتاج: الباب العظيم.

(٢) التحفيل: تصرية الشاة.

(٣) هذا الأثر لا يصح، عن ابن عباس، بل هو مكذوب مزور عليه. وفي إسناده سعد بن طريف، وهو الإسكاف. قال ابن معين: لا يجل لأحد أن يروي عنه، وقال ابن حبان: يضع الحديث على الفور. قاله في الميزان ٣١٨. وفيه أيضاً شرقي بن قطامي، ذكره في الميزان ٣٦٦ وقال: له نحو عشرة أحاديث، فيها مناكير، ضعفه الساجي.

صِحَّتِهِ نَظَرًا، وَتَنْزِيلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ وَفِي حَقِّهِ بِمَعْنَى أَنَّ الْكُفَّارَ كُلَّهُمْ يُتَوَفَّوْنَ وَأَرْوَاحُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا جَرَى لِهَذَا الْمَغْرُورِ الْمَفْتُونِ، ذَهَبَ يَطْلُبُ مُرَادَهُ فَجَاءَهُ الْمَوْتُ فَجَاءَتْهُ بَغْتَةً، وَجِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِي.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا قِيلَ يَا شِيَاعِهِمْ مَنِ قَبِلُ﴾، أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأسُ الله تَمَنُّوا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا يَوْمَ مُشْرِكِينَ﴾ [٨٤] فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شكٍّ وريبيةٍ، فلماذا لم يُتَقَبَّلْ مِنْهُمْ الْإِيْمَانُ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ. قال قتادة: إِيَّاكُمْ وَالشُّكَّ وَالرَّيْبَةَ؛ فَإِنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكٍّ بُعِثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْهِ.

آخر تفسير سورة سبأ، والله الحمد والمنة، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتَلْكَ وَرَبِّكَ زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قال سفيان الثوري، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتهما، أنا بدأتها. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: بديع السموات والأرض. وقال الضحاك: كل شيء في القرآن ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو خالق السموات والأرض. وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: بينه وبين أنبيائه، ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾، أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمرؤا به سريعاً ﴿مَّتَنَّى وَتَلْكَ وَرَبِّكَ﴾، أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث:

[٥٥٩٥] «أن رسول الله - ﷺ - رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمئة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب»^(١). ولهذا قال جل وعلا: ﴿زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى: ﴿زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، يعني: حسن الصوت. رواه عن الزهري البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقرئ في الشاذ: «يزيد في الخلق»، بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ. [٥٥٩٦] قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن زباد - كاتب المغيرة بن شعبة - قال: كتبت معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب إلي بما سمعت من رسول الله ﷺ؛ فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله - ﷺ - إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وسمعه ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات،

(١) تقدم في تفسير سورة الإسراء.

وَعُفُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ^(١). وأخرجه من طرق عن وزاد به.

[٥٥٩٧] وَتَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ، اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكَلْنَا لَكَ عَبْدًا - اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(٢). وهذه الآيةُ كقولهِ تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَسْئَلِ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرِيدُ بِكَ بُرْدًا يَنْعَمُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، ولها نظائرٌ كثيرةٌ. وقال الإمام مالك: كان أبو هريرة إذا مطروا يقول: مطرنا بنوء الفتح، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٣). ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُوَفِّكُونَ﴾^(٤)

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الاستدلال على توحيده في أفراد العبادة له، كما أنه المستقبل بالخلق والرزق فكذلك فليُفَرَّدَ بالعبادة، ولا يُشْرَكْ به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان. ولهذا قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُوَفِّكُونَ﴾، أي: فكيف تُوفِّكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟! والله أعلم.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٥) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ^(٦) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ^(٧)

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ﴾، أي يا محمد، هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، أي: وستنجز بهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: المعاد كائن لا محالة، ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رُسُلِهِ من الخير العظيم، فلا تتلها عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾، وهو الشيطان، قاله ابن عباس. أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب آفك. وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾^(٨). وقال مالك عن زيد بن أسلم: هو الشيطان، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يُضْرَبُ ﴿بَيْنَهُمْ يُسْوَِرُ لَمْ يَأْبَ بَابُ بَلَيْتُمْ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُ مِنْ بَيْنِهِ الْعَذَابُ﴾^(٩) يَا دُؤِبَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبَسْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ^(١٠) [الحديد: ١٣ - ١٤]. ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي: هو مبارز لكم

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٧٣ ومسلم ٥٩٣ وأحمد ٢٥٤/٤ - ٢٥٥ من طرق عن وزاد به.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٤٧٧ والنسائي ١٩٨/٢ - ١٩٩ وأبو داود ٨٤٧ أحمد ٨٧/٣ وابن حبان ١٩٠٥.

بالعداوة، فعادوه أنتم أشدَّ العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغرركم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِبِ السَّعِيرِ﴾، أي: إنما يقصد أن يُضِلُّكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والافتقار بطريق رُسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ عَدُوًّا قَبْلَ الْظَالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، ﴿و﴾ أن ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال تعالى: ﴿يُضِلُّ﴾ ﴿سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾، يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، أي: أقمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: بقدره كان ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾، أي: لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، إنما يُضِلُّ من يُضِلُّ، ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

[٥٥٩٨] وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني - أو: ربيعة - عن عبد الله بن الدلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الوهط، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله - عز وجل»^(١).

[٥٥٩٩] ثم قال: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان البصري، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله - ﷺ - فقال: «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب»^(٢). وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَعَابًا فَقَسَقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾
 ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ

(١) حديث حسن، وتقدم تخريجه، له شواهد كثيرة.

(٢) إسناده ضعيف جداً، شبه لا شيء. إبراهيم بن بشير، عن يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشي، عن سعد بن شرحبيل، أربعهم مجاهيل لا يعرفون، نص على ذلك الذهبي تبعاً لأبي حاتم، راجع تراجمهم في الجرح والتعديل، والميزان.

أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستبدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها - كما في أول سورة الحج - يُنبئه عباده أن
يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون مَيِّتَةً هَامِدَةً لا نبات فيها، فإذا أُرْسِلَ إليها السَّحَابُ تَحْمِلُ الماءَ
وأنزله عليها، ﴿أَهْتَرَّتْ وَوَيْتَ وَأَثْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه
بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعُمُّ الأرض جميعاً، فتنبت الأجسادُ في قبورها كما ينبتُ الحبُّ
في الأرض ولهذا جاء في الصحيح:

[٥٦٠٠] «كلُّ ابنِ آدمٍ يبلى إلا عَجْبُ الدُّنْبِ، منه خُلِقَ ومنه يُرْكَبُ»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ

النُّشُورُ﴾.

[٥٦٠١] وتقدّم في «الحج» حديث أبي رزِين «قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك

في خلقه؟ قال ﷺ: يا أبا رزِين، أما مرزت بوادي قومك مُنْجِلاً ثم مرزت به يَهْتَرُ خَضِرًا؟ قلت: بلى. قال:
«فكذلك يحيي الله الموتى»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، أي: من كان يُحِبُّ أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة

فليُزِمَ طاعةَ الله فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزةُ جميعها، كما قال تعالى:
﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجُ مِنْكُمْ شَيْءٌ وَلَا يَخْرُجُ مِنْكُمْ شَيْءٌ﴾ [يونس: ٦٥]، وقال جل جلاله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَلِلَّهِ

الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. وقال قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، أي: فليتنعز ببطاعة الله - عز وجل - . وقيل:

من كان يُريد علم العزة، لمن هي؟ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، حكاه ابن جرير.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، يعني: الذكر والتلاوة والدعاء. قاله غير واحد من

السلف. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي، أخبرني جعفر بن عون، عن عبد الرحمن بن

عبد الله المسعودي، عن عبد الله بن المُخَارِقِ، عن أبيه المُخَارِقِ بن سُلَيْمٍ قال: قال لنا عبد الله - هو ابن

مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى: إن العبد المسلم إذا قال: «سبحان الله

وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد

بهن إلى السماء فلا يمُرُّ بهن على جَمْعٍ من الملائكة إلا استغفرنَّ لقاتلهن، حتى يجيء بهنَّ وجه الرحمن - عز وجل -

وَجَلَّ - ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا

ابن عُليَّة، أخبرنا سعيد الجزي، عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعبُ الأحبار: إن لـ «سبحان الله، والحمد

الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لَدَوِيًّا حَوْلَ العرشِ كَدَوِي النَّحْلِ، يُذَكِّرُنَّ بِصَاحِبِهِنَّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي

الخرائن. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى كعبِ الأحبار - رَجَمَهُ اللهُ - وقد رُوِيَ مرفوعاً:

[٥٦٠٢] قال الأمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا موسى - يعني ابن أبي مسلم الطحان - عن عون ابن

(١) تقدم في تفسير سورة المؤمنون عند آية: ١٤.

(٢) تقدم في تفسير سورة الحج.

عبد الله، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن الثعمان بن بشير قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الذين يذكرون من جلال الله، من تسيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن ذوي كدوي النحل، يُذكرن بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يُذكر به؟»^(١). وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف، عن يحيى بن سعيد القطان، عن موسى بن أبي مسلم الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه - أو: عن أخيه - عن الثعمان بن بشير، به.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكليم الطيب ذكر الله، والعمل الصالح أداء فرائضه، فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله يصعد به إلى الله - عز وجل -. ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُد كلامه على عمله، وكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، وشهر بن حوشب، وغير واحد. وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن، وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب: هم المرأون بأعمالهم، يعني يمشون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بقضاء إلى الله - عز وجل -. يراؤون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون. والصحيح أنها عامّة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وقلنت لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فالمرائي لا يزوج أمره ويستمر إلا على غيب، أما المؤمنون المتفرسون فلا يزوج ذلك عليهم، بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، أي: ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: ذكراً وأنثى، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿وَمَا تَشْفَقُ مِنْ ذُرِّيَةٍ إِلَّا لِمَا كَفَرَتْ الْأَرْضُ وَلَا رَطْبٌ وَلَا بَابٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْوِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا يَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُنْعَالُ ﴿٦﴾ [الرعد: ٨ - ٩].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، أي: ما يُعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العين، لأن العين الطويل العُمَر في الكتاب وفي علم الله لا يُنْقَضُ من عُمره، وإنما عاد الضمير على الجنس؛ قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه»، أي: ونصف ثوب آخر، ورَوَى من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: ليس أحد قضيت له طول العُمَر والحياة إلا وهو بالغ ما قُدِّرَت له من العُمَر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قُدِّرَت لا يُزَاد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العُمَر والحياة ببالح العُمَر، ولكن ينتهي

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٩ وأحمد ١٧٨٩٨، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وأخو عون اسمه

إلى الكتاب الذي كُتِبَ له، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: كلُّ ذلك في كتابٍ عنده. وهكذا قال الضحاك بن مُرَاجِم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، قال: ما لَقِظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا تَرَى النَّاسَ، يَعْيشُ الْإِنْسَانُ مِثَّةَ سَنَةٍ، وَأَخْرَجُ يَمُوتُ حِينَ يُؤَلَّدُ، فَهَذَا هَذَا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره: فالذي يموت قبل سنتين سنة. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، أي: في بطن أمه يُكْتَبُ له ذلك، لم يخلق الخلق على عُمرٍ واحدٍ، لهذا عُمرٌ، ولهذا عُمرٌ هو أنقص من عُمره، وكل ذلك مكتوبٌ لصاحبه، بالغ ما بلغ. وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾، أي: ما يُكْتَبُ من الأجل ﴿وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمْرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلومٌ عند الله سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك. وإليه ذهب السُّدِّي، وعطاء الخراساني، واختار ابن جرير الأول، وهو كما قال.

[٥٦٠٣] وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن الوزير بن سُليمان، سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»^(١). وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيلي، به.

[٥٦٠٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبَّيد الله بن مُسْرَح، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربيعي، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: ذكرنا عند رسول الله - ﷺ - فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يُرزقها العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعائهم في قبره، فذلك زيادة العُمُر»^(٢). وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شاملٌ لجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مُتَّبِهَاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبارٍ وصغارٍ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهو البحر الساكن الذي يسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعافاً مرة، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: مر. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، يعني السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الذَّوْبُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿١٧﴾ قِيَاءً آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٢ - ٢٣]. وقوله جل وعلا: ﴿وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٦٧ ومسلم ٢٥٥٧ وأبو داود ١٦٩٣ والنسائي في «التفسير» ٤٤٩.

(٢) باطل. أخرجه ابن عدي ٢٨٥/٣ - ٢٨٦ بهذا الإسناد، وأعله بسليمان بن عطاء ونقل عن البخاري: عنده منكري. واتهمه ابن حبان بالوضع؛ وهو كما قال، راجع «الميزان» ٢١٥/٢.

مَوَاحِرَ ﴿١٣﴾ ، أي: تمخّره وتشقّه بحيزومها، وهو مقدّمها المُسْتَم الذي يشبه جُؤْجُؤَ الطير، وهو صدره. وقال مجاهد: تمخّرُ الريحُ السفنَ، ولا يمخّرُ الريحُ من السفن إلا العظام. وقوله جَلٌ وعلا: ﴿لِيَتَنَفَّوْا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، ﴿وَلَمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تنصرون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ إن تدعوهم لا يسمعوأ دعاءك ولو سمعوا ما استجابوا لك. ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبتك مثل خبير ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياؤه، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا فيعتدان. ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ، أي: والنجوم السيارات، والثوابث الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مُقْتَن مُحَرَّر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ، أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ، أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ، أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وعطية العوفي، والحسن، وفتادة، وغيرهم: القِطْمِير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة. أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القِطْمِير. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ ، يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم، لأنها جماد لا أرواح فيها. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ، أي: لا يقديرون على شيء مما تطلبون منها، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ، أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿١٥﴾﴾ وإذا خسر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥ - ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿١٧﴾﴾ كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكفرون عنهم ضداً ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْبِتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ، أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما نصير إليه مثل خبير بها. قال فتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴿١٦﴾ وما ذلك على الله بعزيز ﴿١٧﴾ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما نندر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ومن تاركها فإني سأعذبنه عذابي ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى بغيانه عما سواه، وافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ ، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات، ولهذا

قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أي: هو الْمُتَمَرِّدُ بِالْغِنَى وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهو الحميدُ في جميع ما يفعله ويقولُه، ويُقَدِّرُهُ وَيَشْرَعُهُ. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦)، أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بِصَعْبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَرَدَّ آخِرُونَ﴾، أي: يوم القيامة. ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ أَنْ تُجِئَهَا﴾، أي: وإن تدع نفسٌ مُمغلةٌ بأوزارها إلى أن تُسَاعِدَ عَلَى حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَوْزَارِ أَوْ بَعْضِهِ، ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ مَنْشُؤً وَكَوَلُوا مَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾، أي: ولو كان قَرِيباً إِلَيْهَا، حتى ولو كان أباهاً أو ابنها، كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ أَنْ تُجِئَهَا﴾... الآية، قال: هو الجارُ يتعلَّقُ بجارِه يوم القيامة، فيقول: يا رب، سَلْ هذا: لِمَ كان يَغْلِي بابه ذُنوبي؟ وإنَّ الكافرَ لَيَتعلَّقُ بالمؤمن يومَ القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إنَّ لي عندك يداً، قد عرفت كيف كُنْتُ لك في الدنيا؟ وقد احتججتُ إليك اليومَ. فلا يزالُ المؤمنُ يشفَعُ له إلى ربه - عز وجل - حتى يرُدَّهُ إلى مَنْزِلَةٍ دُونَ مَنْزِلَةٍ، وهو في النار. وإنَّ الوالدَ ليتعلَّقُ بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أي والدٍ كُنْتُ لك؟ فَيُثَنِّي خيراً، فيقول له: يا بني، إني قد احتججتُ إلى مثقالِ ذَرَّةٍ من حَسَنَاتِكَ أَنْجُو بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسرَ ما طلبت، ولكنني أتخوفُ مثل الذي تتخوفُ. قال: فتقول: ما أيسرَ ما استطيع أن أعطيك شيئاً. ثم يتعلَّقُ بزوجته فيقول: يا فلانة - أو: يا هذه - أي زوج كُنْتُ لك؟ فتُثَنِّي خيراً، فيقول لها: إني أطلبُ إليك حسنةً واحدةً تَهَيَّبُنِي لِي، لعلني أنجُو بها مما تَرِينَ. قال: فتقول: ما أيسرَ ما طلبت، ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوفُ مثل الذي تتخوفُ. يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ أَنْ تُجِئَهَا﴾... الآية، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ الْوَالِدِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئاً﴾ [القمان: ٢٣]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْكُفْرُ مِنْ أَهْلِهِ﴾ (١٤) وَأَهْلِيهِ وَأَهْلِيهِ (١٥) وَمَنْجِيهِ وَيَوْمَ يَكْفُلُ آمْرِي يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (١٧) [عبس: ٣٤ - ٣٧]. رواه ابن أبي حاتم - رحمه الله -، عن أبي عبد الله الظَهْرَانِي، عن حفص بن عُمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، به. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَفْأَمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: إنما يُتَعَبَّطُ بما جئتُ به أولو البصائرِ والنُّهَى، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمَرهم به، ﴿وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾، أي: ومن عَمِلَ صالحاً فإنما يعودُ نفعه على نفسه، ﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه المرجعُ والمآبُ، وهو سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إن خيراً فَخَيْرٌ، وإن شراً فَشَرٌّ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرقٌ وبونٌ كبيرٌ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغصَىٰ وَالْأَصصِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]. فالؤمن سميعٌ بصيرٌ في

نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم في ظلمات يمشي، لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الخرور والسُموم والحميم، ﴿وَلَيْلٌ مِّنْ يَّمِينِهِ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣ - ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وضيوررتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِب عليهم الشقاوة ولا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم. ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١٢٤﴾﴾، أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، ﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، أي: وما من أمة خلّت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العليل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]... الآية، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وهي: المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات، ﴿وَالزُّبُرِ﴾، وهي الكتب، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، أي: الواضح البين. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم، أي: بالعقاب والثكال، ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾؟ أي: فكيف رأيت كان إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟! والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانًا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُودٌ ﴿٧٧﴾﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى مُتَّبِعاً على كَمَال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي يُنَزَل من السماء يُخْرِج به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو مُشَاهِدٌ من تنوع ألوانها وطُغُوبها وزوايحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ عِنتٍ مِّنْ دَرَعٍ وَغِيَاظٌ مِّنْ نَّوَارٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ عِجْلٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ فِصْحٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ مَّسْكٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ حَبَشٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ لَّبَدٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ حَبَشٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ لَّبَدٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ حَبَشٍ وَبُيُوتٌ مِّنْ لَّبَدٍ﴾ [الرعد: ٤]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾، أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق - وهي: الجُدُد - جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضاً - قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجُدُد الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقاتدة والسُّدي. ومنها ﴿عَرَايِبٌ سُودٌ﴾، قال عكرمة: العرايب: الجبال الطوال السود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء، الخراساني وقاتدة. وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السوداء، قالوا: أسود غريب. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المُقَدَّم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وَعَرَايِبٌ سُودٌ﴾، أي: سود غريب. وفيما قاله نَظَر. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾، أي: كذلك الحيوانات من الأناسي والذوَاب - وهو: كل ما دب على قوائم - والأنعام، من باب عَطَف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم

بَرَبْرٍ وَخُبُوشٍ وَطَمَاطِمٍ فِي غَايَةِ السَّوَادِ، وَصَقَالِبَةٍ وَرُومٍ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ، وَالْعَرَبِ بَيْنَ ذَلِكَ، وَالْهُتُودُ دُونَ ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَأَخْيَلْنَا الْأَسْنِكَمَ وَالْوَنُكْرَ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الرُّوم: ٢٢]. وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مَخْتَلِفَةٌ الْأَلْوَانِ، حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ، بَلِ النَّوْعِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مَخْتَلِفٌ الْأَلْوَانِ، بَلِ الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أَبْلَقًا، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا اللَّوْنِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

[٥٦٠٥] وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبِزَارُ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ابْنَ أَبَانَ بْنِ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: أَيُضْبِعُ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ صَبِغًا لَا يَنْفَضُ»^(١)، أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَبْيَضُ»^(٢). وَرُوِيَ مُرْسَلًا وَمَوْقُوفًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، أَي: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقًّا خَشِيئَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمًّا، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلًا، كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، قَالَ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَقَالَ ابْنُ لَهْبَعَةَ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَالِمُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَأَحَلَّ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَحَفِظَ وَصِيئَتَهُ، وَأَيَقَنَ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ وَمَحَاسَبٌ بِعَمَلِهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْخَشْيَةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ، وَرَغِبَ فِيهَا رَغِبَ اللَّهِ فِيهَا، وَرَهَدَ فِيهَا سَخِطَ اللَّهُ فِيهَا، ثُمَّ تَلَا الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ عَفُورٌ﴾. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ الْعِلْمُ عَنْ كَثْرَةِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ عَنْ كَثْرَةِ الْخَشْيَةِ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمَصْرِيُّ، عَنْ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ قَالَ: إِنْ الْعِلْمُ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرَّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ. قَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْمَصْرِيُّ: مَعْنَاهُ أَنَّ الْخَشْيَةَ لَا تُدْرِكُ بِكَثْرَةِ الرَّوَايَةِ، وَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يُتَّبَعَ فَإِنَّمَا هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَهَذَا لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالرَّوَايَةِ، وَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: «نُورٌ» يُرِيدُ بِهِ فَهْمَ الْعِلْمِ، وَمَعْرِفَةَ مَعَانِيهِ. وَقَالَ سَفِيانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي حِيَانَ الثَّمِيمِيِّ، عَنْ رَجُلٍ قَالَ: كَانَ يَقَالُ: الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللَّهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ. وَعَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ. وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ. فَالْعَالِمُ بِاللَّهِ وَيَأْمُرُ اللَّهُ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ وَيَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ. وَالْعَالِمُ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ وَلَا يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَلَا الْفَرَائِضَ. وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ، وَلَا يَخْشَى اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة،

(١) نفث الثوب أو الصبغ: ذهب بعض لونه.

(٢) أخرجه البزار ٢٩٤٤ وقال: لا نعلم أحداً أسنده عن ابن عباس إلا زياد بن عبد الله، وقال غيره: عن عطاء عن سعيد مرسلًا اهـ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٥٥٦: فيه عطاء بن السائب، وقد اختلط اهـ. وعلة ثانية: وهي زياد بن عبد الله التميمي ضعيف.

والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ كِبَارَهُمْ كَبُورًا﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله. كما قَدَّمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «إِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ». ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُؤْتِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: ليوثيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ﴾، أي: لذئوبهم، ﴿شُكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مُطَّرَفٌ - رحمه الله - إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

[٥٦٠٦] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حنيفة، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دَرَّاجاً أبا السَّمْحِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا رَضِيَ عَنِ الْعَبْدِ أَثْنَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ^(١) مِنَ الْخَيْرِ لَمْ يَعْمَلْهُ، وَإِذَا سَخَطَ عَلَى الْعَبْدِ أَثْنَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الشَّرِّ لَمْ يَعْمَلْهُ^(٢)»، غريب جداً.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٣٦)
يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾، وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت هي له بالتبويه، وأنه مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد - ﷺ - فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي بِلَاذِنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٣٧)

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾، وهو: المؤدِّي للواجبات، التارك للمحرمات. وقد يتزك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي بِلَاذِنِ اللَّهِ﴾، وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، قال: هم أمة محمد - ﷺ - ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغْفَرُ لَهُ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

[٥٦٠٧] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية الغنبي

(١) كذا وقع في المسند في الروایتين، الأولى والثانية، ووقع في الثالثة، ومسند أبي يعلى، وصحيح ابن حبان: «أضعاف».

(٢) أخرجه أحمد ٣٨١٣ - ٤٠ - ٧٦ وابن حبان ٣٦٨ وأبو يعلى ١٣٣١ من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف، لكونه من رواية دراج عن أبي السَّمْحِ. وقد ضعف شعيب الأرنؤوط إسناده أيضاً، وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ح ١٧٩٦٩: رجاله وثقوا على ضعف فيه اهـ.

قالا: حدثنا أبو الطاهر بن السرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، حدثني ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال ذات يوم: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»، قال ابن عباس: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة بِرَحْمَةِ اللَّهِ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعَةِ محمد ﷺ»^(١). وهكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المُصْطَفِينَ، على ما فيه من عِوَجٍ وَتَقْصِيرٍ. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المُصْطَفِينَ الْوَارِثِينَ لِلْكِتَابِ.

قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «فَيَنْهَهُمْ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ»، قال: «هو الكافر». وكذا روى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: «فَيَنْهَهُمْ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ»، قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول «سورة الواقعة»، وأخرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - من طرق يَشُدُّ بعضها بعضاً، ونحن نُورِدُ منها ما تيسر:

[٥٦٠٨] الحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد بن العيزار: أنه سمع رجلاً من ثقيف يُحَدِّثُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ كِنَانَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال في هذا الآية: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَهُمْ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ»، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة»^(٢). هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يُسَمِّ. وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه. ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

[٥٦٠٩] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضمرّة، عن موسى بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَهُمْ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ»، فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأَوْلَتْكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّقَصَدُوا فَأَوْلَتْكَ الَّذِينَ يُحَاسِبُونَ حِسَاباً سَيِّراً، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَوْلَتْكَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ فِي طَوْلِ الْمَحْشَرِ، ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلَفَاهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فَهَمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: «لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْكُرْهَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»^(٣) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»^(٤).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١١٤٥٤ وفي إسناده موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو وضاع كما في «المجمع» ١٠/٣٧٨. والمرفوع منه له شواهد، انظر ما تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١. وكذا الموقف، وهو بهذا الإسناد وإو.

(٢) أخرجه أحمد ٧٨/٣ والطبري ٢٩٠١٢، وفيه رجل من ثقيف، وآخر من كنانة، وكلاهما لم يسم، فالإسناد ضعيف، لكن له شواهد، وطرق أخرى، فانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أحمد ١٩٨/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٩٥/٧: رواه أحمد بأسانيد رجال أحدهما رجال الصحيح. وهي هذه إن كان علي بن عبد الله الأزدي سمع من أبي الدرداء اهـ. وللحديث شواهد.

[٥٦١٠] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَذِبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: «فأما الظالم لنفسه فَيُحْبَسُ حَتَّى يُصِيبَهُ اللَّهُ وَالْحَزْنَ، ثُمَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(١).

[٥٦١١] ورواه ابن جرير من حديث سُفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جَنِبِ أَبِي الدرداء، فقال: اللَّهُمَّ، آتِنَا وَحَشَتِي، وَارْحَمْ عَزْبَتِي، وَتَسِّرْ لِي جَلِيساً صَالِحاً. قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لأنا أسعدُ به منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ - لم أجدت به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَذِبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً. وأما الظالم لنفسه فَيُصِيبُهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْعَمِّ وَالْحَزَنِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(٢).

[٥٦١٢] الحديث الثالث، قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا أبو مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ -: «كلهم من هذه الأمة»^(٣).

[٥٦١٣] الحديث الرابع، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عزيز، حدثنا سلامة، عن عَقِيل، عن ابن شهاب، عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «أمتي ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يُحَاسَبُونَ حِسَاباً يَسِيراً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَثُلُثٌ يُمَحَّصُونَ وَيُكشَفُونَ، ثُمَّ تَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فيقولون: وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده». يقول الله - عز وجل -: «صَدَقُوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: لا إله إلا الله وحده»، واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكوت: ١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكُرُ الْمَلَائِكَةِ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَذِبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فجعلهم ثلاثة أفواج، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف ويُحصى^(٤). غريب جداً.

أثر عن ابن مسعود، قال ابن جرير: حدثني ابن حُميد، حدثنا الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس، عن

(١) فيه راوٍ لم يسم، لكن هذه الأحاديث تتقوى بمجموعها كما ذكر ابن كثير قبل الحديث الأول منها.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٠١١ وأحمد ٢٩٤/٥ و٤٤٤/٦ و٤٤٤/٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩٥/٧ وقال: رواه الطبراني، وأحمد باختصار إلا أنه قال: عن الأعمش عن ثابت أو أبي ثابت... وثابت بن عبيد ومن قبله من رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني رجل غير مسمى.

(٣) أخرجه الطبراني ٤١٠ وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ. لكن يصلح شاهداً للأحاديث المتقدمة، والله تعالى أعلم. وانظر هذه الأحاديث في «المجمع» ٩٥/٧ و٩٧ والمستدرک ٤٢٦/٢ والدرر ٤٧٢/٥ - ٤٧٣ - ٤٧٤ وما قاله الحاكم: وإذا كثرت الروايات في الحديث، ظهر أن للحديث أصلاً اهـ.

(٤) أخرجه الطبراني ٧٩/١٨ - ٨٠ بهذا الإسناد وقال الهيثمي ١١٢٩٢: فيه سلامة بن روح، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات اهـ فالإسناد غير قوي، والله أعلم.

عبد الله بن عيسى، عن يزيد بن الحارث، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: هذه الأمة ثلاثة أئلاف يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك. فيقول الرب - عز وجل -: ادخلوا هؤلاء في سعة رحمتي. وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾ الآية.

أثر آخر، قال أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار أبو شعيب، عن عتبة بن ضهبان الهنائي قال: سألت عائشة - رضي الله عنها - عن قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾... الآية، فقالت لي: يا بُني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله - ﷺ -، شهد له رسول الله - ﷺ - بالحياة والرزق. وأما المقتصد فمن أتبع أثره من أصحابه حتى لحق به. وأما الظالم لنفسه فمثلني ومثلكم. قال: فجعلت نفسها معنا. وهذا منها - رضي الله عنها - من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات، لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(١). وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، قال: هي لأهل بدونا، ومقتصدنا أهل حصرنا، وسابقنا أهل الجهاد. رواه ابن أبي حاتم. وقال عوف الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثنا كعب الأحبار قال: «إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢) جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا... إلى قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، قال: فهؤلاء أهل النار». رواه ابن جرير من طريق، عن عوف به. ثم قال: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِذِنَ اللَّهُ﴾، قال: تماست مناكبهم ورب كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾... الآية، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج. ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو، عن محمد بن الحنفية قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. ورواه الثوري، عن إسماعيل بن سميع، عن رجل، عن محمد بن الحنفية، بنحوه. وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي - يعني الباقر - عن قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، فقال: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرّر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد، رحمه الله:

[٥٦١٤] حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله - ﷺ -.. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا؟ قال: أما قدمت لإلا

في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهَا عِلْماً سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيْسَتْ تُغْفَرُ لِلْعَالَمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْجِبَّتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالَمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلَ الْقَمَرَ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١). وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول: قيس بن كثير - عن أبي الدرداء. وقد ذكرنا طُرُقَهُ واختلاف الرواية فيه في شرح «كتاب العلم» في «صحيح البخاري»، والله الحمد والمِنَّة.

[٥٦١٥] وقد تقدّم في أول «سورة طه» حديث ثعلبة بن الحَكَم، عن رسول الله - ﷺ - قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إني لم أصع علمي وجحمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي»^(٢).

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا وَى هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفِينَ مِنْ عِبَادِهِ، الَّذِينَ أُوْرَثُوا الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾، أَي: جَنَّاتِ الْإِقَامَةِ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَقُدُومِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:

[٥٦١٦] «تَبْلُغُ الْجَنَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(٣).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأَبَاحَهُ اللهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

[٥٦١٧] وثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٤).

[٥٦١٨] وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»^(٥).

[٥٦١٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سواد السُّرْحِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ ابْنِ لَهِيْعَةَ، عَنْ عَقِيلِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: أَنَّ أَبَا أَمَامَةَ حَدَّثَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - حَدَّثَهُمْ، وَذَكَرَ حُلِيِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: «مُسُورُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، مُكَلَّلَةٌ بِالذَّرِّ، وَعَلَيْهِمْ أَكَالِيلٌ مِنْ ذُرٍّ وَيَاقُوتٍ مُتَوَاصِلَةٌ، وَعَلَيْهِمْ تَاجٌ كَتَاجِ الْمُلُوكِ، شَبَابٌ جُرْدٌ مُرْدٌ مَكْحَلُونَ»^(٦).

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٣٦٤١ وابن ماجه ٢٢٣ وأحمد ١٩٦/٥ وابن حبان ٨٨ وإسناده ضعيف لضعف قيس بن كثير،

وأخرجه أبو داود ٣٦٤٢ من وجه آخر من حديث أبي الدرداء. وإسناده ضعيف وله طرق وشواهد، وتقدم.

(٢) تقدم تخريجه، وهو وإه جداً.

(٣) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٦.

(٤) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٢٣.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) إسناده ضعيف، له علتان: ابن لهيعة، ضعيف الحديث، والحسن لم يسمع من أبي هريرة.

فيها ولا يَخَيُّونَ^(١). قال تعالى: ﴿وَكَاذِبًا يَمَنَّكَ لَيَقْعُنَّ عَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّلَكُوتٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ فهم في حالهم ذلك يَزُونَ موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي عَذَابٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْتَلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٥]، وقال جلّ وعلا: ﴿كُلَّمَا حَبَتْ زَيْدَتُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿تَذَوُّوا فَلَنْ يَبْرِئَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبا: ٣٠]. ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾، أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذب بالحق.

وقوله جَلَّتْ عَظْمَتُهُ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾، أي: يتأذون فيها، يجأرون إلى الله - عزّ وجلّ - بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَنْفِرْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الربّ - جلّ جلاله - أنه لو رُدُّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه، وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يُجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَرُدَّتْ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُتْرَكْ بِهِ أَنْفُسُكُمْ﴾ [غافر: ١١ - ١٢]، أي: لا يُجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رُدِّدتم لعدتم إلى ما نُهيتم عنه. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، أي: ما عَشْتُمْ في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعت به في مُدَّةِ عُمرِكُمْ!؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المُراد هاهنا، فَرَوَى عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدارُ سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً. وقال قتادة: اعلّموا أن طولَ العُمُرِ حُجَّةٌ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّرَ بطول العُمُرِ، قد نزلت هذه الآية: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، وإن فيهم لابن ثمانين عشرة سنة. وكذا قال أبو غالب الشيباني. وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَرٍ، عن رَجُلٍ، عن وهب بن مُثَنَّبٍ في قوله: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، قال: عشرون سنة. وقال هُشَيْمٌ، عن منصور، عن زاذان، عن الحسن في قوله: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، قال: أربعين سنة. وقال هُشَيْمٌ أيضاً عن مُجَالِدٍ، عن الشعبي، عن مسروقٍ أنه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنةً فَلْيَأْخُذْ جِذْرَهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وهذه رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْمٍ، عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس يقول: العُمُرُ الذي أعذر الله إلى ابن آدم: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ أربعون سنة. هكذا رواه من هذا الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيار ابن جرير. ثم رواه من طريق الثوريّ وعبد الله بن إدريس، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْمٍ، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: العُمُرُ الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، ستون سنة. فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث - كما سنورده - لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يَصِحَّ، لأن «في إسناده من يجب التثبت في أمره». وقد رَوَى أصبغ بن نباتة، عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: العُمُرُ الذي عيّرهم الله به في قوله تعالى: ﴿أَوْلَتْ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ سِتُونَ سَنَةً.

[٥٦٢٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا دُحَيْمٌ، حدثنا ابن أبي فُديك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حُسَيْنِ المكي: أنه حَدَّثَهُ عن عَطَاءٍ - هو ابن أبي رَبَاحٍ - عن ابن عباس -

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة طه عند آية: ٧٤. وفي تفسير سورة البقرة عند آية: ٣٩.

رضي الله عنهما - : أن النبي - ﷺ - قال : « إذا كان يومُ القيامة قيلَ : أين أبناءُ الستين ؟ وهو العُمَرُ الذي قال الله تعالى فيه : « أَوْلَئِكَ نُمِطُّكُمْ مَأْتِدْكُمْ فِيهِمْ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمْ أَلَّذِينَ »^(١) . وكذا رواه ابنُ جرير ، عن علي بن شُعيب ، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فُدَيْك ، به . وكذا رواه الطَّبْرَانِي من طريق ابن أبي فُدَيْك ، به . وهذا الحديث فيه نَظَرٌ ، لحال إبراهيم بن الفضل ، والله أعلم .

[٥٦٢٥] حديثٌ آخر ، قال الإمامُ أحمدُ : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن رجلٍ من بني غفار ، عن سَعِيدِ المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هُرَيْرَةَ ، عن النبي - ﷺ - أنه قال : « لقد أَعَدَّ اللهُ إلى عبدِ أحياءٍ حتى يَلْغُ سِتِّينَ أو سبعينَ سنةً ، لقد أَعَدَّ اللهُ إليه ، لقد أَعَدَّ اللهُ إليه »^(٢) .

[٥٦٢٦] وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» في صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مطهر ، عن عُمَرُ بن علي ، عن مَعْنُ بن محمد الغفاري ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أَعَدَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - إلى امرئٍ أَعَزَّ عُمُرَهُ حَتَّى يَلْغَهُ سِتِّينَ سنةً »^(٣) . ثم قال البخاري : « تَابَعَهُ أَبُو حَازِمٍ وَابْنُ عَجَلَانَ ، عَنْ سَعِيدِ المَقْبُرِيِّ .

[٥٦٢٧] فَأَمَّا أَبُو حَازِمٍ فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حدثنا أبو صالح الفَرَارِيُّ ، حدثنا محمد بن سَوَّار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عَبْدِ القَارِيِّ الإسكندري ، حدثنا أبو حازم ، عن سَعِيدِ المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هُرَيْرَةَ قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ سِتِّينَ سنةً فَقَدَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي العُمُرِ »^(٤) . وقد رواه الإمام أحمدُ والنسائي في الرقاق جميعاً عن قُتَيْبَةَ ، عن يعقوب بن عبد الرحمن ، به .

[٥٦٢٨] ورواه البُرَّادُ قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هُرَيْرَةَ ، عن النبي - ﷺ - قال : « العُمَرُ الذي أَعَدَّ اللهُ فيه إلى ابنِ آدمَ سِتُّونَ سنةً »^(٥) . يعني : « أَوْلَئِكَ نُمِطُّكُمْ مَأْتِدْكُمْ فِيهِمْ مَنْ تَذَكَّرَ » .

[٥٦٢٩] وأما متابعه «ابن عَجَلَانَ» ؛ فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو الصَّفَرِ يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قَزَعَةَ بِسَامِرَاءَ ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا سَعِيدُ بن أبي أيوب ، حدثني محمد بن عَجَلَانَ ، عن سَعِيدِ المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مَنْ آتَتْ عَلَيْهِ سِتُّونَ سنةً فَقَدَ أَعَدَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - إليه في العُمُرِ »^(٦) . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هُوَ المقرئ به . ورواه أحمد أيضاً عن خَلْفٍ ، عن أبي مَعْشَرٍ ، عن سَعِيدِ المَقْبُرِيِّ .

(١) إسناده ضعيف ، أخرجه الطبري ٢٩٠٣١ والطبراني ١١٤١٥ ، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٩٥ : رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومي ، وهو ضعيف .

(٢) أخرجه أحمد ٢٧٥/٢ ، وفيه راو لم يسم . وقد سمي إما في رواية البخاري الآتية برقم ٥٦٢٦ أو الرواية الآتية برقم ٥٦٣٠ . وقد تابعه غير واحد بكل حال .

(٣) صحيح . أخرجه البخاري ٦٤١٩ والبيهقي ٣/٣٧٠ .

(٤) صحيح . أخرجه أحمد ٤١٧/٢ والطبري ٢٩٠٣٣ وابن حبان ٧٩٧٩ وإسناده صحيح .

(٥) أخرجه البيهقي ٣/٣٧٠ والقضاعي في «مسند الشهاب» ٤٢٤ من طريق عبد العزيز به . وإسناده غير قوي لأجل عبد العزيز ، لكن له طرق كما ترى .

(٦) صحيح . أخرجه أحمد ٣٢٠/٢ والبيهقي ٣/٣٧٠ والخطيب في «تاريخ بغداد» ١/٢٩٠ وإسناده حسن لأجل ابن عجلان ، وقد توبع .

[٥٦٣٠] طريقاً أخرى، عن أبي هريرة، قال ابن جرير: حدثني أحمد بن الفرج أبو عتبة الجمنصي، حدثنا بقيه بن الوليد، حدثنا المطرف بن مازن الكتاني، حدثني معمر بن راشد قال: سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «لقد أعذر الله - عز وجل - في العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين»^(١). فقد صح هذا الحديث من هذه الطرقتين، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفئت. وقول ابن جرير: «إن في رجاله بعض من يجب الثبوت في أمره»، لا يلتفت إليه مع توضيح البخاري^(٢)، والله أعلم. وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مئة وعشرون سنة. فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهزم، كما قال الشاعر:

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِّينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ الْمَسْرُةُ وَالْفَتَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويُرْجِحُ به عَنْهُمْ الْعِلْلَ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة. كما ورد بذلك الحديث:

[٥٦٣١] قال الحسن بن عرفة رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المخاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»^(٣). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد، عن الحسن بن عرفة، به، ثم قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وهذا عجب من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى، عن أبي هريرة، حيث قال:

[٥٦٣٢] حدثنا سليمان بن عمر، عن محمد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»^(٤). وقد رواه الترمذي في «كتاب الزهد» أيضاً، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمد بن ربيعة، به. ثم قال: «هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي صالح، عن أبي هريرة. وقد روي من غير وجه عنه». هذا نصه بخروفيه في الموضوعين، والله أعلم.

[٥٦٣٣] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا ابن أبي قديك، حدثني إبراهيم بن الفضل مولى بني مخزوم، عن المقبري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «معتزك المنايا ما بين الستين إلى السبعين»^(٥).

(١) أخرجه الطبري ٢٩٣٢ والحاكم ٤٢٧/٢، وإسناده ساقط لأجل المطرف بن مازن، وقد توبع على أصل الحديث لكن ذكر السبعين ضعيف.

(٢) رحم الله ابن كثير، فإن الطبري ما أراه قصد بذلك ضعف الحديث، وإنما أراد - والله أعلم - أن بعض رجال الإسناد لم يتبين له حالهم، فذكر ذلك، وهذا ظاهر كلامه، والله تعالى أعلم.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٣٥٥٠ وابن ماجه ٤٢٣٦ وابن حبان ٢٩٨٠ والبيهقي ٣٧٠/٣ من طريق الحسن بن عرفة به وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن غريب. قلت: في إسناده محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث لكنه توبع كما في الرواية الآتية. وهو دون عجزه صحيح.

(٤) حسن. أخرجه الترمذي ٢٣٣١ وقال: حسن غريب.

(٥) إسناده ضعيف، أخرجه أبو يعلى ٦٥٤٣ والخطيب ٤٧٦/٥ والقضاعي ٢٥١، ومداره علي إبراهيم بن الفضل المخزومي، وهو متروك.

[٥٦٣٤] وبه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أقلُّ أُمَّتِي أبنَاءُ سَبْعِينَ»^(١). إسناده ضعيف.

[٥٦٣٥] حديث آخر في معنى ذلك، قال الحافظ أبو بكر البرزاري في مُسنَدِهِ: حدثنا إبراهيم بن هانيء، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن ربيعي، عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله، أنثيتنا بأعمار أُمَّتِكَ. قال: «ما بين الخَمْسِينَ إلى السُّتَيْنِ». قالوا: يا رسول الله، فأبناء السَّبْعِينَ؟ قال: «قلُّ من يُلْفِئُهَا من أُمَّتِي، رَجَمَ اللهُ أبنَاءَ السَّبْعِينَ، وَرَجَمَ اللهُ أبنَاءَ الثَّمَانِينَ»^(٢). ثم قال البرزاري: لا يُرَوَى بهذا اللَّفْظِ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي.

[٥٦٣٦] وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - عاش ثلاثاً وستين سنة، وقيل: ستين. وقيل: خمساً وستين سنة^(٣)، والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا نُنذِرُهُمْ﴾، روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقاتادة، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني السَّبْعِينَ. وقال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ. وقرأ ابن زيد: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦]. وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسول. وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقُضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّحِيمٌ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [٧٨]. [الزخرف: ٧٧ - ٧٨]، أي: لقد بينا لكم الحق على السنة الرُّسُل، فأبيتهم وخالفتم. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿كَلِمَاتٍ لَّا يُلْفَىٰ فِيهَا قُوَّةٌ سَاخِمَةٌ خَزَنَاتُهَا الَّذِي يَأْتِكُم نَذِيرٌ﴾ [٧٨]. [الزخرف: ٧٧ - ٧٨]، أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر يُقَدِّمُكُمْ مما أنتم فيه من العذاب والتكال والأغلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَسَلُهُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٣٨] هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسْرًا﴾ [٣٩]

يُخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تُكِنُّه السرائر وتَنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بِعَمَلِهِ. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، أي: وإنما يعود وبال كُفْرِهِ ذَلِكَ على نفسه دون غيره، ﴿وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم

(١) إسناده ضعيف كما سبق. أخرجه أبو يعلى ٦٥٤٤.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه البزار ٣٥٨٦ كشف، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٧: فيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف.

(٣) الرواية الأولى هي عند البخاري ٣٥٣٦ ومسلم ٢٣٤٩ من حديث عائشة. وأما الرواية الثانية فهي عند البخاري ٥٩٠٠ ومسلم ٢٣٤٧ من حديث أنس. والرواية الثالثة عند مسلم ٢٣٥٢ ح ١٢٢ والترمذي ٣٦٥٢ وأحد ٢٢٣/١ وأبو يعلى ٢٤١٢ من حديث ابن عباس.

كُلَّمَا طَالَ عُمُرُ أَحَدِهِمْ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمَنْزَلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَزَادَ أَجْرُهُ، وَأَحْبَهُ خَالِقُهُ وَبَارَتُهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذِرُكَ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ - أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، أي: ليس لهم شيء من ذلك، مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾، أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِنْ يَعْذِرُكَ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِلَّا غُرُورًا﴾، أي: بل إنما أتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمايتهم التي تَمَثَّلَتْهَا لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: لا يقدر على دَوَامِهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ وَيُنْظِرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعْجَلُ، وَيَسْتُرُ آخِرِينَ وَيَغْفِرُ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

[٥٦٣٧] وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً، بل منكرأ، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَحْكِي عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ: «وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هَلْ يَنَامُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -؟ فَارْسَلُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَارَقَهُ ثَلَاثًا، وَأَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ، فِي كُلِّ يَدٍ قَارُورَةٌ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا، قَالَ: فَجَعَلَ يَنَامُ وَتَكَادَ يَدَاهُ تَلْتَقِيَانِ، ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَحْسِبُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى، حَتَّى تَامَ نَوْمُهُ فَاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ، فَتَكَسَّرَتِ الْقَارُورَتَانِ، قَالَ: ضَرَبَ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا: أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ كَانَ يَنَامُ لَمْ تَسْتَمْسِكِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ»^(١). والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المنكرة، فإن موسى - عليه السلام - أجل من أن يُجَوِّزَ عَلَى اللَّهِ - سبحانه وتعالى - النوم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه: ﴿الْحَى الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

[٥٦٣٨] وَبَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِنَاطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لِأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله - هو ابن مسعود - فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعباً. قال: ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السموات تدور على منكب ملك. قال: أفصدفته أو كذبتة؟ قال: ما صدفته ولا كذبتة. قال: لو دذت أنك افتديت من رخلتك إليه براجلتك وزخيلها، كذب كعب. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِطُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَسْكَمَهُمَا مِنْ أَحْمَرَ مِنْ بَدْيَةٍ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود. ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: ذهب جندب البجلي إلى كعب بالشام، فذكر نحوه. وقد رأيت في مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلي، سماه «سير الفقهاء»، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع، عن وكيع، عن الأعمش، به. ثم قال: وأخبرنا زونان - يعني عبد الملك بن الحسن - عن ابن وهب، عن مالك أنه قال: السماء لا تدور. واحتج بهذه الآية، وبحديث:

[٥٦٣٩] «إِنَّ بِالْمَغْرِبِ بَاباً لِلتَّوْبَةِ لَا يَزَالُ مَفْتُوحاً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ»^(١). قلت: وهذا الحديث في الصحيح، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن نَحْدِلَ إِلَّا فِي سُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَحْدِلَ إِلَّا فِي سُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، قَبْلَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِهْدَىٰ الْأُمَمِ﴾، أَي: مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَاهِرَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ وِرَاسَتِهِمْ لَفَنفِيلَتٌ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ ﴿٤٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠]. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بِمَا أُنزِلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ، ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا﴾، أَي: مَا أَزَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، أَي: اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ، ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾، أَي: وَمَكْرُوا بِالنَّاسِ فِي صُدْهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، أَي: وَمَا يَعُودُ وَيَأَلُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ.

[٥٦٤٠] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: ذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سَفِيَّانُ، عَنْ أَبِي زَكَرِيَّا الْكُوفِيِّ، عَنْ رَجُلٍ حَدَّثَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِيَّاكَ وَمَكْرَ السَّيِّئِ»، فَإِنَّهُ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، وَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ طَالِبٌ^(٢). وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ: ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ لَمْ يَنْبِجْ حَتَّى يَنْزَلَ بِهِ، مَنْ مَكَرَ أَوْ بَغَىٰ أَوْ نَكَتَ، وَتَصَدَّقَهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، «إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَيَّ

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام، عند آية: ١٥٨.

(٢) إسناده ضعيف. شيخ أبي زكريا الكوفي لم يسم. ولم يقل إنه من الصحابة، وعله ثانياً وهي أن ابن أبي حاتم أخرجه بقوله: ذكر علي بن الحسين، وهذه صيغة تعليق، والله أعلم، وقد ذكره السيوطي في الدر ٤٨٠/٥ وعزاه لابن أبي حاتم وحده، بهذا الإسناد.

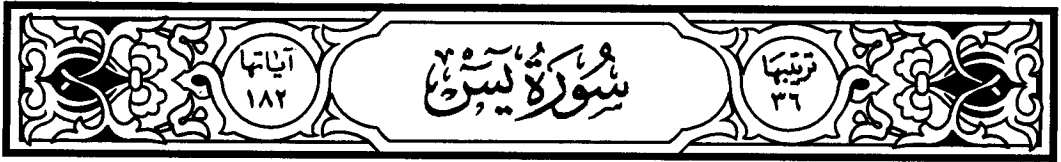
أَنْفُسِكُمْ ﴿ يونس: ٢٣ ﴾، ﴿فَمَنْ تَكَبَّ فَلَئِمَّا يَنْتَكُ عَنْ نَفْسِي﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رُسُلَهُ ومخالفتهم أمره، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أي: لا نغيّر ولا نبدّل، بل هي جارية كذلك في كل مُكذّب، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، أي: ﴿وَلِإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوّله عنه أحد.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَرْسَلَ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادُهُ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذّبين بما جنتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلّيت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة، وكثرة العدّد والعدّد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، لأنه تعالى لا يُعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض، ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾، أي: عليهم بجميع الكائنات، قديرٌ على مجموعها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ﴾، أي: لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجعل أن يُعذب في جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ﴾. وقال سعيد بن جبیر، والسُدّي في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ﴾، أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب. ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: ولكن يُنظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويؤفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَرْسَلَ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادُهُ بَصِيرًا﴾.

آخر تفسير سورة فاطر، والله الحمد والمنة



وهي مكية

[٥٦٤١] قال أبو عيسى الترمذي: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ وَسُفْيَانُ بْنُ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّوَّاسِيُّ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ هَارُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَبِيبَانَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ «يَس». وَمَنْ قَرَأَ «يَس» كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ»^(١). ثم قال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ. وهَارُونَ أَبُو مُحَمَّدٍ شَيْخٌ مَجْهُولٌ. وفي الباب عن أَبِي بَكْرِ الصُّدِيقِ، وَلَا يَصِحُّ لِضَعْفِ إِسْنَادِهِ». وعن أَبِي هُرَيْرَةَ مَنْظُورٌ فِيهِ. أما حديثُ الصُّدِيقِ فَرَوَاهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِهِ نَوَادِرِ الْأَصُولِ^(٢).

[٥٦٤٢] وأما حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْبُرَّارُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا زَيْدٌ - هُوَ ابْنُ الْحُبَّابِ - حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ - هُوَ الْمَكِّيُّ، مَوْلَى آلِ عُلَقَمَةَ - عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبِيعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ «يَس»^(٣). ثم قال: لا نعلم رواه إلا زَيْدٌ، عَنْ حُمَيْدٍ.

[٥٦٤٣] وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي إِسْرَائِيلَ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَنْ قَرَأَ «يَس» فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ. وَمَنْ قَرَأَ «حَم» الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الدُّخَانُ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ»^(٤). إسناده جيد.

(١) باطل: أخرجه الترمذي ٢٨٨٧ والدارمي ٤٥٦/٢ والقضاعي ١٠٣٥ والخطيب ١٦٧/٤ والحكيم الترمذي في «النوادر» ص ٣٣٥ من حديث أبي هريرة. وضعفه الترمذي بقوله: غريب. وهارون أبو محمد مجهول. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» ٥٥/٢ - ٥٦: سألت أبي عن هذا الحديث، فقال: مقاتل هذا ابن سليمان، رأيت هذا الحديث في أول كتاب وضعه، وهو حديث باطل لا أصل له. وقال الذهبي في ترجمة هارون: أنا أتهمه بهذا الحديث.

(٢) حديث أبي بكر. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٤٦٥ والترمذي الحكيم في «النوادر» ٢٤٤/٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٤٦/١ - ٢٤٧ وقال ابن الجوزي: باطل لا أصل له، وفيه محمد بن عبد الرحمن الجدهاني، قال النسائي: متروك الحديث. وهو كما قال باطل فإن فيه «ومن قرأها عدلت له عشرين حجة». وهذه المبالغة تدل على وضعه، ما عدا ألفاظ أخرى فيه منكرة.

(٣) ضعيف. أخرجه البزار في «السنن» ٨٧/٣ وفيه حميد المكي، ذكره ابن عدي في الكامل ٢٧٤/٢ وأسند له حديثاً غير هذا، وقال: وله حديثان، وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. ونقله عنه الذهبي في «الميزان» ٢٣٥٧ ووافقته.

(٤) غير قوي، أخرجه أبو يعلى ٦٢٢٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/٣٤٧ من حديث أبي هريرة، وحكم ابن الجوزي ببطلانه، وأعله بمحمد بن زكريا، وليس هو علته فقد توبع عند أبي يعلى، وعلته هشام بن زياد، فهو متروك. والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد توبع هشام عند الطيالسي ٢٤٦٧ تابعه فرقد، لكن الظاهر أن فيه إرسالاً، وتابعهما محمد بن حمادة عند الدارمي ٥٥٧/٢ وتابعهم الحسن بن دينار عند ابن عدي ٢٩٩/٢ وتابعهم أغلب بن تميم عند الطبراني في «الصغير» ٤١٧، وأغلب هذا وإو. ورواه ابن السني ٦٧٤ عن أغلب هذا عن أيوب، ويونس، وهشام عن الحسن عن =

[٥٦٤٤] وقال ابنُ جَبَّانٍ في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثَقِيفٍ، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السُّكُونِي، حدثنا أبي، حدثنا زياد بن خَيْثَمَةَ، حدثنا محمد بن جُحَادَةَ، عن الحَسَنِ، عن جُنْدَبِ بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ يس في ليلة ابتغاه وجه الله غُفِرَ له»^(١).

[٥٦٤٥] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عارمٌ، حدثنا مُعْتَمِرٌ، عن أبيه، عن رَجُلٍ، عن أبيه، عن معقل بن يَسَارٍ - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - قال: «البقرة سَنَامُ القرآنِ وَذُرْوَتُهُ، نَزَلَ مع كل آية منها ثمانون مَلَكًا، واستخرجت ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَلْمَزْتُهُمْ﴾ من تحت العرشِ فَوَصِلَتْ بها - أو: فَوَصِلَتْ بِسُورَةِ البقرة - ويس قلبُ القرآنِ، لا يقرؤها رَجُلٌ يريدُ الله والدارَ الآخرةَ، إِلَّا غُفِرَ له، وَاقْرَؤْهَا على مَوْتَاكُم»^(٢). وكذا رواه النَّسَائِي في «اليوم واللييلة»، عن محمد بن عبد الأعلى، عن معتمر بن سليمان، به.

[٥٦٤٦] ثم قال الإمام أحمد: حدثنا عارمٌ، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا سُلَيْمَانُ التَّمِيمِي، عن أبي عثمان - وليس بالتهدي - عن أبيه، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله - ﷺ -: «اقْرَؤْهَا على مَوْتَاكُم»، يعني يس^(٣). ورواه أبو داود، والنسائي في «اليوم واللييلة»، وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك، به؛ إلا أن في رواية النَّسَائِي: عن أبي عثمان، عن معقل بن يسار. ولهذا قال بعضُ العلماء: من خصائص هذه السورة أنها لا تُقْرَأُ عند أمرٍ عَسِيرٍ إِلَّا يَسَّرَهُ اللهُ تعالى. وكان قراءتها عند الميت لتُنزِلَ الرحمةَ والبركةَ، وليسهلَ عليه خروجَ الرُّوحِ، والله تعالى أعلم. قال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: «إِذَا قُرِئَتْ - يعني يس - عند الميت خَفَّفَ اللهُ عنه بها».

[٥٦٤٧] وقال البزَّازُ: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحَكَمِ بن أبان، عن أبيه، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباسٍ قال: قال النبي - ﷺ -: «لَوِ دِدْتُ أَنهَا في قلبِ كلِّ إنسانٍ من أمَّتِي»، يعني يس^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

قد تقدّم الكلام على الحروف المقتطعة في أول «سورة البقرة». وروى عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وسفيان بن عيينة: أن «يس» بمعنى: يا إنسان. وقال سعيد بن جببير: هو كذلك في لغة

= أبي هريرة. وبهذا يتبين أن علة الحديث هي الانقطاع بين الحسن وأبي هريرة، فالإسناد ضعيف. وورد من حديث أنس أخرجه الطبراني ١٢٣١٠ وفي «الصغير» ١٠١٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٢٢٩٨: فيه سعيد بن موسى الأزدي وهو كذاب اه فلا يصلح حديثه شاهداً لما قبله. وانظر ما بعده.

(١) إسناده ضعيف. أخرجه ابن حبان ٢٥٧٤، وقال الشيخ شبيب: رجاله ثقات، لكن فيه عنعنة الحسن اه قلت: ذكر ابن أبي حاتم في «المراسيل» ٤٢ أن الحسن لم يسمع من جندب. فالإسناد ضعيف لانقطاعه.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٢٦/٥ وفيه من لم يسم، وقد سما في الإسناد الآتي. فانظره.

(٣) إسناده ضعيف، وتقدم الكلام عليه باستيفاء في فضائل سورة البقرة.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه البزار ٨٧/٣، وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. وقد خلط في هذا الحديث فقد أخرجه الطبراني ١١٦١٦ من طريقه بهذا السياق لكن جعله في فضائل سورة الملك حيث قال فيه «يعني: تبارك الذي بيده الملك، اه. وانظر «المجمع» ١١٤٢٩.

الحبشة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. **﴿وَالْقُرْآنَ الْمَكِيدَ﴾** (٢)، أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، **﴿إِنَّكَ﴾** يا محمد **﴿لَئِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** (٣) على صراط مستقيم، أي: على منهج ودين قويم، وشنع مستقيم، **﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾** (٤)، أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به منزل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: **﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** (٥٢) صراط الله الذي لم يأت في السموات وما في الأرض إلا إلى الله تصير الأمور (٥٣) [الشورى: ٥٢-٥٣]. وقوله تعالى: **﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾** (٦)، يعني بهم العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته - صلوات الله وسلامه عليه - عند قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾** [الاعراف: ١٥٨]. وقوله تعالى: **﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرُ﴾**، قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، **﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** بالله، ولا يصدقون رسوله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا لَّا فِيهِمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ (٨) **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾** (٩) **﴿وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** (١٠) **﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبِئْسَ مَا يَكْفُرُونَ﴾** (١١) **﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾** (١٢)

يقول تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ الْمُحْتَرَمَ عَلَيْهِمُ بِالسَّقَاءِ نَسْبَتَهُمْ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى الْهُدَى كَنَسْبَةِ مَنْ جُعِلَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ﴾**، فجمع يديه مع عنقه تحت ذنبيه، فارتفع رأسه، فصار مقمحا، ولهذا قال تعالى: **﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾**، والمقمح هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: «وأشرب فأنقمح»^(١)، أي: أشرب فأروى، وأرفع رأسي تهنيئا وترويا. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُنْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ إِلَيْهِمَا يَلِينِي
الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتِلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل السياق والكلام عليه، وكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا لَّا فِيهِمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾** (٨)، قال: هو كقوليه عز وجل: **﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾** [الإسراء: ٢٩]، يعني بذلك أن أيديهم موقفة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن ينسبطوها بخير. وقال مجاهد: **﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾**، قال: رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير. وقوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾**، قال مجاهد: عن الحق، **﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾**، قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون. وقال قتادة: في الضلالات. وقوله تعالى: **﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾**، أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، **﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾**، أي: لا يتفحصون بخير ولا يهتدون إليه. قال ابن جرير: وزوي عن ابن عباس أنه كان يقرأ «فأغشيناهم»، بالعين المهملة، من العشا، وهو داء في العين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

جَعَلَ اللهُ هَذَا السُّدَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَهَمَّ لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ، وَقَرَأَ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع. وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن. فأنزلت: ﴿إِنَّا جَمَعْنَا فِي آسِنَتِهِمْ أَغْتَالًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمد. فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره. رواه ابن جرير.

[٥٦٤٨] وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً، فإذا مثم بُعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنات خير من جنات الأردن. وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بُعثتم بعد موتكم وكانت لكم نازت تُعدَّبون بها. وخرج عليهم رسول الله - ﷺ - عند ذلك، وفي يده حفنة من ثراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه، فجعل يذرها على رؤوسهم، ويقرأ: ﴿يَسَّ﴾ (١) وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ ﴿٢﴾، حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمَنْ خَلْفَهُمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمُ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٣)، وانطلق رسول الله - ﷺ - لحاجته، وابتاتوا رصداً على بابهِ، حتى خرَّج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظرُ محمداً. قال: قد خرَّج عليكم، فما بقي منكم من رجلٍ إلا وَضَعَ على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته. فجعل كل رجلٍ منهم يَنْقُصُ ما على رأسه من التراب. قال: وقد بلغ النبي - ﷺ - قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك: إن لهم مني لذبحاً، وإنه لأحدهم» (١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿رَسُوَاهُ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)، أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يُفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. وقد تقدّم نظيرها في أول «سورة البقرة» وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾، أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذي يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخِشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، أي: حيث لا يراه أحدٌ إلا الله، يعلم أن الله مُطَّلِعٌ عليه، وعالم بما يفعله، ﴿بِنَشْرِهِ يَمَغْفِرُونَ﴾، أي: لذنوبه، ﴿وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٣) [الملك: ١٢]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾، أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بالضلالة، فيهدبهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر فسوة القلوب، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لِمَنْ لَمْ يَلْمِزْكُمْ عَفْلُونَ﴾ (١٤) [الحديد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَنَكْشِبُ مَا قَدَّمُوا﴾، أي: من الأعمال. وفي قوله عز وجل: ﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشرها بأنفسهم، وأثارهم التي آثروها من بعدهم، فنجزبهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[٥٦٤٩] كقوله - ﷺ -: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» (١٢). رواه مسلم، من رواية شعبة، عن عون بن أبي جحيفة، عن

(١) هذا مرسل. وأصله محفوظ بل مشهور.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١.

المنذر بن جرير، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - وفيه قصة مُجْتَابِي الثَّمَارِ^(١) الْمُضْرِبِينَ. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحياة يحيى بن يعلى، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير بن عبد الله. فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾. وقد رواه مسلم من رواية أبي عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه فذكره.

[٥٦٥٠] وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده»^(٢).

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد قال: سمعت مجاهداً يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾، قال: ما أوزرنا من الضلالة. وقال ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾، يعني: ما أوزرنا، يقول: ما سئوا من سئو، فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً، وإن كانت شراً فعليته مثل أوزارهم، ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً. ذكرهما ابن أبي حاتم. وهذا القول هو اختيار البغوي.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. قال ابن أبي نجيب وغيره، عن مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾، أعمالهم، ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾، قال: خطاهم بأرجلهم. وكذا قال الحسن وقتادة: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾، يعني: خطاهم. قال قتادة: لو كان الله - عز وجل - مُغْفِلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تُعْمِي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله فليفعل. وقد وردت في هذا المعنى أحاديث:

[٥٦٥١] الحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: خَلَّتِ البِقَاعُ حَوْلَ المسجد، فأراد بنو سلمة أن يَنْتَقِلُوا قُرْبَ المسجد؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قُرْبَ المسجد؟» قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال ﷺ: «يا بني سلمة، دياركم، نُكَّتَبُ آثَارُكُمْ، دياركم نُكَّتَبُ آثَارُكُمْ»^(٣). وهكذا رواه مسلم، من حديث سعيد الجريري وكهشمس بن الحسن، كلاهما عن أبي نضرة - واسمه المنذر بن مالك بن قُطْعَةَ العَبْدِيِّ - عن جابر، به.

[٥٦٥٢] الحديث الثاني، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرق، عن سفيان الثوري، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن يَنْتَقِلُوا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ المسجد، فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكَّسْتُ مَا قَدَّمُوا

(١) أي لابسها، والنمرة: ثياب من صوف فيها تنمير. وقيل: هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٦٦٥ وأحمد ٣/٣٣٢ وابن حبان ٢٠٤٢ من حديث جابر.

وَأَثَرَهُمْ ﴿١﴾، فقال لهم النبي - ﷺ -: «إِن آثَارَكُمْ تُكْتَبُ». فلم ينتقلوا^(١). تَفَرَّدَ بإخراجه الترمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة، عن محمد بن الوزير، به. ثم قال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ». ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عُمَرَ بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عن طَرِيفٍ - وهو ابن شهاب أبو سفیان السُّعْدِي - عن أَبِي نُضْرَةَ، به. وقد رُوِيَ من غير طريق الثَّوْرِيِّ، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

[٥٦٥٣] حدثنا عَبَّاد بن زياد السَّاجِي، حدثنا عثمان بن عُمَرَ، حدثنا شُعْبَةُ، عن سعيد الجُرَيْرِي، عن أَبِي نُضْرَةَ، عن أَبِي سعيد قال: إن بني سَلَمَةَ شَكَرُوا إلى رسول الله - ﷺ - بَعْدَ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَنَكَّسْتُمْ مَا قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ﴾، فَأَقَامُوا فِي مَكَانِهِمْ^(٢).

[٥٦٥٤] وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْجُرَيْرِيُّ، عن أَبِي نُضْرَةَ، عن أَبِي سَعِيدٍ، عن النبي - ﷺ - بَنَحْوِهِ^(٣). وفيه غَرَابَةٌ مِنْ حَيْثُ ذَكَرُ نَزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَالسُّورَةُ بِكَمَالِهَا مَكِّيَّةٌ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

[٥٦٥٥] الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهَنَّمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكَّسْتُمْ مَا قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ﴾، فقالوا: تَبَّثُ مَكَانَنَا^(٤). هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع.

[٥٦٥٦] ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مَرْزَمٍ، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل، عن سِمَاكٍ، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكَّسْتُمْ مَا قَدَّمُوا وَأَثَرَهُمْ﴾، فَبَثُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ^(٥).

[٥٦٥٧] الْحَدِيثُ الرَّابِعُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعة، حَدَّثَنِي حُيَيبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عن أَبِي عبد الرحمن الحُبَلِيِّ، عن عبد الله بن عمرو قال: تَوَفَّى رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ». فقال رجلٌ من الناس: وَلَمْ يَأْسُؤْهُ اللهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَوَفَّى فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ قَيْسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطِعِ آثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ»^(٦). ورواه النسائي عن يونس بن عبد

(١) أخرجه الترمذي ٣٢٢٦ والطبري ٢٩٠٧٣ والواحدي ٧٢٠ والحاكم ٤٢٨/٢ من حديث أبي سعيد، ومداره عندهم على طريف بن شهاب أبي سفیان، وهو متروك الحديث ليس بشيء. وقلب اسمه في المستدرک، ففيه «أبي سفیان سعد بن طريف» وقد اختلف في اسمه راجع الميزان ٢٩٨٥، وأياً كان، فهو متروك. ومع ذلك حسنه الترمذي، لكن استغربه. وقال الحاكم: صحيح عجيب، وسكت الذهبي، وليس بجيد منه رحمه الله، والمنكر فيه ذكر نزول الآية، مع أن السورة مكية بكاملها كما ذكر ابن كثير - رحمه الله، وقد رواه مسلم على الصواب فليس فيه ذكر نزول الآية، وانظر ما بعده.

(٢) رجاله ثقات، لكن ذكر نزول الآية فيه غريب، ولعل الصواب - والله أعلم - أنه لما شكى بنو سلمة، قرأ عليهم النبي - ﷺ - هذه الآية، فعبّر بعض الرواة عن ذلك بقوله «نزلت» والله أعلم.

(٣) فيه عبد الأعلى بن عبد الأعلى ثقة، وفيه كلام، وتقدم الكلام على ذلك فيما قبله، والله أعلم.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢٩٠٦٩ و٢٩٠٧٠ وفيه سماك بن حرب، اختلط فضعف لأجل ذلك.

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٣١٠ وأفاد الهيثمي في «المجمع» ١١٢٩٩ بأن شيخ الطبراني ضعيف، ولكن توبع عند الطبري، وعلته سماك بن حرب كما تقدم، والله أعلم.

(٦) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٩٥٨ وابن ماجه ١٦١٤ وأحمد ١٧٧/٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وعند أحمد ابن لهيعة، وهو ضعيف، لكن تابعه ابن وهب، ومداره على حيي بن عبد الله المعافري. قال البخاري: فيه نظر. =

الأعلى، وابن ماجه عن حَزْمَلَةَ، كلاهما عن ابن وهب، عن حُيَيْبِ بن عبد الله، به. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا أبو ثَمِيلَةَ، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيتُ مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي فمشيتُا رويداً، فلما قُضِيْنَا الصلاة قال أنس: مشيتُ مع زيد بن ثابت فأسرعتُ المشي، فقال: يا أنس، أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكْتَبُ؟! أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكْتَبُ؟! وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكْتَبُ، فلأن تُكْتَبُ تلك التي فيها قُدُوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ﴾، أي: جميع الكائنات مكتوب في كتابٍ مسطورٍ مضبوطٍ في لوح محفوظ، والإمام المبيّن ها هنا هو: أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهُدَاءِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَظُنُّرُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾. قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، وهب بن منبه -: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: أنطيوخس بن أنطيوخس بن أنطيوخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل، وهم: صادق وصدوق وشلوم، فكذبهم. وهكذا زوي عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْبِ، وعكرمة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية. وقد استشكل بعض الأمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة، إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أي: بادروهما بالكذب، ﴿فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ﴾، أي: قويناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث. قال ابن جريج، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبيني قال: كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولص، والقرية أنطاكية. ﴿فَقَالُوا﴾، أي: لأهل تلك القرية: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾، أي: من ربكم الذي خلقكم، نامركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العالية. وزعم قتادة بن دعامة: أنهم كانوا رسل المسيح - عليه السلام - إلى أهل أنطاكية، ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، أي: فكيف أوجي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوجي إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة. وهذه شبهة كثيرة من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، أي استعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدُؤُنَا آبَاءُؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكاية عنهم في قوله

= وقال ابن معين: ليس به بأس. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال أحمد: أحاديثه مناكير اه الميزان. وقال النسائي عقب الحديث: حبي بن عبد الله، ليس ممن يعتمد عليه، وهذا الحديث عندنا غير محفوظ - والله أعلم - لأن الصحيح عن النبي - ﷺ - «من استطاع أن يموت في المدينة فإني أشفع لمن مات بها» اه كلامه، فالحديث غير قوي، والله أعلم.

تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِمَّا تَفْلُكُوا لِيُكْفِرُوا بِكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ ۗ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا ۗ﴾ [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: ﴿مَا أَنشَأَ إِلَّا بَشْرًا مِمَّا تَفْلُكُوا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا أَنْشَأَ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۗ﴾ [١٥] قَالُوا رَبَّنَا يَا أَيْمَنَ لَنَا لَمَّا جَاءَنَا إِيَّاكَ لَمَكْرُورُونَ ۗ﴾ [١٦]، أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رُسُلُه إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصُرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۗ﴾ [العنكبوت: ٥٢]. ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۗ﴾ [١٧]، يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أُرسلنا به إليكم، فإن أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تُجيبوا فستعلمون غيب ذلك. والله أعلم.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ﴾ [١٨] قَالُوا طَهَّرْنَاكُمْ مَكَّكُمْ أَيِّنَ دُكْرِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ مَسْرِفُونَ ۗ﴾ [١٩]

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا. وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شرٌ فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها. ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشتم. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: عقوبة شديدة. فقالت لهم رسلهم: ﴿طَهَّرْنَاكُمْ مَكَّكُمْ﴾، أي: مزودد عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْمَسْتَنَاءُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَهَّرْنَاكُمْ عِندَ اللَّهِ ۗ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وقال قوم صالح: ﴿أَمْكُرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَهَّرْنَاكُمْ عِندَ اللَّهِ ۗ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال قتادة، وَوَهَبُ بْنُ مُثَنَّبَةَ: أي أعمالكم معكم. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ حَسَٰةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَٰوِيًّا ۗ﴾ [النساء: ٧٨]. وقوله: ﴿أَيِّنَ دُكْرِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: من أجل أننا ذكركمناك وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العباد له، قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا؟! بل أنتم قومٌ مسرفون. وقال قتادة، أي: إن ذكركمناك بالله تطيّرتم بنا، بل أنتم قومٌ مسرفون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَيْتُكَ الْمُرْسَلِينَ ۗ﴾ [٢٠] أَتَيْتُكَ مِنْ لَّا يَسْتَعْلَمُونَ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۗ﴾ [٢١] وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ ۗ﴾ [٢٢] ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِصُرِّ لَّا تَعْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ۗ﴾ [٢٣] إِنِّي إِذًا لَّغِي ضَلَّالٍ مُّبِينٍ ۗ﴾ [٢٤] إِيَّتِ ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ۗ﴾ [٢٥]

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، وَوَهَبُ بْنُ مُثَنَّبَةَ -: إن أهل القرية هموا بقتل رُسُلِهِمْ، فجاءهم رَجُلٌ من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصُرهم من قومه - قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجريز - وهو الجبال - وكان رجلاً سقيماً، قد أسرع فيه الجُدَام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مُستقيم النظر. وقال ابن إسحاق عن رجل سماه، عن الحكم، عن مِقْسَم - أو: عن مجاهد - عن ابن عباس قال: اسمُ صاحبِ يس حبيب، وكان الجُدَام قد أسرع فيه. وقال الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: كان اسمه حبيب بن مري. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: اسمُ صاحبِ يس

حبيب النجار، فقتله قومه. وقال السدي: كان قَصَّاراً. وقال عمر بن الحَكَم: كان إسكافاً. وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك. ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، يَحُضُّ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَتَوْهُمْ، ﴿أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُوا آجْرًا﴾، أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُمْ مُتَهَدِّونَ﴾ فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، أي: وما يمتنني من إخلاص العبادة للذي خَلَقَنِي وحده لا شريك له، ﴿وَالَّذِي رُحِّمُونُ﴾، أي: يومَ المَعَاد، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿أَتَأْتِدُّونَ دُونَهُ الْهَيْكَةَ﴾، استفهام إنكار وتوبيخ وتقرير، ﴿إِنْ يُرِيدَنَّ الْآرْمَنُ بِضُرٍّ لَا تَعْنُ عَفْ سَقَمَتَهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقْدُونُ﴾، أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذوني مما أنا فيه، ﴿إِنِّي إِذًا لَأَبِي سَلَكِ ثُبَيْنَ﴾ (٢٦)، أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ءَأْمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥)، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب، ووهب، يقول: ﴿إِنِّي ءَأْمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، الذي كفرتم به، ﴿فَاسْمَعُونِ﴾، أي: فاسمعوا قولي. ويختلج أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿إِنِّي ءَأْمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أي: الذي أرسلكم، ﴿فَاسْمَعُونِ﴾، أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاها ابن جرير فقال: وقال آخرون: «بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إنني قد آمنتم بربكم واتبعتكم». وهذا الذي حكاها عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم. قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب، ووهب -: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبته رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمتنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: «اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون». فلم يزالوا به حتى أفضوه وهو يقول كذلك. فقتلوه، رجمه الله.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿يَا عَفْرَى لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ (٢٧) ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٢٩)

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره. وقال الله تعالى له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، فدخلها، فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقْمَ الدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَبَهَا. وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، وذلك أنه قُتِلَ فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: لا تلتقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلتقاء غاشياً، لِمَا عَيْنَ مَا عَيْنَ مِنَ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿يَا عَفْرَى لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ (٢٧)، ﴿يَنْقُورِ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿يَا عَفْرَى لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ (٢٧). رواه ابن أبي حاتم. وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: ﴿يَا عَفْرَى لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ (٢٧)، بإيماني بربي، وتضديقي المرسلين. ومقصوده أنهم لو أطلعوا على ما حصل من الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فَرَجَمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ، فلقد كان حريصاً على هداية قومه.

[٥٦٥٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا ابن جابر - وهو محمد - عن

عبد الملك - يعني ابن عمير - قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي - ﷺ -: ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام. فقال رسول الله - ﷺ -: «إني أخاف أن يقتلوك». فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني. فقال له رسول الله - ﷺ -: «انطلق». فانطلق فمر على اللات والعاذ، فقال: لأضحكتك غداً بما يسوءك. فقضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزى لا عزى، أسلموا تسلموا. يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا. قال ذلك ثلاث مرّات، فرماه رجل فأصاب أكله فقتله، فبلغ رسول الله - ﷺ -، فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس، ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ بما عقر لي ربي وحلّى من الشكرين ﴿٢٧﴾﴾ (١).

وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مغمّر بن حزم: أنه حدّث عن كعب الأحبار: أنه ذكّر له حبيب بن زيد بن عاصم - أخو بني مازن بن النجار - الذي كان مسئلمة الكذاب قطعته باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله - ﷺ -، فجعل يقول: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فيقول له مسئلمة: أسمع هذا ولا تسمع ذلك؟ فيقول: نعم. فجعل يقطعه عضواً عضواً، كلما سأله لم يزد على ذلك، حتى مات في يديه، فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب: وكان - والله - صاحب يس اسمه حبيب (٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ يَنْزِلُ السَّمَاءَ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾، يُخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تعالى عليهم، لأنهم كذبوا رُسُلَهُ، وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ. ويذكر تعالى: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جنود من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قاله ابن مسعود، فيما رواه ابن إسحاق، عن بعض أصحابه، عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ يَنْزِلُ السَّمَاءَ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾، أي: ما كاترناهم بالجُمُوع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾، قال: فأهلك الله تعالى في ذلك الملك وأهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم تبقَ منهم باقية. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾، أي: وما كُنَّا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكتناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم. وقيل: المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ يَنْزِلُ السَّمَاءَ﴾، أي: من رسالة أخرى، قاله مجاهد وقتادة. قال قتادة: فلا - والله - ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾. قال ابن جرير: والأول أصح، لأن الرسالة لا تُسمى جنداً. قال المُفسِّرون: بعث الله إليهم جبريل - عليه السلام - فأخذ بَعْضَادَتِي بَاب بَلَدِهِمْ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تبقَ فيهم روح تتردّد في جسدي. وقد تقدّم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رُسُلاً من عند المسيح - عيسى ابن مريم عليه السلام - كما نصّ عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يُذكر عن واحدٍ من متأخري المفسرين غيره. وفي ذلك نظرٌ من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدلُّ على أن هؤلاء كانوا رُسُلَ الله - عزَّ وجلَّ -، لا من جهة المسيح، كما قال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما ذكر المصنف، وهو مرسل، ورجاله ثقات. وأخرجه الطبراني ١٧/١٤٧ - ١٤٨ عن عروة بن الزبير مرسلًا وذكره الهيثمي في «الجمع» ٩/٣٨٦ وقال: وروى عن الزهري نحوه، وكلاهما مرسل، وإسنادهما حسن. وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٥/٢٩٩ - ٣٠٠ فالحديث باختلاف طرقه يصير حسناً.

(٢) هو خبر مشهور في كتب السيرة دون ذكر كعب الأحبار.

تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِدَالِيهِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٣٠﴾ . . . إلى أن قالوا: ﴿رَبَّنَا بَعَلِّغْنَا مِنَّا إِلَيْكَ لِمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣٢﴾، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تُناسِبُ أنهم من عند المسيح عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رُسُلَ المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برُسُلِ المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصراني إحدى المدائن الأربعة اللَّاتِي فِيهِنَّ بِنَارُكَ، وهُنَّ: القدس لأنها بلدُ المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطَلَحوا على اتخاذ البِنَارِكة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان. ثم رومية لأنها مَدِينَةُ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينِ الَّذِي نَصَرَ دِينَهُمْ وَأَطَّده. ولما ابنتي القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر توارِيخَهُمْ كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أَخْمَدَتْهُمُ، فالله أعلم.

الثالث: أن قِصَّةَ أَنْطَاكِيَةِ مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نُزُولِ التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخُدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يُهْلِكْ أُمَّةً من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذَكَرَهُ عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يُعْرَفْ أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

[٥٦٥٩] فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني، حدثنا حسين الأشقر، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «السُّبُّ ثَلَاثَةٌ: فَالسُّبُّ إِلَى مُوسَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَالسُّبُّ إِلَى عِيسَى صَاحِبِ يَس، وَالسُّبُّ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»^(١). فإنه حديث منكر، لا يُعْرَفْ إلا من طريق حسين الأشقر، وهو شيعي متروك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿يَحْضَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(١) إسناده ضعيف جداً، والمتن منكر. أخرجه الطبراني ١١١٥٢، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤٥٩٨: فيه حسين الأشقر، وثقه ابن حبان، وضعفه الجمهور، وبقيه رجاله حديثهم حسن أو صحيح اهـ كذا قال الهيثمي - رحمه الله - . والصواب أن الأشقر هذا ضعيف جزماً، ولا حجة بتوثيق ابن حبان له، فقد ضعفه البخاري ولينه أبو حاتم. وقال أبو زرعة: منكر الحديث وذكر ابن عدي له مناكير. وقال عقب إحداهما: والبلاء عندي من حسين، وقال الجوزجاني: غال شتام للخيرة. وكذبه أبو معمر الهنلي. ثم إن للحديث علة أخرى، وهي الراوي عنه، وهو حسين بن أبي السري كذبه غير واحد. والأشبه أنه موضوع مزور.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾، أي: يا ويل العباد. وقال قتادة: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾، أي: يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: «يا حسرة العباد على أنفسهم». ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله! فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم. ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويحسدون ما أُرْسِلَ به من الحق. ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِيَتَنَا بِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٦﴾﴾، أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرامة ولا رخصة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِيَتَنَا بِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٦﴾﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَمًا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: وإن جميع الأمم الماضية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله - عز وجل - فيجازيهم بأعمالهم كلها خيراً وشرها، ومعنى هذه كقوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيُفْتَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [هود: ١١١]. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمًا بِالْتَخْفِيفِ، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم من شدد «لَمًا»، وجعل «إن» نافية، و«لَمًا» بمعنى «إلا»، تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿وَأَيُّ لَمَمٍ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٨﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٩﴾ سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّ لَمَمٍ﴾، أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾، أي: إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، أي: جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٨﴾﴾، أي: جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾. لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطفت بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها. وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا يسعيهم ولا كدهم، ولا يحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس وقاتده. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى. واختار ابن جرير، بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً، أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، بمعنى «الذي»، تقديره: لياكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود «ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أفلا يشكرون». ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، أي: من أزواج وثمار ونبات، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فجعلهم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَأَيُّ لَهْمٍ آيَلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَلٌ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: **وَمِنَ الدَّلَالَةِ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - العَظِيمَةَ خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، هَذَا بِظِلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ، وَجَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ، يَجِيءُ هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا، وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَجِيءُ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُنِي آيَلٌ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولهذا قال - عز وجل - هاهنا: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ آيَلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، أي: نُضْرِمُهُ مِنْهُ فَيَذْهَبُ، فَيُقْبَلُ اللَّيْلُ، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.**

[٥٦٦٠] كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أنظر الصائم»^(١). هذا هو الظاهر من الآية، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى: ﴿يُؤَيِّجُ آيَلٌ فِي النَّهَارِ وَيُؤَيِّجُ آيَلٌ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. وقد ضعف ابن جرير قول قتادة هاهنا، وقال: إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية. وهذا الذي قاله ابن جرير حق.

وقوله **جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾**، في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قولان:

أحدهما: أن المراد **مُسْتَقَرُّهَا المَكَانِي، وَهُوَ تَحْتَ العَرشِ** مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات، لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث:

[٥٦٦١] قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: كنت مع النبي - ﷺ - في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش^(٢)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

[٥٦٦٢] حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: **مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرشِ**»^(٣). هكذا أورده هاهنا. وقد أخرجه في أماكن متعدّدة، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به.

[٥٦٦٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة لقمان عند آية: ٢٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٠٣ ومسلم ١٥٩ وأحمد ١٥٨/٥ وابن حبان ٦١٥٢.

أبي ذر قال: كنت مع رسول الله - ﷺ - في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: يا أبا ذر، تدري أين تذهب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها - عز وجل -، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت. فترجع إلى مَطْلَعِهَا، وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾^(١).

[٥٦٦٤] وقال سفیان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - لأبي ذر حين غربت الشمس: «أندري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها؟ وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم، حتى إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت، واستأذنت فلا يؤذن لها، فتقول: إن المسير بعيد واني إن لا يؤذن لي لا أبلغ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس، ثم يقال لها: اطلعي من حيث غربت. قال: فمن يومئذ إلى يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا لَئِ كُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوز، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزمني. قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه. وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفيَّة إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها. يروى هذا عن عبد الله بن عمرو. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: «الشمس تجري لمستقر لها»، أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتقر ولا تقيف، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾، أي: الذي لا يخالف ولا يمانع، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقتنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال تعالى: ﴿فَالقِيَامُ أَجْلٌ لِّلنَّاسِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية «حم السجدة» بقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾، أي: جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَيَّامِ الَّتِي هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِجَابِ﴾ [يونس: ٥]... الآية، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ فَخْرًا مِّنَ آيَاتِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِجَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلًا مِّنَّا نَفْعِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٩٩ ومسلم ١٥٩ والترمذي ٢١٨٦ وأحمد ١٧٧/٥ وابن حبان ٦١٥٤.

(٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، وانظر ما قبله.

فجعل الشمس لها ضوء يَخُصُّها، والقمر له نورٌ يَخُصُّه، وفاوت بين سَيْرِ هذه وهذا، فالشمسُ تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوءٍ واحدٍ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهارُ ويقصرُ الليلُ، ثم يطول الليلُ ويقصرُ النهارُ، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكبٌ نَهَارِيٌّ. وأما القمرُ فَقَدْرُهُ منازلٌ، يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قليلاً الثور، ثم يزدادُ نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلةً، ثم كلما ارتفع ازدادَ ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نورُهُ في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير ﴿كَالْمَرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾، قال ابن عباس: وهو أصل العذق. وقال مجاهد: العرجون القديم، أي: العذق اليابس. يعني ابنُ عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتقَ وييسَ وانحنى. وكذا قال غيرهما. ثم بعد هذا يُبدئه الله جديداً في أول الشهر الآخر، والعربُ تسمي كلَّ ثلاثِ ليالٍ من الشهر باسم باعتبار القمر، فيُسمون الثلاثَ الأولَ «عُزْر»، واللواتي بعدها «نُفْل»، واللواتي بعدها «تُسَع» لأن أجزأهُنَّ التاسعة، واللواتي بعدها «عُشْر»، لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها «البِيض» لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهن «دُرْع» جمع دُرْعاء، لأن أولهن سودٌ، لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الذرْعاء وهي التي رأسها أسودٌ. وبعدهن ثلاث «ظَلَم» ثم ثلاث «حَتَايَس» وثلاث «دَائِيء» وثلاث «مَحَاقٍ»، لانمحاقِ القمرِ أو أجزَ الشهرِ فيهن. وكان أبو عبيد ينكر التُسَع والعُشْر. كذا قاله في كتاب «غريب المصنّف».

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾، قال مجاهد: لكل منهما حدٌ لا يعدوه ولا يُقصرُ دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾، قال: ذلك ليلة الهلال. وروى ابنُ أبي حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للريح جناحاً، وإن القمر يأوي إلى غلافٍ من الماء. وقال الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح: لا يُدرك هذا ضوء هذا، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة في قوله عز وجل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾، يعني أن لكل منهما سلطاناً، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾، يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. وقا الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا. وأوماً بيده إلى المشرق. وقال مجاهد: ﴿وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يَطْلِبَانِ حَيْثُيْن، ينسلخ أحدهما من الآخر. والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا ترأخ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، يعني الليل والنهار، والشمس والقمر، كلُّهم يسبحون، أي: يدورون في فلَك السماء. قاله ابنُ عباس، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في فلَك بين السماء والأرض. رواه ابنُ أبي حاتم، وهو غريبٌ جداً، بل منكر^(١). قال ابن عباس وغير واحد من السلف: في فلَكَة كفلَكَة المغزَل. وقال مجاهد: الفلَك كَحَدِيدَةِ الرُّحَى، أو كفلَكَة المغزَل، لا يدور المغزَل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

(١) بل هو الصواب، فقد ثبت ذلك علمياً.

يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تعالى تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِيَحْمِلَ السُّفْنَ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح - عليه السلام - التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم. ولهذا قال: ﴿رَوَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: آباءهم، ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾، أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون: الموقر. وكذا قال سعيد بن جببير، والشعبي، وقتادة، والسدي. وقال الضحاک، وقتادة، وابن زيد: وهي سفينة نوح عليه السلام. وقوله جلّ وعلا: ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٦﴾﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة - في رواية - وعبد الله بن شداد، وغيرهم. وقال السدي - في رواية -: هي الأنعام. وقال ابن جرير: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا محمد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جببير، عن ابن عباس قال: تدرون ما قوله تعالى: ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟ قلنا: لا. قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها. وكذا قال أبو مالك، والضحاک، وقتادة، وأبو صالح، والسدي أيضاً: ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٦﴾﴾، أي: السفن. ويُقَرَّبُ هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَا طَعَا الْكَاذِبِينَ حَمَلْنَا فِي الْبَابِ ﴿٤٧﴾﴾ لِتَجَلُّهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَبِمَا أَذُنَّ أُصِيبَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]. وقوله عز وجل: ﴿وَلِكُنَّا نَعْرِفُهُمْ﴾، يعني الذين في السفن، ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾، أي: فلا مُبَيَّنَّ لهم مما هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾، أي: مما أصابهم، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾. وهذا استثناء منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نسئركم في البر والبحر، ونسلمكم إلى أجل مُسَمًّى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت معلوم عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم مُسْتَقْبِلُونَ بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، قال مجاهد: من الذنوب. وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير الكلام: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويُعْرِضُونَ عنه. واكتفى عن ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: على التوحيد وصدق الرُّسُلِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، أي: وإذا أمرُوا بالإِنْفَاقِ مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإِنْفَاقِ محاجين لهم فيما أمرهم به: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾، أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإِنْفَاقِ عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولاطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، أي: في أمركم لنا بذلك. قال ابن جرير: ويَحْتَمِلُ أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وفي هذا نظر. والله أعلم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهَمُّ مِحْصُونَ

﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٥١)، أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعابيشهم يخصمبون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرائيل فتنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها - وهي صفحة العنق - يسمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾، أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقد وردت ها هنا آثارٌ وأحاديثٌ ذكرناها في موضع آخر، ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١) ﴿قَالُوا يَا بُولُوكَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤)

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، والسَّلَانُ هو: المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءُكَ كَانَتْ إِلَىٰ نَسُوبِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) [المعارج: ٤٣]. ﴿قَالُوا يَا بُولُوكَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا؟﴾ يعنيون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا يَا بُولُوكَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا؟﴾. وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرفاد. وقال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين التفتحين. فلذلك يقولون: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا؟﴾، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من السلف -: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة. ولا منافاة، إذ الجمع ممكن، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار: ﴿يَا بُولُوكَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح. وذلك كقوله تعالى في الصافات: ﴿وَقَالُوا يَا بُولُوكَنَا هَلَّا يَوْمَ الْآلِينِ﴾ (٥٠) هَذَا يَوْمَ الْقَوْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ (٥١). وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) [الروم: ٥٥ - ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣)، كقوله عز وجل: ﴿فَأَنشَأَ مِن نَّجْوَىٰ وَاحِدَةٍ﴾ (٥٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١٣ - ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]. وقال جل جلاله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْرِهِمْ وَتَنْظُرُونَ إِن لَّبِثَتْ إِلَّا لَيْلَةً إِلَّا لِيَلَا﴾ (٥٢) [الإسراء: ٥٢]. أي: إنما نامهم أمراً واحداً فإذا الجميع محضرون، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، أي: من عملها، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ (٥٥) ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَكَوِّنُونَ﴾ (٥٦) ﴿لَهُمْ فِيهَا فِكْهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ (٥٧) ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ (٥٨)

يُخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فترلوا في روضات الجنات أنهم في

شُغِلَ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ مِنَ الْعَذَابِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فِي شُغْلٍ فَتَكْهُونُ﴾، أَي: فِي نَعِيمٍ مُعْجَبُونَ، أَي: بِهِ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَتَكْهُونُ﴾، أَي: فَرِحُونَ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعِكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالْأَعْمَشُ، وَسُلَيْمَانُ التَّمِيمِيُّ، وَالْأَوْزَاعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَتَكْهُونُ﴾ ﴿٥٥﴾، قَالُوا: شَغَلَهُمْ افْتِضَاضُ الْأَبْكَارِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ -: ﴿فِي شُغْلٍ فَتَكْهُونُ﴾، أَي: بِسَمَاعِ الْأَوْتَارِ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: لَعَلَّهُ غَلَطَ مِنَ الْمُسْتَمِعِ، وَإِنَّمَا هُوَ افْتِضَاضُ الْأَبْكَارِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ - قَالَ مُجَاهِدٌ: وَحَلَّائِلُهُمْ - ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾، أَي: فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ، ﴿عَلَّ الْأَرْيَاطِ مُمْكُونُ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَخُصَيْفٌ: ﴿الْأَرْيَاطِ﴾، هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ. قُلْتُ: نَظِيرُهُ فِي الدُّنْيَا هَذِهِ التَّخَوُّتُ تَحْتَ الْبِشَاحِينَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَمْ فِيهَا فَتَكْهُونُ﴾، أَي: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، ﴿وَلَمْ تَأْ يَنْعَوْنَ﴾، أَي: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَلَأْدِ.

[٥٦٦٥] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ الْجَنْصِيُّ، حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ كَثِيرٍ بْنِ دِينَارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُهَاجِرٍ، عَنِ الصَّحَّاحِ الْمَعَارِفِيِّ، عَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، حَدَّثَنِي كُرَيْبٌ: أَنَّهُ سَمِعَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَلَا هَلْ مَشَّمَرٌ إِلَى الْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ - وَرَبُّ الْكَعْبَةِ - نَوَّرَ كُلَّهَا يَتَلَأَلًا، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطْرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلَّلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ أَبَدٌ، فِي دَارِ سَلَامَةٍ، وَفَاكِهِةٍ خَضْرَاءَ وَحَبْرَةٍ وَنَعْمَةٍ، فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَيْتِيَّةٍ». قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ الْمَشَّمَرُونَ لَهَا. قَالَ: «قُولُوا: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ». فَقَالَ الْقَوْمُ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي «كِتَابِ الزُّهْدِ» مِنْ سُنَّتِهِ، مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَاجِرٍ، بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾: «إِنَّ اللَّهَ نَفْسَهُ سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْتَجِبُهُمْ يَوْمَ يَقُونَ سَلِّمْ﴾ [الْأَحْزَاب: ٤٤]. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَاهُنَا حَدِيثًا فِي إِسْنَادِهِ نَظَرَ، فَإِنَّهُ قَالَ:

[٥٦٦٦] حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَّارِبِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ الْعَبَادَانِيُّ، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ الرَّقَاشِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنِّدِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ، إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نَوْرٌ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ تَعَالَى قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾، قَالَ: فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَمِثُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النِّعَمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نَوْرُهُ وَبِرُكْنِهِ عَلَيْهِمْ وَفِي دِيَارِهِمْ»^(٢). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي «كِتَابِ السُّنَّةِ» مِنْ سُنَّتِهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَّارِبِ، بِهِ.

(١) مَضَى فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ عِنْدَ آيَةِ: ٧٢.

(٢) إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ ١٨٤ وَابْنُ بَرَكَةَ ٢٢٥٣ وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «صِفَةِ الْجَنَّةِ» ٩١ وَابْنُ أَبِي عَرِينَةَ فِي «الْبَعْثِ» ٤٩٣ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لَهُ عِلْتَانٌ. أَبُو عَاصِمٍ الْعَبَادَانِيُّ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْكَرُ الْحَدِيثِ. وَشَيْخُهُ الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى. قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ: سَاقِطٌ. وَأَعْلَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ٩٨/٧ بِالْفَضْلِ بْنِ عَيْسَى فَقَطْ. وَكَذَا أَعْلَهُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «الزَّوَادِ» ٤٦ بِالْفَضْلِ، وَقَالَ: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَى ضَعْفِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا حرملة، عن سليمان بن حميد قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا قرع الله من أهل الجنة والنار أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، قال: فبئس على أهل الجنة، فيردون عليه السلام - قال القرظي: وهذا في كتاب الله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ (٥٨) - فيقول الله عز وجل: سلوني. فيقولون: ماذا نسألك أي رب؟ قال: بلى سلوني. قالوا: نسألك - أي رب - رضاك. قال: رضائي أحلكم دار كرامتي. قالوا: يا رب، فما الذي نسألك، فوعزتك وجلائك وارتفاع مكانك، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم، لا ينقصنا ذلك شيئاً. قال تعالى: إن لدي مزيداً. قال: فيفعل ذلك بهم في درجهم، حتى يستوي في مجلسه. قال: ثم تأتيهم الشحف من الله - عز وجل - تحملها إليهم الملائكة. ثم ذكر نحوه^(١). وهذا أثر غريب. أورده ابن جرير من طرق. والله أعلم.

﴿وَأَمْتَدُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) ﴿أَلَمْ يَعْهَدُوا لَكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ أَسَلْنَا مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٢)

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى يتميزون عن المؤمنين من موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِنُ يَفْرَقُونَ﴾ (٦١) [الروم: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، أي: يصيرون صدعين فرقتين، ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ عَلِمُوا بِوَعْدِهِمْ وَالْوَاقِعُونَ﴾ (٦٢) من دون الله فأهدوهم إلى صراط الجحيم (٦٣) [الصفات: ٢٢ - ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْهَدُوا لَكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠)، هذا تقرير عن الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١)، أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك وأتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَسَلْنَا مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، يقال: «جبلًا» بكسر الجيم، وتشديد اللام. ويقال: «جبلًا» بضم الجيم والباء، وتخفيف اللام. ومنهم من يسكن الباء. والمراد بذلك الخلق الكثير، قاله مجاهد، والسدي، وقادة، وسفيان بن عيينة. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدولكم إلى أتباع الشيطان.

[٥٦٦٧] قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل ابن رافع، عن حذته، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم، يقول: ﴿أَلَمْ يَعْهَدُوا لَكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ أَسَلْنَا مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٢) هذوه جهنم التي كُتِبَ تُوعَدُونَ﴾ (٦٣) امتازوا اليوم أيها المجرمون. فيتميز الناس ويخجثون،

(١) أخرجه الطبري ٢٩٢٠٦ و٢٩٢٠٧ و٢٩٢٠٨ ومداره على سليمان، وقد وثقه ابن حبان وحده.

وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (١) [الجنانية: ٢٨].

﴿هَذَا يَوْمَ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا صِغِيرًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برز الجحيم لهم، تقريباً وتوبيخاً: ﴿هَذَا يَوْمَ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم، ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ لَكُمْ نَارُ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٦٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٦٤﴾ أَفَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الطور: ١٣ - ١٥]. وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾، هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين يُنكروُن ما اجترموا في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

[٥٦٦٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المكتب، عن الفضيل بن عمرو، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ - ﷺ - فَصَحَّحَ حَتَّىٰ بَدَتِ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنَ مُجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟» فيقول: بلى. فيقول: لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي. فيقول: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيًّا، وَالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاً. فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: «انطقي». فتتلق بعمله، ثم يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فيقول: بَعْدًا لَكُنْ وَسُحْقًا، فَعَتَكُنْ كُنْتُ أَنْاضِلُ» (٢). وقد زواه مسلم والنسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي الثنصر، عن أبي الثنصر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن سفيان - هو الثوري - به. ثم قال النسائي: «لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَىٰ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ سَفْيَانَ غَيْرَ الْأَشْجَعِيِّ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ». كذا قال، وقد تقدّم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي - وهو العقدي - عن سفيان.

[٥٦٦٩] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي - ﷺ - قل: «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مَقْدَمًا» (٣) على أفواهكم بالفم، فأول مَنْ يُسأل عن أَحَدِكُمْ فَيُخَذُّهُ وَكَفَّاهُ» (٤). رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به.

(١) والحديث أخرجه الطبري ٢٩٢١٠ وإسناده ضعيف، له علتان: فيه راوٍ لم يسم، وفيه إسماعيل بن رافع المدني. ذكره الذهبي في الميزان ٨٧٢ وقال: ضعفه أحمد ويحيى وجماعة، وقال الدارقطني وغيره: متروك.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٩ والنسائي في «الكبرى» ١١٦٥٣ وأبو يعلى ٣٩٧٥ وابن حبان ٧٣٥٨.

(٣) في غريب الحديث لأبي عبيد: الفم ما يغطي به الشيء، كان يغطي به الإبريق، والقصود أنهم منعوا من الكلام.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٦٩ وأحمد ٤٤٦/٤ و٤٤٧ و٤/٥ و٥ والطبراني ١٩ (٩٦٩) وإسناده حسن. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٥١/١٠ وقال: رواه أحمد في حديث طويل، ورجاله ثقات اهـ.

[٥٦٧٠] وقال سُفيان بن عُيينَةَ، عن سُهَيْل، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عن رسول الله - ﷺ - في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «ثم يَلْقَى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك، أمنتُ بك وبنبيك وكتابك، وضمنتُ وصليتُ وتصدقْتُ - ويثني بخير ما استطاع - قال: فيقال له: ألا نبعثُ عليك شاهداً؟ قال: فيفكر في نفسه، من الذي يشهدُ عليه، فيُخْتَمُ على فيه، ويقال لِفَخْذِهِ: انطقي» قال: فتنتطق فِخْذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بما كان يعملُ، وذلك المنافق، وذلك لِيُعَذِرَ من نَفْسِهِ. وذلك الذي يَسْحَطُ اللهُ عليه^(١). ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عُيينَةَ، به بطوله.

[٥٦٧١] ثم قال ابنُ أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، حدثنا ضَمْضَمُ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عُبَيْد، عن عُقْبَةَ بن عامر: أنه سَمِعَ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ فَخِذُهُ مِنَ الرَّجُلِ الْيُسْرَى»^(٢). ورواه ابنُ جرير عن محمد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عيَّاش، به مثله.

[٥٦٧٢] وقد جَوَّدَ إِسْنَادَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رحمه الله - فقال: حدثنا الْحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن ضَمْضَمِ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عُبَيْد الْحَضْرَمِيِّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عن عُقْبَةَ بن عامر: أنه سَمِعَ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ فَخِذُهُ مِنَ الرَّجُلِ الشَّمَالِ»^(٣). وقال ابنُ جرير: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُليَّة، حدثنا يُونُسُ بن عُبيد، عن حَمِيد بن هلالٍ قال: قال أبو بُرْدَةَ: قال أبو موسى هو الأشعري - رضي الله عنه -: يُدْعَى الْمُؤْمِنُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَمَلَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فيعترف فيقول: نَعَمَ أَيُّ رَبِّ، عملتُ عملتُ عملتُ. قال: فيغفر الله له ذُنُوبَهُ، وَيَسْتُرُهُ مِنْهَا. قال: فما على الأرض خَلِيقَةٌ تَرَى مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ شَيْئاً، وتبْدُو حَسَنَاتِهِ، فَوَدَّ أَنْ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرَوْهَا. ويُدْعَى الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ لِلْحِسَابِ، فيعرضُ رَبُّهُ عليه عَمَلَهُ، فَيَجْحَدُ فيقول: أَيُّ رَبِّ، وعِزَّتِكَ لَقَدْ كَتَبَ عَلَيَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا لَمْ أَعْمَلْ. فيقول له الْمَلَكُ: أما عَمِلْتَ كَذَا، في يوم كَذَا، في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعِزَّتِكَ أَيُّ رَبِّ ما عملته. فإذا قُتِلَ ذَلِكَ خُتِمَ على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإنني أحسبُ أَوَّلَ ما ينطقُ منه لَفِخْذُهُ الْيُمْنَى، ثم تلا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنظُرُ أَزْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبَيِّرُوكَ﴾^(٥)، قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسنُ البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون. وقال السُّدِّي: لو شئنا أعمينا أبصارهم. وقال مجاهد، وأبو صالح، وقناة، والسُّدِّي: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾، يعني الطريق. وقال ابنُ زيد: يعني بالصرراط هاهنا الحق، ﴿فَأَنْتَ يُبَيِّرُوكَ﴾، وقد طمَسنا على أعينهم. وقال

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٨ وقد تقدم.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٢١٥ والطبراني ٣٣٣/١٧، وظاهره الحسن، فإن رجاله ثقات، وجرى الهشيمي على ظاهره، فقال في «المجمع» ١٨٣٩٩: رواه أحمد والطبراني، وإسنادهما جيداً كذا قال الهشيمي - رحمه الله - مع أن في إسناد أحمد راو لم يسم كما هو الآتي. وقد أشار ابن كثير إلى انقطاع بقوله «وجوده الإمام أحمد» أي رواه على وجه الصحيح، وذلك بأن شريح بن عبيد لم يسمعه من عقبة، والله أعلم. وشريح، وإن كان ثقة، فإنه كثير الإرسال.

(٣) أخرجه أحمد ١٥١/٤ ح ١٦٩٢٣، وفيه راو لم يسم، فالإسناد ضعيف، وانظر ما قبله.

العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَنزَلْنَا يُعِيزُونَ﴾: لا يُبصِرُونَ الحق. وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: أهلكتناهم. وقال السُّدي: يعني لغيتنا خلقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة. وقال الحسن البصري، وقناة: لأقدمهم على أزجلبهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَا اسْتَسْقَمُوا مُنْبِيًا﴾، أي: إلى أمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: إلى ورائه. بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عُمره رُدَّ إلى الضَّعْفِ بعد القُوَّةِ والعَجْزِ بعد النشاط، كما قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]. وقال عز وجل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الشَّعْرِ لِكَيْلًا يَكْتُمَ مِنْ بَعْدِ عَلِيمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى الشَّيْبَةِ، ثم إلى الشَّيْخُوخَةِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِدَارٍ أُخْرَى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، يقول تعالى مُخْبِرًا عن نبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أنه ما عَلَّمَهُ الشعر، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، أي: وما هو في طبعه، فلا يُحْسِنُه ولا يُحِبُّه، ولا تقتضيه جِبِلَّتُهُ، ولهذا وَرَدَ أنه - عليه الصلاة والسلام - كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده رَحَفَهُ أو لم يُتِمَّهُ. وقال أبو رزعة الرازي: حَدَّثْتُ عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما لَدَّ عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر، إلا رسول الله - ﷺ -. ذَكَرَهُ ابن عساکر في ترجمة عَتَبَةَ بن أبي لهب الذي أَكَلَهُ الأسد بالزرقاء^(١).

[٥٦٧٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن - هو البصري - قال: إن رسول الله - ﷺ - كان يتمثل بهذا البيت: «كفى بالإسلام والشَّيْبَ للمرء ناهياً». قال أبو بكر: يا رسول الله:

كفى الشَّيْبَ والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾^(٢).

[٥٦٧٤] وهكذا رَوَى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله - ﷺ - قال للعباس بن مُزَدَّاس السُّلَمِيُّ: أنت القائل: «أجعل نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة». فقال: إنما هو: «بين عيينة والأقرع». فقال: «الكل سواء»^(٣). يعني في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر السَّهْلِيُّ في «الرَّوَضِ الْأَنْفِ» لهذا التقديم والتأخير الذي وَقَعَ في كلامه - عليه السلام - في هذا البيت مناسبةً أغربَ فيها، حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عيينة بن بَدْرِ الفَرَّازِيِّ، لأنه ارتدَّ أيام الصديق، بخلاف ذلك. والله أعلم.

(١) مدينة في الأردن.

(٢) هذا مرسل، ومع إرساله، فيه علي بن زيد، وهو ابن جدعان واه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١٧٩/٥ - ١٨١ عن موسى بن عقبة مرسلًا.

[٥٦٧٥] وهكذا رَوَى الْأُمَوِيُّ فِي مِغَازِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - جَعَلَ يَمْشِي بَيْنَ الْقَتْلَى يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ

يقول:

نُفَلِّقُ هَامَا.....

فيقولُ الصديق - رضي الله عنه - مُتَمِّمًا لِلْبَيْتِ:

..... مِنْ رِجَالِ أَعْرَازَةٍ عَلَيْنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعْتَقُوا وَأَظْلَمَا^(١)

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له، وهي في الحماسة.

[٥٦٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا مغيرة، عن الشعبي، عن عائشة - رضي الله عنها -

قالت: كان رسول الله - ﷺ - إِذَا اسْتَرَاتَ^(٢) - إِذَا اسْتَرَاتَ^(٢) الخَيْرَ تَمَثَّلَ فِيهِ بِبَيْتِ طَرْفَةٍ:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ^(٣)

وهكذا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» مِنْ طَرِيقِ إِبرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْهَا. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ

وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ الْمُقَدَّمِ بْنِ شَرِيحِ بْنِ هَانِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - كَذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ

التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٦٧٧] وقال الحافظ أبو بكر البَرَزِيُّ: حدثنا يُونُسُ بْنُ مُوسَى، حدثنا أَسَامَةُ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنْ سِمَاكِ،

عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَتَمَثَّلُ مِنَ الْأَشْعَارِ:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ^(٤)

ثم قال: ورواه غيرُ زائدة، عن سِمَاكِ، عن عكرمة، عن عائشة. وهذا في شعر طرفة بن العبد في معلقته

المشهورة، وهذا المذكور عجز بيت منها، أوله:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

بَنَاتًا، وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتٌ مَوْعِدِ

[٥٦٧٨] وقال سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ: قِيلَ لعائشة: هل كان رسولُ الله - ﷺ - يتمثل بشيء من

الشعر؟ قالت: كان أبلغُ الحديثِ إليه، غير أنه كان يتمثل ببَيْتِ أَخِي بَنِي قَيْسٍ، فيجعل أوله آخره، وآخره

أوله. فقال أبو بكر: ليس هكذا. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «إني والله ما أنا بشاعرٍ ولا يتَّبِعِي لِي»^(٥). رواه ابن

أبي حاتم، وابن جرير، وهذا لفظه.

[٥٦٧٩] وقال مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ: بَلَّغَنِي أَنَّ عَائِشَةَ سَأَلَتْ: هل كان رسولُ الله - ﷺ - يتمثل بشيء من

الشعر؟ فقالت: لا، إلا ببَيْتِ طَرْفَةٍ:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

(١) عزاه المصنف لمغازي الأموي ولم يذكر إسناده، وكتابه لم يطبع بعد. فإله أعلم.

(٢) استرات: استبطأ.

(٣) أخرجه أحمد ٣١/٦ و١٤٦ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨٣٣ وفيه إرسال، لكن وصله الترمذي ٢٨٤٨ والنسائي ١٠٨٣٤

وقال الترمذي: حسن صحيح. وفيه شريك وهو حسن الحديث في التابعات.

(٤) أخرجه البزار ٢١٠٦ والطبراني في «الكبير» ١١٧٦٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٢٨/٨: ورجالهما رجال الصحيح اهـ.

لكن سماك اختلط بأخرة، ومع ذلك يشهد لما قبله.

(٥) مرسل. أخرجه الطبري ٢٩٢٢٩ وفيه انقطاع بين قتادة، وعائشة رضي الله عنها. لكن تقدم من وجه آخر.

فَجَعَلَ يَقُولُ: «من لم تُزَوِّد بالأخبار». فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: ليس هذا هكذا. فقال: «إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي»^(١).

[٥٦٨٠] وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد ابن نعيم، وكيل المثقي ببغداد، حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضريز، حدثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما جمع رسول الله - ﷺ - بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَفَاهَلُ بِمَا تَهْوَى يُكْزَنُ، فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لشيءٍ كَانَ إِلَّا تَحَقَّقَا^(٢)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني عن هذا الحديث، فقال: هو مُنْكَرٌ. ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضريز.

[٥٦٨١] وثبت في الصحيحين أنه - عليه الصلاة والسلام - تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رَوَاحَةَ، ولكن تبعاً لقول أصحابه، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا امْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّىْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَتَوَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنِ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أْبَيْنَا

ويرفع صوته بقوله: «أبينا» ويمدّها^(٣). وقد روي هذا بزحاف في الصحيح أيضاً.

[٥٦٨٢] وكذلك ثبت أنه قال يوم حُتَيْن وهو راكب البغلة، يقدم بها في نحور العدو:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٤)

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه.

[٥٦٨٣] وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله - ﷺ - في غار

فَتَكَبَّتْ إضْبَعُهُ، فقال:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إضْبَعُ دَمِيئِ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ^(٥)

وسياتي عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٣٢] إنشأؤ:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

وكل هذا لا ينافي كونه - ﷺ - ما علم شعراً ولا ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم الذي

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وليس هو بشعر كما زعمه

(١) هو مرسل، ويشهد لأصله ما تقدم.

(٢) منكر. أخرجه البيهقي ٤٣/٧ وقال: ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد، وفيهم من يجهل حاله. ونقل ابن كثير رحمه الله عن شيخه المزني قوله: هو منكر، وفيه عمر بن أحمد شيخ الحاكم، وعبد الله بن هلال، وكلاهما لا يعرف كما ذكر ابن كثير ولم أجد لهما ترجمة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٣٦ ومسلم ١٨٠٣ وأحمد ٢٨٥/٤ وابن حبان ٤٥٣٥ من حديث البراء. والزحاف في الشعر: سقوط حرف بين حرفين، فزحف أحدهما إلى الآخر، والمراد هنا كسر البيت.

(٤) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٢٥.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٢٨٠٢ ومسلم ١٧٩٦ والترمذي ٣٣٤٥ وأحمد ٣١٢/٤ وابن حبان ٦٥٧٧.

طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سخر يؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال. وقد كانت سجيته - ﷺ - تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً؛ كما رواه أبو داود قال:

[٥٦٨٤] حدثنا عبید الله بن عمر، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا شرحبيل بن يزيد المَعافري، عن عبد الرحمن بن رافع الثَّوخي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما أبالي ما أتيت إن أنا شربت تزيافاً، أو تعلقت تميمَةً، أو قلت الشعر من قبل نفسي»^(١).
تفرد به أبو داود.

[٥٦٨٥] وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نؤفل قال: سألت عائشة: أكان رسول الله - ﷺ - يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبلغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله - ﷺ - يُعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك^(٢).

[٥٦٨٦] وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ -: «لأن يمتلىء جوف أحدكم فيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً»^(٣). تفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه.

[٥٦٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا قزعة بن سويد الباهلي، عن عاصم بن مخلد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحدثنا الأسيب فقال: عن ابن عاصم، عن أبي الأشعث، عن شذاد بن أوس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة لم تقبل له صلاة تلك الليلة»^(٤). وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. والمراد بذلك نطقه لا إنشاده، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام،

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أبو داود ٣٨٦٩ والبيهقي ٣٥٥/٩، وضعفه المنذري في مختصر أبي داود ٣٧٢٠ وقال: فيه عبد الرحمن بن رافع، قال البخاري في حديثه بعض المناكير، وحكى ابن أبي حاتم عن أبيه نحو هذا اهـ. وجزم الحفاظ في التقريب بضعفه. قال الشيخ ابن القيم في تهذيب السنن: ليس شرب الترياق مكروهاً من أجل التداوي، ولكن من أجل ما يقع فيه من لحوم الأفاعي، وهي محرمة اهـ.

(٢) أخرجه أحمد ١٨٩/٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩/٨: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) تقدم في تفسير سورة الشعراء.

(٤) ضعيف. أخرجه أحمد ١٢٥/٤ والعقيلي ٣٣٩/٣ والبزاز ٢٠٩٤ والطبراني ٧١١٣٤ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/٢٦١ وقال: هذا حديث موضوع. وقال العقيلي: لا يعرف إلا بعاصم، ولا يتابع عليه. قال ابن الجوزي: عاصم في عداد المجهولين. وفيه قزعة بن سويد، قال أحمد: مضطرب الحديث. وقال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٥ و١٣٣١٦: فيه قزعة بن سويد، وثقة ابن معين، وضعفه غيره، وبقية رجاله وثقوا اهـ. ونقله عنه السيوطي في «اللاذء» ١/٢١٨: زاد: وقال ابن حجر في «القول السدء»: ليس في شيء مما ذكره أبو الفرج ما يقضي الوضع، وعاصم ليس مجهولاً، بل ذكره ابن حبان في الثقات، وتابعه عليه عبد القدوس بن حبيب عن أبي الأشعث، أخرجه البيهقي في «الجمعيات»، وقزعة وثقة الجمهور، وفيه ضعف، والحاصل أن حديثه في مرتبة الحسن. ورواه موسى بن أيوب عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، أورده ابن أبي حاتم (في العلل: ٢٢٨٥) ونقل عن أبيه أن الصواب وقفه. وأخرجه محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة» عن أبي الأشعث عن ابن عمر موقوفاً اهـ. فتبين بذلك أن الحديث ضعيف، وأن الراجح وقفه، فلم يتضح وضعه خلافاً لابن الجوزي، ولا حسنة خلافاً لابن حجر، والله تعالى أعلم.

كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن زُوَاحَة، وأمثاليهم وأضرابهم - رضي الله عنهم - أجمعين .
ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي - ﷺ - :

[٥٦٨٨] «أَمَرَ شَعْرُهُ وَكَفَّرَ قَلْبُهُ»^(١).

[٥٦٨٩] وقد أنشد بعض الصحابة للنبي - ﷺ - منه مئة بيت، يقول عقب كل بيت: «هيه»، يعني يَسْتَطِعُهُ، فيزيده من ذلك^(٢).

[٥٦٩٠] وقد رَوَى أبو داود من حديث أبي بن كعب، وبُرَيْدَة بن الحُصَيْب، وعبد الله بن عباس: أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حُكْمًا»^(٣). ولهذا قال تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ»، يعني: محمداً - ﷺ - ما علمه الله شعراً، «وَمَا يَلْبِغِي لَهُ»، أي: وما يصلح له، «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»، أي: ما هذا الذي علمناه إلا ذكْرٌ وقرآنٌ مبينٌ، أي: بيّنٌ واضحٌ جليٌّ لمن تأملهُ وتَدَبَّرَهُ. ولهذا قال تعالى: «لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا»، أي: لينذر هذا القرآن البين كلَّ حيٍّ على وجه الأرض، كقوله تعالى: «لِيَأْذَنَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلِغْ» [الأنعام: ١٩]، وقال جلٌ وعلا: «وَمَنْ يَكْفُرْ يَوْمَ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَمَ الثَّمَمَاتِ» [هود: ١٧]. وإنما ينتفع بِنِذَارَتِهِ من هو حي القلب، مُسْتَنِير البَصِيرَة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر. وقال الضحاك: يعني عاقلاً. «وَيَحْيِ الْقَوْلَ عَلَى الْكٰفِرِينَ»، أي: هو رحمةٌ للمؤمنين، وحثٌّ على الكافرين.

﴿أَوْلَىٰ تَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ وَمَا عَلَّمْت أَيْدِيًا أَنْعَمَّا فَهَمُّ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ - قال قتادة: مُطِيقُونَ: أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغيّر إلى بغير لاناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذلك ذليل منقاد معه. وكذا لو كان القطار مئة بغير أو أكثر، لسار الجميع بسير صغير. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أي: منها ما يزكبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، إذا شأوا ونحروا واجتازوا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي: من: ﴿أَسْوَأُهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمَتْنًا إِلَىٰ جِيبِ﴾ [النحل: ٨٠]، ﴿وَمَشَارِبٌ﴾، أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: أفلا يؤخذون خالق ذلك ومُسخره، ولا يشكرون به غيره؟!!

﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْمُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى مُنْكَرًا على المشركين في اتِّخَاذِهِم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصُرهم تلك الآلهة وترزُقهم وتقرّبهم إلى الله زُلْفَى. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أي: لا تقدر الآلهة على نصْر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدخر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام

(١) تقدم تفسيره في سورة الشعراء.

(٢) أيضاً مضى في تفسير سورة الشعراء، وقد أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٨٣٦.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٠٢.

مِمَّنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ، لَأَنهَا جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُنْحَرُونَ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي عِنْدَ الْحِسَابِ. يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مَحْشُورَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُخْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ عَابِدِيهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي خِزْيِهِمْ، وَأَدْلَى عَلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، يَعْنِي الْآلِهَةَ، ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُنْحَرُونَ﴾، وَالْمَشْرُوكُونَ يَغْضَبُونَ لِلآلِهَةِ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَا تَسُوْقُ إِلَيْهِمْ خَيْرًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُ سُوءًا، إِنَّمَا هِيَ أَصْنَامٌ. وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، أَي: تَكْذِيبُهُمْ لَكَ وَكُفْرُهُمْ بِاللَّهِ، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَكَ وَمَا يُنْذِرُونَكَ﴾، أَي: نَحْنُ نَعْلَمُ جَمِيعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَسَنَجْزِيهِمْ وَضَفَّهُمْ وَنَعَامِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا، وَلَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

﴿أَوْلَتْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ نُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

[٥٦٩١] قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ: جَاءَ أَبِي بِنِ خَلْفٍ - لَعْنَهُ اللَّهُ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَفِي يَدِهِ عِظْمٌ رَمِيمٌ وَهُوَ يَفْتَهُ وَيَذْرُوهُ فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْزَعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، يُعَيْتِكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ». وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ «يَس»: ﴿أَوْلَتْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ... إِلَى آخِرِهِمْ^(١)﴾.

[٥٦٩٢] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْجَنِيدِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ الزِّيَاتِ، عَنْ هُشَيْمٍ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ الْعَاصِيَّ ابْنَ وائِلٍ أَخَذَ عِظْمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: أَيُّحْيِي اللَّهُ تَعَالَى هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «نَعَمْ يُعَيْتِكَ اللَّهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يَدْخِلُكَ جَهَنَّمَ». قَالَ: وَنَزَلَتْ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ «يَس»^(٢). وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَعْقُوبِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ هُشَيْمٍ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَذَكَرَهُ، وَلَمْ يَذْكُرِ «ابْنَ عَبَّاسٍ». وَرَوَى مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَعْظَمٍ فَفَتَّهُ. وَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ^(٣). وَهَذَا مُنْكَرٌ، لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ سِوَاهُ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي أَبِي بِنِ خَلْفٍ، أَوْ فِي الْعَاصِ بْنِ وائِلٍ، أَوْ فِيهِمَا، فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ، وَالْأَلْفَ وَاللَّامَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْلَتْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ لِلْجِنْسِ، يُعْمُ لِكُلِّ مَنْكَرٍ لِلْبَعْثِ. ﴿أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾، أَي: أَوْ لَمْ يَسْتَدَلِّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّنْ تَقُولُونَ إِنَّا نَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١]، إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٧٧﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١]، إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٧٧﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١]، إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٧٧﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٢].

(١) هذه مراسيل تقوي الحديث الآتي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٢٤٣ عن سعيد بن جبيرة مرسلًا.

(٣) فيه عطية بن سعد العوفي، واه. وقد تقدم أنه ورد في أبي بن خلف في مراسيل عدة، وفي حديث ابن عباس في العاص بن وائل. وأياً كان فالخير مكِّي، والسورة مكِّيَّة، كما قال الحافظ ابن كثير. وانظر «الدر المنثور» ٥٠٧/٥ - ٥٠٨.

تُطْفِئُ أَمْشَاجَ بَنَاتِهِ ﴿الإنسان: ٢﴾، أي: من نطفة من أخلاطٍ مُتَّفَرِّقَةٍ، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة اليس بقادرٍ على إعادته بعد موته؟! كما قال الإمام أحمد في مُسنِّده:

[٥٦٩٣] حدثنا أبو المغيرة، حدثنا حريز، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عن بُسْرِ بْنِ جِحَاشٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا إصْبِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْذِيكَ وَللأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٍ ^(١)، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الثَّرَاقِي قُلْتَ: «أَتَصَدَّقُ» وَأَتَى أَوَّانَ الصَّدَقَةِ ^(٢)؟! وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي يَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ، عَنْ حَرِيْزِ بْنِ عُثْمَانَ، بِهِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَنَآكِلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِني الْعَظْمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، أَي: اسْتَبَعَدَ إِعَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى - ذِي الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - لِلْأَجْسَادِ وَالْعِظَامِ الرَّؤِيمَةِ، وَنَسِيَ نَفْسَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا اسْتَبَعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾، أَي: يَعْلَمُ الْعِظَامَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا، أَيْنَ ذَهَبَتْ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ؟

[٥٦٩٤] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ قَالٍ قَالَ عَقِبَةُ بْنُ عَمْرٍو لِحَدِيثِيكَ: أَلَا تَحَدَّثُنَا مَا سَمِعْتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَ الْمَوْتَ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا كَثِيرًا جَزَلًا، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلْتُ لَحْمِي وَخَلَّصْتُ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحِشْتُ ^(٣)، فَخُذُوهَا فَذُقُوهَا فَذُرُوهَا فِي الْيَمِّ. فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ حَشْيَتِكَ. فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ. فَقَالَ عَقِبَةُ بْنُ عَمْرٍو: وَأَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ. وَكَانَ تَبَاشًا ^(٤). وَقَدْ أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، بِالْفَافِ كَثِيرَةً، مِنْهَا: أَنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يَحْرِقُوهُ ثُمَّ يَسْحَقُوهُ، ثُمَّ يَذُرُوا يَصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَيَصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فِي يَوْمٍ رَائِحٍ، أَي: كَثِيرِ الْهَوَاءِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ. فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ. فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: مَخَافَتُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ. فَمَا تَلَفَاهُ أَنْ غَفَرَ لَهُ ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنتَ تُوقِدُونَ ﴿٨٥﴾﴾، أَي: الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ هَذَا الشَّجَرِ مِنْ مَاءٍ حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِرًا ذَا ثَمَرٍ وَيَتَع، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى أَنْ صَارَ حَطْبًا يَابِسًا، تُوقَدُ بِهَا النَّارُ، كَذَلِكَ هُوَ قَعَالٌ لَمَّا يَشَاءُ، قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ، لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنتَ تُوقِدُونَ ﴿٨٥﴾﴾، يَقُولُ: الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّارَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ قَادِرٌ أَنْ يَنْتَعَهُ. وَقِيلَ:

(١) الوئيد: الصوت.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٧٠٧ وأحمد ٤/٢١٠ وصحح البوصيري إسناده. وفي إسناده عبد الرحمن بن ميسرة. وثقه العجلي وابن حبان، وقال علي المديني: مجهول، وقال عنه الحافظ في «التقريب»: مقبول، فالإسناد لين، وذكر لفظ «بصق» غريب، ولعل الراجح أن الرجل مجهول، ومع ذلك ذكره الألباني في «الصحيحه» ١٠٩٩ و١١٤٣ وحسنه من غير ذكر شواهد ومتابعات وإنما اعتمد توثيق ابن ميسرة.

(٣) الجزل: الخطب اليابس، أو الغليظ العظيم منه. وامتحنش: احترق.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٥/٣٨٣ وابن حبان ٦٥١ من حديث حذيفة.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٧٩ والنسائي ٤/١١٣ وهو في الصحيحين لكن من حديث أبي سعيد الخدري انظر «صحيح البخاري» ٣٤٧٨ و«صحيح مسلم» ٢٧٥٧.

المراد بذلك شجر المَرْخ والعَفَّار^(١)، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قُدْح نارٍ وليس معه زِنَادٌ، فيأخذ منه عُودَيْنِ أَحْضَرَيْنِ، ويقَدْحُ أحدهما بالآخر، فَتَتَوَلَّدُ النارُ مِنْ بَيْنَهُمَا، كَالزَّنَادِ سِوَاءٍ. رَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - . وَفِي الْمَثَلِ: «كُلُّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمَجَدَ المَرْخُ والعَفَّارُ». وَقَالَ الْحَكَمَاءُ: فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ إِلَّا الْعَنَابَ.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى مُتَّبِعًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالثُّوَابِتِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ، وَبِحَارٍ وَقِفَارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمُرْشِدًا إِلَى الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾، أَي: مِثْلَ الْبَشَرِ، فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَاهُنَا: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، أَي: إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّارٍ وَتَأْكِيدٍ:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَاِنَّمَا يَقُولُ لَهُ «كُنْ» فَيَكُونُ

[٥٦٩٥] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ الْمُسَيْبِ، عَنْ شَهْرٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ، عَنْ أَبِي دَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ مَذْنَبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتَ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتَ، إِنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ، عَطَائِي كَلَامٌ وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِذَا أَرَدْتَ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾. أَي: تَنْزِيَهُ وَتَقْدِيسَ وَتَبَرُّقَهُ مِنَ السُّوءِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُ الْعِبَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعَمُ الْمَتَفَضَّلُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كَقَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فَالْمَلِكُ وَالْمَلَكُوتُ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى، كَرَحْمَةِ وَرَحْمُوتٍ، وَرَهْبَةٍ وَرَهْبُوتٍ، وَجَبْرٍ وَجَبْرُوتٍ. وَمَنْ النَّاسُ مِنْ رَعَمَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ عَالَمُ الْأَجْسَادِ، وَالْمَلَكُوتُ هُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ وَغَيْرِهِمْ.

[٥٦٩٦] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُرَيْجُ بْنُ الثُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، حَدَّثَنِي ابْنُ عَمِّ لِحُدَيْفَةَ، عَنْ حُدَيْفَةَ - وَهُوَ ابْنُ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ذَاتَ لَيْلَةٍ،

(١) ضرب من الشجر شديد الاشتعال.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنفال عند آية: ٥١.

فقرأ السبع الطول في سبع ركعات، وكان إذا رَفَعَ رأسه من الرُّكُوع قال: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمَدَهُ. ثم قال: «الحمد لله ذي المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ والكِبَرِيَاءِ والعِظَمَةِ»^(١). وكان رُكُوعه مثلَ قِيامه، وسُجُودُه مثلَ رُكُوعه، فانصرف وقد كادت تَنكَبِرُ رِجْلَايَ.

[٥٦٩٧] وقد رَوَى أبو داود، والترمذي في «الشمال»، والنسائي، من حديث شُعْبَةَ، عن عَمْرِو بن مُرَّة، عن أبي حَمْزَةَ - مولى الأنصار - عن رجل من بني عَبَس، عن حذيفة: أنه رأى رسول الله - ﷺ - يُصَلِّي من الليل، وكان يقول: «الله أكبر - ثلاثاً - ذو المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ والكِبَرِيَاءِ والعِظَمَةِ». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان رُكُوعه نحواً من قِيامه، وكان يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيمِ». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قِيامه نحواً من ركوعه، وكان يقول في قِيامه: «لربِّي الحمد». ثم سجد. فكان سجوده نحواً من قِيامه، وكان يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيمِ». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجودتين نحواً من سُجُوده، وكان يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي». فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فقرأ فِيهِنَّ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة - أو الأنعام - شُكَّ شُعْبَةَ^(٢). هذا لفظ أبي داود. وقال النسائي: «أبو حمزة عندنا طلحة بن يزيد، وهذا الرجل يشبه أن يكون صِلَةً». كذا قال، والأشبه أن يكون ابن عمِّ حَذِيفَةَ، كما تقدّم في رواية الإمام أحمد والله أعلم، فأما رواية صِلَةَ بن زُفَر، عن حَذِيفَةَ، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ والكِبَرِيَاءِ والعِظَمَةِ.

[٥٦٩٨] وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حُمَيد، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمْتُ مع رسول الله - ﷺ - ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآيةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، ولا يمرُّ بآيةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قال: ثم رَكَعَ بقدر قِيامِهِ، يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ والكِبَرِيَاءِ والعِظَمَةِ». ثم سَجَدَ بقدر قِيامِهِ، ثم قال في سُجُوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة^(٣). ورواه الترمذي في «الشمال»، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به.

آخر تفسير سورة يس، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه أحمد ٣٨٨/٥ و٣٩٦ وفيه راوٍ لم يسم، لكن تويج عند مسلم، ويشهد له ما بعده.

(٢) أخرجه أبو داود ٨٧٤ والترمذي في «الشمال» ٢٧٠، وفيه راوٍ لم يسم.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٨٧٣ وإسناده حسن، رجاله ثقات، وهو متصل الإسناد، ويشهد له ما قبله وأصله عند مسلم.

قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٦٦: فيه عاصم بن عمر بن حفص، وثقه ابن حبان، وقال: يخطيء، ويخالف، وضعفه الجمهور. كذا وقع للهيثمي، وقد نسب الذهبي فقال: عاصم بن بهدلة أهد وهو صدوق سيء الحفظ. ثم إن فيه أبو جعفر، وهو الرازي اسمه عيسى بن عبد الله وضعفه الجمهور، وكذا فيه أبو هشام، محمد بن يزيد قال البخاري: رأيتهم مجتمعين على وضعفه. وقال ابن نمير: كان يسرق الحديث، والحديث وضعفه الذهبي بقوله: غريب جداً.



وهي مكية

[٥٦٩٩] قال النسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد - يعني ابن الحارث - عن ابن أبي ذئب: قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله - ﷺ - يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات^(١). تفرّد به النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ ١ ﴿فَالرَّجَرِ نَجْرًا﴾ ٢ ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ ٣ ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ٤ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبِّ الْمَشْرِقِ﴾ ٥ ﴿

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ ١ وهي الملائكة، ﴿فَالرَّجَرِ نَجْرًا﴾ ٢، هي الملائكة، ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ ٣، هي الملائكة. وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وقنادة، والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء.

[٥٧٠٠] وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربيعي، عن حذيفة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُنَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(٢).

[٥٧٠١] وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المسيب بن رافع، عن تميم بن طرفة، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟». قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يَتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»^(٣).

وقال السدي وغيره: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالرَّجَرِ نَجْرًا﴾ ٢: أَنَّهَا تَزْجُرُ السُّحَابَ. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالرَّجَرِ نَجْرًا﴾ ٢، ما زَجَرَ اللهُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ. وكذا روى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ ٣، قال السدي: الْمَلَائِكَةُ يَجِئُونَ بِالْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِلَى النَّاسِ. وهذه الآية

(١) أخرجه النسائي ٤٥٢ في «التفسير» وأحمد ٢٦/٢، ٤٠ وابن خزيمة ١٦٠٦، وهو صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٥٢٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٤٣٠ وأبو داود ٦٦١ وابن ماجه ٩٩٢ والنسائي في تفسيره ٤٥٤.

كقوله تعالى: ﴿فَالْمَلِئِكَةُ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات: ٥ - ٦]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هذا هو المُقسَم عليه، أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، أي: هو المالك المتصرف في الخلقِ بِشَخِيرِهِ بما فيه من كَوَاكِبِ نَوَابِتِ، وسَيَّاراتِ تَبْدُو من المشرق، وتَغْرُبُ من المغرب. واكتفى بذكر المشارِق عن المغرب لدلالاتها عليه. وقد صرَّح بذلك في قوله عز وجل: ﴿لَا أَسْئِمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المعارج: ٤٥]. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدَّرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخْرًا وَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْمُنْتَظَّةَ فَاتَّبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٠﴾﴾
يُخبر تعالى أنه زَيْنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِلنَّاطِرِينَ إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ قرىء بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكبُ السَّيَّارةُ والشوايِبُ يَنْقُبُ ضَوْوُهَا جُزْمَ السَّمَاءِ الشَّفَافِ، فَتَضِيءُ لأهل الأرض، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبُوحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥]. وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُمْ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]. فقوله جل وعلا هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾، تقديره، وحفظناها حفظًا، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾، يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهابٌ ثَائِبٌ فأحرقه، ولهذا قال جل جلاله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾، أي: لئلاَّ يَصِلُوا إلى الملا الأعلى، وهي السموات وَمَنْ فيها من الملائكة، إذا تكلَّمُوا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شَرِّعه وقَدْره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تبارك وتعالى: ﴿حَوْثٌ إِذَا فُرِجَ عَنْ قَلْبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَمَلُ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُقَدَّرُونَ﴾، أي: يُرْمُونَ ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾، أي: من كلِّ جهةٍ يَفْصِدُونَ السَّمَاءَ منها، ﴿دُخْرًا﴾، أي: رَجْمًا يُدْحَرُونَ به وَيُزَجَّرُونَ وَيُثْمَنُونَ من الوضُولِ إلى ذلك وَيُرْجَمُونَ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌّ، كما قال جلَّتْ عظمتُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْمُنْتَظَّةَ﴾، أي: إلا من اختطف من الشياطين الحَظْفَةَ، وهي الكلمة يَسْمَعُها من السَّمَاءِ فَيُلْقِيها إلى الذي تحته، ويُلْقِيها الآخر إلى الذي تحته، فَرُبَّمَا أدركه الشهاب قبل أن يُلْقِيها، وَرُبَّمَا ألقاها بِقَدْرِ الله قبل أن يأتيه الشهابُ فَيُحْرِقُه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدَّم في الحديث. ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْمُنْتَظَّةَ فَاتَّبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٠﴾﴾، أي: مستتير.

[٥٧٠٢] قال ابن جرير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد في السماء، قال: فكانوا يَسْتَمِعُونَ الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرْمَى. قال: فإذا سمِعوا الوحي نَزَلُوا إلى الأرض، فزادوا الكلمة تسعاً. قال: فلما بُعِثَ رسول الله - ﷺ - جعل الشيطان إذا قَعَدَ مَقْعَدَهُ جاء شهابٌ فلم يُخْطئه حتى يُحْرِقَه قال: فَشَكُوا ذلك إلى إبليس [لعنه الله]، فقال: ما هو إلا من أمرِ حَدَثٍ. قال: قَبِثَ جنوده فإذا رسول الله - ﷺ - قائمٌ يصلي بين جبَلَيْ نَخْلَةَ - قال: وَكَيْعٌ: يعني بَطْنِ نَخْلَةَ - قال: فرجِعُوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث. وستأتي [إن شاء الله تعالى] الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَنَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَمَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا

مَقْدَمًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِيهَ أَشْرٌ أُرِيدُ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٢﴾ ﴿١﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿ فَاسْتَفِينِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنَ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ آبَاءُؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: فسئل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «أم من عذذنا» - فإنهم يقولون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم يُنكروا البعث، وهم يُشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا؟ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بيّن أنهم خُلِقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق ببعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلتزق باليد. وقوله عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، أي: بل عجبنا - يا محمد - من تكذيب [هؤلاء] المنكرين للبعث، وأنت موفقٌ مُصَدِّقٌ بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. قال قتادة: عجب محمد - ﷺ - وسخر ضلال بني آدم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴿١٣﴾﴾، أي: دلالة واضحة على ذلك، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾، قال مجاهد وقاتدة: يستهزئون. ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: استعبدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً، ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾، أي: خفيرون تحت القدرة العظيمة. كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرٍ﴾ [النمل: ٨٧]. وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْيَاقَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادِي سَيْخِرُونَ بِهِمْ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾، أي: إنما هو أمر واحد من الله - عز وجل - يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ احشروا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ فِيهِمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَّا تَنصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ آلِيَوْمِ مَسْتَسْمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾، فنقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾. وهذا يقال لهم

على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تُتميز الكفار من المؤمنين في الموقف في مَحْشَرِهِمْ وَمُنْشَرِهِمْ. ولهذا قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، قال النعمان بن بشير - رضي الله عنه -: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبّير، وعكرمة ومجاهد، والسدي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم. وقال سفيان الثوري، عن سَمَاك، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، قال: إخوانهم. وقال شريك، عن سَمَاك، عن النعمان قال: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، قال: أشباههم. قال: يجيء صاحبُ الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وصاحبُ الزَّنا مع أصحاب الزَّنا. وصاحبُ الخمر مع أصحاب الخمر. وقال خُصَيْف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: أزواجهم: نساؤهم. وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبّير، عنه: أزواجهم: قرناؤهم. ﴿وَمَا كَانُوا بِبُدُونٍ﴾ (٢٢) من دون الله، أي: من الأصنام والأنداد، تُحَشَّرُ معهم في أماكنهم. وقوله تعالى: ﴿فَأَعْتَدُكُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْحَمِيمِ﴾، أي: أُرْشِدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَبِكَمَا وَصَّأْنَا مِنْهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا جَبَّتْ زِدَّتْهُمْ سُمُورًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَفُورًا يُنْتَهَوْنَ عَنْهُ مُسْتَلِوُونَ﴾ (٢٤)، أي: قِفْوُهُمْ حَتَّى يُسَالُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كما قال الضَّحَّاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم مُحَاسِبُونَ.

[٥٧٠٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الثُّفَيْلِي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سَمِعْتُ لَيْثًا يُحَدِّثُ عَنْ بَشِيرٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَغَادِرُهُ وَلَا يُفَارِقُهُ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا». ثم قرأ: ﴿وَقَفُورًا يُنْتَهَوْنَ عَنْهُ مُسْتَلِوُونَ﴾ (٢٤). ورواه الترمذي، من حديث لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ. ورواه ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مَعْتَمِرٍ، عَنْ لَيْثِ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَنَسِ مَرْفُوعًا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ يَقُولُ: إِنْ أَوَّلَ مَا يُسَالُ عَنْهُ الرَّجُلُ جُلُوسًا. ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَامُونَ﴾ (٢٥). أي: كما زعمتم أنكم جميعٌ مُتَنَصِّرُونَ، ﴿بَلْ هُمْ أَتَوْكُمْ مُتَسَلِّطِينَ﴾ (٢٦)، أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحدون عنه، والله أعلم.

﴿وَأَجَلٌ بَعْضُهمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٢٨ من حديث لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ عَنْ بَشِيرٍ عَنْ أَنَسِ مَرْفُوعًا بِهِ، وَضَعَفَهُ بِقَوْلِهِ: غَرِيبٌ. وَكَذَا ضَعَفَ إِسْنَادَهُ شَيْخُنَا فِي «جَامِعِ الْأَصُولِ» ٧٩٨٣، وَلِلْحَدِيثِ عِلْتَانٌ: لَيْثُ هُوَ ابْنُ أَبِي سَلِيمٍ ضَعَفَهُ يَحْيَى وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ ابْنُ حِبَانَ: اِخْتَلَطَ بِأَخْرَجَةَ. وَشَيْخُهُ بَشِيرٌ، ذَكَرَهُ الذَّهَبِيُّ فِي «الْمِيزَانِ» وَقَالَ: لَا يَعْرِفُ. وَقَالَ الْحَافِظُ فِي التَّقْرِيبِ: بَشِيرٌ عَنْ أَنَسِ. قِيلَ: هُوَ ابْنُ دِينَارٍ، مَجْهُولٌ أَهْلٌ وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٩٣٢٥ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَنَسِ. لَمْ يَسْمَعْهُ الطَّبْرِيُّ، وَهُوَ هُوَ. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ ٤٣٠/٢ ح ٣٦١٠ مِنْ طَرِيقِ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِيهِ سَلِيمَانَ عَنْ أَنَسِ، وَقَالَ: هَكَذَا حَدَّثَ بِهِ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الثُّسْتَرِيِّ. وَلَوْ جَازَ لَنَا قَبُولُهُ مِنْهُ لَكُنَّا نَصَحْهُ عَلَى شَرْطِهِمَا. وَلَكِنْ نَقُولُ صَوَابَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ الْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ الْمُعْتَمِرِ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ. وَهَذَا الْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ كَمَا تَقَدَّمَ. وَقَدْ اضْطَرَبَ فِيهِ لَيْثُ فَأَسْتَدَّهُ ابْنُ مَاجَةَ ٢٠٨ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ عَنْ بَشِيرِ بْنِ نَهِيكٍ عَنْ أَنَسِ. وَيَشِيرُ هَذَا مِنْ رِجَالِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَمَنْ دُونَ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ، فَالْعَلَّةُ مِنْ لَيْثِ وَقَدْ اضْطَرَبَ فِيهِ. وَقَدْ وَصَفَهُ أَحْمَدُ بِأَنَّهُ مُضْطَرَبٌ الْحَدِيثِ. وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «الزَّوَائِدِ»: إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ أَهْلٌ فَالْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ..

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِغِينَ ﴿٣٥﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣٦﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَالِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ تَجْتُنُّونَ ﴿٤١﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٢﴾

يذكرُ تعالى أن الكفار يتلاؤمون في عَرَصاتِ القيامة، كما يتخاصمون في ذَرَكاتِ النار، ﴿فَيَقُولُ السُّعْمَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ نَبَعًا قَهَلْ أَشْتَرُ مُتْعُونًا عَنَّا نَسِيبًا تَبًا النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْوَالِدِ ﴿٤٨﴾ [غافر: ٤٧ - ٤٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُوا مِنْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَمْ نَمُودُنَا عَنْ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِمْ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ سَكَّرَ الْأَبْصَالَ وَالنَّهَارَ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الْأَنْدَادَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَبْصَالَ فِي أَصْفَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْجَبُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]. وهكذا قالوا لهم هاهنا: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَتُوتُنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ ﴿٥٢﴾، قال الضُّحَّاكُ، عن ابن عباس: يقولون: كُتْمُ تَقَهْرُونَا بِالْقُدْرَةِ مِنْكُمْ عَلَيْنَا، لَأَنَا كُنَّا أَذْلَاءً وَكُتْمُ أَعْرَاءٍ. وقال مجاهد: يعني عن الحقِّ، والكفارُ تقولُه للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنسُ للجنِّ: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَتُوتُنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ ﴿٥٣﴾. قال: من قَبْلِ الْخَيْرِ. فتنهونَا عنه وَتَبْطُونَا عنه. وقال السُّدِّيُّ: تَأْتُونَا مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ، تُزَيِّنُونَ لَنَا الْبَاطِلَ، وَتَضُدُّونَا عَنِ الْحَقِّ. وقال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَتُوتُنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ ﴿٥٤﴾، إني - والله - يأتيه عند كلِّ خيرٍ يُرِيدُه فيَضُدُّه عنه. وقال ابنُ زَيْدٍ: معناه تُحَوِّلونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَيْرِ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ. وقال يزيدُ الرَّشِكُ: من قَبْلِ (لا إله إلا الله). وقال خُصَيْفٌ: يعثون من قَبْلِ مِيَامِهِمْ. وقال عِكْرِمَةُ: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَتُوتُنَا عَنِ الْيَبِينِ﴾ ﴿٥٥﴾، قال: من حيث تأمَّنكم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾، تقولُ القادةُ من الجنِّ والإنسِ للاتباع: ما الأمرُ كما تزعمون! بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، أي: من حُجَّةٍ على صِحَّةِ ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِغِينَ﴾، أي: بل كان فيكم طغيانٌ ومجاورةٌ للحقِّ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحقَّ الذي جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحججَ على صِحَّةِ ما جاؤكم به، فخالفتموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَالِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ: إِنَّا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الذَّاكِقِينَ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَأَعْوَبْتَكُمْ﴾، أي: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَالِينَ﴾، أي: دَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا. قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿٥٨﴾، أي: الجميعُ في النار، كُلٌّ بِحَسَبِهِ، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوا، كما يقولها المؤمنون.

[٥٧٠٤] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا الليث، عن ابن مسافر - يعني عبد الرحمن بن خالد - عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله». وأنزل الله في كتابه - وذكر قومًا استكبروا -

فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) ﴿١﴾. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء قال: يُؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعزيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يُؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يُؤتى بالمشركين فيقال لهم: ﴿لا إله إلا الله﴾ فيستكبرون، ثم يقال لهم: ﴿لا إله إلا الله﴾ فيستكبرون، ثم يُؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله تعالى. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عدل له. قال: فَيَتَعَرَّفُ لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيُنَجِّي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَيَقُولُونَ أَبْنَا تَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ تَجُونُ﴾ (٣٦) ﴿٢﴾، أي: نحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟! يعنون رسول الله - ﷺ - قال الله تعالى تكذيباً لهم، وَرَدَّأ عَلَيْهِمْ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾، يعني رسول الله - ﷺ - جاء بالحق في جميع شريعة الله تعالى له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمنهج السديدة. وأخبر عن الله تعالى في شزعه وأمره كما أخبروا، ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]... الآية.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) ﴿٣﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿٤﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤١﴾ ﴿٥﴾ وَأُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَرَكَةٌ ﴿٤١﴾ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) ﴿٣﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿٤﴾. ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّيرِ﴾ (١) ﴿٤١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿١﴾ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿المعصر: ١-٣﴾. وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين: ٤-٦﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَمُنَّكَزُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَاً مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنزِلُ الَّذِينَ أَتَقَوْا وَنَدَّرُ الْعُفْلِيِّينَ فِيهَا جِيًّا﴾ [مریم: ٧١-٧٢]. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَمْصَحَ الْجَيْنَ﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩]، ولهذا قال جل وعلا هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤١) ﴿٥﴾، أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يُناقشون في الحساب، بل يُتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويُجزون الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف. وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤١) ﴿٥﴾. قال قتادة، والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَرَكَةٌ﴾ (٤١) ﴿٥﴾، أي: متنوعة ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٤١) ﴿٥﴾، أي: يُخدمون ويُرفهون ويُنعمون، ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) ﴿٥﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿٥﴾. قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

(١) رجاله ثقات سوى ابن أخي ابن وهب، فقد ضعفه غير واحد. وأصل الحديث متفق عليه عن جماعة من الصحابة، وتقدم عجزه، وهو قوله «وأنزل». «مدرج من كلام أحد الرواة. إما الزهري، أو ابن المسيب، والله تعالى أعلم.

[٥٧٠٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معن^(١) حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شريحيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله - ﷺ - فتلا هذه الآية: «على سرر متقابلين ينظر بعضهم إلى بعض»^(٢). حديث غريب. وقوله: «يُطَأُّ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيَضَّةٍ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِيِّينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾»، كما قال في الآية الأخرى: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٤٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٩﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٩] فَتَنَزَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَمْرَ الآخِرَةِ عَنِ الآفَاتِ الَّتِي فِي خَمْرِ الدُّنْيَا، مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ وَوَجَعِ الْبَطْنِ - وَهُوَ الْعَوْلُ - وَذَهَابِهَا بِالْعَقْلِ جُمَّلَةً، فَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: «يُطَأُّ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾»، أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء. أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها الشبع الرديء، من خمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما يُنْفَرُ الطَّيْبُ السَّلِيم. وقوله عز وجل: «لَذَّةٌ لِلشَّرْبِيِّينَ ﴿٤٦﴾»، أي: طعمها طيب كلونها، وطيّب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله تعالى: «لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴿٤٧﴾»، يعني: لا تؤثر فيهم غولاً - وهو وجع البطن. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من القَوْلُتْجِ ونحوه، لكثرة مائيتها. وقيل: المراد بالقول هاهنا: صُدَاعُ الرَّأْسِ. وروي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادة: هو صُدَاعُ الرَّأْسِ، وَوَجَعُ الْبَطْنِ. وعنه، وعن السدي: لا تغتال عُقُولُهُمْ. كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتِ الْكَأْسُ تَغْتَالُنَا وَتَذَهَبُ بِالأَوَّلِ الأَوَّلِ

وقال سعيد بن جبیر: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن. وقوله تعالى: «وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾»، قال مجاهد: لا تذهب عقولهم. وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسدي، وغيرهم. وقال الضحاک، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله تعالى خمر الجنة فتزهرها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة الصافات. وقوله: «وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَؤُوفِ ﴿٤٨﴾»، أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقوله تعالى: «عِينٌ ﴿٤٩﴾»، أي: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العينية، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف حين جملة وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرته، وظن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَاهُ عَنْ قَيْسِيهِ فَاسْتَعْمَمَ ﴿٤٩﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي. وهكذا الحور العين ﴿حَيْرَاتُ حَسَانٍ ﴿٤٩﴾ [الرحمن: ٧٠]. ولهذا قال عز وجل: «وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَؤُوفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾». وقوله: «كَأْتَهُنَّ بِيضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾»، يصفهن بترافق الأبدان بأحسن الألوان. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كَأْتَهُنَّ بِيضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾»، يقول: اللؤلؤ المكنون. وينشد هاهنا بيت أبي ذهل الشاعر وهو قوله في قصيدة له:

(١) وقع في سائر النسخ «معين» والتصويب عن كتب التراجم.

(٢) إسناده ضعيف. فيه إبراهيم القرشي. قال الذهبي في «الميزان» ٢٦٣. مجهول. وفيه يحيى بن معن. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٦٣٤ وقال: يروي عن سعيد بن شريحيل مجهول، وكذلك شيخه مجهول اه ففي الإسناد ثلاثة مجاهيل كما ترى، والله الموفق.

وَهِيَ زَهْرَاءٌ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْعَرَا **ص** مِيَزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّ بَيْضَ مَكْنُونٍ﴾ (٤٩)، يعني: محضون لم تَمَسَّ الأيدي. وقال السدي: البيض في عُشِّه مكنون. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّ بَيْضَ مَكْنُونٍ﴾ (٤٩)، يعني: بطن البيض. وقال عطاء الخراساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العلوية وأُلباب البيضة. وقال السدي: ﴿كَأَنَّ بَيْضَ مَكْنُونٍ﴾ (٤٩)، يقول: بياض البيض يُنزَعُ قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العلوية يَمَسُّها جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم.

[٥٧٠٦] وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفي الديماطي، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله عز وجل «حُورٌ عِينٌ» قال: «العِين الضخام العيون، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله الله عز وجل: ﴿كَأَنَّ بَيْضَ مَكْنُونٍ﴾ (٤٩). قال: «رِقَّتُهُنَّ كَرِقَّةِ الْجِلْدَةِ الَّتِي رَأَيْتَهَا فِي دَاخِلِ الْبَيْضَةِ، الَّتِي تَلِي الْقَشْرَ، وَهِيَ الْغَزْقِيُّءُ» (١).

[٥٧٠٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان التهدي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا حَاطِبُهُمْ إِذَا وَقَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا حَزَنُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُيِسُوا. لَوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - وَلَا فَخْرَ، يَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ كَانَهُنَّ الْبَيْضُ الْمَكْنُونُ أَوْ: اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ» (٢)، والله تعالى أعلم بالصواب.

﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا أَهْنَا لَدَيْئُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُم مِّنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمِيمَتَيْنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُنْزِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، أَي: عَنِ أَحْوَالِهِمْ، وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَاذَا كَانُوا يُعَانُونَ فِيهَا؟ وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى شَرَابِهِمْ، وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُمِهِمْ وَمَعَاشِرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى السَّرْرِ، وَالْخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يَسْعَوْنَ وَيَجِيئُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ، مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أذْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١)، قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن قَبَسُوسٌ فِي النَّفْسِ، وَيَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ فَيَقُولُ كَلَاماً تَسْمَعُهُ الْأَذْنَ، وَكِلَاهُمَا يَتَعَاوَنَانِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢٩٣٧٦، وفيه محمد بن الفرج المصري، ذكره الذهبي في «الميزان»، وقال: أتى بخبر منكر. ثم ذكر له حديثاً غير هذا. وفيه عمرو بن هاشم، وهو البيروني. قال ابن وارة: ليس بذلك. وذكره العقيلي في الضعفاء. وشيخه سليمان ابن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: أحاديثه متاكير.

(٢) إسناده ضعيف، لأجل ليث بن أبي سليم، فإنه ضعيف، وقد تفرد بعجزه. وأما أصل الحديث فصحيح.

﴿يُوحَىٰ بِعَمَّتِهِمْ إِلَيْكَ بَعْضَ رُحْرُوقِ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِنَا النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾، أي: أنت تُصَدِّقُ بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعدا، ﴿لَهَذَا يَتَنَا وَكُنَّا تَرَاكًا وَعِظَلْنَا أَوْفَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾، قال مجاهد، والسدي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟ وكلاهما صحيح. قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أُنتَرُ مُظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾﴾، أي: مُشْرِفُونَ. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿فَأَلْمَعَ نَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْمَجِيرِ ﴿٥٥﴾﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جببر، وخُلَيْدُ الْعَصْرِيِّ، وقَتَادَةُ، والسدي، وعطاء الخُرَّاسَانِي: يعني في وسط الجحيم. وقال الحسنُ البصريُّ: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ أُطْلِعَ فَرَأَى جَمَاعِمَ الْقَوْمِ تَغْلِي. وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ قَالَ: فِي الْجَنَّةِ كُوَيٌّ إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَدُوِّهِ فِي النَّارِ أُطْلِعَ فِيهَا، فَازْدَادَ شُكْرًا. ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتَرَوِينَ ﴿٥٦﴾﴾، يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إِنْ كِدْتَ لِتُهْلِكَنِي لَوْ أُطْعَمْتَكَ. ﴿وَلَوْلَا بِعَمَّةِ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: ولولا فضل الله عليّ لَكُنْتُ مِثْلَكَ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ حَيْثُ أَنْتَ، مُحْضَرٌ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيَّ وَرَحِمَنِي فَهَدَانِي لِلإِيمَانِ، وَأَرْشَدَنِي إِلَى تَوْحِيدِهِ، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾، هذا من كلام المؤمن مُغْبِطاً نَفْسَهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْخُلْدِ فِي الْجَنَّةِ وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ، لَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا عَذَابَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفُورُ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾﴾. قال ابن حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظُّهْرَانِي، حدثنا حفص بن عُمرِ الْعَدْنِي، حدثنا الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ، عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْتَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [الطور: ١٤١]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿هَيْتَا﴾؛ أَي: لَا يَمُوتُونَ فِيهَا. فَعِنْدَهَا قَالُوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُهُ، فَقَالُوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾، قِيلَ: لَا. قَالُوا ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفُورُ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾﴾. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِيُثَلِّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾، قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ: لِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ وَهَذَا الْفُورِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ فِي الدُّنْيَا، لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. وَقَدْ ذَكَرُوا قِصَّةَ رَجُلَيْنِ كَانَا شَرِيكَيْنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، تَدَخَّلَ فِي ضَمَنِ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خُصَيْفٍ، عَنْ فُرَاتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْبَهْرَانِي فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾، قَالَ: إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا شَرِيكَيْنِ، فَاجْتَمَعَ لِهَمَا ثَمَانِيَةُ آلَافِ دِينَارٍ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا لَهُ جِرْفَةٌ، وَالْآخَرُ لَيْسَ لَهُ جِرْفَةٌ، فَقَالَ الَّذِي لَهُ جِرْفَةٌ لِلْآخَرِ: لَيْسَ عِنْدَكَ جِرْفَةٌ، مَا أَرَانِي إِلَّا مُفَارِقُكَ وَمُقَاسِمُكَ. فَقَاسَمَهُ وَفَارَقَهُ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ اشْتَرَى دَارًا بِأَلْفِ دِينَارٍ كَانَتْ لِمَلِكٍ، مَاتَ، فَدَعَا صَاحِبَهُ فَارَاهُ فَقَالَ: كَيْفَ تَرَى هَذِهِ الدَّارَ؟ ابْتَعْتَهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ؟ قَالَ: مَا أَحْسَنْتَهَا! فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّ صَاحِبِي هَذَا قَدْ ابْتَاعَ هَذِهِ الدَّارَ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ دَارًا مِنْ دُورِ الْجَنَّةِ. فَتَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِينَارٍ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ. ثُمَّ إِنَّهُ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ، فَدَعَاهُ وَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ بِأَلْفِ دِينَارٍ. قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ صَاحِبِي تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ امْرَأَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ. فَتَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِينَارٍ، ثُمَّ إِنَّهُ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ

يملك. ثم اشترى بستانين بالقي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعت هذين البستانين بالقي دينار. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بالقي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة. فتصدق بالقي دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوقأهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله داراً تُعجبه، وإذا امرأة تطلُّع يضيء ما تحتها من حُسنها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجلٍ كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: ﴿أَهْكَ لَيْنَ الْمَصْدِيقِينَ﴾ قيل له: فإنه في الجحيم. ﴿قَالَ هَلْ أَنْتَ مُطَّلِعُونَ﴾ فَأَلْعَلَّ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ. فقال عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتَرَوِينَ﴾ وَلَوْلَا يَمَنَةٌ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. . . . الآيات. قال ابن جرير: وهذا يقوي قراءة من قرأ: «أنتك لمن المصدقين»، بالتشديد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ يَقُولُ أَهْكَ لَيْنَ الْمَصْدِيقِينَ، قال: فقال لي: ما ذُكرَ هذا؟ قلت: قرأته أنفاً فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ؛ كان شريكاً في بني إسرائيل، أحدهما مؤمنٌ والآخر كافرٌ، فافترقا على ستة آلاف دينار، لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، ثم افترقا فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضررت به شيئاً؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، قال: فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ونخلًا وثماراً وأنها بألف دينار. قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعتها بين يديه، ثم قال: اللهم، إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشتري أرضاً ونخلًا وثماراً وأنها بألف دينار، ثم يموت غداً ويتركها، اللهم، وإني اشتري منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلًا وثماراً وأنها في الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك، أضررت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: كانت ضيعتي قد اشتد علي مؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينار، يقومون لي فيها، ويعملون لي فيها، فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعتها بين يديه، ثم قال: اللهم، إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشتري رقيقاً من الدينار بألف دينار، يموت غداً فيتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإني اشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقاً من الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضررت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمري كله قد تم إلا شيئاً واحداً، فلأنه مات عنها زوجها، فأصدقته ألف دينار، فجاءتني بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعتها بين يديه، وقال: اللهم، إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار فيموت غداً فيتركها، أو تموت فتتركه، اللهم، وإني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوزاء عيناء في الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقي المؤمن ليس عنده شيء. قال: فلبس قبيصاً من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مراً فجعله على رقبته، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتواجرنى نفسك مشاهرة، شهراً بشهر، تقوم على دواب لي تملفها وتكنس سرجينها؟ قال: نعم. قال: فأجزه نفسه مشاهرة، شهراً بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ

عَنَّهُ، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة؟ قال: فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتينُ شريكِي الكافر، فَلَاعْمَلَنَّ فِي أَرْضِيهِ فَيُطْعِمُنِي هذه الكسرة يوماً بيوم، ويكسوني هذين الثوبين إذا بلبيا.

قال: فانطلق يُرِيدُهُ فلما انتهى إلى بابِهِ وهو مُنْسٍ، فإذا قصر مَشِيدٌ في السماء، وإذا حوله البؤاثون، فقال لهم: استأذنوا لي على صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سرَّهُ ذلك. فقالوا له: انطلق إن كنت صادقاً فَمَن في ناحية، فإذا أصبحت فَتَعْرَضُ له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نِصْفَ كِسَائِهِ تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكهُ فَتَعْرَضُ له، فخرج شريكهُ الكافر وهو راكب، فلما رآه عَرَفَهُ فَوَقَفَ عليه وسَلَّمَ عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذُ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالي وهذه حالُكَ؟ قال: أخبرني ما صنعت في مالِك؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئتُ أعملُ في أرضِكَ هذه، فَنُطْعِمُنِي هذه الكسرة يوماً بيوم، وتكسوني هذين الثوبين إذا بلبيا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالِك؟ قال: أقرضته. قال: مَنْ؟ قال: المَلِيءُ الوفي. قال: مَنْ؟ قال: الله ربي. قال وهو مصافحه، فانتزعَ يَدَهُ من يده، ثم قال: ﴿يَقُولُ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٦٦﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَكِدِّيُونَ ﴿٦٧﴾﴾ - قال السدي: مُحَاسِبُونَ - قال: فانطلق الكافر وتَرَكَه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يَلُوي عليه رَجَعَ وتَرَكَه. يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رَخَاءٍ من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يَمُرُّ فإذا هو بأرضٍ ونخلٍ وثمارٍ وأنهارٍ، فيقول: لِمَن هَذَا؟ فيقال: هذا لَكَ. فيقول: يا سبحانَ الله! أَوَلَيْغَ من فَضْلِ عَمَلِي أن أُنَّابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يمرُّ فإذا هو بِرَفِيقٍ لا تُحصى عِدَّتُهُم، فيقول: لِمَن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحانَ الله! أَوَلَيْغَ من فَضْلِ عَمَلِي أن أُنَّابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يمرُّ فإذا هو بِرَفِيقٍ لا تُحصى عِدَّتُهُم، فيقول: يا سبحانَ الله! أَوَلَيْغَ من فَضْلِ عَمَلِي أن أُنَّابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكهُ الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَأَن لِي فَرِيضٌ يَقُولُ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٦٧﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَكِدِّيُونَ ﴿٦٨﴾﴾. قال: فالجنة عالية، والنارُ هَاوِيَةٌ. قال: فَيُرِيهِ اللهُ شريكهُ في وَسْطِ الْجَحِيمِ، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عَرَفَهُ، فيقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِيدِينَ وَلَوْلَا رِجْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُمُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا مَوَلَاتِنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُمُ النَّوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٧٠﴾﴾ لِيُنِيلَ هَذَا فَيَعْمَلِ الْعَمَلُونَ ﴿٦٩﴾. بمثل ما قد مَن عليه. قال: فَيَتَذَكَّرُ المؤمن ما مَرَّ عليه في الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مَرَّ عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت.

﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٩﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَعَالُونَ مِنْهَا الْبُظُورَ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَجِيرٍ ﴿٧١﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٧٢﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ صَالِينَ ﴿٧٣﴾ فَهُمْ عَلَى عَائِزِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول الله تعالى: وهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكِلٍ ومَشَارِبٍ ومناكحٍ وغير ذلك من الملائكة خيرٌ ضيافةً وعطاءً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي: التي في جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة مُعَيَّنَةٌ، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتدُ فروعها إلى جميع مَحَالِّ جهنم، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها عُصْبٌ. وقد يُحْتَمَلُ أن يكون المراد بذلك جنس شجرٍ يقال له: الزَّقُّومُ، كقوله

تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَمِصْبَاحٌ لِلْأَكَلِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتون. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّمَا أَنبَأُوا الْمَكَلُونَ ﴿٦٣﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفَيْرٍ﴾ [الراعدة: ٥١ - ٥٢]. وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾، قال قتادة: ذُكِرَت شَجَرَةُ الزُّفُومِ، فَافْتَتَنَ بِهَا أَهْلُ الضَّلَالَةِ، وَقَالُوا: صَاحِبِكُمْ يُنْبِئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبْرِ ﴿٦٥﴾﴾، غُذِيَتْ مِنَ النَّارِ، وَمِنْهَا خُلِقَتْ. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾، قال أبو جهل - لعنه الله - : إِنَّمَا الزُّفُومُ التَّمْرُ وَالزَّبْدُ أَنْزَقَمَهُ. (قلت): ومعنى الآية: إِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِشَجَرَةِ الزُّفُومِ اخْتِبَاراً تَخْتَبِرُ بِهِ النَّاسَ، مَنْ يُصَدِّقُ مِنْهُمْ مِمَّنْ يَكْذِبُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أُرْتَبَتْ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحِفُّهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقوله: ﴿إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبْرِ ﴿٦٦﴾﴾، أي: أَصْلُ مُنْبِئَتِهَا فِي قَرَارِ النَّارِ، ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٧﴾﴾ تَبَشِيرٌ لَهَا وَتَكْرِيبٌ لِيَذْكُرَهَا. قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء. وإنما شبيها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بيعة المنظر. وقيل: جنس من النبات، طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير. والأول أقوى وأولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَأَهُمْ أَنَّهَا مَثَرَةٌ أَوْ مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦٨﴾ لَا يَسِينُ وَلَا يَتَّقِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦ - ٧].

[٥٧٠٨] وقال ابن أبي حاتم - رَجَمَهُ اللَّهُ - : حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مُجَاهِدٍ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : أن رسول الله - ﷺ - تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حقَّ تقاتِهِ، فلو أن قطرة من الزُّفُومِ قَطِرَتْ فِي بَحَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟!»^(١) ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، وقال الترمذي: «حَسَنٌ صَحِيحٌ». وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٩﴾﴾، قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزُّفُومِ. وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوَاكِبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾، مزجاً من حميم. وقال غيره: يعني يُمَزَّجُ لَهُمُ الحميم بِصَدِيدِ وَعَسَاقٍ، مِمَّا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِهِمْ وَعَيْونِهِمْ.

[٥٧٠٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَيُّوَةُ بن شَرِيحِ الحضرمي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد الله بن بشر عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه كان يقول: «يُقَرَّبُ - يعني إلى أهل النار - مائة فَيَتَكَرَّهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من ذُبره»^(٢)

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عثرة، عن سعيد بن جبيرة قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزُّفُومِ، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً يمرُّ بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يُصَبُّ عليهم العطش، فيستغيثون

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٨٥ وابن ماجه ٤٣٢٥ وابن حبان ٧٤٧٠ والحاكم ٤٥١، وإسناده ضعيف، فيه عننة الأعمش عند الجميع.

(٢) إسناده ضعيف لجهالة عبيد الله بن بسر، لكن لعنا شراهد، وتقدم الكلام على ذلك. والله الموفق.

فيغاثون بماء كالمُهَل - وهو الذي قد انتهى حره - فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيلا أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضرَبون بمقاميع من حديد، فيسقط كل عضو على جباله، يدعون بالشبور. وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَلِّ الْجَحِيمِ﴾ (٦٨)، أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطْرُقُونَ بِإِنْبَاءٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ جِبَبٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا فتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي. وقال السدي في قراءة عبد الله: ﴿ثم إن مقيلهم إلى الجحيم﴾: وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. ورؤى الشوري، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه ثم قرأ: ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٦٩)، ﴿ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لِأَلِّ الْجَحِيمِ﴾. (قلت): على هذا التفسير تكون ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة لخبر على خبر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا عَابَةً مِّنْ صَلَاتِنَ﴾ (٧٠)، أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ نَارِهِمْ مُّهِرُونَ﴾ (٧٠)، قال مجاهد: شبيهة بالهزولة. وقال سعيد بن جبيرة: يسهفون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِرِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٧٤)

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله الهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم مُذِرِينَ، يُنذِرُونَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ، وَيُحذِرُونَهُمْ سَطْوَتَهُ وَنَقْمَتَهُ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ، وَأَنَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَىٰ مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَأَهْلَكَ الْمَكْذِبِينَ وَدَمَّرَهُمْ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَّرَهُمْ وَظَفَّرَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٧٤)

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَوَعَيْنَتْهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٨٢)

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً - عليه السلام - وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازادوا نفرة، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلْبُوثٌ فَأَنْبِئْهُ﴾ [القم: ١٠]، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَي: فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ - كُنَّا - لَهُ، ﴿وَوَعَيْنَتْهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧)، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧)، قال: الناس كلهم من ذرية نوح.

[٥٧١٠] وقد رَوَى التِّرْمِذِيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُمُ الْيَابِقِينَ﴾ (٧٧) ، قال: «سام، وحام، ويافث».

[٥٧١١] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»^(١). ورواه التِّرْمِذِيُّ عن بِشْرِ بْنِ مُعَاذِ الْعَقَدِيِّ، عن يزيد بن زريع، عن سعيد - وهو ابن أبي عروبة - عن قتادة، به. قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: وقد رُوِيَ عن عمران بن حصين، عن النبي - ﷺ - مثله. والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأول، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة، فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة وياجوج وماجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر. وروى عن وهب بن مثنى نحو هذا، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ، قال ابن عباس: يُذَكَّرُ بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدقٍ للأنبياء كلهم. وقال قتادة، والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. وقال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْكَلِيمِ﴾ (٧٩) ، مُفَسَّرٌ لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن، أنه يُسَلَّمُ عليه في جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) ، أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدقٍ يذكر به بعده يحسب مرتبته في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّوْبِينَ﴾ (٨١) ، أي: المُصَدِّقِينَ الْمُؤَحَّدِينَ الْمُؤَقِّنِينَ. ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٨٢) ، أي: أهلكتناهم، فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم، ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِزْهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)
أَيْفَاكَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا تَلْمِزُ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٨٧)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِزْهِيمَ﴾ (٨٣) ، يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) ، قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عوف قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال الحسن: سليم من الشرك. وقال غروة: لا يكون لعانا. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) ، أنكروا عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أَيْفَاكَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) فَمَا تَلْمِزُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، قال قتادة: يعني ما تظنكم به أنه فاعل بكم إذا تقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟!.

(١) تقدم الكلام عليه في سورة الكهف، آية ٩٣. وانظر الدر المنثور ٥/٥٢٤ - ٥٢٥ فله شواهد أخرى.

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَاءَ إِلَهُهُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرًى بِالْأَيْمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْجُبُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَعْبِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

إنما قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أرفق خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بالهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. يعني قتادة أنه نظر في السماء متفكراً فيما يلهمهم به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: ضعيف.

[٥٧١٢] فاما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾^(١) [الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارة: هي أختي». فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طريقي، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلاً. وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث:

[٥٧١٣] «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ»^(٢).

[٥٧١٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ - في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال -: «ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله تعالى، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقال: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾. وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي»^(٣). قال سفيان في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، يعني: طعين. وكانوا يقرؤون من المطعون، فأراد أن يخلو بالهتهم. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، قال: قالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج، فقال: إني مطعون. فتركوه مخافة الطاعون. وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كأيدي نبي الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقال آخرون: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني مريض الموت. وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله - عز وجل -.

وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم.

(١) والحديث صحيح. أخرجه الطبري ٢٩٤٤٣ بإسناد على شرط البخاري ومسلم، وتقدم.

(٢) تقدم الكلام عليه.

(٣) في إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٩٩)، أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَهُ الْعَالَمِينَ﴾، أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضَعُوا بين أيديها طعاماً قُرْبَاناً لِتُبَارِكْ لَهُمْ فيه. قال السُّدِّي: دخل إبراهيم - عليه السلام - إلى بيت الآلهة، فإذا هُنَّ في بهو عظيم، وإذا مُسْتَقْبَلُ بَابِ الْبَهْوِ صَنَمٌ عَظِيمٌ، إلى جنبه أصغرُ منه، بعضها إلى جنب بعض، كلُّ صَنَمٍ يليه أصغرُ منه، حتى بلغوا بابِ الْبَهْوِ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلنا. فلما نَظَرَ إبراهيم - عليه السلام - إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (١٠٢). وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَبْرًا بِالْيَمِينِ﴾ (١٠٢)، قال الفراء: معناه مال عليهم صبراً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم صبراً باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشدُّ وأنكى، ولهذا تركهم جذاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلَكُمَا إِلَيْهِ يَرْفُوقَ﴾ (١٠٤)، قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسطة، فإنهم لما رجَعُوا ما عرفوا من أول وهلةٍ من فعل ذلك حتى كَشَفُوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم - عليه السلام - هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تانيبهم وغييبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾، أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٦)، أي: تحتل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر.

[٥٧١٥] لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المدني؛ عن مَرْوَانَ بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربيعي بن جَرَّاش، عن حُذَيْفَةَ مرفوعاً: «إن الله يصنعُ كلَّ صانعٍ وصنعتَه» (١)، وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٦). فعند ذلك لما قامت عليهم الحجةُ عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿إِنَّمَا لَمْ يَبْنِ قَالِقُوهُ فِي الْحَجِيرِ﴾. وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حُجَّتَهُ ونصَّرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٥﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٦﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١٠٧﴾ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٨﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٩﴾ وَكَلَّمْنَاهُ أَن يَتَابِرَهُ ﴿١١٠﴾ قَدْ صَدَقْتَ أَرَدْنَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّكَ هَذَا لَمَوْ أَلْبَتُوا الْمِينُ ﴿١١٢﴾ وَكَلَّمْنَاهُ بِذِيحِ عَظِيمٍ ﴿١١٣﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٤﴾ سَلَّمَ عَلَ إِزْهِيمٍ ﴿١١٥﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٨﴾ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٩﴾

يقول تعالى مُخْبِراً عن خليله إبراهيم - عليه السلام - : أنه بعد ما نصَّره الله على قومه وإيس من

(١) صحيح. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» ١١٧ وابن أبي عاصم في السنة ٣٥٨ والحاكم في المستدرک ٣١/١ والبيهقي في «الصفات» ٢٧ وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجز من بين أظهرهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ لِّكَ رَبِّي سَبَّحِينَ﴾ (٩٩) رَبِّي هَبَّ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، يعني: أولاداً مطيعين عَوْضاً من قومه وَعَشِيرَتِهِ الذين فارقههم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِمُلْكِهِ حَلِيمٍ﴾ (١٠١). وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أَوَّلُ وَلَدٍ بُشِّرَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم - عليه السلام - ست وثمانون سنة، وُوِلِدَ إسحاق وعُمُرُ إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله - تعالى - أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحده، وفي نسخة أخرى: يكرهه، فأقحموا هاهنا كذباً وبُهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فَحَسَدُوهُمْ، فزادوا ذلك وَحَرَّفُوا «وحيدك» بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذُهِبَ بِهِ وَيَأْتُهُ إِلَى مَكَّةَ. وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيدك» إلا لِمَنْ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهُ، وأيضاً فإن أَوَّلَ وَلَدٍ لَهُ مَعَزَةٌ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْوَالِدِ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وَحُكِّيَ ذَلِكَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، حتى نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَيْضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سُنَّةٍ، وما أظن ذلك تَلَفُّيْ إِلا عَنْ أَحْبَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وأخذ ذلك مُسَلِّماً من غير حُجَّةٍ. وهذا كتاب الله شاهد ومُرْشِدٌ إِلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٧). ولما بُشِّرَتْ الْمَلَائِكَةُ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَبِزَكَوَاتٍ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما وَلَدٌ يُسَمَّى يَعْقُوبَ، فيكون من ذُرِّيَّتِهِ عَقِبٌ وَنَسْلٌ. وقد قَدَّمْنَا هُنَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُؤَمَّرَ بِذَبْحِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ، لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَهُمَا بِأَنَّهُ سَيَعْقِبُ وَيَكُونُ لَهُ نَسْلٌ فَكَيْفَ يُمْكِنُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُؤَمَّرَ بِذَبْحِهِ صَغِيرًا، وَإِسْمَاعِيلُ وَصَفَ هَاهُنَا بِالْحَلِمِ؛ لِأَنَّهُ مَنَاسِبٌ لِهَذَا الْمَقَامِ. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَةَ﴾، أي: كَبُرَ وَتَرَعَّرَ وَصَارَ يَذْهَبُ مَعَ أَبِيهِ وَيَمْشِي مَعَهُ. وقد كان إبراهيم - عليه السلام - يذهب في كل وقت يَتَفَقَّدُ وَلَدَهُ وَأُمَّهُ وَوَلَدَهُ بِيَلَادِ «فَارَانَ» وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا، وقد ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْكُبُ عَلَى الْبَرَاقِ سَرِيعاً إِلَى هُنَاكَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جببير، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَةَ﴾، بمعنى: سَبَّ وَارْتَجَلَ وَأَطَاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَةَ قَالَتْ بَيْتِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةً أَدَّبَكَ فَأَنْظَرَ مَاذَا تَرَوْتِ﴾، قال عبيد بن عمير: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخَيٍّ، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ بَيْتِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةً أَدَّبَكَ فَأَنْظَرَ مَاذَا تَرَوْتِ﴾.

[٥٧١٦] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «رؤيا الأنبياء في المنام وحي»^(١). ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه. ﴿قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلَّ مَا تُؤْمَرُ﴾، أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِي إِن مَنَّ اللَّهُ مِنِّي مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي:

(١) إسناده ضعيف لأجل سماك بن حرب، فإنه صدوق لكن اختلط بأخرة. ولذا ضعفه الثوري وشعبة وغيرهما. وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة أيضاً. والراجح فيه الوقف على ابن عباس. وورد موقوفاً على قتادة أسنده الطبري ٢٩٤٧٧ وعن عبيد بن عمير ٢٩٤٧٨ موقوفاً عليه أيضاً. وهو الصحيح. وقد أسنده الحاكم ٤٣١/٢ عن ابن عباس موقوفاً وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

سأصبر وأحتسب ذلك عند الله - عز وجل - وصدق - صلوات الله وسلامه - فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مریم: ٥٤ - ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ وَلَمْ نَكُنْ لَكَ جِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبح، والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَتَيْنَاكَ﴾، يعني: استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم. ومعنى ﴿وَلَمْ نَكُنْ لَكَ جِنِينَ﴾، أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة: ﴿وَلَمْ نَكُنْ لَكَ جِنِينَ﴾: أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج ويونس قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم العنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي، فسأبه فسبّه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرّة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرّة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثم ثلثه للجبين، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره، فأخلعه حتى تكفني فيه. فعالجه ليخلعه، فتودى من خلفه: ﴿أَنْ يَكْفُرَهُ ﴿٥٦﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأينا نتبع ذلك الضرب من الكبش. وذكر تمام الحديث في «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق». فعن ابن عباس في تسمية الذبيح روايتان، والأظهره عنه إسماعيل لما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿٥٧﴾﴾، قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه وأتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرّة الأولى، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته عندها، فجاء الجمرّة الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته، فأدركه عند الجمرّة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذته فأتى به المنحر من منى فدبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة قد حش. يعني: يس.

[٥٧١٧] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبي - ﷺ - وجعل كعب يحدث عن الكئيب، فقال أبو هريرة: قال النبي - ﷺ -: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»، فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله - ﷺ -؟ قال: نعم. قال: فذاك أبي وأمي - أو: فذاه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أرى ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجتي. فقال: إنه لم يغد به لحاجة، إنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال: إنه لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم

يَذْبُحُنِي؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فَيَسَّ منه [فتركه] ولحق إبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه. قال: ولم أذبحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن. قال: فتركه وَيَسَّ أن يُطَاع^(١). وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره، أن كعباً قال لأبي هريرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله تعالى إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة استجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إني ادعو أن تستجيب لي: أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة.

[٥٧١٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله تبارك وتعالى خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن أختبئ شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكون أعم لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كزب الذبح قيل له: يا إسحاق، سل ثغطه. فقال: أما والذي نفسي بيده لاتعجلنها قبل نزع الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاعفر له وأدخله الجنة»^(٢). هذا حديث غريب منكر، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مدرجة، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق»... إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنما حذفوه بإسحاق، حسداً منهم كما تقدم، ولأفالمناسك والذبايح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام. وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَبَرِّهَهُ ۗ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ۗ﴾، أي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم - عليه السلام - عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ۗ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّبْنَا نَجْمِي المُنَجِّينَ ۗ﴾، أي: هكذا تصرف عمن أطاعنا المكاراة والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۗ وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۗ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكّن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولديه، ثم نسخه عنه وصرّفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولديه وعزيمه على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ هَذَا لَهُو الْبَلْتَأُ الشَّيْنِ ۗ﴾، أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذب ولديه، فسارع إلى ذلك مستسليماً لأمر الله، منقاداً لطاعته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَابْرِهِمَ الَّذِي وَفَّى ۗ﴾ [النجم: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْتَهُ بِذَبْحِ عَظِيمٍ ۗ﴾، قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي - رضي الله عنه - : ﴿وَوَدَّيْتَهُ بِذَبْحِ عَظِيمٍ ۗ﴾، قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد

(١) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٢٠٨٦٤ و«التفسير» ٢٥٣٠ ورجال البخاري ومسلم.

(٢) ضعيف جداً. فيه عبد الرحمن بن زيد ضعفه المصنف. وهو شديد الضعف، قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال البخاري: عبد الرحمن بن زيد ضعفه علي المدني جداً اهـ الميزان ٤٨٦٨ ثم إن المتن منكر كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى. واكتفى السيوطي في «الدر» ٥٣١/٥ بقوله: ضعيف.

رُبِطَ بِسَمْرَةَ. قال أبو الطَّفِيلِ: وَجَدُوهُ مَرْبُوطًا بِسَمْرَةَ فِي ثُبَيْرٍ. وقال الثَّوْرِيُّ أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْمٍ، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عباس قال: كَبِشُ قَدْرَعَى فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يَعْقُوبَ الصَّفَّارُ، حدثنا داود العَطَّارُ، عن ابن خُثَيْمٍ، عن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابن عَبَّاسٍ قال: الصَّخْرَةُ الَّتِي بَمَنَى بِأَصْلِ ثُبَيْرٍ هِيَ الصَّخْرَةُ الَّتِي ذَبَحَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ فِدَاءً لِبَنِيهِ، هَبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثُبَيْرٍ كَبِشٌ أَعْيُنُ أَقْرُنُ لَهُ ثُعَاءٌ، فَذَبَحَهُ، وَهُوَ الْكَبِشُ الَّذِي قَرَّبَهُ ابْنُ آدَمَ فَتَقَبَّلَ مِنْهُ، فَكَانَ مَخْرُوجًا حَتَّى فَدَى بِهِ إِسْحَاقُ. وَرَوَى أَيْضًا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الْكَبِشُ يَرْتَعُ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى تَشْتَقَّ عَنْهُ ثُبَيْرٌ، وَكَانَ عَلَيْهِ عَيْنٌ أَحْمَرٌ. وَعَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ اسْمُ كَبِشِ إِبْرَاهِيمَ جَرِيرًا. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: ذَبَحَهُ بِالْمَقَامِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ذَبَحَهُ بِمَنَى عِنْدَ الْمَنْحَرِ. وَقَالَ هُشَيْمٌ، عَنْ سَيَّارٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ: إِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ أَقْنَى الَّذِي جَعَلَ عَلَيْهِ نَذْرًا أَنْ يَنْحَرَ نَفْسَهُ، فَأَمَرَ بِمَنَى مِنَ الْإِبِلِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: لَوْ كُنْتُ أَفْتَيْتُهُ بِكَبِشٍ لِأَجْزَاءِ أَنْ يَذْبَحَ كَبِشًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَقَدَيْتَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمَةٍ ۝١٥٧﴾. وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ فِدْيَةٌ بِكَبِشٍ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدَيْتَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمَةٍ ۝١٥٧﴾، قَالَ: كَانَ وَغَلَا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا فِدْيَةُ إِسْمَاعِيلَ إِلَّا بِتَيْسٍ مِنَ الْأَزْوَى، أَهْبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثُبَيْرٍ^(١).

[٥٧١٩] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سُفْيَانُ، حَدَّثَنِي مَنْصُورٌ، عَنْ خَالِهِ مُسَافِعٍ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: أَخْبَرْتَنِي امْرَأَةً مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ - وَوَلَدَتْ عَامَّةَ أَهْلِ دَارِنَا -: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى عَثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ - وَقَالَتْ مَرَّةً: إِنَّهَا سَأَلَتْ عَثْمَانَ: لِمَ دَعَاكَ النَّبِيُّ - ﷺ -؟ قَالَ: قَالَ: «إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنِي الْكَبِشِ حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَتَسَبَّتُ أَنْ أَمْرَكَ أَنْ تُخَمَّرَهُمَا، فَخَمَّرَهُمَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْتَعَلُ الْمُصَلِّي». قَالَ سُفْيَانُ: لَمْ يَزَلْ قَرْنَا الْكَبِشِ مُعَلَّقَيْنِ فِي الْبَيْتِ حَتَّى احْتَرَقَ الْبَيْتُ، فَاحْتَرَقَا^(٢). وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ عَلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِنَّ قَرْنًا تَوَارَثُوا قَرْنِي الْكَبِشِ الَّذِي فَدَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ خَلْفًا عَنْ سَلْفٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ.

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو؟

ذَكَرَ مَنْ قَالَ: هُوَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ حَمْرَةُ الزِّيَّاتُ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ - رَجَمَهُ اللَّهُ - قَالَ: قَالَ يَوْسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِلْمَلِكِ فِي وَجْهِهِ: تَرِغِبُ أَنْ تَأْكُلَ مَعِيَ، وَأَنَا - وَاللَّهِ - يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ إِسْحَاقَ ذَبِيحِ اللَّهِ، بِنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي سَيَّانٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي الْهَدَيْلِ: أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِلْمَلِكِ كَذَلِكَ أَيْضًا. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، يَقُولُونَ: يَا إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فِيمَ قَالُوا ذَلِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُغْدَلْ بِي شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَنِي عَلَيْهِ، وَإِنَّ إِسْحَاقَ جَادَ لِي بِالذَّبْحِ، وَهُوَ بَغِيرُ ذَلِكَ أَجْوَدُ، وَإِنَّ يَعْقُوبَ كُلَّمَا زِدْتُهُ بَلَاءً زَادَنِي حُسْنَ ظَنِّ». وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ قَالَ:

(١) الأروى: هي الأيايل، وقيل: غنم الجبل. وثبير: جبل بظاهر مكة.

(٢) أخرجه أحمد ٦٨/٤ و٣٨٠/٥، ورجاله ثقات، وليس في هذه الرواية التصريح بصحة راوية الحديث، وكرره أحمد ٦٨/٤ و٣٨٠/٥ من وجه آخر وفيه تسمية المرأة: أم عثمان ابنة سفيان، وأنها صحابية، لكن الإسناد ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن، وليس فيه ذكر الكباش، بل فيه قرناه.

افتخر رجلٌ عند ابن مسعودٍ فقال: أنا فلانُ ابنُ فلانٍ، ابنُ الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذبيحِ الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله. وهذا صحيحٌ إلى ابن مسعود، وكذا رَوَى عكرمةُ، عن ابن عباس أنه إسحاقُ. وعن أبيه العباس، وعلي بن أبي طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمةُ، وسعيد بن جبَّير، ومجاهد، والشعبي، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرةَ، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرري، والقاسمُ بن أبي بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدي، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابنُ سابط. وهو اختيارُ ابن جرير. وتقدم روايته عن كعبِ الأخبارِ أنه إسحاقُ. وهكذا رَوَى ابنُ إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهرري، عن أبي سفيانَ بن العلاء بن جارية، عن أبي هريرة، عن كعبِ الأخبارِ، أنه قال: هو إسحاقُ. وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذةٌ عن كعبِ الأخبارِ، فإنه لما أسلم في الدولة العُمريَّة جعل يُحدث عُمرَ - رضي الله عنه - عن كعبه، فربما استمع له عُمرَ - رضي الله عنه - فترخصَ الناسُ في استماع ما عنده، ونقلوا عنه عَثْمًا وسَمِينًا، وليس بهذه الأُمّةِ - والله الحمدُ - حاجةٌ إلى حَرْفٍ واحدٍ مما عنده. وقد حكى البَغوِيُّ هذا القولُ بأنه إسحاقُ، عن عُمرَ، وعلي، وابنِ مسعودٍ، والعباسِ رضي الله عنهم، ومن التابعين عن كعبِ الأخبارِ، وسعيد بن جبَّير، وقتادة، ومسروقٍ، وعكرمة، ومقاتيل، وعطاء، والزهرري، والسدي، قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباسٍ رضي الله عنه. وقد وردَ في ذلك حديثٌ - لو ثبتَ لقلنا به على الرأسِ والعين، ولكن لم يَصِحَّ سندهُ.

[٥٧٢٠] قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كَرِيب، حدثنا زيد بن حُبَاب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي - ﷺ - في حديث ذكره قال: «هو إسحاق»^(١). ففي إسنادهِ ضعيفان، وهما الحسنُ بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جُدعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، به مرفوعاً. ثم قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباسِ قوله، وهذا أشبهُ وأصحُّ. والله أعلم.

ذكر الآثارِ الواردةِ بأنه إسماعيلُ - عليه السلام - وهو الصحيحُ المقطوعُ به^(٢):

قد تقدمتِ الروايةُ عن ابن عباس أنه إسحاق، وقال سعيد بن جبَّير، وعامر الشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس: هو إسماعيلُ عليه السلام. وقال ابنُ جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيلُ عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاقُ. وكذبت اليهودُ. وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عُمرَ قال: الذبيحُ إسماعيلُ. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيلُ عليه السلام. وكذا قال يوسف بن مهران. وقال الشعبي: هو إسماعيلُ. وقد رأيت قرني الكعبش في الكعبة. وقال مُحَمَّد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار وعُمر بن عُبيد، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشكُّ في ذلك: أن الذي أُمِرَ بِذَبْحِهِ من ابني إبراهيمَ إسماعيلُ عليه السلام.

(١) أخرجه الطبري ٢٩٤٩٥، وإسناده ضعيف جداً. فيه ضعيفان: الحسن بن دينار، وعلي بن زيد كما قال ابن كثير. وقد تويع ابن دينار في الإسناد الآتي، فأنحصرت العلة بعلي بن زيد، وقد خالفه مبارك بن فضالة، فرواه عن العباس موقوفاً. وهو أصح كما قال ابن كثير رحمه الله، والله أعلم.

(٢) وانظر أيضاً: زاد المعاد ١/٧١.

قال ابنُ إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله إبراهيمَ بذبحه من ابنيه إسماعيلُ وأنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله حينَ قَرَعَ من قِصَّة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَيَسِّرْكَ يَا إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ويقول الله تعالى: ﴿فَسَرَّكَهَا يَا إِسْحَاقَ وَمِن دَوْلَى إِسْحَاقَ يَمْشُونَ﴾ [هود: ٧١]، يقول: بابنِ وابنِ ابنِ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعود بما وعدّه، وما الذي أمرَ بذبحه إلا إسماعيلُ. قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً. وقال ابن إسحاق، عن بُريدة بن سفيان بن فزوة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حَدَّثهم: أنه ذكر ذلك لعمَر بن عبد العزيز وهو خَلِيفَةُ إِذْ كَانَ مَعَهُ بِالشَّامِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا كُنْتُ أَنْظُرُ فِيهِ، وَإِنِّي لَأَرَاهُ كَمَا قُلْتُ. ثُمَّ أُرْسِلُ إِلَى رَجُلٍ كَانَ عِنْدَهُ بِالشَّامِ، كَانَ يَهُودِيًّا فَاسْلَمَ وَحَسَّنَ إِسْلَامَهُ، وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ مِنْ عِلْمَائِهِمْ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ ذَلِكَ - قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: وَأَنَا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيُّ ابْنِي إِبْرَاهِيمَ أَمَرَ بِذَبْحِهِ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِن يَهُودًا لَتَعْلَمَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ، عَلَى أَنْ يَكُونَ أَبَاكُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، وَالْفَضْلُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْهُ لِيُصْبِرَهُ لِمَا أَمَرَ بِهِ، فَهَمْ يَجْحَدُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِسْحَاقُ، لِأَنَّ إِسْحَاقَ أَبُوهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّهُمَا كَانَ، وَكَلَّ قَدْ كَانَ طَاهِرًا طَيِّبًا مُطِيعًا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : سَأَلْتُ أَبِي عَنِ الذَّبِيحِ، مَنْ هُوَ؟ إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ. ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: الصَّحِيحُ أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي الطَّفِيلِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ، وَمَجَاهِدٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، وَأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَأَبِي صَالِحٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ. وَقَالَ الْبَقَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَالسُّدِّيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَمَجَاهِدٌ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، وَالْكَلْبِيُّ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَكَاهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ.

[٥٧٢١] وقد رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا غَرِيبًا فَقَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمَّارِ الرَّازِيِّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي كَرِيمَةَ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْخَطَّابِيُّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ الْعُتْبِيِّ - مِنْ وَلَدِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - عَنْ أَبِيهِ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ الصَّنَابِحِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَذَكَرُوا الذَّبِيحَ: إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ فَقَالَ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطُتُمْ، كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عُدَّ عَلَيَّ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذَّبِيحِينَ. فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا الذَّبِيحَانِ؟ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ لَمَّا أَمَرَ بِحَفْرِ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ إِنْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهَا لِيَذْبَحَ أَحَدًا وَلِكَيْدِهِ، قَالَ: فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَمَنَعَهُ أَخْوَالُهُ وَقَالُوا: افْدِ ابْنَكَ بِمِثْلِهِ مِنَ الْإِبِلِ. فَقَدَاهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْإِبِلِ، وَإِسْمَاعِيلُ الثَّانِي^(١). وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا.

[٥٧٢٢] وقد رواه الأموي في مغازيه: حَدَّثَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي كَرِيمَةَ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ الْعُتْبِيِّ - مِنْ وَلَدِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا الصَّنَابِحِيُّ قَالَ: حَضَرْنَا مَجْلِسَ مَعَاوِيَةَ، فَتَذَاكُرُ الْقَوْمِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . .

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٩٥٣٠ والحاكم ٥٥٤/٢ من حديث معاوية. سكت عليه الحاكم. وقال الذهبي: إسناده واهو. وكذا وضعفه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/٥٢٩ واستغربه ابن كثير جداً. وفيه عبد الله بن سعيد، وهو مجهول كما في الميزان ٤٣٤٨.

وذكره^(١). كذا كتبه من نسخة مغلوطه. وإنما عَوَّل ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿بَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(١١٦)، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. وأجاب عن البشارة يعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا مُعلّقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلتا من بلاد الشام. قال: وقد تقدّم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدلّ به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١١٧)، لما تقدّمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتَي «هود» و«الحجر». وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدّرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين. وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَلِيَّةَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : الذبيح إسحاق. قال: وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١١٧)، قال: بَشَّرَ بِنَبِيِّهِ. قال: وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا إِخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(١١٨)، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وَهَبَ لَهُ نَبُوْتَهُ. وَحَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ دَاوُدَ يُحَدِّثُ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١١٧)، قال: إنما بَشَّرَ بِهِ نَبِيًّا حِينَ فَدَاهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مِنَ الذَّبْحِ، وَلَمْ تَكُنِ الْبِشَارَةُ بِالنَّبُوْتِ عِنْدَ مَوْلَدِهِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١١٧)، قال: بَشَّرَ بِهِ حِينَ وُلِدَ، وَحِينَ نُبِيَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١١٧)، قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد الله تعالى بنفسه. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمَنْ دُرِّيْتَهُمَا حَسْبٌ وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ لِنَفْسِهِ مِثْرٌ﴾^(١١٩). كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَنْجُوْا أَنْفُسَكُمْ يَسْلُبْ رَبُّنَا رَبَّكَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّرٍ مَعَكَ وَأُمٌّ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ مَنَّاعَهُمْ مِمَّا عَدَابُ الْإِلَهِ﴾^(١٢٠) [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(١٢١) وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^(١٢٢) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَالِحِينَ^(١٢٣) وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ^(١٢٤) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(١٢٥) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِ^(١٢٦) سَلْمًا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ^(١٢٧) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(١٢٨) إِيَّاهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ^(١٢٩)

يذكرُ تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قَهْرِ فِرْعَوْنَ وقوميه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أحسن الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجليّ المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَبَيِّنَاتٍ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١٢٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(١٢٨) أي: في الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِ﴾^(١٢٩)،

أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناً حسناً، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١٢٥) إنا كذلك نجزي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنْهَامَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهٗ فَأَتَمَّتْ لِمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيدة بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن ياسين^(١) بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله في بني إسرائيل بعد جزيقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سأله أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله تعالى لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخط ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب - عليه السلام - فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبها ولا يهنيه، فجاءته فرس من نار فركب، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً، هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٢٤)، أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢٥)، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة والسدي: بعلًا، يعني: رباً. قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن. وفي رواية عن قتادة قال: هي لغة أزد شثوة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبد أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربي دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه. وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾، أي: أتعبدون صنماً؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴿١٢٦﴾، أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهٗ فَأَتَمَّتْ لِمُحْضَرُونَ﴾ (١٢٧)، أي: للعذاب يوم الحساب، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، أي: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطف من مثبت. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، أي: ثناء جميلاً، ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٣٠)، كما يقال في إسماعيل: إسماعيل. وهي لغة بني أسد، وأنشد بعض بني نعيم في ضب صاده:

يَقْسُولُ رَبَّ الشُّوقِ لَمَّا جِينَا هَذَا وَرَبَّ الْبَيْتِ إِسْرَائِيلَنَا

ويقال: ميكال، وميكائيل وميكائين، وإبراهيم، وإبراهام، وإسرائيل وإسرائيلين، وطور سيناء، وطور سينين، وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهي قراءة عبد الله بن

(١) وقع في بعض النسخ «تسي» وفي نسخة «نسي» والمثبت عن الطبري ٢٩٥٧٩.

مسعود. وآخرون: «سلام على آل ياسين»، يعني: آل محمد - ﷺ - . وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قد تقدم تفسيره، والله تعالى أعلم.

﴿وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ جَاءَتْهُ أَهْلُهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّعُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّا لَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ، فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ هُوَ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَإِنِهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَجَعَلَ مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَحِيرَةً مُتَبَتَّةً قَبِيحَةً الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلِ مَقِيمٍ يَمُرُّ بِهَا الْمَسَافِرُونَ لَيْلاً وَنَهَاراً. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنُرَوِّعُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّا لَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤١﴾﴾، أَي: أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَتَعَلَّمُونَ أَنْ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا؟! .

﴿وَإِن يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَمَعَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴿۞﴾ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبَلَّتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ بِإِثْمَانِهِ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَمَنَّوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

قد تقدمت قصة يونس - عليه السلام - في سورة الأنبياء.

[٥٧٢٣] وفي الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «ما ينبغي لعبيد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(١)، ونسبه إلى أمه، وفي رواية: «إلى أبيه». وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، قال ابن عباس: هو الموقر. أي: المملوء بالأمعة. ﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، أي: المغلوبين. وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرقوا على القرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر، ليتخف بهم السفينة، ف وقعت القرعة على نبي الله يونس - عليه السلام - ثلاث مرات، وهم يضحون به أن يلقي من بينهم، فتجرد من ثيابه ليُلقي نفسه وهم يأتون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس - عليه السلام - فلا يهشم له لحماً، ولا يكسر له عظماً. فجاء ذلك الحوت وألقى يونس - عليه السلام - نفسه، فالتقمه الحوت، ودُخِبَ به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس». واختلوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام. قاله قتادة. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوماً، قاله أبو مالك. وقال مجالد، عن الشعبي: التقمه ضحى، ولقظه عشيئاً. والله تعالى أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وَأَنْتَ بِفَضْلِ مِثْلِكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا
وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لَيْالِيًا
وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، قيل: لولا ما تقدم له من

العمل في الرِّخاء. قاله الضَّحَّاك بن قيس، وأبو العالية، وهب بن مُثَنِّب، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد رَوَدَ في الحديث الذي سَوَّرَهُ إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صحَّ الخبر.

[٥٧٢٤] وفي حديث عن ابن عباس: «تَعَرَّفَ إلى الله في الرِّخاءِ يَعْرِفُكَ في الشَّدةِ»^(١). وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، والضَّحَّاك، وعطاء بن السائب، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(٢)، يعني: المصلين. وصرَّح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبِّحين في جوف أبُونَيْهِ. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(٣)، وهو قوله: ﴿فَتَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) فَاسْتَجَبْنَا لَكَ وَجَّيْنَهُ مِنَ الْعَذْرِ وَكَذَلِكَ نَشِىءُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]، قاله سعيد بن جُبَيْر وغيره.

[٥٧٢٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيْد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عَمِّي، حدثنا أبو صخر: أن يزيد الرُّقَاشي حَدَّثَهُ: أنه سَمِعَ أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله - ﷺ - «أن يونس النبي - عليه السلام - حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة! فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل مقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرِّخاءِ فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعراء». ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به، زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد: فأخبرني ابن قسيط وأنا أخذته هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: طريح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهباً الله له أزوية وخشية تأكل من حشاش الأرض - أو قال: حشاش الأرض - قال: فتفتش^(٦) عليه فتزويه من لبنها كل عشيبة وبكرة حتى نبت^(٧). وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ، لَوْلَا اللَّهُ أَلْفِي ضَاحِيَا

وقد تقدّم حديث أبي هريرة مُسنَداً مرفوعاً في تفسير سورة الأنبياء. ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَبْدُونَهُ﴾، أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ - قال ابن عباس، وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيٌّ﴾، أي: ضعيف البدن. قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : كهينة القزح ليس عليه ريش. وقال السُّدِّي: كهينة الصبي حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضاً. ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾^(٨)، قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وهب بن مُثَنِّب، وإلهام بن يساف، وعبد الله بن طاوس، والسُّدِّي، وقتادة، والضَّحَّاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد قالوا كلُّهم: اليقطين هو القزح. وقال هشيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر: كلُّ شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين. وفي رواية عنه: كلُّ شجرة تهلك من

(١) هو بعض حديث تقدم تخريجه.

(٢) فَشَّح: فرج ما بين رجله.

(٣) أخرجه الطبري ٢٩٦٠١ وإسناده ضعيف جداً. فيه ابن أخي عبد الله بن وهب، وضعفه غير واحد. ويزيد الرقاشي متفق على وهنه. وأبو صخر، حميد بن زياد وثقه قوم، وضعفه آخرون. والدعاء منه له شواهد، وتقدم.

عَامِهَا فَهِيَ مِنَ الْبِقَاطِينِ . وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقة ليكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلهه وقشره أيضاً.

[٥٧٢٦] وقد ثبت أن رسول الله - ﷺ - كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشي الصخفة^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْتُهُ إِلَىٰ يَاقَةَ آفِيٍّ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١٥٧)، روى شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذته الحوت. رواه ابن جرير: حدثني الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال، عن شهر، به. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمير بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مئة ألف أو يزيدون. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال ابن عباس - في رواية عنه - : بل يزيدون، وكانوا مئة وثلاثين ألفاً. وعنه: مئة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مئة ألف وبضعة وأربعين ألفاً. وقال سعيد بن جبیر: يزيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مئة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم.

[٥٧٢٧] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيراً [يحدث] عن سمع أبا العالية قال: حدثني أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْتُهُ إِلَىٰ يَاقَةَ آفِيٍّ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١٥٧)، قال: «يزيدون عشرين ألفاً»^(٢). ورواه الترمذي عن علي بن حنجر، عن الوليد بن مسلم، عن زهير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به، وقال: «غريب». ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير، به. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المئة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ يَوْمَ بَعْدَ ذَلِكَ فَعِيَا كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿إِذَا فُجِّقَ مِنْهُمْ يُخَشِنُونَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس انقاص من ذلك، بل أزيد. وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا﴾، أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس - عليه السلام - جميعهم، ﴿فَنَتَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت آجالهم، كقوله جلّت عظمته: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَكُمْ عَصَافًا يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٩٨) [يونس: ٩٨].

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾^(١٥٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٥﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ مِنْ إِنْكَاهٍ لَيْقُولُونَ ﴿١٥٦﴾ وَوَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٦﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٦﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٦﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتَوْا بِكَيْدِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٣٥، ٥٤٣٦، ٥٤٣٧، ٥٤٣٩ من حديث أنس.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الترمذي ٣٢٢٩ والطبري ٢٩٦٣٥ من حديث أبي بن كعب، وضعفه الترمذي بقوله: غريب اهـ وله علتان. فيه راو لم يسم، وزهير بن محمد منكر الحديث في رواية أهل الشام عنه. كما قال أحمد والبخاري وغيرهما؛ والأشبه في هذا الوقف، والله أعلم.

يقول تعالى منكرأ على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور. أي: يودون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، أي: يسوءه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله القيسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾، أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿أَلَيْسَ الْبِنَاتُ وَاللَّهُمُّ الْبَثْوَىٰ؟﴾ كقوله عز وجل: ﴿الْكُفْرُ أَذْكَرُ وَلَكِنَّ الْأُنثَىٰ﴾ [١٦١] تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَةٌ﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [١٥٥]، أي: كيف حكّموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟! كقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَخِرْنَا مِنْهُمْ لَعْنًا وَسَكْرًا وَأَعْيُنًا لَكُفْرًا﴾ [الزخرف: ١٩]، أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله جلّت عظمته: ﴿آلَا إِنَّمْ مِنْ إِنْكِبْتُمْ﴾، أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ [١٥١] وَلَدَ اللَّهُ﴾، أي: صدر منه الولد، ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾. فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله تعالى. وكلٌ منها كافٍ في التخليد في نار جهنم. ثم قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَمْ سَطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [١٥٦]، أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟! كقوله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَنَّاكُمْ رُحَمَاءَ الْبَنِينَ وَأَخَذْنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا لِنُكْفِرَنَّ لِقَوْلِهِمْ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [١٥٤]، أي: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٥٥] أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ﴾، أي: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأَنَّى يَكْفِيكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٥٧]، أي: هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنزَلٍ من السماء عن الله تعالى أنه اتَّخَذَ ما تقولونه، فَإِنَّ ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزُه العقل بالكلية. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾، قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بناتُ الله. فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سرّوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ﴾، أي: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّمْ لَمْحَضَرُونَ﴾، أي: إن الذين قالوا ذلك لَمْحَضَرُونَ في العذاب يوم الحساب يكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾، قال: زعم أعداء الله أنه - تبارك وتعالى - هو وإبليس أخوان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. حكاها ابن جرير. وقوله جلّت عظمته: ﴿سَبَّحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [١٥٩]، أي: تعالى وتقدس وتزّه عن أن يكون له ولد، وعمّا يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ [١٦٢] استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عائداً إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المُخْلِصِينَ، وهم المثنون للحق المنزّل على كل نبيٍّ ومرسلٍ. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِنَّمْ لَمْحَضَرُونَ﴾. . . . ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ [١٦٢]. وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَأَنكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ﴾ [١٦١] مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَدِيرٍ [١٦٢] إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ [١٦٣] وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [١٦٤] وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ [١٦٥] وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحِقُونَ [١٦٦] وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ [١٦٧] لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ [١٦٨] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ [١٦٩] فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [١٧٠]

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَأَنكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ﴾ [١٦١] مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَدِيرٍ [١٦٢] إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾، أي: ما ينقاد لمقاتلكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضلّ منكم ممن ذرىء النار. ﴿هَلْمْ قُلُوبٌ

لَا يَتَّقُونَ بِهَا وَلَكُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَكُمْ آفَافٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ لِي قَوْلًا مُّخْتَلِفًا ۖ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَيْكُ ۝١٦١﴾ [الذاريات ٨-٩]، أي: إنما يَضِلُّ به مَأْفُوكٌ وَمُبْطَلٌ. ثم قال تعالى مُنْزَهَاً لِلْمَلَائِكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يَقَامْ مَعْلُومٌ ۝١٦٢﴾، أي: له موضعٌ مخصوصٌ في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزها ولا يتعداها.

[٥٧٢٨] وقال ابنُ عساکر في تَرْجَمَتِهِ لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله - ﷺ - قال يوماً لِحُجَّاسَتِهِ: «أَطَبَتِ السَّمَاءَ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَطَّطَّ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ قَدَّمَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ رَاجِعٌ أَوْ سَاجِدٌ». ثم قرأ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يَقَامْ مَعْلُومٌ ۝١٦٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ السَّائِفُونَ ۝١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَبْرُونَ ﴿١﴾.

[٥٧٢٩] وقال الضحَّاك في تفسيره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يَقَامْ مَعْلُومٌ ۝١٦٢﴾، قال: كان مسروقٌ يَزْوِي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «ما مِن السَّمَاءِ الدُّنْيَا مَوْضِعٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ». فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يَقَامْ مَعْلُومٌ ۝١٦٢﴾ ﴿٢﴾.

وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن مسروق، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: إن من السموات لَسَّمَاءَ ما فيها موضعٌ شبرٍ إلا عليه جِبْهَةٌ مَلَكٌ أَوْ قَدَمَاهُ، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يَقَامْ مَعْلُومٌ ۝١٦٢﴾. وكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال قتادة: كانوا يُصَلُّونَ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَمْ يَقَامْ مَعْلُومٌ ۝١٦٢﴾، فتقدم الرجالُ وتأخَّرَ النساءُ. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ السَّائِفُونَ ۝١٦٥﴾، أي: نَقِفُ صُفُوفًا في الطاعة، كما تقدَّم عند قوله تبارك تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١٦١﴾، قال ابن جريج، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مُعَيْثٍ قال: كانوا لا يُصَفُّونَ في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ السَّائِفُونَ ۝١٦٥﴾، فَصَفُّوا. وقال أبو نُضْرَةَ: كان عُمَرُ رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبلَ الناسَ بوجهه، ثم قال: أقيموا صُفُوفَكُمْ، اسْتَوُوا قِيامًا، يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى بِكُمْ هَدْيَ الْمَلَائِكَةِ، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ السَّائِفُونَ ۝١٦٥﴾، تأخَّرَ يا فلان، تَقَدَّمَ يا فلان، ثم يَتَقَدَّمُ فَيَكْبُرُ، - رضي الله عنه - . رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جرير.

[٥٧٣٠] وفي صحيح مسلم عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا...» (٣) الحديث.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَبْرُونَ ۝١٦٦﴾، أي: نَضَطَّفُ فَنُتَسَبِّحُ الرَّبَّ وَنُتَمَجِّدُهُ وَنُقَدِّسُهُ وَنُنَزِّهُهُ عَنِ النَّقَائِصِ، فَنَحْنُ عَيْبِدٌ

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» ٢٥٥، وفي الإسناد مجاهيل، ومحمد بن خالد الدمشقي كان يكذب كما في الميزان ٧٤٧٢ عن أبي حاتم. والمتن محفوظ دون ذكر الآيات. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه الطبري ٢٩٦٧٨، ومحمد بن نصر ٢٥٣، والضحَّاك، ضعفه يحيى بن سعيد، ووثقه الجمهور، لكنه لم يذكر سماعه من مسروق، وصيغته تحتل الإرسال والتعليق. وكذلك ليس في رواية مسروق ما يدل على سماعه لهذا الحديث من عائشة رضي الله عنها. والحديث غريب بذكر تفسير الآية، وأما بدون ذلك، فله شواهد، راجع «الدر المنثور» ٥٤٩/٥ - ٥٥٠. و«الصحيححة» ١٠٥٩ و ١٠٦٠ وتقدم عن أبي ذر، وضح ذلك من قول ابن مسعود أخرجه الطبري ٢٩٦٧٩ و ٢٩٦٨٠ و ٢٩٦٨٨.

(٣) تقدم في سورة النساء آية ٤٣.

له، فقرأ إليه، خاضعون لديه. وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٧٤): الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٧٥): الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُنْتَهُونَ﴾ (١٧٦): الملائكة تُسَبِّحُ الله - عز وجل - . وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُنْتَهُونَ﴾ (١٧٦)، يعني: المصلون، يثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ الرَّحْمَنَ وَلَكِنَّا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّشْكِرُونَ﴾ (١٧٦) لا يستوفونه بالقول - وهم يأمرهم بعملهم ﴿١٧٧﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يتفوتوك إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴿١٧٨﴾ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴿[الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].﴾

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ (١٧٧) لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٧٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٧٩﴾، أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم - يا محمد - لو كان عندهم من يذكروهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِنسَانِ الْأُولَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢) ﴿[فاطر: ٤٢].﴾ وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلٰى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دَرَسَاتِهِنَّ لَغَافِلِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُم فَذَرْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ زَيْدًا مِّنْ هُدًى وَرَحْمَةً مِّنْ أَعْلَاهُ مَن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصِدْقُونَ عَن آيَاتِنَا سَوَاءَ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَصِدْقُونَ ﴿[الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧].﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠)، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدَانَا لَمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِيئَ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ السُّدْرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِيئَ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ﴾ (١٧١)، أي: تقدّم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٦١) [المجادلة: ٢١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ نُعْظِمُ الْأَشْهَادَ﴾ (٥١) [غافر: ٥١]. ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٢﴾، أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدّم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجّى عباده المؤمنين، ﴿وَإِن جُنَدَانَا لَمُ الْعَالِيُونَ﴾ (١٧٣)، أي: تكون لهم العاقبة.

وقوله جل وعلا: ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِيئَ﴾ (١٧٤)، أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر. ولهذا قال بعضهم: غيّا ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً في معناها. وقوله جلّت عظمتها: ﴿وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٥)، أي: أنظرتهم وارتقبت ماذا يحلّ بهم من العذاب والتكال على مخالفتك وتكذيبك. ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦)، أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبك وكفرهم بك، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويُعَجِّلُ لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ السُّدْرِينَ﴾ (١٧٧). أي: فإذا نزل العذاب بمحلّتهم فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكيهم ودمارهم. وقال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ﴾، يعني: بدارهم، ﴿فَسَاءَ السُّدْرِينَ﴾، أي: فبئس ما يضيحون! أي: بش الصباح صباحهم!

[٥٧٣١] ولهذا ثَبَّتَ في الصحيحين من حديث إسماعيلَ ابنِ عُليَّة، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس - رضي الله عنه - قال: صَبَّحَ رسول الله - ﷺ - خبيراً، فلما خَرَجُوا بفؤوسهم ومساجيهم ورأوا الجيش رجعوا يقولون: محمدٌ والله، محمدٌ والخميس! فقال النبي - ﷺ -: «الله أكبرُ خربت خبيرُ، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذرين!»^(١). ورواه البخاري من حديث مالك، عن حميد، عن أنس . .

[٥٧٣٢] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: لما صَبَّحَ رسول الله - ﷺ - خبيراً، وقد أخذوا مساجيهم وغدوا إلى حُرُوثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي - ﷺ - نَكَّضُوا مُدْبِرِينَ، فقال نبي الله - ﷺ -: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذرين!»^(٢). لم يُخْرِجُوهُ من هذا الوجه، وَهُوَ صحيحٌ على شَرَطِ الشَّيْخَيْنِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ ۖ وَأَبْصَرَ فَسَوَّىٰ يَبْصُرُونَ﴾ ﴿١٧٦﴾، تأكيد لما تقدّم من الأمرِ بِذَلِكَ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٨﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾

يُتْرَهُ تعالى نفسه الكريمةَ وَيُقَدِّسُهَا وَيُبَيِّنُهَا عما يقوله الظالمون المكذّبون المعتدون، تعالى [وتنزّه] وتقدّس عن قولهم علوّاً كبيراً. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، أي: ذي العزّة التي لا تُزَام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن قول هؤلاء المعتدين المُفْتَرِينَ، ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحّته وحَقَّقِيته، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كلِّ حال. ولما كان التسييحُ يَتَضَمَّنُ التنزيه والتبرئة من النقصِ بِدلالةِ المُطابَقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدلُّ على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص - قَرَنَ بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٨﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾.

[٥٧٣٣] وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا سلّمتم عليّ فسَلِّمُوا على المرسلين، فإنما أنا رسولٌ مِنَ المرسلين»^(٣). هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد، عنه، كذلك.

[٥٧٣٤] وقد أسنَدَهُ ابنُ أبي حاتم - رحمه الله - فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أبو بكر الأعيُن ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالوا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حَدَّثَ أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا سلّمتم عليّ فسَلِّمُوا على المرسلين»^(٤).

[٥٧٣٥] وقال الحافظ أبو يعلى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنِ أَبِي بَكْرٍ، حَدَّثَنَا نَوْحٌ، حَدَّثَنَا أَبُو هَارُونَ، عن أبي

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٧١ ومسلم ١٢٠/٣ والنسائي ١٣١/٦ - ١٣٢ وأحمد ١٠١/٣ - ١٠٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩/٤ وابن سعد ١٠٩/٢ وإستاد أحمد على شرط الشيخين كما قال ابن كثير.

(٣) مرسل. أخرجه الطبري ٢٩٧٠٤ عن قتادة، وهو مرسل. وورد موصولاً، وهو الآتي.

(٤) إسناده قوي رجاله ثقات إلا أن قتادة مدلس، وصيغته تدل على أنه لم يسمعه من أنس حيث قال: «حدث أنس» ولم يقل

حدثني، ولا أخبرني. وتقدم في سورة الأحزاب آية ٥٦ من حديث أبي هريرة.

سَعِيدٌ، عن رسول الله - ﷺ - أنه كان إذا أراد أن يسلم قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾. ثم يُسَلِّمُ. إسناده ضعيفٌ.

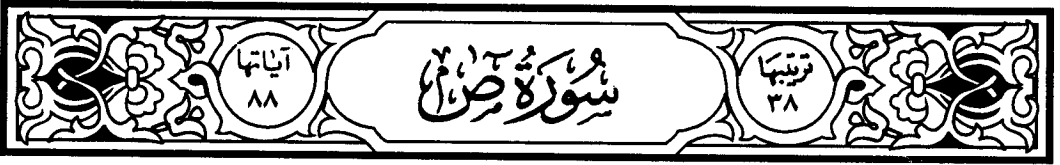
[٥٧٣٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عَمَّارُ بنُ خالد الواسطي، حدثنا شَبَابَةُ، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمَكِّيَالِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيُقَلِّ أَخْرَجْ مَجْلِسِهِ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾. وَرُوِيَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ مُتَّصِلٍ مَوْقُوفٍ عَلَى عَلِيٍّ، - رضي الله عنه - . قال أبو محمد البَغَوِيُّ في تفسيره: أخبرنا أبو سَعِيدٍ أَحْمَدُ [بن إبراهيم] الشَّرِيحِيُّ، أخبرنا أبو إسحاق الثُّعْلَبِيُّ، أخبرني ابن فَنَجُويَه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سَهْلُويَه، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِيسِيُّ، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبي صَفِيَّةَ، عن الأصْبَغِ بن نَبَاتَةَ، عن علي - رضي الله عنه - قال: من أحبَّ أن يكتالَ بالمكيالِ الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه مِنْ مَجْلِسِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾.

[٥٧٣٧] وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر الأنسي، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «من قال ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾، ثلاث مرات، فقد اكتالَ بالجَرِيبِ الأوفى من الأجر» (٣).

[٥٧٣٨] وقد وَرَدَتْ أَحاديثٌ في كَفَّارَةِ المَجْلِسِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» (٤). وقد أقرذت لها جزءاً على جِدَّةٍ فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

آخر تفسير سورة الصافات

- (١) أخرجه أبو يعلى ١١١٨، وإسناده ضعيف جداً، أبو هارون هو عمارة بن جوين. جاء في «الميزان» ٦٠١٨: كذبه حماد، وقال أحمد: ليس بشيء. وضعفه يحيى، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وكذبه الجوزجاني، وقال ابن حبان: كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه.
- (٢) ضعيف. ذكره السيوطي في «الدرر» ٥٥٤/٥ وعزاه لابن أبي حاتم، وهو ضعيف لكونه مرسلًا. وورد موقوفاً على علي، وهو الآتي. ومع كونه موقوفاً فيه الأصبغ بن نباتة، وهو متروك، والموقوف أخرجه البغوي ٤٠/٤.
- (٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥١٢٤ من حديث زيد بن أرقم. وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٦٩٢٦ بعبد المنعم ابن بشير، وأنه ضعيف جداً. ورواه شيخ الطبراني، وهو أحمد بن رشدين منهم أيضاً، فالخير واه جداً، لكن قلت إنه ضعيف فحسب لكونه جاء عن الشعبي مرسلًا. والله أعلم.
- (٤) تقدم تخريجه وهو صحيح بشواهد.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تَأْتِنَا سَحَابٌ مِمَّنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنَاهُمْ أُهْلَاقًا فَلا نَمْنَعُهُمْ ﴿٣﴾﴾

حِينَ مَنَاصٍ ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة، وأبو حنيفة، وأبو صالح، والسدي: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كَلَّ إِلَّا كَذَّبَ أَرْسِلْ فَنَحَقْ عِقَابٍ ﴿١٦﴾﴾. وقيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾، حكاهما ابن جرير، وهذا الثاني فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير. وقال قتادة: جوابه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾﴾، واختاره ابن جرير. وقيل: جوابه ما تضمنته سياق السورة بكاملها. والله أعلم. ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه قال: جوابه: ﴿صَّ﴾ بمعنى: صدق حق ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾﴾، أي: إن في هذا القرآن لذكرا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾، أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، أي: مخالفة له ومعادنة ومفارقة. ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال تعالى: ﴿كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، أي: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوا﴾، أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأوا إلى الله تعالى. وليس ذلك بمجد عنهم شيئا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُوا بِأَسَاقِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: يهربون، ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأَارْجِعُوا إِلَى مَا أْتَرَفْتُمْ فِيهِ وَتَسْكَبِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٢ - ١٣]. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿فَنَادَوا وَلا تَأْتِنَا سَحَابٌ مِمَّنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنَاهُمْ أُهْلَاقًا فَلا نَمْنَعُهُمْ﴾، قال: ليس بحين نزل ولا فزار. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادوا النداء حين لا يتفهم، وأنشد:

تَذَكَّرَ لَيْلَى لَاتٍ حِينَ تَذَكَّرِ

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿فَادَاؤُا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصأوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء. وقال مجاهد: ﴿فَادَاؤُا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فراژ ولا إجابة. وقد روي نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبیر، وأبي مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾: ولا نداء في غير حين النداء. وهذه الكلمة وهي «لات»، هي «لا» التي للنفي، زيدت معها التاء، كما تزداد في «ثُمَّ»، فيقولون: «ثُمَّت»، و«رُبَّ» فيقولون: «رُبَّت». وهي مفضولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جَوَزَ النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لَاتٍ حِينًا وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا
ومنهم من جَوَزَ الْجَزَّ بِهَا، وَأَنْشَدَ:
طَلَبُوا صَلْحَنَا وَآلَاتٍ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينٌ بَقَاءٍ
وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ أَيْضًا:

وَلَاتٍ سَاعَةً مَتَدَمًا

بخفض الساعة: وأهل اللغة يقولون: التَّوَصُّ: التَّأخُّرُ. والتَّوَصُّ: التَّقَدُّمُ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾، أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سِعَعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلِقٌ ﴿٧﴾ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَرِ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشراً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾، أي: بشر مثلهم، ﴿وقال الكافرون هذا سحر كذاب ﴿٤﴾﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا﴾، أي: أزعَم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتَعَجَّبُوا من تَرْكِ الشُّرْكَ بالله، فإنهم كانوا قد تَلَفَّقُوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول - ﷺ - إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، وهم ساداتهم وقاداتهم ورؤساؤهم وكبرائهم قائلين: ﴿آمَنُوا﴾، أي: استمروا على دينكم، ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾. قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه.

ذَكَرُ سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ :

[٥٧٣٩] قال السُّدِّيُّ: إن أناساً من قُرَيْشٍ اجتمعوا، فيهم أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يَعُوثَ، في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فليصِفنا منه، فليكيف عن شتم آلِهتنا، ونَدِّعه وإلهه الذي يعبده؛ فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شيء فَنُعَيِّرُنَا به العربُ، يقولون: تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه. فبعثوا رجلاً منهم يقال له الْمُطَلَّبُ، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسرّاتهم يستأذنون عليك. قال: أَدْخَلُهُمْ. فلما دَخَلُوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيّدنا، فأنصِفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم آلِهتنا ونَدِّعه وإلهه. قال: فَبَعَثَ إليه أبو طالب، فلما دَخَلَ عليه رسول الله ﷺ - قال: يا ابن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسرّاتهم، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلِهتهم ويَدْعُوك وإلهك. قال: «يا عمّ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويمليكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينكها وعشر أمثالها. قال: «تقولون: لا إله إلا الله». فنفروا وقالوا: سلنا غير هذا. قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تَضَعُوهَا في يَدَيَّ، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غَضَاباً، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أمرك بهذا. ﴿رَأَطَّقَ الْأَلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى إِلَهَيْكَ إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ بَرَادٌ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خَرَجُوا دَعَا رسول الله ﷺ - عمّه إلى قول: لا إله إلا الله. فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١) [القصص: ٥٦].

[٥٧٤٠] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ وابنُ وَكَيْعٍ قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عَبَادُ، عن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابن عباس قال: لما مَرَضَ أبو طالب، دَخَلَ عليه رهطٌ من قُرَيْشٍ، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلِهتنا. ويفعل [ويفعل]، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فَنَهَيْتَهُ؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ - فدَخَلَ البيتَ وبينهم وبين أبي طالب قدرُ مجلس رجل، قال: فَخَشِيَ أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أَرْقُ له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ - مجلساً قُربَ عمّه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يَزْعُمُونَ أنك تشتم آلِهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثرُوا عليه من القول. وتكلم رسول الله ﷺ - فقال: «يا عمّ، إني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العربُ، وتؤدِّي إليهم بها العجمُ الجزية». ففزعُوا لكلمته ولقوله، وقال القوم: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرأ؛ فقالوا: وما هي؟ قال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: «لا إله إلا الله». فقاموا فَرَعِينَ يَنْفَضُونَ ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْمَلُ الْأَلَمَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَنُكْرٌ عَجَابٌ﴾^(٢). قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَدْعُونَ عَنَابٍ﴾. لفظ أبي كُرَيْبٍ. وهكذا رواه الإمام أحمدُ والنسائيُّ، من حديث محمد بن عبد الله بن ثَمِيرٍ، كلاهما عن أبي أسامة، عن الأعمش،

(١) والحديث مرسل. أخرجه الطبري ٢٩٧٥٠، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٤٥٧ وأحمد ٣٦٢/٢ والطبري ٢٩٧٣٧، وفيه عباد بن جعفر، وهو مجهول. وأخرجه الترمذي ٣٣٢٢ والنسائي ٤٥٦ والطبري ٢٩٧٣٨ والحاكم ٤٣٢/٢، وفيه يحيى بن عمار، وهو لين الحديث، وله طرق ضعيفة لعله يتأيد بها، انظر الكشف ٩٥٤ بتخريري.

عن عبّاد - غير منسوب - به نحوه. ورواه الترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضاً، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عمار الكوفي، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذي: «حَسَنٌ». وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ﴾، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية. قاله محمد بن كعب، والسدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ﴾، يعني النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ﴾، قال مجاهد، وقتادة: كذب. وقال ابن عباس: تخرّص.

وقولهم: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾، يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَی رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٦﴾ قال الله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ نَقَسْنَا فِيهِمْ مِّمِّشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]. ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلّة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَّمَّا بَدَّوهُمَا عَبَاسُ﴾، أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلّمون غيب ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً. ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعل لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرّة، وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ خِرَابٍ رَّحِمَةٍ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّهَابِ﴾ ﴿٤٩﴾، أي: العزيز الذي لا يرام جنابه، الراهب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَجْعَلِ لَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ لِذَاتِكَ مَا تُؤْكُلُ وَالْأَنْثَىٰ تَقْرِي﴾ ﴿٥٧﴾ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ عَلَىٰ مَنَّا إِذْ هُمْ أَتَانَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَمَا آتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٤﴾ فَوَيْلٌ لِّمَن يَدَّ يَدَهُ بِرُءُوسِهِمْ مَن صَدَّ عَنْهُ وَكُنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ [النساء: ٥٣-٥٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خِرَابِينَ رَّحِمَةٍ رَبِّكَ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١١٠﴾ [الإسراء: ١٠٠]. وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري ﷺ، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أَنْزَلَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَوَّيْرٌ﴾ ﴿٦٥﴾ سَمِعْتُمْ عِدَاً مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَوَّيْرِ﴾ [القم: ٢٥-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ مِثْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ﴿١٠﴾، أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، وقتادة، وغيرهم: يعني طرّق السماء. وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة. ثم قال عز وجل: ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿١١﴾، أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون، كما كُبت الذين من قبيلهم من الأحزاب المكذبين. وهذه كقوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ حَتَّىٰ نَجْمِعَ مُشْتَرِكًا﴾ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْبَصَرُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٤٥﴾ وكان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْجِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْخَىٰ وَأَمَرٌ﴾ ﴿٤٦﴾ [القم: ٤٤-٤٦].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٧﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ ﴿١٨﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٩﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ أَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ ﴾

يقول تعالى مُخْبِرًا عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمة في مخالفة الرُّسُل وتكذيب الأنبياء، وقد تَقَدَّمتْ قِصَصُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِن مُتَعَدِّدَةٍ. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ﴾، أي: كانوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، فَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ. ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٩﴾﴾. فَجَعَلَ عِلَّةَ هَلَاكِهِمْ هُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِالرُّسُلِ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿٢٠﴾﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مَثْوِيَّةٌ، أي: ما ينظرون إلى الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أي: قد اقتربت وذنبت وأزقت. وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يُطَوِّلَهَا، فلا يبقى أحدٌ من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله - عز وجل - . وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾. هذا إنكارٌ من الله تعالى على المشركين في دُعَائِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ، فَإِنَّ الْقِطَّ هُوَ الْكِتَابُ. وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب، زاد قتادة: كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَطِرْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنْ أَسْمَلِكِ أَوْ أَنْتِنَا بِعَذَابِ الْبَاسِ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خرَجَ هذا منهم مَخْرَجَ الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا. وهذا الذي قاله جيّد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله - ﷺ - أَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهِمُ، وَمُبَشِّرًا لَهُ عَلَى صَبْرِهِ بِالْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفْرِ.

﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا لِحَالِكُمْ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرِ سَحُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود - عليه الصلاة والسلام - : أنه كان ذَا أَيْدٍ، وَالْأَيْدِ: الْقُوَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَالسُّدِّيُّ: الْأَيْدِ: الْقُوَّةُ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿وَالنَّمَاةَ بَيْنَتَهَا بَأَيْدِي وَإِنَّا لَنُؤَيِّسُونَ ﴿١٧﴾﴾، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَيْدِ: الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أُعْطِيَ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ، وَفَهْمًا فِي الْإِسْلَامِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَقْرَأُ ثَلَاثَ اللَّيْلِ، وَيَصُومُ نِصْفَ الدَّهْرِ.

[٥٧٤١] وهذا ثابتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثَلَاثَةَ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَغْفِرُ إِذَا لَاقَى»^(١). وَأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا، وَهُوَ الرَّجَاعُ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُؤُونِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِاللَّيْلِ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨)، أي: إنه تعالى سَخَّرَ الجبالَ تُسَبِّحُ معه عندَ إشراقِ الشمسِ وأخَّرَ النهارَ، كما قال تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أُولِي مَعَمٍّ وَالطَّيْرُ﴾. وكذلك كانت الطيرُ تُسَبِّحُ بتسبيحِهِ، وتُرْجَعُ بترجيِعِهِ، إذا مَرَّ به الطير وهو ساوِج في الهواءِ فَسَمِعَهُ وهو يَتَرْتَمُ بقراءة الزُّبور لا تستطيعُ الذهابَ، بل تَقِفُ في الهواءِ تُسَبِّحُ معه، وتُجيبُهُ الجبالُ الشامخاتُ، تُرْجَعُ معه، وتُسَبِّحُ تَبَعاً له..

[٥٧٤٢] قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا محمدُ بن بشر، عن مسعر، عن عبد الكريم، عن موسى بن أبي كثير، عن ابن عباس أنه بلغه: أن أم هانئ ذكَّرت أن رسولَ الله - ﷺ - يومَ فَتْحِ مَكَّةَ صَلَّى الضحَى ثمانَ رَكَعَاتٍ. قال ابنُ عباسٍ: قد ظَنَنْتُ أن لهذه الساعة صلاةً، يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحَنَّ بِاللَّيْلِ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١).

[٥٧٤٣] ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن أبي المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاة عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس كان لا يُصَلِّي الضحَى. قال: فأدخلته على أم هانئ فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني. فقالت أم هانئ: دَخَلَ عَلَيَّ رسولُ الله - ﷺ - يومَ الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صبَّ في قَضَعَةٍ، ثم أمر بثوب، فأخذ بيدي وبينه، فاغتسل ثم رَشَ ناحيةَ البيتِ، فَصَلَّى ثمانَ رَكَعَاتٍ، وذلك من الضحَى، قِيَامُهُنَّ وَرُكُوعُهُنَّ وَسُجُودُهُنَّ وَجُلُوسُهُنَّ سَوَاءً، قَرِيبَ بَعْضُهُنَّ من بعض. فَخَرَجَ ابنُ عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحَى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحَنَّ بِاللَّيْلِ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعدُ يقول هذه: صلاة الإشراق (٢). ولهذا قال عز وجل: ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾، أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلُّ لَهْرٍ أَوَّابٌ﴾، أي: مُطِيعٌ يُسَبِّحُ تَبَعاً له. قال سعيد بن جبَّير، وقاتده، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلُّ لَهْرٍ أَوَّابٌ﴾، أي: مُطِيعٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَدَدْنَا مُلْكَهُمْ﴾، أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال ابنُ أبي نجَّيح، عن مجاهد: كان أشدَّ أهل الدنيا سلطاناً. وقال السُّدي: كان يحرسه كلُّ يوم أربعة آلاف. وقال بعضُ السلف: بلغني أنه كان حرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدورُ عليهم التوبة إلى مثلها من العام القابل. وقال غيره: أربعون ألفاً مُسْتَكُونٌ بالسلاح (٣). وقد ذكر ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من رواية علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن نَفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود - عليه السلام - أنه اغتصبه بقرأ، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بيِّنة، فأرجأ أمرهما. فلما كان الليلُ أمر داود - عليه السلام - في المنام بقتل المدعي. فلما كان النهارُ طلبهما وأمر بقتل المدعي، فقال: يا نبي الله، غلامٌ تقئلني وقد اغتصبني هذا بقري؟ فقال: إن الله - عزَّ وجلَّ - أمرني بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادَّعيتُ عليه، وإنني لصادق فيما ادَّعيتُ، ولكنني كنت قد اغتلتُ أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحدٌ، فأمر به داود - عليه السلام - فقتل. قال ابنُ عباسٍ: فاشتدَّتْ هَيْبَتُهُ في بَنِي

(١) أخرجه الطبري ٢٩٨٠٣ وفيه إرسال بين موسى وابن عباس، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه الطبري ٢٩٨٠٤ والحاكم ٥٣/٤ وإسناده حسن في الشواهد. وكرره الطبري ٢٩٨٠٥ وإسناده ضعيف، وأخرجه الطبراني ٤٠٦/٢٤ والواحدي في «الوسيط» ٥٤٤/٣ بسند ضعيف لضعف أبي بكر الهذلي، لكن الحديث حسن بطرقه، وانظر «الكشاف» ٩٥٦ بتخريري.

(٣) هذا وما قبله من الإسرائيليات، وهي أرقام خيالية.

إسرائيل، وهو الذي يقول الله عز وجل ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُومَ﴾. وقوله جل وعلا: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ﴾، قال مجاهد: يعني الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدي: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة. وقوله جل جلاله: ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾، قال شريح القاضي، والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان. وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل - أو قال: المؤمنون والصالحون - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة. وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي. وقال مجاهد. والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميري، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني عبد العزيز بن أبي ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: أول من قال: «أما بعد» داود - عليه السلام - وهو فصل الخطاب. وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿وَهَلْ أُنْتِكَ بُرُؤُا الْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ حَصَمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ لَمْ يَسْعُ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَجِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا لَمَّا نَزَّلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ مَنَابِقَ ﴿٢٥﴾

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات^(١)، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس - وي زيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرده علمها إلى الله - عز وجل -؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. وقوله تعالى: ﴿فَفَرَّجَ مِنْهُمْ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أي: غلبنى. يقال: عز يبرز؛ إذا فهرز وغلّب. وقوله: ﴿وَقَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اختبرناه. وقوله تعالى: ﴿وَوَخَّرَ رَاكِعًا﴾، أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾. ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك. وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً، ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾. أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة - رضي الله عنهم - في سجدة «ص»، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي - رحمه الله - أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

[٥٧٤٤] حدثنا إسماعيل - وهو ابن علية - عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في السجود

(١) راجع تفسير القرطبي عند هذه الآية بتعليقي.

في «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله - ﷺ - يسجد فيها^(١). ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في تفسيره، من حديث أيوب، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

[٥٧٤٥] وقال النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن - هو المِقْسَمِيُّ - حدثنا حجاج بن محمد، عن عُمَرُ بن ذُرِّ، عن أبيه، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - سجّد في «ص»، وقال: «سجّدها داود - عليه السلام - توبةً، ونسجدها شكراً»^(٢). تفرّد بروايته النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات.

[٥٧٤٦] [مسند] وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزِّي قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو إسحاق المُدرِجِي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثَّقَفِي، أخبرنا زاهر بن طاهر الشَّحَامِي، أخبرنا أبو سعد الكَنْعَرِيُّ، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السَّراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن حُنَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبَّيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جُريج: يا حَسَنُ، حدثني جدك عبَّيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجلٌ إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، إنني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلتُ خَلْفَ شَجَرَةٍ، فقرأتُ السجدة، فسجّدتُ فسجّدتُ الشجرة لسجودي، فسَمِعْتُها تقولُ وهي ساجدة: اللَّهُمَّ، اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذُخْراً، وضع عني وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فرأيتُ النبي - ﷺ - قام فقرأ السجدة، ثم سجّد، فسَمِعْتُهُ يقولُ وهو ساجدٌ كما حكى الرجل عن كلام الشجرة^(٣). رواه الترمذي عن قُتَيْبَةَ وابن ماجه عن أبي بكر بن خَلَاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن حُنَيْس، نحوه. وقال الترمذي: «غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

[٥٧٤٧] وقال البخاري عند تفسيرها أيضاً: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الطَّنَافِيسِيُّ، عن العَوَامِ قال: سألتُ مجاهداً عن سَجْدَةِ «ص» فقال: سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ: من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُدَّتْهُمْ أَمْتِدُهُ﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٩٠]، فكان داود - عليه السلام - ممن أمرَ نبيُّكم - ﷺ - أن يقتدي به، فسجدها داود - عليه السلام - فسجدها رسول الله - ﷺ -^(٤).

[٥٧٤٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا يزيد بن زُرَّيع، حدثنا حَمِيد، حدثنا بكر - هو ابن عبد الله المَزْنِي - أنه أخبره: أن أبا سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً، قال: فقَصَّها على النبي - ﷺ - فلم يزل يسجد بها بعد^(٥). تفرّد به أحمد.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٦٩ والنسائي ١٥٩/٢ وابن حبان ٢٧٦٦ وأحمد ١/٣٦٠.

(٢) جيد. أخرجه النسائي في تفسيره ٤٥٨ والبيهقي ٣١٩/٢ والدارقطني ٤٠٧/١ وإسناده قوي، وجوده السيوطي في «الدر» ٤٠٧/١، وقال ابن حجر «تلخيص الحبير» ٨/٢: أعله ابن الجوزي بعبد الله بن بزيع، وقد تويع وصححه ابن السكن اهـ. ويشهد له حديث أبي سعيد، وسيأتي.

(٣) إسناده ضعيف لضعف الحسن بن محمد، ومن طريقه أخرجه الترمذي ٥٧٩ وابن ماجه ١٠٥٣ و«تهذيب الكمال» ٦/٣١٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٠٨٧ عن ابن عباس.

(٥) أخرجه أحمد ٧٨/٣ بإسناد صحيح، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٦٩٠: رجاله رجال الصحيح.

[٥٧٤٩] وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قرأ رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر ﴿ص﴾، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود، فقال ﷺ: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تشزنتم»^(١). فنزل وسجد. تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَيْنِ وَحَسَنَ مَتَابٍ﴾، أي: وإن له يوم القيامة لقربة يُقرِّبه الله - عز وجل - بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات في الجنة، لتوبته وعذله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: [٥٧٥٠] «والمقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يُقسطون في أهليهم وما ولوا»^(٢).

[٥٧٥١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر»^(٣). ورواه الترمذي من حديث فضيل - وهو ابن مرزوق - الأغر، عن عطية، به. وقال: «لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت مالك بن دينار في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَيْنِ وَحَسَنَ مَتَابٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدي اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجديني به في الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبتني؟ فيقول الله عز وجل: إني أُرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفزع نعيم أهل الجنان.

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَأُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

هذه وصية من الله - عز وجل - لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده - تبارك وتعالى - ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله. وقد توعد تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مزوان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة؟ فإنتك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهته، فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان الله. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤١٠ والحاكم ٤٣١/٢ - ٤٣٢. وابن حبان ٢٧٦٥ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وإسناده صحيح على شرط مسلم. وتشزن: تبتأ.

(٢) هو بعض حديث صحيح، وتقدم.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي ١٣٢٩ وأحمد ٥٥/٣ من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف لأجل عطية ابن سعد العوفي. ولا شك بأن الأمير الجائر الماجن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، فهناك آيات كثيرة تدل على ذلك وفي الباب أحاديث صحيحة.

والخلافة، ثم تَوَعَّدَهُ في كتابه فقال: ﴿بِذَاذُودُوا إِذَا جَعَلْنَا خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الآية. وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نَسُوا. وقال السُّدِّي: لهم عذاب شديد بما تَرَكُوا أَنْ يَعْمَلُوا لِيَوْمِ الْحِسَابِ. وهذا القول أمسى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾

يُخبر تعالى أنه ما خَلَقَ الخلق عبثاً، وإنما خَلَقَهُمْ ليعبُدوه ويؤخِّدوه، ثم يَجْمَعُهُمْ ليومِ الجَمْعِ، فَيُثَبِّتُ المطيعَ ويُعَذِّبُ الكافر. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، أي: ويلٌ لهم يومِ معادهم ونُشُورهم من النارِ المُعدَّةِ لهم. ثم بيَّن تعالى أنه من عدليه وحكمته لا يُساوي بين المؤمنين والكافرين، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ من دارٍ أخرى، يُثَاب فيها هذا المطيع، ويُعَاقَب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يُدَلُّ العقول السليمة والفِطْرَ المستقيمة على أنه لا بُدَّ من معادٍ وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغي يزدادُ مالهَ وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمِّه، فلا بُدَّ في حِكْمَةِ الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ، من إنصافٍ هذا من هذا، وإذا لم يَقَعْ هذا في هذه الدارِ فَتَعَيَّنَ أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يُرشدُ إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾، أي ذُوو العقول، وهي الأبواب، جَمْعُ لُبٍّ، وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تَدَبَّرُهُ بحفظ حُرُوفِهِ وإضاعة حُدُودِهِ، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن، ما يُرَى له القرآن في خَلْقِي ولا عَمَلِي. رواه ابنُ أبي حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ ءَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوفِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً أنه وَهَبَ لداودَ سُلَيْمَانَ، أي: نبيّاً، كما قال عز وجل: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بُتُونٌ غيره، فإنه قد كان عنده مئة امرأةٍ حَرَائِرُ. وقوله تعالى: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ ءَوَّابٌ﴾، ثناءٌ على سُلَيْمَانَ - عليه السلام - بأنه كثيرُ الطاعةِ والعبادةِ والإنابةِ إلى الله - عزَّ وجلَّ - . قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمودُ بن خالد، حدثنا الوليدُ، حدثنا ابنُ جابر، حدثنا مكحولُ قال: لما وَهَبَ اللهُ لداودَ سُلَيْمَانَ - عليه السلام - قال له: يا بُنَيَّ، ما أَحْسَنُ؟ قال: سَكِينَةُ اللهُ وإيمانٌ. قال: فما أَقْبَحُ؟ قال: كَفَرٌ بعد إيمانٍ. قال: فما أَحْلَى؟ قال: روحُ اللهِ بَيْنَ عِبَادِهِ. قال: فما أَبْرَدُ؟ قال: عَفْوُ اللهِ عن الناسِ، وعَفْوُ الناسِ بعضهم عن بعضٍ. قال داودُ عليه السلام: فأنت نَبِيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾، أي: إِذْ عَرَضَ على سُلَيْمَانَ في حالِ مملكته

وسلطانيه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تَقِف على ثلاثِ وطَرَفِ حافرِ الرابعة، والجيادُ: السَّرَاع. وكذا قال غيرُ واحد من السلف. وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله عز وجل: ﴿إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الْعَصِيفَتُ الْجِيَادُ﴾ (٣٦)، قال: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة. كذا رواه ابنُ جرير.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابنُ أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان - عليه الصلاة والسلام - عشرين ألف فرس، فَعَقَرَهَا. وهذا أشبه، والله أعلم.

[٥٧٥٢] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني عمارة بن غزيرة: أن مُحَمَّد بن إبراهيم حَدَّثَهُ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قَدِمَ رسولُ الله - ﷺ - من غزوةِ تبوك - أو: خيبر - وفي سهوتها سترٌ، فَهَبَّتِ الرياحُ، فكشفت ناحيةَ السُّترِ عن بناتٍ لعائشة - لَعِبَ - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي. ورأى بينهما فرساً له جناحان من رِقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وَسَطَهُنَّ؟» قالت: فرسٌ. قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فَضَحِكَ حتى رأيت نواجذَه ﷺ (١).

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِيَّاهِ أَحَبَّتْ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٣٢)، ذكر غيرُ واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقتُ صلاةِ العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عنداً بل نسياناً، كما شغل النبي - ﷺ - يوم الخندق عن صلاةِ العصر حتى صَلَّىها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه.

[٥٧٥٣] من ذلك عن جابر قال: جاء عمر - رضي الله عنه - يومَ الخندق بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ. فجعل يَسُبُّ كُفَّارِ قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كَذْتُ أَصْلِي العصرَ حتى كادت الشمسُ تَغْرُبُ. فقال رسول الله - ﷺ -: «والله ما صَلَّيْتُهَا». فقال: فقمننا إلى بَطْحَانَ فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها، فصلَّى العصر بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ، ثم صَلَّيْتُ بعدها المغرب (٢). وَحَتَّمَلُ أَنَّهُ كَانَ سَائِغًا فِي مَلْتَمِهِمْ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ لِعُدْرِ الغزو والقتالِ والخيلِ تُراد للقتال، وقد ادَّعى طائفةٌ من العلماء أن هذا كان مشروعاً فُتْسِخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم مَنْ ذَهَبَ إلى ذلك في حال المُسَايِفَةِ والمُضَايِقَةِ، حيث لا يُمكنُ صلاةٌ ولا ركوعٌ ولا سجودٌ. كما فَعَلَ الصحابة - رضي الله عنهم - في فتح تُسْتَر، وهو منقولٌ عن مكحول، والأوزاعي، وغيرهما. والأول أقرب، لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (٣).

قال الحسنُ البصريُّ: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادةِ رَبِّي آخر ما عَلَيْكَ. ثم أَمَرَ بِهَا فَعَقَرَتْ. وكذا قال قتادة. وقال السدي: ضَرَبَ أعناقها وعراقبيها بالسيوف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسحُ أعرافَ الخيلِ وعراقبيها حُبًّا لها. وهذا القولُ اختاره ابنُ جرير، قال: لأنه لم يكن لِيَعْدَبَ حيواناً بالعزقة (٣)، ويهلك ما لا من ماله بلا سببٍ سِوَى أَنَّهُ اشْتَغَلَ عن صلواته بالظنِّ إليها ولا ذَنْبَ لها. وهذا الذي

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٩٣٢ وابن حبان ٥٨٦٤ والبيهقي ٢١٩/١٠ وإسناده صحيح؛ رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤١ و٥٩٦ و٥٩٨ و٤١١٢ ومسلم ٦٣١ والترمذي ١٨٠ والنسائي ٨٤٣/٣.

(٣) العروق: عصب غليظ فوق عقب الرجل، وعرقبه: قطع عرقوبه.

رَجَعَ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي شَرْعِهِمْ جَوَازٌ مِثْلُ هَذَا، وَلَا سِيَمَا إِذَا كَانَ غَضَبًا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بسبب أنه اشتغل بها حتى خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ عَنْهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَوَّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، وَهِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، غُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ، فَهَذَا أَسْرَعُ وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْلِ.

[٥٧٥٤] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ - وَكَانَا يَكْثُرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ الْبَيْتِ - قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ الْبَدَوِيُّ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ: «إِنَّكَ لَا تَدْعُ شَيْئًا اتَّقَاهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ»^(١).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبَدِّلُ لِي آيَةً مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُفًا وَحَسَنَ مَتَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾، أي: اختبرناه بأن سلَّبناه الْمُلْكَ مَرَّةً، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبَّير، والحسن، وقَتَادَةُ، وغيرهم: يعني شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي: رَجَعَ إلى مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَأَبْهَتْهُ. قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطانِ صَخْرًا. قاله ابن عباس، وقَتَادَةُ. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصر. قاله مجاهد أيضاً. وقيل: حقيق قاله السدي. وقد ذكروا هذه القصة مبسوطةً ومختصرةً. وقد قال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قَتَادَةَ قال: أَمَرَ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِنِيبَاءِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَقِيلَ لَهُ: ابْنُوهُ وَلَا يُسْمَعُ فِيهِ صَوْتُ حَدِيدٍ. قال: فَطَلَبَ ذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ. فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِيطَانًا فِي الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ: «صَخْرٌ» شِبْهُ الْمَارِدِ. قال: فَطَلِبُهُ وَكَانَتْ عَيْنٌ فِي الْبَحْرِ يَرُدُّهَا فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مَرَّةً، فَتُزَجُّ مَآوِهَا وَجُعِلَ فِيهَا حَمْرٌ، فَجَاءَ يَوْمٌ وَزِدُّهُ فَإِذَا هُوَ بِالْحَمْرِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَشَرَابٌ طَيِّبٌ إِلَّا أَنَّكَ تُضَيِّبُ^(٢) الْحَلِيمَ، وَتَزِيدُ الْجَاهِلَ جَهْلًا. ثُمَّ رَجَعَ حَتَّى عَطَشَ عَطَشًا شَدِيدًا، ثُمَّ أَتَاهَا فَقَالَ: إِنَّكَ لَشَرَابٌ طَيِّبٌ إِلَّا أَنَّكَ تُضَيِّبُ الْحَلِيمَ، وَتَزِيدُ الْجَاهِلَ جَهْلًا. قال: ثُمَّ شَرِبَهَا حَتَّى غَلَبَتْ عَلَى عَقْلِهِ، قال: فَأَرَى الْخَاتَمَ، أَوْ خُتَمَ بِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَذَلَّ. قال: وَكَانَ مُلْكُهُ فِي خَاتَمِهِ، فَاتَى بِهِ سُلَيْمَانَ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنَا بِبِنَاءِ هَذَا الْبَيْتِ، وَقِيلَ لَنَا: لَا يُسْمَعَنَّ فِيهِ صَوْتُ حَدِيدٍ. قال: فَاتَى بِيضَ الْهَدِيدِ فَجَعَلَ عَلَيْهِ رُجَاجَةً، فَجَاءَ الْهَدِيدُ فَدَارَ حَوْلَهَا، فَجَعَلَ يَرَى بِيضَهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَذَهَبَ فَجَاءَ بِالْمَاسِ فَوَضَعَهُ عَلَيْهِ، فَقَطَعَهَا بِهِ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى بِيضِهِ. فَأَخَذَ الْمَاسَ، فَجَعَلُوا يَقْطَعُونَ بِهِ الْحِجَارَةَ. وَكَانَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ أَوْ الْحَمَّامَ لَمْ يَدْخُلْ بِخَاتَمِهِ، فَانْطَلَقَ يَوْمًا إِلَى الْحَمَّامِ، وَذَلِكَ الشَّيْطَانُ صَخْرٌ مَعَهُ، وَذَلِكَ عِنْدَ مَقَارِفَةِ [ذَنْبٍ] قَارَفَ فِيهِ بَعْضُ نِسَائِهِ. قال: فَدَخَلَ الْحَمَّامَ وَأَعْطَى الشَّيْطَانَ خَاتَمَهُ، فَأَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ، فَالْتَقَمَتْهُ سَمَكَةٌ، وَنَزَعَ مَلِكُ سُلَيْمَانَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٧٨/٥ وَ ٧٩ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَجِهَالَةَ الصَّحَابِيِّ لَا تَضُرُّ.

(٢) ضَبًّا: أَي مَالٌ إِلَى الْجَهْلِ وَالْفِتْوَةِ.

منه، وألقي على الشيطان شبه سليمان. قال: فجاء فقعده على كرسيه وسريه، وسلط على ملك سليمان كله غير نساته. قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا يُنكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فُين نبي الله. وكان فيهم رجل يُشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال: والله لأجربته. قال: فقال: يا نبي الله - وهو لا يرى إلا أنه نبي الله - أهدنا تُصيبه الجنابة في الليلة الباردة فيدعُ العُسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟ فقال: لا. قال: فينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جني ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾، قال: هو الشيطان صخر.

وقال السدي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾، أي: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾، قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوماً. قال: كان لسليمان - عليه السلام - مئة امرأة، وكانت امرأة منهم يقال لها «جرادة»، وهي أثر نساته وأمنه عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولم يَأْمَنَ عليه أحداً من الناس غيرها، فأعطاها يوماً خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته، فقال: هاتي الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تُعطيهِ خاتمه، فقالت: ألم تأخذ قبلي؟ قال: لا. وخرج مكاته تائهاً. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماءهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نساته، فقالوا له: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فيكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه، فأحدثوا به ثم نشرُوا فقرأوا التوراة، قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيطان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها، حتى انتهى إلى صيادٍ من صيادي البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه، فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فصره بعضاً فسجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي صرّه، فقالوا: بنس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد ملز عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فسق بطونهما، فجعل يغسل، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءً وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه، فعرف القوم أنه سليمان - عليه السلام - فقام القوم يعتذرون مما صنعوا، فقال: ما أحمدكم على عذرکم، ولا ألومکم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لا بُد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه. وأرسل إلى الشيطان، فجيء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطي علىه، وقيل عليه بفيل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حقيق. قال: وسخر له الريح، ولم تكن سُخِرَتْ له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِمُلْكِهِ لَأَيُّوبَ إِذِ يَنبِي إِحْدَيْنَ بَدِيًّا إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾، قال: شيطاناً يقال له: آصف فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبهه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله تبارك تعالى من نساء سليمان فلم يقربهن ولم يقرنهن وأنكرهن. قال: فكان سليمان يستطيع، فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني، أنا سليمان! فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فاراً. وهذه كلها من الإسرائيليات.

ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه - وكانت الجرادة امرأته، وكانت أحب نسائه إليه - فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيتك سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، ما أنت بسليمان. فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله - عز وجل - . قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكاراً ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتتكررن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن خيض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أن قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤها على الناس. وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان - عليه السلام - فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر، فتلقته سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمّل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: يكفم؟ قال: بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان - عليه السلام - السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلّبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاؤا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذه فأوثقوه، وجاؤا به إلى سليمان، فأمر به فقتر له تحت من رُخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس. ثم أمر به فطرح في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٢٣)، قال: يعني الشيطان الذي كان سلط عليه. إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - إن صح عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان - عليه السلام - فالظاهر أنهم يكذبون عليه. ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجن لم يسלט على نساء سليمان، بل عصمه الله عز وجل منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب. وقال يحيى بن أبي عمرو الشيباني: وجد سليمان خاتمه في عسقلان^(١)، فمضى في خزفة إلى بيت المقدس، تواضعاً لله - عز وجل - . رواه ابن أبي حاتم.

وقد روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كرسي سليمان خبراً عجيباً، فقال: حدثنا أبي - رحمه الله - حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرني أبو إسحاق المصري، عن كعب الأحبار: أنه لما فرغ من

(١) عسقلان: بلدة في فلسطين.

حديث ﴿إِذْ دَاوُدَ أَلْعَمَادُ﴾ قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرني عن كرسي سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، وما كان عليه؛ ومن أي شيء هو؟ فقال: كان كرسي سليمان من أنياب الفيلة مفضصاً بالدر والياقوت والزبرجد ولؤلؤ. وقد جعل له درجة منها مفضصاً بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسي فحُفَّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسي طواويس من ذهب، ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي نسوراً من ذهب مقابل الطواويس. وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتي صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسدان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبي الكرسي شجرتي كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسي، وجعل عناقيدهما ذراً وياقوتاً أحمر. ثم جعل فوق درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكاً وعنبراً، فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان فينضخان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان - عليه السلام - ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته والآخر لرئيس أحبار بني إسرائيل ذلك الزمان، ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضياً من بني إسرائيل وعلمائهم وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبراً من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه، ويسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد على الدرجة الثانية، فيسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحي المسرعة. فقال معاوية: وما الذي يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تئين من ذهب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجن، فإذا أحست بدورانه دارت تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسي دون التي أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان - عليه السلام - وهو جالس، ثم ينضخن جميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر التوراة فتجعلها في يده، فيقرؤها سليمان على الناس^(١). وذكر تمام الخبر، وهو غريب جداً. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طريق عن رسول الله - ﷺ - ..

[٥٧٥٥] قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أزيطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوها وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾^(٢). قال روح: قرده خاسئاً. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث شعبة، به.

(١) كعب الأحبار هو مصدر من مصادر الإسرائيليات وهذا منها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦١ و ١٢١٠ و ٣٢٨٤ و ٣٤٢٣ و مسلم ٥٤١ وابن حبان ٢٣٤٩ و ٦٤٢٠.

[٥٧٥٦] وقال مُسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن سَلْمَةَ المَرَادِي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله - ﷺ - يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» - ثلاثاً - وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، وأينما بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعل في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح مؤثقا يلعب به ولذان أهل المدينة»^(١).

[٥٧٥٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ - قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أختقه حتى وجدت بزذ لعا به بين إضبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»^(٢). وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»^(٣)، عن أحمد بن أبي سريج، عن أبي أحمد الزبيري، به.

[٥٧٥٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط، وهو محاصر فتى من قریش يُزَن بِشرب الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه «من شرب شربة خمر لم يقبل الله - عز وجل - له توبة أربعين صباحاً، وأن الشقي من شقي في بطن أمه، وأنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرَج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه». فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذبت يده من يده، ثم انطلق، فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أجل لأحد أن يقول علي ما لم أقل، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من شرب من الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب الله عليه. قال - فلا أدري في الثالثة أو الرابعة - : فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من رذعة^(٤) الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله - عز وجل -». وسمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن سليمان - عليه السلام - سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه ثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله: أيما رجل خرَج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد

(١) صحيح - أخرجه مسلم ٥٤٢ والنسائي ١٣/٣ وابن حبان ١٩٧٩ والبيهقي ٢/٢٦٣ و٢٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ٨٢/٣ وإسناده حسن، مسرة بن معبد صدوق، وباقي الإسناد رجال الصحيح.

(٣) جيد - أخرجه أبو داود ٦٩٩ بإسناد حسن صحيح.

(٤) رذعة الخبال: عصارة أهل النار.

خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمَ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَانَا إِيَّاهَا»^(١).

[٥٧٥٩] وقد رَوَى هَذَا الْفَصْلَ الْأَخِيرَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ طَرُقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَيْرُوزِ الدِّيلَمِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خِلَالَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ...»^(٢) وَذَكَرَهُ.

[٥٧٦٠] وَقَدْ رَوَى مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ عَمِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِإِسْنَادٍ وَسِيَاقٍ غَرِيبَيْنِ؛ فَقَالَ الطَّبْرَانِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ قُتَيْبَةَ الْعَسْقَلَانِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَيُّوبَ بْنِ سُؤَيْدٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَبَلَةَ، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيِّ، عَنْ رَافِعِ بْنِ عَمِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِدَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ابْنِ لِي بَيْتًا فِي الْأَرْضِ. فَبَنَى دَاوُدُ بَيْتًا لِنَفْسِهِ قَبْلَ الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا دَاوُدُ، نَصَبْتَ بَيْتَكَ قَبْلَ بَيْتِي؟! قَالَ: يَا رَبُّ، هَكَذَا قُلْتُ فِيمَا قَضَيْتَ، مِنْ مَلَكٍ اسْتَأْذَنَ. ثُمَّ أَخَذَ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا تَمَّ السُّورُ سَقَطَ ثَلَاثًا، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَقَالَ: يَا دَاوُدُ، إِنَّكَ لَا تَصْلَحُ أَنْ تَبْنِيَ لِي بَيْتًا. قَالَ: وَلِمَ يَا رَبُّ؟ قَالَ: لِمَا جَرَى عَلَى يَدَيْكَ مِنَ الدَّمَاءِ. قَالَ: يَا رَبُّ، أَوْ مَا كَانَ ذَلِكَ فِي هَوَاكَ وَمَحَبَّتِكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّهُمْ عِبَادِي، وَأَنَا أَرْحَمُهُمْ. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: لَا تَحْزَنْ، فَإِنِّي سَاقِضِي بِنَاءَهُ عَلَى يَدَيْ ابْنِكَ سُلَيْمَانَ. فَلَمَّا مَاتَ دَاوُدُ أَخَذَ سُلَيْمَانُ فِي بِنَائِهِ. فَلَمَّا تَمَّ قَرَّبَ الْقَرَابِينَ، وَذَبَحَ الذَّبَائِحَ، وَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: قَدْ أَرَى سُرُورَكَ بِبُنْيَانِ بَيْتِي، فَسَلَّنِي أَعْطَكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ: حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَكَ. وَمُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَمَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: أَمَا الثَّلَثَانِ فَقَدْ أَعْطَيْتُهُمَا، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعْطَيْتِ الثَّلَاثَةَ»^(٣).

[٥٧٦١] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عُمَرَ بْنِ رَاشِدِ الْيَمَامِيِّ، حَدَّثَنَا إِيَّاسُ بْنُ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - دَعَا إِلَّا اسْتَفْتَحَهُ «بِسُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى الْعَلِيِّ الْوَهَّابِ»^(٤). وَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ ثَابِتٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ، عَنْ صَالِحِ بْنِ مِسْمَارٍ قَالَ: لَمَّا مَاتَ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدُ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -: أَنْ سَلَّنِي حَاجَتَكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ لِي قَلْبًا يَخْشَاكَ، كَمَا كَانَ قَلْبُ أَبِي، وَأَنْ تَجْعَلَ قَلْبِي يُحِبُّكَ كَمَا كَانَ قَلْبُ أَبِي. فَقَالَ اللَّهُ: أَرْسَلْتُ إِلَى عَبْدِي أَسْأَلُهُ حَاجَتَهُ، فَكَانَتْ حَاجَتُهُ أَنْ أَجْعَلَ قَلْبَهُ يَخْشَانِي، وَأَنْ أَجْعَلَ قَلْبَهُ يُحِبُّنِي. لِأَهْبَنَ لَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجًّا حَيْثُ أَصَابَ ﴿٦١﴾﴾، وَالثِّيَّ بَعْدَهَا، قَالَ: فَأَعْطَاهَا مَا أَعْطَاهَا، وَفِي الْآخِرَةِ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ. هَكَذَا أوردَهُ أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ١٧٦/٢، وَالتِّرْمِذِيُّ ١٨٦٢ وَالنَّسَائِيُّ ٣١٦/٨ وَالحَاكِمُ ١٤٦/٤، وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَهُوَ كَمَا قَالَا، وَللْحَدِيثِ شَوَاهِدٌ.

(٢) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ ٣٤/٢ وَابْنُ مَاجَةَ ١٤٠٨ وَابْنُ خَزِيمَةَ ١٣٣٤٠ وَالحَاكِمُ ٤٢٤/٢ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَهُوَ كَمَا قَالَا.

(٣) باطلٌ. أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ ٤٤٧٧ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ عَمِيرٍ بِسَنَدٍ وَابْنِ مَاجَةَ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ٥٨٧٦: فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَيُّوبَ الرَّمْلِيُّ، وَهُوَ مَتَّعٌ بِالْوَضْعِ إِه. وَالتَّنُّ باطلٌ.

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٥٤/٤ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، فِيهِ عُمَرُ بْنُ رَاشِدِ الْيَمَامِيِّ، قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «الْمِيزَانِ» ٦١٠١: ضَعْفُوهُ. وَقَالَ أَحْمَدُ: أَحَادِيثُهُ مَنَاقِرٌ.

في تاريخه. ورؤي عن بعض السلف أنه قال: بَلَّغْنِي عن داود - عليه السلام - أنه قال: إلهي، كُن لِسُلَيْمَانَ كما كنت لي. فأوحى الله إليه: أن قل لِسُلَيْمَانَ أن يكون لي كما كنت لي أكن له كما كنت لك.

قوله تبارك وتعالى: ﴿كَسَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦)، قال الحسنُ البصري - رَجَمَهُ اللهُ -: لما عَقَرَ سُلَيْمَانَ الخيلَ غَضَباً اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَوَّضَهُ اللهُ ما هو خَيْرٌ منها وأسرع، الرِّيحُ التي غَدُوها شهرٌ ورواحها شهرٌ. وقوله جل وعلا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي: حيثُ أرادَ من البلاد.

وقوله جل جلاله: ﴿وَالْقَبِيلَيْنِ كُلِّ بَيْتَةٍ وَعَوَامِينَ﴾ (٣٧)، أي: منهم من هو مُستعملٌ في الأبنية الهائلة من محارِبٍ وتمائيلٍ وجفانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسياتٍ، إلى غير ذلك من الأعمالِ الشاقة التي لا يقدر عليها البشرُ، وطائفةٌ عَوَّاضُونَ في البحارِ يَسْتَخْرِجُونَ مما فيها من اللآلئِ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا تُوجَدُ إلا فيها، ﴿وَالْآخِرِينَ مُتْرَكِينَ فِي الْأَمْتَادِ﴾ (٣٨)، أي: موثوقون في الأغلالِ والأكبالِ، ممن قد تَمَرَّدَ وَعَصَى وامتنع من العملِ وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى. وقوله عز وجل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَانظُرْ أَيُّكُمْ يَعْزِبُ﴾ (٣٩)، أي: هذا الذي أعطيناك من المُلْكِ التامِ والسلطانِ الكاملِ كما سألتنا، فأعطِ من شئتَ واحرم من شئتَ، لا حسابَ عليك، أي: مهما فعلتَ فهو جائزٌ لك، احكُم بما شئتَ فهو صوابٌ.

[٥٧٦٢] وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - لما خُيِّرَ بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسمٌ يقسيم بين الناس ما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون ملكاً نبياً، يُعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل عليه السلام، فقال له: تواضع^(١). فاختارَ المنزلة الأولى، لأنها أرفعُ قَدراً عند الله عز وجل وأعلى منزلةً في المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع المُلْكِ عظيمة أيضاً في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا لما ذُكِرَ تعالى ما أعطى سُلَيْمَانَ في الدنيا ثبَّه على أنه ذو حظٍ عظيمٍ عند الله يومَ القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلَمٌ وَحُسْنٌ مَنَابٍ﴾، أي: في الدار الآخرة.

﴿وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) ﴿أَرْكُضَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٍ وَشَرَابٍ﴾ (٤٢) ﴿وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤٣) ﴿وَحَذَّ يَدَكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤)

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أَيُّوبَ - عليه السلام - وما كان ابتلاه تعالى به من الضرِّ في جسده وماله وولديه، حتى لم يبقَ من جسده مَغْرِزٌ إِبرةً سَلِيماً سوى قلبه، ولم يبقَ له من حالِ الدنيا شيءٌ يستعين به على مرضه وما هو فيه، غَيْرَ أن زوجته حَفِظَتْ وَدَّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدمُ الناسَ بالأجرة وتطعمهم، وتخدمهُ نحواً من ثمانين عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك في مالٍ جزيلٍ وأولادٍ وَسَعَةٍ طائفةٍ من الدنيا، فَسَلِبَ جميعَ ذلك، حتى آلَ به الحالُ إلى أن ألقى على مَرْبَلَةٍ^(٢) من مَرَابِلِ البَلْدَةِ هذه المُدَّةَ بِكَمَالِهَا،

(١) تقدم تحريجه، وهو صحيح بشواهد، لكنه ليس في أحد الصحيحين.

(٢) مثل هذا لا يليق بنبي الله أَيُّوبَ - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وهو من الإسرائيليات بلا شك، وتقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء.

ورفضه القريبُ والبعيدُ سوى زوجته، رضي الله عنها، فإنها كانت لا تُفارقة صباحاً ومساءً إلا بسببِ خِدمَةِ الناسِ، ثم تعودُ إليه قريباً. فلما طال المطالُ، واشتدَّ الحالُ، وانتهى القَدْرُ المقدرُ، وتمَّ الأجلُ المقررُ، تَصْرَعُ إلى ربِّ العالمين وإله المُرسَلين، فقال: ﴿أَيُّ مَسْئَةٍ أَلْتَقِطَنَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿أَيُّ مَسْئَةٍ أَلْتَقِطَنَّ يَنْصِبُ وَعَذَابٍ﴾، قيل: ينصبُ في بدني، وعذابُ في مالي وولدي. فعند ذلك استجابَ له أرحمُ الراحمين، وأمره أن يَقومَ من مقامه، وأن يركضَ الأرضَ برجليه، ففعل فأنتبَحَ اللهُ عيناً وأمره أن يَغْتَسِلَ منها، فأذهبت جميعَ ما كان في بَدَنِهِ من الأذى، ثم أمره فَصْرَبَ الأرضَ في مكانٍ آخَرَ، فأنتبَحَ له عيناً أخرى وأمره أن يشربَ منها، فأذهبت ما كان يَبَاطِنُهُ من السوءِ، وتكاملت العافيةُ ظاهراً وباطناً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَرْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٤٢﴾.

[٥٧٦٣] قال ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتمٍ جميعاً: حدثنا يونسُ بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهبٍ، أخبرني نافعُ بن يزيد، عن عَقِيلِ، عن ابنِ شهابٍ، عن أنسِ بن مالكٍ - رضي الله عنه - أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «إن نبيَّ الله أيوبَ - عليه السلامُ - لَبِثَ به بلاؤه ثمانِي عشرةَ سنةً، فرفضه القريبُ والبعيدُ، إلا رَجُلَيْنِ كانا من أَحْصَى إخوانه به، كانا يَغْدُوَانِ إليه وَيَرُوحَانِ، فقال أحدهما لصاحبه: تَعَلَّمْ - والله - لقد أَذْنَبَ أيوبُ ذنباً ما أَذْنَبَهُ أَحَدٌ من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال من ثمانِي عشرةَ سنةً لم يَرَحِمْهُ اللهُ فَيَكْشِفْ ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذكر ذلك له، فقال أيوبُ: لا أدري ما تقولُ، غيرَ أن الله يعلمُ أني كنتُ أُمُرُ على الرجلينِ يَتَنَازَعَانِ، فيذكران الله - عزَّ وجلَّ - فأرجعُ إلى بيتي فأكفُرُ عنهُما، كراهيةً أن يذكرَا اللهُ إلا في حقِّ. قال: وكان يخرجُ إلى حاجته فإذا قَضَاها أَمْسَكَتْ امرأته بيده حتى يبلُغَ، فلما كان ذاتَ يومٍ أبطأَ عليها، وأوحى اللهُ تعالى إلى أيوبَ - عليه السلامُ - أن ﴿أَرْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٤٢﴾ فاستبطأته، فَتَلَقَّته تنظراً، فأقبلَ عليها قد أَذْهَبَ اللهُ ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رآته قالت: أي - بآزك اللهُ فيك - هل رأيتَ نبيَّ اللهُ هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيتُ رجلاً أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً. قال: فأني أنا هو. قال: وكان له أندران، أندرٌ للقمحِ وأندرٌ للشعيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فلما كانت إحداهما على أندرِ القمَحِ أفرغت فيه الذهبَ حتى فاضَ، وأفرغت الأخرى في أندرِ الشعيرِ حتى فاضَ^(١). هذا لفظُ ابنِ جريرٍ، رحمه الله.

[٥٧٦٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاقُ، حدثنا معمرٌ، عن هَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «بينما أيوبُ يَغْتَسِلُ غُرِياناً، خَرَّ عليه جَرَادٌ من ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أيوبُ يَحْثُو فِي ثوبه، فناده ربه: يا أيوبُ، ألم أكن أغنيك عما تَرَى؟ قال: بلى ياربُّ، ولكن لا يَغْنَى بي عَن بَرَكَتِكَ»^(٢). انفرَدَ بإخراجه البخاريُّ، من حديث عبد الرزاق، به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٢﴾، قال الحسنُ، وقادةٌ: أحياهم اللهُ تعالى له بأعيانهم وزادَهُ مثلهم معهم.

وقوله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾، أي: به على صَبْرِهِ وثباتِهِ وإنايته وتواضعِهِ واستكانتِهِ، ﴿وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: لِذَوِي الْعُقُولِ، ليعلمُوا أن عاقبة الصبرِ الفرجُ والمخرجُ والراحةُ. وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَعَزَّ بِرِجْلِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِوَيْهٍ وَلَا تَحْتَثْ﴾، وذلك أن أيوبَ - عليه السلامُ - كان قد غَضِبَ على زوجته، وَوَجَدَ عليها في

(١) تقدم الكلام عليه في سورة الأنبياء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٩١ وأحمد ٣١٤/٢.

أَمْرٍ فَعَلْتَهُ . قِيلَ (١) : باعت ضَفِيرَتِهَا بِخَبْزٍ فَاطْعَمْتَهُ إِيَّاهُ ، فَلَامَهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَحَلَفَ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ لِيَضْرِبَنَّهَا مِثَّةَ جِلْدَةٍ . وَقِيلَ : لغير ذلك من الأسباب . فلما شفاه الله وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخِذْمَةِ التَّامَّةِ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالإِحْسَانَ أَنْ تُقَابَلَ بِالضَّرْبِ ، فَافْتَاهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَأْخُذَ ضِعْثًا - وهو : الشَّمْرَاخُ - فِيهِ مِثَّةٌ قَضِيبٌ فَيَضْرِبُهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ بَرَّتْ يَمِينُهُ ، وَخَرَجَ مِنْ جَنْبِهِ وَوَفَى بِتَنْذِيرِهِ ، وَهَذَا مِنَ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ لِمَنْ أَتَى اللَّهُ تَعَالَى وَأَنَابَ إِلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِأَنَّهُ ﴿ نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، أَي : رَجَاعٌ مُنِيبٌ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

وقد استدلل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان وغيرها ، وقد أخذوها بمقتضاها . والله أعلم بالصواب .

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴾ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ﴿

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴾ (٤٥) ، يعني بذلك : العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ ، يقول : أُولَى الْقُوَّةِ وَالْعِبَادَةِ ، ﴿ وَالْأَبْصَرِ ﴾ ، يقول : الفقه في الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ ، يعني : القُوَّةُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، ﴿ وَالْأَبْصَرِ ﴾ ، يعني : الْبَصَرُ فِي الْحَقِّ . وقال قتادة والسدي : أعطوا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَبَصَرًا فِي الدِّينِ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴾ (٤٦) ، قال مجاهد : أي جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرهما . وكذا قال السدي : ذكروهم للأخرة وعملهم لها . وقال مالك بن دينار : نَزَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَذَكَرَهَا ، وَأَخْلَصَهُمْ بِحُبِّ الْأَخْرَةِ وَذَكَرَهَا . وكذا قال عطاء الخراساني . وقال سعيد بن جبير : يعني بالدار الجَنَّةَ ، يقول : أَخْلَصْنَاهُمْ لَهَا بِذِكْرِهِمْ لَهَا . وقال في رواية أخرى : ﴿ ذَكَرَى الدَّارِ ﴾ : عَقَبَى الدَّارِ . وقال قتادة : كانوا يُذَكِّرونَ النَّاسَ الدَّارَ الْأَخْرَةَ وَالْعَمَلَ لَهَا . وقال ابن زيد : جَعَلَ لَهُمْ خَاصَّةً أَفْضَلَ شَيْءٍ فِي الدَّارِ الْأَخْرَةِ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٤٧) ، أي : لِمَنِ الْمُخْتَارِينَ الْمُجْتَبِينَ الْأَخْيَارِ ، فَهِيَ أَخْيَارٌ مُخْتَارُونَ . وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٤٨) ، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته هاهنا . وقوله عز وجل : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ ، أي : هذا فصلٌ فِيهِ ذِكْرٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ . وقال السدي : يعني القرآن العظيم .

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَتَابٍ ﴾ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَمٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِبْرَةِ الْأَنْبَابِ (٥٢) هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِئَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَائِدٍ (٥٤) ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ السَّعْدَاءِ، أَنْ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿لَحْصَنَ مَتَابٍ﴾، وهو: المرجعُ والمُنْقَلَبُ. ثم فَسَّرَهُ بقوله: ﴿حَنَّتْ عَدْنٌ﴾ جناتٌ إقاميةٌ مُفْتَحَةٌ لهم الأبواب. والألف واللام هاهنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: مُفْتَحَةٌ لهم أبوابها. أي: إذا جاؤوها فُتِحَتْ لهم أبوابها.

[٥٧٦٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهَبَّاري، حدثنا عبد الله بن نُعمير، حدثنا عبد الله بن مسلم - يعني ابن هُرْمَزٍ، عن ابن سابط، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ قَصْرًا يُقَالُ لَهُ: عَدْنٌ، حَوْلَهُ الْبُرُوجُ وَالْمُرُوجُ، لَهُ خَمْسَةٌ آلَافِ بَابٍ، عِنْدَ كُلِّ بَابٍ خَمْسَةٌ آلَافِ جَبْرَةَ، لَا يَدْخُلُهَا - أَوْ: لَا يَسْكُنُهَا - إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ أَوْ إِمَامٌ عَدْلٌ»^(١). وقد وَرَدَ فِي ذِكْرِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الشَّمَانِيَةِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ مِنْ وَجْهِ عَدِيدَةٍ.

وقوله عز وجل: ﴿مُتَّكِبِينَ فِيهَا﴾، قيل: مُتَّربِعِينَ فِيهَا عَلَى سُرُرٍ تَحْتَ الْجِبَالِ، ﴿يَتَعَوَّنَ فِيهَا بِفَنَكِهِمُ كَثِيرًا﴾، أي: مهما طَلَبُوا وَجَدُوا وَحَضَرُوا كَمَا أَرَادُوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾، أي: من أي أنواعِهِ شَاوُوا أَنْتَهُمْ بِهِ الخُدَامُ ﴿يَأْكُوبُ وَأَبْرَقُ﴾ وَأَكْبَرُ مِنْ مَعِينٍ ﴿٥٨﴾. ﴿وَعِنْدَهُمْ قَيْرَتٌ أَطْرَفٍ﴾، أي: عن غير أرواجهن، فلا يَلْتَفِشْنَ إِلَى غير بُعُولَتِهِنَّ، ﴿أَنْزَابٍ﴾، أي: مُتَسَاوِيَاتٍ فِي السِّنِّ وَالْعُمُرِ. هذا معنى قولِ ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسُّدي. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٥٩﴾، أي: هذا الذي ذكرونا من صِفَةِ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النَّارِ. ثم أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرَاغَ لَهَا وَلَا انْقِضَاءَ وَلَا زَوَالَ وَلَا انْتِهَاءَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مِمَّا لَمْ يَنْفَكْ مِنْهُ﴾ ﴿٥٩﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وكقوله جل وعلا: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْدُوزُ﴾ [هود: ١٠٨]. وكقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]، أي: غير مقطوع. وكقوله عز وجل: ﴿أَكْلُهُمْ دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. والآيات في هذا كثيرةٌ جدًا.

﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ﴾ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنْ الْإِهَادِ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَثَمُوهُ لَنَا فِيمَنْ الْأَقْرَارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَلَدَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَالَ السَّعْدَاءِ ثَمَّ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَمَرْجِعِهِمْ وَمَأْبَهُمْ فِي دَارِ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ﴾، وهم: الخارجون عن طاعةِ الله عز وجل، المخالفون لرسولِ الله، ﴿لَشَرِّ مَتَابٍ﴾، أي: لِسُوءِ مُنْقَلَبٍ وَمَرْجِعٍ. ثم فَسَّرَهُ بقوله جل وعلا: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾، أي: يدخلونها فَعَتَمَرَهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، ﴿فِيمَنْ الْأَقْرَارِ﴾ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾، أما الحميمُ فهو الحارُّ الذي

(١) إسناده ضعيف. فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦٠٢ وقال: ضعفه ابن معين، وقال: كان يرفع أشياء. وقال أحمد: صالح الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن اللبيني: كان ضعيفاً ضعيفاً عندنا. وكذا ضعفه النسائي اهـ والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو.

قد انتهى حره، وأما العساق فهو ضده، وهو البارد الذي لا يُستطاع من شدة برده المؤلم. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْلَجٌ ۝٥٨﴾، أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يُعاقبون بها.

[٥٧٦٦] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «لو أن ذلوا من عساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»^(١). ورواه الترمذي، عن سويد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رَشِيدِينَ». كذا قال: وقد تقدّم من غير حديثه^(٢). ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به.

وقال كعب الأحبار: عَسَاقٌ: عَيْنٌ فِي جَهَنَّمَ، يَسِيلُ إِلَيْهَا حُمَةٌ كُلُّ ذَاتِ حُمَةٍ مِنْ حَيْثُ وَعَقْرِبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيَسْتَنْقَعُ، فَيُؤْتَى بِالْأَدْمِيِّ فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً وَاحِدَةً، فَيَخْرُجُ وَقَدْ سَقَطَ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ عَنِ الْعِظَامِ، وَيَتَعَلَّقُ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ فِي كَبِيئِهِ وَعَقِيْبِهِ، وَيَجْرُ لَحْمُهُ كَمَا يَجْرُ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ. رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْلَجٌ ۝٥٨﴾، ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزّمهرير، والسّموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوي، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة والمتخالفة، والجميع مما يُعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله عز وجل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُتَّبِعٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ سَالُوا النّارَ ۝٥٩﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ لَهَا أُخْتًا ۝﴾، يعني بدل السلام يتلاعثون ويتكاذبون، ويكفّر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُتَّبِعٌ مَعَكُمْ ۝﴾، أي: داخل، ﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ سَالُوا النّارَ ۝﴾، أي: لأنهم من أهل جهنم. ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ ۝﴾، أي: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۝﴾، أي: أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿وَيَسْأَلُ الْقَرَارُ ۝﴾، أي: فيسأل المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَا لَنَا هَذَا قَرْبَةً عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النّارِ ۝٦٠﴾، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُرَبِّئُهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَابُنَا فَتَأْتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الاعراف: ٣٨]، أي: لكل منكم عذاب يحسبه. ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ۝٦١﴾ أَعَدَّوْهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَأَيْتَ عَنَّهُمُ الْأَبْصُرَ ۝﴾، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في رعوهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟! قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: مالي لا أرى بلالاً، وعماراً، وصهيباً، وفلاناً وفلاناً. وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ۝٦١﴾ أَعَدَّوْهُمْ سِخْرِيًّا ۝﴾، أي: في الدنيا، ﴿أَمْ رَأَيْتَ عَنَّهُمُ الْأَبْصُرَ ۝﴾، يسألون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلمهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله عز وجل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَاذْنُؤُنَّ مِنْهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظّالِمِينَ ۝٦٢﴾ إلى قوله: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا تَخَوْفَ عَلَيْكُمْ

(١) أخرجه أحد ٨٣/٣ والترمذي ٢٥٨٤، وإسناده ضعيف، ابن لهيعة وإه، وكذا ذرّاج، وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم. وتقدم نحو هذا.

(٢) أي من حديث حسن بن موسى عن ابن لهيعة.

وَلَا أَنْتُمْ مَحْزُونُونَ ﴿٤٤﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَنْ مَخَاضٌ مَخَاضٌ لَأَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿٦٦﴾، أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاضم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحن لا ميزية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى أمراً رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾، لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، أي: هو وحده قد فهم كل شيء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: هو مالك جميع ذلك ومُتَصَرِّفٌ فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾، أي: غفار مع عزته وعظمته. ﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾، أي: خبير عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم، ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٦٨﴾، أي: غافلون. قال مجاهد، وشريح القاضي، والسدي في قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾، يعني: القرآن. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾، أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملائكة الأعلى؟ يعني في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه.

[٥٧٦٧] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ، حَدَّثَنَا جَهْضَمُ الِيمَامِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي سَلَامٍ، عَنْ أَبِي سَلَامٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَائِشٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ يَخَامِرٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ رَضِيٍّ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ - قَالَ: احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَاتَ غَدَاةٍ عَنِ صَلَاةِ الصُّبْحِ، حَتَّى كَدْنَا نَتَرَاءَى قَرْنَ الشَّمْسِ. فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سَرِيعاً، فَتَوَّابَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى، وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: «كَمَا أَنْتُمْ، عَلَى مَصَافِكُمْ». ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «إِنِّي سَاحَدْتُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ، إِنِّي قَمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَتَعَسَّتْ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبُّ - أَعَادَهَا ثَلَاثًا - فَرَأَيْتَهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدَتْ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكُفَّارَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكُفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَالْجُلُوسِ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكُرْبَاهَاتِ. قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلَيْسُ الْكَلَامُ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامًا. قَالَ: سَلِّ. قُلْتُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فَتَنَةً بِقَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا»^(١). فَهُوَ حَدِيثُ الْمَنَامِ الْمَشْهُورِ، وَمَنْ جَعَلَهُ يَقْفَةً فَقَدْ غَلَطَ، وَهُوَ فِي السَّنَنِ مِنْ طَرُقٍ. وَهَذَا الْحَدِيثُ بَعِينُهُ قَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ جَهْضَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الِيمَامِيِّ بِهِ. وَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ». وَلَيْسَ هَذَا الْاِخْتِصَامُ هُوَ الْاِخْتِصَامُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ هَذَا قَدْ فُسِّرَ، وَأَمَا الْاِخْتِصَامُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ فَقَدْ فُسِّرَ بَعْدَ هَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

(١) أخرجه أحمد ٢٤٣/٥، وهو حديث حسن بشواهد. انظر تفصيل ذلك في تفسير القرطبي.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا بَلِيسَ مَا مَنَّكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعْرَضِكَ أَطْعَمْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

هذه القصة ذكرها الله - تعالى - في سورة البقرة، وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، و سبحان، و الكهف، و هاهنا. وهي أن الله - سبحانه - أعلم الملائكة قبل خلق آدم - عليه السلام - بأنه سيخلق بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظماً واحتراماً، وامتثالاً لأمر الله - عز وجل - . فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً؛ كان من الجن فخانته طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه - عز وجل - فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نارٍ و آدمٌ خلق من طين، والنار خير من الطين في رُعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله تعالى، وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمة ومحل أنبيه، وحضرة قدسيه، وسماه إبليس، إعلماً له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مذحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرّد وطغى، وقال: ﴿قَالَ فَبِعْرَضِكَ أَطْعَمْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ كما قال عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِن أُخْرِجْتَنِي لَإِنِّي لَآتِيَنَّهُمْ لَأَحْنَنُنَّكَ دُورِيَّتَهُ ﴿٨٢﴾ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع (الحق) الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً تَوْفُورًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ

بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تُعطونيهِ من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾، أي: وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادةً عليه، بل ما أُمِرْتُ به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله - عز وجل - والدار الآخرة.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما

لا يعلم: الله أعلم، فإن الله لنبئكم - ﷺ -: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْفِلِينَ﴾ (٧١). أخرجاه من حديث الأعمش، به. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧٧)، يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن. قاله ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، قال: الجن والإنس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا تُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْرَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّأُرُّ﴾، أي: حَبْرَه وصدقَه ﴿بَعْدَ جِبْرِ﴾، أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّأُرُّ بَعْدَ جِبْرِ﴾ (٨٨)، قال الحسن: يابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة «ص» والله الحمد والمنة



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[٥٧٦٨] قال النسائي: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مزوان أبي لبابة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله - ﷺ - يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣) ﴿ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفِيَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ تَنْزِيلَ هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ - مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنَّا رَبِّكَ لَنَنْزِلُنَا فِي سَمَانٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لِكُنُودٍ عَزِيزِينَ لَا يُؤْتِيهِمُ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾، أي: المنيع الخناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾، أي: في أقواله وأفعاله، وشزعه وقدره. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢)، أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له. وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة، والسُّدِّي، ومالك عن زيد بن

(١) جيد. أخرجه النسائي ٤٦٤ في «التفسير» والترمذي ٢٩٢٠ وأحمد ٦٨/٦ ١٢٢، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، والصواب أنه حسن صحيح.

أسلم، وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقْرَبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي: ليشفعوا لنا، ويُقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون في تليبتهم إذا حَجَّوا في جاهليتهم: (لييك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك). وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - برُدِّها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥]. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المُقرَّبين وغيرهم، كُلُّهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضَرُّوهُمُ لِلَّهِ أَشْيَاءٌ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا أَتَاكُمْ كَأَوْأَ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِسْمَانَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِمَّنْ خَلَقْتَهُمْ﴾ [٤٠-٤١]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾، أي: لا يرشد إلى الهداية من فضده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كفار بآياته وحججه وبراهينه. ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فقال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْتَلَفَ مِنْهَا مَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جواز، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَنَا وَلَدًا لَأَخْتَلَفْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ﴾ [١٧]. ﴿الأنبياء: ١٧﴾، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [٨١]. [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، أي: تعالى وتزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه، الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت. تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوِجِ بَخْلَقَكُمْ فِي بَطُونَ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَتٍ تِلْكَ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿٦﴾

يُخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المُتصرف فيه، يُقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾، أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يقريان، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تبارك وتعالى: ﴿يُعْنَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]. هذا معنى ما روي عن ابن عباس، ومجاهد وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم تنقضي يوم القيامة. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾، أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله جلت عظمته: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم والسننكم والوانكم من نفس واحدة، وهو آدم - عليه السلام -، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهي حواء - عليهما السلام -، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ نَمِيَّةً أَنْتُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾، أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الطَّيْرِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَعِيرِ اثْنَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]. وقوله عز وجل: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، أي: قدركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِنْ بَدَدٍ خَلْقٍ﴾، أي: يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يُخلَقُ فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروفاً، ويُنفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَدُنَّ﴾، يعني: ظلمة الرجم، وظلمة المشيمة - التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وقوله جل جلاله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق آباءكم وإياكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿يَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾، أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم!؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جِئِمَا فَإِنَّ اللَّهَ لَنُفِئُ جِئِمًا﴾ [إبراهيم: ٨].

[٥٧٦٩] وفي صحيح مسلم: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، أي: لا يحبهُ ولا يأمر به، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، أي يحبهُ لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: لا تحمل نفس عن نفس، بل كلُّ مطالبٍ بأمْرِ نَفْسِهِ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: فلا تخفى عليه خافية. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، أي: عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَافِرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ﴾، أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ

عَنْ سَيْلِيٍّ، أَي: فِي حَالِ الْعَافِيَةِ يُشْرِكُ بِاللَّهِ، وَيَجْعَلُ لَهُ أُنْدَادًا. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَعْمَابِ النَّارِ﴾، أَي: قُلْ لِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكُهُ: تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا. وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَعِمْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُمُكُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٢٤﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى: أَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ لَهُ أُنْدَادًا؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١١٣﴾. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَاهُنَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾، أَي: فِي حَالِ سَجُودِهِ وَفِي حَالِ قِيَامِهِ. وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْقُنُوتَ هُوَ الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ، لَيْسَ هُوَ الْقِيَامُ وَحْدَهُ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ آخَرُونَ. قَالَ الثَّورِيُّ، عَنْ فِرَاسٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ مَسْرُوقٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: الْقَانِتُ: الْمَطِيحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ: ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ: جَوْفُ اللَّيْلِ. وَقَالَ الثَّورِيُّ، عَنِ مَنْصُورٍ: بَلَّغْنَا أَنَّ ذَلِكَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ: أَوَّلُهُ وَأَوْسَطُهُ وَآخِرُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، أَي: فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ، وَلَا بُدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَأَنَّ يَكُونُ الْخَوْفُ فِي مَدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ فَلْيَكُنْ الرَّجَاءُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ بَنِي حُمَيْدٍ فِي مُسْنَدِهِ:

[٥٧٧٠] حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» فَقَالَ: أَرْجُو وَأَخَافُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ الَّذِي يَخَافُهُ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ سَيَّارِ بْنِ حَاتِمٍ، عَنِ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «غَرِيبٌ». وَقَدْ رَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ ثَابِتٍ^(٢)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - مَرْسَلًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ شُبَّةَ، عَنِ عُبَيْدَةَ النَّمِيرِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَلْفٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَيْسَى الْخَزَّازِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ الْبَكَّاءِ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَرَأَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾. قَالَ ابْنُ عَمْرٍو: ذَاكَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ^(٣) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -. وَإِنَّمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ

(١) جيد. وإسناده ضعيف لضعف يحيى بن عبد الحميد الحماني، لكن توبع عند الترمذي ٩٨٣ والنسائي في «اليوم واللييلة» ١٠٧٠ وابن ماجه ٤٢٦١ من حديث أنس ورجاله رجال مسلم، إلا أن جعفر بن سليمان تكلم فيه غير واحد، مع رواية مسلم له في الأصول. ومع ذلك جوده النووي كما في «إتحاف السادة» ١٦٩/٩، وورد مرسلًا كما ذكر الترمذي عن ثابت، وليس فيه ذكر أنس. وورد مرسلًا من وجه آخر أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٠٠٢ عن ثابت عن عبيد بن عمير. وورد ١٠٠٣ عن ابن المسيب، وفيه أنه صل الله عليه وسلم قاله لعمر. ومراسيل ابن المسيب جيد. فالحديث قوي إن شاء الله، والله الموفق.

(٢) زيد في كافة النسخ «عن أنس» وهو إما سبق قلم من المصنف - رحمه الله -، أو إقحام من بعض النسخ. ولو ذكر أنس في هذه الرواية لما كان مرسلًا. فتنبه، والله الموفق.

(٣) ضعيف جداً. فيه عبد الله بن عيسى، وهو متروك.

ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه رُبما قرأ القرآن في ركعة^(١)، كما روى ذلك أبو عبيد عنه - رضي الله عنه - . وقال الشاعر:

ضَحُوا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَنْسِيحًا وَتُرَانًا^(٢)

[٥٧٧١] وقال الإمام أحمد: كتّب إلي الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن تميم الداري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ قرأ بمئة آية في ليلة كتبت له قنوت ليلة»^(٣) وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب. عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أنداداً ليُضِلَّ عن سبيله؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل؛ والله أعلم.

﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُقُوا رِيكْمَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٠) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه: ﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُقُوا رِيكْمَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم. وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾، قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان. وقال شريك، عن منصور، عن عطاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾، قال: إذا دُعيتُم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال لهم، إنما يُعرف لهم عِزاً. وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يُحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يُزادون على ذلك. وقال السدي: ﴿يُوَفَّى الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعني في الجنة. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١)، أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴿١٢﴾، قال السدي: يعني من أمته - ﷺ - .

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي﴾ (١٤) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ﴾ (١٥) لِمَنْ مِنْ قَوْمِهِمْ طُلَّكَ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَجْعَلُونَ فَأَتَقُونَ﴾ (١٦)

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣)، وهو يوم القيامة. وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى، ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي﴾ (١٤) فَأَعْبُدُوا مَا

(١) لا يصح مثل هذا، وهو مخالف للسنة.

(٢) الشمت: بياض الرأس يخالط سواده.

(٣) أخرجه أحمد ١٠٣/٤ والنسائي في «اليوم والليلة» ٧٢٢ بإسناد غير قوي لأجل سليمان بن موسى، فقد وثقه قوم وضعفه آخرون.

سَنُتِمُّ مِنْ دُونِهِ ﴿١٧﴾ ، وهذا أيضاً تهديدٌ وتبرٍ منهم ، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي : إنما الخاسرون كلُّ الخُسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، أي : تَفَارَقُوا فلا التقاء لهم أبداً ، سواءً ذَهَبَ أهلُهم إلى الجنة وقد ذَهَبُوا هم إلى النار ، أو أن الجميع أُسْكِنُوا النارَ ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سُورُزْ ، ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ، أي : هذا هو الخسران البينُّ الظاهرُ الواضحُ . ثم وَصَفَ حالهم في النار فقال : ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ مَحَنِمٍ ظُلَلٌ﴾ ، كما قال عز وجل : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الاعراف: ٤١] . وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَتَسَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المنكبات: ٥٥] . وقوله جل جلاله : ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ، أي : إنما يُقْصُ حَبْرُ هذا الكاين لا محالة لِيُخَوِّفَ به عباده ، لينزجروا عن المحارم والمأثم . وقوله تعالى : ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ ، أي : اخشوا بأسي وسطوتي ، وعذابي وبقمتي .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعَاتِ أَنْ يَبَدُّوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [١٧] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

فَيَسْتَمِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١٨]

قال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلم ، عن أبيه : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعَاتِ أَنْ يَبَدُّوهَا﴾ ، نزلت في زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وأبي ذرٍّ ، وسلمانَ الفارسي رضي الله تعالى عنه . والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم ، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن . فهؤلاء هم الذين لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم قال عز وجل : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [١٧] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَسْتَمِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ، أي : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى لموسى حين أتاه التوراة : ﴿فَتَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الاعراف: ١٤٥] . ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ ، أي : المتصِفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ، أي : ذُووُ الْمُقُولِ الصَّحِيحَةِ ، والفِطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ .

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [١٩] لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَالَهُمْ عُرْفٌ مِنْ قَوْفِهَا

عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ نَجْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾ [٢٠]

يقولُ تعالى : أفمن كَتَبَ اللهُ أنه شَقِيٌّ تُنقِذُ تُنقِذُهُ مما هو فيه من الضلالِ والهلاكِ؟ أي : لا يهديه أحدٌ من بعد الله ، لأنه من يُضِلُّ اللهُ فلا هادِيٍّ له ، ومن يَهْدِيه فلا مُضِلٍّ له . ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أنهم لهم عُرْفٌ في الجنة ، وهي القصورُ الشاهقةُ ، ﴿مِنْ قَوْفِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ ، أي : طباقٌ فوق طباقٍ ، مَبْنِيَّاتٌ مُحَكَّماتٌ مُزخرفاتٌ عالياتٌ .

[٥٧٧٢] قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا عبَّادُ بن يعقوبَ الأسديُّ ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سَعِيدٍ ، عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا يُرَى بِطَوْنِهَا مِنْ ظُهُورِهَا ، وَظُهُورِهَا مِنْ بَطُونِهَا» . فقال أعرابي : لمن هي يا رسولَ الله؟ قال : «المن أطابَ الكلامَ ، وأطعمَ الطعامَ ، وصلَّى بالليلِ والناسُ نيامٌ»^(١) . وَرَوَاهُ الترمذِيُّ من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقال : «حسنٌ غريبٌ ، وقد تكلم بعضُ أهل العلم فيه من قِبَلِ جَفْظِهِ» .

[٥٧٧٣] وقال الإمام أحمدُ : حدثنا عبد الرزَّاقِ ، حدثنا معمرٌ ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن ابن مُعَاتِقِ -

(١) تقدم في سورة التوبة ، آية : ٧٢ . وللحديث شواهد كما ترى فهو صحيح .

أو: أبي مُعَاتِقٍ - عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن في الجنة لغرفة يُرَى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله تعالى لمن أطعمَ الطعامَ، وألَانَ الكلامَ، وتابَعَ الصيامَ، وصَلَّى والناسَ نياماً»^(١). تُرَدُّ به أحمدٌ من حديث عبد الله بن مُعَاتِقِ الأشعري، عن أبي مالك، به.

[٥٧٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سَعِيدٍ، حدثنا يَعْقُوبُ بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتْرَءُونَ الْغُرْفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرْتَأُونَ الْكَوْكَبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبي عياش، فقال: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ يَقُولُ: «كَمَا تَرْتَأُونَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ»^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ.

[٥٧٧٥] وَأَخْرَجَاهُ أَيْضاً فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -.^(٣)

[٥٧٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا فَرَاةٌ، أَخْبَرَنِي قُلَيْحٌ، عَنْ هَلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتْرَءُونَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْغُرْفِ كَمَا تَرْتَأُونَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَارِبَ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْلَيْتَ الْنَّبِيِّونَ؟ فَقَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسُلَ»^(٤). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سُؤَيْدٍ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ قُلَيْحٍ، بِهِ، وَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٧٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا: حدثنا زُهَيْرٌ، حدثنا سَعْدُ الطَّائِي، حدثنا أَبُو الْمُدَّلَّةِ - مَوْلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا إِذَا رَأَيْنَاكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا، وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبْتَنَا الدُّنْيَا وَشَجَمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ. قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي لِصَافِحَتِكُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَكْفِهِمْ، وَلَزَارَتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ. وَلَوْ لَمْ تُذَيَّبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذَيَّبُونَ كِي يَغْفِرَ لَهُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدَّثَنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبَيْتُهُ ذَهَبٌ وَكَبَيْتُهُ فِضَّةٌ، وَمِلَاطُهَا الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ»^(٥)، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزُّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْتَاسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شِبَابُهُ. ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفِطَرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(٦). وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ بَعْضُهُ، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي مُجَاهِدِ الطَّائِي - وَكَانَ ثِقَةً - عَنْ أَبِي الْمُدَّلَّةِ - وَكَانَ ثِقَةً - بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أَي: تُسَلِّكُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالَ ذَلِكَ، كَمَا شَاؤُوا وَأَبْنِ أَرَادُوا، ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾، أَي: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَعَدَّ وَعَدَّ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَا يَحِطُّ اللَّهُ أَلَمِيَعَادَ﴾.

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٤٣/٥ بإسناد لين لأجل ابن معاتق، لكن للحديث شواهد وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٥٥ ومسلم ٢٨٣٠ وأحمد ٣٤٠/٥ وابن حبان ٢٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٥٦ وأحمد ٣٣٩/٢ وإسناد الترمذي صحيح.

(٥) الملائكة: ما يوضع بين اللبتين أثناء البناء. والمسك الأذفر: الجيد إلى الغاية.

(٦) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٥٦ والطيلبسي ٢٥٨٣ وابن المبارك ١٠٧٥ وأحمد ٣٠٥/٢ وإسناده ضعيف، أبو المدللة لا يعرف قاله الذهبي، لكن المتن صحيح، لصدره شاهد عند مسلم ٢٧٥٠ ولباقية شواهد تقدمت.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلْبِيسَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

يُخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَّ في الأرض، ثم يَصْرِفُهُ تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِغُهُ عُيُونًا ما بين صغارٍ وكبارٍ، بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾. قال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: ليس في الأرض ماء إلا أنزل من السماء، ولكن عُروِقُ في الأرض تُغَيِّرُهُ، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾، فمن سرّه أن يعود الملح عذباً فليُصِغِذِهِ. وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء. وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج. يعني أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾، أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾، أي: أشكاله وطعمومه وروائح و منافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، أي: بعد نُضَارَتِهِ وشبابه يكتهل ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾. قد خالطه اليبس، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾، أي: ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَصِيرةً نُضرةً حسنة، ثم تعود عُجوزاً شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، ويُنبت به زروعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَلَّتْ بِهِ وَبَاتَ الْأَرْضُ حَيْبًا فَنَظَرْتَهُمْ يَوْمَهُمْ الَّذِي كَانُوا يُعْرَبُونَ لَهُمْ مَثَلًا لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الانعام: ١٢٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَلْبِيسَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: فلا تليق عند ذكره، ولا تخضع ولا تعجب ولا تفهم، ﴿أَوْلَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَفْسِعَرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

هذا مَذْحٌ من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾، قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثنائي. وقال قتادة: الآية تُشَبِّهُ الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: ﴿مَثَانِي﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم - عز وجل -. وقال عكرمة، والحسن: نثى الله فيه القضاء. زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تُشَبِّهُهَا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَثَانِي﴾ مُرَدَّدٌ، رُدَّدَ موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء - عليهم السلام - في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَثَانِي﴾ قال: القرآن يُشَبِّهُ بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض. وقال بعض العلماء: ويُرَوَّى عن سُفيان بن عُيينة معنى قوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾:

أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ١٣ - ١٤]، وكقوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧٧﴾﴾، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٧٨﴾﴾ [المطففين: ٧، ١٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَّابٍ ﴿٧٩﴾﴾، إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا نُجُومَ كِتَابٍ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٤٩٥، ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه. وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمْ آيَاتٌ تُمَكِّنُهُ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر. وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٧٥﴾﴾، أي: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، المهيم العزير العفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعير منه جلودهم من الخشية والخوف. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٧٦﴾﴾، لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نعمات الآيات، من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدًا وَبُكْيًا، بأدب وخشية، وزجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٧٧﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٩﴾﴾ [الفرقان: ٧٣]، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصْغِينَ إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعلمون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله - ﷺ - تقشعير جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارعون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: تلا قتادة - رحمه الله -: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٧٥﴾﴾، قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعير جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدقي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٧٥﴾﴾، أي: إلى وعد الله. وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ مِنْ هُدَاهُ وَمَنْ كَانِ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ يَمُنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ، ﴿٧٦﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.﴾

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَالَّذِينَ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ فَادَّأَقَهُمُ اللَّهُ الْغُرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقرع فيقال له ولا مثاله من الظالمين:

﴿ذُرُوقًا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، كَمَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ! كما قال تعالى: ﴿أَمَنْ يَبْشُرُ مُكْرَبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْشُرُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٧﴾ [المك: ٢٢]: وقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ذُرُوقًا مِّنْ سَعَرٍ﴾ ﴿٤٨﴾ [القم: ٤٨] وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ يُثِقِنَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفي في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر:

فَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُنْتُ أَزْضًا أريدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي؟

يعني الخير أو الشر: وقوله جَلَّتْ عَظْمَتُهُ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاذْنَبْتُهُمُ الْعَذَابَ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾، يعني: القرون الماضية المكذبة للرسول، أهلكتهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من وافي. وقوله جل وعلا: ﴿فَأَذَانَهُمُ اللَّهُ لِحِزِّي فِي السَّيْرَةِ الدُّنْيَا﴾، أي: بما أنزل بهم من العذاب والثكال وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعدّه الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَالْعَذَابُ الآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَّحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فَإِنَّ المَثَلَ يُقَرَّبُ المَعْنَى إِلَى الأَذْهَانِ، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِن نَّفْسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [المنكبوت: ٤٣]. وقوله جل وعلا: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾، أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد. ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾، أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي خالصاً لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، أي: لا يستوي هذا وهذا. كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟! قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً، قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلماذا يشركون بالله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق عند موت الرسول - ﷺ - حتى تحقق الناس موته، مع قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَقْلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لِلَّهِ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ومعنى هذه الآية: إنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتصمون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله - عز وجل -، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم. فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب

الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذُكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تُعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

[٥٧٧٨] قال ابن أبي حاتم - رحمه الله - : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْمُقْرِيءِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ ابْنِ حَاطِبٍ - يَعْنِي يَحْيَى بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - عَنْ ابْنِ الزَّبِيرِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١)، قَالَ الزَّبِيرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَتُكْرَرُ عَلَيْنَا الْخِصْمَةُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: إِنَّ الْأَمْرَ إِذَا لَشَدِيدٌ^(١).

[٥٧٧٩] وكذا رواه الإمام أحمد عن سُفْيَانَ، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتَشْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّوْيسِ﴾ (٨) [التكاثر: ٨]. قال الزبير: أي رسول الله! أي نعيم نُسأل عنه وإنما نعيمنا الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»^(٢). وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجه، من حديث سُفْيَانَ، به. وقال الترمذي: «حَسَنٌ».

[٥٧٨٠] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا ابْنُ ثَمِيرٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ - يَعْنِي ابْنَ عَمْرٍو - عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، عَنِ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١)، قَالَ الزَّبِيرُ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، أَيُّكُرَّرُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، لِيُكْرَّرَ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ». قَالَ الزَّبِيرُ: وَاللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لَشَدِيدٌ^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ وَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٥٧٨١] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ، عَنْ أَبِي عُشَانَةَ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَوَّلُ الْخَصْمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

[٥٧٨٢] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيَخْتَصِمُ، حَتَّى الشَّاتَانِ فِيمَا انْتَطَحَا»^(٥) تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

[٥٧٨٣] وفي المسند عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - أنه قال: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرِي فِيمَا يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ ﷺ: «لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسِيحُكُمْ بَيْنَهُمَا»^(٦).

(١) إسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٧/١ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، وسيأتي في سورة التكاثر.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٢٣٦ وعبد الرزاق في «التفسير» ٢٦٣١ والحاكم ٥٧٢/٤ وأحمد ١٦٤/١ وإسناده حسن لأجل محمد بن عمرو، لكن له شواهد، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد ١٥١/٤ ح ١٦٩٢١ والطبراني ٣٠٩/١٧ من حديث عقبه بن عامر. وإسناده ضعيف لأجل ابن لهيعة، وتابعه عمرو بن الحارث عند الطبراني ٣٠٣/١٧ وقال الهيثمي في المجمع ١٣٥٧٢: رجال الطبراني رجال الصحيح. غير أبي عُشَانَةَ، وهو ثقة.

(٥) أخرجه أحمد ٢٩/٣، وإسناده ضعيف لأجل ابن لهيعة، ودراج عن أبي الهيثم، ضعيف أيضاً. لكن له شاهد، وهو الآتي، وشواهد أخرى يبلغ بها درجة الصحيح. والله أعلم.

(٦) أخرجه أحمد ١٦٢/٥.

[٥٧٨٤] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سَهْلُ بن بَحْرٍ، حدثنا حَيَّان بن أَغْلَب، حدثنا أَبِي، حدثنا ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يُجَاءُ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ الْخَائِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُخَاصِمُهُ الرَّعِيَّةُ، فَيُفْلِحُونَ»^(١) عليه، فيقال له: سُدَّ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ جَهَنَّمَ»^(٢). ثم قال: الأغلِبُ بن تميم ليس بالحافظ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ»^(٣)، يقول: يَخَاصِمُ الصَّادِقُ الْكَاذِبَ، وَالْمَظْلُومُ الظَّالِمَ، وَالْمَهْدِيُّ الضَّالَّ، وَالضَّعِيفُ الْمُسْتَكْبِرَ.

وقد رَوَى ابْنُ مَثَدَةَ فِي كِتَابِ (الرُّوحِ)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَخْتَصِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى تَخْتَصِمَ الرُّوحُ مَعَ الْجَسَدِ، فَتَقُولُ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: أَنْتَ فَعَلْتَ. وَيَقُولُ الْجَسَدُ لِلرُّوحِ: أَنْتَ أَمَرْتَ، وَأَنْتَ سَأَلْتَ. فَيَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا، فَيَقُولُ لِهَؤُلَاءِ: إِنَّ مِثْلَكُمَا كَمِثْلِ رَجُلٍ مَقْعَدٌ بِصَبِيرٍ وَأَخْرَ ضَرِيرٍ، دَخَلَ بَسْتَانًا، فَقَالَ الْمَقْعَدُ لِلضَّرِيرِ: إِنِّي أَرَى هَاهُنَا ثِمَارًا، وَلَكِنْ لَا أَصِلُ إِلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ الضَّرِيرُ: ارْكَبْنِي فَتَنَاوَلَهَا. فَارْكَبْنِي فَتَنَاوَلَهَا، فَأَيُّهُمَا الْمُعْتَدِي؟ فَيَقُولَان: كِلَاهُمَا. فَيَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمَلِكُ: فَإِنَّكُمْ قَدْ حَكَمْتُمَا عَلَى أَنْفُسِكُمَا. يَعْنِي أَنَّ الْجَسَدَ لِلرُّوحِ كَالْمَطِيئَةِ، وَهُوَ رَاكِبُهُ.

وقال ابنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَوْسَجَةَ، حَدَّثَنَا ضِرَّارٌ، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ الْخَزَاعِيُّ، حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا الْقُتَيْبِيُّ - يَعْنِي يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - عَنِ جَعْفَرِ بْنِ الْمُغْبِرَةِ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَمَا نَعْلَمُ فِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ»^(٤)، قَالَ: قُلْنَا مَنْ تُخَاصِمُ؟ لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ خِصُومَةٌ، فَمَنْ نَخَاصِمُ؟ حَتَّى وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: هَذَا الَّذِي وَعَدْنَا رَبَّنَا - عَزَّ وَجَلَّ - نَخْتَصِمُ فِيهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ مَنْصُورِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ»^(٥)، قَالَ: يَعْنِي أَهْلَ الْقَبْلَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَ الْكُفْرِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ الْعُمُومَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ، وَجَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى، وَادَّعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَجَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا - تَعَالَى اللَّهُ عَنِ قَوْلِهِمْ عَلُوًّا كَبِيرًا - وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ عَلَى السَّنَةِ رُسُلُ اللَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ»^(١)، أَي: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفِي الْبَاطِلِ، كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ، قَالُوا

(١) الفلج: الظفر والفوز، وأفلجه: أظهره.

(٢) أخرجه البزار ١٦٤٤ وابن عدي ٤١٧/١ من حديث أنس. وإسناده ضعيف، فيه أغلب بن تميم، أحله ابن عدي به. وقال ابن حبان: منكر الحديث. وضعفه الهيثمي في «المجمع» ٩٠٣٩، لكن ورد أحاديث كثيرة في عقوبة الإمام الظالم والسultan الجائر، نسأل الله السلامة، وحسن الختام.

الباطلَ وزدوا الحقَّ، ولهذا قال جلَّتْ عظمتُه مُتَوَعِّداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ؟﴾ وهم الجاحِدُونَ المُكذِّبُونَ. ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، قال مجاهد، وقتادة والربيع بن أنس، وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ. وقال السدِّي: هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾، يعني: محمداً - ﷺ. - وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾، قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾، يعني: رسول الله - ﷺ. - وقرأ الربيع بن أنس «والذين جاءوا بالصدق»، يعني الأنبياء، «وصدقوا به»، يعني: الأتباع. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتُمونا، فَعَمِلْنَا فِيهِ بِمَا أَمَرْتُمونا. وهذا القول عن مجاهد يشملُ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَقُولُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَالرَّسُولُ - ﷺ. - أَوَّلَى النَّاسِ بِالْدُخُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، فَإِنَّه جَاءَ بِالصِّدْقِ، وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَمِنَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلُّ أَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو رسول الله - ﷺ. - ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: قال: المسلمون. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يعني: في الجنة، مهما طلبوا وَجَدُوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾. كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلْتُمُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْمَنَظَرِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [الاحقاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَقْرَبُ بَشَرًا مِمَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ - وقرأ بعضهم: «عبأده» - يعني أنه تعالى يخفي من عبده وتوكل عليه.

[٥٧٨٥] وقال ابن أبي حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو هانيء، عن أبي علي عمرو بن مالك الجبني، عن فضالة بن عبيد الأنصاري، سمع رسول الله - ﷺ. - يقول: «أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به»^(١). ورواه الترمذي والنسائي، من حديث حيوة بن شريح، عن أبي هانيء الخولاني، به. وقال الترمذي: «صحيح». ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، يعني المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وألهتهم التي يدعونها من دُونِ اللَّهِ؛ جهلاً منهم وضلالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ

(١) صحيح. إسناده ضعيف لضعف ابن أخي ابن وهب، لكن توبع عند الحاكم ١٢٢/٤، وباقي الإسناد ثقات، وأخرجه الترمذي ٢٣٤٩ وأحمد ١٩/٦ وإسناده قوي، وله شواهد.

﴿٧٧﴾؟ أي: مَنِيحَ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ، من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه فإنه العزيزُ الذي لا أَعَزُّ منه، ولا أشدُّ انتقاماً منه، ممن كَفَرَ به وأشرك به وعاندَ رسوله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، يعني: المشركين كانوا يَعْتَرِفُونَ بأنَّ الله هو الخالقُ للأشياء كُلِّهَا، ومع هذا يَعْبُدُونَ معه غيره، يَمَّا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرَّتِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾، أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر.

[٥٧٨٦] وذكر ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثُ قيس بن الحجاج، عن حنس الصنعاني، عن ابن عباس مرفوعاً: «احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجده تُجاهك، تَعْرِفْ إلى الله في الرِّخاءِ يعرفك في الشدة»، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلمْ أن الأُمَّةَ لو اجتمعوا على أن يُضْرُوكَ بشيءٍ لم يَكْتُبه الله عليك لم يُضْرُوكَ، ولو اجتمعوا على أن يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لم يَكْتُبه الله لك لم يَنْفَعُوكَ. جَفَّتِ الصحفُ، وَرَفَعَتِ الأفلامُ، واعملِ لله بالشكر في اليقين. واعلمْ أنَّ في الصبرِ على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصرَ مع الصبرِ، وأن الفرجَ مع الكَرْبِ، وأن مع العسرِ يسراً^(١). ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي، عليه توكلتُ وعليه يتوكَّلُ المتوكلون. كما قال هود - عليه السلام - حين قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّوٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ، فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكَ مَا يَنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهِمَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

[٥٧٨٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبي المقدام - مولى آل عثمان - عن محمد بن كعب القرظي، حدثنا ابن عباس - رَفَعَ الحديثَ إلى رسولِ الله - ﷺ - قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَعْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ أَوْثَقُ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ. وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ^(٢)». وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ﴾، أي: على طريقتِكُمْ. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ، ﴿إِنِّي عَجِلٌ﴾، أي: على طريقتي ومنهجِي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ستعلمون غيبَ ذلك ووبأله، ﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: في الدنيا، ﴿وَيُحِيلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌ، لا محيدَ له عنه. وذل يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْفَكَ دَمًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يقولُ تعالى مخاطباً رسوله محمداً - ﷺ - : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، أي لجميع الخلق من الإنس والجن لئلا يُذَرُّهم به، ﴿فَمَنْ أَسْفَكَ دَمًا فَلِنَفْسِهِ﴾، أي: وإنما يعودُ نفعُ ذلك إلى نفسه: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾، أي: وإنما يرجعُ وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٠٧/١ من ثلاثة وجوه عن ابن عباس أحدها حسن، وله شواهد، فهو صحيح، انظر (مسند أبي يعلى) ١٠٩٩.

(٢) إسناده ضعيف. فيه أبو المقدام، وهو هشام بن زياد. جاء في «الميزان» ٩٢٢٣: ضعفه أحمد وغيره. وقال النسائي: متروك. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات. وقال البخاري: يتكلمون فيه.

أي: بِمُوكَّلٍ أَنْ يَهْتَدُوا، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَأَنبَأَ عَلَيْكَ أَنْبَأُنَا وَأَلْمَسْنَا لَمْسَاتِهَا﴾ [الرعد: ٤٠]. ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان. والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَىٰ رُجُوعِكُمْ ثُمَّ يُعَذِّبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْفَآخِرُ قَوْعًا عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠ - ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَآيِبِهَا فِيمِمْسَاكٍ إِلَيْهِ فَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائكة الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده^(١) وغيره.

[٥٧٨٨] وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عبید الله بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ: «إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فَرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاحِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُقَلَّ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادُكَ الصَّالِحِينَ». وقال بعض السلف: تُفْبَضُ أَرْوَاحُ الْأَمْوَاتِ إِذَا مَاتُوا، وَأَرْوَاحُ الْأَحْيَاءِ إِذَا نَامُوا، فَتَعَارَفَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ تَعَارَفَ، ﴿فِيْمِمْسَاكٍ إِلَيْهِ فَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾، التي: قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مُسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يُمَسِّكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ، وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ، وَلَا يَغْلُظُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمْرٍ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبِهِمْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى دائماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حادهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصير تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير. ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشَّفَعَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نَدْعُوهُ إِلَّا بِذُنُوبِنَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: هو المتصرف في جميع ذلك. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعذله، ويجزي كلأ بعمله. ثم قال تعالى دائماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت. وقال السدي: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥] أي: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم. لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر. ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَبَدَأ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤٨)

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكّر عن المشركين ما ذكّر، من المذمّة لهم في حُبهم الشرك، وتفرّتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، أي: ادّع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، أي: السر والعلائية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: في دُنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

[٥٧٨٩] وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة: بأي شيء كان رسول الله ﷺ - يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

[٥٧٩٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ - قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلمني إلى نفسي تقرّني من الشرّ وتباعدني من الخير، وإني لا أتق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفيني يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد - إلا قال - عز وجل - لملائكته يوم القيامة إن عبيدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة». قال سهيل: فأخبرني القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما في أهلنا جارية إلا وهي تقول هذا في جذرها^(٢). انفرد به الإمام أحمد.

[٥٧٩١] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله: أن أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاساً وقال: كان رسول الله ﷺ - يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون. أعود بك من الشيطان وشركه، وأعود بك أن أترف على نفسي إثماً، أو أجره إلى مسلم». قال أبو عبد الرحمن رضي الله عنه: -

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٧٧٠ وأبو داود ٧٦٨ والنسائي ٢١٢/٣ - ٢١٣ وابن ماجه ١٣٥٧ وأحمد ١٥٦/٦ وابن حبان

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٤١٢/١ وإسناده ضعيف عون لم يدرك ابن مسعود، لكن للحديث شواهد كثيرة.

كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يقول ذلك حين يريد أن ينام^(١)، تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ أَيْضاً.

[٥٧٩٢] وقال أحمد أيضاً: حدثنا خَلْفُ بن الوليد، حدثنا ابن عِيَّاش، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي راشد الحُبْراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حَدَّثَنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَلْقَى بَيْنَ يَدَيَّ صَحِيفَةً فَقَالَ: هَذَا مَا كَتَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - . فنظرت فيها فإذا فيها أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي، مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. فقال له رسول الله - ﷺ -: «يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ، أَوْ اقْتَرَفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً، أَوْ أُجِرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ»^(٢). ورواه الترمذي، عن الحسن بن عَرَفَةَ، عن إسماعيل بن عِيَّاش، به، وقال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ».

[٥٧٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصِّدِّيق: أَمَّرَنِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ أَقُولَ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، وَإِذَا أَخَذْتُ مَضْجَعِي مِنَ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» إِلَى آخِرِهِ^(٣). وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ﴾، أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لَأَقْدَرُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾، أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَ هَذَا لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ الْفِدَاءُ وَلَوْ كَانَ مَلَأَ الْأَرْضَ ذَهَبًا، كما قال في الآية الأخرى، ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَوَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: وأحاط بهم من العذاب والثكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوتِيْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله - ﷻ - عَزَّ وَجَلَّ - وينيب إليه ويدعوه، وَإِذَا خَوَّلَهُ مِنْهُ نِعْمَةً بَغَىٰ وَطَغَىٰ، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: لما يعلم الله تعالى من استحقاقه له، ولولا أنني عند الله تعالى خَصِيصٌ لما خَوَّلَنِي هَذَا! قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]: على خُبْرٍ عِنْدِي. قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لِنُخْتَبِرَهُ فِيمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، أَطِيعَ أَمْ يَعْصِي؟ مع عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِكَ، فَبِئْسَ فِتْنَةٌ هِيَ: اخْتِبَارٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، وَيَدْعُونَ مَا يَدْعُونَ. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: قد قال

(١) أخرجه أحمد ١٧١/٢ وفيه ابن لهيعة. لكن للحديث شواهد.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٩٦/٢ والترمذي ٣٥٢٩، ورجاله ثقات، وللحديث شواهد.

(٣) تقدم في سورة يوسف، آية ١٠٦.

هذه المقالة وزعم هذا الزعم وأدعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا آغَفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾، أي: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا لَهُمْ بِمَعْجِزَاتِ ﴿٥٣﴾﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وأنتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴿٥٥﴾ قال إنما أوتيته على علم عبيد أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جملاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴿٥٦﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سبا: ٣٥]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لجبراً وحججاً.

﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٨﴾﴾ وَأَيُّبُوا إِلَيَّ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦١﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٢﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٣﴾﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها وزجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبده البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

[٥٧٩٤] قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبيرة أخبره عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فآكثروا، وزنوا فآكثروا. فاتوا محمداً - ﷺ - فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(١) [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، به. والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]... الآية.

[٥٧٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المرثي يقول: سمعت ثوبان مولى رسول الله - ﷺ - يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾... إلى آخر الآية، فقال

رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي - ﷺ - ثم قال: «ألا ومن أشرك»، ثلاث مرات^(١). تفرّد به الإمام أحمد.

[٥٧٩٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا نوح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحُدّاني، عن مكحول، عن عمرو بن عَبَسَةَ قال: «جاء رجل إلى النبي - ﷺ -، شيخ كبير يدعُ على عصاً له، فقال: يا رسول الله، إن لي غَدْرَاتٍ وَفَجْرَاتٍ، فهل يُغْفَرُ لي؟ فقال: «ألسْتَ تشهدُ أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غَفَرَ لك غَدْرَاتِكَ وَفَجْرَاتِكَ»^(٢). تفرّد به أحمد.

[٥٧٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حَمَاد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقرأ: «إِنَّ عَمَلٌ غَيْرَ صَالِحٍ»، وسمعتُه يقول: «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي، إنه هو الغفور الرحيم»^(٣). ورَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، من حديث ثابت، به.

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبدٌ من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَمَلِكُ سُوْءًا أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وقال جل وعلا في حق المنافقين ﴿إِنَّ الْمُتَوَكِّينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْمَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٥] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٣-٧٤] وقال ثم قال جلّت عظمته: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَفْوَراً رَحِيمًا﴾ [٧٤-٧٣] [المائدة: ٧٣-٧٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكُفِّرُوا بِنُفُسِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَوْبَةٌ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات في هذا كثيرة جداً.

[٥٧٩٨] وفي الصحيحين عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عبّاد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مئة. ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالدّهَاب إلى قرية يُعْبَدُ الله فيها، فقصدها فاتاه الموت في أثناء الطريق، فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشنبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدّره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد^(٤). هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٧٥/٥ ح ٢١٨٥٧ والطبراني في «الأوسط» ١٧٦ من حديث ثوبان برواية: «إلا من أشرك»، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣١٣. فيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن اهـ والصواب أن ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادة حتى يحسن حديثه.

(٢) أخرجه أحمد ٣٨٥/٤ بهذا الإسناد، وفيه ضعف نوح بن قيس الحُدّاني، فيه كلام، ومكحول مدلس، وهو كثير الإرسال، وقد عنعن.

(٣) ضعيف. أخرجه أحمد ٤٥٤/٦ - ٤٥٩ - والترمذي ٣٢٣٧ والحاكم ٢/٢٤٩، وإسناده ضعيف شهر صدوق لكنه كثير الأوهام والإرسال، ولم يصرح بسماعه، وهذه قراءة شاذة لا يحتج بمثل هذا الخبر لثبوتها.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٧٠ ومسلم (٢٧٦٦) (٤٨) وابن حبان ٦١٥.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله عز وجل: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ . . . إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤]؟ ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، قال ابن عباس: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبراني من طريق الشعبي، عن شتير بن شكيل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّ الْفَيْتُمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة العزف: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تصريفاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]. فقال له مسروق: صدقت. وقال الأعمش، عن أبي سعيد، عن أبي الكنود قال: مرر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مُدَكِّر، لم تقط الناس من رحمة الله! ثم قرأ: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ رواه ابن أبي حاتم رحمه الله.

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:

[٥٧٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله، حدثني أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك فقال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتُم الله تعالى لَدَفَرْتُ لَكُمْ، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يُخطئون ثم يستغفرون الله فيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١). تفرَّد به أحمد.

[٥٨٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني الليث، حدثني محمد بن قيس - قاص - عمرو بن عبد العزيز - عن أبي صرمة، عن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أنه قال حين حَضَرَتْه الوفاة: قد كنتُ كتمتُ منكم شيئاً سمعته من رسول الله - ﷺ - يقول: «لولا أنكم تُذنبون لَخَلَقَ اللهُ قوماً يُذنبون، فيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٢). هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد به. ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي صرمة - وهو الأنصاري صحابي - عن أبي أيوب، به.

[٥٨٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النكري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كَثْرَةُ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢٣٨/٣ وإسناده ضعيف لجهالة أخشن السدوسي لكن المتن صحيح له شواهد، منها الآتي.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٤٨ والترمذي ٣٥٣٩ وأحمد ٤١٤/٥.

الذنبِ الندامة». وقال رسول الله - ﷺ - «لو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يُذنبون، فيغفر لهم»^(١). تفرّد به أحمد.

[٥٨٠٢] وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدّثني عبد الأعلى بن حماد الثريسي، حدّثنا داود بن عبد الرحمن، حدّثنا أبو عبد الله مسلمة بن عبد الله الرازي، عن أبي عمرو البجلي، عن عبد الملك بن سُفيان الثقفني، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله يحبُّ العبدَ المُفْتَنَ التَّوَابَ»^(٢). لم يُخرِجوه من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا حمّاد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير قال: إن إبليس - عليه لعائن الله - قال: يا رب، إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم، وإنني لا أستطيعه إلا بسُلطانك. قال: فأنت مُسلّط، قال: يا رب، زدني. قال: لا يؤكّد له ولَدٌ إلا وُلِدَ لك مثله. قال: يا رب، زدني. قال: أجعل صدورهم مساكينَ لكم، وتجرّون منهم مَجْرَى الدّم. قال: يا رب، زدني. قال: «وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْشَوْنَ إِلَّا عُرُوقًا» [الإسراء: ٦٤]. فقال آدم: يا رب، قد سلطته عليّ، وإنني لا أمتنع إلا بك. قال تبارك وتعالى: لا يؤكّد لك ولد إلا وَكَلتَ به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يا رب، زدني. قال: الحسنَةُ عشرٌ أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يا رب، زدني. قال: بابُ التوبة مفتوحٌ ما كان الروحُ في الجسد. قال: يا رب، زدني. قال: «يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمر، عن عمر - رضي الله عنه - في حديثه قال: وكُنّا نقول: ما الله بقابلٍ مَنّ افْتَتِنَ صَرَفًا ولا عدلاً ولا توبة، عَرَفُوا الله ثم رَجَعُوا إلى الكُفْرِ لبلاءِ أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قَدِم رسول الله - ﷺ - المدينة أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: «يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [٥٣] وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تُنصِرُونَ». قال عمر - رضي الله عنه -: فكتبتُها بيدي في صحيفة، بعثت بها إلى هشام بن العاص. قال: فقال هشام: لما أنتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فالتقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويُقال فينا. قال: فرجعتُ إلى بعيري فجلستُ عليه، فلجحتُ برسول الله - ﷺ - بالمدينة. ثم استحثتُ تبارك وتعالى عباده إلى المُسَارَعَةِ إلى التوبة، فقال: «وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ»، أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، «مَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ»، أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلولِ العقوبة، «وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ»، وهو القرآن العظيم، «مَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تُنصِرُونَ»، أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون. ثم قال عز وجل: «أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢٨٩/١ وإسناده لين، لكن المتن صحيح بشواهده.

(٢) إسناده ضعيف جداً. أخرجه عبد الله بن أحمد ٨٠/١ - ١٠٣ وأبو يعلى ٤٨٣. وفيه عبيدة بن عبد الرحمن أبو عمرو البجلي اتهمه ابن حبان بالوضع. انظر المجروحين ١٩٩/٢، وفيه عبد الملك ومسلمة الرازي، وكلاهما مجهول، قوله «المفتن» أي المتحن، يمتحنه الله بالذنب، ثم يتوب، ثم يعود، ثم يتوب.

عَلَىٰ مَا قَرَأْتُمْ فِي جُنُبِ اللَّهِ، أي: يومَ القيامةِ يتحسّرُ المجرمُ المفرطُ في التوبةِ والإنابةِ، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المُطيعين لله - عزَّ وجلَّ - . وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾، أي: إنما كان عملي في الدنيا عملاً ساعراً مستهزئاً غير موقن مُصدقٍ. ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولُ هَيْنَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)، أي: تود أن لو أُعيدت إلى الدار الدنيا فُتحسِنُ العملَ. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أخبرَ الله - سبحانه - ما العبادُ قائلونَ قبل أن يقولوه، وعمَلهم قبل أن يعملوه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا قَرَأْتُ فِي جُنُبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥١) أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولُ هَيْنَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قَدَرُوا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الانعام: ٢٨].

[٥٨٠٣] وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي؟! فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً». قال: وكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي! قَالَ: فَيَكُونُ لَهُ الشُّكْرُ^(١). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ، بِهِ. وَلَمَّا تَمَنَّى أَهْلُ الْجَرَائِمِ الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا، وَتَحَسَّرُوا عَلَى تَصْدِيقِ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ (٥٩)، أي قد جاءتك أيها العبدُ النادمُ على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حُججِي عليك، فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ اتِّبَاعِهَا، وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِهَا، الْجٰجِدِينَ لَهَا.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠)

وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

يُخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسودُ فيه وجوه، وتبيضُ فيه وجوه، تسودُ وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيضُ وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾، أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، أي: يكذبهم وافتراءهم. وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنمُ كافيةٌ لهم سجنًا ومَثْوًى، لهم فيها الجزئ والهُوان، بسبب تكبرهم وتجبُّرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

[٥٨٠٤] قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابنُ أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عيسى بن أبي عيسى الحنَّاط، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «إِنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ يُحَسَّرُونَ يومَ القيامةِ أشباه الذُرِّ^(٢)» في صورِ الناس، يَعْلُوهم كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنَاً مِنَ النَّارِ فِي وَاِدٍ يُقَالُ لَهُ بُولَس، مِنَ الْأَنْيَارِ، وَيُسْقَوْنَ عُصَارَةَ أَهْلِ النَّارِ، مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ^(٣). وقوله تبارك وتعالى:

(١) أخرجه النسائي ١١٤٥٤ وأحمد ٥١٢/٢ وإسناده حسن.

(٢) الذر: صغار النمل.

(٣) إسناده ضعيف جداً، ابن أخي ابن وهب ضعيف، وعيسى الحنَّاط ضعيف متروك، وأخرجه الترمذي ٢٤٩٢ من وجه آخر عن محمد بن عجلان عن عمرو به، وإسناده حسن لكن المتن غريب حيث فيه «بولس» ولعل الأشبه وقفه، ومع ذلك حسنة الألباني في «صحيح الترمذي» ٢٠٢٥، فالله أعلم.

﴿وَسَيَجِيءُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِيهِمْ﴾، أي: بما سَبَقَ لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مُرْخَرَّحُونَ عن كل شر، نائلون كُلِّ خير.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكمها، والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله عز وجل: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة. وقال السدي: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين أن أزيمة الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ﴾، أي: حُجِّجِه وَبَرَاهِينِه، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

[٥٨٠٥] وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً - وفي صحته نظر - ولكن نحن نذكره كما ذكره، فإنه قال: حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مخلد بن هذيل العبدي، عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألني عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير؛ من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مزار أعطي خصالاً ستاً: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية فيعطى قطاراً من الأجر، وأما الثالثة فترفع له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره اثنا عشر ملكاً، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حجَّ وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء^(١). ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد، به مثله. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، ذكرُوا في سبب نزولها ما رواه ابن

(١) باطل. أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ١٠/١١٥ ح ١٧٠٠٠ والعقيلي ٤/٢٣١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/١٤٤ و ١٤٥. قال الهيثمي: فيه أغلب بن تميم، وهو ضعيف اهـ. وأما العقيلي، فأعله بمخلد أبي الهذيل، وقال: في إسناده نظر، لا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه. وقال ابن الجوزي: لا يصح: أما الأغلب، فقال يحيى: ليس بشيء. وأما مخلد، فقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. وعبد الرحمن المدني ضعيف، وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه منزه عن الكلام الركيك، والمعنى البعيد اهـ.

أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم ذَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَتَعْبُدُونَهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٦) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقوله عز وجل: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاغْبِثْ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٦)، أي: اخلِصِ العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت ومن معك، أنت ومن أتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحٰنَهُمْ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧)

يقول تبارك وتعالى: ﴿﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: وما قدر المشركون الله حقَّ قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حقَّ عظمتيه. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾﴾، هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حقَّ قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حقَّ قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرؤها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

[٥٨٠٦] قال البخاري: قوله تعالى: ﴿﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾﴾: حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: جَاءَ خَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبِعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبِعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبِعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبِعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إصْبِعٍ. فيقول: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصَدِيقًا لِقَوْلِ الْخَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: ﴿﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾﴾^(١). الآية. ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضوع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي في التفسير من سُنَنِيهِمَا، كُلُّهُمَا مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ بِنَحْوِهِ.

[٥٨٠٧] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَبْلَغَكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِلُ الْخَلَائِقَ عَلَى إصْبِعٍ، وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبِعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبِعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبِعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبِعٍ؟ قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾﴾^(٢). . . إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي - مِنْ طَرُقٍ - عَنْ الْأَعْمَشِ، بِهِ.

[٥٨٠٨] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ حَسَنِ الْأَشْقَرِ، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْبَةَ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي

(١) أخرجه البخاري ٤٨١١ ومسلم ١٩/٢٧٨٦ - ٢٠ والنسائي في «التفسير» ٤٧٠ والترمذي ٣٢٣٨، ٣٢٣٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٥ ومسلم ٢١/٢٧٨٦ و٢٢ والنسائي في التفسير ٤٧٢.

الضُّحَى، عن ابن عباس قال: مرَّ يهوديُّ برسولِ الله - ﷺ - وهو جالسٌ فقال: كَيْفَ تَقُولُ يا أبا القاسمِ: يومَ يَجْعَلُ اللهُ السَّمَاءَ على ذَهَبٍ - وأشار بالسَّبَّابةِ - والأرضَ على ذَهَبٍ، والجبالَ على ذَهَبٍ، وسائرَ الخلقِ على ذَهَبٍ - كلُّ ذلكَ يَشِيرُ بِإِصْبَعِهِ - قال: فأنزل اللهُ - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١). . . الآية. وكذا رواه الترمذي في التفسير، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصَّلْتِ أبي جعفر، عن أبي كُدَيْبَةَ يحيى بن المُهَلَّبِ، عن عطاءِ بن السائبِ، عن أبي الضُّحَى مُسلمٍ بن صُبَيْحٍ، به، وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

[٥٨٠٩] ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عُفَيْرٍ، حدثنا الليثُ، حدثني عبدُ الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن: أن أبا هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، ويَطْوِي السَّمَاءَ بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرضِ؟»^(٢). تفرَّدَ به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

[٥٨١٠] وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مُقَدَّمُ بن محمد، حدثنا عَمِي القاسم بن يحيى، عن عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عَمَرَ، عن رسولِ الله - ﷺ - قال: «إن الله يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضِينَ، وتكون السمواتُ بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ»^(٣). تفرَّدَ به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجهٍ آخر.

[٥٨١١] وقد رواه الإمام أحمدُ من طريق أخرى بلفظ آخر أبسطَ من هذا السياق وأطولَ، فقال: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ، أخبرنا إسحاقُ بن عبد الله بن أبي طلحةَ، عن عُبيد الله بن يقسَمِ، عن ابن عَمَرَ أن رسولَ الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ذاتَ يومٍ على المنبرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤)، ورسولُ الله - ﷺ - يقولُ هكذا بيده، يحركها يُقْبِلُ بها ويُدِيرُ: «يُمَجِّدُ الرَّبَّ نَفْسَهُ: أنا الجبارُ، أنا المتكبرُ، أنا الملكُ، أنا العزيزُ، أنا الكريمُ»^(٤). فَرَجَفَ برسولِ الله - ﷺ - المنبرُ حتى قلنا: لَيَجْرُونَ به.

[٥٨١٢] وقد رواه مسلمٌ، والنسائي، وابنُ ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، زاد مسلم: ويعقوبُ بنُ عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عُبيد الله بن يقسَمِ، عن ابن عَمَرَ، به، نحوه. ولفظُ مسلمٍ - عن عُبيد الله بن يقسَمِ في هذا الحديث -: «أنه نظر إلى عبدِ الله بن عَمَرَ كيف يحكي النبيَّ - ﷺ -، قال: يأخذُ اللهُ سمواتِهِ وأرضِيه بيده ويقول: أنا المَلِكُ، ويقبضُ أصابعه ويبسطها: أنا الملكُ، حتى نظرت إلى المنبرِ يتحركُ من أسفلِ شيءٍ منه، حتى إنني لأقول: أساقِطُ هو برسولِ الله - ﷺ -»^(٥).

[٥٨١٣] وقال البزارُ: حدثنا سُلَيْمَانُ بن سيف، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عِبَادُ المُنْقَرِي، حدثني محمد بن المُنْكَدِرِ قال: حدثنا عبد الله بن عَمَرَ، أن رسولَ الله - ﷺ - قرأ هذه الآية على المنبرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا

(١) أخرجه أحمد ٢٥١/١ والترمذي ٣٢٤٠ وإسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٢ ومسلم ٢٧٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢ ومسلم ٢٧٨٧.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد ٨٨/٢ وابن حبان ٧٣٢٧. وله طرق.

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) (٢٦) وابن ماجه (١٩٨)، (٤٢٧٥) وابن حبان ٧٣٢٤.

اللَّهِ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٦٨﴾، حتى يَلْغُ: ﴿سُبْحٰنَهُ وَمَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات^(١). رواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عُبيد بن عُمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح.

[٥٨١٤] وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُثبي، حدثنا حَيَّان بن نافع بن صَخْر بن جُوَيْرِيَّة، حدثنا سعيد بن سالم القَدَّاح، عن معمر بن الحَسَن، عن بكر بن خُنيس، عن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الملك بن عُمر، عن جرير قال: قال رسول الله - ﷺ - لنفر من أصحابه: «إني قارىء عليكم آيات من آخر سورة الزُّمِرِ، فمن بكى منكم وَجِبَتْ له الجنة». فقراها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فَمِنَّا مَنْ بَكَى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جُهِدنا أن نبكي فلم نبك؟ فقال: «إني سأقرأها عليكم، فمن لم يبك فليتبأك»^(٢)، هذا حديث غريب جداً.

[٥٨١٥] وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضاً: حدثنا هاشم بن مَرْزُد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عِيَّاش، حدثني أبي، حدثني مضمم بن زُرْعَةَ، عن شَرِيح بن عُبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله تعالى يقول: ثلاثٌ جَلَّالٌ عَلَيْهِنَّ عن عبادي، لو رَأَاهُنَّ رجلٌ ما عَمِلَ سوءاً أبداً: لو كَشَفْتُ غِطَائِي فرَأَيْتني حتى استيقن ويعلم كيف أفعلُ بخلقِي إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدي، ثم قبضت الأَرْضِينَ، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذي له الملكُ دُونِي؟ ثم أريهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنوها، وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمداً غَيَّبْتُ ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بيئته لهم»^(٣). وهذا إسناد متقارب، وهي نسخة تُروى بها أحاديث جَمَّة، والله أعلم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوَّقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يظَلْمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تبارك وتعالى مُخبراً عن هَوَلِ يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوَّقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، هذه هي النفخة الثانية، وهي نفخة الصَّعَقِ، وهي التي يموتُ بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا مَنْ شاء الله كما جاء

(١) أخرجه الطبراني ١٣٣٢١ وابن عدي ١٦٤٧/٤ وإسناده غير قوي لأجل عباد بن مسرة.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ٢٤٥٩. وقال الهيثمي في «الجمع» ١١٣١٧: فيه بكر بن خُنيس، وهو متروك اهـ واتهمه ابن حبان بالوضع، وفيه عبد الملك بن عمير، طال عمره، وساء حفظه، لذا ضعفه أحمد، وقال أبو حاتم: ليس بحافظ، وقال يحيى: غلط.

(٣) إسناده ضعيف، فيه هاشم بن مرثد الطبراني، ذكره الذهبي في «الميزان» ٩١٩٢ وقال: قال ابن حبان: ليس بشيء. وله علة ثانية محمد بن إسماعيل بن عِيَّاش، ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٢٢٥ وقال: قال أبو داود: لم يكن بذلك. وقال أبو حاتم الرازي: لم يسمع من أبيه شيئاً اهـ. وذكر ذلك الحافظ في التهذيب، وزاد: وقال أبو داود: دخلت حصص غير مرة، وهو حي، وسألت عمرو بن عثمان عنه، فذمهُ. قال ابن حجر: وقد أخرج أبو داود عن محمد بن عوف عنه عن أبيه عدة أحاديث لكن يروونها بأن محمد بن عوف رآها في أصل إسماعيل اهـ. وبهذا يتبين أن الخبر واه لأنه ليس من رواية محمد بن عوف. ثم إن الراوي عنه ضعيف أيضاً. وقد ذكر ابن كثير أنه غريب. لكن عاد في آخره فقال: إسناد متقارب. وهي نسخة تُروى بها أحاديث جمّة اهـ والجواب: أن تلك الأحاديث هي من رواية ابن عوف عنه، كما تقدم آنفاً، والله أعلم.

مُصْرَحاً به مفسراً في حديث الصور^(١) المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ﴾، ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء. ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة، نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ وَنظُرُونَ﴾، أي: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَمِن مَّآئِنِهِ أَنْ نَقُومَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ طَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥].

[٥٨١٦] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن غزوة بن مسعود قال: سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممتُ ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت: سترون بعد قليل أمراً عظيماً. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله - ﷺ -: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه غرورة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله تعالى. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى أنه لو كان أحدكم كان في كيد جبل لدخلت عليه» - قال: سمعتها من رسول الله - ﷺ -: «ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك ذرّة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيضعق. ثم لا يبقى أحد إلا ضعق. ثم يرسل الله - أو: ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو: الظل، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلّموا إلى ربكم: ﴿وَقَفُّوا لَهُمْ مَسْغُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصفات: ٢٤] - قال: - ثم يقال: أخرجوا بعث النار. قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمئة وتسعون. فيومئذ تبعث الولدان شيئاً، ويومئذ يكشف عن ساق^(٢). انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

[٥٨١٧] وقال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة، عن النبي - ﷺ -: قال: «بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق^(٣).

[٥٨١٨] وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: قال: «سألت جبريل - عليه

(١) تقدم تخريجه باستيفاء.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (٢٩٤٠) (١١٦) وأحمد ١٦٦/٢ وابن حبان ٧٣٥٣.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٥ ومسلم ١٤١/٢٩٥٥.

السلام - عن هذه الآية: ﴿وَفُيِّعَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يَسْأَلِ اللهُ تعالى أن يصعقَهُمْ؟ قال: هم الشَّهَدَاءُ، مُقَلَّدُونَ أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ عَرْشِهِ، تَتَلَقَّاهُمْ مَلَائِكَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى الْمَحْشَرِ بِبَنَائِبٍ مِنْ يَاقُوتٍ نَمَارُهَا أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ، مَدُّ حُطَّاءِهَا مَدُّ أَبْصَارِ الرِّجَالِ، يَسْبِرُونَ فِي الْجَنَّةِ يَقُولُونَ عِنْدَ طُولِ النَّزْهِةِ: انظِرُّوا بِنَا إِلَى رَبِّنَا - عَزَّ وَجَلَّ - لِنَنْظُرَ كَيْفَ يَقْضِي بَيْنَ خَلْقِهِ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ إِلَهِي، وَإِذَا ضَحِكَ إِلَى عَبْدٍ فِي مَوْطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ^(١). رجاله كلهم ثقات إلا شيخَ إسماعيلَ بنِ عِيَّاشٍ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلَّى الحقُّ - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجَاءَتِ بِلَالَتَيْنِ﴾، قال ابنُ عَبَّاسٍ: يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَّمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾، أي: الشهداء من الملائكة الحَفَظَةُ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ﴿وَفُيِّعَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَانَ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لَئِنْ لَمْ يَنْزَلْنَا بِهَا الْقُرْآنَ لَكُنَّا بِهَا فَكِرًا فَذَرْهُمْ حَتَّى يَسْمَعُوا آيَاتِنَا وَلِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ حُكْمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، أي: من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيمَا فِيهَا فِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ كَيْفَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا يُسَاقُونَ سَوَاقًا عَنِيْفًا بِزَجْرِ وَتَهْدِيدِ وَعَوِيدِ. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ لِكُلِّ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٧٢﴾﴾ [الطور: ١١٣]، أي: يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعًا، هَذَا وَهُمْ عَطَّاشٌ ظَمَاءٌ، كما قال جلَّ وعلا في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْآرْحَنِ وَقَدْ ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُتَّبِعِينَ لِكُلِّ جَهَنَّمَ وَذَٰكَ﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٦]. وهم في تلك الحال ضُمُّ وَبُكْمٌ وَعُغْمِيٌّ، مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عُنْيًا وَبُكْمًا وَسُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، أي: بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا فَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا، لِتُعْجَلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ - الَّذِينَ هُمْ غِلَظُ الْأَخْلَاقِ، شِدَادُ الْفُؤَى، عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّنْكِيلِ -: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ؟﴾، أي: مِنْ جِنْسِكُمْ تَتِمَّكُنُونَ مِنْ مَخَاطَبَتِهِمْ وَالأَخْذِ عَنْهُمْ، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾، أي: يَقِيمُونَ عَلَيْكُمْ الْحُجُجَ وَالبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: وَيُحَذِّرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ؟ فَيَقُولُ الْكُفَّارُ لَهُمْ: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: قَدْ جَاءَنَا وَأَنْذَرْنَا، وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجُجَ وَالبَرَاهِينَ، ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: وَلَكِنْ كَذَبْنَاكُمْ وَخَالَفْنَاكُمْ، لَمَّا سَبَقَ لَنَا مِنَ الشَّقْوَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحْفَظُهَا حَيْثُ عَدَلْنَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الأُخْرَى: ﴿كُلَّمَا أَلْتَمَسْنَا فِيهَا فَوْجًا سَأَلْتُمْ خَزَنَتَنَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا

(١) إسناده ضعيف لجهالة عمر بن محمد، فقد قال ابن كثير: غير معروف. ولم أجد من ترجمه، وإسماعيل بن عياش كان يروي

عن قوم مجاهيل لا يعرفون، راجع ترجمته في «الميزان».

زَكَ اللَّهُ مِنْ شَوْءِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٧٣﴾ ، أي : رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة . ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٧٣﴾﴾ [الملك : ٨ - ١١] ، أي : بعداً لهم وخساراً . وقوله تبارك وتعالى هاهنا : ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ، أي : كلُّ مَنْ رَأَاهُمْ وَعَلِمَ حَالَهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُونَ للعذاب ، ولهذا لم يُسند هذا القول إلى قائل مُعَيَّن ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهداً عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حَكَمَ العَدْلُ الخبيرُ عليهم به . ولهذا قال جل جلاله : ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ، أي : ماكنين فيها لا خُرُوجَ لَكُمْ منها ، ولا زوالَ لَكُمْ عنها ، ﴿فَبَسَّ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ، أي : فبسَّ المصيرُ وبسَّ المقيبلَ لكم ، بسبب تكبركم في الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبسَّ الحالُ وبسَّ المالُ .

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ فادخلوها خالدين ﴿٧٣﴾﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وهذا إخبارٌ عن حال السعداء المؤمنين حين يُساقون على النجائب وقد أُدخِلوا إلى الجنة (زُمَرًا) ﴿٧٣﴾ أي : جماعةً بعد جماعةٍ : المُقَرَّبُونَ ، ثم الأبرارُ ، ثم الذين يُلَوَّنهم ، ثم الذين يُلَوَّنهم ، كلُّ طائفةٍ مع من يُناسِبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصدِّيقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكلُّ صنفٍ مع صنفٍ ، كلُّ زُمرَةٍ تُناسِب بعضها بعضاً . ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهَا﴾ ، أي : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراطِ حُسبوا على قنطرةٍ بين الجنة والنار ، فافتحص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقوا أُذِن لهم في دُخُولِ الجنة . وقد ورد في حديث الصور^(١) أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول ، فيقصِّدون آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم مُحَمَّدًا - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كما فَعَلُوا في العَرَصاتِ عند استشفاعهم إلى الله - عزَّ وجلَّ - أن يأتي لفصل القضاء ، ليظهر شرفَ محمد - ﷺ - على سائر البشر في المواطن كلها .

[٥٨١٩] وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : «أنا أولُ شفيع في الجنة» وفي لفظ لمسلم : «وأنا أولُ مَنْ يقرَعُ بابَ الجنة»^(٢) .

[٥٨٢٠] وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - ﷺ - : «أتى بابَ الجنة يوم القيامة فاستفتح ، فيقول الخازنُ : مَنْ أنت ؟ فأقول : محمدٌ . قال : فيقول : بك أمرتُ ألا أفتح لأحدٍ قبلك»^(٣) . ورواه مسلم عن عمرو بن محمد الناقد وزُهَيْرِ بْنِ حَرْبٍ ، كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن سليمان - وهو ابنُ المغيرة القيسي - عن ثابت ، عن أنس ، به .

[٥٨٢١] وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمرٌ ، عن هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، عن أبي هُرَيْرَةَ قال : قال رسول الله - ﷺ - : «أولُ زُمرَةٍ تَلِجُ الجنةَ صُورَهُمْ على صُورَةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ، لا يبصقون فيها ، ولا

(١) تقدم تخريجه مستوفياً .

(٢) صحيح . أخرجه مسلم ٣٣١ و٣٣٢ (١٩٦) .

(٣) صحيح . أخرجه مسلم ٣٣٣ (١٩٧) وأحمد ٣/١٣٦ .

يَمْتَخِطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوِّطُونَ فِيهَا. آتَيْتُهُمْ وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَثْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مَخْرَجُ سَاقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الْحُسْنِ. لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بَكْرَةً وَعَشِيًّا^(١). رواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن مَعْمَرٍ بِإِسْنَادِهِ نَحْوَهُ. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - .

[٥٨٢٢٢] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - «أول زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى صُورَةِ أَشَدِّ كَوْكَبِ دُرِّي فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَقُولُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ وَلَا يَتَفَلَّحُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَثْوَةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحَوْرُ الْعَيْنِ، أَخْلَافُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(٢). وأخرجه أيضاً من حديث جرير.

[٥٨٢٢٢ م] وقال الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ، هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وَجُوهَهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». فقام عكاشة بن مَخْصَنٍ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال - ﷺ - : «سَبِّقْ بِهَا عَكَّاشَةَ»^(٣). أخرجه. وقد رَوَى هذا الحديث - في السبعين ألفاً بغير حساب - البخاري ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة الجهني، وأم قيس بنت مَخْصَنٍ

[٥٨٢٢٣] وَلَهُمَا عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعِمِئَةَ أَلْفٍ - أَخَذَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوْلَهُمْ وَأَخْرَهُمُ الْجَنَّةَ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»^(٤).

[٥٨٢٢٤] وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سَمِعْتُ أَبَا أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: وَعَدَنِي رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، وَثَلَاثَ حَتِّيَّاتٍ مِنْ حَتِّيَّاتِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ -^(٥). وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لُحَيٍّ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ.

[٥٨٢٢٥] ورواه الطبراني، عن عُتْبَةَ بْنِ عَبْدِ السَّلْمِيِّ: «يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا»^(٦). وروي مثله عن ثوبان، وأبي سعيد الأنماري. وله شواهد من وجوه كثيرة.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٤٥ ومسلم ٢٨٣٤ (١٧) والترمذي ٢٥٣٧ وأحمد ٣١٦/٢ وابن حبان ٧٤٣٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٢٧ ومسلم ٢٨٣٤ (١٥) وابن ماجه ٤٣٣٣ وابن حبان ٧٤٣٧.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٨١١ ومسلم (٢١٦) (٣٦٩).

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٤٣ ومسلم ٣٧٣ (٢١٩).

(٥) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة ٣١٧٠٥/٦ وإسناده صحيح، رواه ثقات مشاهير.

(٦) جيد. أخرجه أحمد ١٨٣/٤ والطبراني ١٢٦/١٧ وإسناده ضعيف لجهالة عامر بن زيد. وله شاهد عن أبي سعيد الأنماري، أخرجه الطبراني ٣٠٤/٢٢ ورجاله ثقات، قاله الهيثمي في «المجمع» ٤٠٨/١٠ - ٤٠٩، وله شواهد أخرى، وهي وإن كانت ضعيفة، لكن تتأيد بمجموعها، انظر «المجمع» ٤٠٦/١٠ - ٤١٠.

وقوله تعالى: ﴿حَوَّجَ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لِمَنْ حَرَّزْنَهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقته الملائكة الحزنة بالبخارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعيداً وطابوا، وسرّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذفت الجواب هاهنا ذهب الدهن كل مذهب في الرجاء والأمل. ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد الثجعة، وأغرق في النزاع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

[٥٨٢٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان». فقال أبو بكر - رضي الله تعالى عنه -: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعي، من أيها دُعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(١). رواه البخاري ومسلم، من حديث الزهري، بنحوه.

[٥٨٢٧] وفيهما من حديث أبي حازم سلمة بن دينار، عن سهل بن سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يُسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»^(٢).

[٥٨٢٨] وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»^(٣).

[٥٨٢٩] وقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَيْن، عن شهر بن حوشب، عن معاوية - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»^(٤).

ذَكَرُ سَعَةَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، نَسَأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا:

[٥٨٣٠] في الصحيحين من حديث أبي رُزَعَةَ، عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله تعالى: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمّتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٨٩٧ والنسائي ١٦٨/٤، ١٦٩، والترمذي ٣٦٧٤ وابن حبان ٣٠٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٨٩٦ ومسلم ١١٥٢ والنسائي ١٦٨/٤ وابن ماجه ١٦٤٠ والترمذي ٧٦٥ وابن حبان ٣٤٢٠.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم (٢٣٤) (١٧) وأبو داود ١٧٠ والترمذي ٥٥ والنسائي ٩٢/١ وابن ماجه ٤٧٠ وأحمد ١٥٣/٤ وابن حبان ١٠٥٠.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢٤٢/٥ والبخاري في «سننه» ٩/١ كلاهما من حديث معاذ. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠) فيه انقطاع بين شهر بن حوشب ومعاذ. وإسماعيل بن عياش روايته عن أهل الحجاز ضعيفة، وهذا منها.

الأخر. والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب -، لكما بين مكة وهجر - أو: هَجَرَ وَمَكَّة^(١). وفي رواية: «مكة وبُضْرَى».

[٥٨٣١] وفي صحيح مسلم، عن عُتْبَةَ بنِ غَزْوَانَ أنه خَطَبَهُمْ خطبة فقال فيها: ولقد ذُكِرَ لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كَطِيطٍ من الزحام^(٢).

[٥٨٣٢] وفي المسند عن حَكِيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله - ﷺ -، مثله^(٣).

[٥٨٣٣] وقال عبد بن حُمَيْد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - قال: «إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة»^(٤) وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خِرْنَهَا سَلَّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم.

[٥٨٣٤] كما أمر رسول الله - ﷺ - أن يُنادَى بين المسلمين في بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»، وفي رواية: «مؤمنة»^(٥). وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، أي: ما كُتِبَ فيها أبداً، لا يبغون عنها جِوَالاً. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ﴾، أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والمُلك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدُّهُ﴾، أي: الذي كان وعدنا على السنة رُسُلُه الكرام، كما دَعَا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا نَحْرَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾^(٦) [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٧) [الذِّكْرُ: ١٤]، ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْقَرَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾^(٨) [فاطر: ٣٤ - ٣٥]. وقولهم: ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبْرًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾، قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي أرض الجنة. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٩) [الأنبياء: ١٠٥]. ولهذا قالوا: ﴿نَبْرًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾، أي: أين شئنا حللنا، فنعَم الأجر أجْرنا على عملنا.

[٥٨٣٥] وفي الصحيحين من حديث الزهري، عن أنس في قِصَّة المعراج قال النبي - ﷺ -: «أَدْخَلْتُ الجنة فإذا فيها جنابذ^(١٠) اللؤلؤ، وإذا تُرِبها المسك»^(١١).

(١) متفق عليه وتقدم.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (٢٩٦٧) (١٤) والترمذي ١٣٦ وابن ماجه ٤١٥٦ وأحمد ١٧٤/٤ وابن حبان ٧١٢١.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٥ وإسناده حسن، رجاله ثقات وله شواهد.

(٤) إسناده ضعيف. لأجل ابن لهيعة، ودراج في روايته عن أبي الهيثم، لكن يتقوى بما قبله، وانظر المجمع ٣٩٧/١٠.

(٥) صحيح. ورد من حديث ابن عباس، أخرجه مسلم ١١٤ والترمذي ١٥٧٤، ومن حديث علي، أخرجه مسلم ١٣٤٧.

وتقدم في أول سورة براءة.

(٦) جنابذ: جمع جُنْبُذَة وهي القبة، وروي عند بعضهم «حابل».

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩ ومسلم ١٦٣ وابن حبان (٧٤٠٦).

[٥٨٣٦] وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أن رسول الله - ﷺ - سأل ابن صائد عن ثرية الجنية؟ فقال: «ذمكة»^(١) بيضاء مسك خالص. فقال رسول الله - ﷺ -: «صدق»^(٢). وكذا رواه مسلم، من حديث أبي مسلمة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به.

[٥٨٣٧] ورواه مسلم أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن أبي أسامة، عن الجري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن ابن صائد سأل رسول الله - ﷺ - عن ثرية الجنية، فقال: «ذمكة بيضاء مسك خالص»^(٣). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿وَسَيُؤَكِّدُ أَتَقَوَّا رَهْمَ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداها فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبنائهم بعدها أبداً، ولم تشتت أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان. ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمرؤا بها، فشربوها منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى. وتلفتهم الملائكة على أبواب الجنة: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يطيفون به، فغل الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أبشر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان - باسمه في الدنيا - فيقلن: أنت رأيت؟ فيقول: نعم. فيستخفنهم الفرخ حتى تخرج إلى أسكفة الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، ووزابي مبنوثة. قال: ثم ينظر إلى تاسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون. ثم يرفع طزقه إلى سقفيه، فلولا أن الله تعالى قدره له، لآلم أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرقي. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾... الآية.

[٥٨٣٨] ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو عسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً - رضي الله عنه - كان ذات يوم عند رسول الله - ﷺ - فقال النبي - ﷺ -: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو: يؤتون - بثوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك يعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداها فيغسل ما في بطونهم من دس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشتت أبنائهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم، فينتهون - أو: فيأتون - باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة، فلو تسمع لها طنين يا علي؟! فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قبمها فيفتح له، فإذا رآه خر له» - قال مسلمة: أراه قال: «ساجداً» - فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قيمك، وكنت بأمرك. فيتبعه ويقف أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتقه، ثم تقول: أنت جبي، وأنا جيبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا

(١) الدرهم: التراب الناعم.

(٢) إسناده صحيح على شرط مسلم، وهو عند مسلم ٢٩٢٨ من وجه آخر.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩٢ - ٢٩٢٨.

الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن^(١). فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مئة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أضفر وأخضر وأحمر، ليس فيها طريقة تشاكل صاحبها، في البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى منح ساقها من باطن الحليل، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تترد، أنهار من ماء غير آسن - قال: صاف، لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال: لم يخرج من ضروع الماشية - وأنهار من خمر لذة للشاربين - قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم - وأنهار من غسل مصفى - قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَائِبَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّنَّهَا وَذُلَّتْ أَطْرُقُهُا نَدِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤]. فبشهي الطعام فيأتيه طير أبيض - قال: ورئما قال: أخضر. قال: - فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أي الألوان شاء، ثم يطير فيذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلکم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواداً في نور^(١). هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٥]

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يعجور - أخبر عن ملائكته أنهم مُحَدِّقُونَ من حول عرشه المجيد، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُمَجِّدُونَهُ وَيُعْظَمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيُنَزِّهُونَهُ عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾. ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمة - لله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يُسَبِّحْ القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر، والله الحمد

(١) ضعيف جداً. له علتان: أبو معاذ، وهو سليمان بن أرقم، متروك الحديث. ولم يدرك علياً.



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قد كره بعضُ السلف، منهم محمدُ بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم». قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» ديباجُ القرآن، وقال ابنُ عباس: إن لكل شيء لباباً، وللباب القرآن «آل حم»، أو قال: الحواميم. وقال مسعر بن كدام: كان يقال لهز: العزائس. روى ذلك كله الإمامُ العَلَمُ أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى، في كتاب فضائل القرآن. وقال حميد بن زنجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: إن مثل القرآن كمثل رجلٍ انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فَمَرَّ بِأَثَرِ غَيْثٍ، فَبِينَا هُوَ يَسِيرُ فِيهِ وَيَتَعَجَّبُ مِنْهُ إِذْ هَبَطَ عَلَى رَوْضَاتٍ دَمِيثَاتٍ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِنَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ فَهَذَا أَعْجَبٌ وَأَعْجَبٌ. فقيل له: إن مثل الغيثِ الأولِ مثلُ عِظَمِ الْقُرْآنِ، وَأَنْ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الرِّوْضَاتِ الدَّمِيثَاتِ، مِثْلُ آلِ حَمٍ فِي الْقُرْآنِ. أوردته البغوي. وقال ابنُ لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب: أن الجراح بن أبي الجراح حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لِكُلِّ شَيْءٍ لِبَابٌ وَلِبَابُ الْقُرْآنِ الْحَوَامِيمُ. وقال ابن مسعود: إِذَا وَقَعَتْ فِي آلِ حَمٍ فَقَدْ وَقَعَتْ فِي رَوْضَاتٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ. وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مسعر - هو ابنُ كدام - عمن حَدَّثَهُ: أَنَّ رَجُلًا رَأَى أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنِي مَسْجِدًا، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: أَبِينِي مِنْ أَجْلِ (آل حم). وقد يكونُ هذا المسجدُ الذي بناه أبو الدرداء، هو المسجدُ المنسوبُ إليه داخلَ قلعةِ دمشق. وقد يكونُ صيانتُها وحفظُها ببركته وبركة ما وُضِعَ لَهُ، فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَدُلُّ عَلَى النِّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

[٥٨٣٩] كما قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه في بعض الغزوات: «إِنْ بَيُّتُمْ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حَمٍ لَا يَنْصُرُونَ». وفي رواية: «لَا تَنْصُرُونَ»^(١).

[٥٨٤٠] وقال الحافظُ أبو بكر البزار: حدثنا أحمدُ بن الحكم بن ظبيان بن خَلْفِ المازني، ومحمد بن الليث الهمداني قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن - بن أبي بكر المليكي، عن زُرَّازَةَ بن مُصْعَبٍ، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَأَوَّلَ سُورَةِ حَمِ الْمُؤْمِنِ عَصِمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ»^(٢). ثم قال: لا نعلمُه يُروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذي من حديثِ المُليكي، وقال: «تَكَلَّمُ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ»

(١) يأتي بعد حديث.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٨٧٩ وفيه عبد الرحمن المليكي، غير قوي، وتقدم تحريجه في سورة البقرة: ٢٥٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾

أما الكلام على الحروف المُقطَّعة فقد تقدَّم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد قيل:
إن ﴿حَمَّ﴾ اسم من أسماء الله - عزَّ وجلَّ -، وأنشدوا في ذلك بيتاً:
يُذَكِّرُنِي حَامِيْمٍ وَالرَّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيْمٍ قَبْلَ التَّقْدِمِ.

[٥٨٤١] وقد وَرَدَ في الحديث الذي رواه أبو داودَ والترمذي، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يقول: «إِنْ بَيُّتُمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حَمَّ لَا يُنْصَرُونَ»^(١). وهذا إسنادٌ صحيح. واختار أبو عبيد أن يُروى: «فَقُولُوا: حَمَّ، لَا يُنْصَرُوا»، أي: إن قلتُم ذلك لَا يُنْصَرُوا. جعله جزاءً لقوله: فقولوا. وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أي: تنزيلُ هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذي العزَّة والعلم، فلا يُزَامُ جنابُه، ولا يخفى عليه الذرُّ وإن تكاثف حجابه. وقوله عز وجل: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، أي: يَغْفِرُ ما سَلَفَ من الذنب، ويقبَلُ التوبةَ في المستقبل لمن تاب إليه وخَضَعَ لديه. وقوله جل وعلا: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، أي: لمن تَمَرَّدَ وطغى وأثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى، ويغنى، وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنَّى أَنَا الْمَغْفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]. يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع مُتعدِّدة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف. وقوله تعالى: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ - قال ابن عباس: يعني السعة والغنى. وهكذا قال مجاهد. وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعني الخير الكثير. وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: ذي المَن. وقال قتادة: ذي النعم والفواضيل. والمعنى أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المَن والإنبام، التي لا يُطيقون القيامَ بِشُكْرِ واحدةٍ منها، ﴿وَإِنْ تَسَاءَلُوا بِرَحْمَةِ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]... الآية. وقوله جلت عظمتُه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: إليه المرجعُ والمآبُ، فيجازي كلَّ عاملٍ بِعَمَلِهِ، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عيَّاش: سَمِعْتُ أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجلٌ إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إني قَتَلْتُ، فهل لي من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿١﴾، وقال: اعْمَلْ ولا تياس. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مَرْوان الرُّقِّي، حدثنا عُمر - يعني ابن أيوب - أخبرنا: جعفر بن بُرقان، عن يزيد بن الأصم قال: كان رجلٌ من أهل الشام ذو بأس، وكان يَفْدُ إلى عُمر بن الخطاب، فَقَفَّده عُمرُ فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشراب. قال:

(١) أخرجه أبو داود ٢٥٩٧ والترمذي ١٦٨٢ والنسائي في «اليوم واللييلة» ٦٢٢ والحاكم ١٠٧/٢ وإسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، لكن هو محمول على أن ذلك اللفظ يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، ففي لفظ آخر «فليكن شعاركم...» انظر «المستدرک» وتفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريري.

فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، قد حذرنى عُقوبته، ووعدني أن يغفر لي. وزواه الحافظ أبو نُعَيْم من حديث جعفر بن بُرْقَانَ، وزاد: فلم يزل يُرَدِّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع. فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحداً لكم زل زلّةً فسددوه ووقفوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عُمر بن شَيْبَةَ، حدثنا حَمَاد بن واقد أبو عمر الصَّفَّار -، حدثنا ثابتُ البُنَّانِي، قال: كنتُ مع مُصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلتُ حائطاً أصلي ركعتين، فافتتحتُ: حم، المؤمن، حتى بلغت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفي على بغلةٍ شهباء عليه مقطعات يمينية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فقل: يا غافر الذنب، اغفر لي ذنبي. وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقل: يا قابل التوب، اقبل توبتي. وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فقل: يا شديد العقاب، لا تُعاقِبني. قال: فالتفتُ فلم أرَ أحداً، فخرجتُ إلى الباب فقلت: مرّ بكم رجلٌ عليه مقطعات يمينية؟ قالوا: ما رأينا أحداً. فكانوا يزورون أنه إلياسُ. ثم رَوَاه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويُجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ﴾، أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَدِ ﴿١٦٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ السَّمْعُ لَدَىٰ عَمْرَانِ: ١٩٦ - ١٩٧﴾. وقال تعالى: ﴿تَتَّبِعُهُمْ فَيَلْأَمُهُمْ نَضَطَّارُهُمْ إِنَّ عَذَابَ عَلِيٍّ ﴿٧٤﴾﴾ [القمان: ٢٤]. ثم قال تعالى مُسْلِيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإنه قد كذبتهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهو أول رَسولٍ بَعَثَهُ اللهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من كل أمة، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾، أي: حَرَصُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مَكْنٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسولَهُمْ ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، أي: مَآخَلُوا بِالشَّبْهَةِ لِيَرُدُوا الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ.

[٥٨٤٢] وقد قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارمُ أبو النعمان، حدثنا مُعْتَمِرُ بن سليمان قال: سمعتُ أبي يُحَدِّثُ عَنْ حَنْشٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ أَعَانَ بَاطِلًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسولِهِ ﷺ»^(١). وقوله جَلَّتْ عَظْمَتُهُ:

(١) حسن. أخرجه الطبراني ١٧٢/١١ والحاكم ١٠٠/٤ وإسناده واه، قال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٥/٤: فيه حنش، وهو متروك. وصححه الحاكم، وقال الذهبي: حنش ضعيف، وأخرجه الطبراني ١٩٤/١١ من وجه آخر، وفيه حمزة النصيبي؛ وهو متروك. وورد من وجه آخر، أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» ٦٣ وفيه سعيد بن رحمة ضعيف؛ وله شاهد =

﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾، أي: أهلكتهم على ما صَنَعُوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: فكيف بلغكَ عَذابي لهم، ونكالي بهم؟! قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان شديداً والله. وقوله جل جلاله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ نَفْسٍ عَلَىٰ الَّذِي كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: كما حَقَّتْ كلمة العذاب على الذين كَفَرُوا من الأمم السالفة كذلك حَقَّتْ على المُكذِّبين من هؤلاء الذين كَذَّبوك وخالفوك - يا محمد - بطريقي الأولى والأخرى، لأن من كَذَّبك فلا وثوق له بتصديق غيرك؛ والله أعلم.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَسَتَعْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يُخبر تعالى عن الملائكة المقرَّبين من حَمَلَةِ العرش الأربعة، ومن حوله من الملائكة الكرُويين، بأنهم يُسَبِّحون بحمدِ ربهم، أي: يقرُّون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقنضي لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: خاشعون له أذلاء بين يديه، ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ يستغفرون للذين آمنوا، أي: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقَبِضَ اللهُ سبحانه ملائكته المقرَّبين أن يذعوا للمؤمنين بظهور الغيب ولما كان هذا من سجايا الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يُؤْمِنُونَ على دعاء المؤمن لأخيه بظهور الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم:

[٥٨٤٣] «إذا دعا المسلم لأخيه بظهور الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»^(١).

[٥٨٤٤] وقد قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ - هو ابنُ أَبِي شَيْبَةَ -، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - صَدَّقَ أُمِّيَّةً فِي شَيْءٍ مِنْ شَعْرِهِ، فَقَالَ:

رَجُلٌ وَتَوَرَّتْ رِجْلُ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى، وَلَيْتَ مُرْصَدُ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : «صَدَّقَ»، فَقَالَ:

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ
تَأْبَىٰ فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رِسْلِهَا
إِلَّا مُنْذَبَةٌ وَإِلَّا تُجْلَدُ

فقال النبي ﷺ - : «صَدَّقَ». وهذا إسنادٌ جيِّدٌ^(٢) وهو يقتضي أن حَمَلَةَ العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَجُولُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَظِيرًا﴾. وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمعُ بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث، وبين الحديث الذي رواه أبو داود:

= بمعناه من حديث ابن عمر، أخرجه الحاكم ١٠٠/٤ وصححه ووافقه الذهبي، وهو غير قوي لأجل عطاء الخراساني، لكن الحديث حسن بشواهد.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٨٦ (٢٧٣٢) عن أبي الدرداء مرفوعاً.

(٢) إسناد ضعيف، والمتن منكر. أخرجه أحمد ٢٥٦/١ وأبو يعلى ٢٤٨٢ والطبراني ١١٥٩١، فيه عن عنة ابن إسحاق، وهو مدلس، ومع ذلك جوده المصنف!! مع أن المتن منكر، فإن ظاهر القرآن على أن حَمَلَةَ العرش ثمانية.

[٥٨٤٥] حدثنا محمد بن الصباح البزاز؛ حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سيماك، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنتُ بالبطحاء في عصابة فيهم رسولُ الله - ﷺ - فَمَرَّتْ بهم سحابةٌ، فنظر إليها فقال: «ما تُسْمُون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمُزَن؟» قالوا: والمُزَن، قال: «وَالعَنَان؟» قالوا: والعَنَان - قال أبو داود: ولم أُنقِن العَنَان جيداً - قال: «هل تدرُونَ بعد ما بين السماء والأرض؟». قالوا: لا ندري. قال: «بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنةً، ثم السماء فوقها كذلك - حتى عَدَّ سبعَ سموات - ثم فوق السماء السابعة بحرٌ ماء، أسفله وأعلى مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أذعال، بين أَطْلَافِهِنَّ وَرُكْبِهِنَّ مثل ما بين سماءٍ إلى سماءٍ، ثم على ظُهورِهِنَّ العرشُ بين أسفله وأعلى مثل ما بين سماءٍ إلى سماءٍ، ثم الله - عزَّ وجلَّ - فوق ذلك»^(١). ثم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث سيماك بن حرب، به. وقال الترمذي: «حَسَنٌ غَرِيبٌ». هذا يقتضي أن حَمَلَةَ العرشِ ثمانية، كما قال شهر بن حوشب: حَمَلَةُ العرشِ ثمانية، أربعة يقولون: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدك، لك الحمدُ على عَفْوِكَ بعد قُدْرَتِكَ. ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾، أي: إن رَحْمَتَكَ تَسَعُ ذُنُوبَهُمْ وخطاياهم، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأقوالِهِمْ وحركاتِهِمْ وسكناهِمْ، ﴿فَأَعِزِّرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَأَتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾، أي: فاصفح عن المُسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عمَّا كانوا فيه، وأتبعوا ما أمرتَهُم به، من فعل الخيرات وَتَرْكِ المُنكَرَاتِ، ﴿وَرَفِّعْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، أي: وَزَخِرْ حُهُمَ عَن عَذَابِ الْجَحِيمِ، وهو العذابُ الموجعُ الأليم. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، أي: اجمع بينهم وبينهم، لِتَقَرُّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُم بِالاجتماعِ فِي مَنَازِلٍ مُتجاوِرَةٍ، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلِفْنَاهُمْ لِيُؤْتُوا مِنْهُمْ مِمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ساوينا بين الكل في المنزلة، لِتَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ، وما نَقَصْنَا العَالي حَتَّى يُساوي الداني، بل رفَعْنَا ناقصَ العمل، فساوينا به بكثيرَ العملِ، تَفَضُّلاً مِنَّا وَمِنَهُ. وقال سعيد بن جبیر: إن المؤمن إذا دَخَلَ سَأَلَ عن أبيه وابنه وأخيه، أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طَبقتك في العمل. فيقول: إني إنما عَمِلتُ لي ولهم. فَيُلْحَقُونَ به في الدَرَجَةِ، ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٨). قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الآية. وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي: الذي لا تُمانع ولا تُغالب، وما تشأ كان وما لم تشأ لم يكن، الحكيمُ في أقوالك وأفعالك، من شَرَعِكَ وَقَدْرِكَ. ﴿وَرَفِّعْ السَّيِّئَاتِ﴾، أي: فِغَلْها أو رَبَّالها مِن مَنْ وَقَعَتْ مِنْه، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِهُ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾^(١١) هُوَ الْعَظِيمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾^(١٠) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ وَأَحْيَيْتَنَا أَنْتَ تَعْلَمُ فَاَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ^(١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِهُ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ^(١٢) هُوَ

(١) أخرجه أبو داود ٤٧٢٣ وابن ماجه ١٩٣ والترمذي ٣٣١٧ وإسناده ضعيف لضعف الوليد، وتقدم.

الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم يُنَادُونَ يومَ القيامة وهم في غمرات النيرانِ يَنْتَلِظُونَ، وذلك عندما باسروا من عذابِ الله تعالى ما لا يقبل لأحد به، فَمَقَتْهُوا عند ذلك أَنفُسَهُمْ وأبغضوها غاية البُغْضِ، بسبب ما أسلفوا من الأعمالِ السيئةِ، التي كانت سببَ دُخُولِهِمْ إلى النار: فأخبرتهم الملائكةُ عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم نداءً بأنْ مَقَّتْ اللهُ تعالى لهم في الدنيا حين كان يُعْرَضُ عليهم الإيمان، فيكفرون - أشدُّ من مَفْتِكِكُمْ - أيها المعذبون - أَنفُسَكُمْ اليومَ في هذه الحالة. قال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿لَمَقَّتْ اللهُ أَكْبَرَ مِنْ مَفْتِكِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ﴾، يقول: لَمَقَّتْ اللهُ أهلَ الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مَقَتْهُوا أَنفُسَهُمْ حين عايَنُوا عذابَ الله يوم القيامة. وهكذا قال الحسنُ البصري، ومجاهدٌ، والسُدِّيُّ، ودُرُّ بن عَبدِ اللهِ الهمداني، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم، وابنُ جرير الطبري، رحمهم الله. وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾، قال الثوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود: هذه الآية كقولهِ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَهْلًا لِقَادِرِكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتِكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُؤْتِيهِمُ الرِّجْعَ﴾ [البقرة: ٢٨]. وكذا قال ابنُ عباس، والضحاك، وقاتدة، وأبو مالك. وهذا هو الصوابُ الذي لا شك فيه ولا مزية. وقال السُدِّيُّ: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فحُوْطِبُوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة. وقال ابنُ زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من ضلْبِ آدم عليه السلام، ثم خَلَقَهُمْ في الأرحام، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وهذان القولان - من السُدِّيِّ، وابنِ زيد - ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالنا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قولُ ابنِ مسعود وابنِ عباس ومن تابعهما. والمقصودُ من هذا كله أن الكُفَّارَ يسألون الرجعةَ وهم وقوفٌ بين يديِ الله - عزَّ وجلَّ - في عَرَصاتِ القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْتَعِنَا فَعَمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يُجَابُونَ. ثم إذا رأوا النارَ وعايَنوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعةَ أشدَّ مما سألوا أولَ مرَّة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِي رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٧] بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]. فإذا دخلوا النارَ وذاقوا مَسَهَا وحسبسيها ومقامها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشدَّ وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [١٧] قَالَ أَخْشَرْنَا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ - ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تَلَطَّفُوا في السؤال، وقَدِّمُوا بين يديِ كلامهم مُقدِّمةً، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾، أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحيينا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمتتنا ثم أحييتنا، فأنت قادرٌ على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾، أي: فهل أنت مُجيبنا إلى أن تُعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادرٌ على ذلك، لِنَعْمَلْ غير الذي كنا نَعْمَلْ، فإن عُدنا إلى ما كُنَّا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا أن لا سبيلَ إلى عَزْدِكُمْ ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علَّلَ المنع من ذلك بأن سَجَايَاكُمْ لا تقبلُ الحقَّ ولا تقتضيه بل تُجَحِّده وتنفية، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُونَ﴾، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رُدُّدْتُمْ إلى الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَذِبُونَ». وقوله جل وعلا: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجوز، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويَزَحِم من يشاء، ويُعَذِّب من يشاء، لا إله إلا هو. وقوله جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، أي: يُظهِر قدرته لِيُخَلِّقَهُ بما يشاء دونه في خَلْقِهِ العُلُوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومُبدِعها ومُنشئها، ﴿وَيَذُرْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والشمار ما هو مُشاهدٌ بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستبدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يَنْبُ﴾، أي: من هو بصير مُنبئ إلى الله - عز وجل - . وقوله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، أي: فأخْلِصُوا لله وحدَه العبادة والدعاء، وخالِفُوا المشركين في مسلكهم ومذاهبهم.

[٥٨٤٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نعيم، حدثنا هشام - يعني ابن عروة بن الزبير - عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دُبر كل صلاة حين يُسَلِّم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مُخْلِصِينَ له الدِّينَ ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول الله - ﷺ - يُهلل بهن دُبر كل صلاة^(١).

[٥٨٤٧] ورواه مُسلم وأبو داود والنسائي، من طُرُق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبي عثمان، وموسى بن عقبه، ثلاثتهم عن أبي الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله - ﷺ - يقول في دُبر الصلاة: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له... وذكر تمامه»^(٢).

[٥٨٤٨] وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير: أن رسول الله - ﷺ - كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(٣).

[٥٨٤٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الخصب بن ناصح، حدثنا صالح - يعني المرّي - عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(٤).

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

(١) صحيح . أخرجه أحمد ٤/٤ وإسناده على شرط مسلم، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح . أخرجه مسلم (٥٩٤) (١٤٠) وأبو داود (١٥٠٧) والنسائي ٣/٧٠ وابن حبان ٢٠٠٨.

(٣) صحيح . أخرجه مسلم (٥٩٤) (١٤٠) وأبو داود ١٥٠٦ والنسائي ٣/٦٩ وابن حبان ٢٠١٠.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٤٧٩ وإسناده ضعيف لأجل صالح بن بشير المري. وتقدم تحريجه.

يقول تعالى مخبراً عن عَظَمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿تَمْرُجُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله. وقد ذُكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قُطْرَيْهِ مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدّم في حديث الأوعال ما يدل على ارتفاعه عن السَّمَوَاتِ السَّبْعِ بشيء عظيم. وقوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرَّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَكُوتُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنْكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢). وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ (١٧) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٨) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩)﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]. ولهذا قال عز وجل: ﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة، حذّر الله منه عباده. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وأخز ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة، والسدي، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخَلْقُ. وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم. وقد يُقال: إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سَيَلقى ما عَمِلَ من خيرٍ وشرٍّ، كما قاله آخرون. وقوله جل جلاله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، أي: ظاهرون بأذن كلهم، لا شيء يَكْتُمهم ولا يَظْلُمهم ولا يَسْتُرهم، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، أي: الجميع في عِلْمِهِ على السواء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ﴾.

[٥٨٥٠] قد تقدّم في حديث ابن عمر: أنه تعالى يَطْوِي السَّمَوَاتِ والأرضَ بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟^(١)

[٥٨٥١] وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خَلْقِهِ، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ؟ ثلاث مرّات، ثم يُجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢)، أي: الذي هو وحده قد قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتبر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس قال: يُنادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أنتكم الساعة. فَيَسْمَعُهَا الأحياء والأموث، قال: وَيَنْزِلُ اللهُ عز وجل إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ﴾. وقوله جلت عظمته: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾، يُخْبِرُ تعالى عن عَذْلِهِ في حُكْمِهِ بين خَلْقِهِ، أنه لا يَظْلِمُ مثقالَ ذَرَّةٍ من خيرٍ ولا من شرٍّ، بل يَجْزِي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

[٥٨٥٢] كما بُتت في صحيح مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكي عن ربه - عز وجل - أنه قال: «يا عبادي، إني حَرَمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالموا. إلى أن قال: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أخصيها لكم ثم أوفيتكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه»^(٣). وقوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أي: يُخَاسِبُ الخلائق كلهم، كما

(١) صحيح، وتقدم تخريجه في الزمر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ١٦٠/٥ وابن حبان ٦١٩.

يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً، كما قال جل وعلا: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ لِّمَنْ يَّحْسِبُ﴾ [القمر: ٢٨]، وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّحْنَا بِالْبَاصِرِ ۗ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۗ﴾ [١٨]
 يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۗ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۗ﴾ [٢٠]

يَوْمَ الْأَرْزَاقِ هو اسمٌ من أسماء يوم القيامة، سُميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزَفَتِ الْأَرْزَاقُ ۗ﴾ [النجم: ٥٧ - ٥٨] وقال عز وجل: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشْفَقَ الْقَوْمُ ۗ﴾ [القمر: ١]. وقال جل وعلا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. وقال جل جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ۗ﴾ [الملك: ٢٧]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾، قال قتادة: وَقَفَّتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ، فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا. وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد. ومعنى ﴿كَظِيمِينَ﴾، أي: ساكبين، لا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّيْكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٢٨]. وقال ابن جريج: ﴿كَظِيمِينَ﴾، أي: باكين. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفَعُهُمْ، ولا شَفِيعٍ يَشْفَعُ فِيهِمْ، بل قد تَقَطَّعتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۗ﴾، يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حقَّ الحياء، ويتشوقوه حقَّ تقواه، ويراقبوه مراقبة مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، فإنه تعالى يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ وَإِنْ أَبَدَتْ أَمَانَةَ، وَيَعْلَمُ مَا تَطْوِي عَلَيْهِ خَبَايَا الصُّدُورِ مِنَ الضَّمَانِ وَالسَّرَائِرِ. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۗ﴾: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غصَّ بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غصَّ. وقد أطلع الله تعالى من قلبه أنه ودَّ لو أطلع على فرجها، رواه ابن أبي حاتم. وقال الضحاك: ﴿حَايَةَ الْأَعْيُنِ﴾: هو الغمز. وقول الرجل: رأيت، ولم ير. أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها، هل تُرِيدُ الْخِيَانَةَ أَمْ لَا؟ وكذا قال مجاهد، وقاتدة. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، يعلم إذا أنتِ قَدَرْتِ عَلَيْهَا هَلْ تُزْنِي بِهَا أَمْ لَا؟ وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، أي: من الوسوسة.

وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، أي: يحكم بالعدل. وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادرٌ على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وهذا الذي فسر به ابن عباس في هذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾، أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: سميعٌ لأقوال خلقه، بصيرٌ بهم، فيهدي مَنْ يشاء، ويضلُّ مَنْ يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَشَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى: أولم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد، ﴿فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حلَّ بهم من العذاب والثكال، مع أنهم كانوا أشدَّ من هؤلاء قوَّةً، ﴿وَأَشَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر هؤلاء عليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ وَعَصْرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَصَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، أي: ومع هذه القوَّة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسولهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾، أي: وما دَفَع عنهم عذاب الله أحد، ولا رَدَّ عنهم راد، ولا وقاهم واق. ثم ذكر علة أخذهم إيَّاهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾، أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: ذو قوَّة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعادنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سَحِرٌ
كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا أَأَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ
وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰكٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن
يَبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ
مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مُسْلِيًا لِنَبِيِّهِ - ﷺ - في تكذيب من كذبه من قومه، ومُبَشِّرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البيِّنات، والدلائل الواضحات. ولهذا قال تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ - والسلطان هو: الحجَّة والبرهان - ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وَهَمَانَ﴾، وهو: وزيره في مملكته، ﴿وَقُرُونَ﴾، وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة ﴿فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ﴾، أي: كذَّبوه وجعلوه ساحرًا مُمخَرَقًا مُموها كذابًا في أن الله أرسله. وهذه كقولته تعالى: ﴿كَذٰلِكَ مَا آتٰنَ الَّذِيْنَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رُّسُوْلٍ اِلَّا قَالُوْا سٰحِرٌ اَوْ مَجْنُوْنٌ ﴿٥٢﴾ اَنْزَاوْا يَدَّ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰغُوْنَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا﴾، أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿قَالُوا أَأَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾. وهذا أمر ثانٍ من فِرْعَوْنَ بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عدوهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى - عليه السلام - . ولهذا قالوا: ﴿أُوذِيْنَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ لَيَسْتَخْلِكَنَّ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ اِلَّا فِي ضَلٰكٍ﴾، أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا

عليهم، إلا ذاهبٌ وهالكٌ في ضلالٍ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾: وهذا عزمٌ من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى - عليه السلام - أي: قال لقومه: دَعُونِي حَتَّى أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، أي: لا أبا لي منه. وهذا في غاية الجحْد والتجهُّم والعناد. وقوله - قَبَّحَهُ اللهُ -: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، يعني موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناسَ ويُغيِّرَ رُسُومَهُم وعاداتَهُم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعونٌ مُذْكَرًا»، يعني: واعظًا، يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -. وقرأ الأَكثَرُونَ: «أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ». وقرأ آخَرُونَ: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. وقرأ بعضهم: «وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ»، بالضم. ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾، أي: لما بلغه قولُ فرعونَ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، قال موسى: استجرتُ بالله وعُدْتُ به من شرِّه وشرِّ أمثاله. ولهذا قال: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾، أيها المخاطبون، ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾، أي: عن الحقِّ، مُجْرِمٍ، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

[٥٨٥٣] ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم، إنا نعوذُ بك من شرورِهِم، وندراً بك في نُحُورِهِم»^(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ (٢٨)﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قنيطياً من آل فرعون. قال السدِّي: كان ابن عمِّ فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه السلام. واختاره ابن جرير، ورَدَّ قولَ من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعَلَ لِكَلَامِهِ واستمعهُ، وكفَّ عن قتل موسى - عليه السلام - ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يُعاجَلَ بالعقوبة، لأنَّهُ منهم. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَكْتُمُونَ إِلَيْكَ الْمَلَأَ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابن أبي حاتم. وقد كان هذا الرجل يكتمُ إيمانه عن قومه القنيط، فلم يُظْهِرْ إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، فأخذت الرجلَ غَضَبَةً اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -.

[٥٨٥٤] و«أفضلُ الجهاد كلمة عذَل عند سلطان جائر»^(٢). كما ثبتَ بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال:

[٥٨٥٥] حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٥٣٧ والنسائي في «اليوم والليلة» ٦٠١ وأحمد ٤/٤١٤ - ٤١٥ وابن حبان ٤٧٦٥ والحاكم ٢/

١٤٢ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو كما قال، وله شواهد.

(٢) تقدم تحريجه، وهو صحيح.

بأشد شيء صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - . قال: بينا رسولُ الله - ﷺ - يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - . ثم قال: ﴿أَنْقَلْتُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١). انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي، قال: وتابعه مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عن يحيى بن عُرْوَةَ، عن أبيه، به.

[٥٨٥٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا هارونُ بنُ إِسْحَاقَ الهمداني، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ، عن هشام - يعني ابن عُرْوَةَ - عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِلَ: ما أَشَدُّ ما رأيتَ قريشاً بلغوا من رسولِ الله - ﷺ -؟ قال: مرَّ بهم ذاتَ يومٍ فقالوا له: أنتَ تنهانا أن نعبُدَ ما يعبدُ آبائنا؟ فقال: «أنا ذلك». فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكرٍ مُحْتَضِنَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَهُوَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَإِنْ عَيْنِي لَيْسِيْلَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: يا قوم، ﴿أَنْقَلْتُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها^(٢). وهكذا رواه النسائي من حديث عَبْدَةَ، فجعله من مسند عمرو بن العاص، - رضي الله عنه - . وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَليَتَّهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾، يعني: إذا لم يظهر لكم صحَّة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التأم والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيُجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ، فإنه يتَّوَعَّدْكُمْ إن خالفتموه بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعُوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى - عليه السلام - أنه طلب من فِرْعَوْنَ وقومه الموادعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا لَكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنَّي مَاتِكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرُؤُوسِنَا فِي مَقَاعِرِ لُؤْلُؤٍ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: ١٧ - ٢١]، وهكذا قال رسول الله - ﷺ - لقريش أن يتركوه يدعُوهم إلى الله تعالى عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أديته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴿١﴾﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: إلا أن تؤدوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤدوني وتتركوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحُدَيْبِيَّةِ، وكان فتحاً مبيناً. وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيتاً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين لما هداه الله، وأرشدته إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله. ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم، وحلول نعمة الله بهم: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله - ﷺ -، واحذروا نعمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَنْ يَصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترُدُّ عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، راداً على ما

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٧٨ و٣٨٥٦ و٤٨١٥ وأحمد ٢/٢٠٤ وابن حبان ٦٥٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٤٦٢ و«التفسير» ٤٨٢ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

أشار به هذا الرجل الصالح البارء الراشد الذي كَانَ أَحَقَّ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي. وقد كَذَّبَ فِرْعَوْنَ، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَحَمِدُوا بِهَا وَاسْتَبَقْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾: كذب فيه وافتري، وخان الله تعالى ورسوله ووعيته، فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿وَمَا أهدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشيد. وقد كَذَّبَ أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه وأتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (٧٩) ﴿طه: ٧٩﴾.

[٥٨٥٧] وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاشٍ لِرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمئة عام»^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمِ إِيَّيْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣١) ﴿وَيَتَقَوَّمِ إِيَّيْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ (٣٢) ﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَلِيَّتِ قَالًا زَلَمْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾ (٣٤) ﴿الَّذِينَ يَجْعِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بَعِيرٍ سُلْطَنٍ أَنْتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥)

هذا إخبار من الله - عز وجل - عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ: أنه حَذَّرَ قَوْمَهُ بِأَسِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَتَقَوَّمِ إِيَّيْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾، أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رذ عنهم راد، ولا صدَّ عنهم صاد. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾، أي: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَتَقَوَّمِ إِيَّيْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ (٣٢)، يعني: يوم القيامة. وسُمي بذلك، قال بعضهم: لما جاء في حديث الصور:

[٥٨٥٨] «إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وماجت وارتجت، فنظَرَ النَّاسُ إِلَى ذَلِكَ، ذَهَبُوا هَارِبِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٢). وقال آخرون، منهم الضحَّاك: بل ذلك إذا جِيءَ بِجَهَنَّمَ ذَهَبَ النَّاسُ هِرَابًا مِنْهَا، فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهِمَا﴾، وقوله: ﴿يَتَمَسَّرَ لِمِيزَانٍ وَاللَّيْلِ إِذَا سَقَطْتُمْ أَنْ تَفْقَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاَنْفَعُوا لَا تَفْقَدُونَ إِلَّا سُلْطَنِينَ﴾ (٣٣) [الرحمن: ٢٣]. وقد رُوِيَ عن ابن عباس، والحسن، والضحَّاك أنهم قرأوا: «يوم التَّادِ»، بتشديد الدال، من نَدِّ البعير:

(١) صحيح. أخرجه القضاة ٨٠٦ والطبراني كما في المجمع ٩٠٧٣ وقال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه ثابت بن نعيم الهوجي ولم أعرفه ورجال الطريق الأولى ثقات وفي الثانية محمد بن عبد الله بن مغفل ولم أعرفه. ويشهد له حديث معقل بن يسار عند البخاري رقم ٧١٥٠ ومسلم ١٤٢١.

(٢) حديث الصور، تقدم تخريجه، وهو مطول.

إِذَا سَرَدَ وَذَهَبَ. وقيل: لأن الميزان عنده مَلَكٌ، وإذا وُزِنَ عَمَلُ الْعَبْدِ فَرَجَحَ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَلَا قَدْ سَعِدَ فُلَانٌ بِنِ فُلَانٍ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا. وَإِنْ خَفَّ عَمَلُهُ نَادَى: أَلَا قَدْ شَقِيَ فُلَانٌ بِنِ فُلَانٍ. وقال قتادة: يُنَادِي كُلُّ قَوْمٍ بِأَعْمَالِهِمْ: يُنَادِي أَهْلَ الْجَنَّةِ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ النَّارِ أَهْلَ النَّارِ. وقيل: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَنَادَاةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَدَعْنَا رَبَّنَا فَحَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾. [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أَهْلِ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ: ﴿أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. [الأعراف: ٥٠]. ولمناداة أصحاب الأعرافِ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ، كما هو مذكورُ في سُورَةِ الأعرافِ. واختارَ البغوي وغيره: أنه سُمِّيَ بِذَلِكَ لمجموع ذلك. وهو قولٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾، أي: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿إِلَّا رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ التَّمَتَّرُ﴾ [القيامة: ١١ - ١٢]. ولهذا قال عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ﴾، أي ما لكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أي: من أضله الله فلا هادي له غيره. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بُرْسُفٌ مِنْ قَبْلِ بِأَلَيْسَتْ﴾، يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبْلِ موسى، وهو يوسف - عليه السلام - كان عزيزاً أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته القبيط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرّد الوزارة والجاه الدنيوي. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، أي: يئسستم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، وذلك ليكفرهم وتكذيبهم، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، أي: كحالكم هذا يكون حال من يضلّه الله لإسرافه في أفعاله وارتياح قلبه. ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَنٍ أَنْتَهُمْ﴾، أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحُجَجَ بغير دليل وحُجَّةٍ معهم من الله تعالى، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت. ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: والمؤمنون أيضاً يُبْغِضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتَهُ، فَإِنْ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً، ولا ينكر منكراً. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ﴾، أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾. وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وحكي عن الشعبي، أنهما قالوا: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين. وقال أبو عمران الجوني، وقاتدة: آية الجبارة القتل بغير حق؛ والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمْنُنُ ابْنِ لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَسْتَبَّ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿أَسْتَبَّ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا

فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعَوْنَ وَعَثْوَهُ، وَتَمَرُّدَهُ وَافْتِرَائِهِ، فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ صَرْحًا، وَهُوَ: الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ الشَّاهِقُ. وَكَانَ اتِّخَاذُهُ مِنَ الْأَجْرِ الْمَضْرُوبِ مِنَ الطَّيْنِ الْمَشْوِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمْنُنُ عَلَى السَّلِيمِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا قال إبراهيم النَّخَعِيُّ: كَانُوا يَكْرَهُونَ الْبِنَاءَ بِالْأَجْرِ، وَأَنْ يَجْعَلُوهُ فِي قُبُورِهِمْ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَسْتَبَّ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿أَسْتَبَّ السَّمَوَاتِ﴾، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ: أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ. وَقِيلَ: طُرُقُ السَّمَوَاتِ، ﴿فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ، أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى فِي أَنْ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أَي: بِصُنْعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ

أَنْ يُؤْمِرَ بِهِ الرَّعِيَّةُ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِفِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ: يَعْنِي إِلَّا فِي خَسَارٍ.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْفَعُونَ أُنْفُسَهُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ يَنْفَعُونَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكْرِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَبِيئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَنْفَعُونَ أُنْفُسَهُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أهديكُم إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. ثم زهدهم في الدنيا التي آثروها على الآخرة، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى، فقال: ﴿يَنْفَعُونَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾، أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكْرِ﴾، أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال جلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَبِيئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾، أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي لا يتقدَّر بجزاء بل يُشبهه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاذ. والله تعالى الموفق للصواب.

﴿وَيَنْفَعُونَ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ. مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَرِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ. مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ؟ أي: على جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَرِيزِ الْفَقِيرِ﴾، أي: هو في عزته وكبريائه يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، يقول: حقاً. قال السدِّي، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾. قال مجاهد: الوثن ليس بشيء. وقال قتادة: يعني: الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السدِّي: لا يُجِيبُ دَاعِيَهُ، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَدْعِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾﴾ وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كافرين ﴿٦﴾﴾ [الاحقاف: ٥-٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَا يُرِيبُوا مَا اسْتَحَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي في الدار الآخرة. فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ. ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله عز وجل. ﴿فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ﴾

لَكُمْ، أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأَفْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأفاطعكم وأبعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، أي: هو بصيرٌ بهم، فَيَهْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدرُ النافذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾، أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فَنَجَّاهُ اللهُ مع موسى - عليه السلام -، وأما في الآخرة فبالجنة. ﴿وَكَافٍ بِتَالِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، وهو: الغرق في اليم، ثم الثقله منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تُعرضُ على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسامهم في النار. ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، أي: أشدَّ ألماً وأعظمه تكالاً. وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القُبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكيّة، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ. وقد قال الإمام أحمد:

[٥٨٥٩] حدثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النضر - حدثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص - حدثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة: أن يهوديةً كانت تخدمها، فلا تصنعُ عائشةً إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقالكِ الله عذابَ القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل رسول الله - ﷺ - عليّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذابٌ قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعمّ ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنعُ إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقالكِ الله عذابَ القبر. قال: «كذبت يهود». وهم على الله أكذب، لا عذابَ دونَ يوم القيامة. ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مُشتملاً بثوبه، مُحمرّةً عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «القبرُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ! أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم بكيتهم كثيراً وضحكتهم قليلاً، أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»^(١). وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرط البخاري ومسلم، ولم يُخرجه.

[٥٨٦٠] وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله - ﷺ - قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله - ﷺ - بعد ذلك: «إنه أوجي إلي أنكم تُفتنون في قبوركم»^(٢). وهذا أيضاً على شرطهما. فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكيّة، وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلّت على عرض الأرواح على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصالِ تألمها بأجسادها في القُبور، إذ قد يكون ذلك مُختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألّمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلّت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يُعذّب المؤمن في قبره بذنب.

[٥٨٦١] ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهري،

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٨١١٦ و١٦٤ بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما ذكر ابن كثير.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٣٨/٦ وإسناده على شرط البخاري ومسلم أيضاً.

عن عُرْوَةَ، عن عائشة - رضي الله عنها -: أن رسولَ الله - ﷺ - دخلَ عليها وعندها امرأةٌ من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تُفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسولُ الله - ﷺ - وقال: «إنما يُفتنُ يهود». قالت عائشة: فلبسنا ليلالي، ثم قال رسولُ الله - ﷺ -: «أشعرت أنه أوجي إلي أنكم تُفتنون في القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسولَ الله - ﷺ - بعدُ يستعِذُ من عذابِ القبر^(١). وهكذا رواه مسلمٌ، عن هارونَ بنِ سعيدٍ وحزْمَلَةَ، كلاهما عن ابنِ وهبٍ، عن يونسَ بنِ يزيدَ الأيليِّ، عن الزهريِّ، به.

وقد يُقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها، فلما أوجي إليه في ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

[٥٨٦٢] وقد رَوَى البخاري من حديث شعبة، عن أشعث بن أبي الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذابِ القبر. فسألت عائشة رسولَ الله - ﷺ - عن عذابِ القبر؟ فقال: «نعم، عذابُ القبر حقٌّ». قالت عائشة: فما رأيتُ رسولَ الله - ﷺ - بعدُ صلى صلاةً إلا تَعَوَّذَ من عذابِ القبر^(٢). فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقَرَّرَ عليه. وفي الأخبارِ المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيَّتان، والله أعلم، وأحاديثُ عذابِ القبر كثيرةٌ جداً.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿عُدْوًا وَعَشِيًّا﴾: صباحاً ومساءً، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم تويخاً ونقمةً وصعراً لهم. وقال ابنُ زيد: هم فيها اليوم، يُغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن نُرَوان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: إن أرواحَ الشهداء في أجوافِ طيرٍ خضِرٍ تسرح بهم في الجنة حيث شاؤوا. وإن أرواحَ ولدانِ المؤمنين في أجوافِ عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت فتأوي إلى فناديل معلقة في العرش وإن أرواحَ آل فرعون في أجوافِ طيرٍ سودٍ تغدو على جهنم ويرأخ عليها، فذلك عرضها. وقد رواه الثوري، عن أبي قيس، عن الهزيل بن شريحيل، من كلامه في أرواح آل فرعون. وكذلك قال السدي.

[٥٨٦٣] وفي حديث الإسراء من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسولِ الله - ﷺ - قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلقٍ من خلقِ الله كثير، رجال، كلُّ رجلٍ منهم بطئه مثل البيت الضخم، مُصَفَّدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرضون على النارِ عُدْوًا وعشيًّا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»^(٣).

[٥٨٦٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا زيد بن أحرَم، حدثنا عامر بن مُدريك الحارثي، حدثنا عتبة - يعني ابن يقظان - عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب^(٤)، عن ابن مسعود، عن النبي - ﷺ - قال: «ما أحسنَ محسنٌ من مسلم أو كافرٍ إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الله

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٥٨٤ وأحد ٨٩/٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٧٢.

(٣) إسناده ضعيف جداً. لأجل أبي هارون العبدي، واسمه عمارة بن جوين. وتقدم في سورة الإسراء.

(٤) وقع في كافة النسخ «عن طارق، عن شهاب» والتصويب عن كتب الرجال.

الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رجماً أو تصدق بصدقة أو عيّل حسنة أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال: «عذاباً دون العذاب»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(١). ورواه البرزّاز في مستنده، عن زيد بن أحرّم، ثم قال: لا نعلم له إسناداً غير هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزاريّ البليخيّ قال: سمعت الأوزاعيّ وسأله رجل فقال: رجمك الله. رأينا طيوراً تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضاً، فوجاً فوجاً، لا يعلم عددها إلا الله - عزّ وجلّ - فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن الطير في حواصلها أرواح آل فرعون، يعرضون، على النار غدواً وعشيّاً، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سوداً، فينبث عليها من الليل ريش أبيض، وتتأثر السود، ثم تغدو على النار غدواً وعشيّاً، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا يقولون: إنهم ستمئة ألف مقاتل.

[٥٨٦٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ - «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالعداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله - عزّ وجلّ - إليه يوم القيامة»^(٢). أخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، به.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعُفَتَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْآ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَبَرُونَ عَنآ نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُحَقِّفُ عَنآ يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَرَ أَنَّا نَدْعُوا رَبَّنَا وَمَا دُعَاؤُنَا لَكُنَّ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾

يخبرُ تعالى عن تحاجّ أهل النار في النار وتخاضعهم، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء - وهم الأتباع - للذين استكبروا - وهم القادة والسادة والكبراء -: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعآ﴾، أي: أظعنكم فيما دعوتهمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَبَرُونَ عَنآ نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والتكال. ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُحَقِّفُ عَنآ يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾: لما علموا أن الله - سبحانه - لا يستجيب منهم ولا يسمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، سألوا الخزنة - وهم كالبوابين لأهل النار - أن يدعوا لهم الله

(١) ضعيف الإسناد والمتن منكر. أخرجه البرزّاز ٩٤٥ والحاكم ٢٥٣/٢ والبيهقي في «الشعب» ٢٨١. قال البرزّاز: لا نعلم رواه إلا ابن مسعود، ولا له إلا هذا الطريق عنه. وقال الحاكم: صحيح. وتعقبه الذهبي بقوله: عتبة - بن يقظان - وإو. وقال البيهقي: في إسناده من لا يحتج به. وقال الهيثمي في «المجمع» ٤٦٢١: عتبة فيه كلام، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وذكره الذهبي في الميزان ٥٤٨٠ في ترجمة عتبة، وقال: قواه بعضهم، وقال النسائي: غير ثقة. وقال علي بن الحسين بن الجنيد: لا يساوي شيئاً. وقال الذهبي بعد أن ساق الحديث: والخبر منكر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٧٩ ومسلم (٢٨٦٦) (٦٥) والنسائي ١٠٧/٤ - ١٠٨ وأحمد ١١٣/٢ وابن حبان ٣١٣٠.

تعالى في أن يُخَفَّفَ عن الكافرين. ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة راذين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْيِكُمْ رَسُولَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا قَادَعُوا﴾، أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نؤد خلاصكم، ونحن منكم بُرَاء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعو، لا يستجاب لكم ولا يُخَفَّفَ عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دَعَتُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: في ذهاب، لا يُتَقَبَّل ولا يُسْتَجَاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء قتلهم قومه بالكُفْيَةِ كيحیی وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصر في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخير خراج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما قتل بقتله يحيى وزكريا وشعيا، سلط عليهم من أعدائهم من أهائهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذ الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح - عليه السلام - من اليهود، فسَلَطَ الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم، وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماماً عادلاً، وحكماً مقيسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرّة عظيمة، وهذه سنّة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم.

[٥٨٦٦] ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «يقول الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَىٰ رَجُلًا مِّنْ أُمَّةٍ»^(١).

[٥٨٦٧] وفي الحديث الآخر: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب»^(٢). ولهذا أهلك الله تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشبايهم وأضرابهم، ممن كذب الرسل

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البغوي في «شرح السنة» ١٢٤٢ وفي «التفسير» ١٨٧٧ - بترقيمي - من حديث أنس، وإسناده ضعيف جداً، فيه الحسن بن يحيى الخشني عن صدقة الدقيقي، وهما ضعيفان، وفيه هشام الكافي ضعيف، والمتن منكر بهذا اللفظ، والصواب ما قبله.

وخالَفَ الحقَّ. وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين، فلم يُهلك منهم أحداً، وعَذَّبَ الكافرين، فلم يُفَلِّتْ منهم أحداً. قال السدُّيُّ: لم يبعثَ الله رسولاَ قطُّ إلى قومٍ فَيَقْتُلُونَهُ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فَيَقْتُلُونَ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعثَ الله تعالى لهم من ينصرهم، فَيَطْلُبُ بدمانهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقْتَلُونَ في الدنيا، وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله نبيه محمداً - ﷺ - وأصحابه على من خالفه وناواه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قَوْمِهِ إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وحذلهم له، وقتل صنائديهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مُقَرَّنِينَ في الأصفاذ. ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مُدَّةٍ قريبة فَتَحَ عليه مكة، فَقَرَّتْ عينه ببلده، وهو البلد المحرَّم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجا. ثم قبضه الله - تعالى - إليه، لِمَا له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خُلَفَاءَ بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله عز وجل. وفتحوا البلاد والزساق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾، أي: يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الشهداء: الملائكة. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ٥٢﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقرأ آخرون: «وَيَوْمَ» بالرفع. كأنه فسره به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ، وهم المشركون ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾، أي: الإبعاد والطرُد من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وهي النار، قاله السدُّيُّ، بنس المنزل والمقيل. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، أي: سوء العاقبة. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾، وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والثور، ﴿وَأَوْزَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾، أي جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحوصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله تعالى وأتباع رسوله موسى - عليه السلام - وفي الكتاب الذي أورثوه - وهو التوراة ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ٥٤﴾، وهي: العقول الصحيحة السليمة. وقوله عز وجل: ﴿فَأَمْسِرْ﴾، أي: يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: وعدناك أنا سنُعطي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن أتبعك، والله لا يُخلف الميعاد. وهذا الذي أخبرناك به حق لا مزينة فيه ولا شك. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾، هذا تهيب على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾، أي: في أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَاللَّيْلِ﴾، وهي أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾، أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾، أي: ما في صدورهم إلا كبر على أتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾، أي: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ هُوَ السَّكِينُ البَصِيرُ﴾، أو: من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾، قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم

يَمْلِكُونَ بِهِ الْأَرْضَ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - ﷺ - أَمْرًا لَهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّجَالِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّعِيغُ الْبَصِيرُ﴾. وَهَذَا قَوْلٌ غَرِيبٌ، وَفِيهِ تَعَسُّفٌ بَعِيدٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي كِتَابِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى مُنْبِئًا عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَلَقَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدَأَةً وَإِعَادَةً، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ إِلَهًا مِثْلَ مَا يَتَّخِذُ بَنَاتِهِ إِنَّمَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ فَهَذَا لَا يَتَدَبَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ، اسْتِبْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَقَدْ اعْتَرَفُوا بِمَا هُوَ أَوْلَى مِمَّا أَنْكَرُوا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أَي: كَمَا لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا وَالْبَصِيرُ الَّذِي يَرَى مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بِبَصَرِهِ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ وَالْكَافِرَةُ الْفُجَّارُ، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أَي: مَا أَقَلُّ مَا يَتَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ﴾، أَي: لِكَائِنَةِ وَوَاقِعَةٍ، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَي: لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا، بَلْ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، حَدَّثَنَا أَشْهَبُ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ شَيْخٍ قَدِيمٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ - قَدِيمٍ مِنْ قَدِيمٍ - قَالَ: سَمِعْتُ أَنَّ السَّاعَةَ إِذَا دَنَّتْ اشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَى النَّاسِ، وَاشْتَدَّ حُرُّ الشَّمْسِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَكَرَّمِهِ: أَنَّهُ نَذَّبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: يَا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مِنْ سَأَلِهِ فَأَكْثَرَ سُؤَالِهِ، وَيَا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبُّ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَيَسْئَلُ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ!

وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ ثَلَاثًا لَمْ تُعْطَهُنَّ أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ إِلَّا نَبِيٌّ: كَانَ إِذَا أُرْسِلَ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ شَاهِدٌ عَلَى أُمَّتِكَ، وَجَعَلْتُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: لَيْسَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ادْعُنِي أَسْتَجِبْ لَكَ، وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

[٥٨٦٨] وَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو يَغْلَى أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْمُثَنَّى الْمَوْصِلِيُّ فِي مَسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو إِبْرَاهِيمَ التَّرْجَمَانِيُّ، حَدَّثَنَا صَالِحُ الْمُزَنِّي قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَحْدُثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ

النبي - ﷺ -، فيما يروي عن ربه - عَزَّ وَجَلَّ - قال: «أربع خصالٍ، واحدةٌ منهنَّ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ فيما بيني وبينك، وواحدةٌ فيما بينك وبين عبادي: فأما التي لي فتعبدني لا تُشرك بي شيئاً، وأما التي لك عليّ فما عملتَ من خيرٍ جزيتُك به، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاءُ وعليّ الإجابةُ، وأما التي بينك وبين عبادي فأرض لهم ما ترضى لنفسك»^(١).

[٥٨٦٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن دَرِّ، عن يُسيع الكِندي، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إن الدعاءَ هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿أَدْعُوَنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢). وهكذا رواه أصحابُ السنن: الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، كلُّهم من حديث الأعمش، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». ورواه أبو داود، والترمذي والنسائي، وابن جرير أيضاً، من حديث شعبة، عن منصورٍ والأعمش كلاهما عن دَرِّ به، وكذا رواه ابن يونس عن أسيد بن عاصم بن مهران حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا سفيان الثوري عن منصور، عن دَرِّ. به. ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد».

[٥٨٧٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثني أبو مُليح المدني - شيخ من أهل المدينة - سمعه عن أبي صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «من لم يدعُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - غَضِبَ الله عليه»^(٣). تفرد به أحمد، وهذا إسنادٌ لا بأسَ به.

[٥٨٧١] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا مزوانُ الفَرَارِيُّ، حدثنا ضبيح أبو المُلح: سمعتُ أبا صالح يُحدث عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «مَنْ لا يسأله يغضبُ عليه»^(٤). قال ابنُ معين: أبو المُلح هذا اسمه: ضبيح. كذا قيده بالضمُّ عبد الغني بن سعيد. وأما أبو صالح هذا فهو الخوزي، سكنَ شعب الخوز، قاله البزار في مُسنده. وكذا وَقَعَ في روايته أبو المُلح الفارسي، عن أبي صالح الخوزي، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «من لا يسأل الله يغضبُ عليه».

[٥٨٧٢] وقال الحافظُ أبو محمد الحسنُ بنُ عبد الرحمن الزَّاهِرِيُّ: حدثنا هَمَّام، حدثنا إبراهيم بن الحسن، حدثنا نائلُ بن نجيع، حدثني عائذُ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مَسَلَمَةَ الأنصاري وجدنا في ذُؤابة سيفه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسولَ الله - ﷺ - يقول: «إن لربكم في بقية أيامٍ دهرٍكم نفحاتٍ، فَتَعَرَّضُوا له، لعلَّ دعوةً أن تُوافِقَ رحمةً فيسعدَ بها صاحبها سعادةً لا يخسرُ

(١) أخرجه أبو يعلى ٢٧٥٧ والبزار ١٩ من حديث أنس، وقال: تفرد به صالح المزني. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥١: في إسناده صالح المري، وهو ضعيف. وله شاهد أخرجه الطبراني ٦١٣٧ من حديث سلمان، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٥٢: فيه حميد بن الربيع، وثقة غير واحد، لكنه مدلس، وفيه ضعف. وقال في «المجمع» ١٧٢١١: رواه البزار عن حميد بن الربيع عن علي بن عاصم، وكلاهما ضعيف، وقد وثقا.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٧٩ والترمذي ٣٢٤٧ وأحمد ٢٦٧/٤ وابن حبان ٨٩٠، وتقدم.

(٣) تقدم الكلام عليه. وهو حديث لا بأسَ به كما ذكر ابن كثير رحمه الله.

(٤) مضى الكلام عليه. وكذا ما بعده.

بعدها أبداً^(١). وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دُعائي وتوحيدي، ﴿سَيَذَلُونُ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي: صاغرين حقيرين، كما قال الإمام أحمد:

[٥٨٧٣] حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي - ﷺ - قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ - يُقَالُ لَهُ: بُولَس - تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ عُصَارَةَ أَهْلِ النَّارِ»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس قال: سمعت أبي يحدث عن وهيب بن الورد: حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفاً من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب، عجبك لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك! يا رب، عجبك لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك - قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطائفة الكبرى - قال: ثم عاد الثانية فقال: يا رب، عجبك لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك برضا غيرك. قال وهيب: وهذه الطائفة الكبرى. قال: فناديته: أجنبي أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك بما يغنيك عما لا يغنيك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى مُثَمَّنًا على خَلْقِهِ بما جَعَلَ لهم من اللَّيْلِ الذي يَسْكُونُونَ فِيهِ وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِ تَرُدُّهُمْ فِي الْمَعَايِشِ بِالنَّهَارِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا، أي: مُضِيئًا، لِتَبْصُرُوا فِيهِ بِالْأَسْفَارِ، وَقَطَعَ الْأَقْطَارَ، وَالتَّمَكَّنَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: الذي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، خَالِقُ الْأَشْيَاءِ، الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ، الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا، بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَنْحُوتَةٌ.

وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(١)، أي: كما ضلَّ هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين قبلهم فَعَبَدُوا غَيْرَهُ بِلا دَلِيلٍ وَلَا بَرَهَانَ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى، وَجَحَدُوا حُجَجَ

(١) أخرجه الراهرمزي ٦١٥ وفي إسناده نائل بن نجيع، وهو ضعيف. وورد من طريق آخر أخرجه الطبراني ٢٣٣/١٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٧١٣: فيه من لم أعرفه، ومن عرفتهم وتفقوا، وله شاهد من حديث أنس أخرجه الطبراني ٧٢٠ وقال في «المجمع» ١٧٧١٤: رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى، وهو ثقة اه وفيه انقطاع بين صفوان بن سليم وأنس، فإنه لم يسمع منه كما قال أبو حاتم. وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» ٢٧ وفيه راو لم يسم، لكن الحديث يحسن بهذا الطريق والشاهدين، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد ١٧٩/٢ وإسناده حسن، لكن في المتن غرابة منها لفظ «بولس» فليست بعبوية، ولعل الأشبه وقفه، وقد تقدم.

الله وآياته . وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ، أي : جعلها لكم مستقرًا ، بساطًا ومهادًا تعيشون عليها ، وتتصرفون فيها ، وتمشون في مناكبها ، وأرساها بالجبال لثلاث تמיד بكم ، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ ، أي : سقفاً للعالم محفوظاً ، ﴿وَوَرَزَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ ، أي : فخلقكم في أحسن الأشكال ، ومنتحكم أحسن الصور في أحسن تقويم ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ، أي : من المأكول والمشرب في الدنيا . فذكر أنه خلق الدار ، والسكان ، والأرزاق ، فهو الخالق الرازق ، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ، أي : فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم .

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، أي : هو الحيُّ أولاً وأبداً ، لم يزل ولا يزال ، وهو الأول والآخِرُ ، والظاهر والباطن ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، أي : لا نظير له ولا عديل له ، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ، أي : مؤخدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : لا إله إلا الله ، أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين ، عملاً بهذه الآية . ثم روى عن مُحَمَّد بن علي بن الحسن بن شقيق ، عن أبيه ، عن الحسين بن واقد ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . وقال أبو أسامة وغيره ؛ عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جببير قال : إذا قرأت : ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ، فقل : لا إله إلا الله ، وقل على أثرها : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

[٥٨٧٤] قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا هشام - يعني ابن عروة بن الزبير - عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله؟ لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال : وكان رسول الله ﷺ يهمل بهنَّ دبر كل صلاة^(١) .

[٥٨٧٥] ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة ، وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثهم عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(١) ، وذكر تمامه .

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله عز وجل ينهى أن يُعبد أحد سواه من

الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه، في قوله جلت عظمته: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾، أي: هو الذي يُقَلِّبكم في هذه الأطوارِ كُلِّها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدييره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾، أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تُسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يُتَوَفَّى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَنْعَامِ مَا نَفَسْنَا إِلَيْكَ لَأَجَلَ مُسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قال ابن جريج: تتذكرون البعث. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: هو المنفرد بذلك، لا يقدرُ على ذلك أحدٌ سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: لا يُخالف ولا يُمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يَصْرِفُونَ﴾ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَمَ لِي فِي مَا أُورِثْتُمْ أَنَّكُمْ كَانْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تُضَرَفُ عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾، أي: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب - جل جلاله - لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُؤْيِيَهُ لِلْمُكَذِبِينَ﴾ (٦٩).

وقوله عز وجل: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ﴾، أي: مُتَّصِلَةٌ بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم. ولهذا قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾، كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤٣) يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حَمِيمٍ مَرْمَرٍ ﴿٤٣﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٤].

وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨) [الصفات: ٦٨] وقال عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ (٤١) فِي سُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَطِلَافٍ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنِّي أَلَمَّاؤُا الْكَافِرُونَ﴾ (٥١) لِأَكُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُوقِرٍ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَمِنَّا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَدْرُونَ عَلَيْهِ مِنْ لَغِيمٍ ﴿٥٤﴾ فَتَدْرُونَ شَرِبَ الْغِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا تَزْلَمُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٥٦﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٦]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ﴾ (٦٢) طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٦٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطُونِ ﴿٦٥﴾ كَقَلْبِ الْحَمِيمِ ﴿٦٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْيُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٦٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٦٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٧٠﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، أي: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهمك والاستهزاء بهم.

[٥٨٧٦] قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن مبيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير بن طلحة الجذامي، عن خالد بن دوزك، عن يعلى بن مثنى - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - قال: «ينشأ الله عز وجل سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أي شيء تطلبون؟ فيذكرون

بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بارد الشراب. فتمطرهم أغلالاً تزيد في أغلالهم، وسلايل تزيد في سلايلهم، وجرماً يلهب النار عليهم^(١). هذا حديث غريب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي: ذهبوا فلم ينفَعونا، ﴿بَلْ لَوْ تَكُنْ تُدْعَوْنَ مِنْ قِبَلِ سَيِّئًا﴾، أي: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٢٣]. ولهذا قال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَحْرَجُونَ ﴿٧٥﴾﴾، أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، وفرحكم وأسرركم وبطركم، ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كَفَرْتُمْ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾، أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، وأتباع دلائله وحججه. والله أعلم.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُزِيتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا نُرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى أمرأ رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَكَيْمَا نُزِيتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، أي: في الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته، - ﷺ - .

وقوله عز وجل: ﴿أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا نُرْجِعُونَ﴾، أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة. ثم قال تعالى مسلماً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، كما قال جل وعلا في سورة النساء: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَتَكْفُرَ بِهِ إِنَّه كَانَ يَكْفُرًا عَظِيمًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صِدْقِهِ فيما جاءهم به، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين، ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾، فينبجو المؤمنون، ويهلك الكافرون، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ أَلْفِكَ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وَرَبِّكُمْ ءَايَاتِهِ فَآيَ ءَايَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

(١) إسناده ضعيف . أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ١٨٥٩٨ وقال الهيثمي: وفيه من فيه ضعف قليل، ومن لم أعرفه اهـ . قلت: وخالد بن دريك ذكره الذهبي في «الميزان» ٢٤١٩، وقال: رواه عن الصحابة مرسله . وقال المنذري في «الترغيب» ٥٣٩٢: وقد روي موقوفاً عليه - أي على يعلى - وهو أصح اهـ .

يقول تعالى مُمتناً على عباده بما خَلَقَ لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تُركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأنتقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويُشرب لبنها، وتُحَرِّثُ عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويُشرب لبنها. والجميع تُجْزُ أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والامتعة، كما فُضِّلَ بَيْنَ فِي أَمَاكِنَ تَقْدَمُ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَسُورَةِ النَّحْلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَاهُنَا: ﴿يَلْزَكُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٨) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَمَلِكُوا عَلَيْهَا حَامَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَكَلَّ الْفَالِكُ تَحْمَلُونَ﴾. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَرَبِّكُمْ آيَاتٍ﴾، أَي: حُجَّجَهُ وَبَرَاهِينَهُ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ، ﴿فَأَنَّى آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ؟﴾ أَي: لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ إِنكَارِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهِ، إِلَّا أَنْ تُعَانِدُوا وَتُكَابِرُوا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥)

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْأُمَّمِ الْمَكْدُوبَةِ بِالرُّسُلِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، وَمَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، مَعَ شِدَّةِ قُوَّاهُمْ، وَمَا أَثْرُوهُ فِي الْأَرْضِ، وَجَمَعُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَا زَدَّ عَنْهُمْ دَرَّةً مِنْ بَأْسِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ، وَلَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ، وَاسْتَعْتَبُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَعْمِهِمْ عَمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، لَنْ تُبْعَثَ وَلَنْ نُعَذَّبَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِجَهَالَتِهِمْ، فَأَتَانَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لَا يَقْبَلُ لَهُمْ بِهِ. ﴿وَحَافَ بِهِمْ﴾، أَي: أَحَاطَ بِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أَي: يَكْذِبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقَوْعَهُ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، أَي: عَاشَرُوا وَقَوْعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، أَي: وَحَدُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَفَرُوا بِالطَّاعُونَ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تُقَالُ الْعَثْرَاتُ، وَلَا تَنْفَعُ الْمَعْذِرَةُ. وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ: ﴿ءَأَمَّنْتُ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَلْفَنَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) [يونس: ٩٠ - ٩١]. أَي: فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَجَابَ لِنَبِيِّهِ مُوسَىٰ دُعَاةً عَلَيْهِ حِينِ قَالَ: ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَىٰ هَاهُنَا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾، أَي: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَةِ الْعَذَابِ، أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ.

[٥٨٧٧] وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْزَغْ»^(١)، أَي: إِذَا عَزَّ وَجَلَّ وَبَلَغَتِ الرُّوحُ الْحَنْجَرَةَ، وَعَايَنَ الْمَلَكُ، فَلَا تَوْبَةَ حَيْثُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر». والله الحمد والمنة



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عِمَلُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾، يعني: القرآن مُنْزَلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا لِقَوْمِكَ الْوَعْدَ عَلَىٰ رُوحِ أَمِينٍ ﴿١٥٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، أَي: بَيَّنَّتْ مَعَانِيهِ وَأَحْكَمَتْ أَحْكَامَهُ، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أَي: فِي حَالِ كَوْنِهِ لَفْظًا عَرَبِيًّا، بَيِّنًا وَاضِحًا، فَمَعَانِيهِ مَفْصُلةٌ، وَالْفَاظُهُ وَاضِحَةٌ غَيْرُ مُشْكَلَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، أَي: هُوَ مُعْجِزٌ مِنْ حَيْثُ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤١﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أَي: إِنَّمَا يَعْرِفُ هَذَا الْبَيَانَ وَالرُّوْحُ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أَي: تَارَةً يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يُنذِرُ الْكَافِرِينَ، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أَي: أَكْثَرُ قُرَيْشٍ، فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا مَعَ بَيَانِهِ وَوَضُوحِهِ، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾، أَي: فِي غُلْفٍ مُعْطَاةٍ ﴿مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أَي: صَمَّمْ عَمَّا جِئْنَا بِهِ، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُ، ﴿فَأَعْمَلْنَا عِمَلُونَ﴾، أَي: اعْمَلْ أَنْتَ عَلَى طَرِيقَتِكَ، وَنَحْنُ عَلَى طَرِيقَتِنَا لَا نَتَابِعُكَ.

[٥٨٧٨] قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَمُ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ فِي مَسْنَدِهِ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، عَنِ الْأَجْلَحِ، عَنِ الذِّيَالِ بْنِ حَزْمَلَةَ الْأَسَدِيِّ، عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: انظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسَّحَرِ وَالْكَهَانَةِ وَالشَّعْرِ، فَلَيَاتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتْ أَمْرَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، فَلْيَكَلِّمَهُ وَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَزِدُّ عَلَيْهِ؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ. فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ. فَأَتَاهُ عُتْبَةُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أُمَّ عَبْدِ الْمَطْلُبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. - فَقَالَ: فَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَوْلَاءَ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَدْ عَبَدُوا آلِهَةَ الَّتِي عِبْتُ، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلِّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ، إِنْ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةَ قَطْ أَشَامَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْكَ، فَزَوَّجَتْ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتْ أَمْرَنَا، وَعِبْتُ دِينَنَا، وَفَضَحْنَا فِي الْعَرَبِ، حَتَّى لَقِدْ طَارَ فِيهِمْ أَنْ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنْ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا! وَاللَّهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْجُبَلِيِّ أَنْ يَقَوْمَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسِّيُوفِ، حَتَّى

تفتانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جَمَعْنَا لك حتى تكونَ أغنى قريش رجلاً واحداً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول الله - ﷺ -: «فَرَعْتَ؟» قال: نعم. فقال رسول الله - ﷺ -: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (٣)﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كَلَّمْتُهُ. قالوا: فهل أجابك؟ قال: لا، والذي نَصَبَهَا بَيْتِي ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه أنذرکم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ و ثمودَ. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة^(١). وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده، مثله سواء.

[٥٨٧٩] وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل، عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي - وقد ضَعَفَ بعض الشيء، عن الذبالب بن حزملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (٣)﴾. فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبات إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يُعِينُكَ عن طعام محمد. فغَضِبَ عتبة، وأقسم ألا يكلم محمد أبداً، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً. ولكني أتيتُه وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (٣)﴾، فأمسكت بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فحَسِبْتُ أن ينزل بكم العذاب^(٢). وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى، والله تعالى أعلم.

[٥٨٨٠] وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب «السيرة» على خلاف هذا النمط، فقال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله - ﷺ - جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها، فنُعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ وَيَكْفُفْ عَنَّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله - ﷺ - يزيدون ويكثرُونَ، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا ابن أخي، إنك متنا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بامرٍ عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مَضَى من آباءهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله - ﷺ -: «قل يا أبا الوليد أسمع». قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٢٩٥/١٤ وأبو يعلى ١٨١٨ والحاكم ٢٥٣/٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢٠٢/٢ - ٢٠٤ وإسناده لين. قال الهيثمي في «المجمع» ٢٠/٦: فيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره اهـ. ويشهد لأكثره ما بعده وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البغوي في «التفسير» ١٨٦٣ - بترقيمي - وإسناده لين كسابقه، وانظر ما بعده.

تريدُ بما جئتُ به من هذا الأمر مالاَ جَمَعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاَ. وإن كنت تُريدُ به شرفاً سَوَدناك علينا، حتى لا تقطع أمراً دونك. وإن كنت تُريدُ به مُلكاً مَلَكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك زِيئاً تراه لا تستطيعُ رُدّه عن نفسك، طلبنا لك الأطباء، وبدلنا فيه أموالنا حتى نُبرِّكَ منه، فإنه ربما غَلَبَ التابع على الرجل حتى يُداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فَرَّغَ عَتَبَةُ ورسولُ الله - ﷺ - يَسْتَمِعُ منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع مني». قال: أفعل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿١﴾ حَدَّثَنَا تَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَيْتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾. ثم مضى رسولُ الله - ﷺ - فيها يقرؤها عليه. فلما سَمِعَ عَتَبَةُ أنصت لها، وألقى يديه خَلْفَ ظهره معتمداً عليهما يَسْمَعُ منه، ثم انتهى رسولُ الله - ﷺ - إلى السجدة منها، فَسَجَدَ، ثم قال: «قد سَمِعْتُ يا أبا الوليد ما سَمِعْتُ، فأنت وذاك». فقام عَتَبَةُ إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نَحْلِفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي دَهَبَ به. فلما جَلَسَ إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: وَرَأَيْتُ أَنِّي قد سَمِعْتُ قولاً والله ما سَمِعْتُ مثله قط، والله ما هو بالسجر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قُرَيْشِ، أَطِيعُونِي واجعلوها لي، خَلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعزِّزْ لُوهُ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سَمِعْتُ نبأ، فإن تُصِبْه العرب فقد كُفِّيْتُمُوهُ بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ مَلِكُكُمْ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وكنتم أسعدَ الناس به، قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(١). وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذِّبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبَّدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، أي: أخلصوا له العبادة على مِثَالِ ما أمركم به على السنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، أي: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: دَمَارٌ لهم وهلاكٌ عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة. وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]. وكقوله جلت عظمته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَا ﴿١١﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥]. وقوله عز وجل: ﴿نَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ﴿١٣﴾﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سُمِّيَتْ زكاةً لأنها تُطَهِّرُه من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات. وقال السدِّي: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، أي: الذين لا يدينون بالزكاة. وقال

(١) أخرجه البيهقي ٢/٢٠٤ - ٢٠٥ عن طريق ابن إسحاق، عن محمد بن كعب مرسلًا. وله شاهد من حديث ابن عمر، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ١٨٥ وكذا البيهقي ٢/٢٠٥ وفيه داود بن زرعة الضبي، وهو لين الحديث، لكن يصلح شاهداً لما قبله.

معاوية بن قُرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات الثُصْب والمقادير فإنما بيّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرّض الله تعالى على رسوله الصلوات الخمس، وفُضِّل شُرُوطها وأركانها وما يتعلّق بها بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، والله أعلم. ثم قال جل جلاله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨)، قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوت. كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْدُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقال السدّئي: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وقد ردّ عليه هذا التفسير بعض الأئمة، فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. وقال أهل الجنة: ﴿قَمَرًا اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ [الطور: ٢٧].

[٥٨٨١] وقال رسول الله - ﷺ -: «إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (١).

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وَيَجْعَلُ فِيهَا رُوسًا مِنْ قَوْفِهَا وَيَمُرُّ فِيهَا قُوتَهَا فِي آثَرِهَا سَوَاءٌ لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَ اللَّهُ بِشَيْءٍ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِشَيْءٍ إِلَّا لِيُحْكُمَ فِيهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ الْأُمُورُ فِي يَوْمٍ أُخِيرَ ﴿١٠﴾ دُخَانٌ فَذَلِكَ لَهَا وَالْأَرْضُ أُنثَى طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنِنَا عَلَيْنَا لَمَّا جَاءْنَا لَعْنَةُ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾، أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففضل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]... الآية. فأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشْدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا سَمَكًا مِنْهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ سَمَكًا مَسُونًا ﴿١٨﴾ وَأَقْبَطَ رَبُّهَا وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً وَمَرَعًا ﴿١٩﴾ وَأَلْبَابًا أَرْسَلْنَا ﴿٢٠﴾ سَمَكًا لَكُمْ وَلَأَنْمِئَكُمْ ﴿٢١﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣]، ففي هذه الآية أن دُخِيَ الأرض كان بعد خلق السماء، فالدُخِي هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً وَمَرَعًا ﴿٣١﴾﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال: وقال المنهال، عن سعيد بن جبيرة قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ يَنْبَهُرَ يَوْمِيذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُونٌ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلُ بِمَعْشَرَ عَلَى بَعْضٍ يَنْسَاءُ لُونٌ﴾ [الصفات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُونُ اللَّهُ

حَدِيثًا ﴿النساء: ٤٢﴾، ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا في هذه الآية. وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلْقًا أَمِ أُنثَىٰ بَنَيْنَا ﴿١٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٠﴾﴾، فذكر خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَكَفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾، فذكر في هذه خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَرًا رَحِيمًا﴾، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿سَيِّمًا بَصِيرًا﴾، فكانه كان ثُمَّ مَضَى. قال - يعني ابن عباس - : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ في النفخة الأولى، ثم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، ﴿فَصَوِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذُنُوبَهُمْ، فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فَيَخْتِمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فعند ذلك عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْتُمُ حَدِيثًا، وعنده ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢]. . الآية. وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثم خَلَقَ السَّمَاءَ، ثم استوى إلى السماء فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، ثم دَحَى الْأَرْضَ، ودَحِيهَا: أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالْجَمَادَ وَالْأَكَامَ وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَخَلَقَتْ الْأَرْضُ وما فيها من شيء في أربعة أيام، وَخُلِقَتْ السَّمَاوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَرًا رَحِيمًا﴾: سَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَي: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلَا يَخْتَلِفَنَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ كَلَامَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ الْبَحَارِيُّ: حَدَّثَنِيهِ يَوْسُفُ بْنُ عَدِيٍّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أَنَيْسَةَ، عَنِ الْمُنْهَالِ - وَهُوَ ابْنُ عَمْرٍو - بِالْحَدِيثِ. فَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، يعني: يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا مِّنْ قَوْفِهَا وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أَي: جَعَلَهَا مَبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ وَالْبَدْرِ وَالْفِرَاسِ، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وَهُوَ: مَا يَحْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي تُرْزَعُ وَتُغْرَسُ - يعني يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ، فَهَمَا مَعَ الْيَوْمَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَّاهُ لِسَائِلِينَ﴾، أَي: لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنِ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جَعَلَ فِي كُلِّ أَرْضٍ مَا لَا يَصْلُحُ فِي غَيْرِهَا، وَمِنْهُ: الْعَضْبُ بِالْيَمَنِ، وَالسَّابِرِيُّ بِسَابُورَ، وَالطَّيَالِسَةُ بِالرَّيِّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقِتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَّاهُ لِسَائِلِينَ﴾، أَي: لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنِ ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَّاهُ لِسَائِلِينَ﴾، أَي: عَلَى وَفِي مُرَادِهِ مَنْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى رِزْقٍ أَوْ حَاجَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ قَدَّرَ لَهُ مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ يُشْبِهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ مِنْ كَلِمَةٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، هُوَ: بُخَارُ الْمَاءِ الْمُتَمَصِّعُ مِنْهُ حِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ، ﴿فَقَالَ لَهَا وَاللَّيْلِ أَنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أَي: اسْتَجِيبِي لِأَمْرِي، وَانْفَعِلِي لِفِعْلِي، طَائِعَتِينَ أَوْ مَكْرَهَتَيْنِ. قَالَ الثَّوْرِيُّ: عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَاللَّيْلِ أَنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾، قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ: أَطْلِعِي شَمْسِي وَقَمْرِي وَنُجُومِي. وَقَالَ لِلْأَرْضِ: شَقَّقِي أَنْهَارِي، وَأَخْرِجِي ثِمَارِي. فَقَالَتْ: أَنْتِ يَا طَائِعَتِينَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - . ﴿قَالَتْ أَنْتِ يَا طَائِعَتِينَ﴾، أَي: بَلْ نَسْتَجِيبُ لَكَ مُطِيعِينَ بِمَا فِينَا، مِمَّا تُرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ جَمِيعًا مُطِيعِينَ لَكَ. حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ: وَقِيلَ: تَنْزِيلًا لَهُمْ مَعَامَلَةٌ مِّنْ يَعْقِلُ بِكَلَامِهِمَا. وَيُقَالُ: إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ مِنَ الْأَرْضِ بِذَلِكَ هُوَ مَكَانُ الْكَعْبَةِ، وَمِنَ السَّمَاءِ مَا يَسَامَتُهُ مِنْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الْحَسُّ الْبَصْرِيُّ: لَوْ أَبْيَا عَلَيْهِ أَمْرُهُ لَعَدَّبَهُمَا عَذَابًا يَجِدَانُ أَلَمَهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، أَي: فَفَرَّغَ مِنْ تَسْوِيَتِهِنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، أَي: آخَرَيْنِ، وَهُمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، أي: وَرَتَّبَ مُقَرَّرًا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وَرَبَّنَا اسْمَأُذَنًا أَبَدًا وَإِبْرَاهِيمَ كَذِبًا﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَجَمْعًا﴾، أي: حَزْسًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أي: العزيز الذي قد عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلَبَهُ وَقَهَرَهُ، العليمُ بجميع حركاتِ المخلوقاتِ وسكناتهم.

[٥٨٨٢] قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس - قال هناد: قرأت سائر الحديث أن اليهود أتت النبي - ﷺ - فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والحراب - فهذه أربعة. ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَاعِلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْقَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّاعِلِينَ﴾ ﴿١٤﴾: لمن سأل - قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا: ثم استراح، فغضب النبي - ﷺ - غضباً شديداً، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ﴿١٥﴾ فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [ق: ٣٨ - ٣٩]. هذا الحديث فيه غرابة.

[٥٨٨٣] فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله - ﷺ - بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» ﴿٢٦﴾. فقد رواه مسلم والنسائي في كتابيهما، من حديث ابن جريج، به. وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّه البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة، عن كعب الأحمري، وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُعَذِّبَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَبَحَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ ﴿١٨﴾

(١) وإسناد الحديث ضعيف والمتن منكر. أخرجه الطبري ٣٠٤٢٩، ورجاله ثقات سوى أبي سعيد البقال، واسمه سعيد بن المرزبان، قال الذهبي في «الميزان» ٣٢٧١: تركه الفلاس، وقال ابن معين: لا يكتب حديثه. وقال أبو زرعة: صدوق، مدلس، وقال البخاري: منكر الحديث اهـ.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٨٩ وغيره، وتقدم الكلام عليه، وأنه لا يصح مرفوعاً، وهو أحد غرائب مسلم.

يقول تعالى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ: إِنْ أَعْرَضْتُمْ عَمَا جِئْتَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنْذِرْكُمْ حُلُولَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ، كَمَا حَلَّتْ بِالْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ بِالْمَرْسَلِينَ ﴿صَوِّفَةٌ يَثَلُ صَوِّفَةً عَادَ وَتَمُودَ﴾، أي: وَمَنْ شَاكِلَهُمَا يَمُنَّ فَعَلَّ كَفَعْلَهُمَا، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفَتِهِمْ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذَكَّرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُمُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتْ أَنْذَرْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَبَيْنَ خَلْفَتِهِ﴾ [الأحفاف: ٢١]، أي: فِي الْقُرَى الْمَجَاوِرَةَ لِبِلَادِهِمْ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُبْتَشِرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَرَأَوْا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّقْمِ، وَمَا أَلْبَسَ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النَّعْمِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَقُوا، بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا، وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: لَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ رُسُلًا لَكَانُوا مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ﴾، أي: أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿كُفْرُونَ﴾، أي: لَا تَتَّبِعْكُمْ وَأَنْتُمْ بِشَرٌ مِثْلُنَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّا عَادًا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بَعَوْا وَعَتَوْا وَعَصَوْا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: مَتَرُوا بِشِدَّةِ تَرْكِيبِهِمْ وَقُوَاهُمْ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: أَمَّا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ؟ فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قُوَاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا، وَإِنْ بَطَشَهُ شَدِيدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّمْلَةَ بَنِينَهَا يَأْتِيهِمْ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [الذاريات: ٤٧]، فَبَارَزُوا الْجَبَّارَ بِالْعَدَاوَةِ وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ الشَّدِيدَةُ الْهَيُوبُ. وَقِيلَ: الْبَارِدَةُ. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لَهَا صَوْتٌ. وَالْحَقُّ: أَنَّهَا مُنْصِفَةٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ رِيحًا شَدِيدَةً قُوَّةً، لِيَتَكُونَ عَقُوبَتُهُمْ مِنْ جِنْسٍ مَا اغْتَرَّوْا بِهِ مِنْ قُوَاهُمْ، وَكَانَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةً الْبَرْدِ جَدًّا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِرِّيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، أي: بَارِدَةً شَدِيدَةً، وَكَانَتْ ذَاتَ صَوْتٍ مُزْجِجٍ، وَمِنْهُ سَمِيَ النَّهْرُ الْمَشْهُورُ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ صَرْصَرًا، لِقُوَّةِ صَوْتِ جَرِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي آيَاتِهِ لِحِكْمَاتٍ﴾، أي: مُتَنَابِعَاتٍ، ﴿سَجَّحَ لِيَالٍ وَكَمِينَةَ آيَاتِهِ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كَقَوْلِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ نَخِيسُ مَسْتَبِيرًا﴾ [القمر: ١٩]، أي: ابْتَدَيْتُمْ بِهَذَا الْعَذَابِ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ هَذَا النَّحْسُ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، حَتَّى أَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَأَتَّصَلَ بِهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالْآخِرَةُ أَشَدُّ خِزْيًا لَهُمْ، وَهُمْ لَا يُبْصَرُونَ﴾، أي: فِي الْآخِرَةِ كَمَا لَمْ يُبْصَرُوا فِي الدُّنْيَا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ وَيُدْرَأُ عَنْهُمْ النِّكَالَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ: بَيَّنَّا لَهُمْ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: دَعَوْنَاهُمْ. ﴿فَاسْتَجَبُوا أَعْمَى عَلَى الْهَدْيِ﴾، أي: بَصُرْنَاهُمْ، وَبَيَّنَّا لَهُمْ، وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَعَقَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعِلَامَةً عَلَى صَدِيقِ نَبِيِّهِمْ، ﴿فَأَعَدَّتْهُمْ صَوِّفَةً الْعَذَابِ الْهَوُونَ﴾، أي: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صِيحَةً وَرَجْفَةً وَذُلًّا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنِكَالًا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ. ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، لَمْ يَمْسُهُمْ سُوءٌ، وَلَا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرْرٌ، بَلْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ بِإِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ لِقَاءَ اللَّهِ، - عَزَّ وَجَلَّ - .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ حَقٌّ إِذَا مَا جَاءَ وَهِيَ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ سَمِعْتُهُمْ وَأَبْصَرْتُهُمْ وَجَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لِيَجْلُوذِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ بَصُرُوا فَأَلْتَارُ مَتَوَى لَكُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾، أي: اذْكَرْ لهؤلاء المشركين يوم يُحْشَرُونَ إلى النار، ﴿يُوزَعُونَ﴾، أي: تَجَمُّعُ الزبانيةِ أَوْلَهُمْ على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٨٦]، أي: عطاشاً. وقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: وَقَفُوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: بأعمالهم مما قَدَّمُوهُ وَأَخْرُوهُ، لا يُكْتَمُ منه حَرْفٌ. ﴿وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾ أي: لأموا أعضاءهم وجُلُودَهُمْ حين شَهِدُوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: فهو لا يُخَالَفُ ولا يُمَانِعُ، وإليه تُرْجَعُونَ.

[٥٨٨٤] قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا علي بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المكيب، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: ضحك رسول الله ﷺ - ذات يوم وتبسّم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكتم؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكتم؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربّه يوم القيامة، يقول: أي ربّي، أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردّد هذا الكلام مراراً. قال: فيختم على فيه، وتتكلّم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، عنكُنَّ كنتُ أجادل»^(١). ثم رواه هو وابن أبي حاتم، من حديث أبي عامر الأسدي، عن الثوري، عن عبيد المكيب، عن فضيل بن عمرو، عن الشعبي. ثم قال: لا نعلم رواه عن أنس غير الشعبي. وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن الثوري، به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً رواه عن الثوري غير الأشجعي. وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن علية، عن يونس بن عبيد، عن حميد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى: ويُدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربّه - عزّ وجلّ - عمله، فيجحد ويقول: أي ربّ، وعزّيتك لقد كتبت عليّ هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزّيتك، أي ربّ ما عملته! فإذا فعل ذلك ختم على فيه. قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فيخذه اليمنى.

[٥٨٨٥] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا حسن، عن ابن لهيعة: قال درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ - قال: «إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُصيبتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبي يقول: حدثنا علي بن زيد، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن ابن عباس أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤدّن لهم، ثم يؤدّن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم

(١) تقدم الكلام عليه، إسناده حسن رجاله ثقات.

(٢) تقدم الكلام عليه، وفي الباب أحاديث.

الأفواه فتُخاصِمُ الجوارح، فتقول: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَآئِهِ تَرْجِعُونَ﴾، فَتَقْرَأُ الألسنةُ بعد الجُحود.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبْدَةُ بن سليمان، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا صَفْوَانُ بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَيْرِ الحضرمي، عن رافع أبي الحسن - وصف رجلاً جَحَدَ - قال: فَيُشِيرُ اللهُ تعالى إلى لسانه، فَيُرَبُّو فِي فمه حتى يملأه، فلا يستطيعُ أن ينطق بكلمة، ثم يقول لآرابه كلها: تَكَلِّمِي واشهدي عليه. فَيَشْهَدُ عليه سمعُه، وبصرُه، وجلدُه، وفرجُه، ويداُه، ورجلاه: صَنَعْنَا، عَمَلْنَا، فَعَلْنَا. وقد تقدّم أحاديثُ كثيرة، وأتاز عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾﴾، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

[٥٨٨٦] وقال ابنُ أبي حاتم - رَحِمَهُ اللهُ - حدثنا أبي، حدثنا سُؤَيْدُ بن سَعِيدٍ، حدثنا يحيى بن سُلَيْمِ الطائفي، عن ابن حُثَيْمٍ، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رَجَعْتُ إلى رسول الله - ﷺ - مهاجرةً البحر قال: «أَلَا تُحَدِّثُونَ بِأَعْجَابِي مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الحَبْشَةِ؟» فقال فتيةٌ منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحنُ جلوسٌ إذ مرّت علينا عَجُوزٌ من عَجَائِزِ رهايينهم، تحملُ على رأسها قُلَّةً من ماءٍ، فَمَرَّتْ بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كَتِفَيْهَا، ثم دَفَعَهَا فَحَرَّتْ على رُكْبَتَيْهَا، فانكسرت قُلَّتْهَا. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوفَ تعلمُ يا عُدْرُ إذا وَضَعَ اللهُ الكرسي، وَجَمَعَ الأولين والآخريين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوفَ تعلم كيف أمرى وأمرُك عنده غدا؟ قال: يقولُ رسولُ الله - ﷺ -: «صَدَقْتُ، كيف يُقَدِّسُ اللهُ قوماً لا يُؤَخِّدُ لِضَعْفِهِمْ من شديدهم؟!»^(١). هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. ورواه ابنُ أبي الدنيا في «كتاب الأحوال»: أخبرنا إسحاقُ بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سُلَيْمٍ، به. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يُلُومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهزون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم! ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ، أي: هذا الظنُّ الفاسدُ - وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلمُ كثيراً مما تعملون - هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم.

[٥٨٨٧] قال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: كنت مُسْتَبْرَأً بِأَسْتَارِ الكعبة فجاء ثلاثة نَفَرٍ: قُرْشِيُّ، وَخَتْنَاءُ ثَقَفِيَّانَ - أو: ثَقَفِيٌّ وَخَتْنَاءُ قُرْشِيَّانَ - كثيرٌ شحمٌ بطونهم، قليلٌ فقهٌ قلوبهم. فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمعُ كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعُه، وإذا لم نرفعه لم يسمعُه. فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كُلُّهُ. قال: فذكرت ذلك للنبي - ﷺ - فأنزل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢). وكذا رواه الترمذي عن هناد، عن أبي

(١) حسن. في إسناده ابن أبي حاتم، سويد بن سعيد، وهو واه. لكن توبع عند ابن أبي الدنيا كما ترى. ومن فوقه ثقات. وورد من وجه آخر أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٩٠٥٥ وقال الهيثمي: فيه مكي بن عبد الله الرعيني، وهو ضعيف. وله شاهد من حديث بريدة أخرجه البزار ١٥٩٦ وقال الهيثمي ٩٥٠٤: فيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، لكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات. اهـ فالحديث حسن بهذه الطرق والشواهد، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨١٧ ومسلم ٢٧٧٥ والترمذي ٣٢٤٨ وأحمد ٤٤٣/١ - ٤٤٤ وابن حبان ٣٩٠.

معاوية، بإسناده نحوه، وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً، من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن وهب بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - بنحوه. ورواه البخاري ومسلم أيضاً، من حديث السفيانيين، كلاهما عن منصور، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سخبيرة، عن ابن مسعود، به.

[٥٨٨٨] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿سَمِعَكُمْ وَلَا أَبْصَرَكُمْ وَلَا جُلُودَكُمْ﴾، قال: «إنكم تُدعون يوم القيامة مُفدماً على أفواهكم بالفِداء، فأول شيء يُبين عن أحدكم فخذه وكفه». قال معمر: وتلا الحسن - رحمه الله -: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَن يَسْجُدَ لِمَا خَلَقَهُمْ مِنْ بَدَنِهِمْ فَيُحْسِنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِمْ فَأَسَاءَ الظَّنَّ بِاللهِ فَاسَاءَ الْعَمَلُ، ثُمَّ قَالَ: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمِعَكُمْ وَلَا أَبْصَرَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

[٥٨٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص - وهو أبو المغيرة - حدثنا ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظنَّ، فإن قوماً قد أَرادهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)». وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٣)، أي: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويُبدوا أعداراً فما لهم أعدار، ولا تُقال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾، أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم - قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (٤) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (٥) قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُون (٦) [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿وَقِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَثْمًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لِنَجْعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩)

يذكرُ تعالى أنه هو الذي أضلَّ المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَبِضَ لهم من القُرآن من شياطين الإنس والجن: ﴿فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي حَسَنُوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يَرَوْا أنفسهم إلا مُحْسِنِينَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَن

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٢٦٩٩ و ٢٧٠٠ وإسناده صحيح، وقد تقدم.

(٢) فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، صدوق، سيء الحفظ، وتقدم في سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

ذَكَرَ الرَّحْمَنُ نُقِصَ لَمْ سَيَطْلُنَا فَهَوَ لَمْ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّمَا لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]. وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي: كَلِمَةُ الْعَذَابِ كَمَا حَقَّ عَلَى أُمَّمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ، مِمَّنْ فَعَلَ كَفِعْلِهِمْ، مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾، أي: اسْتَوُوا هُمْ وَإِيَّاهُمْ فِي الْخَسَارِ وَالذَّمَارِ. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِنَدَا الْقُرْآنِ﴾، أي: تَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَلَّا يُطِيعُوا لِلْقُرْآنِ، وَلَا يَنْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ، ﴿وَالْقَوْلَا فِيدُ﴾، أي: إِذَا تَلَّى لَا تَسْتَمِعُوا لَهُ. كما قال مجاهد: ﴿وَالْقَوْلَا فِيدُ﴾، يعني بِالْمَكَاءِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْمَنْطِقِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ قَرِيشٌ تَفَعَّلَهُ. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَوْلَا فِيدُ﴾: عَيْبُوهُ. وقال قتادة: اجْحَدُوا بِهِ، وَأَنْكِرُوهُ، وَعَادُوهُ. ﴿لَمَلَكٌ تَقْلِبُونَ﴾: هَذَا حَالُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَمَنْ سَلَكَ مَسَلَكَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ. وقد أمر الله - سبحانه - عبادةَ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. ثم قال تعالى مُتَنَصِّرًا لِلْقُرْآنِ، وَمَنْتَقِمًا مِمَّنْ عَادَاهُ مِنَ أَهْلِ الْكُفْرَانِ: ﴿فَلْيَذَرِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: فِي مِقَابَلَةِ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ وَعِنْدَ سَمَاعِهِ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَسَمِيءِ أَعْمَالِهِمْ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَأْتِينَا بِجَهْدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَصَلْنَا مِنْ الْهِنِ وَالْإِنْسِ جَمْعَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾. قال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُصَيْنِ الْفَرَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَصَلْنَا﴾، قَالَ إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ، وَهَكَذَا رَوَى حَبَّةُ الْعُرَيْثِيُّ عَنْ عَلِيٍّ، مِثْلَ ذَلِكَ. وقال السُّدِّيُّ، عَنْ عَلِيٍّ: فإِبْلِيسُ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبِ شِرْكٍ، وَابْنُ آدَمَ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ، فإِبْلِيسُ - لَعْنَةُ اللَّهِ - هُوَ الدَّاعِي إِلَى كُلِّ شَرٍّ مِنْ شَرِّكَ فَمَا دُونَهُ، وَابْنُ آدَمَ الْأَوَّلُ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ:

[٥٨٩٠] «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١). وقوله: ﴿يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾، أي: أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ لِيَكُونَ أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾، أي: فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ مِنْ سُؤَالِ الْأَتْبَاعِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُعَذَّبَ قَادَتَهُمْ أَضْعَافَ عَذَابِهِمْ، قَالَ: ﴿لِكُلِّ صِغْفُورٍ وَلَكِنْ لَا تَمْلَأُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، بِحَسَبِ عَمَلِهِ وَإِسْفَادِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ زَئِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ تَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٦﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾، أي: أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ، وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ.

[٥٨٩١] قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الجراح، حدثنا سلم بن قتيبة أبو قتيبة الشعميري، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا»، وقال: «قد قالها ناسٌ ثم كَفَرُوا أَكْثَرُهُمْ، فَمَنْ قالها حتى يموتَ فقد استقام عليها»^(١). وكذا رواه النسائي في تفسيره، والبزازی وابن جرير، عن عمرو بن علي الفلاس، عن سلم بن قتيبة، به. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد عن سعيد بن عمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً. ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه - ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ من ذنب. فقال: لقد حَمَلْتُمُوهَا عَلَى غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، أخبرنا حفص بن عمر العدني، عن الحَكَم بن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس - رضي الله عنهما - أي آية في كتاب الله أرخص؟ قال: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعلب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: أخلصوا له العمل والدين.

[٥٨٩٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفي، عن أبيه، أن رجلاً قال: يا رسول الله، مُرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنتُ بالله، ثم استقم»، قلت: فما أتقي؟ فأوماً إلى لسانه^(٢). ورواه النسائي من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به.

[٥٨٩٣] ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعيد، حدثني ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدي، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصمُ به. قال: «قل: رَبِّيَ اللهُ، ثم استقم». قلتُ: يا رسول الله، ما أكثر ما تخافُ عليّ؟ فأخذ رسولُ الله - ﷺ - بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(٣). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح»:

[٥٨٩٤] وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنتُ بالله، ثم استقم»^(٤). وذكر تمام الحديث. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، قال مجاهد، والسدي،

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٥٠ والنسائي في «التفسير» ٤٩٠ وأبو يعلى ٣٤٩٥ والطبري ٣٠٥١٦ ومداره على سهيل بن أبي حزم، وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٤١٣/٣ - ٣٨٤ والدارمي ٢٩٦/٢ وابن حبان ٥٦٩٨ وإسناده صحيح، وله طرق.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٤١٠ والطيالسي ١٢٣١ وأحمد ٤١٣/٤ وابن ماجه ٣٩٧٢ وإسناده لين لأجل محمد بن عبد الرحمن فإنه مقبول لكن توبع، وللحديث طرق كما ترى.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٣٨ وأحمد ٤١٣/٣ والنسائي في «الكبرى» ١١٤٨٩.

وزيد بن أسلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين ﴿أَلَا تَحْقِرُونَ﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾، على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإننا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فبيشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

[٥٨٩٥] وهذا كما في حديث البراء - رضي الله عنه - : «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجني أيها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، اخرجني إلى روح وريحان، ورب غير غضبان»^(١). وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم، حكاها ابن جرير عن ابن عباس، والسدي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً قرأ سورة حم. السجدة، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تحف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرّة عين، لما هداه الله تعالى، ولما كان يعمل له في الدنيا. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كئنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسدّدكم وتوفّقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة تؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، وتؤمنكم يوم البعث، والنشور، وتجاوز بكم الصراط المستقيم، وتوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ﴾، أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾، أي: مهما طلبتم وجدتم، وحصر بين أيديكم كما اخترتم، ﴿نَزُلًا مِنْ عَفْوِرٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من عفور لذئوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وسر، وزجج ولطف.

[٥٨٩٦] وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزُلًا مِنْ عَفْوِرٍ رَحِيمٍ﴾. فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد، حدثنا الأوزاعي، حدثني حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقي أبا هريرة، فقال أبو هريرة: نسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله - ﷺ - أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله - عز وجل - ويبزر لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أذانهم وما فيهم ذنيء على كئشان المسك والكافور، ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً. قال أبو هريرة: قلت يا رسول الله، وهل ترى ربنا؟ قال: «نعم، هل تتمازون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال - ﷺ - «فكذلك لا تتمازون في رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن

فلان، أتذكر يوم عمِلت كذا وكذا؟ - يذكّره ببعض عَدْرته في الدنيا - فيقول: أي رب، أفلَمْ تَغَيِّرْ لي؟ فيقول: بلى، فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتِكَ هذه. قال: فبينما هم على ذلك عَشِيَتِهِمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طَيِّبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ. قال: ثم يقول ربنا - عَزَّ وَجَلَّ - : قوموا إلى ما أعددْتُ لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم. قال: فنأتي سَوْقًا قد حَفَّتْ به الملائكةُ، فيها ما لم تنظُر العيونُ إلى مثله، ولم تَسْمَعْ الأذانُ، ولم يَخْطُرْ على القلوبِ. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يُباع فيه شيءٌ ولا يُشْتَرى، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً. قال: فيقبل الرجلُ ذو المنزلِ الرفيعةِ، فيلقى مَنْ هو دُونَهُ - وما فيهم ذنبيءٌ - فَيُرَوِّعُهُ ما يرى عليه من اللباسِ، فما ينقضِي آخرُ حديثه حتى يَتَمَثَّلَ عليه أحسنُ منه، وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزَنَ فيها. ثم ننصرفُ إلى منازلنا، فَيَتَلَقَّانَا أزواجنا فيقلن: مرحباً وأهلاً بِحُبِّنا، لقد جئت وإن بك من الجمالِ والطيبِ أفضلُ مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليومُ ربنا الجبار - عَزَّ وَجَلَّ - وَبِحُبِّنا أن نُنْقَلِبُ بمثل ما انقلبنا به^(١). وقد رواه الترمذي في صفة الجنة من جامعِهِ، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار. ورواه ابنُ ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه. ثم قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

[٥٨٩٧] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قلنا: يا رسولَ الله، كُنَّا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهيةَ الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِرَ جاءه البشيرُ من الله بما هو صائرٌ إليه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه من أن يكونَ قد لَقِيَ اللَّهَ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قال: وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حُضِرَ جاءه بما هو صائرٌ إليه من الشرِّ - أو: ما يلقى من الشرِّ - فَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، فَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ^(٢). وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: دعا عبادة الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فَتَقَعُّهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لِأَزْمٍ وَمَتَعَدُّ، وليس هو من الذين يأْمُرُونَ بالمعروف ولا يَأْتُونَهُ، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يَأْتُرُ بِالْخَيْرِ وَيَتْرَكَ الشَّرَّ، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كلِّ مَنْ دَعَا إِلَى خَيْرٍ، وهو في نفسه مهتد، ورسولُ الله - ﷺ - أولى الناس

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٤٩ وابن ماجه ٤٣٣٦ وابن أبي عاصم في «السنن» ٧٨٥ وإسناده غير قوي لأجل عبد الحميد، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق ربما أخطأ، وقال الذهبي في «الميزان» ٥٣٩/٢: وثقه أحمد وأبو حاتم، وضعفه دُحيم، وقال النسائي ليس بالقوي. وجزم الألباني في «الضعيفة» ١٧٢٢ بضعف حديثه، وفيه نظر، فالرجل وثقه أحمد وأبو حاتم، فحديثه غير قوي.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٠٧/٣ والبزار ٧٨٠ وإسناده على شرط الشيخين.

بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم:

[٥٨٩٨] «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(١). وفي السنن مرفوعاً:

[٥٨٩٩] «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»^(٢).

[٥٩٠٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين. حدثنا محمد بن عمرو بن الهروي، حدثنا غسان قاضي هرة - وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه. قال: وقال ابن مسعود: لو كنت مؤذناً ما باليت ألا أضحج، ولا أعتير، ولا أجاهد. قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذناً لكمل أمري، وما باليت ألا أنتصبت لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثاً. قال: فقلت يا رسول الله، تركتنا ونحن نتجلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلأ يا عمر، إنه يأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين». قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢٣﴾»، قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة، فقد دعا إلى الله^(٣). وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين. وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - أنه قال في قوله: «وَعَمِلَ صَالِحًا»، قال: يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

[٥٩٠١] ثم أورد البغوي حديث عبد الله بن المغفل قال: قال رسول الله - ﷺ -: «بين كل أذنين صلاة» ثلاث مرات. ثم قال في الثالثة: «لئن شاء»^(٤). وقد أخرجه الجماعة في كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه.

[٥٩٠٢] وحديث الثوري، عن زيد العمي، عن أبي إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال الثوري: لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي - ﷺ -: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة»^(٥). ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي في اليوم واللييلة، كلهم من حديث الثوري، به. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». ورواه النسائي أيضاً من حديث سليمان التيمي، عن قتادة عن أنس، به. والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنما

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٣٨٧ وابن ماجه ٧٢٥ وأحمد ٩٥/٤، ٩٨ من حديث معاوية.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود ٥١٧ والترمذي ٢٠٧ والطيالسي ٢٤٠٤ وأحمد ٤١٩/٢ وابن حبان ١٦٧٢ من حديث أبي هريرة.

(٣) إسناده ضعيف. فيه مطر بن طهمان، ضعفه أبو حاتم. وقال يحيى وأحمد: ضعيف في عطاء خاصة، وقال ابن سعد: فيه ضعف. راجع الميزان ٢٧٥٨٧. وإبراهيم بن طهمان، فيه كلام. والحسن لم يسمع من سعد، ولا من ابن مسعود، ولا سمع من عمر، ولا سمع من عائشة. فهذا خبر معلول، والمتن منكر.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٤ و٦٢٧ ومسلم ٨٣٨ وأبو داود ١٢٨٣ والترمذي ١٨٥ والنسائي ٢٨/٢ وابن ماجه ١١٦٢ وابن حبان ١٥٥٩ والبغوي ٤٣٠ وأحمد ٨٦/٤.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٥٢١ والترمذي ٢١٢ والنسائي في «اليوم واللييلة» ٦٨ و٦٩ وعبد الرزاق ١٩٠٩ وابن أبي شيبة ٢٢٥/١٠ وأحمد ١١٩/٣ وإسناده ضعيف لضعف زيد العمي، وهو زيد بن الحواري، وتابعه يزيد بن أبي مريم، وهو ثقة، أخرجه أحمد ٢٢٥/٣ والنسائي ٦٧ وابن خزيمة ٤٢٥ وابن حبان ١٦٩٦ فهو صحيح.

شُرِعَ بالمدينة بعد الهجرة، حين أَرِيَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَنَامِهِ، فَقَصَّه عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَأَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى بِلَالِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ أُنْذِيَ صَوْتًا، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ، فَالصَّحِيحُ إِذَا أَنُهَا عَامَةً، كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَجِلَ صَلِيحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، فَقَالَ: هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ، هَذَا خَيْرَةُ اللَّهِ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، أَجَابَ اللَّهُ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِبَابَتِهِ، وَقَالَ: إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا خَلِيفَةُ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾، أَي: فَرَقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ، ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَي: مِنْ أَسَاءِ إِلَيْكَ فَادْفَعْهُ عَنكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا عَاقَبْتَ مِنْ عَصَى اللَّهِ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُمُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وَهُوَ الصَّدِيقُ، أَي: إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ قَادَتَهُ تِلْكَ الْحَسَنَةُ إِلَيْهِ إِلَى مَصَافَاتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَالْحَنُوفُ عَلَيْكَ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيُّكَ لَكَ حَمِيمٌ، أَي: قَرِيبٌ إِلَيْكَ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، أَي: وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُشَقُّ عَلَى النَّفْسِ، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَي: ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَى. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أَي: إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِذَا وَسَّوسَ إِلَّا الْإِسْتِعَاذَةَ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَطَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَا اسْتَعَدَّتْ بِاللَّهِ وَلَجَاتٌ إِلَيْهِ، كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ.

[٥٩٠٣] وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(١). وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٩٧﴾ وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾، وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ مِمَّنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وَقَالَ رَبِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّي أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنَّ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَزَتْ وَرَبَّتْ ﴿٣٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مِنْبَهًا خَلَقَهُ عَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، أَي: إِنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بِظُلَامِهِ، وَالنَّهَارَ بِضِيائِهِ، وَهُمَا مُتَعَابِقَانِ لَا يَقْرَانِ، وَالشَّمْسُ وَنُورُهَا وَإِشْرَاقُهَا، وَالْقَمَرُ وَضِيَاءُهُ وَتَقْدِيرُ مَنَازِلِهِ فِي فَلَكِهِ، وَاخْتِلَافُ سِيرِهِ فِي سَمَائِهِ، لِيُعْرَفَ بِاخْتِلَافِ سِيرِهِ وَسِيرِ الشَّمْسِ مَقَادِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالجُمُعُ وَالشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ، وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحَقُوقِ،

وأوقات العبادات والمعاملات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبادان من عبيده، تحت قهره وتسخيريه، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: ولا تُشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يُشركَ به . ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن أَسْتَكْبَرُوا﴾، أي: عن إفراد العباد له وأبوا إلا أن يُشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، يعني الملائكة ﴿يَسْتَحُونَ لَمْ يَأْتِئِلْ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ . كقوله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

[٥٩٠٤] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان - يعني ابن وكيع - حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لَا تَسْبُوا اللَّيْلَ وَلَا النَّهَارَ، وَلَا الشَّمْسَ وَلَا الْقَمَرَ، وَلَا الرِّيحَ فَإِنَّهَا تُرْسَلُ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ، وَعَذَابًا لِّقَوْمٍ»^(١). وقوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾، أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيمَةً﴾، أي: هامة لا نبات فيها، بل هي ميّنة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْعُرَّتْ وَرَبَّتْ﴾، أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٣﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٤﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد . وقوله عز وجل: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والثكال . ولهذا قال: ﴿أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان . ثم قال - عز وجل - مهدداً للكفرة: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ . وعيد، أي: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم . ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . ثم قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، قال الضحاك، والسدي، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾، أي: منيع الجناب، لا يُرام أن يأتي أحد بمثله، ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، أي: ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه مُنزَل من رب العالمين . ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته . ثم قال عز وجل: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، قال قتادة، والسدي، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كُذِّبَ فقد كُذِّبوا، وكما صَبَرُوا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبي حاتم غيره . وقوله

(١) حسن بطريقه . أخرجه أبو يعلى ٢١٩٤ وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى صدوق إلا أنه سيء الحفظ . وورد من طريق آخر أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦٧٩١ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٠١: فيه سعيد بن بشير، وثقه جماعة، وضعفه آخرون، وبقيه رجاله ثقات اه وفي الباب أحاديث .

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ﴾، أي: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: لمن استمر على كفره وطغيانه، وعناده وشقاقه ومخالفته.

[٥٩٠٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ﴾ قال رسول الله - ﷺ -: «لولا عفو الله وتجاوزته ما هتأ أحدنا العيش، ولولا وعيده وعقابه لانتكل كل أحد»^(١).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ أَءِغْجَبِي وَعَرَفِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كُفِرَ عنادٍ وتعنُّتٍ، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٤٤﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾﴾. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنُّتِ والعناد: ﴿لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ أَءِغْجَبِي وَعَرَفِي﴾، أي: لقالوا: هلا أنزل مُفَضَّلًا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه. هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ أَءِغْجَبِي وَعَرَفِي﴾ أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿أءِغْجَبِي﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو في التعنت والعناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾، أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هُدًى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾، أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاةً وَندَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحاك: يُنَادُونَ يوم القيامة بأسمائهم.

وقال السدي: كان عمر بن الخطاب جالساً عند رجل من المسلمين يقضي، إذ قال: يا لبيكاه. فقال له عمر: لم تلبني؟ هل رأيت أحداً، أو دعاك أحد؟ قال: دعاني داعٍ من وراء البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾، أي: كُذِّبَ وأوذِي، ﴿فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرِ أُولُو الْأَرْزَامِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى أجلٍ مُسَمًى بتأخير الحساب

(١) ضعيف. له علتان. الأولى الإرسال، ومراسيل ابن المسبب جيد. إلا أن في الإسناد علي بن زيد، وهو ابن جدعان ضعيف

كما في «التقريب»؛ والله أعلم.

إلى يوم المَعَادِ، ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْسَ مِنْكُمْ مَنَّهُ مَرِيْبٌ﴾، أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكِّين فيما قالوا، غير مُحَقِّقين لشيء كانوا فيه. هكذا وَجَّهَ ابْنُ جَرِيرٍ، وهو مُحْتَمَلٌ. والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٩﴾ ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۝٥٠﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾، أي: إنما يعودُ نفعُ ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، أي: إنما يرجع وبأل ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يُعَذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليه، وإرسالِ الرُّسُولِ إليه.

ثم قال جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، أي: لا يعلم ذلك أحدٌ سواه.

[٥٩٠٦] كما قال محمدٌ - ﷺ -، وهو سيِّدُ البشرِ، لجبريل وهو من ساداتِ الملائكة - حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١). وكما قال تعالى: ﴿إِنِّي رَبُّكَ مُنْتَهَمَا ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٤]. وقال جل جلاله: ﴿لَا يَجِئُهَا لُوفُؤًا إِلَّا هُوًّا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض، ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا أَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلَّتْ عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُي﴾، أي: يومَ القيامة يُنادي اللهُ المشركينَ على زُؤوسِ الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا ءَاذَنَّاكَ﴾، أي: أعلمناكَ، ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾، أي: ليسَ أحدٌ مِنَّا اليومَ يشهدُ أن معكَ شريكاً، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: ذهبوا فلم ينفَعوهم، ﴿وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾، أي: وظن المشركون يومَ القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾، أي: لا محيد لهم عن عذابِ الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَاَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ أَلْسٌُّرٌ فَيَتَوَسَّ قَنُوطًا ۝٤٩﴾ وَلَيْنَ آذَنُهُ رَحْمَةٌ مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِحَانِنِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقولُ تعالى: لا يَمَلُّ الإنسانُ من دُعائه رَبَّهُ بالخير - وهو: المأل، وصحَّةُ الجسم، وغيرُ ذلك - وإن مَسَّهُ الشرُّ - وهو: البلاءُ أو الفقرُ - ﴿فَيَقُولُ قَوْلًا﴾، أي: يَقَعُ في ذهنه أنه لا يتهبُّ له بعد هذا خير. ﴿وَلَكِنْ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لِيَقُولَ هَذَا لِي﴾، أي: إذا أصابه خيرٌ ورزقٌ بعد ما كان في شدَّةٍ ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقُّه عند ربِّي، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: يكفر بقيام الساعة لأجل أنه حوَّلَ نعمة ويفخر ويبطر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْزَاهُ اشْتَقَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧].

﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾، أي: ولئن كان ثمَّ معاذٌ فليحسبنُ إليَّ ربِّي، كما أحسن إليَّ في هذه الدار، يتمنى على الله - عزَّ وجلَّ - مع إساءته العملَ وعدم اليقين. قال الله تعالى: ﴿فَلَنَنْتَهِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، يتهدُّ تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقابِ والتكالِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آفْرَضَ وَنَحَا يَحْيَاهُ﴾، أي: أعرَضَ عن الطاعة، واستكَبَرَ عن الانقياد لأوامر الله - عزَّ وجلَّ -، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾، أي: الشدَّة، ﴿فَدَّو دُعَاؤَ عَرِيضٍ﴾، أي: يُطِيلُ المسألة في الشيء الواحد. فالكلام العريضُ: ما طال لفظه وقل معناه، والوَجيزُ: عكسه، وهو: ما قَلَّ ودَلَّ. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا نَجْوَاهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَّتْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسْتَهْمِرًا﴾ [يونس: ١٢]... الآية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذِّبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾، أي: كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رَسوله؟ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾، أي: في كفر وعنادٍ ومُشاقَّةٍ للحقِّ، ومَسَلِكٍ بعيدٍ من الهدى.

ثم قال جل جلاله: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: سَنظهِرُ لَهُمْ دَلَالَتَنَا وَحُجَجَنَا عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مَنْزِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - على رسوله - ﷺ - بدلائلٍ خارجيةٍ ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾، من الفُتوحاتِ وظُهورِ الإسلامِ على الأقاليمِ وسائرِ الأديان. قال مجاهدٌ، والحسنُ، والسديُّ: ودلائلٌ في أنفسهم، قالوا: وقعةٌ بدرٍ، وفتحُ مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلَّتْ بِهِمْ، نَصَرَ اللَّهُ فِيهَا مُحَمَّدًا ﷺ وصحبَه، وحَدَلَ فِيهَا الْبَاطِلَ وَجَزَبَهُ. ويَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا الْإِنْسَانُ مَرْكَبٌ مِنْهُ وَفِيهِ وَعَلَيْهِ مِنَ الْمَوَادِّ وَالْأَخْلَاطِ وَالْهَيْئَاتِ الْعَجِيبَةِ، كما هو مبسوط في علم التشريح الدالِّ على حكمة الصانع - تبارك وتعالى - . وكذلك ما هو مجبولٌ عليه من الأخلاقِ المتباينةِ، من حَسَنٍ وقبيحٍ وبين ذلك، وما هو مُتَصَرِّفٌ فِيهِ تَحْتَ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ بِحَوْلِهِ، وقوته، وَجِيلِهِ، وحذره أن يجوزها ولا يتعدَّها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكير والاعتبار)، عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُغْتَبِرًا فَاَنْظُرْ إِلَيْكَ فَمِنْكَ مُغْتَبِرُ
أَنْتَ الَّذِي يُنْسِي وَيُضْبِحُ فِي الْ- دُنْيَا وَكُلُّ أُمُورِهِ عِبَرُ
أَنْتَ الْمَصْرُفُ كَأَنَّ فِي صِفْرِ ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِشَخْصِكَ الْكِبَرُ
أَنْتَ الَّذِي تَنْعَاهُ خَلْقُهُ يَنْعَاهُ مِنْهُ الشُّعْرُ وَالْبَشَرُ

أَنْتَ الَّذِي تُنْطَى وَتُنْسَلَبُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُنْسَلَبَ الْحَذْرُ
 أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءَ مِنْهُ لَهٗ وَأَحْمَقُ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدْرُ
 وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: كفى بالله شهيداً
 على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يَعْلَمُونَ وَالْمَلَكُوتُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه،
 ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هدر لا يعيرون به وهو واقع لا ريب فيه وكان لا محالة.
 قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد
 الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني
 لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا
 الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل. ومعنى قوله - رضي الله عنه -: أن المصدق به أحمق، أي: لأنه لا
 يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هزله، ومع ذلك مُصدق به، مُوقن بوقوعه، وهو مع ذلك
 يتمادي في لعبه وغفلته وشهوته ودنويته، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق في اللغة: ضعیف العقل.
 وقوله: والمكذب به هالك. هذا واضح، والله أعلم. ثم قال تعالى مُقَرَّراً على أنه على كل شيء قدير، وبكل
 شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه - تبارك وتعالى -: ﴿أَلَا إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطُونَ﴾، أي:
 المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت طي عليه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان،
 وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة حم السجدة، والله الحمد والمنة



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَدَّثَنَا ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦ ﴿

قد تقدّم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً منكرأ؛ فقال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة بن اليمان -: أخبرني عن تفسير قول الله تعالى: ﴿حَدَّثَنَا ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿، قال: فاطرق ثم أعرض عنه، ثم كرّر مقالته فأعرض عنه، فلم يُجبه بشيء وكره مقالته، ثم كرّرها الثالثة فلم يُحرز إليه شيئاً. فقال حذيفة: أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله - أو: عبد الله - ينزل على نهر من أنهار المشرق تبني عليه مدينتان، يشق النهر بينهما شقاً فإذا أذن الله تبارك وتعالى في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدنهم بعث الله عز وجل على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة وقد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبها متعجبة: كيف أفلنت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿حَدَّثَنَا ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿، يعني: عزيمة من الله تعالى وقتنة وقضاء حتم: ﴿حَدَّثَنَا ١﴾ عَيْنٌ، يعني عدلاً منه، سبين: يعني سيكون، ق: يعني واقع بهاتين المدينتين^(١).

[٥٩٠٧] وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مُسْنَدِ ابن عباس، وعن أبي ذرٍّ، عن النبي - ﷺ - في ذلك، ولكن إسناده ضعيف جداً ومُنْقَطِعٌ - فإنه قال: حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخشنى الدمشقي، عن أبي معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله - ﷺ - يُفسر ﴿حَدَّثَنَا ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿؟ فوثب ابن عباس فقال: أنا. قال: ﴿حَدَّثَنَا ١﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، قال: فعين؟ قال:

(١) باطل. لا يصح هذا الخبر عن ابن عباس ولا عن حذيفة. وهو منقطع: أرطاة بن المنذر لم يلق ابن عباس.

عائِنَ المولون عذاب يوم بَدْرٍ. قال: فسين؟ سيعلم الذين ظلموا أي مُنْقَلَبَ ينقلبون. قال: ففاف؟ فسكت، فقام أبو ذَرٍّ يُفسِّرُ ففسَّرَ كما قال ابنُ عباس، وقال: قاف: قارة من السماء تغشى الناس^(١). وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)، أي: كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾، أي: في انتقامه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

[٥٩٠٨] قال الإمام مالك - رحمه الله - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أَنَّ الحارثَ بن هشام سأل رسولَ الله - ﷺ - فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: «أحياناً يأتيني مثل صلصلةِ الجرسِ، وهو أشده عليّ فيفصمُ عني وقد وعيتُ ما قال. وأحياناً يأتيني الملكُ رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول». قالت عائشة: فلقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصمُ عنه، وإن جبينه ليتفصدُ عرقاً^(٣). أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري.

[٥٩٠٩] وقد رواه الطبراني عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام: أنه سأل رسولَ الله - ﷺ -: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «مثل صلصلةِ الجرسِ، فيفصمُ عني وقد وعيتُ ما قاله - قال -: وهو أشده عليّ - قال -: وأحياناً يأتيني الملكُ فيتمثلُ لي فيكلمني، فأعي ما يقول»^(٤).

[٥٩١٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ، حدثنا ابنُ لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: سألتُ رسولَ الله - ﷺ - فقلتُ: يا رسولَ الله، هل تُحسُّ بالوحي؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: «أسمعُ صلاصِلَ ثم أسكتُ عند ذلك، فما من مرّةٍ يُوحى إليّ إلا ظننتُ أن نفسي تُقبضُ»^(٤). تفرد به أحمد. وقد ذكرنا كُفَيَاتِ إتيانِ الوحي إلى رسولِ الله - ﷺ - في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمثمة. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَقٍّ إِلَّا لِيُذَكَّرَ بِهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ﴾، أي: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، كقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله عز وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾، قال ابنُ عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي، وكعب الأحمار: أي فرقا من العظمة. ﴿وَاللَّيْلُ إِسْحَابٌ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَالسَّمَاءُ دُخَانٌ وَمَنْ فِيهَا مِنْ جُنُودٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقوله جل جلاله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، إعلامٌ بذلك وتنويه به. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، يعني المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: شهيدٌ على أعمالهم، يُحصيها ويُعدها عدداً، وَيَسْجِزُهُمْ بِهَا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. ﴿وَمَا أَنْتَ بِرُكْبَلٍ﴾، أي: إنما أنت نذيرٌ، والله على كل شيء وكيلٌ.

(١) باطل. فيه الحسن بن يحيى الخشني، وهو ضعيف. وأبو معاوية، لم يدرك عمر ولا ابن عباس. واكتفى السيوطي في الدر ٦٩٢/٥ بقوله: ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢ و ٣٢١٥ ومسلم ٢٣٣٣ ومالك ٢٠٢/١ وابن حبان ٣٨.

(٣) متن صحيح. أخرجه الطبراني ٣٣٤٣، وفيه عامر بن صالح، وهو متروك منهم، لكن المتن محفوظ.

(٤) أخرجه أحمد ٢/٢٢٢، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف الحديث، والمتن منكر.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: واضحا جلياً بيناً، ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾، وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً. وسُميت مكة أُمَّ الْقُرَىٰ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها.

[٥٩١١] ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شُعَيْب، عن الزهري، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحَمَزَاءِ الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله، إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(١). وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وابن ماجه، من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وقوله عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة. وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّقَاتِ﴾ [التغابن: ٩]، أي: يُغْنِي أهل الجنة أهل النار. وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ نَجْمَعُ لَهُ الْنَّاسَ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُورٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذَاتِهَا فَنُفِثَتْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٥].

[٥٩١٢] قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، حدثني أبو قَبِيلِ المَعَاوِرِي، عن شُفِي الأصبحي، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وفي يده كتابان، فقال: «أندرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا لا، إلا أن تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم. ثم أجمل على آخرهم - لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فقال أصحاب رسول الله - ﷺ -: «فلأي شيء إذا عمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «سَدُّوا وَقَارِيُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبُ النَّارِ لِيُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ». ثم قال بيده قبضها، ثم قال: «فَرِّغْ رِيحَكَ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ الْعِبَادِ». ثم قال باليمنى فَبَنَدَ بِهَا فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ»، وَبَنَدَ بِالْيَسْرَى فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»^(٢). وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن قُتَيْبَةَ، عن الليث بن سعد ويكر بن مضر، كلاهما عن أبي قَبِيلِ، عن شُفِي بن ماتع الأصبحي، عن عبد الله بن عمرو، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

[٥٩١٣] وساقه البَغَوِيُّ في تفسيره من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عثمان، عن أبي الزاهرية، عن

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٩٢٥ وابن ماجه ٣١٠٨ وأحمد ٤/٣٠٥ وابن حبان ٣٧٠٨ وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٤١ والنسائي في «الكبرى» ١١٤٧٣ وأحمد ٢/١٦٧ وإسناده حسن لأجل أبي قبيل، فإنه صدوق، وللحديث شواهد وطرق.

عبد الله بن عمرو، عن النبي - ﷺ - . فذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ . وَعِنْدَهُ زِيَادَاتٌ مِنْهَا : ثُمَّ قَالَ : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ، عَدَلَ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - » (١) . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَالِحٍ - كَاتِبِ اللَّيْثِ - . عَنْ اللَّيْثِ ، بِهِ . وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يُونُسَ ، عَنْ ابْنِ وَهَبٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ ، عَنْ شُقَيْبٍ ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَذَكَرَهُ .

ثُمَّ رَوَى عَنْ يُونُسَ ، عَنْ ابْنِ وَهَبٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ وَخَيَوَةَ بْنِ شَرِيحٍ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ : أَنَّ أَبَا فِرَاسٍ حَدَّثَهُ : أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ نَفَضَهُ نَفْضَ الْجَزْدِ (٢) ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ ذُرِّيَّتِهِ ، فَخَرَجَ أَمْثَالُ الثُّغْفِ فَقَبِضَهُمْ قَبِضَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : شُقَيْبٌ وَسَعِيدٌ . ثُمَّ أَلْفَاهُمَا ثُمَّ قَبِضَهُمَا فَقَالَ : فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . وَهَذَا الْمَوْقُوفُ أَشْبَهُهُ بِالصَّوَابِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

[٥٩١٤] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ - يَعْنِي ابْنَ سَلْمَةَ - أَخْبَرَنَا الْجُرَيْرِيُّ ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - ، يُقَالُ لَهُ : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ - دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُوذُونَ بِهِ وَهُوَ يَبْكِي ، فَقَالُوا لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : « خُذْ مِنْ شَارِيكَ ثُمَّ اقْرَأْهُ حَتَّى تَلْقَانِي » . قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبِضَ بِيَمِينِهِ قَبِضَةً ، وَأَخْرَجَ بِالْيَدِ الْآخَرَى ، قَالَ : هَذِهِ لِهَذِهِ ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أَبَالِي » فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبِضَتَيْنِ أَنَا (٣) . وَأَحَادِيثُ الْقَدَرِ فِي الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ كَثِيرَةٌ جَدًّا ، مِنْهَا حَدِيثٌ عَلَيَّ ، وَابْنُ مَسْعُودٍ ، وَعَائِشَةُ ، وَجَمَاعَةٌ جَمَّةٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ أَتَمَّ وَجِدَةً ﴾ ، أَي : إِمَّا عَلَى الْهُدَايَةِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى فَاءَتْ بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَضَلَّ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ ، وَهُوَ الْحِكْمَةُ وَالْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ . وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْعَظِيمُونَ مَا لَمْ يَنْ وَرِي وَلَا نَصِيرٌ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن أبي سوية حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ حُجْبِيرَةَ : أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : يَا رَبِّ خَلَقْتَ الَّذِينَ خَلَقْتَ الَّذِينَ خَلَقْتَهُمْ ، جَعَلْتَ مِنْهُمْ فَرِيقًا فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقًا فِي النَّارِ ، لَوْ مَا أَدْخَلْتَهُمْ كُلَّهُمُ الْجَنَّةَ ؟ فَقَالَ : يَا مُوسَى ، أَرْفَعُ دُزْعَكَ . فَرَفَعَ ، قَالَ : قَدْ رَفَعْتُ . قَالَ : أَرْفَعُ . فَرَفَعَ ، فَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا ، قَالَ : يَا رَبِّ ، قَدْ رَفَعْتُ . قَالَ : أَرْفَعُ . قَالَ : قَدْ رَفَعْتُ ، إِلَّا مَا لَا خَيْرَ فِيهِ . قَالَ : كَذَلِكَ أَدْخَلَ خَلْقِي كُلَّهُمُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَا لَا خَيْرَ فِيهِ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) أخرجه البيهقي ١٨٦٨/٤/١٢٠ بترقيمي وإسناده حسن رجاله ثقات . والظاهر أن لفظ «عدل من الله» مدرج في الحديث ، والله أعلم .

(٢) اليزود : ما يجعل فيه الزاد .

(٣) صحيح . أخرجه أحمد ١٧٦/٤ عن أبي نضرة بسند على شرط مسلم ، لكن لم يذكر أبو نضرة سماعه من الصحابي ، لكن المتن صحيح له شواهد كثيرة .

يقول تعالى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمُخْبِرًا أَنَّهُ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: هو الحاكم فيه بكتابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ - ﷺ - . كقولهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾، أي: الحاكم في كُلِّ شَيْءٍ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خَالِقُهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: مِنْ جِنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ، مئةً عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلاً جَعَلَ مِنْ جِنْسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾، أي: وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾، أي: يَخْلُقُكُمْ فِيهِ، أي: فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ، وَجِيالًا بَعْدَ جِيلٍ، وَتَسْلًا بَعْدَ نَسْلِ، مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾، أي: فِي الرَّحْمِ. وَقِيلَ: فِي الْبَطْنِ. وَقِيلَ: فِي هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْخَلْقَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: تَسْلًا بَعْدَ نَسْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ. وَقِيلَ (فِي) بِمَعْنَى (الْبَاءِ)، أي: يَذَرُوكُمْ بِهِ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، أي: لَيْسَ كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ، لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا، ﴿يَسْطُرُ الْأَرْزَاقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُ، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٤)

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فَذَكَرَ أَوَّلَ الرِّسَالِ بَعْدَ آدَمَ وَهُوَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَخْرَجَهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ - ﷺ - ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِي الْعِزْمِ وَهُمْ: إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - . وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَضَمَتْ ذِكْرَ الْخَمْسَةِ، كَمَا اشْتَمَلَتْ آيَةُ الْأَحْزَابِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَاذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِنْ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] . . . الْآيَةُ. وَالِدِينُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ كُلُّهُمْ هُوَ: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥].

[٥٩١٥] وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولادُ عِلَاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ»^(١). أي: الْقَدْرُ الْمُشْتَرِكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَايِزًا﴾، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾، أي: وَصَّى اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِالْإِتِّفَاقِ وَالْجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِفْتِرَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: شَقُّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ - يَا مُحَمَّدٌ - مِنَ التَّوْحِيدِ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿اللَّهُ

يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٦﴾، أي: هو الذي يُقَدِّرُ الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من أثرها على طريق الرشد. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا نُنْفِقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَيْلُ﴾، أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْنَا لَأَكِيدَنَّ إِلَيْنَا الْوَيْلَ وَالْعَذَابَ﴾، أي: لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنتظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المَعَادِ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا. وقوله جلت عظمته: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿كَلِمَةٍ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مُقَلِّدُونَ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مُرِيبٌ، وشقاقٍ بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَهْلَكَ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَلَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مُسْتَقِلَّة، كلٌ منها منفصلة عن التي قبلها، حُكْمٌ برأيه، قالوا: ولا تُظَيِّرُ لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فُضُولٍ كهذه. قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾، أي: فليُذِئِدِ أوحينا إليك من الذين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المثبعة كأولي العزم وغيرهم، فادع الناس إليه. وقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، أي: واستقم أنت ومن أتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله - عز وجل - . وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، يعني: المشركين فيما اختلفوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله جل وعلا: ﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾، أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، لا نُفَرِّقُ بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾، أي: في الحكم كما أمرني الله. وقوله جلت عظمته: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نُفَرِّقُ بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾، أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيحٌ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، قال مجاهد: أي لا حُضُومَة. قال السدُيُّ: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجِهٌ؛ لأن هذه الآية مكيَّة، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦]. وقوله جل وعلا: ﴿وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاجِحَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [١٧] ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [١٧] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَإِنَّ الَّذِينَ يِمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [١٨]

يقول تعالى متوعداً الذي يصدون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾، أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلّكوه من طريق الهدى، ﴿جَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾، أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطبعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، وثبتنا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، يعني: الكتاب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقاتده. وهذه كقولته تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وترهيد في الدنيا. وقوله عز وجل: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]. وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، أي: خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾، أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

[٥٩١٦] وقد روي من طريقي تبلغ درجة التواتر، في الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه: أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ - بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد. فقال له النبي - ﷺ - نحواً من صوته - : «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله - ﷺ - : «ويحك. إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُبُّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»^(١). فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يُجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها. وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾، أي: يُحاجون في وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لِيُصَلِّ بِعِيْدٍ﴾، أي: في جهل بين، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَرْزُقُهَا مِنْ غَيْرِهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٠١﴾

[هود: ٦]، ولها نظائر كثيرة. وقوله جل وعلا: ﴿بُرُؤًا مِّنْ يَشَاءُ﴾، أي: يُوسِعُ على مَنْ يَشَاءُ، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، أي: لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. ثم قال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾، أي: عَمَلَ الْآخِرَةِ، ﴿زِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾، أي: نُفُوتِهِ وَتُعِينُهُ على ما هو بِصَدِيدِهِ، وَتُكثِرُ نَمَاءَهُ، وَتُجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ. ﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، أي: وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا سَعِيهِ لِيَحْضُلَّ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هِمَّةٌ الْبَتَّةَ بِالْكَلِيَّةِ، حَرَمَهُ اللهُ الْآخِرَةَ، وَالدُّنْيَا إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ مِنْهَا، وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَحْضُلَّ لَهُ لَاهِذِهِ وَلَا هَذِهِ، وَفَازَ هَذَا السَّاعِي بِهَذِهِ النِّتْءِ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هَاهُنَا مُقَيَّدَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي (سُبْحَانَ) وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلًا لَمْ يَأْتِهَا مَا تَشَاءُ لِمَنْ تُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيهِهَا مَدْمُومًا مَلْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا وَمِنَ عَطَاؤِ رَبِّكَ رَيْكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

[٥٩١٧] وقال الثوري، عن مُغْبِرَةَ، عن أَبِي العَالِيَةِ، عن أَبِي بِنِ بِنِ كَعْبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - : «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرُّفْعَةِ، وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»^(١). وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ اللهُ﴾، أي: هُم لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَتَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَالْقَمَارِ. إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَةِ الْبَاطِلَةِ. الَّتِي كَانُوا قَدْ اخْتَرَعُوهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَالعِبَادَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَالأقْوَالِ الْفَاسِدَةِ.

[٥٩١٨] وقد ثبت في الصحيح أن رَسُولُ اللهِ - ﷺ - قال: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ»^(٢). لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السُّوَابِغَ. وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ أَحَدَ مُلُوكِ خُرَاعَةَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ قَرِيشًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ - لَعْنَةُ اللهِ وَقَبْحُهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ أَفْصَلَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لَتُوجِّعُوا بِالْعُقُوبَةِ، لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِنْتِظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: شَدِيدٌ مُوجِعٌ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾، أي: فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، أي: الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، هَذَا حَالُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَهُمْ فِي هَذَا الْخَوْفِ وَالرَّجُلِ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رُوضَاتٍ أَنْجَبَاتٍ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ أَيْنَ مَا هُوَ فِي الْعَرَصَاتِ فِي الذَّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَوْفِ الْمُحَقَّقِ عَلَيْهِ بِظُلْمِهِ، يَمُنُّ هُوَ فِي رُوضَاتِ الْجَنَّاتِ، فِيمَا يَشَاءُ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ وَمَنَاطِرٍ وَمَنَاقِيحٍ وَمَلَادٍ، فِيمَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَبَارِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدِ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِي طَيْبَةَ قَالَ: إِنَّ السُّزْبَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَتَنْظِلُهُمُ السَّحَابَةُ فَتَقُولُ: مَا أَمْطَرَكُم؟ قَالَ: فَمَا يَدْعُو دَاعٍ مِنَ الْقَوْمِ بِشَيْءٍ

(١) أخرجه أحمد ١٣٤/٥ وابن حبان ٤٠٥ والحاكم ٣١١/٤ - ٣١٨ وإسناده حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه، أخرجه البخاري وغيره.

إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أتراباً. ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى لما ذُكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله تعالى لهم به. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تُعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالة ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

[٥٩١٩] قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طائوساً عن ابن عباس: أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبيرة: قُربى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي - ﷺ - لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة^(١). انفرد به البخاري. ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا زوى عامر الشعبي، والضحاك، وعلي بن أبي طلحة، والعمري، ويوسف بن مهرا، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقادة، والسدي، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

[٥٩٢٠] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني وجعفر القلانسي قالا: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك، عن خصيف، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله - ﷺ -: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تؤذوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم»^(٢).

[٥٩٢١] وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قزعة، يعني ابن سويد - وابن أبي حاتم - عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قزعة بن سويد - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس أن النبي - ﷺ - قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات والهدى أجراً، إلا أن تؤادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»^(٣). وهكذا زوى قتادة عن الحسن البصري، مثله. وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تُقربكم عند الله زلفى. وقول ثالث - وهو ما حكاه البخاري

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩٧ والترمذي ٣٢٥١ والنسائي في «التفسير» ٤٩٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٣٤٧ وإسناده ضعيف، شريك ساء حفظه لما تولى القضاء. وفيه خصيف الجزري ضعفه أحمد، ووثقه ابن معين.

(٣) أخرجه أحمد ٢٦٨/١ والحاكم ٤٤٤/٢ والطبراني ١١١٤٤ وإسناده غير قوي لأجل قزعة، فقد ضعفه غير واحد، ووثقه يحيى، ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تَوَدُونِي فِي قُرَابَتِي، أي: تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ وَتَبْرُواهُمْ.

وقال السدي، عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرن الفتنة. فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿قُلْ لَا أَتَلَّكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. قال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نعم. وقال أبو إسحاق السبيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَلَّكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال: قُرْبَى النَّبِيِّ - ﷺ - . رواهما ابن جرير.

[٥٩٢٢] ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد بن أبي زياد، عن ميسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فَعَلْنَا وَقَعَلْنَا وَكَانَهُمْ فَخَرُوا. فقال ابن عباس - أو: العباس، شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فاعزكم الله بي؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يُخْرِجْكُمْ قَوْمَكُ فَأَوَيْنَاكُ؟ أَلَمْ يَكْذِبُوا فَصَدَقْنَا؟ أَلَمْ يَخْذَلُوا فَتَصَرْنَا؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَتَلَّكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١). وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد - وهو ضعيف - بإسناده مثله، أو قريباً منه. وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكر نزولها في المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

[٥٩٢٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا رجل سماء، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَتَلَّكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة ولدها عليهم السلام»^(٢). وهذا إسناد ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي مخترق، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد، فإنها مكية ولم يكن إذا ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به الإمام حبر الأمة وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري - رحمه الله - ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٣٠٦٧٨ وفيه يزيد بن أبي زياد، ضعيف الحديث، وقال الحافظ في «الفتح» ٥٦٤/٨: ضعيف ويطلق أن الآية مكية.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٢٣٨٤ والحاكم في «مناقب الشافعي» كما في تخرجه «الكشاف» ٢٢٠/٤ وقال ابن حجر: حسين الأشقر ساقط. وعارضه ما هو أولى، ففي صحيح البخاري [٤٨١٨] عن ابن عباس قال: لم يكن بطن من قريش إلا كان للنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة اهـ.

الأرض، فخرأ وحسباً ونسباً، ولا سيماً إذا كانوا مُتَّبِعِينَ للسنة النبوية الصحيحة، الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيهِ، وعلي وأهل بيته وذويه، رضي الله عنهم أجمعين.

[٥٩٢٤] وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله - ﷺ - قال في حُطْبَتِهِ بِعَدِيرِ حُمْ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١).

[٥٩٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ﷺ قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبي - ﷺ - غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله»^(٢).

[٥٩٢٦] ثم قال أحمد: حدثنا جبرير، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله - ﷺ - فقال: إنا لنخرج فنرى قريشاً تُحدث، فإذا رأونا سكتوا. فغضب رسول الله - ﷺ - ودر عزق بين عينيه، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ إيماناً حتى يُحبكم الله ولقرايتي»^(٣).

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر، عن أبي بكر هو الصديق - رضي الله عنه - قال: ارقبوا محمداً - ﷺ - في أهل بيته^(٤).

وفي الصحيح: أن الصديق قال لعلي - رضي الله عنهما -: والله لقرابة رسول الله - ﷺ - أحب إليّ أن أصبل من قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس - رضي الله عنهما -: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إليّ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فقال الشيخين - رضي الله عنهما - هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

[٥٩٢٧] وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حيان التيمي، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله - ﷺ -، وسمعت حديثه، وعزوت معه، وصليت معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله - ﷺ -. فقال: يا بن أخي، والله لقد كبرت سني وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أجي من رسول الله - ﷺ -، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تكلّفونيهِ. ثم قال: قام رسول الله - ﷺ - يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى حُمّاً - بين مكة والمدينة -

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٤٠٨ وهو الآتي بعد حديثين.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧٥٨ وأحمد ٢٠٧/١ ح ١٧٧٥ والحاكم ٣/٣٣٣ من حديث العباس، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، وزاد الترمذي والحاكم وأحمد في رواية ثانية عبد المطلب بن ربيعة بين العباس، وعبد الله بن الحارث. ومداره على يزيد، ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: يزيد وإن لم يخرج له فإنه ركن من أركان الحديث في الكوفيين. وسكت الذهبي، والإسناد ضعيف، وقد تفرد به يزيد ابن أبي زياد. وفي الباب أحاديث بغير هذا السياق تغني عنه.

(٣) انظر ما قبله.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧١٣.

فَحَمِدَ اللهُ وَأَنْتَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ وَعَظَ، ثُمَّ قَالَ: «أما بعد، ألا أيها الناس إنما أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولٌ رَبِّي فَأُجِيبُ. وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أُولَهُمَا: كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَعْبَ فِيهِ - وَقَالَ: «وأهل بيتي، أَذْكَرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَدُكَّرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي». فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: إِنْ نَسَاءَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حُرْمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ الْعَبَّاسِ. قَالَ: أَكُلُّ هَؤُلَاءِ حُرْمِ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْفَضَائِلِ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ عَن يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ بِهِ.

[٥٩٢٨] وَقَالَ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنِ عَطِيَّةَ، عَنِ أَبِي سَعِيدٍ - وَالْأَعْمَشُ، عَنِ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِيهِمَا»^(٢). تَفَرَّدَ بِرَوَايَتِهِ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

[٥٩٢٩] وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ أَيْضاً: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ، عَنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - فِي حَجَّتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي»^(٣). تَفَرَّدَ بِهِ التِّرْمِذِيُّ أَيْضاً، وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَفِي الْبَابِ عَنِ أَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ.

[٥٩٣٠] ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ سَلِيمَانُ بْنُ الْأَشْعَثِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلِيمَانَ التُّوفَلِيِّ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «أَحِبُّوا اللهُ لِمَا يَعْذُوكُمْ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَحِبُّوا نَبِيَّ اللهِ وَحَبَّ اللهُ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحَبِّي»^(٤). ثُمَّ قَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ». وَقَدْ أوردنا أَحَادِيثَ أُخَرَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَاهُنَا، وَاللهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[٥٩٣١] وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا مُفَضَّلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ حَنَسَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ وَهُوَ آخِذٌ بِحُلْقَةِ الْبَابِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤/٤٦٦ - ٤٦٧ وَهُوَ صَحِيحٌ، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ عِنْدَ آيَةِ ٣٣.

(٢) إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ ٣٧٨٩ وَابْنُ عَدِيٍّ ٧/١١٢ وَالذَّهَبِيُّ فِي «الْمِيزَانِ» ٤٣٦٧ كُلُّهُمُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَذَكَرَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي تَرْجُمَةِ هِشَامِ بْنِ يُوسُفَ وَوَثَّقَهُ لَكِنْ عَدَهُ مِنْ غَرَائِبِهِ. وَأَمَّا الذَّهَبِيُّ فَذَكَرَهُ فِي تَرْجُمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلِيمَانَ التُّوفَلِيِّ، وَقَالَ: فِيهِ جِهَالَةٌ، مَا حَدَّثَ عَنْهُ سُوَيْدُ بْنُ هِشَامٍ وَبِهَذَا الْحَدِيثِ. وَقَالَ عَنْهُ الْحَافِظُ فِي «التَّقْرِيبِ»: مَقْبُولٌ. أَيُّ حَيْثُ يَتَابَعُ، وَقَدْ تَوَبَّعَ عَلَى مَعْنَاهُ، وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ، وَهُوَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ ضَعِيفٌ، وَذَكَرَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي ضَعِيفِ التِّرْمِذِيِّ ٧٩٢. وَاللهُ الْمَوْفِقُ.

أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مِنْ دَخَلَهَا نَجَّى، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ»^(١). هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَمَنْ يَنْفَقْ مِمَّا رَزَقْنَاهُ يُسْرِطْ لَهُ اللَّهُ كَفْرًا﴾، أي: ومن يعمل حسنة ﴿رَزَقْنَاهُ﴾ فيها حسناً، أي: أجرًا وثوابًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لَاحَةً﴾ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَنْتَعِبْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف: إن من ثواب الحسنات الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾، أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ، وَيُضَاعَفُ فَيَسْكَرُ. وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ يَسِّرَ اللَّهُ لِلَّذِينَ يَخْتَرُونَ عَلَى قَلْبِهِمْ سَبِيلًا وَمَا كَانَ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَاقِبَةً إِلَّا بِتِلْكَ الْأَمْثَالِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لَطَعَ عَلَى قَلْبِكَ وَسَلَبَكَ مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَفَعْنَا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. وقوله جلت عظمتة: ﴿وَيَسَّخِرُ اللَّهُ لِلْبَطِيلِ﴾، ليس معطوفاً على قوله «يختتم» فيكون مجزوماً، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته (الواو) في رسم المصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَعْنُ الرِّبَابَةَ ﴿٧٨﴾﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿وَيَبْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]. وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْمَوْتَى﴾. معطوف على ﴿وَيَسَّخِرُ اللَّهُ لِلْبَطِيلِ وَيُحْيِي الْمَوْتَى﴾، أي: يحققه ويثبتته ويؤسسه ويوضحه ﴿يَكَلِّمُنِي﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ السُّدُورِ﴾، أي: بما تكبته الضمائر، وتطوي عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وَسَيَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: إنه من كرمه وجلمه أنه يعفو ويصفح ويستتر ويغفر، كقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

(١) متن منكر بأسانيد واهية. فيه سويد بن سعيد ضعيف الحديث، وهو الذي قال فيه ابن معين: لو كان لي فرس ورمح، غزوت سويداً. وورد من طريق آخر أخرجه البزار ٢٦١٤ وفيه الحسن بن أبي جعفر، وهو متروك كما في «المجمع» ١٤٩٧٨، وورد من وجه آخر أخرجه الطبراني ٢٦٣٧ وفي «الصغير» ٣٩١ وقال الهيثمي ١٤٩٧٨ فيه عبد الله بن داهر، وهو متروك. وتوبع عند ابن عدي ١٩٧/٤ - ١٩٨ لكن فيه عبد الله بن عبد القدوس، وهو متروك. قال يحيى: ليس بشيء. وورد من حديث ابن عباس أخرجه البزار ٢٦١٥ والطبراني ٢٦٣٦ و ٢٦٣٧ و ١٢٣٨٨ وفيه الحسن بن أبي جعفر. قال البزار عقبه: ليس بالقوي. وقال عنه الهيثمي في «المجمع» ١٤٩٧٩: متروك. وورد من حديث عبد الله بن الزبير أخرجه البزار ٢٦١٣ وقال الهيثمي ١٤٩٨٠ فيه ابن لهيعة، وهو لين. كذا قال بل هو ضعيف. وورد من حديث أبي سعيد أخرجه الطبراني في «الصغير» ٨٢٥ وأعله الهيثمي ١٤٩٨١ بأن فيه جماعة، ولم أعرفهم اه وفيه عطية العوفي، وهو واه.

[٥٩٣٢] وقد ثبت في صحيح مسلم - رحمه الله - حيث قال: حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالوا: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك - وهو عمه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح»^(١). وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه..

[٥٩٣٣] وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش»^(٢). وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾... الآية. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعي، عن همام، فذكره.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْقُرُ عَنِ النَّسِيئَاتِ﴾، أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعُونَ﴾، أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتهم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال السدي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله عز وجل: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. ثم روى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة: والله إنني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم - عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعله مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَعْمُونَ﴾ أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَسْمِعُهُمْ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، والمعنى الأول أظهر، لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك.

[٥٩٣٤] ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفي، حدثنا بقیة، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ -: في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار من صنع إليهم معروفاً في الدنيا»^(٣). وقال قتادة عن إبراهيم النخعي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: يشفعون في إخوان إخوانهم. وقوله عز وجل: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٠٩ ومسلم ٢٧٤٧ وأحمد ٣/٢١٣ وابن حبان ٦١٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٢٧٣٨ وفيه إرسال بين الزهري وأبي هريرة، وهو ضعيف بهذا اللفظ.

(٣) ضعيف منكر. في إسناده إسماعيل بن عبد الله الكندي لا يعرف. ذكره الذهبي في الميزان ٩٠١ وقال: عن الأعمش، وعنه بقیة، بخبر عجيب منكر. وأورد ابن حجر في «اللسان» غير هذا الحديث في ترجمة الكندي، على أنه منكر. ونقل عن النباتي قوله: أحاديث بقیة، ليست بقیة.

الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً. قال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك.

[٥٩٣٥] وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يُخرجُ الله من زهرة الحياة الدنيا»، «وسؤال السائل: أيأتي الخيرُ بالشر؟» الحديث^(١).

وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبِعَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾، أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيعني من يستحقُّ الغنى، ويُعقر من يستحقُّ الفقر كما جاء في الحديث المروي:

[٥٩٣٦] «إن من عبادي لمن لا يصلحُه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدته عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحُه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدته عليه دينه»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾، أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُسِيكِينَ﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله جل جلاله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، أي: يعمُّ بها الوجودَ على أهل ذلك الفطرِ وتلك الناحية. قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قحطَ المطرُ وقنطَ الناسُ؟ فقال عمر - رضي الله عنه -: مطرُتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أي: هو المتصرفُ لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمودُ العاقبة في جميع ما يُقدِّره ويقعِّله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانته القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: ذرأً فيهما، أي: في السموات والأرض، ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرَّقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض، ﴿وَهُوَ﴾، مع هذا كله ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يُسمعهم الداعي، ويُفقدهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العذلي الحق.

(١) هو بعض خبر أخرجه الطبري ٣٠٦٩٩ عن قتادة رسلاً. وقوله «إنما أخاف... إلى... الحياة الدنيا» جاء موصولاً بأسانيد صحيحة. وتقدم. وانظر صحيح البخاري ٦٤٢٧ ومسلم ١٠٥٢.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البيهقي في «التفسير» ١٨٧٧ - بتريقي من حديث أنس، وإسناده واه، وضعفه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم» ص ٣١٤ فقال: فيه الحسن بن يحيى الخشني، عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، وهما ضعيفان. وفيه هشام الكناني، لا يعرف اهـ. وورد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٧١٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٩٥٣: فيه جماعة لم أعرفهم.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ، أي: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ﴾ .

[٥٩٣٧] وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها»^(١).

[٥٩٣٨] وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قلابة قال: نزلت: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إني لَرَأَيْ ما عملت من خيرٍ وشرٍ؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكرهه؟ فهو من مثاقيل ذر الشَّرِّ، وتُدَخَّرُ مثاقيل الخير حتى تُعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: قال أبو إدريس: فإني أرى مصداقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٩) . ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قلابة، عن أنس، قال: والأوَّلُ أصح.

[٥٩٣٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِي، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الحَظْر بن القَوَّاس البَجَلِي، عن أبي سُحَيْلَةَ، عن علي - رضي الله عنه - قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، وحدثنا به رسول الله - ﷺ -، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (١٠) . وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مَرَضٍ أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فيما كَسَبَتْ أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فإله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوهِ^(١١) . وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدَةَ، عن أبي سُحَيْلَةَ قال: قال علي . . . فذكر نحوه مرفوعاً. ثم رَوَى ابن أبي حاتم نحوه، من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مُزَّاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضَّاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيْفَةَ قال: دخلت على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعييه؟ قال: فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (١٢) . قال: ما عاقب الله به في الدنيا فإله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فإله أكرم من أن يعود في عفوهِ يوم القيامة.

[٥٩٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عُبَيْد، حدثنا طلحة - يعني ابن يحيى - عن أبي بُرْدَةَ، عن معاوية - هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته»^(١٣).

[٥٩٤١] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت:

(١) أخرجه البخاري وغيره، وتقدم.

(٢) ضعيف . أخرجه الطبري ٣٠٧٠٤ هكذا، وهو مرسل . ويأتي في سورة الزلزلة .

(٣) ضعيف . أخرجه أحمد ٦٤٩ وأبو يعلى ٤٥٣ من حديث علي، وفيه أزر بن راشد . ضعفه الهيثمي في «المجمع» ١٣٢٨ به . وورد مختصراً . أخرجه أحمد ٧٧٥ و١٣٦٥ والحاكم ٤٤٥/٢ من طريق أبي جحيفة عن علي، وليس فيه ذكر الآية وتفسيرها، وهذا حسن وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي . وله شواهد . ومنها الآتي .

(٤) حسن . أخرجه أحمد ٩٨/٤ وإسناده غير قوي لأجل طلحة بن يحيى، لكن للحديث شواهد .

قال رسول الله - ﷺ -: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكْفِّرُهَا، ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْحُزْنِ لِيُكْفِرَهَا»^(١).

[٥٩٤٢] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن - هو البصري - قال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَصْنَبْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٣٠)، قال: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ حَذْسٍ عَوْدٍ، وَلَا اخْتِلَاجٍ عَزِيقٍ، وَلَا عَثْرَةٍ قَدَمٍ، إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ»^(٢).

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا هشيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ وَقَدْ كَانَ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ إِنَّا لَنَبْتِئِسُ لَكَ لَمَّا تَرَى فِيكَ. قال: فَلَا تَبْتِئِسْ بِمَا تَرَى، فَإِنَّ مَا تَرَى بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ، ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصْنَبْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٣١).

وحدثنا أبي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجُماني، حدثنا جَرِير، عن أبي البلاد قال: قلتُ للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصْنَبْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذَهَبَ بصري وأنا غلام؟ قال: فَيَذُنُوبٍ وَالذِيك.

وحدثنا أبي: حدثنا علي بن محمد الطنَافسي، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبي رَوَادٍ، عن الضحَّاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا يذُنُوبٍ، ثم قرأ الضحَّاك: ﴿وَمَا أَصْنَبْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٣٢). ثم يقول الضحَّاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾^(٣٣) إِنَّ يَسَاءَ يَسْتَكِينُ الرِّيحَ فَيَظَلُّنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٣٤) أَوْ يُؤَيِّقُهَا بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٣٥) وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾^(٣٥)

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخيرهُ البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قال مجاهد، والحسن، والسدي، والضحَّاك، أي: هي في البحر كالجبال في البر، ﴿إِنَّ يَسَاءَ يَسْتَكِينُ الرِّيحَ﴾، أي: التي تسيير في البحر بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تظل راکدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾، أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾، أي: إن في تسخيرهُ البحر وإجرائه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لآيات على نعيمه تعالى على خلقه ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾، أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء. وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُؤَيِّقُهَا بِمَا كَسَبُوا﴾، أي: ولو شاء لأهلك السفن وعرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله تعالى ﴿أَوْ يُؤَيِّقُهَا بِمَا كَسَبُوا﴾، أي: لو شاء لأرسل الريح قوية

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ١٥٧/٦ والبخاري ٣٢٦٠ من حديث عائشة. وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٧٣٥: فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقيته رجاله ثقات. ثم كرهه ١٧٤٧٤ وقال: رواه أحمد والبخاري، وإسناده حسن اهد مع أن فيها ليث، وهو صدوق لكنه اختلط لذا ضعفه الجمهور. وللحديث علة أخرى ما ذكرها الهيثمي، وهي الانقطاع. فإن مجاهدًا لم يسمع من عائشة، قاله ابن معين والقطان وشعبة ووافقهم أبو حاتم الرازي. راجع «المراسيل» ٣٦١.

(٢) ضعيف. هو مرسل، ومراسيل الحسن واهية. وأخرجه الطبري ٣٠٧٠٥ عن قتادة مرسلًا أيضاً. فلعله يتقوى بهذا المرسل، إلا أن يكون قتادة أخذه عن الحسن وهو الراجح. والله أعلم.

عاتية، فأخذت السفنَ وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتُها ذات اليمين أو ذات الشمال، أبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصِد. وهذا القولُ هو يتضمَّن هلاكها، وهو مناسبٌ للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لَسَكَنَ الرِّيحَ فَوَقَفْتَ، أو لَقَوَاهُ فَشَرَدْتَ وَأَبَقْتَ وهلكت. ولكن من لطفه ورحمته أنه يُرسله بحسب الحاجة، كما يُرسل المطرَ بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لَهَدَمَ البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والشمار، حتى إنه يُرسل إلى مثل بلاد مصر سَيْحاً من أرض أخرى غيرها، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لَهَدَمَ بُنيانهم، وأسقط جُدرانهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُكْفِرُونَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، أي: لا محيد لهم عن بآيسنا ونفقتنا، فإنهم مهْجورون بِقُدْرَتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنِعْمَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مُحَقِّراً لسان الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنِعْمَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي: مهما حَصَلتُمْ وجمعتُمْ فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنية فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أي: وثوابُ الله تعالى خيرٌ من الدنيا، وهو باقٍ سَرْمَدِي، فلا تُقَدِّموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: للذين صَبَرُوا على تَرْكِ المَلاذِ فِي الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: لِيُعِينَهُمْ على الصَّبْرِ في أداء الواجباتِ وتَرْكِ المحرَّماتِ. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾، وقد قَدَّمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، أي: سَجَّيْتَهُمْ تَقْضِي الصَّفْحَ والعَفْوَ عن الناس، ليس سَجَّيْتَهُم الانتقامَ من الناس.

[٥٩٤٣] وقد ثبت في الصحيح: أن رسولَ الله - ﷺ - ما انتقمَ لنفسه قط، إلا أن تُنتَهَكَ حُرْمَاتُ الله ^(١).

[٥٩٤٤] وفي حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المَعْتَبَةِ: «ماله؟ تربت يمينه» ^(٢). وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سَفِيانٌ، عن زائدة، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يُسْتَدْلُوا، وكانوا إذا قَدَرُوا عَفَا.

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أي: اتَّبِعُوا رُسُلَهُ وَأَطَاعُوا أَمْرَهُ، واجتنبوا زَجْرَهُ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وهي أعظمُ العباداتِ لله - عَزَّ وَجَلَّ -، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لا يُرْمُونَ أَمْرًا حتى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ، لِيَتَسَاعَدُوا بِأَرْئِهِمْ فِي مِثْلِ الحروبِ وما جَرَى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذًا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولهذا كان - عليه السلام - يُشاورهم في الحروب ونحوها، لِيُطِيبَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ. وهكذا لما حَضَرَتْ عَمْرُ بن الخطاب رضي الله عنه الوفاةَ حين طُعِنَ جَعَلَ الأمرَ بعده شُورَى فِي سِتَةِ نَفَرٍ، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم، فاجتمع رأيُ الصحابة كُلِّهِمْ على تقديم عثمان عليهم، - رضي الله عنهم -، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خَلْقِ الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

(١) أخرجه البخاري ٣٥٦٠ ومسلم (٢٣٢٧) (٧٧) وأبو داود ٤٧٨٥ من حديث عائشة.

(٢) ورد في أحاديث كثيرة منها حديث عائشة، أخرجه البخاري ٦١٥٦.

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٤٣)، أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بَغَى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قَدَرُوا عَفْوًا، كما قال يوسف - عليه السلام - لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَنْفُرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه.

[٥٩٤٥] وكما عفا رسولُ الله - ﷺ - عن أولئك نفر الثمانين الذين قَصَدُوهُ عامَ الحُدَيْبِيَّةِ، ونزلوا من جبلِ التَّعِيمِ، فلما قدر عليهم مَنْ عليهم مع قدرته على الانتقام^(١).

[٥٩٤٦] وكذلك عَفُوهُ عن عَزْرَثِ بنِ الحَارِثِ الذي أراد الفَتَكَ به - عليه السلام - حين اخترطَ سَيْفَهُ وهو نائم، فاستيقظ - عليه السلام - وهو في يده صَلْتًا، فانتهره، فَوَضَعَهُ من يده، وأخذ رسولُ الله - ﷺ - السيفَ من يده، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه^(٢).

[٥٩٤٧] وكذلك عفا ﷺ عن لُبَيْدِ بنِ الأعصم الذي سحره - عليه السلام - ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه^(٣).

[٥٩٤٨] وكذلك عَفُوهُ - عليه السلام - عن المرأة اليهودية - وهي زَيْنُبُ أختِ مَرْحَبِ اليهوديِّ الخَيْبَرِيِّ الذي قتله محمود بنُ مسلمة، التي سَمَّتِ الذَّرَاعَ يوم خيبر - فأخبره الذَّرَاعُ بذلك، فدعاها فاعتزفت، فقال: «ما حَمَلَكِ على ذلك؟» قالت: أردتُ إن كنتِ نبيًّا لم يَضُرِّكَ، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك. فأطلقها - عليه الصلاة والسلام - ولكن لما مات منه بشرُ بن البراء رضي الله عنه قَتَلَهَا به^(٤)، والأحاديث والآثار في هذا كثيرةٌ جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢) ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣)

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وكقوليه: ﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ مَا عَوَّقْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبْرَتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦)، فشرح العدل وهو القصاص، ونَدَبَ إلى الفضل وهو العفو، كقوله جل وعلا: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: لا يَضِيعُ ذلك عند الله، كما صَحَّ في الحديث:

[٥٩٤٩] «وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: المُعْتَدِينَ، وهو المبتدئ بالسيئة. ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَمَنِ

(١) يأتي في سورة الفتح.

(٢) متفق عليه، وتقدم في سورة النساء.

(٣) يأتي في سورة الناس.

(٤) أخرجه البخاري وغيره وتقدم.

(٥) هو بعض حديث أخرجه مسلم وغيره، وتقدم.

أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ، أي: ليس عليهم جُنَاحٌ مِنَ الْإِنْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ .

[٥٩٥٠] قال ابن جرير: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرِيعٍ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ مُعَاذٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُ عَنِ الْإِنْتِصَارِ: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ ، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد - امرأة أبيه، قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة - قالت: قالت أم المؤمنين: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَعِنْدَنَا زَيْنُبُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَجَعَلَ يَصْنَعُ بِيَدِهِ شَيْئاً فَلَمْ يَفْطِنْ لَهَا، فَقُلْتُ بِيَدِهِ حَتَّى فَطَنْتَهُ لَهَا، فَأَمَسَكَ . وَأَقْبَلْتُ زَيْنُبَ تَقَحُّمًا^(١) لِعَائِشَةَ، فَتَهَاها، فَأَبَتْ أَنْ تَنْتَهِيَ . فَقَالَ لِعَائِشَةَ: «سُبِّيها». فَسَبَّتها فَغَلَبَتْها، وانطلقت زَيْنُبُ فَأَتَتْ عَلِيًّا فَقَالَتْ: إِنَّ عَائِشَةَ تَقَعُّ بِكُمْ، وَتَفْعَلُ بِكُمْ . فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ فَقَالَ لَهَا: «إِنهَا حَبَّةُ أَيْبِكِ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ». فَانصرفت، وقالت لعلِّي: إني قلتُ له كذا وكذا، فقال لي كذا وكذا. قال: وجاء علي إلى النبي - ﷺ - فَكَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ^(٢) . هَكَذَا وَرَدَ هَذَا السِّيَاقُ، وَعَلِيٌّ بْنُ زَيْدٍ بْنُ جَدْعَانَ يَأْتِي فِي رِوَايَاتِهِ بِالْمُنْكَرَاتِ غَالِبًا، وَهَذَا فِيهِ نَكَارَةٌ، وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ خِلَافَ هَذَا السِّيَاقِ .

[٥٩٥١] كما رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ سَلْمَةَ الْفَأَفَاءِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارِ الْبَهْمِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : مَا عَلِمْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيَّ زَيْنُبُ بَغِيرِ إِذْنٍ وَهِيَ غَضْبَى، ثُمَّ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - : حَسْبُكَ إِذَا قَلْبَتْ لَكَ ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ دُرَيْعَتَيْهَا، ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَيَّ فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : «دُونِكَ فَانْتَصِرِي». فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا وَقَدْ يَبَسَ رِيقُهَا فِي فَمِهَا، مَا تَرَدَّدْتُ عَلَيَّ شَيْئاً . فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ^(٣) . وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ .

[٥٩٥٢] وَقَالَ الْبَزَّازُ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مَوْسَى، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّانٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «مَنْ دَعَا عَلِيًّا مِنْ ظُلْمِهِ فَقَدْ أَنْتَصَرَ»^(٤) . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ - وَاسْمُهُ مَيْمُونٌ - ثُمَّ قَالَ: «لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ»، وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حَفْظِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ ، أَي: إِنَّمَا الْحَرْجُ وَالْعَنْتُ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ، أَي: يَبْدُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:

[٥٩٥٣] «الْمُسْتَبْتَانِ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِيءِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»^(٥) .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، أَي: شَدِيدٌ مُوَجِعٌ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مَوْسَى، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ - أَخُو حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ - حَدَّثَنَا عَثْمَانُ الشَّحَّامُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ قَالَ: قَدِمْتُ مَكَةَ فإِذَا

(١) أي تعرض لها بالشتيم، وتصفها بما ليس فيها دون روية ولا ثبت .

(٢) أخرجه الطبري ٣٠٧٢٩، وفيه علي بن زيد، ضعيف الحديث روى مناكير كثيرة، وما بعده أصح منه .

(٣) صحيح . أخرجه البخاري ٥٥٨ في «الأدب المفرد» والنسائي في «التفسير» ٤٩٦ وابن ماجه ١٩٨١ وأحمد ٩٧/٦ وإسناده حسن على شرط مسلم لكن في عبد الله كلام، وأصله عند مسلم ٢٤٤٢ .

(٤) ضعيف . أخرجه الترمذي ٣٥٥٢ وابن عدي ٤١٢/٦ . وإسناده ضعيف، فيه ميمون القصاب أبو حمزة . قال أحمد: متروك الحديث . وضعفه النسائي . ولبنه البخاري، وقال النسائي: ليس ثقة . والحديث ضعفه الترمذي بقوله: غريب . وميمون تكلم فيه .

(٥) صحيح . أخرجه مسلم ٢٥٨٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٢٣ وأبو داود ٤٨٩٤ والترمذي ١٩٨١ وأحمد ٢٣٥/٢

على الخندق مَنظرة فَأَجْذَتْ فَانطَلِقُ بي إلى مَرْوان بن المَهَلَّب، وهو أمير على البصرة، فقال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عَدِيٍّ. قال: وَمَنْ أخو بني عدي؟ قال: الغلاء بن زياد، استعمل صديقاً له مرةً على عمل، فكتب إليه: أما بعدُ فَإِنَّ استطعت أَلَّا تبيتَ إلا وظهرك خَفِيفٌ، وبطنك حَمِيصٌ، وكُنْتُ نَقِيَّةً من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيلٌ، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مَرْوان: صدَّقَ والله وَنَصَحَ ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي أن تُلحِقني بأهلي. قال: نعم. رواه ابن حاتم. ثم إنه تعالى لما دَمَ الظلم وأهله وَشَرَعَ الْقِصَاصَ، قال نادياً إلى العفوِ والصفحِ: ﴿وَلَكِنْ صَبْرٌ وَعَفْوٌ﴾ أي: صَبْرٌ على الأذى وَسَتْرُ السَّيِّئَةِ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال سعيد بن جُبَيْرٍ: يعني لمن حَقَّ الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي، حدثنا عبد الصمد بن يزيد - خادم الفضيل بن عياض - قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً قتل: يا أخي، اعف عنه، فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله - عز وجل - . فقال له: إن كنت تحسبن أن تنصير وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينال على فرائضه بالليل، وصاحب الانتصار يُقَلَّبُ الأمور.

[٥٩٥٤] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى - يعني ابن سعيد القطان - عن ابن عجلان، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي - ﷺ - فجلس فجعل النبي - ﷺ - يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي - ﷺ - وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما زدته عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما زدته عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلومة فينضي عنها الله إلا أعز الله بها نصرته، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة»^(١) وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة. قال: ورأوه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عجلان. ورواه من طريق الليث، عن سعيد المقبري، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلًا. وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو مناسب للصديق رضي الله عنه.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّرِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصُورُنَّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هده فلا مضيل له، ومن يضل فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ثم

قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَى الْعَذَابَ﴾، أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِيَّاكَ مَرَّزِينَ سَبِيلًا﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَ النَّارِ فَقَالُوا بَلْ لَنَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ لَأَبْلُغَنَّ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]. وقوله عز وجل: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ بَعْرِضُونَ عَلَيْهَا﴾، أي: على النار ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الْذَلِّ﴾، أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عِضْيَانِ اللَّهِ، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَافِيٍّ﴾، قال مجاهد: يعني ذليل. أي ينظرون إليها مُسَارَقَةً خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجازنا الله من ذلك. وقال ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَسِرَاتِ﴾، أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وُفِرَّقَ بينهم وبين أحبائهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم، فحسروهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: دائم سزُمِدِّي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصُرُّونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: يُقَدِّرُونَهُمْ مما هم فيه من العذاب والثكال، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾، أي: ليس له خلاص.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنِيَةٌ أَوْ كَافُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾، أي: إذا أمر بكونه فإنه كَلْمَحِ البَصْرِ يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾، أي: ليس لكم حِصْنٌ تَحْتَصِنُونَ فيه، ولا مكانٌ يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره - تبارك وتعالى - بل هو مُحِيطٌ بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ﴿١١﴾ كَلَّا لَا وَدَّ ﴿١٢﴾﴾ إِنْ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَقِرُ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾، يعني المشركين. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: لست عليهم بمُصْبِطِرٍ، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ﴾، أي: إنما كلفناك أن تُبْلِغَهُمْ رسالة الله إليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾، أي: إذا أصابه رِخَاءٌ ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سِنِيَةٌ﴾، أي: جَذَبٌ ونقمة وبلاء وشدّة، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾، أي: يجحد ما تقدّم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشير وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقبط، كما قال رسول الله - ﷺ - للنساء:

[٥٩٥٥] «يا معشر النساء، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار». فقالت امرأة: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تكثيرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»^(١). وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله - ﷺ -:

(١) تقدم في سورة البقرة آية ٢٨٢، وهو متفق عليه.

[٥٩٥٦] «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَّهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَّهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(١).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ وَإِنَّهُ لَمِنَ يَشَاءِ الدُّكُورِ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِثَاءً﴾، أَي: يَرْزُقُهُ الْبِنَاتِ فَقَطْ - قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَمِنْهُمْ لَوْطٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ﴾، أَي: يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَطْ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَلِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يُولَدْ لَهُ أَنْثَى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً﴾، أَي: وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، أَي: مِنْ هَذَا وَهَذَا، قَالَ الْبَغَوِيُّ كَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾، أَي: لَا يُولَدْ لَهُ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كِيَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فَجَعَلَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، مِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبِنَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ مِنَ النَّوعَيْنِ ذُكْرًا وَإِنثَاءً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ هَذَا وَهَذَا، فَيَجْعَلُهُ عَقِيمًا لَا نَسْلَ لَهُ وَلَا يُولَدْ لَهُ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾، أَي: بِمَنْ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، ﴿قَدِيرٌ﴾، أَي: عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ. وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ عِيسَى: ﴿وَلِنَجْمِكَ مَائَةٌ لِلنَّاسِ﴾ [مریم: ٢١]، أَي: دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، فَآدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ، لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى، وَحَوَاءُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - مِنْ ذَكَرٍ بَلْ أَنْثَى، وَسَائِرُ الْخَلْقِ سِوَى عِيسَى مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ أَنْثَى بَلَا ذَكَرٍ، فَتَمَّتِ الدَّلَالَةُ بِخَلْقِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنَجْمِكَ مَائَةٌ لِلنَّاسِ﴾، فَهَذَا الْمَقَامُ فِي الْآبَاءِ، وَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ فِي الْأَبْنَاءِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ، فَسُبْحَانَ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ.

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْكَمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في رُوع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

[٥٩٥٧] كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إِنْ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ»^(٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾، كَمَا كَلَّمَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ سَأَلَ الرَّؤْيَةَ بَعْدَ التَّكْلِيمِ، فَحُجِّبَ عَنْهَا.

(١) أخرجه البخاري وغيره وتقدم.

(٢) صحيح، تقدم في سورة البقرة آية: ٨٧.

[٥٩٥٨] وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لجابر بن عبد الله: «ما كَلَّمَ الله أحداً إلا من وراء حِجَابٍ، وإنه كلم أباك كِفَاحاً»^(١). . . كذا جاء الحديث، وكان قد قُتِلَ يومَ أُحُدٍ، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء - عليهم السلام -، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فهو عليٌّ عليهم خيرٌ حكيمٌ. وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، يعني القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، أي: على التفصيل الذي شَرَعَ لك في القرآن، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾، أي: القرآن ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنَ عِبَادِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاعَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾، أي: شرعه الذي أمر به الله، ﴿الَّذِي لَمْ يَلْمَسْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ربهما ومالكهما والمتصرفُ فيهما، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، أي ترجع الأمور، فيفضلها ويحكم فيها. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

آخر تفسير سورة الشورى، والحمد لله رب العالمين

(١) تقدم في آل عمران. وكفاحاً: أي مواجهة.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُمْ فِي أَرْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنْصَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ سَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمِصْرِي مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى: ﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾، أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهّمونه وتندبّروونه، كما قال عز وجل: ﴿يَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ فِي أَرْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾، بين شرفه في الملا الأعلى، ليُشرفه ويُعظمه ويُطبعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾، أي: القرآن ﴿فِي أَرْرِ الْكِتَابِ﴾، أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾، أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِيَّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: مُحَكَّمٌ برّي من اللبس والزيف. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ لِقُرْءَانٍ كَرِيمٍ ﴿٧٧﴾﴾ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي مِصْرٍ مَكْرَمٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعٍ مُطَهَّرٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١-١٦]، ولهذا استنبط العلماء - رجمهم الله - من هاتين الآيتين: أن المُحدِثَ لَا يَمَسُّ المصحفَ، كما وُردَ به الحديث^(١) إن صحَّ، لأن الملائكة يُعظّمون المصحفَ المشتجِلة على القرآن في الملا الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجّه إليهم، فهم أحقُّ أن يُقابَلوه بالإكرام والتعظيم، والالتقياذ له بالقبول والتسليم، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ فِي أَرْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿أَفَنْصَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ سَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾، اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أنتحسبون أن نصفح عنكم فلا نُعذّبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَفَنْصَرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ

(١) تقدم الكلام على هذا الحديث.

صَفَحًا، والله لو أن هذا القرآن رُفِعَ حين رَذته أوائل هذه الأمة لَهَلَكُوا، ولكن الله تعالى عاد بعائدهته ورحمته، وكثره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مُسرِّفين مُعرِّضين عنه، بل أمر به ليَهْتَدِي به من قَدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كَتَب شقاوته.

ثم قال تعالى مُسَلِّياً لِنَبِيِّهِ ﷺ في تكذيب مَنْ كَذَبه من قومه، وأمراً له بالصبر عليهم، ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾، أي: في شَيْخِ الْأَوَّلِينَ، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾، أي: يُكْذِبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾، أي: فأهلكنا المُكذِّبِينَ بالرسل، وقد كانوا أَشَدَّ بَطْشًا، من هؤلاء المُكذِّبِينَ لك يا محمد؟ كقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢]، والآيات في ذلك كثيرة جداً. وقوله جل جلاله: ﴿وَصَعَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾، قال مجاهد: سُنَّتُهُمْ. وقال قتادة: عُقُوبَتُهُمْ. وقال غيرهما: عبرتُهم. أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المُكذِّبِينَ أن يُصِيبَهُمْ ما أَصَابَهُمْ، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾، وكقوله جل عظمته: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال عز وجل: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: فإرشاً قراراً ثابتة، تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتتصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: طُرُقًا بين الجبال والأودية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: في سيركم من بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَقَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾، أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾، أي: أرضاً مَيِّتَةً، فلما جاءها الماء اهتزت وزبت وأنبثت من كل زوج بهيج. ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾. ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، أي: مما تُنبِثُ الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾، أي: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، أي: دَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَيَسَّرَهَا لَكُمْ لِحومها، وشربكم ألبانها وزكويكم ظهورها، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾، أي: لتستوا وتمكنين مُرتَفِقِينَ، ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾، أي: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ

تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴿١٤﴾، أي: فيما سَحَّرَ لكم ﴿١٣﴾ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَحَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾، أي: مُقَاوِمِينَ. ولولا تسخيرُ الله لنا هذا ما قَدَّرْنَا عَلَيْهِ. قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطْبِقِينَ. ﴿وَإِنَّا لَمَّا كُنَّا لَنَا لَسْقَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾، أي: لصاترون إليه بعد ممانتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما تَبَّه بالزاد الدنيوي على الأخرى في قوله: ﴿وَكُرِّدُوا فَبِأَكْ حَيْرَ أَزَادِ النَّفْثَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسِ النَّفْثَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ذكرُ الأحاديثِ الواردةٍ عند رُكُوبِ الدَابَّةِ:

[٥٩٥٩] حديثُ أميرِ المؤمنينِ عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه: قال الإمامُ أحمدُ - حدثنا يزيدُ، حدثنا شريكُ بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن عليِّ بن ربيعةَ قال: رأيتُ عليًّا - رضي الله عنه - أتيَ بدابَّةٍ فلما وُضِعَ رجله في الرُّكَّابِ قال: باسمِ الله. فلما استوى عليها قال: الحمدُ لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَحَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا لَمَّا كُنَّا لَنَا لَسْقَلُونَ ﴿١٤﴾، ثم حَمَدَ الله ثلاثاً، وكَبَّرَ ثلاثاً، ثم قال: سُبْحَانَكَ، لا إله إلا أنت، قد ظَلَمْتُ نفسي فاغفر لي. ثم ضَحِكُ فقلت له: مِمَّ ضَحِكْتَ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسولَ الله - ﷺ - فَعَلَّ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ. ثم ضَحِكُ. فقلت: مِمَّ ضَحِكْتَ يا رسولَ الله؟ فقال: «يَعَجِبُ الرَّبُّ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ، اغْفِرْ لِي. ويقول: علمَ عبدي أنه لا يغفر الذنوبَ غيري»^(١). وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديثِ أبي الأحوص - زاد النسائي: ومنصورٌ - عن أبي إسحاق السبيعي، عن عليِّ بن ربيعةِ الأسديِّ الوالبي، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وقد قال عبدُ الرحمن بن مهدي، عن شعبة: قلتُ لأبي إسحاق السبيعي: ممن سَمِعْتَ هذا الحديث؟ قال: من يونس بن حَبَابٍ. فَلَقِيْتُ يُونُسَ بْنَ حَبَابٍ فَقُلْتُ: مِمَّنْ سَمِعْتَهُ؟ فقال: من رَجُلٍ سَمِعَهُ من عليِّ بن ربيعةَ. ورواه بعضهم عن يونس بن حَبَابٍ، عن شقيقِ بن عُقْبَةَ الأسديِّ، عن عليِّ بن ربيعةِ الوالبيِّ، به.

[٥٩٦٠] حديثُ عبدِ الله بن عباس - رضي الله عنه: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس أن رسولَ الله - ﷺ - أُرْفِدَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، فلما استوى عليها كَبَّرَ رسولُ الله - ﷺ - ثلاثاً، وحَمَدَ ثلاثاً، وهَلَّلَ الله واحدةً. ثم استلقى عليه فَضَحِكَ، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركبُ دابَّةً فيصنعُ كما صنعتُ، إلا أقبلَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليه، فَضَحِكَ إِلَيْهِ كما ضَحِكْتُ إِلَيْكَ»^(٢). تفرد به أحمد.

[٥٩٦١] حديثُ عبدِ الله بن عُمَرَ - رضي الله عنه: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو كامل، حدثنا حَمَادُ بن سلمة، عن أبي الزبير، عن علي بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عُمَرَ - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - كان إذا رَكِبَ راحلته كَبَّرَ ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَحَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٦٠٢ والترمذي ٣٤٤٦ والنسائي في «اليوم والليلة» ٥٠٢ وأحمد ٩٧/١ وابن حبان ٢٦٩٨، ورجاله رجال البخاري ومسلم، وقد صرح أبو إسحاق بالإخبار عند البيهقي، لكن ساق المصنف ما يدل على أنه لم يسمعه منه، وقد توبع عند الحاكم ٩٨/٢ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٠/١ بإسناد ضعيف لضعف أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، ثم هو منقطع بين علي وابن عباس، لكن يشهد لأصله ما قبله.

إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ». ثم يقول: «اللَّهُمَّ، إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ واطْوِ لَنَا البَعِيدَ. اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ. اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا». وكان إذا رَجَعَ إلى أهله قال: «أَبِیُونَ تَائِبُونَ إن شاء الله، عابِدُونَ، لربنا حابِدُونَ»^(١). وهكذا رواه مسلمٌ وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جُرَیج - والترمذي من حديث حَمَادِ بن سَلْمَةَ - كلاهما عن أبي الزبير، به.

[٥٩٦٢] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن عمرو بن الحكم بن ثوبان، عن أبي لاس الخُزاعي قال: حَمَلْنَا رسولَ الله - ﷺ - على إبل من إبل الصدقة إلى الحج، فقلنا: يا رسولَ الله، ما نرى أن تحملنا هذه! فقال ﷺ: «ما من بعير إلا في ذرْوَتِهِ شيطانٌ، فاذْكُرُوا اسمَ الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم، ثم امتئثوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله - عزَّ وجلَّ -»^(٢). أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خَلَفٍ.

[٥٩٦٣] حديث آخر في معناه، قال أحمد: حدثنا عَتَاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أخبرنا أسامة بن زید، أخبرني محمد بن حَمْزَةَ: أنه سَمِعَ أباه يقول: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «على ظهرِ كُلِّ بعيرٍ شيطانٌ، فإذا ركبتموها فسموا الله - عزَّ وجلَّ - ثم لا تقصروا عن حاجاتكم»^(٣).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَتَشَوُّوا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَسُكُونٌ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَأْ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مُخْبِرًا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى، كما ذكر الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَكَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكُمْ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦﴾﴾. وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ وَإِلَّا إِذَا نَسَمَةُ ضَرِيحًا ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢]. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾. ثم قال جل وعلا: ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾، وهذا إنكارٌ عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٣٤٢ وأبو داود ٢٥٩٩ والنسائي في (اليوم والليلة) ٥٤٨ وابن حبان ٢٦٩٦.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٢١/٤ والطبراني ٣٣٤/٢٢، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/١٣١: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث في إحداهما اهـ. وللحديث شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤٩٤/٣ والدارمي ٢٨٥/٢ وابن حبان ١٧٠٣ و٢٦٩٤ وإسناده حسن. وله شاهد من حديث عقبة بن عامر، أخرجه الطبراني ٨٧٨١/١٧ وقال في «المجمع» ١/١٣١: إسناده حسن.

الإِنْكَارِ فَقَالَ جَلَّتْ عَظْمَتُهُ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾، أي: إذا بُشِّرَ أحدٌ هؤلاء مما جَعَلُوهُ اللهُ من البناتِ يَأْتُفُ من ذلك غَايَةَ الأَنْفَةِ، وتعلوه كَابَةٌ من سُوءٍ ما بُشِّرَ بِهِ وَيَتَوَارَى من القومِ من حَجَلِهِ من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونوه إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -! ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْمَنُ يُشْشَرُ فِى الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِى الْخِصَابِ عِزٌّ مَيِّينٌ ﴿١٨﴾﴾، أي: المرأة ناقصة يُكْمَلُ نَقْضُهَا بِلبسِ الحَلِيِّ منذ تكون طفلةً، وإذا خَاصَمَتْ فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيْيَةٌ، أو من يكون هكذا يُنسَبُ إلى جنابِ الله العظيم! الأنتى ناقصةُ الظاهرِ والباطنِ في الصورة والمعنى، فَيُكْمَلُ نَقْضُ ظَاهِرِهَا وَصُورَتِهَا بِلبسِ الحَلِيِّ وما في معناها، لِيَجْبُرَ ما فيها من نقص، كما قال بعضُ شعراءِ العَرَبِ:

وَمَا الْحَلِيِّ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيسَةٍ يُتَمَّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصُرَا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالَ مُوقِرًا كَحُسْنِكَ لَمْ يَخْتَجِ إِلَى أَنْ يُزَوَّرَا

وأما نقصُ معناها فإنها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصارِ عند الانتصارِ، لا عبارة لها ولا هِمةً، كما قال بعضُ العربِ وقد بُشِّرَ بنت: ما هي بِنِعْمِ الوَلَدِ: نَصَرُهَا بِالْبِكَاءِ، وبرها سِرِقة. وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْتًا﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾، أي: شاهدوه وقد خَلَقَهُمُ اللهُ إِنثًا؟! ﴿سَتَكُنُّنَّ شَهَدَاتُهُمْ﴾، أي: بذلك، ﴿وَيُسْتَلَوْنَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووَعِيدٌ أكِيدٌ. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، أي: لو أراد اللهُ لَحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الأَصْنَامِ، التي هي على صُورِ الملائكة التي هي بناتُ اللهُ، فإنه عالمٌ بذلك، وهو يُقَرِّرُنَا عليه، فَجَمَعُوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعَلَهُمُ اللهُ ولدًا، وقد تعالى وتقدَّس وتزَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البناتِ على البنين، فَجَعَلُوا الملائكةَ الذين هم عباد الرحمن إنثًا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهانٍ، ولا إذنٍ من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، بل بمجرَّد الآراء والأهواء، والتقليدِ للأسلافِ والكُبراءِ والآباءِ، والخَبِطِ في الجاهلية الجَهْلَاءِ.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدْرًا، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشدَّ الإنكارِ، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتبِ يأمرُ بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبُّوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٣٦]. وقال عز وجل: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾. وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حُجَّتَهُمْ هذه: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويتقولون. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، يعني: ما يعلمون قُدْرَةَ اللهُ تبارك وتعالى على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِرُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهُمْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُتَّقِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قُلْ أُولُو حِشْمَتِكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾، أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُمْ بِهِ سَمْتَكُونَ﴾، أي: فيما هم فيه. أي: ليس الأمر كذلك، كقوله عز وجل: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الروم: ٣٥]، أي: لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّتَمَدُّونَ﴾ ﴿٢٦﴾، أي: ليس لهم مُسْتَدُّ فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على آثره، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾، أي: ورآهم ﴿مُتَمَدُّونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل. ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِرًّا أَوْ جَهْرًا مِّثْلُ مَا أَتَىٰ آبَاءَنَا وَإِنَّا بآبَائِهِمْ كَاثِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّتَمَدُّونَ﴾ ﴿٢٨﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّمَّا يَخْتَلِفُ فِيهَا آثَرُ آبَائِكُمْ أَتَأْتُونَ بِبُرْهَانٍ﴾ ﴿٢٩﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَأَنقَضْنَا وَرَيْهَانَهُمْ﴾، أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم، ﴿فَأَنقَضْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾؟ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجي الله المؤمنين؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَنَعَتْ هُنَالِكَ ءِآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمِ ﴿٣١﴾ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ سُلْطَانًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُر بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَابْيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُشْكُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليه إمام الحنفاء، والذم من بُعث بعده من الأنبياء، الذي تنسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ، أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأنداد، وهي: لا إله إلا الله، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم - عليه السلام -، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾، يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَنَعَتْ هُنَالِكَ ءِآبَاءَهُمْ﴾، يعني المشركين، ﴿وَءِآبَاءَهُمْ﴾، أي: فتناول عليهم العمر في ضلالهم، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بين الرسالة والندارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا

هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ ، أي: كَابَرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوهُ بِالصُّدُورِ وَالرَّاحِ كُفْرًا وَحَسَدًا وَبُغْيًا، ﴿وَقَالُوا﴾ كَالْمَعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْكُفْرَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيظِيِّ عَظِيمٍ﴾ ، أي: هَلَّا كَانَ أَنْزَالَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرِيظِيِّينَ؟ يَعْنُونَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ . قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَعِكْرَمَةُ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ زَيْدٍ . وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ : أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ . وَقَالَ مَالِكٌ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَالضَّحَّاكِ ، وَالسُّدِّيِّ : يَعْنُونَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ ، وَمَسْعُودَ بْنَ عَمْرٍو الثَّقَفِيِّ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ : يَعْنُونَ عُمَيْرَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ . وَعَنْهُ أَيْضًا : أَنَّهُمْ يَعْنُونَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : جَبَّارٌ مِنْ جَبَابِرَةِ قَرِيشٍ . وَعَنْهُ : أَنَّهُمْ يَعْنُونَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ ، وَحَبِيبَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ عُمَيْرِ الثَّقَفِيِّ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ : يَعْنُونَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ بِمَكَّةَ ، وَابْنَ عَبْدِ يَالِيلِ بِالطَّائِفِ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : عَنُوا بِذَلِكَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ ، وَكَانَتْهُ مِنْ عَبْدِ عَمْرٍو بْنَ عُمَيْرِ الثَّقَفِيِّ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُرَادَهُمْ رَجُلٌ كَبِيرٌ مِنْ أَبِي الْبَلَدَتَيْنِ كَانَ . قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْإِعْتِرَاضِ : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ رَحِمَتَ رَبِّكَ﴾ ، أي: لَيْسَ الْأَمْرُ مَرْدُودًا إِلَيْهِمْ ، بَلْ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُنْزِلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا ، وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتًا ، وَأَطْهَرِهِمْ أَصْلًا .

ثم قال تعالى مُبَيِّنًا أَنَّهُ قَدْ فَاءَتْ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ الْفُهُومِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَقَالَ : ﴿مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ لِيَسْخَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ ، لِاحْتِيَاجِ هَذَا إِلَى هَذَا ، وَهَذَا إِلَى هَذَا ، قَالَه السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ ، وَالضَّحَّاكُ : لِيَمْلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى الْأَوَّلِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ حَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ، أي: رَحْمَةُ اللهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ، أي: لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنْ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ . هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالْحَسَنِ ، وَقَتَادَةَ ، وَالسُّدِّيِّ ، وَغَيْرِهِمْ ، ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ، أي: سَلَاطِمَ وَدَرَجَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، وَغَيْرِهِمْ ، ﴿عَلَيْهَا يُظْهِرُونَ﴾ ، أي: يَصْعَدُونَ ، ﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ آيَاتِكَا﴾ ، أي: أَغْلَاقًا عَلَى آبَائِهِمْ ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكُونَ﴾ ، أي: جَمِيعٌ ذَلِكَ يَكُونُ فَضَّةً ، ﴿وَزُخْرَفًا﴾ ، أي: وَذَهَبًا ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ زَيْدٍ . ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَإِنْ كُنَّ لَكُمْ لَمَّا مَتَّعَ الْخَيْرَ الدُّنْيَا﴾ ، أي: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، أَي: يَعْجَلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَأْكَلٌ وَمَشَارِبٌ ، لِيُؤَفِّقُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ .

[٥٩٦٤] وقد ورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء»^(١) ، أسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعيد ، عن النبي - ﷺ - ، فذكره .

[٥٩٦٥] ورواه الطبراني من طريق زمة بن صالح ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعيد ، عن النبي - ﷺ - : «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافراً منها شيئاً»^(٢) . ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، أي: هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ وَلَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ .

(١) صحيح . تقدم تخريجه في البقرة ٢٦ .

(٢) صحيح . أخرجه الطبراني ٥٩٢١/٦ وفيه زمة بن صالح ضعيف ، لكن توبع ، وللحديث شواهد .

[٥٩٦٦] ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله - ﷺ - حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى من سائه، فرآه على رمال حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله - ﷺ - متكئاً فجلس وقال: «أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا». وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!»^(١).

[٥٩٦٧] وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٢). وإنما حوّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها.

[٥٩٦٨] كما روى الترمذي وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لو كانت الدنيا تزئ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»^(٣)، قال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَفْعَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأَصْمَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾، أي: يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا عشا البصيرة، ﴿نَقِيضَ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله جل جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله جل جلاله: ﴿وَقِيَّسْنَا لَكُمْ قُرْآنًا فَرِينُوا لَكُمْ تَأْيِينَ آيَاتِهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]. ولهذا قال تبارك وتعالى هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾، أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقض له من الشياطين من يضلّه، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به، ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ﴾. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا»، يعني القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع^(٤) بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ

(١) تقدم في الأحزاب، أخرجه مسلم وغيره.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٢٦ ومسلم ٢٠٦٧ وابن حبان ٥٣٣٩.

(٣) صحيح، وتقدم.

(٤) سفع بيده: أخذها وقبض عليها بشدة.

الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٤٣﴾ . والمراد بالمشرقين ههنا هو: ما بين المشرق والمغرب . وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، قاله ابن جرير وغيره .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ، أي: لا يُغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . وقوله جلت عظمتة: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّهْرَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ ، أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحَكَمُ العَدْلُ في ذلك . ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ، أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهب أنت، ﴿أَوْ نُرِيتَكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقَدِّرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ، أي: نحن قَادِرُونَ على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله رسوله - ﷺ - حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملّكه ما تَضَمَّتْهُ صَيَاصِيهِمْ^(١) . هذا معنى قول السدّي، واختاره ابن جرير .

[٥٩٦٩] وقال ابن جرير: حدّثنا ابن عبد الأعلى، حدّثنا ابن ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فقال: ذهب النبي - ﷺ - وبقيت النعمة، ولم ير الله نبيه - ﷺ - في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم - ﷺ - . قال: وذكر لنا أنّ رسول الله - ﷺ - أرى ما يصيب أمته من بعده، فما رُئي ضاحكاً مُنْبَسِطاً حتى قبضه الله - عزّ وجلّ^(٢) - . وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة نحوه . ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً .

[٥٩٧٠] وفي الحديث: «النجوم أمّنة للسماء، فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما تُرعدُ، وأنا أمّنة لأصحابي، فإذا ذهبَت أتى أصحابي ما يُوعدون»^(٣) . ثم قال تعالى: ﴿فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٨﴾﴾ ، أي: خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمَنْزُولِ عَلَى قَلْبِكَ، فإنه هو الحقُّ، وما يهدي إليه هو الحقُّ المُفْضِي إلى صراطِ الله المستقيم، الموصِّل إلى جناتِ النعيم، والخير الدائم المقيم .

ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴿٤٩﴾﴾ ، قيل: معناه لَشَرَفُكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والسدّي، وابن زيد، ومعناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم . واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه .

[٥٩٧١] وأورد البَغَوِيُّ هاهنا حديثَ الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يقول: «إن هذا الأمر في قریش لا يُنازِعُهُمْ فيه أحد إلا أکبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين»^(٤) . رواه البخاري . وقيل: معناه ﴿وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴿٤٩﴾﴾ ، أي: لتذكيرك لك ولقومك . وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم . كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:

(١) الصياصي: الحصون .

(٢) ضعيف . أخرجه الطبري ٣٠٨٧٢ و ٣٠٨٧٣ عن قتادة، وهذا مرسل . ومع إرساله، ذكره بصيغة التمرير . وورد عن الحسن ٣٠٨٧١ من قوله لم يعزه لأحد .

(٣) صحيح . أخرجه مسلم ٢٥٣١ وأحمد ٣٩٨/٤ - ٣٩٩ وأبو يعلى ٧٢٧٦ من حديث أبي بردة .

(٤) صحيح . أخرجه البخاري ٣٥٠٠ وأحمد ٩٤/٤ والبغوي في «معالم التنزيل» ١٨٨٨ - بترقيم .

[١٠]، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ﴿وَسَوْفَ تَشْكُرُونَ﴾، أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَنَاطِرًا مَّاءً غَيْرًا لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟ أي: جميع الرسل دَعَوَا إلى ما دَعَوَتِ النَّاسَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَهَوَا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ. كقوله جلَّتْ عِزَّتُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاةَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٣٦]، قال مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رُسُلَنَا». وهكذا حكاه قتادة، والضحاك، والسدي، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ جُمِعُوا لَهُ. واختار ابن جرير الأول؛ والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْعَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُزِجُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنو إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظيمة، كيديه وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والشراب، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى - عليه السلام - ويتلطفون له في العبارة بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾، أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعيمهم ففي كل مرة يبعثون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل. وفي كل مرة يبعثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ بِكَ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤٧﴾﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِذْ هُمْ يُكْفَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّبِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعثوه وكفره وعنايه: أنه جمع قومه، فنادى فيهم مُتَّبِعًا مُّفْتَجِرًا

بمُلْكٍ مِصْرَ وَتَصَرَّفَهُ فِيهَا: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنانٌ وأنهارٌ ماءٌ، ﴿أَفَلَا تَتَّبِعُونَ﴾، أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: موسى وأتباعه فقرأه ضِعْفَاءُ. وهذا كقولهِ تعالى: ﴿فَمَشَرَ فَنَادَى ﴿١٣٦﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿١٣٧﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥]. وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، قال السُّدِّيُّ: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نُحاة البصرة: إن (أم) ههنا بمعنى (بل). ويؤيد هذا ما حكاه القُرَّاءُ عن بعض القُرَّاءِ أنه قرأها: «أنا أنا خير من هذا الذي هو مهين»، قال ابن جرير: ولو صحَّت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، على الاستفهام. قلت: وعلى كلِّ تقدير فإنما يعني فرعون - عليه اللعنة - بذلك أنه خير من موسى - عليه السلام - وقد كَذَّبَ في قوله هذا كذباً بيّناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعةُ إلى يومِ القيامة. ويعني بقوله ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حَقِير. وقال قتادة، والسُّدِّيُّ: يعني ضعيف. وقال ابن جرير: يعني لا مُلْكَ له ولا سُلْطَانَ ولا مَالًا. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، يعني: لا يكاد يُفصِّحُ عن كلامِهِ، فهو عَيْبِي حَصِرٌ. قال السُّدِّيُّ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، أي: لا يكاد يُفهَمُ. وقال قتادة: والسُّدِّيُّ، وابنُ جرير: يعني عَيْبِي اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيءٌ من الجَمْرَةِ حين وَضَعَهَا فِي فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ. وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كَذِبٌ واختلاقٌ، وإنما حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الكَفْرِ والعنادِ، وهو ينظرُ إلى موسى - عليه السلام - بعينِ كَافِرَةٍ شَقِيَّةٍ، وقد كان موسى - عليه السلام - من الجَلَالَةِ والعَظَمَةِ والبهاءِ في صورةِ يَبْهَرِ أَبْصَارِ ذَوِي الْأَبْطَابِ. وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كَذِبٌ، بل هو المَهِينُ الحَقِيرُ خَلْقَةً وَخُلُقًا ودينًا. وموسى هو الشريفُ الرئيسُ الصادقُ البارُّ الراشدُ. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراءٌ أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حالِ صَغَرِهِ شيءٌ من جهة تلك الجَمْرَةِ، فقد سأل الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يُحِلَّ عَقْدَةً من لسانه لِيَفْقَهُوا قَوْلَهُ، وقد استجاب اللهُ تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيءٌ لم يسأل إزالته، كما قاله الحسنُ البصريُّ، وإنما سأل زوالَ ما يحصل معه الإبلاغُ والإفهامُ، فالأشياءُ الخَلْقِيَّةُ التي ليست من فعل العبد لا يُعَابُ بها ولا يُدَمُّ عليها، وفِرْعَوْنُ وإن كان يفهمُ وله عقلٌ فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويحَ على رَعِيَّتِهِ، فإنهم كانوا جهلةً أغبياءَ، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسْرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾، أي: وهي ما يُجَعَلُ في الأيدي من الحُلِيِّ، قاله ابنُ عباسٍ وقاتدةٌ وغيرُ واحدٍ، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّبِينَ﴾، أي: يكتنِفُونَهُ خِدْمَةً له ويشهدون بتضديقه، نظرُ إلى الشُّكْلِ الظاهر، ولم يفهم السِّرَ المعنويُّ الذي هو أظهرُ مما نظر إليه، لو كان يعلمُ، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾، أي: استخفَّ عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾. قال اللهُ تعالى: ﴿ءَأَسْفُونَا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ءَأَسْفُونَا﴾: أسخَطُونَا. وقال الضحَّاكُ، عنه: أغضَبُونَا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبَّير، ومحمد بن كعب القُرظي، وقاتدة، والسُّدِّيُّ، وغيرهم من المفسرين.

[٥٩٧٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبید الله ابنُ أخي ابنِ وهبٍ، حدثنا عمي، حدثنا ابنُ لَهِيعةَ، عن عقبه بن مسلم التُّجِيبِي، عن عقبه بن عامر، أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «إذا رأيتَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - يعطي العبدَ ما شاء وهو مُقيمٌ على معاصيه، فإنما ذلك استدراجٌ منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا ءَأَسْفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ (١).

(١) إسناده ضعيف، وله علتان: ضعف ابن أخي ابن وهب وابن لهيعة، وتقدم في أواخر سورة الأعراف.

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجُماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موث الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾﴾. وقال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه -: وجدت النعمة مع الغفلة. يعني قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿فَجَمَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾، قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم. وقال هو، ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾، أي: عبرة لمن بعدهم. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلهْتُمَا خَيْرًا أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لِعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَبِالْبَيِّنَاتِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾، قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والسدي: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يُعْرِضُونَ.

[٥٩٧٣] وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله - ﷺ -، فيما بلغني - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله - ﷺ - فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله - ﷺ - حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]. . الآيات. ثم قام رسول الله - ﷺ - وأقبل عبد الله بن الزبير التيمي، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل ما يُعبد من دُونِ اللَّهِ في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم؟ فَعَجِبَ الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ»، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أي: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله - عزَّ وجلَّ -، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دُونِ اللَّهِ. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عَسَاوْا مَكْرُومًا ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]. . الآيات، ونزل فيما يُذكر من أمر عيسى وأنه يُعبد من دُونِ اللَّهِ. وعجب الوليد ومن

حضر ومن حُجته وحُصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧)، أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٨) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ لَمُتَّةً فِي الْأَرْضِ يَتَخَلَّفُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦٠﴾، أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسياف، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمَتَّرْتُمْ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١). وذكر ابن جرير من رواية العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧)، قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكُمْ﴾ (٦٢) . . . إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يُريد هذا إلا أن نتَّخذه رباً، كما اتخذت النصرى عيسى ابن مريم رباً. فقال الله تعالى: ﴿مَا صَرَّفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَوْفُونَ﴾ (٦٣).

[٥٩٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي زرين، عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفتطئوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طُفِقَ يُحَدِّثُنَا، فلما قام تلامننا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غداً. فلم راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفتنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله - ﷺ - قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير». وقد علمت قريش أن النصرى تعبد عيسى ابن مريم. وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولون؟ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧). قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة (٦٣).

[٥٩٧٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي أحمد مولى الأنصار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فقد كان يُعبد من دون الله؟ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧). وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ (٥٧)، قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبد كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة. وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: (وقالوا آلهتنا خير أم هذا)، يعنون محمداً - ﷺ -.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا صَرَّفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، يعني: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوراد على الآية،

(١) هذا معضل، لكن له طرق وشواهد، وتقدم في سورة الأنبياء، آية: ٩٨ - ١٠١.

(٢) فيه عطية العوفي ضعيف، لكن للخبر طرق، وتقدم.

(٣) أخرجه أحمد ٣١٨/١ وإسناده ضعيف لجهالة أبي يحيى.

(٤) إسناده ضعيف لجهالة أبي أحمد، وتقدم مع ما قبله في سورة المؤمنون.

لأنها لما لا يعقل، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾، ثم هي خطابات لقریش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يورثوه، فتعين أن مقاتلتهم إنما كانت جدلاً، منهم ليسوا يعتقدون صحتها.

[٥٩٧٦] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا صَرَّيْتُمْ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(١). وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به. ثم قال الترمذي: «حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه». كذا قال، وقد روي من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة.

[٥٩٧٧] فقال ابن أبي حاتم. حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة قال حماد: لا أدري رفته أم لا؟ قال: ما ضلت أمة بعد نبياها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبياها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿مَا صَرَّيْتُمْ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٢).

[٥٩٧٨] وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة أن رسول الله - ﷺ - خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا صَرَّيْتُمْ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، يعني عيسى - عليه السلام - ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَحَمَلْنَاهُ مَثَلاً لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ﴾، أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء. وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا نِكَاحَ﴾، أي: بدلكم ﴿مَثَلِكُمْ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ - قال السدي: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقاتدة: يخلف بعضهم بعضاً، كما يخلف بعضكم بعضاً. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرن الأرض بدلكم. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَوَالِمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بيعت به عيسى - عليه السلام - من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفي هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قاتدة، عن الحسن البصري وسعيد بن جبير: أن الضمير في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، أي: قبل موت عيسى ثم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَوَالِمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي: أمانة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُمْ لَوَالِمٌ

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣٢٥٣ وابن ماجه ٤٨ وأحمد ٢٥٢/٥ والحاكم ٤٤٨/٢ والطبري ٣٠٩٣٨ والآجري في «الشرعة» ١٠٢ و١٠٣ ومداره على أبي غالب واسمه حزور، وهو غير قوي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وتابعه القاسم كما سيأتي، فهو حديث حسن.

(٢) فيه القاسم بن عبد الرحمن، وهو ضعيف الحديث، وقد شك حماد في رفعه. وصدده غريب، وأما عجزه، فله طريق آخر، وهو المتقدم.

(٣) أخرجه الطبري ٣٠٩٤٠ وفيه جعفر بن الزبير، متروك الحديث. والقاسم، ضعيف أيضاً.

لِلسَّاعَةِ ﴿٦٦﴾، أي: آيةٌ للسَّاعةِ خروجُ عيسى ابنِ مَرْيَمَ قبل يومِ القيامةِ. وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيْرَةَ، وابنِ عَبَّاسٍ، وأبي العالية، وأبي مالكٍ، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديثُ عن رسولِ الله - ﷺ - أنه أخبر بظولِ عيسى - عليه السلام - قبل يومِ القيامةِ إماماً عادلاً، وَحَكماً مُقْسِطاً. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، أي: لا تَشْكُوا فيها أنها واقعةٌ وكائنةٌ لا محالةٌ، ﴿وَأَتَّبِعُونَّ﴾، أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾، أي: عن اتباعِ الحقِّ، ﴿إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾، أي: بالنبوةِ، ﴿وَلَا أُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، قال ابنُ جرير: يعني من الأمورِ الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حسنٌ جيدٌ، ثم ردُّ قولٍ من زعم أن ﴿بَعْضٌ﴾ هاهنا بمعنى (كُلُّ)، واستشهد بقول لبيد الشاعر حيث قال:

تَرَكَ أَمَكِنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامَهَا

وأولوه على أنه أراد جميعَ النفوسِ. قال ابنُ جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبرَ بالبعضِ عنها. وهذا الذي قاله مُحتمَلٌ. وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، فيما جئتمكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾، أي: أنا وأنتم عبيدٌ له، فُقرأ إليه، مُشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي جئتمكم به هو الصراطُ المستقيمُ، وهو عبادةُ الربِّ - عزَّ وجلَّ - وَحْدَهُ. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّخَذَ الْأَعْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، أي: اختلفتِ الفِرَقُ وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبدُ الله ورسوله - وهو الحقُّ - ومنهم من يدعي أنه ولدُ الله، ومنهم من يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال تعالى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَدَابِ يَوْمٍ أُبَيْرِ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٩﴾ يَعْبادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٧٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧١﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٢﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٣﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ لَكُمْ فِيهَا فَلَاحٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسولِ ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: فإنها كائنةٌ لا محالةٌ وواقعةٌ، وهؤلاء غافلون عنها غير مُستَعِدِّين. فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذٍ يندمون كلَّ الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٠﴾، أي: كلُّ صداقةٍ وصحابةٍ لغيرِ الله فإنها تنقلبُ يومَ القيامةِ عداوةً إلا ما كان لله - عزَّ وجلَّ - فإنه دائمٌ بدوامِهِ. وهذا كما قال إبراهيم - عليه السلام - لِقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْيَوْمِئِذِيِّ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَبَلَّغْتَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نُصِيرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وقال عبدُ الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧١﴾، قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفِّي أحدُ المؤمنينُ وبُشِّرَ بالجنةِ فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعةِ رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرِّ، ويُبَيِّنُ لِي آتِي مَلَائِكِكَ، اللَّهُمَّ فلا تُضِلَّهُ حتى تُرِيه مثل ما أريتنِي، وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً وبكيت قليلاً. قال: ثم

يموت الآخرُ، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الآخر، ونعم صاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبُشِّر بالنار ذَكَرَ خليله فيقول: اللهم، إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشَّرِّ وينهاني عن الخير، ويُخبرني أنني غير ملائك، اللهم فلا تهدي بهدي حتى تُريه مثل ما أريتني، وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر، فيُجمع بين أرواحهما. فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: يثن الآخر، ويثن صاحب، ويثن الخليل. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

[٥٩٧٩] وَرَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجُمَةِ هِشَامِ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْخَضِرِ بِالرَّقَّةِ، عَنِ الْمُعَاوَى: حَدَّثَنَا حَكِيمُ بْنُ نَافِعٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، أَحَدُهُمَا بِالْمَشْرِقِ وَالْآخَرُ بِالْمَغْرِبِ، لَجَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: هَذَا الَّذِي أَحْبَبْتَنِي فِي» (١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَتَوَدَّأُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ: إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ النَّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا فَرَحٌ، فَيُنَادِي مَنَادٌ: ﴿يَتَوَدَّأُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فِيرْجُوها النَّاسُ كُلُّهُمْ، قَالَ: فَيُنْبِغُهَا: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، قَالَ: فَيَأْسُ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، أي: يُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، أي: نُظَرَاؤُكُمْ ﴿تَحْزَنُونَ﴾، أي: تَنْعَمُونَ وَتَسْعَدُونَ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الرَّومِ. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾، أي: زَبَادِي آيَةِ الطَّعَامِ، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾، وهي: آيَةُ الشَّرَابِ، أي: مِنْ ذَهَبٍ، لَا خَرَّاطِيمَ لَهَا وَلَا عُرَا، (وفيها ما تشتهي الأنفس) - وقرأ بعضهم: ﴿تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ - ﴿وَتَكَلِّدُ الْأَعْيُنُ﴾، أي: طَيَّبَ الطَّعْمَ وَالرِّيحَ، وَحَسَّنَ الْمَنْظَرَ.

[٥٩٨٠] قَالَ عَبْدُ الرَّزَاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ - مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ وَأَسْفَلُهُمْ دَرَجَةٌ لَرَجُلٍ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، يُفْسَخُ لَهُ فِي بَصَرِهِ مَسِيرَةٌ مِثْلَ مِائَةِ عَامٍ فِي قُصُورٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَخِيَامٍ مِنْ لَوْلُؤٍ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ شَبِهُ إِلَّا مَعْمُورٌ يَغْدَى عَلَيْهِ وَيُرَاحُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ صَحْفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، لَيْسَ فِيهَا صَحْفَةٌ إِلَّا فِيهَا لَوْنٌ لَيْسَ فِي الْآخَرَى مِثْلَهُ، شَهْوَتُهُ كَشَهْوَتِهِ فِي أَوْلَئِهَا، لَوْ نَزَلَ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ لَوُسِّعَ عَلَيْهِمْ مِمَّا أُعْطِيَ، لَا يَقْضَى ذَلِكَ مِمَّا أُوتِيَ شَيْئاً» (٢).

[٥٩٨١] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْجَعْفَرِيِّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ سَوَادٍ السُّزُجِيُّ،

(١) إسناده ضعيف. فيه محمد بن الخضر، لم أجد من ترجمه. وحكيم بن نافع، هو الرُّقِّي، قال أبو زرعة: ليس بشيء. وقال ابن معين: ليس به بأس. وجاء عن ابن معين تليينه. وقال الذهبي: ساق له ابن عدي أحاديث، ما هي بالمتكررة جداً. راجع الميزان ٢٢٢٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢٧٨٥ عن عكرمة مرسلاً. فهو ضعيف.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، عَنْ ابْنِ لَهْيَعَةَ، عَنْ عُقَيْلِ بْنِ خَالِدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ أَبَا أَمَامَةَ حَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - حَدَّثَهُمْ - وَذَكَرَ الْجَنَّةَ - فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِيَأْخُذَنَّ أَحَدَكُمْ اللَّقْمَةَ فَيَجْعَلُهَا فِي فِيهِ، ثُمَّ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ طَعَامٌ آخَرَ، فَيَتَحَوَّلُ الطَّعَامُ الَّذِي فِي فِيهِ عَلَى الَّذِي اشْتَهَى» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

[٥٩٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن - هو ابن موسى - حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضريير، عن شهر بن حوشب، عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنْ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ أَنْ لَهُ لِسَبْعِ دَرَجَاتٍ، وَهُوَ عَلَى السَّادِسَةِ وَفَوْقَهَا السَّابِعَةُ، وَإِنْ لَهُ لثَلَاثُمِنَ خَادِمٍ، وَيُعْدَى عَلَيْهِ وَيُزَاحُ كُلُّ يَوْمٍ بِثَلَاثِمِنَ صَخْفَةٍ - وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: مَنْ ذَهَبَ - فِي كُلِّ صَخْفَةٍ لَوْ نَافِيسٌ فِي الْأُخْرَى، وَإِنَّهُ لَيَلِدُ أَوْلَاهُ كَمَا يَلِدُ آخِرُهُ، وَمِنَ الْأَشْرَبَةِ ثَلَاثُمِنَ إِنْءَاءٍ، فِي كُلِّ إِنْءَاءٍ لَوْ نَافِيسٌ فِي الْآخِرِ، وَإِنَّهُ لَيَلِدُ أَوْلَاهُ كَمَا يَلِدُ آخِرُهُ وَإِنَّهُ لَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لَوْ أَدْنَتْ لِي لِأَطْعَمْتَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَسَقَيْتَهُمْ، لَمْ يَنْقُصْ مِمَّا عِنْدِي شَيْءٌ، وَإِنْ لَهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ لاثنتين وسبعين زوجةً سوى أزواجه من الدنيا، وَإِنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ لِيَأْخُذُ مَقْعِدَهَا قَدْرَ مِيلٍ مِنَ الْأَرْضِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾، أي: لا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَبْتَغُونَ عَنْهَا جِوَالًا. ثم قيل لهم على وجه التفضيل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشُمُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِإِيَّاكُمْ، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَكِنْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ تَفَاوُتُهَا بِحَسَبِ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ.

[٥٩٨٣] قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعني الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَنْزِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿لَوْ أَنَّكَ اللَّهُ هَدَيْتَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]. وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَنْزِلَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَبْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، لِيَكُونَ لَهُ شُكْرًا». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَالْكَافِرُ يَرِثُ الْمُؤْمِنَ مَنْزِلَهُ مِنَ النَّارِ. وَالْمُؤْمِنُ يَرِثُ الْكَافِرَ مَنْزِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ». فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾، أي: مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ، وَفِيهَا تَأْكُلُونَ، أي: مِمَّا اخْتَرْتُمْ وَأَرْدْتُمْ. وَلَمَّا ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ لِتَيَمُّمِ النِّعْمَةِ وَالغَبَطَةِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) إسناده ضعيف لانقطاعه بين الحسن وأبي هريرة. وفي الإسناد ابن لهيعة، لكن لا بأس برواياته إن كان الراوي عنه أحد العبادلة. فالعلة فقط الانقطاع. وفي المتن نكارة والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٥٣٧/٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٦٦٦: رجاله ثقات على ضعف في بعضهم اهـ فيه شهر بن حوشب، صدوق يخطيء. وهو كثير الإرسال والرواية عن من لم يلقه، ولم يصرح بسماعه من أبي هريرة، وسكين بن عبد العزيز، ضعفه بعضهم، ووثقه الأكثر. وبقيه رجاله ثقات. فالإسناد ضعيف. وفي بعض ألفاظه غرابة.

(٣) في إسناده أبو بكر بن عياش، فيه ضعف، وفيه عنينة الأعمش وهو مدلس، وتقدم في الأعراف من وجه صحيح دون ذكر الآيتين.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَلَدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَمْلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لما ذَكَرَ تعالى حال السَّعْدَاءِ نَتَىٰ بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَلَدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾، أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾، أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكِكَ﴾ وهو خازن النار.

[٥٩٨٤] قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يحيى، عن أبيه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ﴿٧٤﴾؛ أي: ليُفْضِ أرواحنا فَيُرِيحَنَا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْفَظَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال عز وجل ﴿وَتَجَنَّبَاُ الرَّسُولَ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الاعلى: ١١ - ١٣] فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: إنكم ماکثون. رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها. ثم ذَكَرَ سبب شَقْوَتِهِمْ، وهو مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ ومَعَانِدَتُهُمْ لَهُ فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾، أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾، أي: ولكن كانت سجاياكم لا تُقْبَلُ ولا تُقْبَلُ عَلَيْهِ، وإنما تُنْقَاضُ لِلْبَاطِلِ وتُعْظَمُ، وتُضَدُّ عن الحق وتُأبَاهُ، وتُبْغِضُ أمله، فعدودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تُنْفَعُ الندامة. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، قال مجاهد: أرادوا كَيْدَ شَرٍّ فكندناهم. وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُومًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المُشْرِكِينَ كانوا يَتَحَيَّلُونَ في رَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِحَيْلٍ وَمَكْرٍ يَسْلِكُونَهُ، فكادَهُمُ اللهُ تعالى وَرَدَّ بِأَلِّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، أي: سرهم وعلانيتهم ﴿بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ﴾، أي: نحن نَعْلَمُ ما هم عليه والملائكةُ أيضاً يَكْتُوبُونَ أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّيَ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنْتَ يُوقِفُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ وَسَلِّمْ فَمَنْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدَّ فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ ، أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأنني عبد من عبّيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان، ولكن هذا مُمتنع في حقّه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَوَّلَ الْوَجْدِ الْقَهَّادُ﴾ [الزمر: ٤]. قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ ، أي: الأئنين. ومنهم سفيان الثوري، والبحاري حكاة فقال: ويقال ﴿أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ : الجاحدين، من عبّد يعبّد. وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدّثني ابن أبي ذئب، عن أبي قسيط، عن بَعْجَةَ بن زيد الجُهَني: أن امرأة منهم دَخَلت على زوجها - وهو رجل منهم أيضاً - فَوَلدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - فأمر بها أن تُرجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَحَلَّهُمْ وَفَصَلَّهُمْ لِنَبِئْتِهِمْ أَشْهُرًا﴾ [الأحاف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَصَلِّهِمْ فِي سَامِيٍّ﴾ [القمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبّد عثمان - رضي الله عنه - أن بعث إليها: تردّ - قال يونس: قال ابن وهب: عبّد: استنكف. وقال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأُ ذُو الْوُدِّ يُضْرِمُ خَلِيلَهُ
وَيَغْبِذُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا

وهذا القول فيه نظرٌ، لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فإنا مُمتنع منه؟ هذا فيه نظرٌ، فليُتأمل. اللهم إلا أن يقال: إن (إن) ليست شرطاً، وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدَّ﴾ ، يقول: لم يكن للرحمن ولد فإنا أولُ الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدَّ فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ ، أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي. وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدَّ فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ ، أي: فإنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: ﴿فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ ، أي: أول من عبّده ووحده وكذبكم. وقال البخاري: ﴿فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ : الأئنين. وهما لغتان رجل عابدٌ وعبّد. والأول أقرب على أنه شرطٌ وجزاء، ولكن هو ممتنع؛ وقال السدي: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدَّ فَاتَا أَوْلَى الْمَعْبُودِينَ﴾ ، يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبّده، بأن له ولداً، ولكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورّد قول من زعم أن «إن» نافية. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ، أي: تعالى وتقدّس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فردٌ أحدٌ صمدٌ، لا نظير له ولا كفء له، فلا ولد له. وقوله تعالى: ﴿فَدَرَّهْمٌ يَجْرُؤُا﴾ ، أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْمُؤُا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يَلْقُؤُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ، وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ ، أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبّده أهلها، وكلهم خاضعون له، أدلاءً بين يديه، ﴿وَهُوَ الْمَلِكُ الْحَلِيمُ﴾ . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الانعام: ٣]، أي: هو المدعو الله في السماوات والأرض. ﴿وَيَبَارِكُ الَّذِي لَكَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ، أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، و﴿وَيَبَارِكُ﴾ : أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الربُّ العليُّ العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ، أي: لا يُجَلِّبها لوقتها إلا هو، ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾ ، أي: فيجازي كلّاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ، أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَعَةَ﴾ ،

أي: لا يقدرُونَ على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لكن مَنْ شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفعُ شفاعتهُ عندهُ بإذنه له. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّهُ يُوقِفُونَ اللَّهَ﴾، أي: ولَكِنْ سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾، أي: هم يعترفون أنه الخالقُ للأشياء جميعاً وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدرُ على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُ يُوقِفُونَ اللَّهَ﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وقال محمد قبله، أي: شكاً إلى ربِّه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا ربِّ إن هؤلاء قومٌ لا يؤمنون، كما أخبرَ تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسَّر ابن جرير. قال البخاري: وقرأ عبدُ الله - يعني ابن مسعود - (وقال الرسول يا رب). وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فأبَّر الله عز وجل قولَ محمد ﷺ. وقال قتادة: هو قول نبيكم - ﷺ -، يشكُّو قومه إلى ربِّه - عزَّ وجلَّ - . ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوفٌ على قوله تبارك وتعالى: ﴿سَمِعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ والثاني: أن يُقدَّرَ فِعْلٌ «وقال قبله». والثانية: الخفضُ، وقيله عطفاً على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ تقديره: وعلمُ قبله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾، أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلِّمْ﴾، أي: لا تُجاوبهم بمثل ما يُخاطبُونَك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديدٌ منه تعالى لهم، ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لا يردُّ، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهادِ والجلاد، حتى دَخَلَ الناسُ في دينِ الله أفواجا، وانتشر الإسلامُ في المشارقِ والمغرب. والله أعلم.

أخرُ تفسيرِ سورةِ الزُّخْرِيفِ



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[٥٩٨٥] قال الترمذي: حدثنا سُفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب، عن عُمَر بن أبي خَثَم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ قرأ (حم - الدخان) في ليلةٍ أصيخَ يَسْتغْفِر له سبعون ألف ملك»^(١). ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خَثَم يُضَعَف؛ قال البخاري: منكر الحديث.

[٥٩٨٦] ثم قال: حَدَّثَنَا نَضْرَبُ بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحُبَاب، عن هشام أبي المقدم، عن الحسن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غُفِر له»^(٢). ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يُضَعَف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب، ويونس بن عُبيد، وعلي بن زيد.

[٥٩٨٧] وفي مُسنَد البزار من رواية أبي الطَّفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة: أن رسول الله - ﷺ - قال لابن صياد: «إني قد خَبأت خَبَأً فما هو؟» - وخبأ له رسول الله - ﷺ - سورة الدخان - فقال: هو الدُّخ، فقال: «أخساً، ما شاء الله كان». ثم انصرف^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٨﴾

(١) موضوع. أخرجه الترمذي ٢٨٨٨ وابن عدي ٦٥/٥ والبيهقي في «الشعب» ٢٤٧٥ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/٢٤٨. ضعفه الترمذي، بقوله: غريب وعمر يَضَعَف. قال البخاري: منكر الحديث. وكذا ضعفه البيهقي، وابن عدي. وأما ابن الجوزي فحكم بوضعه، ونقل عن أحمد قوله: لا يساري شيئاً. وقال ابن حبان: يضع الحديث. والصواب موضوع كما قال ابن الجوزي لما فيه من مبالغة.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الترمذي ٢٨٨٩ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/٢٤٧ والبيهقي ٢٤٧٦ من حديث أبي هريرة. وضعفه الترمذي وأعله بضعف هشام بن زياد، وبعدم سماع الحسن من أبي هريرة. وكذا ضعفه الحافظ في «تفريج الكشاف» ٤/٢٨٣ وحكم ابن الجوزي بوضعه.

(٣) متن صحيح. أخرجه البزار ٣٣٩٩ والطبراني ٤٦٦٦ وإسناده غير قوي، قال الهيثمي في «المجمع» ١٢٥٦٢: فيه زياد بن الحسن، ضعفه أبو حاتم، ووثقه ابن حبان اهـ. قلت: الحديث متفق عليه عن ابن عمر، وله شواهد كثيرة وسيأتي.

يقولُ تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١)، وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان، كما زوي عن عكرمة فقد أبعد الثجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان.

[٥٩٨٨] والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأحنس أن رسول الله - ﷺ - قال: «تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه في الموتى»^(١)، فهو حديث مرسل، ومثله لا تعارض به النصوص.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذِيَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٢)، أي: في ليلة القدر يُفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الأجال والأزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا زوي عن ابن عمر، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقوله جل وعلا: ﴿حَكِيمٍ﴾، أي: مُحكم، لا يُبدل ولا يُغيّر. ولهذا قال جل جلاله: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾، أي: جميع ما يكون ويُقدره الله تعالى وما يوحيه قِيامه وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبینات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، أي: الذي أنزل هذا القرآن هورب السموات والأرض وخالفهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مُحققين. ثم قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ (٤)، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]... الآية.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٥) فَأَرْتَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكفِنَّا عَذَابَ الْغَدَاةِ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ قَوْلُوا مِنْهُ وَعَقَلُوا مَعَالَهُمْ جَحَنُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾

يقولُ تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم الحق اليقین، وهم يشكون فيه ويمشرون، ولا يصدقون به، ثم قال عز وجل متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿فَأَرْتَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠).

[٥٩٨٩] قال سليمان بن مهران الأعمش، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كنفة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٣١٠٤٠ عن عثمان بن محمد، وهذا ضعيف لكونه مرسلًا. وقد أخرجه البيهقي في «الشعب» ٣٨٣٩ عن محمد بن المغيرة من قوله، وورد من وجوه أخرى واهية، ولا يصح في الباب حديث والصواب أن الليلة المباركة ليلة القدر، وهي في رمضان.

مُيَّبِينَ ﴿١٠﴾، تَدْرُونَ مَا ذَلِكَ الدَّخَانُ؟ ذَلِكَ دَخَانٌ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ شِبْهُ الزُّكَّامِ، قَالَ: فَاتَيْنَا ابْنَ مَسْعُودٍ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ مُضْطَجِعاً فَفَزِعَ فَقَعَدَ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ لِنَبِيِّكُمْ - ﷺ -: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ ﴿١١﴾ [ص: ٨٦]، إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. سَأَحَدُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ قُرَيْشاً لَمَّا أَبْطَأَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَاسْتَعْصَمَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، دَعَا عَلَيْهِمْ بَسَنِينَ كِسْنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ، وَجَعَلُوا يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا الدَّخَانَ ﴿١٢﴾.

[٥٩٩٠] وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٣﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾، فَآتَانِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقَى اللَّهُ لِمُضَرٍّ، فَإِنَّا قَدْ هَلَكْتَ. فَاسْتَسْقَى لَهُمْ فَسُقُوا، فَانزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَلَيْهِ رَبَّرْتُمْ﴾ ﴿١٥﴾. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَيَكْشِفُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا أَصَابَهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ، فَانزَلَ اللَّهُ: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾، قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَقَدْ مَضَى خَمْسَةٌ: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام ﴿٢﴾. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَهُوَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ فِي تَفْسِيرِيهِمَا، وَعِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، بِهِ. وَقَدْ وَافَقَ ابْنَ مَسْعُودٍ عَلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ بِهَذَا - وَأَنَّ الدَّخَانَ مَضَى - جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ كَمُجَاهِدٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَالضُّحَاكِ، وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، قَالَ: كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ. وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ جَدًّا، بَلْ مُتَكَرِّرٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَمْ يَمُضِ الدَّخَانُ بَعْدَ، بَلْ هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ.

[٥٩٩١] كما تقدم من حديث أبي سريحة خديفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه - قال: أشرف علينا رسول الله - ﷺ - من عُرفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّخَانَ، وَالدَّابَّةَ، وَخُرُوجَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَخُرُوجَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالدَّجَالَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالشَّرْقِ، وَخُسُوفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ: تَحْشُرُ النَّاسَ -: تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا» ﴿٣﴾. انفراد بإخراجه مسلم في صحيحه.

[٥٩٩٢] وفي الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لابن صبياد: «إِنِّي خَيَّاتٌ لَكَ خَبْنَاءٌ». قَالَ: هُوَ الدُّخَانُ. فَقَالَ لَهُ: «إِحْسَانًا فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»، قَالَ: وَخَبَأَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٠﴾. وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمُرْتَقِبِ، وَابْنُ صَبِيَادٍ كَاشَفَ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُهَّانِ بِلِسَانِ الْجَانِّ،

(١) أخرجه الطبري ٣١٠٤٣ وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨٢١ ومسلم ٢٧٩٨ والترمذي ٣٢٥١ والنسائي في التفسير ٥٠١ و٥٠٣، وهذا ثابت عن ابن مسعود وهو رأي له، والصواب الحديث المرفوع الآتي، وأن ذلك من أشراف الساعة.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ والحميدي ٨٢٧ وأحمد ٦/٤ وابن أبي شيبة ١٥/١٦٣.

وهم يُقْرَطُمُونَ العبارة، ولهذا قال: هو الدُّخ، يعني: الدُّخَان. فعندها عَرَفَ رسول الله - ﷺ - مادته وأنها شيطانيَّة، فقال له: «أخساً فلن تعدو قدرك»^(١).

[٥٩٩٣] وقال ابن جرير: وحدثني عصام بن رُوَادِ بْنِ الْجَرَّاحِ، حدثنا أبي، حدثنا سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدِ الثَّوْرِيِّ، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رُبَيْعِ بْنِ حِرَاشٍ قَالَ: سَمِعْتُ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ الدُّجَالِ، وَنَزُولُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَنَارُ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنِ أَبِييْنِ، تَسْوِقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشِرِ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَالِدُّخَانَ» - قَالَ حُدَيْفَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الدُّخَانُ؟ قَتَلَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ - «يَمَلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَلَيْلَةً، أَمَا الْمُؤْمِنُ فَيَصِيبُهُ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزَّكَامِ، وَأَمَا الْكَافِرُ فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ السُّكْرَانِ، يَخْرُجُ مِنْ مَنْخَرِيهِ وَأَذْنِيهِ وَذُبُرِهِ»^(٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَوْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ فَاصِلاً، وَإِنَّمَا لَمْ أَشْهَدْ لَهُ بِالصَّحَّةِ لِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ خَلْفِ الْعَسْقَلَانِيَّ حَدَّثَنِي أَنَّهُ سَأَلَ رُوَاداً عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ: هَلْ سَمِعَهُ مِنْ سُفْيَانَ؟ فَقَالَ لَهُ: لَا. قَالَ فَقُلْتُ: أَقْرَأْتَهُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَقْرَأْتَهُ عَلَيْهِ وَأَنْتَ حَاضِرٌ فَأَقْرَأْ بِهِ؟ فَقَالَ: لَا. فَقُلْتُ لَهُ: فَمَنْ أَيْنَ جِئْتُ بِهِ؟ فَقَالَ: جَاءَنِي بِهِ قَوْمٌ فَعَرَضُوهُ عَلَيَّ، وَقَالُوا لِي: اسْمَعْهُ مِنَّا. فَقَرَّوهُ عَلَيَّ ثُمَّ ذَهَبُوا بِهِ، فَحَدَّثُونَا بِهِ عَنِّي، أَوْ كَمَا قَالَ. وَقَدْ أَجَادَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هَاهُنَا، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِهَذَا السَّنَدِ، وَقَدْ أَكْثَرَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ سِيَاقِهِ فِي أَمَاكِنَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ، وَفِيهِ مُنْكَرَاتٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَلَا سِيَّمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذِكْرِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٥٩٩٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خَلِيلٌ، عن الحسن، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «يَهْبِجُ الدُّخَانُ بِالنَّاسِ، فَأَمَا الْمُؤْمِنُ فَيَأْخُذُهُ كَالزُّكْمَةِ، وَأَمَا الْكَافِرُ فَيَنْفِخُهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ»^(٣). وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ مَوْقُوفاً. وَرَوَاهُ عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ قَوْلِهِ.

[٥٩٩٥] وقال ابن جرير أيضاً: حدثني محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عِيَّاشِ، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَمُ بْنُ زُرْعَةَ، عَنْ شَرِيحِ بْنِ عَبِيدٍ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ رَبِّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثاً: الدُّخَانَ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَالزُّكْمَةِ، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَنْتَفِخُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ، وَالثَّانِيَةَ: الدَّابَّةَ، وَالثَّلَاثَةَ: الدُّجَالَ»^(٤). وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ هَاشِمِ بْنِ مَرْثِدٍ. عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَّاشِ. بِهِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليّ قال: لم تَمُضْ آيَةُ الدُّخَانِ بَعْدَ، يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزَّكَامِ، وَيَنْتَفِخُ الْكَافِرَ حَتَّى يَنْفَذَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ جَمِيعٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْبَيْلَمَانِيِّ، عَنْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٥٤ ومسلم ٢٩٣١.

(٢) إسناده ساقط. رُوَادِ بْنِ جَرَّاحٍ ضَعِيفٌ، وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ الثَّوْرِيِّ، كَمَا أَقْرَأَ بِذَلِكَ. وَتَقَدَّمَ تَحْرِيجُهُ.

(٣) إسناده ضعيف. له علتان: خليل هو ابن عبد الله. قال الذهبي في «الميزان»: لا يُعْرَفُ. وَقَالَ الْحَافِظُ فِي التَّقْرِيبِ: مَجْهُولٌ. وَعِلَّةٌ ثَانِيَةٌ وَهِيَ عَدَمُ سَمَاعِ الْحَسَنِ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ. وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْقُوفاً، وَعَنِ الْحَسَنِ مَوْقُوفاً عَلَيْهِ أَيْضاً، وَهُوَ أَصَحُّ مِنَ الْمَرْفُوعِ.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٠٦٢ وإسناده حسن في الشواهد لأجل محمد بن إسماعيل.

ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكمة، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد، أي: المشوي على الرضف^(١). ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عثمة، عن ابن جريج، عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوث على ابن عباس ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لِمَ؟ قال: قالوا طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن سفيان، عن عبد الله بن أبي يزيد، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس خبر الأئمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مفتح ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّيَبَتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾﴾، أي: بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسره ابن مسعود - رضي الله عنه - إنما هو خيال زاوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله تعالى: ﴿يَفْشَى النَّاسَ﴾، أي: يتغشاهم ويغتهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَفْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقریباً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٤﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٣ - ١٤] أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا اكْفِئْنَا عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلّت عظمته: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعْنَا عَلَى النَّارِ قَائِلًا يَأْتِينَا تَرْدٌ وَلَا تَكْذِبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله جلّ وعلا: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا أَيُّهُمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِنَّ أَجَلَ قَرِيبٍ مُّجِبٌ دَعْوَتِكَ وَتَسْبِيحُ الرُّسُلِ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَمْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وهكذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ لَكُمْ الذِّكْرَ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجِئُنَا رَبَّنَا﴾. يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والذمارة ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا: مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هَمَّ بِالدِّكْرِ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يَدَّبُّوا عَلَيْهِمْ وَإِنَّ لَهُمُ الدِّكْرَ ﴿٢٠﴾﴾ يقول يَلَيْتَنِي فَتَنَّتْ لِي يَاتِي ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢٣ - ٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَعُوا فَلَا قَوَّةَ وَأَجْدُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا أَمَّا بِرَبِّهِمْ وَأَنْ لَّهُمُ النَّشَاطُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَفَعَلُوا بِالْعَلِيِّ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥١ - ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿٥٥﴾﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَمَيْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ مُّرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله جلّت عظمته: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إن مؤخروا العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد سببه ووضوله إليكم، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون بأشرفهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا أَمَرُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَقُهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب

بأشرفهم وأتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أفلحوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُحِجَّكَ بِشَعِيبٍ وَأَلَيْنَا مَا مَكَرَ مِنْ قَبْلِنَا أَوْ لَنُؤَدِّنَ فِي يَأْسِنَا قَالِ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ تَبَهَا ﴿الاعراف: ٨٨-٨٩﴾، وشعيب - عليه السلام - لم يكن قط على ملئهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ عَذَابُ اللَّهِ.

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِئُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَوِمُونَ ﴿١٧﴾﴾، فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان مما تقدم، وزوي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي، عنه. وعن أبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. قال ابن جرير: حدثني يعقوب حدثني ابن علية، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين عنه؛ والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّادِ اللَّهِ إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرَأْيُؤُنُقُوا لِي فَاقْتُلُونِي ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتَوْلَاهُ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَنشَرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتِ وَعَيْونَ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِيهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ وَالْعَدَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٥﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَءَايَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكُوا حِينًا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾. يعني موسى كليمه - عليه السلام -: ﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّادِ اللَّهِ﴾، كقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَلَا تُعَدِّبُهُمْ قَدْ جَعَلْنَا لِقَابَكَ يُبَايِعُ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ أَنْشَأَ الْمَلَكَةَ﴾ [طه: ٤٧]. وقوله جل وعلا: ﴿إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾، أي: لا تستكبروا اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهيمه، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة ظاهرة واضحة. وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾، قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان، وهو الشتم. وقال قتادة: الرجم بالحجارة. أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل. ﴿وَإِنْ لَرَأْيُؤُنُقُوا لِي فَاقْتُلُونِي﴾، أي: فلا تعرضوا إلي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسألة إلى أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجاج الله تعالى عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرة وعداء، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُمْتَرِينَ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالِ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتَوْلَاهُ قَوْمٌ

تَجْرِمُونَ ﴿٢٦﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه، ولهذا قال جل جلاله: ﴿فَأَنزِلْ بِعَذَابِي لَيْلًا إِنَّا كُنتُم مِّنْجِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَمْ يَطَّرِ فِي الْبَحْرِ سِنًا لَا يَحْتَفِ دَرْكًا وَلَا يَخْشَى ﴿٢٧﴾﴾ [طه: ٧٧]. وقوله عز وجل هاهنا: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وذلك أن موسى - عليه السلام - لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكنًا، ويُسره بانهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى. قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيبته وامضه. وقال مجاهد: ﴿رَهْوًا﴾ طريقًا يسأ كهيبته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة. والربيع بن أنس، والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد. ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ - وهي البساتين - ﴿٢٧﴾ وَعُيُونٍ﴾، والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾، وهي المساكن الأنيفة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لهيعة، عن وهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، ودلله له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وقجر الله له الأرض غيونا، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله جل وعلا أوحى الله تعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنقه.

وقال في قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٧﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا ﴿٢٧﴾﴾، قال: كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له سبع^(١) خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سيزدوس، وخليج منقب، وخليج الفيوم، وخليج المنتهي، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها، ﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فِكْرِينِ ﴿٢٧﴾﴾، أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلموا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْزَنَّا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٩]. وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا أَلَيْ بُرْكَانًا فِيهَا وَكَمَّتْ رَيْكُ الْحَسَنِ عَلَىٰ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال عز وجل هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْزَنَّا قَوْمًا عَٰمِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾، وهم بنو إسرائيل كما تقدم. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على ققدمهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلماذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعثومهم وعنادهم.

[٥٩٩٦] قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصري، حدثنا مكي بن

(١) في الأصول «تسع»، وصححت في إحدى النسخ «سبع» عن معجم البلدان (النيل). وفيه زيادة: خليج عرشي.

إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني يزيد الرقاشي، حدثني أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكى عليه». وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم، فتبكي عليهم^(١). ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الرزدي.

[٥٩٩٧] وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله - ﷺ -: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾. ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سألت رجلاً علياً - رضي الله عنه -: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، إنه ليس عبد إلا له مُصَلَّى في الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فزعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض، ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي - رضي الله عنه -: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^(٣). وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غثام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبيرة قال: أتى ابن عباس رجل فقال: يا أبا عباس، أريت قول الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^(٤)، فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقدته بكى عليه، وإذا فقدته مُصَلَّاه من الأرض التي كان يُصَلِّي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثاراً صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض. وروى العوفي، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثوري، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان يقال: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد. وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟. وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دويئ كدويئ النحل؟! وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكي عليهم السماء والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكي، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال:

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٥٥ وأبو يعلى ٤١٣٣ وأبو نعيم ٥٣/٣، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وموسى ويزيد يضعفان. وكذا وضعفه الحافظ في «المطالب العالية» ٣/٣٦٩ والهيتمي في «المجمع» ١٠٤/٧.

(٢) صدره صحيح له شواهد، وباقه ضعيف. أخرجه الطبري ٣١١٢٩ عن شريح الحضرمي، وهذا مرسل. والأشبه في هذا وما قبله الوقف. والله أعلم.

وتدري ما بكاء السماء؟ قلت: لا. قال: تحمرُّ وتصير وردةً كالذهبان، إن يحيى بن زكريا لما قُتِلَ احمرَّت السماء وقطرت دماً. وإنَّ الحسين بن علي لما قتل احمرَّت السماء.

وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو، - زُنيج - حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - احمرَّت آفاق السماء أربعة أشهر - قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السُّدِّيُّ الكبير. وقال عطاء الخراساني: بكاؤها أن تحمرَّ أطرافها. ودكروا أيضاً في مقتل الحسين أنه ما قُلب حجر يومئذ إلا وُجد تحته دمٌ عبيط^(١). وأنه كُسِفَت الشمس واحمرَّت الأفق وسقطت حجارة. وفي كل ذلك نظرٌ، والظاهر أنه من سُخف الشيعة وكذبهم ليعظموا الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين - رضي الله عنه - ولم يقع شيء مما ذكره، فإنه قد قُتِلَ أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالإجماع ولم يكن شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قُتِلَ محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قُتِلَ في المحراب في صلاة الصبح، وكان المسلمين لم تظرفهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله - ﷺ - وهو سيّد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكره.

[٥٩٩٨] ويوم مات إبراهيم ابن النبي - ﷺ - خُيِّفَت الشمس، فقال الناس: خُيِّفَت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله - ﷺ - صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته^(٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَبَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٢﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُتْسِفِينَ ﴿٣٣﴾﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك؛ حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فِرْعَوْنَ وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. وقوله تعالى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾، أي: مُستكبراً جباراً عنيداً - كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤] وقوله جلّت عظمته: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]. ﴿مِنْ الْمُتْسِفِينَ﴾. أي: مُسرفاً في أمره، سُخِفَ الرأي على نفسه. وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَخْرَنَّهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾، قال مجاهد: ﴿أَخْرَنَّهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾، على من هم بين ظهره. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَكُمُوسَىٰ إِيَّيْ أَصْطَفَيْتَكَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ [الاعراف: ١٤٤]، أي: أهل زمانه ذلك، وكقوله عز وجل لمريم عليها السلام: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، أي: في زمانها؛ فإن خديجة إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل وكذا آسية بنت مراحم امرأة فِرْعَوْنَ، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الشريد على سائر الطعام. وقوله جل جلاله: ﴿وَمَا يَنْبَغُ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: الحُجَجِ والبراهين وخوارق العادات ما فيه بكتوا حُيِّتٌ، أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَقُولُ بِمَا بَيَّنَّا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

﴿٣٦﴾ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى مُنكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما تم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة

(١) دم عبيط: طري.

(٢) تقدم في الإسراء: ٥٩.

بعد الممات، ولا بعث ولا تُشور؛ ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذَهَبُوا فلم يَرِجِعُوا، فإن كان البعث حقاً ﴿قَاتُوا يَا بَنِي آدَمَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٦). وهذه حُجَّةٌ باطلة وشبهةٌ فاسدةٌ، فإنَّ المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وقرآها يُعيدُ الله العالمين خَلْقاً جديداً، ويجعلُ الظالمين لِنَارِ جَهَنَّمَ وَقُوداً، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً. ثم قال تعالى مُتَهَدِّداً لهم، ومتوعداً ومُنذراً لهم بأسه الذي لا يُردُّ، كما حَلَّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تُبَعِّعَ - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله عز وجل وخزَّب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذراً مذبذباً، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدِّرةٌ بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شَبَّهَهُمْ بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عَرَبٌ من عَدَنَانَ، وقد كانت جَمِيرٌ - وهم سبأ - كلما مَلَكٌ فيهم رَجُلٌ سَمُوهُ تُبَعِّعَا، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصرٌ لمن ملك الروم، وفرعونٌ لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تَبَائِعِهِمْ خَرَجَ من اليمن وسار في البلاد حتى وَصَلَ إلى سَمَرْقَنْدَ، واشتدَّ ملكُه وعظُم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلادُه، وكثرت رعاياه وهو الذي مَضَرَ الحيرة، فاتَّفَقَ أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقَاتَلُوهُ بالنهار، وجعلوا يَفْرُونَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكَفَّ عنهم، واستصحب معه خَبْرَيْنِ من أحبار يهودَ كانا قد نَصَحَاه وأخبراه أنه لا سبيلَ له على هذه البلدة، فإنها مُهَاجِرٌ نَبِيٌّ يكون في آخر الزمان، فَرَجَعَ عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هَذْمَ الكعبة فنَهَّيَاهُ عن ذلك أيضاً، وأخبراه بِعِظْمَةِ هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ على يَدَيْ ذاك النبي المبعوث في آخر الزمان، فَعَظَّمَهَا وطاف بها، وكساها الملاء والوصائل والجَبَر. ثم كَرَّ راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دينُ موسى - عليه السلام - فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح - عليه السلام - فتهوّد معه عامّة أهل اليمن. وقد ذَكَرَ القصة بطولها الإمامُ محمدٌ بنُ إسحاقٍ في كتابه السيرة. وقد ترجمه الحافظُ ابنُ عساکرٍ في تاريخه ترجمة حافلة، أوردَ فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّتْ له من دمشق إلى اليمن.

[٥٩٩٩] ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تُبَعِّعَ لَمِيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبيّاً كان أم ملكاً؟» وقال غيره: «أعزيرٌ كان نبيّاً أم لا؟»^(١). وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حَمَّاد الطَّهْرَانِي، عن عبد الرزاق. قال الدارقطني: تفرّد به عبد الرزاق.

[٦٠٠٠] ثم رَوَى ابن عساکرٍ من طريق محمد بن كُزَيْبٍ، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعاً: «عزيرٌ لا أدري أنبياً كان أم لا؟ ولا أدري أَلَمِينٌ تُبَعِّعَ أم لا؟»^(٢). ثم أورد ما جاء في النهي عن سبِّه ولَمَعْتِيهِ كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٧٤ والحاكم ٣٦/١ و٤٥٠/٢ والبيهقي ٣٢٩/٨ وابن عساکر ٢٥١/٣ و٥٧/٦ وإسناده على شرط البخاري ومسلم كما قال الحاكم، وزاد: ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي، ويشهد له ما بعده. وتفرّد عبد الرزاق به لا يضره، فإنه ثقة حجة، روى له الشيخان أحاديث كثيرة.

(٢) متن صحيح. محمد بن كريب ضعيف، لكن يصلح حديثه شاهداً لما قبله. فائدة: قال الحافظ ابن عساکر: وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يُبَيِّنَ له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلماً. ثم أسند الحديث الذي سيأتي. وقد أخرج البخاري وغيره من حديث عبادة «... والحدود كفارات لأصلها» وتقدم.

شاء الله تعالى، وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دينَ الكليم على يَدَي مَنْ كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح - عليه السلام -، وحجَّ البيت في زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمته. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قِصته بطولها الحافظ ابنُ عساکر من طُرُقٍ متعددة مطولة مبسّطة عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وكعب الأحمار. وإليه المرجعُ في ذلك كُلِّه، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبتُّ وأكبرُ وأعلمُ. وكذا روى قصته وهبُ بن مُتبه، ومحمد بنُ إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها، وقد اختلط على الحافظ ابن عساکر في بعض السياقات ترجمة تُبع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهرٍ طويل، فإن تُبعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يَدَيه، ثم لما تُوفي عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، والله الحمد والمثمة. وقال سعيد بن جبیر: كَسَا تُبَعُ الكعبة، وكان سعيدٌ ينهى عن سبِّه. وتُبَعُ هذا هو تُبَعُ الأوسط، واسمه أسعدُ أبو كُزَيْب بن ملكيكرب اليماني، ذُكِرُوا أنه ملَك على قومه ثلاثمئة سنة وستاً وعشرين سنة، ولم يكن في جَمِيرٍ أطولَ مُدَّةٍ منه، وتُوفِّي قبلَ مبعثِ رسولِ الله - ﷺ - بنحوٍ من سبعمئة عام. وذكرُوا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهاجرُ نبيِّ في آخر الزمان، اسمه أحمدُ قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويَرُؤونه خَلْفاً عن سَلَفٍ. وكان يَمُنُّ بحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نَزَلَ رسولُ الله - ﷺ - في داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ
فَلَوْ مَدَّ عُنُقِي إِلَى عُنُقِهِ
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي التُّسَمِ
لَكُنْتُ وَزيراً لَهُ وَابْنَ عَمِّ
وَجَاهَدْتُ بِالسِّيفِ أَعْدَاءَهُ
وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ غَمِّ

وذكر ابنُ أبي الدنيا أنه خُفِرَ قبرُ بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: (هذا قبرُ حُبَيٍّ ولَميس)؛ وروي: حُبَيٍّ وتماضر، ابنتي تُبَع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تُشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. وقد ذكرنا في سورة سبأ شعر سبأ في ذلك أيضاً. قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن كعباً كان يقول في تُبَع: نُعِتَتْ نُعَتُ الرجلِ الصالح، ذَمَّ اللهُ تعالى قومه ولم يَدُمَّه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تُسَبُّوا تُبَعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

[٦٠٠١] وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيعةَ، عن أبي زُرْعَةَ - يعني عمرو بن جابر الحضرمي - قال: سمعتُ سهلَ بنَ سعدٍ الساعديّ يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُسَبُّوا تُبَعاً فإنه قد كان أسلماً»^(١). ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، به.

[٦٠٠٢] وقال الطبراني: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَبَّارُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَرَّةَ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ -

(١) أخرجه أحمد ٣٤٠/٥ والبيهقي في «تفسيره» ١٣٨/٤ والطبراني ٦٠١٣ من حديث سهل بن سعد. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٢٨: فيه عمرو بن جابر، وهو كذاب. وأما الحافظ فقال في «تخريج الكشاف» ٢٧٩/٤: فيه ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، وهما ضعيفان وهما وعمر واتهم بعضهم بالكذب، فالإسناد ضعيف جداً، وانظر ما بعده.

قال: «لا تَسْبُوا تَبِعاً فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ»^(١). ورواه ابن عساكر، من طريق زكريا بن يحيى البُدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً.

[٦٠٠٣] وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبي رباح: لا تَسْبُوا تَبِعاً، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ سَبِّهِ^(٢).

[٦٠٠٤] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما أدري تَبِعٌ نَبِيًّا كَانَ أَمْ غَيْرَ نَبِيٍّ»^(٣). وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدري تَبِعٌ كَانَ لَعِيناً أَمْ لَا؟؛ فَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عذله وتنزيهه نفسه عن اللُّعب والعَبَثِ والباطل، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة يوم يفصل الله فيه بين الخلائق، فيُعَذِّبُ الكافرين ويُنصِبُ المؤمنين. وقوله عز وجل: ﴿يَبْقَىٰ بُرْهَانُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفع قريب قريباً. كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله جل وعظمته: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حِمِيًّا ﴿١٢٧﴾ يَنْصَرُونَ﴾ [المعارج: ١٠ - ١١] أي: لا يسأله عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لا ينصرُ القريبُ قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾، أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله - عز وجل - لخلقه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ وَالرَّقُودِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأُنبياءِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٤٤١. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٣٠: فيه أحمد بن أبي بزة المكي، ولم أعرفه، وبقيه رجاله ثقات. بل ضعفه أبو حاتم؛ وفيه أيضاً مؤمل بن إسماعيل، وثقة يحيى، وأبو حاتم لكن قال: كثير الخطأ. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير. وقواه أبو داود، وله علة ثالثة، سماك بن حرب تغير بأخرة. لذا ضعفه غير واحد، وبخاصة في روايته عن عكرمة، وانظر ما بعده، و«الصحيحة» ٢٢١٧.

(٢) حسن. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ٢٨٢٢ مرسلأ، فهو ضعيف. وله شاهد من مرسل وهب بن منبه، أخرجه عبد الرزاق ٢٨٢١. وله شاهد موقوف عن عائشة، أخرجه الحاكم ٤٥٠/٢ وسنده صحيح، فالحديث حسن بشواهد، وانظر «الصحيحة» ٢٤٢٣.

(٣) تقدم برقم ٥٩٩٩.

يقول تعالى مخبراً عما يُعَذَّب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، والأثيم: أي في قوله وفعله، وهو الكافر - وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يُقْرِئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أي: ليس له طعام من غيرها. قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً^(١). وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾، قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَفَلِيَ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، أي: من حرارتها وزدائها، وقوله: ﴿حَدُّوهُ﴾، أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿حَدُّوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فَاعْتَلَوْهُ﴾، أي: سقوه سخباً ودفعاً في ظهره. قال مجاهد: ﴿حَدُّوهُ فَاعْتَلَوْهُ﴾، أي: خذوه فادفعوه. وقال الفرزدق:

لَيْسَ الْكِرَامُ بِشَاحِلِيكَ أَبَاهُمْ حَتَّى تُرَدُّ إِلَيَّ عَطِيَّةٌ تُغْتَلُّ

﴿إِنَّ سَوَاءَ الْجَحِيمِ﴾، أي: وسطها، ﴿ثُمَّ سُبُورًا قَوِّقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، كقوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٤٧﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ١٩ - ٢٠]. وقد تقدم: أن الملك يضربه بمقموعة من حديد، فتفتح دماغه ثم يُصَبُّ الْحَمِيمُ على رأسه فينزل في بدنه، فسيلت ما في بطنه من أمعائه، حتى تمزق من كغيبه. أعادنا الله تعالى من ذلك. وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: أي لست بعزيز ولا كريم.

[٦٠٠٥] وقد قال الأُمويُّ في معازيه: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة قال: لقي رسول الله - ﷺ - أبا جهل فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: ﴿أَنْتَ لَكَ فَأَوْلَى ﴿٤٩﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٥٠﴾﴾ [القيامة: ٣٤ - ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أنني أمتنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله يوم بدر أذله وغيره بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٥١﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٥٢﴾ أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الطور: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ تَحْتِهَا أَلْسُنَ دُرٍّ وَإِسْتَبْرَقٍ مَتَّعِيلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِكَهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْثَقِبَ إِتْمَهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء - ولهذا سُمِّي القرآن مثاني - فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾،

(١) تقدم في سورة الكهف.

(٢) مرسل، ويأتي في سورة القيامة ٣٤ - ٣٥.

أي: الله في الدنيا ﴿فِي مَقَارِ أَيْنٍ﴾. أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمثوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هَمٍّ وَحَزَنٍ وَجُوعٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، ومن الشيطان وكيدِهِ، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥١). وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم، وشرب الحميم. وقوله تعالى: ﴿يَكْسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾، وهو: زريع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَأَسْتَرَقٍ﴾، وهو: ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش، ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾، أي: على السرور، لا يجلس أحد منهم وظهروه إلى غيره. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٢)، أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسن اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾، ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوثَ وَالْمَرْمَانَ﴾ (٥٣)، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٦٠) [الرحمن: ٥٨ و ٧٤ و ٦٠].

[٦٠٠٦] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس - رفعه نوح - قال: لو أن حوراء بزقت في بحر لجي، لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها (١).

وقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينٌ﴾ (٥٥)، أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا. وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، هذا الاستثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً.

[٦٠٠٧] كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلدوا فلا موت، ويا أهل النار، خلدوا فلا موت». وقد تقدم الحديث في سورة مريم.

[٦٠٠٨] وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، عن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - قالوا: قال رسول الله - ﷺ -: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تتأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهزموا أبداً» (٢). رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به. هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق أبو مسلم الأغر، وأهل المدينة يقولون: أبو عبد الله الأغر.

[٦٠٠٩] وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان، عن الحجاج - هو ابن حجاج - عن قتادة، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يئأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفتى شبابه» (٣).

[٦٠١٠] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان بن عبيد الله الرقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن سعيد

(١) باطل. ففي إسناده راو لم يسم. وفيه نصر بن مزاحم الكوفي، وهو متروك وكذبه أبو خيثمة. راجع الميزان ٩٠٤٦. ثم إن أمانة الوضع لائحة عليه.

(٢) تقدم في سورة الحجر آية ٤٨.

(٣) جيد. أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» ١٠١، وإسناده ضعيف لجهالة عبيد الله بن عمرو، لكن توبع، فقد أخرجه أبو نعيم ٩٨ و ٩٩ من وجه آخر وإسناده حسن ويشهد لأصله ما قبله، وهو عند مسلم.

الأنصاري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: سُئِلَ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ -: «أَيُّنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: «النُّومُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ»^(١).

[٦٠١١] وهكذا رواه أبو بكر بن مَزْدَوِيَه في تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة البصري، حدثنا المقدم بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر [ابن عبد الله رضي الله عنه] قال: قال رسول الله - ﷺ -: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»^(٢).

[٦٠١٢] وقال أبو بكر البزاري في مُسْنَدِهِ: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قيل يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت»^(٣). ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثوري، ولا عن الثوري، إلا الفريابي». هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزخرهم من العذاب الأليم في ذركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب. ولهذا قال عز وجل: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٤)، أي: إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم.

[٦٠١٣] كما ثبت في الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(٥).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَرْتَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٦)، أي: إنما يسرنا هذا القرآن، أي: أنزلناه سهلاً واضحاً يتناً جليلاً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: يتفهمون ويعلمون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كَفَرَ وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله مسلماً له وواعداً له بالنصر، ومُتَوَعِّداً لمن كَذَّبَهُ بالمعطب والهلاك: ﴿فَأَرْقُبْ﴾، أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَابُونَ﴾، أي: فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن أتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيكُنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٧) [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٨) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار^(٩) [غافر: ٥١ - ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

- (١) حسن. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٩٢٣ والصيداوي في «معجم الشيوخ» ١٥ وإسناده ضعيف لجهالة مصعب وشيخه عمران.
- (٢) حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٩٠/٧ و«صفة الجنة» ٢١٥ وابن الجوزي في «العلل» ١٥٥٣ وأعله بعبد الله بن مغيرة، وقال قال العقيلي: يحدث بما لا أصل له. قلت: والمقدم ضعيف، فالإسناد ضعيف جداً.
- (٣) حسن. أخرجه البزار ٣٥١٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٤١٥/١٠: رجاله رجال البخاري ومسلم. والصواب أنه على شرط البخاري حيث تفرد عن الفضل بن يعقوب. وقد أعل بالإرسال، حيث أخرجه ابن المبارك ٢٧٩ عن الثوري عن ابن المنكدر مرسلاً، وابن المبارك أثبت من الفضل، وكذا صوب أبو حاتم في «العلل» ٢١٩/٢ بالإرسال؛ لكن للحديث شواهد بحسنها، وانظر «الصحيحة» ١٠٨٧.
- (٤) متفق عليه وتقدم.



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يُرِيدُ تَعَالَى خَلْقَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَنَعْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَالِدَوَابِّ وَالطَّيُورِ وَالْوَحُوشِ وَالسَّبَاعِ وَالْحَشْرَاتِ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي تَعَابُهِمَا دَائِبِينَ لَا يَفْتُرَانِ، هَذَا بِظِلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ، وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ السَّحَابِ مِنَ الْمَطَرِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَسَمَّاهُ رِزْقًا لِأَنَّ بِهِ يَحْصُلُ الرِّزْقُ، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أَي: بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾، أَي: جَنُوبًا وَشَمَالًا، وَدُبُورًا وَصَبَاً، بَحْرِيَّةً وَبَرِيَّةً، لَيْلِيَّةً وَنَهَارِيَّةً. وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْمَطَرِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْفَاحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَقِيمٌ لَا يَنْتِجُ. وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْلًا: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثُمَّ ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثُمَّ ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وَهُوَ تَرَقُّقٌ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى. وَهَذِهِ الْآيَاتُ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ الْبَقْرَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّتِي يَجْتَرِي فِي الْبَحْرِ يَمَا يُنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرِّئَ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾. وَقَدْ أورد ابن أبي حاتم هاهنا عن وَهَبِ بْنِ مَثْبُةٍ أَنَّ أُمَّ طَوِيلًا غَرِيبًا فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قِيَامِي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَادِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ الْعَلِيمِ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرَبًا أَوَّلِيكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْتُونَ رِجِيمًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجِيمِ آلِيمٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ - يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيّنات - ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، أَي مُتَضَمِّنَةً الْحَقِّ مِنَ الْحَقِّ، فَإِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَنْقَادُونَ لَهَا، ﴿قِيَامِي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾، أَي: أَفَّاكٍ فِي قَوْلِهِ كَذَّابٌ، حَلَّافٌ مُهِينٌ أَثِيمٌ فِي فِعْلِهِ وَقِيلِهِ كَافِرٌ بِآيَاتِ

الله، ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ مَا نَدَىٰ اللَّهُ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿مَّمَّ يُصِرُّ﴾، أي: على كفره وجُحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَنَذَرَهُ بِمَدَابِ أَلِيمٍ﴾، أي: فأخيره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا مَرْوًا﴾، أي: إذا حَفِظَ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًا وَمَرْوًا، ﴿أَوَّلَيْكَ لَمْ نَكُنْ مَعَهُ مِينٌ﴾، أي: في مُقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهَزَأَ بِهِ.

[٦٠١٤] ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله - ﷺ - أن يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ^(١). ثم فُسرَّ الْعَذَابُ الْحَاصِلُ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ فَقَالَ: ﴿بَيْنَ رَدَائِعِهِمْ جَهَنَّمَ﴾، أي: كُلُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾، أي: لا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي: ولا تُغْنِي عَنْهُمْ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا، ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابِعُونَ رَيْبَهُمْ لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ مِّنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. وهو المولمُّ المَوجِعُ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يذكرُ تعالى نعمه على عبده فيما سَخَّرَ لَهُم مِنَ الْبَحْرِ ﴿لِيَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾. وهي السفنُ ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: في المتاجر والمكاسيب، ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: على حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْأَقَافِي الْقَاصِيَةِ. ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنايه. ولهذا قال: ﴿جِيعًا مِّنْهُ﴾، أي: من عنده وخذه لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَقَمَّرٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَا يَبْتَغُوا﴾ ﴿١٣﴾ [النحل: ٥٣]. وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا مِّنْهُ﴾: كلُّ شيءٍ هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا يُنَازِعُهُ فِيهِ الْمَنَازِعُونَ، وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ كَذَلِكَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَلْفِ الْعَسْقَلَانِي، حَدَّثَنَا الْفَرِيَابِيُّ، عَنْ سَفِيَانَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي أَرَاكَةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: وَمِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قَالَ: مِنَ النُّورِ وَالنَّارِ، وَالظُّلْمَةِ وَالثَّرَى، قَالَ: وَابْنُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ. فَأَنَّهُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ: مِمَّ خُلِقَ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ، فَتَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا مِّنْهُ﴾. هذا أثرٌ غريبٌ^(٢)، وفيه نكازة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، أي: يَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَتَحَمَّلُوا الْأَدَى مِنْهُمْ. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٩٠، ومسلم ١٨٦٩ وأبو داود ٢٦١٠ وابن ماجه ٢٨٧٩ وابن حبان ٤٧١٥.

(٢) هو من الإسرائيلية. لا حجة فيه البتة.

يَصْبِرُوا عَلَىٰ أذىَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالتَّالِيفِ لَهُمْ ثُمَّ لَمَّا أَصْرُوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ. هكذا روي عن ابن عباس، وقناة. وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْخُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يتألون نعم الله تعالى. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: إذا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾
 وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيْرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يذكرُ تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتاب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، أي: من المأكِل والمشارِب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: في زمانهم، ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾، أي: حُجَجًا وَبَرَاهِينَ وَأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحُجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيًا منهم على بعضهم بعضاً، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم. ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾، أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين. وقال هاهنا جل جلاله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أي: وماذا تُعني عنهم ولا يتهم بعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهو تعالى يُخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال عز وجل: ﴿هَذَا بَصِيْرٌ لِلنَّاسِ﴾، يعني القرآن، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقولُ تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَمَّصَبُ النَّارِ وَأَمَّصَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ النَّارِيُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال تعالى هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، أي: عملوها وكسبوها ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، أي: نساويهم بهم في الدنيا

والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ، أي: ساء ما ظننوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار!

[٦٠١٥] قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مؤمل بن إهاب، حدثنا مكبر بن عثمان التنجي، حدثنا الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد الباجي، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهم ولم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يُسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، ونهي الله لله، لا يُؤمننَّ عليهنَّ إلا الله. قال أبو القاسم عليه السلام: «كما أنه لا يُجتني من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»^(١)، هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل كما يُجتني من الشوك العنب. وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى عن مسروق: أن تميم الداري قام ليلة حتى أصبح يُردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ، وقوله عز وجل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ، أي: بالعدل، ﴿وَلَيَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَتَعَدَّ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ ، أي: إنما ياتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فقله، ومهما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يُستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. وعن مالك فيما روي عنه في التفسير: لا يهوى شيئاً إلا عبده وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَىٰ عِبْرٍ﴾ ، يحتمل قولين، أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجّة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس. ﴿وَنَحْمَ عَلَىٰ سَمِوَةٍ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً﴾ ، أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجّة يستضيء بها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَاءَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٢).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢٤) وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُونَ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢٥) قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢٦)

يُخبرُ تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ، أي: ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قومٌ ويعيش آخرون، وما ثمَّ معادٌ ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقولهُ الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم يُنكرون البدأة والرجعة، ويقولهُ الفلاسفة الدهرية الدورية^(٢) المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ، أي: يتوهمون ويتخيلون.

(١) ضعيف جداً. أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٤١/٣ بهذا الإسناد، وقال: مكبر بن عثمان منكر الحديث جداً. ووافقه الذهبي في «الميزان» ٨٧٤٦. وفيه أيضاً، الوضين بن عطاء، ونفعه أحمد وأبو داود، وقال ابن سعد: ضعيف، وقال أبو حاتم: يعرف وينكر.

(٢) أي الذين يقولون بالدور، والتسلسل، وكلامها باطل.

[٦٠١٦] فأما الحديث الذي أخرجه صاحبها الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ -: «يقول الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليلة ونهاره». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(١).

[٦٠١٧] وقد أوردته ابن جرير بسياق غريب جداً فقال: حدثنا أبو كريب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ -: قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا، ويُميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»^(٢). وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شريح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله.

[٦٠١٨] ثم روى عن يونس، عن ابن وهب عن يونس، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار»^(٣). وأخرجه صاحبها الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن يزيد، به.

[٦٠١٩] وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «يقول الله تعالى: استقرضت عبيدي فلم يعطيني، وسبني عبيدي، يقول: وادهره! وأنا الدهر»^(٤). قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله - عليه السلام -: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر». كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيستندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكانهم إنما سبوا الله - عز وجل - لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويستندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذاً من هذا الحديث!

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْسَوْنَ﴾، أي: إذا استدّل عليهم وبيّن لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفريقها، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَخْتَارُ مِمَّنْ يَبْغِيكُمْ﴾، أي: كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: الذي قدر على البداية قادر على الإعادة بطريقي الأولى والأخرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ١٩]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْحُكْمِ﴾ [يونس: ١٧]

(١) متفق عليه وتقدم.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٢٠٧ وإسناده على شرط البخاري ومسلم، لكن صدره «كان أهل الجاهلية يقولون» غريب، والأشبه أنه ملرج.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٨١ ومسلم (٢٢٤٦) (١) والطبري ١٥٢/٢٥ وابن حبان ٥٧١٤.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٢١٠ وإسناده ضعيف، فيه عن عنة ابن إسحاق، وهو مدلس، لكن يشهد لأصله ما قبله.

الْقَسَلِ ﴿١٣﴾ [المرسلات: ١٢ - ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٤﴾﴾ [مؤد: ١٠٤]. وقال هاهنا: ﴿يَسْمَعُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا يُنْكِرُونَ المعاد، وَيَسْتَبْعِدُونَ قيام الأجساد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَزَنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٦ - ٧]، أي: يرون وُفُوهُ بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ بِخَسْرِ الْمَبْطُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ دُعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ هَذَا كَلِمَاتُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مَالِكُ السموات والأرض، الحاكم فيهما في الدنيا والآخرة. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمَبْطُلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رُسُلِهِ من الآياتِ الْبَيِّنَاتِ والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قَدِيمُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيُّ المَدِينَةَ، فَسَمِعَ المَعَاوِرِيَّ يَتَكَلَّمُ بِبَعْضِ مَا يَضْحَكُ بِهِ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمًا يَخْسَرُ فِيهِ المَبْطُلُونَ؟ قَالَ: فَمَا زِلْتَ تُعْرِفُ فِي المَعَاوِرِيَّ حَتَّى لِحَقِّ بِاللَّهِ عِزُّ وَجَلٌّ. ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾، أي: على رُكْبِهَا من الشَّدَّةِ والعِظْمَةِ، وَيُقَالُ: إِنَّ هَذَا إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهَا تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَنًّا لِرُكْبَتَيْهِ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، وَيَقُولُ: نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، لا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي. وَحَتَّى إِنْ عَيْسَى لِيَقُولَ: لا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، لا أَسْأَلُكَ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدْتَنِي. قَالَ مَجَاهِدٌ، وَكَعْبُ الأَحْبَارِ، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾، أي: على الرُكْبِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: جَائِيَةٌ مَتَمِيزَةٌ عَلَى نَاحِيَتِهَا، وَلَيْسَ عَلَى الرُكْبِ. وَالأوَّلُ أَوْلَى.

[٦٠٢٠] قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ المُقْرِيءِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَابَاهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «كَأَنِّي أَرَاكُمْ جَائِينَ بِالْكُومِ دُونَ جَهَنَّمَ»^(١).

[٦٠٢١] وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ المَدِينِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ: فَيَتَمِيزُ النَّاسُ، وَتَجُوزُ الأُمَمُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ دُعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾^(٢). وَهَذَا فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ القَوْلَيْنِ، وَلا مَنَافَاةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ دُعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعني كتاب أعمالها. كقوله جل جلاله: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ وَجَاءَهُ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ﴾ [الزمر: ٦٩]، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: تُجَاوِزُونَ بأعمالكم خيرا وشرها، كقوله عز وجل: ﴿بَنِيُوا الْإِنشَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمُوا وَأَخَّرُوا ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنشَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفٌ مَّآذِيرٌ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥]. ولهذا قال جلَّتْ عِظْمَتُهُ: ﴿هَذَا كَلِمَاتُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، أي: يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ من غير زيادة ولا نقص، كقوله جل جلاله: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَتَرَى الْمُتَجَرِّبِينَ مُنْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوقِلْنَا مَالًا هَذَا الْكُتُبِ لَا يَأْدُرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

(١) ضعيف . رجاله ثقات لكنه مرسل . عبد الله بن باباه تابعي . والكوم: المواضع المشرفة .

(٢) حديث الصور تقدم الكلام عليه باستيفاء .

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً. ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَآ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُم مَّا نَدْرَىٰ مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِينَ ﴿٣٣﴾ وَبَدَأَ لَهُم سَيِّئَاتٍ مَّا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمَا كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ ﴿٣٥﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُم أَخَذْتُم ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْتُمْ لِحِيثَ الدُّنْيَا فَأَلْوَيْم لَآ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾
يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصَّة الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح:

[٦٠٢٢] «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ»^(١).

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، أي: البين الواضح. ثم قال تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾، أي: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وَإِذَآ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿فَلْتُم مَّا نَدْرَىٰ مَا السَّاعَةُ﴾، أي: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، أي: إن تتوهم وقوعها إلا توهماً، أي مرجوحاً. ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِينَ﴾، أي: بمتحققين.

قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَأَ لَهُم سَيِّئَاتٍ مَّا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِءُونَ﴾، أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمَا﴾، أي: نُعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم، ﴿كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تُصدقوا به، ﴿وَمَاؤْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾.

[٦٠٢٣] وقد ثبت في الصحيح أن الله تَعَالَىٰ يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟»^(٢) فيقول: بلى، يا رب. فيقول: أظننت أنك مُلاقِي؟ فيقول: لا. فيقول الله تَعَالَىٰ: فالיום أنساك كما نسيتني^(٣).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٠ ومسلم ٢٨٤٦ والترمذي ٢٥٦١ وأحمد ٤٥٠/٢ وابن حبان ٧٧.

(٢) ترأس: أي تكون رئيس القوم وكبيرهم. وتربع: أي تأخذ الرباع الذي كان ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة. (ومعناه ألم أجعلك رئيساً مطاعاً).

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٨ من حديث أبي هريرة، وتقدم في البقرة: آية ٤٦.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَنْعَدْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ هُرُوجًا﴾ ، أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حُجَجَ الله عليكم سُخْرِيًّا، تَسَخَّرُونَ وتَسْتَهْزِئُونَ بها، ﴿وَعَرَّزْنَاكَ الْهَيْوَةَ الدُّنْيَا﴾ ، أي: خَدَعْتُمْ فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين. ولهذا قال عز وجل: ﴿قَالُوا لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ، أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ، أي: لا يُطَلَّبُ منهم العُتْبَى، بل يُعَذَّبُونَ بغير حساب ولا عِتَابٍ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

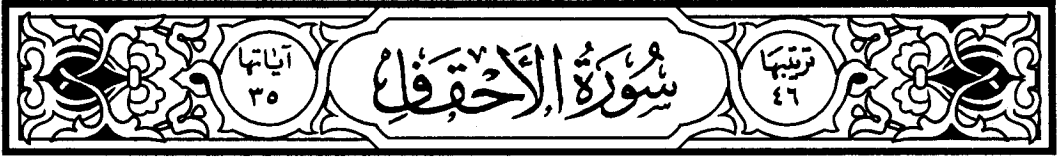
ثم لما ذكر تعالى حُكْمَهُ في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْمُنَدُّ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِينَ﴾ ، أي: المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ ، قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجَّد، الذي كلُّ شيء خاضعٌ لَدَيْهِ فقيرٌ إليه.

[٦٠٢٤] وقد وَرَدَ في الحديث الصَّحِيح: يقول الله تعالى: العظمة إِزَارِي، والكبرياء رَدَائِي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري. رواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن رسول الله - ﷺ - بنحوه^(١).
وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ، أي: الذي لا يُغَالَبُ ولا يَمَانَعُ، ﴿الْعَكِيفُ﴾ في أقواله وأفعاله، وشَرِيحُهُ وَقَدْرُهُ، تعالى وتَقَدَّسَ، لا إله إلا هو.

أخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعَصْمَةُ

(١) صحيح . أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٥٢ ومسلم ٢٦٢٠ وأبو داود ٤٠٩٠ وابن ماجه ٤١٧٤ وأحمد ٤١٤/٢ وابن



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ﴾ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنذِرُ بِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرْنَا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أَي: لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أَي: إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مَضْرُوبَةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾، أَي: لَاهُونَ عَمَّا يَرَادُ بِهِمْ، وَقَدْ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَي: وَسَيَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾، أَي: لِهَؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَ اللَّهِ غَيْرِهِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟﴾ أَي: أَرِشِدُونِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَلُّوا بِخَلْقِهِ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، أَي: وَلَا شِرْكٌ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمِيرٍ، إِنْ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ كُلُّهُ إِلَّا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَتُشْرِكُونَ بِهِ؟ مَنْ أَرَشَدَكُمْ إِلَى هَذَا؟ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَيْهِ؟ أَمْوَأَمْرُكُمْ بِهِ؟ أَمْ هُوَ شَيْءٌ اقْتَرَحْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؟ وَهَذَا قَالَ: ﴿أَتُنذِرُ بِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا؟﴾، أَي: هَاتُوا كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِأَمْرِكُمْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، ﴿أَوْ أَنْزَرْنَا مِنْ عِلْمٍ﴾، أَي: دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى هَذَا الْمَسْلُوكِ الَّذِي سَلَكَتُمُوهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أَي: لَا دَلِيلَ لَكُمْ نَقْلِيًّا وَلَا عَقْلِيًّا عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ: ﴿أَوْ أَثَرَةٌ مِنْ عِلْمٍ﴾، أَي: أَوْ عِلْمٌ صَحِيحٌ يَأْتِرُونَهُ عَنْ أَحَدٍ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَنْزَرْنَا مِنْ عِلْمٍ﴾: أَوْ أَحَدٍ يَأْتِرُ عِلْمًا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوْ بَيِّنَةٌ مِنَ الْأَمْرِ.

[٦٠٢٥] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ، عَنْ أَبِي سَلْمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَفْيَانَ: لَا أَعْلَمُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -: «أَوْ أَثَرَةٌ مِنْ عِلْمٍ»، قَالَ:

«الخطأ»^(١). وقال أبو بكر بن عيَّاش: أو بَقِيَّة من علم. وقال الحسن البصري: أو إثارة شيء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عيَّاش أيضاً: «أَوْ أَتَرَّرَ تَرَّتْ عَلَيْهِ»، يعني: الخطأ. وقال قتادة: «أَوْ أَتَرَّرَ تَرَّتْ عَلَيْهِ»: خاصة من علم. وكلُّ هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَيْنِ يَدْعَاؤِهِمْ لَا يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ غَافِلٌ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، أي: لا أضل ممن يدعو أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطلش، لأنها جماد، ججارة صم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كافرين﴾^(٣)، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(٤) كلاً سيكفرون بياديتهم وتكونون عليهم أضداً^(٥) [مریم: ٨١ - ٨٢]، أي: سيخونونهم أوحج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنَ اللَّهِ عِزًّا أَنَّمَا مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لَمَّا كُنْتُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ مَوَدَّةً وَآلِهَتِكُمُ الشَّاوِزُ وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ ناصير﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٦) أَر يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ قُلُوبُ إِنْ أَفَرَّتْهُمْ فَلَا تَصِلَكُونُ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٧) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا آدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنْ أُنِجُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٨)

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلالاتها، يقولون: «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ»، أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا. ﴿أَر يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ﴾، يعنون محمداً - ﷺ - . قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَّتْهُمْ فَلَا تَصِلَكُونُ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾، أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾^(٩) إِلَّا بَلَّغْنَا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الجن: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَوْلَ لَعِينًا بِبَعْضِ الْآيَاتِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾^(١٠) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾^(١١) فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَهْلِهِ عَنْهُ حَاجِرِينَ﴾^(١٢) [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. ولهذا قال سبحانه وتعالى هاهنا: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَّتْهُمْ فَلَا تَصِلَكُونُ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد. وقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وعفّر ورحم. وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأُولِيَاءِ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾^(١٣) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١٤). وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي: لست بأول رسول طرقت العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس،

(١) الصحيح موقوف، أخرجه أحمد ٢٢٦/١ والطبراني ١٠٧٢٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٣٥: رجال أحمد رجال الصحيح اهـ. قلت: لكن شك سفيان في رفعه، وقد أخرجه الطبري ٣١٢٢٣ من طريق أبي عاصم عن الثوري موقوفاً.

ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله تعالى ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال (١).

[٦٠٢٦] والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية (٢). وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾: ما أدري بماذا أوامر، وبماذا أنهى بعد هذا؟ وقال أبو بكر الهذلي، عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾، قال: أما في الآخرة فمعاد الله قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا يكرم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن تبعه، وأما في الدنيا فلم يذر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون فيعدون فيستأصلون بكفرهم؟

[٦٠٢٧] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - وهي امرأة من نسائهم - أخبرته - وكانت بايعة رسول الله - ﷺ - قالت: طار لهم في السكنى حين اقتصرت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون فاشتكى عثمان عندنا فمرضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله - ﷺ - فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله عز وجل. فقال رسول الله - ﷺ -: «وما يدريك أن الله أكرمه؟». فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله - ﷺ -: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!» قالت: فقلت: والله لا أركي أحداً بعده أبداً. وأحزنتني ذلك، فبينت فرأيت لعثمان عيناً تجري، فجنثت إلى رسول الله - ﷺ - فأخبرته بذلك، فقال رسول الله - ﷺ -: «ذاك عمله» (٣). فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به». وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزنتني ذلك. وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغميصاء (٤)، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حزام والد جابر، والقراء السبعين الذي قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم. وقوله: ﴿إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: إنما أتبع ما ينزل الله علي من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بين النذارة، وأمرني ظاهر لكل ذي لب وعقل. والله أعلم.

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب «قالوا».

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٦ والطبري ٣١٢٤٠ وسيأتي في سورة الفتح.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٤٣ وأحمد ٤٣٦/٦.

(٤) ويقال الرميضاء. هي أم سليم والدة أنس بن مالك، انظر الإصابة ٣٠٨/٤ - ٣٧٣.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبِرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٍ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانَا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: ما ظننكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتمكم به قد أنزله علي لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾، أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله عز وجل: ﴿فَأَمَنْ﴾، أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَأَسْتَكْبِرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه. وقال مسروق: فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام. وهذه كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يُنَادِي عَالِيَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِزُونَ لِأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨]. قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير.

[٦٠٢٨] وقال مالك، عن أبي الثَّضْر، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله - ﷺ - يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾^(١). رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث مالك، به. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسدي، والثوري، ومالك بن أنس، وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالاً وعماراً وضحياً وخباباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذلك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجهة وله بهم عناية. وقد غلظوا في ذلك غلظاً فاحشاً، وأخطوا خطأً بيناً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْتُولًا مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا. ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلةً من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾، أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٍ﴾، أي: كذب قديم، أي: ما ثور عن [الناس] الأقدمين، فينتصون القرآن وأهله.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨١٢ ومسلم ٢٤٨٣ والنسائي ١٤٨ وأحمد ١٦٩/١ وابن حبان ٧١٦٣.

[٦٠٢٩] وهذا هو الكبير الذي قال رسول الله - ﷺ -: «بَطُرُ الْحَقِّ، وَعَمَطُ النَّاسِ»^(١).

ثم قال تعالى: «وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى»، وهو التوراة ﴿إِنَّمَا وَرَخَمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾، يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾، أي: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: فصيحاً بليغاً واضحاً، ﴿يَسْتَنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرُ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا﴾، تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة. وقوله تعالى: ﴿فَلَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَخْرَتُونَ﴾، على ما خلفوا، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم؛ والله أعلم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال جل جلاله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾، أي: أمرناه بالإحسان إليهما والخير عليهما.

[٦٠٣٠] وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبه، أخبرني سماك بن حرب قال: سمعت مضعب بن سعد يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: ليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾... الآية^(٢). ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبه بإسناده، نحوه وأطول منه. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾، أي: قاست بسببه في حال حملها مشقةً وتعباً، من وحام وغثيان وثقل وكذب، إلى غير ذلك مما ينال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدلل علي - رضي الله عنه - بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضي الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن بعة بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجلٌ مئاً امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحدٌ من خلق الله تعالى

(١) تقدم تخريجه. في البقرة: ٦١، وآل عمران: ٢٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم وغيره، وتقدم في مطلع سورة التوبة.

غيره قَطُّ، فَيَقْضِي اللهُ فِي مَا شَاءَ. فلما أتى بها عثمانُ أمر برجمها، فَبَلَغَ ذلكَ عليًّا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: وَلَدْتُ تماماً لِسُنَّةِ أَشْهُرٍ، وهل يكون ذلك؟! فقال له عليٌّ: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سَمِعْتَ اللهُ عز وجل يقول: ﴿وَمَحَلُّهُمُ وَمَفْصَلَتُهُمُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿حَوَائِجُ كَامِلِينَ﴾. فلم نَجِدْهُ بَقِيَ إلا سُنَّةَ أَشْهُرٍ، قال: فقال عثمانُ رضي اللهُ عنه: والله ما فَعَلْتُ لهذا، عَلَيَّ بالمرأة. فوجدوها قد فُرِعَ منها، قال: فقال بَعَجَةٌ: فوالله ما الغرابُ بالغرابِ، ولا البيضةُ بالبيضةِ بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني. والله لا أشكُ فيه. قال: وأبلاه اللهُ بهذه الفَرْحَةِ، فَرَحَةَ الأَيْكَلَةِ، فما زالت تأكله حتى مات. رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله عز وجل: ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَمِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةُ بن أبي المَعْرَاءِ، حدثنا علي بن مُسَهِرٍ، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحدٌ وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لسته أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَحَلُّهُ وَمَفْصَلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. ﴿حَقٌّ إِذَا بَلَغَ أَشَدُّهُ﴾، أي: قَوِيٌّ وَشَبٌّ وارتجل ﴿وَيَبْلُغُ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، أي: تنهى عقله وكَمَلَ فهمه وجلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابنُ الأربعين. قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يُؤخَذُ الرجلُ بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغَتْ الأربعين فَحُذِّ حِذْرَكَ.

[٦٠٣١] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبيد الله القواريري، حدثنا عَزْرَةَ بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مئة سنة - حدثنا أبو الحسن الكوفي عَمْرُو بن أوس قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان عن النبي - ﷺ - قال: «العبدُ المسلمُ إذا بَلَغَ أربعين سنةً خَفَّفَ اللهُ حسابَه، وإذا بَلَغَ ستين سنةً رَزَقَهُ اللهُ الإِنَابَةَ إليه، وإذا بَلَغَ سبعين سنةً أَحَبَهُ اللهُ أهلُ السماء، وإذا بَلَغَ ثمانين سنةً ثَبَّتَ اللهُ حَسَنَاتِهِ ومَحَا سَيِّئَاتِهِ، وإذا بَلَغَ تسعين سنةً غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، وَشَفَعَهُ اللهُ في أهل بيته، وَكَتَبَ في السماء: أَسِيرُ اللهُ في أرضِهِ»^(١). وقد رُوِيَ هذا من غير هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد. وقد قال الحجاج بن عبد الله الحَكَمِيُّ أحدُ أمراء بني أمية بدمشق: تركتُ المعاصي والذنوبَ أربعين سنةً حياةً من الناس، ثم تركتها حياةً من الله - عَزَّ وَجَلَّ - . وما أَحَسَّنَ قولَ الشاعر:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَا قَالَ لِلْبَاطِلِ: ابْطُلْ

﴿قَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي﴾، أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْصَحْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَوَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، أي: نسلي وعقبتي، ﴿إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وهذا فيه إرشادٌ لمن بَلَغَ الأربعين أن يُجَدِّدَ التوبةَ والإِنَابَةَ إلى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ويعزمَ عليها.

[٦٠٣٢] وقد روى أبو داود في سُنَنِهِ، عن ابن مسعود - رضي اللهُ عنه -: أن رسولَ اللهِ - ﷺ - كان يُعَلِّمُهُمْ أن يقولوا في التشهد: «اللهم، أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النورِ، وَجَنِّبْنَا الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَّنَ، وَبَارِكْ لَنَا في أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا، وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُتَّيِّبِينَ بِهَا قَابِلِيهَا، وَأَتَمِّمُهَا

(١) أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ١٧٥٦٣ وقال الهيثمي: فيه عزرة بن قيس الأزدي، وهو ضعيف اهـ.

ورود بنحوه عن جماعة من الصحابة، تقدم أكثرها، وانظر «المجمع» ١٠/٢٠٤ - ٢٠٥.

علينا^(١). قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، أي: هؤلاء الْمُتَصِفُونَ بما ذُكِرَ، الثابتون إلى الله الْمُتَبَيِّنُونَ إليه، المُسْتَدْرِكُونَ ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نَقَبَلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عملوا، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِي أَحْسَبِ الْجَنَّةِ﴾، أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وَعَدَ اللهُ عز وجل مَنْ تاب إليه وأتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

[٦٠٣٣] قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا الْمُعْتَمِرُ بن سُلَيْمَانَ، عن الحكم بن أَبَانَ، عن الْغَطْرِيفِ، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رَسُولِ اللهِ ﷺ - عن الروح الأمين - عليه السلام - قال: «يُوتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ، فَيُقْتَصَرُ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ، فَإِنْ بَقِيََتْ حَسَنَةٌ وَسِعَ اللهُ تَعَالَى لَهَا فِي الْجَنَّةِ». قال: فدخلت على يَزَادَ فَحَدَّثَ بِمِثْلِ هَذَا، قال: قلت: فَإِنْ ذَهَبَتِ الْحَسَنَةُ؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٢). وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله - وزاد: عن الروح الأمين. قال: «قال الربُّ - جَلَّ جلالُهُ - يُوتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ...» فذكره، وهو حديث غريب، وإسناده جَيِّدٌ لا بأس به^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُلَيْمَانَ بن مَعْبُدٍ، حدثنا عَمْرُو بن عاصم الْكِلَابِيُّ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَخْشِيَّةَ، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر عليّ على أهل البصرة، فقال لي يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً وعنده عَمَّارٌ، وصعصعة، والأشتر، ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثماناً فنألوا منه، وكان عليّ على السرير، ومعه عُوذٌ في يده، فقال قائلٌ منهم: إن عندكم من يفصل بينكم. فسألوه، فقال علي: كان عثماناً من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٤). قال: والله عثمانٌ وأصحاب عثمان. قالها ثلاثاً، قال يوسف: فقلتُ لمحمد بن حاطب: الله لَسَمِعَتْ هذا من علي؟ قال: الله لَسَمِعَتْ هذا من علي - رضي الله عنه -.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالَيْدِي أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihan الله وَيَلْكُ مَا مِنْ إِنْ وَعَدَ اللهُ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأُولِينَ﴾^(٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ^(٦) وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^(٧) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذهبتم طيبيتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون^(٨) ﴿٢٠﴾

(١) الصحيح موقوف. أخرجه أبو داود ٩٦٩ من طريق شريك عن جامع بن شداد عن أبي وائل، عن ابن مسعود، وشريك ساء حفظه لما تولى القضاء، وسياق أبي داود يشعر بوقفه، راجعه، وهو الصواب.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٢٧١، ورجاله ثقات، سوى الغطريف: وهو أبو هارون اليماني، فلم يوثقه سوى ابن حبان، وذكره البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» من غير جرح ولا تعديل. ولم يرو عنه أحد من أصحاب الكتب الستة، وهذا دليل على جهالته، والحكم بن أبان، وإن وثقه الأكثر، فقد ضعفه ابن المبارك، وقال ابن عدي: فيه ضعف. ثم إن المتن غريب. فهو إلى الضعف أقرب، والله أعلم.

(٣) بل إسناده لين إلى الضعف أقرب كما تقدم.

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عَطَفَ بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُبَىٰ لَكُمْآ﴾. وهذا عامٌ في كلِّ مَنْ قال هذا، وَمَنْ زَعَمَ أنها نَزَلَتْ في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضَعِيفٌ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحَسُنَ إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وَرَوَى العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لآبي بكر الصديق. وفي صِحَّة هذا نظر، والله أعلم. وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. قاله ابن جُرَيْج: وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وهذا أيضاً قولُ السديِّ. وإنما هذا عام في كل من عَقَّ والديه وكَذَّبَ بالحق، فقال لوالديه: «أف لكما»، عَقَّهما.

[٦٠٣٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبد الله بن المدني قال: إني لفي المسجد حين حَظَبَ مَرْوَانَ، فقال: إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيدٍ رأياً حسناً، وَإِنْ يستخلفه فقد استخلفَ أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهز قَلْبِي؟! إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من وَلَدِهِ، ولا أحدٍ من أهل بيته، ولا جعلها معاويةً في ولده إلا رحمةً وكرامةً لَوَلَدِهِ. فقال مَرْوَانُ: ألسنت الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألسنت ابن اللعين الذي لعن أباك رسولُ الله - ﷺ -. قال: وَسَمِعْتَهَا عائشة فقالت: يا مَرْوَان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلانِ ابنِ فلانِ، ثم انتخب مَرْوَان، ثم نزل عن الميثبر حتى أتى باب حُجْرَتِهَا، فَجَعَلَ يَكَلِّمُهَا حتى انصرف^(١).

[٦٠٣٥] وَقَد رَوَاهُ البخاريُّ بإسنادٍ آخَرَ ولفظ آخَرَ. فقال: حدثنا موسى بنُ إسماعيل، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عن أبي بشر، عن يُوْسُفَ بن مَاهَكَ قال: كان مَرْوَانُ على الحِجَازِ، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب فَجَعَلَ يذكرُ يزيدَ بنَ معاويةَ لكي يُبَايِعَ له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: حُدَّوْهُ. فَدَخَلَ بيتَ عائشة - رضي الله عنها - فلم يقدروا عليه، فقال مَرْوَان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُبَىٰ لَكُمْآ أَعْدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾. فقالت عائشة من وراء الحِجَابِ: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرِي^(٢).

[٦٠٣٦] طريقُ أَخْرَى، قال النسائي: حدثنا علي بن الحسين، حَدَّثَنَا أُمِيَّةُ بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايَعَ معاويةً لابنه قال مَرْوَان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سُنَّةُ هِرْقَلٍ وَقَيْصَرَ. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُبَىٰ لَكُمْآ﴾. . . الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كَذَّبَ مَرْوَانُ، والله ما هو به، ولو شئتُ أن أسمي الذي أنزلت فيه لَسَمَّيْتَهُ، ولكن رسولُ الله - ﷺ -. لمن أبا مَرْوَان ومروان في ضلِّهِ، فَمَرْوَانُ فَضَضَ من لَعْنَةِ اللهِ^(٣).

وقوله: ﴿أَعْدَانِي أَنْ أَخْرَجَ﴾، أي: أبعتُ ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾، أي: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مُخْبِرٌ، ﴿وَهَمَّا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ﴾، أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ أَيُّنَ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورٌ الْأَوَّلِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ يَنْ

(١) إسناده غير قوي، عبد الله المدني مضطرب الحديث؛ والصحيح ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٢٧.

(٣) أخرجه النسائي في التفسير ٥١١ وإسناده ضعيف، محمد بن زياد لم يسمع من عائشة، وما قبله في صحيح البخاري، ليس فيه ذكر اللعن، والله أعلم. والفضض: كل ما انقطع من شيء أو تفرق.

لِيَحْنُ وَالْإِنْسَ إِتْمَمَ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿١٨﴾، أي: دَخَلُوا فِي زُمْرَةِ أَشْبَاهِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الْخَاسِرِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ جِنْسٌ يُعْمَى كُلُّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقْتَادَةُ: هُوَ الْكَافِرُ الْفَاجِرُ الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ، الْمَكْذُوبُ بِالْبَعْثِ.

[٦٠٣٧] وقد روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار: حدثنا حماد بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبير قان الحلبي، عن سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبي أمامة الباهلي، عن النبي - ﷺ - قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليهم الملائكة: مُضِلُّ الْمَسَاكِينِ - قال خالد: الذي يَهْوِي بِيَدِهِ إِلَى الْمَسْكِينِ فيقول: هَلُمَّ أَعْطِيكَ، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء - والذي يقول للمكفوف: اتق الدابة وليس بين يديه شيء، والرجل يُسأل عن دار القوم فيدُلُّونه على غيرها، والذي يضرب الوالدين حتى يستغيثا»^(١). غريب جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿رَلِكُلٌّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾، أي: لِكُلِّ عَذَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ، ﴿رَلِوَالِدَيْهِمْ أَمْعَلْتَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَلَمُونَ﴾، أي: لَا يُظَلَمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلاً، ودرجات الجنة تذهب علواً. وقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ لِحْيَتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَنْتَمْتُمْ بِهَا﴾، أي: يُقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً. وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزّه عنها، ويقول: أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرعهم: ﴿أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ لِحْيَتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَنْتَمْتُمْ بِهَا﴾. وقال أبو مجلز: ليتفقّدن أقواماً حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ لِحْيَتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا﴾. وقوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِيهِمْ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، فمجوزوا من جنس عملهم، فكما نعيموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدرجات المفضّعة، أجازنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله.

﴿وَأَذْكَرَ آخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ خَافَ عَلَيْكَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِتَأْفِكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَيْنَمَا تَعْبُدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مسلماً لنبية في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذْكَرَ آخَا عَادٍ﴾، وهو هود - عليه السلام -، بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع جحف وهو: الجبل من الرمل - قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: الأحقاف: واد بحضرموت، يُدعى بزُهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رملٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشُّخْرُ.

(١) إسناده ضعيف جداً. له علتان: حماد بن عبد الرحمن، هو الكلبي. ضعفه أبو حاتم وغيره كما في «الميزان» ٢٢٥٦. وشيخه خالد بن الزبير قان قال أبو حاتم: منكر الحديث. راجع «الميزان» ٢٣٢٢. والمتن منكر جداً. وقد استغربه ابن كثير رحمه الله.

[٦٠٣٨] قال ابن ماجه: (باب إذا دعا فليبدأ بنفسيه): حدثنا الحسن^(١) بن علي الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يَرْحَمُنَا اللهُ، وَأَخَا عَادَ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَيْتَ أُنذُرًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومُنذرين، كقوله عز وجل: ﴿فَعَلَّمْنَاهَا تَكْوِيلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغْرَةَ مِثْلَ صِغْرَةِ عَادَ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٣ - ١٤]، أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَحْنَتْنَا لِتَأْوِكَ﴾، أي: لتضدنا، ﴿عَنْ مَالِهِنَا فَأِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله جل وعظمته: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيجعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلتكم به، ﴿وَلَكَيْفَ أَنْزَلْنَا قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾، أي: لا تعلمون ولا تفهمون. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾، أي: لما رأوا العذاب مستقبليهم اعتقدوا أنه عارض مطر، ففرحوا واستبشروا، وقد كانوا مُجْلِين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: هو العذاب الذي قلمت: ﴿فَأِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿تُدْرِي﴾، أي: تحرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَدَّرُ مِنْ قَوْمٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي: كالشيء البالي. ولهذا قال عز وجل: ﴿فَأَسْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِينًا﴾، أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا. وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده.

[٦٠٣٩] قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله - ﷺ - فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله - ﷺ - حاجة، فهل أنت مبليغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تُخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله - ﷺ -، فقالت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رخله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال ﷺ: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟» قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألني أن أحملها إليك، وما هي بالباب. فأذن لها فدخلت، فقالت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء. فحيميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضرنا؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «مِعْرَى حَمَلَتْ حَنْفَهَا»

(١) وقع في الأصل «الحسين» والتصويب عن سنن ابن ماجه.

(٢) حسن. أخرجه ابن ماجه ٣٨٥٢ وإسناده ضعيف، فيه عننة أبي إسحاق، وزيد بن الحباب، قال ابن معين: روى عن الثوري أحاديث مقلوبة.

حَمَلْتُ هذه ولا أشعرُ أنها كانت لي خَضَمًا، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كِرَافِدٍ عَادٍ. قال: «هَيْهَ، وما وَاثِدٌ عَادٍ؟» - وهو أَعْلَمُ بالحديث منه، ولكن يَسْتَطِيعُهُ - قلت: إن عادًا قُحِطُوا فَبِعَثُوا وَاثِدًا لَهِمْ يقال له: قَيْلٌ، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمرَ وَتُعْتِيهِ جَارِيَتَانِ - يقال لهما: الجرادتان - فلما مَضَى الشهر خَرَجَ إلى جبال مَهْرَةَ فقال: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِءْ إلى مَرِيضٍ فَأَدَاوِيهِ، وَلَا إلى أَسِيرٍ فَأَفَادِيهِ، اللَّهُمَّ اسقِ عادًا ما كنت تَسْقِيهِ. فَمَرَّتْ به سَحَابَاتٌ سُودٌ، فَنُوْدِي مِنْهَا: اختر. فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداء، فَنُوْدِي مِنْهَا: خذها رماداً رَمْدًا، لا تُبْقِي من عادٍ أَحَدًا. قال: فما بلغني أنه أُرْسِلَ عليهم من الريح إلا كَفَدَرٍ ما يَجْرِي في خَاتَمِي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وَصَدَقَ - وكانت المرأة والرجل إذا بَعَثُوا وَاثِدًا لَهِمْ قالوا: لا تكن كِرَافِدٍ عَادٍ^(١). رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، كما تَقَدَّم في سورة الأعراف.

[٦٠٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حَدَّثَهُ عن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَّارٍ، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسولَ الله - ﷺ - مُسْتَجِمِعًا ضاحكًا حتى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إنما كان يتبسّم. قالت: وكان إذا رأى غَيْمًا - أو رِيحًا - عُرِفَ ذلك في وجهه، قالت: يا رسولَ الله، النَّاسُ إذا رأوا الغَيْمَ فَرَحُوا رجاءً أن يكون فيه المطرُ، وأراك إذا رأيته عُرِفَتْ في وَجْهِكَ الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يُؤْمِنُنِي أن يكون فيه عذابٌ، قد عُدْبَ قومٌ بالريحِ، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عَارِضٌ مُمِطِرٌ»^(٢). وأخرجاه من حديث ابن وهب.

[٦٠٤١] طريقٌ أُخْرَى، قال [الإمام] أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن عائشة أن رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كان إذا رأى ناشئاً في أفقٍ من آفاق السماء، تَرَكَ عمله وإن كان في صلواته، ثم يقول: «اللَّهُمَّ، إني أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما فيه». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللَّهُمَّ، صَيِّبًا نَافِعًا»^(٣).

[٦٠٤٢] طريقٌ أُخْرَى، قال مُسْلِمٌ في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جُرَيْجٍ يُحَدِّثُ عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة قالت: كان رسولُ الله - ﷺ - إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ قال: «اللَّهُمَّ، إني أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وخَيْرَ ما فيها، وخَيْرَ ما أُرْسِلَتْ به، وأعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ ما فيها، وَشَرِّ ما أُرْسِلَتْ بِهِ». قالت: وإذا تَخَيَّلْتَ السماءَ تَغْيِيرَ لَوْنِهِ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فإذا مَطَرَتْ سُرِّي عَنْهُ، فَمَرَفَتْ ذلك عائشة فسألته فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرٌ﴾»^(٤). وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمئة.

[٦٠٤٣] وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك، عن مُسْلِمِ المِثْلِيِّ، عن مجاهد وسعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما فُتِحَ على عاد من الريح إلا مثلُ مَوْضِعِ الخَاتَمِ، ثم أُرْسِلَتْ عليهم في البَدْوِ إلى الحَضَرِ فلما رآها أهلُ الحَضَرِ قالوا: هذا عَارِضٌ مُمِطِرٌ مُسْتَقْبِلُ أوديتنا. وكان أهلُ البوادي فيها، فألقني أهلُ البادية على أهلِ الحاضرة حتى

(١) تقدم تحريجه في الأعراف.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٦٦/٦ والبخاري ٤٨٢٨ ومسلم ١٦/٨٩٩.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٦/١٩٠.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٥ (٨٩٩).

هَلَكُوا». قال: «عتت على خزائنها حتى خَرَجَتْ مِنْ خِلَالِ الْأَبْوَابِ»^(١). والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾
 ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والاولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: وأحاط بهم العذاب والثكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾، يعني أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً. وقوله عز وجل: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾، أي: بيناها ووضحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، أي: فهل نصرؤهم عند احتياجهم إليهم؟ ﴿بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾، أي: بل ذعبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، أي: وافتروا في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها والله أعلم.

﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْعَيْنِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ يَقَوْمَنَا أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

[٦٠٤٤] قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْعَيْنِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ - يُصَلِّي العشاء الآخرة، ﴿كَأَدْوًا يَكُونُونَ عَلَيْهِ يَدًا﴾، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض^(٢). تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيبين.

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٤١٦ من حديث ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٦٧: فيه مسلم الملائي، وهو ضعيف. وورد من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني ١٣٥٥٣ وفيه مسلم الملائي أيضاً، وهو ضعيف، والأشبه فيه الوقف، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد ١٦٧/١، وإسناده ضعيف، عكرمة لم يدرك الزبير.

[٦٠٤٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) . وقال الإمام الشهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة - عن أبي بشر - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله - ﷺ - على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله - ﷺ - في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - ﷺ - وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشيد فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله على نبيه - ﷺ - : ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، وإنما أوجي إليه قول الجن^(١). رواه البخاري عن مسدد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبي عوانة، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير، من حديث أبي عوانة.

[٦٠٤٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حقًا وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله - ﷺ - كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبي - ﷺ - يصلي بين جبلي نخلة، فاتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدت الذي حدث في الأرض^(٢). ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سنيهما، من حديث إسرائيل، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصري: إنه - عليه السلام - ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

[٦٠٤٧] وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج رسول الله - ﷺ - إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله - عز وجل - وإبانهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم، إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٧٧٣ ومسلم (١٤٩/٤٤٩) والترمذي ٣٣٢٣ وأحمد ٢٥٢/١ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٢٢٦.

(٢) صحيح . أخرجه الترمذي ٣٣٢٤ والنسائي في التفسير ٦٤٦ والطبراني (١٢/ ص ٤٦ - ٤٧) ١٢٤٣١ وأحمد ١/٢٧٤ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

الجنُّ من أهل نَصِيْبَيْنِ^(١). وهذا صحيحٌ، ولكنَّ قَوْلَهُ إنَّ الجنَّ كانَ استماعهم تلك الليلة، فيه نظرٌ، لأنَّ الجنَّ كانَ استماعهم في ابتداء الإيحاء، كما دَلَّ عليه حديثُ ابن عباس المذكور، وخروجه - عليه السلام - إلى الطائِف كان بعد موت عمِّه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره، والله أعلم.

[٦٠٤٨] وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو أحمد الزُّبيري، حدثنا سُفيان، عن عاصم، عن زُرِّ، عن عبد الله بن مسعود قال: هَبَطُوا على النبي - ﷺ - وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سَمِعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: ضه، وكانوا تسعة أهدهم زُبَيْعَةً، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُصِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ إلى: ﴿صَلِّ لِرَبِّكَ﴾^(٢). فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يَقْتَضِي أن رسول الله - ﷺ - لم يشعر بحضورهم في هذه المرَّة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رَجَعُوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وَقَدُوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم، وقوجاً بعد فوج، كما ستأتي بذلك الأخبار والأناز، مما سنوردها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

[٦٠٤٩] فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً، عن أبي قُدَّامة عبيد الله بن سعيد السرخسي، عن أبي أسامة حَمَّاد بن أسامة، عن مسعر بن كِدام، عن مَعْن بن عبد الرحمن قال: سَمِعْتُ أبي قال: سألت مسروقاً: من آذَنَ النبي - ﷺ - ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه آذنته بهم شجرة. فَيَحْتَمَلُ أن يكونَ هذا في المرَّة الأولى، ويكون إثباتاً مقدِّماً على نفي ابن عباس ويحتمل أن يكونَ هذا في بعض المرَّات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أي: أعلمته باستماعهم^(٣)، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس - رضي الله عنهما - إنما هو أول ما سمعت الجنُّ قراءة رسول الله - ﷺ - وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يَرَهُمْ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله - عزَّ وجلَّ -، كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ذكر الروايات عنه بذلك:

[٦٠٥٠] قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبي - وابن أبي زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبي - عن علقمة قال: قلت لعبيد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله - ﷺ - ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجِّه الصبح - أو قال: في السحر - إذا نحن به يجيء من قبيل جِراء، فقلنا: يا رسول الله - فذكروا له الذي كانوا فيه - فقال: «إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال: وقال الشعبي: سألوه الزاد - قال عامر سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كلُّ عظم دُكِرَ اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحمًا، وكلُّ بَغْرَةٌ أو رَوْثَةٌ عُلِّفَ لدوابكم - قال: فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن»^(٤). وهكذا رواه مُسلم في صحيحه، عن علي بن حُجْر، عن إسماعيل بن عُلَيَّة، به نحوه.

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٢١/٢ - ٢٣ من طريق ابن إسحاق، وهذا مرسل.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢٢٨/٢ بهذا الإسناد، وهو حسن.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨٥٩ ومسلم ١٥٣/٤٥٠.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٠/٤٥٠ وأبو داود ٨٥ والترمذي ٣٢٥٨ وأحمد ٤٧٦/١.

[٦٠٥١] وقال مُسلم أيضاً: حدثنا مُحَمَّد بن المثنى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا داودُ - وهو ابنُ أبي هندٍ - عن عامرٍ قال: سألتُ علقمةَ: هل كان ابنُ مسعودٍ - رضي الله عنه - شَهِدَ مع رسولِ الله - ﷺ - ليلةَ الجنِّ؟ قال: فقال علقمةُ: أنا سألتُ ابنَ مسعودٍ فقلت: هل شَهِدَ أحدٌ منكم مع رسولِ الله - ﷺ - ليلةَ الجنِّ؟ قال: لا، ولكننا كُنَّا مع رسولِ الله - ﷺ - ذاتَ ليلةٍ، ففقدناه فالتمسناه في الأوديةِ والشعابِ، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشرُ ليلةَ باتَ بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هُوَ جاء من قِبَلِ حراءٍ قال: فقلنا يا رسولَ الله، ففقدناك فطلبناك فلم نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بشرُ ليلةَ باتَ بها قومٌ. فقال: «أتاني ذاعي الجنِّ، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآنَ». قال: فانطلقَ بنا فأرانا آثارهم وآثارَ نيرانهم، وسألوه الزادَ فقال: «كُلُّ عظمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه يَقَعُ في أيديكم أو فرَّ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ عُلِّفَ لدوابكم». قال رسولُ الله - ﷺ -: «فلا تَسْتَنْجُوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانكم»^(١).

[٦٠٥٢] طريقُ أُخرى عن ابنِ مسعودٍ، قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمِّي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عُبَيْدِ الله بن عبد الله أن ابنَ مسعودٍ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «بثَّ الليلةَ أقرأ على الجنِّ واقفاً بالْحَجُونِ»^(٢).

[٦٠٥٣] طريقُ أُخرى فيها أنه كان معه ليلةَ الجنِّ، قال ابنُ جريرٍ - رحمه الله -: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبدُ الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابنِ شهاب، عن أبي عثمان بن سَنَّة الخزاعي - وكان من أهل الشام - أن عبدَ الله بن مسعودٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ - لأصحابه وهو بمكة: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ الْجِنِّ اللَّيْلَةَ فليُفْعَلْ». فلم يَحْضُرْ مِنْهُمْ أَحَدٌ غَيْرِي، قال: فانطلقنا حتى إذا كُنَّا بأعلى مكةَ حَطَّ لي بِرِجْلِهِ حَطًّا، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآنَ فَعَشِيْتَهُ أَسْوَدَةً كثيرةَ حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صَوْتَهُ، ثم طَفِقُوا يَتَّقِعُونَ مِثْلَ قِطْعِ السحابِ ذَاهِبِينَ، حتى بَقِيَ مِنْهُمْ رَهْطٌ، فَفَرَعَ رسولُ الله - ﷺ - مع الفجرِ، فانطلق فَبَرَزَ، ثم أتاني فقال: «مَا فَعَلَ الرَّهْطُ؟» فقلت: هم أولئك يا رسولَ الله، فأعطاهم عَظْماً وَرَوْتاً زَاداً، ثم نَهَى أَنْ يَسْتَطِيبَ أَحَدٌ بَرُوثَ أَوْ عَظْمٍ^(٣). ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي زُرْعَةَ وهب بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلي، به. ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح - كاتب الليث، عن الليث، عن يونس، به. وقد رَوَى إسحاق بن زَاهَوِيَه، عن جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود. فَذَكَرَ نَحْوَهُ مَا تَقَدَّمَ. ورواه الحافظ أبو نُعَيْمٍ، من طريق موسى بن عُبَيْدَةَ، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضاً.

[٦٠٥٤] طريقُ أُخرى، قال أبو نُعَيْمٍ: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عَفَّانٌ وعكرمة قالوا: حدثنا مُعْتَمِرٌ قال: قال أبي: حدثني أبو تَمِيمَةَ، عن عمرو - ولعله قد يكون قال: البِكَالِيُّ - يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: استتبعتني رسول

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٠/٤٥٠.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٣١٣٢٠، وله علتان: ضعف أحمد بن عبد الرحمن، وانقطاعه بين ابن مسعود وعبيد الله.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٣١٩ وإسناده ضعيف لضعف أحمد بن عبد الرحمن، وفيه أبو عثمان مقبول. وكرره الطبري ٣١٣١٨ من وجه آخر توبع فيه أحمد بن عبد الرحمن، وله طرق أخرى ذكرها ابن كثير، فهي تعاضد بمجموعها.

الله - ﷺ - فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطأ فقال: «كن بين ظهري هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت»^(١). فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة.

[٦٠٥٥] طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مغمير، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي: أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله - ﷺ - ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي - ﷺ - خط عليه خطأ وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة السوداء فغشيت رسول الله ﷺ. فذعر ثلاث مرّات، حتى إذا كان قريباً من الصبح، أتاني رسول الله - ﷺ - فقال: «أئمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت براراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرأهم بعصاك، تقول: «اجلسوا». فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك بعضهم. ثم قال: «هل رأيت شيئاً؟» فقلت: نعم، رأيت رجلاً سوداً مستغفراً بياض بيض. قال: «أولئك جن نصيبين، سألوني المتاع - والمتاع: الزاد - فمتمهم بكل عظم حائل، أو بغرة، أو زوثة» فقلت: يا رسول الله، وما يعني ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا زوثاً إلا وجدوا فيها خبها يوم أكلت، فلا يستقيّن أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بغرة ولا زوثة»^(٢).

[٦٠٥٦] طريق أخرى، قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قالوا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن علي بن رباح، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسول الله - ﷺ - فقال: «إن نقرأ من الجن - خمسة عشر بني إخوة وبني عم - يأتونني الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد، فخط لي خطأ وأجلسني فيه، وقال لي: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتاني رسول الله - ﷺ - مع السحر في يده عظم حائل وزوثة وحمة^(٣)، فقال لي: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تسننج بشيء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمي حيث كان رسول الله - ﷺ - قال: فذهبت فرأيت موضع مبرك ستين بغيراً^(٤).

[٦٠٥٧] طريق أخرى، قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا عثمان بن عمر، عن المستمّر بن الريان، عن أبي الجوزاء، عن عبد الله بن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله - ﷺ - ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لي خطأ، ثم تقدّم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيّد لهم يقال له زردان: أنا أرخلهم عنك. فقال: «إني لن يُجيرني من الله أحد»^(٥).

[٦٠٥٨] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبي قزارة العبسي،

(١) إسناده ضعيف لجهالة عمرو شيخ أبي تميمة، وما ساقه المصنف لا غرابة فيه، له شواهد، والظاهر أنه زاد الفاظاً منكراً استغفريها الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٣١٧ وإسناده ضعيف لجهالة عبد الله الثقفي. وكرره الطبري ٣١٣١٥ و٣١٣١٦ عن قتادة مرسلأ.

(٣) الحممة: الفحمة.

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة». ٢٣١/٢ وإسناده ضعيف، فيه روح بن صلاح غير قوي، وعلي بن رباح لم أجد من ذكر له رواية عن ابن مسعود، ولبعضه شواهد وبعضه منكر.

(٥) أخرجه البيهقي ٢٣١/٢ - ٢٣٢ وإسناده ضعيف لانقطاعه، ولصدره شواهد، وعجزه منكر.

حدثنا أبو زيد - مولى عمرو بن حريث - عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لي النبي - ﷺ -: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معي ماء ولكن معي إداوة فيها نبيذ. فقال النبي - ﷺ -: «تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ، وَمَاءٌ طَهُورٌ»^(١). ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي زيد، به.

[٦٠٥٩] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنّش الصنعاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله - ﷺ - ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعك ماء؟» قال: معي نبيذ في إداوة فقال: «أصيب عليّ فتوضأ، فقال النبي - ﷺ - «يا عبد الله، شرابٌ وطهورٌ»^(٢). تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدررقي من طريق آخر، عن ابن مسعود رضي الله عنه، به.

[٦٠٦٠] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله - ﷺ - ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفّس، فقلت: ما شأنك؟ فقال: «نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ»^(٣). هكذا رأيتُه في المسند مختصراً.

[٦٠٦١] وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي - قال: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله - ﷺ - ليلة وفد الجن، فتنفّس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: أبا بكر. فسكت ثم مضى ساعة فتنفّس، فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر. فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفّس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي». قلت: فاستخلف. قال: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب. قال: «أما والذي نفسي بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»^(٤). وهو حديث غريب جداً وآخر به ألا يكون محفوظاً، ويتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سئوره إن شاء الله تعالى، فإن في ذلك الوقت كان في آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضاً في دين الله أفواجا، نزلت

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود ٨٤ والترمذي ٨٨ وابن ماجه ٣٨٤ وأحمد ٤٤٩/١ - ٤٥٠ من حديث ابن مسعود. ضعفه الترمذي بقوله: أبو زيد، رجل مجهول. لا يعرف له غير هذا الحديث. وجاء في نصب الراية للحافظ الزيلعي ١٣٨/١: وقال ابن أبي حاتم في «العلل» ص ٤٤٠: سمعت أبا زرعة يقول: حديث أبي فزارة، ليس بصحيح، وأبو زيد مجهول. ونقل ابن عدي عن البخاري قوله: أبو زيد، مجهول لا يعرف بصحبته ابن مسعود. ولا يصح هذا الحديث، وهو خلاف القرآن. وقال ابن عبد البر: منكر لا أصل له، ولا رواه من يوثق به، ولا يثبت. وقال ابن حبان: أبو زيد، لا يعرف، وقد خالف في هذا الخبر الكتاب والسنة والإجماع والقياس اهـ. فالإسناد ضعيف جداً.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٩٨/١ والدارقطني ٧٦/١ من حديث ابن مسعود، وضعفه الدارقطني بابن لهيعة. وكرره الدارقطني ٧٧/١ - ٧٨ من طرق، فأعل الأول بالحسين بن عبيد الله، وأنه يضع الحديث. ومن وجه آخر وأعله بمحمد بن عيسى، والحسن بن قتيبة، وأههما ضعيفان.

(٣) باطل. أخرجه أحمد ٤٤٩/١ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً. فيه ميناء بن أبي ميناء، وهو متروك، وكذبه أبو حاتم. والمتن باطل.

(٤) باطل. أخرجه الطبراني ٩٩٧٠ بهذا اللفظ، قال الهيثمي في «المجمع» ٨٩٤٨: فيه ميناء، وهو كذاب اهـ. وما يدل على بطلانه ذكر الاستخلاف صريحاً فيه.

سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِذْ بِرَبِّكَ إِنَّكَ كَانَتْ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾، وهي السورة التي نُعِيَتَ نَفْسُهُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا إِلَيْهِ كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَوَافَقَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَيْهِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ سَنَدُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ تَفْسِيرِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ أَيْضًا عَنِ الطَّبْرَانِيِّ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَضْرَمِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنِ يَحْيَى بْنِ يَعْلَى الْأَسْلَمِيِّ، عَنِ حَرْبِ بْنِ صُبَيْحٍ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، عَنِ أَبِي مُرَّةِ الصَّنْعَانِيِّ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَذَكَرَهُ وَذَكَرَ فِيهِ قِصَّةَ الْاسْتِخْلَافِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ غَرِيبٌ، وَسِيَاقٌ عَجِيبٌ.

[٦٠٦٢] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن ابن مسعود: أن رسول الله - ﷺ - ليلة الجنَّ حَطَّ حوله، فكان أحدهم مثل سواد النخل، وقال: «لا تبرِّحْ مكانك. فأقرأهم كتاب الله» فلما رأى الزُّطُّ (١) قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبي - ﷺ -: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به (٢).

[٦٠٦٣] طريق أخرى مُرْسَلَةٌ، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطُّهْرَانِيُّ، أَخْبَرَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ الْعَدَنِيِّ، حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ، عَنِ عِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، قَالَ: هُم اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا جَاؤُوا مِنْ جَزِيرَةِ الْمُوصَلِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - لِابْنِ مَسْعُودٍ: «انظُرْنِي حَتَّى آتِيكَ». وَحَطَّ عَلَيْهِ خَطًّا، وَقَالَ: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ». فَلَمَّا خَشِيهِمْ ابْنُ مَسْعُودٍ، كَادَ أَنْ يَذْهَبَ، فَذَكَرَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَلَمْ يَبْرَحْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «لَوْ ذَهَبْتَ مَا التَّقِينَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٣).

[٦٠٦٤] طريق أخرى مُرْسَلَةٌ أَيْضًا، قَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنِ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قَالَ: ذَكَرْنَا لَنَا أَنَّهُمْ صُرِفُوا إِلَيْهِ مِنْ نَيْنَوَى، وَأَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى الْجِنِّ، فَأَيُّكُمْ يَتَّبِعُنِي؟» فَأَطْرَقُوا، ثُمَّ اسْتَبَعَهُمْ فَأَطْرَقُوا، ثُمَّ اسْتَبَعَهُمُ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ذَاكَ لَذُو نَذْبَةٍ. فَاتَّبَعَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ أَخُو هُذَيْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - شَعْبًا يُقَالُ لَهُ: شَعْبُ الْحَجُّونِ، وَحَطَّ عَلَيْهِ، وَحَطَّ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ لِيُثْبِتَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَجَعَلَتْ أَهَالُ وَأَزَى أَمْثَالِ النَّسُورِ تَمَشِي فِي دُفُوفِهَا، وَسَمِعَتْ لَعْفًا شَدِيدًا حَتَّى خِفَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ تَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا اللَّعْفُ الَّذِي سَمِعْتُ؟ قَالَ: «اخْتَصَمُوا فِي قَتِيلٍ، فَقَضِي بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ» (٤). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

فَهَذِهِ الطَّرِيقُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ - ﷺ - ذَهَبَ إِلَى الْجِنِّ قَصْدًا، فَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَشَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَا هُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ أَوَّلَ مَرَّةٍ سَمِعُوهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدَّوْا إِلَيْهِ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حَالَ مُحَاطَبَتِهِ لِلْجِنِّ وَدَعَائِهِ إِيَّاهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ

(١) الزُّطُّ: جِيلٌ مِنَ السُّودَانِ طَوَالَ الْأَجْسَامِ مَعَ نَحَاقَةٍ.

(٢) ضَعِيفٌ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤٥٥/١ وَالدَّارِقُطْنِيُّ ٧٧/١ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ. وَقَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ: عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ، ضَعِيفٌ. وَأَبُو رَافِعٍ لَمْ يَثْبِتْ سَمَاعَهُ مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

(٣) هُوَ مُرْسَلٌ، لَكِنْ تَقَدَّمَ مِنْ وَجْهِ مُوَصَّلًا.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ ٣١٣١٥ وَهُوَ مُرْسَلٌ، وَتَقَدَّمَ مُوَصَّلًا.

بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي - ﷺ - أحد سواه ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي. وقد يَحْتَمَلُ أن يكون أول مرة خَرَجَ إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم؛ ثم بعد ذلك خَرَجَ معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره «قَالَ أُوحَىٰ إِلَيْكَ» من حديث ابن جُرَيْجٍ قال: قال عبد العزيز بن عُمَرَ: أما الجن الذين لَقَوْه بنخلَّةَ فَجَنُّ نِيَتَوَى، وأما الجن الذين لَقَوْه بمكة فجن نَصِيبِيْنَ، وتأوله البيهقي على أنه يقول: فبتنا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بات بها قومٌ، على غير ابن مسعود ممن لم يَعْلَمَ بخروجه - ﷺ - إلى الجن، وهو مُحْتَمَلٌ على بُعد، والله أعلم.

[٦٠٦٥] وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو مُحَمَّد بن عبد الله الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثني سُوَيْد بن سَعِيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جَدِّه سعيد بن عمرو قال: كان أبو هريرة يَتَّبِعُ رسول الله - ﷺ - بِإِداوة لَوْضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «اتنني بأحجارٍ اسْتَنْجِي بها، ولا تأتني بعظم ولا رَوْثَةً». فأتيته بأحجارٍ في ثوبي، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فَرَّخَ وقام أتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والرَّوْثَةُ؟ قال: «أتاني وَفَدَّ جَنُّ نَصِيبِيْنَ فسألوني الزاد، فدعوتُ الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثَةٍ إلا وَجَدُوا طعاماً»^(١). أخرجه البخاري في صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريباً منه. فهذا يدلُّ مع ما تقدَّم على أنهم وَقَدُوا عليه بعد ذلك. وسنذكر [إن شاء الله تعالى] ما يدلُّ على تكرار ذلك.

وقد روي عن ابن عباس غير ما ذُكِرَ عنه أولاً من وجوهٍ جيِّدٍ؛ فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الجُمَانِي، حدثنا الثَّضْرُ بن عَزَبِيٍّ، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ»، قال: كانوا سبعة نفرٍ من أهل نَصِيبِيْنَ، فَجَعَلَهُم رسول الله - ﷺ - رُسُلًا إلى قومهم. فهذا يدلُّ على أنه قد رَوَى القِصَّتَيْنِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سُوَيْد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سَمَّاهُ، عن ابن جُرَيْجٍ، عن مجاهد: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ»... الآية، قال: كانوا سبعة نفرٍ، ثلاثة من أهل حَرَّانَ، وأربعة من أهل نَصِيبِيْنَ وكانت أسماؤهم حَسَى وحَسَى ومنسي، وشاصر وناصر، والأرد وإيبان والأحقم. وذكر أبو حَمْرَةَ الشمالي أن هذا الحي من الجن كان يُقَالُ لهم: بنو الشَيْصِيَانِ، وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم نسباً، وكانوا هم عامة جنود إبليس.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زبيعة، أتوه من أصل نخلة. وتقدَّم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدَّم عنه أن اسم سيدهم وَرْدَان. وقيل: كانوا ثلاثمئة، وتقدَّم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرُّر وقادتهم عليه - صلوات الله وسلامه عليه -.

[٦٠٦٦] ومما يدلُّ على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، حدثني عُمَر - هو ابن محمد - أن سَالِمًا حَدَّثَهُ، عن عبد الله بن عُمَرَ قال: ما سمعتُ عُمَرَ يقول لشيء قط: إني لأظنه كذا، إلا كان كما يظنُّ، بينما عمر بن الخطاب جالسٌ إذ مرَّ به رجلٌ جميل، فقال: لقد أخطأ

(١) صحيح. أخرجه البيهقي ٢/٢٣٣ وإسناده ضعيف لضعف سويد بن سعيد، لكن أخرجه البخاري ٣٨٦٠ من وجه آخر بهذا

ظَنِّي - أو: إن هذا على دينه في الجاهلية - أو: لقد كان كاهنهم - عَلَيَّ بالرجل، فَدْعِي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيتُ كالْيَوْمِ اسْتَقْبَلْ به رَجُلٌ مُسْلِمٌ. قال: فإني أعزُّمُ عليكِ إلا ما أخبرتني. قال: كنتُ كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتُكَ. قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرفُ فيها الفزع فقالت:

أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَابْنَأْسَافَهَا
وَيَأْسَافَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا
وَلُحُوقِهَا بِالْقِلَاصِ وَأَخْلَاسِهَا

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آهتهم إذ جاء رجلٌ يعجلُ فذبحه، فصَرَخَ به صارخٌ، لم أسمع صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه، يقول: يا جليليخ، أمر نَجِيح، رجل فصيحٌ يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم فقلت: لا أبرحُ حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليليخ، أمر نَجِيح، رجل فصيحٌ يقول: لا إله إلا الله. فقامت، فما تَثَبْنَا أن قيل: هذا نبي^(١). هذا سياقُ البخاري، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: وظاهرُ هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سَمِعَ الصارخ يصرُخ من العَجَلِ الذي ذُيِّح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر، وسائر الروايات تدلُّ على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه والله أعلم. وهذا الذي قاله البيهقي هو المُتَجِّه، وهذا الرجل هو سوادُ بن قارب، وقد ذكرتُ هذا مُستقصى في سيرة عمر - رضي الله عنه -، فمن أرادَه فليأخذه من ثَم، والله الحمد والمنة.

[٦٠٦٧] وقال البيهقي: حديثُ سوادِ بن قارب، ويُشبهُ أن يكونَ هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح. أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المُفسِّر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفَّار الأصبهاني قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمَّار الكوفي بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بأذويه حدثنا أبو بكر القُضري حدثنا محمد بن نواس الكوفي حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: بينما عُمَرُ بن الخطاب يخطبُ الناسَ على منبرِ رسولِ الله - ﷺ - إذ قال: أيُّها الناس، أفِيكم سوادُ بن قارب؟ قال: فلم يُجِبْه أحدٌ تلك السنة، فلما كانت السنة المُقبلة قال: أيُّها الناس، أفِيكم سوادُ بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سوادُ بن قارب؟ قال: فقال له عمر رضي الله عنه: إن سوادَ بن قارب كان بدءَ إسلامِهِ شيئاً عَجيباً، قال: فبينما نحن كذلك إذ طَلَعَ سوادُ بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حَدِّثْنَا بِبَدْءِ إِسْلَامِكَ، كيف كان؟ قال سوادُ: فإني كنتُ نازلاً بالهند، وكان لي رَئيٌّ من الجنِّ، قال: فبينما أنا ذات ليلة نائمٌ إذ جاءني في منامي ذلك قال: قم فافهَمْ واعقِلْ إن كنتَ تعقلُ، قد بعث رسولٌ من لُؤيِّ بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِجِنِّ وَأَنْجَاسِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَخْلَاسِهَا
مَا مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَأَزْجَاسِهَا
وَأَسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى رَاسِهَا

قال: ثم أبهتني فأفرغني، وقال: يا سوادُ بن قارب، إن الله عز وجل بعث نبياً فأنهضُ إليه تهتدُ وترشد، فلما كان من الليلة الثانية أتاني قائلُني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبْتُ لِجِنِّ وَتَطْلَابِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى
وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَقْتَابِهَا
لَيْسَ قُدَامَهَا كَأَذْنَابِهَا

فَأَنهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
 فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهي، ثم قال:
 عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَخْبَارَهَا
 تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تُبْغِي الْهُدَى
 فَأَنهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
 قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وَقَعَ فِي قَلْبِي حُبُّ الْإِسْلَامِ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ما شاء الله،
 قال: فانطلقت إلى رَحْلِي فشددته على راحلتي، فما حَلَلْتُ نِسْعَةَ ولا عَقَدْتُ أُخْرَى حَتَّى أَتَيْتُ رَسُولَ
 اللَّهِ - ﷺ -، فإذا هو بالمدينة - يعني مَكَّةَ - والناسُ عليه كَعُورِ الْفَرَسِ، فلما رَأَيْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - قال: «مَرْحَبًا
 بِكَ يَا سَوَادَ بْنَ قَارِبٍ، قَدْ عَلِمْنَا مَا جَاءَ بِكَ». قال: قلت يا رسول الله، قد قلت شعراً، فاسمعه مني. قال
 سوادٌ: فقلت:

أَتَانِي رَيْبِي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجَعَةٍ
 ثَلَاثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ:
 فَشَمَرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَطْتُ
 فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ
 وَأَنْكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ شَفَاعَةٌ
 فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
 وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَا دُوَّ شَفَاعَةٌ
 قال: فَضَحِكَ النَّبِيُّ - ﷺ - حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ وَقَالَ لِي: «أَفَلَحْتَ يَا سَوَادُ». فقال له عُمَرُ: هل يَأْتِيكَ
 رَيْبُكَ الْآنَ؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يَأْتِنِي، ونعم العِوَضُ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْجَنِّ^(١). ثم أسنده
 البيهقي من وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ.

ومما يدل على وفادتهم إليه - عليه الصلاة والسلام - بعدما هاجر إلى المدينة الحديث الذي رواه الحافظ
 أبو نُعَيْمٍ فِي كِتَابِ دَلَائِلِ النَّبِوةِ:

[٦٠٦٨] حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع،
 حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حَدَّثَنِي مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ غَيْلَانَ الثَّقَفِيِّ
 قَالَ: أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ لَهُ: حَدَّثْتَ أَنَّكَ كُنْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَيْلَةً وَقَدْ الْجِنُّ؟ قَالَ: أَجَلٌ.
 قُلْتُ: حَدَّثَنِي كَيْفَ كَانَ شَأْنُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الصَّفْوَةِ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلًا يُعَشِّيه، وَتَرَكْتُ فَلَمْ يَأْخُذْنِي
 أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ. فَقَالَ: «مَا أَخَذَكَ أَحَدٌ
 يُعَشِّيكَ؟» فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: «فَانْطَلِقْ لَعَلِّي أَجِدُكَ شَيْئًا». قَالَ: فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَى حُجْرَةَ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَرَكْنِي
 قَائِمًا وَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ، ثُمَّ خَرَجَتْ الْجَارِيَةُ فَقَالَتْ: يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَجِدْ لَكَ عِشَاءً، فَارْجِعْ
 إِلَى مَضْجَعِكَ. قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَمَعْتُ حِصْبَاءَ الْمَسْجِدِ فَتَوَسَّدْتُه، وَالتَفَقُّتُ بِثَوْبِي، فَلَمْ أَلْبِثْ

(١) أخرجه البيهقي ٢٤٩/٢ - ٢٥١ وإسناده ضعيف: زياد وشيخه لم أجد لهما ترجمة، وكرره البيهقي ٢٥٢/٢ عن محمد بن
 كعب عن عمر وهذا منقطع، وكرره عن سعيد بن جبير، وفيه عباد بن عبد الصمد، وهو متروك، والصحيح في ذلك ما
 رواه البخاري.

إلا قليلاً حتى جاءت الجارية، فقالت: أحب رسول الله. فأتبتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامي خرج رسول الله - ﷺ - وفي يده عسيب من نخل فعرض به على صدري فقال: «أتطلق أنت معي حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله! فأعادها علي ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله! فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الفرزدق، فخط بعصاه خطأ، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت مثل العجاجة السوداء، ففرقت فقلت: الحق برسول الله - ﷺ - فإني أظن أن هوزان مكروا برسول الله - ﷺ - ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فأستغيث الناس، فذكرت أن رسول الله - ﷺ - أوصاني ألا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله - ﷺ - يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم تازوا ودهبوا فأتاني رسول الله - ﷺ - فقال: «أنمت بعدي؟» فقلت: لا، ولقد فرغت الفرعة الأولى، حتى رأيت أن آتي البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوزان مكروا برسول الله - ﷺ - ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما أمنت أن يخطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟» فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستنفرين بشيا ببيض، فقال رسول الله - ﷺ -: «أولئك وفد جن نصيبين، [أتوني] فسألوني الزاد والمتاع، فمتعتهم بكل عظم حائل أو زوثة أو بقرعة» قلت: وما يعني عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يزوم أكل، ولا زوثة إلا وجدوا فيها حبها الذي كان فيها يوم أكلت، فلا يستنفي أحد منكم بقرعة»^(١). وهذا إسناد غريب جداً، ولكن فيه رجل منهم لم يسم؛ والله تعالى أعلم.

[٦٠٦٩] وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثني نعيم بن يزيد القيني، حدثنا أبي، حدثنا قحافة بن زبيبة، حدثني الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله - ﷺ - صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف، قال: «أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم، ثلاثاً، فمر بي فأخذ بيدي، فجعلت أمشي معه حتى حيست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا رجال طوال كأنهم الرماح، مستنفرين بشيا بهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم عشييتني رعدة شديدة^(٢). . . ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

[٦٠٧٠] ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حبان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن زوح، حدثنا يعقوب الدورقي، حدثنا الوليد بن بكير التميمي، حدثنا حصين بن عمر، أخبرني عبيد المكتيب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج، حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحية تنثى على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابي: امضوا، فليست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خزقة بيضاء فلففتها فيها ثم نحيثها عن الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابي في المتعشى. قال: فوالله إنا لنعوذ إذ أقبل أربع نساء من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمر؟ قلنا: ومن عمرو؟ قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواماً قواماً، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبئكم، وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمئة عام. قال الرجل: فحمداً لله ثم قضينا حاجتنا ثم مررت بعمر بن الخطاب في المدينة فأنبأته بأمر

(١) إسناده ضعيف فيه راو لم يسم.

(٢) إسناده ضعيف، فيه نعيم بن يزيد القيني، ضعفه الأزدي كما في «الميزان» ٩١٢٢.

الحَيَّةِ، فقال: صدقت، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَقَدْ آمَنَ بِي قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ بِأَرْبَعِمِئَةِ سَنَةٍ»^(١). وهذا حديث غريب جداً، والله أعلم.

قال أبو نُعَيْمٍ: وقد رَوَى الثوري، عن أبي إسحاق، عن الشعبي، عن رَجُلٍ من ثَقِيفٍ بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطهراني، عن صَفْوَانَ بن المعطل - هو الذي نَزَلَ وَذَفَرَ تِلْكَ الْحَيَّةَ من بين الصحابة - وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسولَ الله - ﷺ - يستمعون القرآن.

[٦٠٧١] وروى أبو نُعَيْمٍ من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن عمه، عن معاذ بن عبيد الله بن مَعْمَرٍ قال: كنتُ جالساً عند عثمان بن عفان فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنتُ بِقَلَاةٍ من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبتُ إلى المغتزكِ، فوجدتُ حياتٍ كثيرةً مقتولةً، وإذا يَنْفُخُ من بعضها ريحُ المِسْكِ، فجعلتُ أشمُّها واحدةً واحدةً، حتى وجدتُ ذلك من حَيَّةٍ صفراءَ رقيقةً، فَلَفَفْتُهَا في عِمَامَتِي ودفنتها. فبينما أنا أمشي إذ ناداني مُتَادٍ: يا عبدَ الله، لقد هُدِيتُ! هذانَ حَيَّان من الجنِّ بنو شعيبان وبنو أقيش التَّقَوَا، فكان من القتلَى ما رأيتُ، واستشهدَ الذي دفنته، وكان من الذين سَمِعُوا الوحي من رسولِ الله - ﷺ -. قال: فقال عثمانُ لذلك الرجل: إن كنتُ صادقاً فقد رأيتَ عَجَباً، وإن كنتُ كاذباً فعليك كَذِبُكَ^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، أي: طائفةً من الجن ﴿يَسْتَمِئُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: استمعوا. وهذا أدبٌ منهم.

[٦٠٧٢] وقد قال الحافظ البيهقي: حَدَّثَنَا الإمامُ أبو الطَّيِّبِ سهلُ بنُ مُحَمَّد بنِ سُلَيْمَانَ، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا هشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسولُ الله - ﷺ - سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سُكُوتًا! لِلْجِنِّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرّة: ﴿يَأْتِيءُ آءَاءَ رَبِّكَمُ تَكْذِبَانِ﴾، إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعيمك ربنا نكذب، فلك الحمد». ورواه الترمذي في التفسير عن أبي مُسْلِمٍ عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به. قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن^(٣)... فذكره، ثم قال الترمذي: «غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير». كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مَرْوَانَ بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد، به مثله.

وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قُوتِي﴾، أي قرع. كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَكَّاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ شَأْيُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. ﴿وَلَوْأَنَّ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾، رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، كقوله جل وعلا: ﴿لَسَنَفَعَهُمُ فِي الْيَوْمِ وَلَسَنُذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استُبدِلَ بهذه الآية على أنه في الجنِّ نُذْرٌ، وليس فيهم رسلٌ. ولا شك أن الجنَّ لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

(١) ضعيف جداً. أخرجه أبو نعيم ٢٥٧ وهو مرسل، وفيه الوليد بن بكير، ضعيف الحديث. وحصين بن عمر متروك الحديث. والأشبه أن عجزه المرفوع باطل.

(٢) أخرجه أبو نعيم ٢٥٦ من طريق عبد الله بن صالح عن عبد العزيز به لا من طريق الليث، والخبر منكر جداً، والأشبه أنه موضوع.

(٣) غير قوي، ويأتي في أول سورة الرحمن، إن شاء الله.

تُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ ﴿١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَعَمَلْنَا فِي دَرِيَّتِهِ الْأُثْيُورَ وَالْكِتَابَ﴾ [المنكبر: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسَ الَّذِينَ يَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنسان، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْقَوْلُ وَالرِّمَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، أي: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، ولم يذكروا عيسى لأن عيسى - عليه السلام - أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة، فهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

[٦٠٧٣] وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي - ﷺ - بقصة نزول جبريل عليه أول مرة، فقال: بَخِ بَخِ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جَدْعًا^(١).

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي؛ من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، أي: في الاعتقاد والأخبار، ﴿وَالَّذِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين، خَبَرٌ وَطَلَبٌ، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَوَعَدْتُكَ رَبُّكَ بِوَعْدٍ وَأَعَدَلْتُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩]. فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَالَّذِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: في العمليات. ﴿يَقَوْمَنَا أَيْبُوا دَائِمًا اللَّهُ﴾، فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً - ﷺ - إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن، ولهذا قال: ﴿أَيْبُوا دَائِمًا اللَّهُ وَأَمِشُوا بِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَقِفْ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾، قيل: إن (من) هاهنا زائدة، وفيه نظر، لأن زيادتها في الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُحَرِّمُ مِنَ عَذَابِ الْإِلَهِ﴾، أي ويقيكم من عذابه الأليم. وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبسُّح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة، لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة. والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب طائفة من السلف، وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل: ﴿لَوْ يَطَّلِعُونَ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِذْ يَسْأَلُهُمْ فَلَا جَأْنَ﴾ [الرحمن: ٧٤]. وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [٤٦] ﴿يَأْتِي مَالَهُ رَبُّكُمْ لَكُمْ كَذِبًا﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٤٧]، فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسبينهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: ولا يشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد. فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار - وهو مقام عذلي - فلأن يجزي مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضلي - بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل

(١) متفق عليه ويأتي في سورة العلق. والجدع: الشاب الخلد.

على ذلك أيضاً عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على جدوة، والله الحمد والمِنَّة.

وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقاً، أفلا يسكنها من آمن به وعجل له صالحاً؟ وما ذكره هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿يَتَفَرَّ لَكُمْ مِنَ دُورِكُمْ وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بخبوحة الجنة، وإنما يكونون في ريضها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بني آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاخِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بل قدره الله شاملة له ومحيطه به، وليس لهم من دونه أولياء أي لا يجيرهم منه أحد ﴿أُولَئِكَ فِي صَلَائِلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجح في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله - ﷺ - وفوداً وفوداً، كما تقدم بيانه. والله الحمد والمِنَّة، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ خَلْقِينَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَنْ يُوْحِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ خَلْقِينَ﴾، أي: ولم يخره خلقه، بل قال لها: كوني. فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة ورجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال جل جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحز هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. ثم قال تعالى أمرأ رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد - ﷺ - . قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، وتكون (من) في قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم.

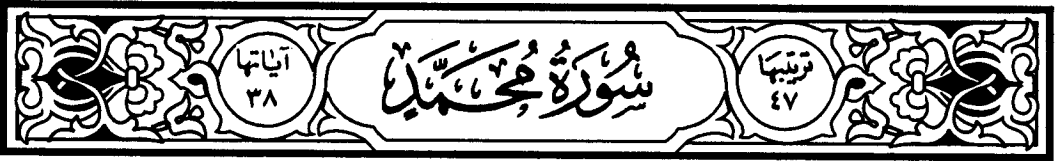
[٦٠٧٤] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحجاج الحَضْرَمِي، حدثنا السَّرِيُّ بن حَيَّان، حدثنا عَبَّاد بن عَبَّاد، حدثنا مجالد بن سَعِيد، عن الشعبي، عن مَسْرُوق قال: قالت لي عائشة: ظَلُّ رسول الله - ﷺ - صائماً ثم طَواه، ثم ظَلُّ صائماً ثم طَواه، ثم ظَلُّ صائماً - قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة، إن الله لم يرَضْ من أولي العِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ إلا بالصَّبْرِ على مَكْرُوهِها والصَّبْرِ عن مَحْبُوبِها، ثم لم يرَضْ مِنِّي إلا أن يُكَلِّفَنِي ما كَلَّفَهُمْ، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾. وإني - والله - لأصْبِرُن كما صَبَرُوا جهدي، ولا قوة إلا بالله»^(١).

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لُنْمَ﴾، أي: لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ حُلُولَ العقوبة بهم. كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَدَرْيَ وَالْمُكْذِبِينَ أُولَى الْقَتْمَةِ وَمَهْلِكُ قَيْلًا﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَلْكَرِيفُونَ أَنهَلَهُمْ رَدًا﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا عَيْشَةً أَوْ ضَحَاةً﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّو يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله جل وعلا: ﴿بَلَّغْ﴾، قال ابن جرير: يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك بُيُثْ بِلَاغٍ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بِلَاغٍ. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: لا يُهْلِكُ على الله إلا هالكٌ، وهذا من عَذْلِهِ تعالى أنه لا يُعَذِّبُ إلا من يَسْتَحِقُّ العذاب؛ والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

(١) إسناده ضعيف لأجل ضعف مجالد بن سعيد. ومن هذا الوجه أخرجه البغوي في «شرح السنة» ٣٩٤١ و«معالم التنزيل» ١٩٣٢ - بترقيمي.



أو سورة القتال؛ وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْمَاءَهُمْ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾، أي: أبطأها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاءً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَمَا نَزَّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صححة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جل جلاله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، قال ابن عباس: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم: والكل متقارب.

[٦٠٧٥] وقد جاء في حديث تشييب العاطس: «يهديكُم الله، ويصلحُ بالكم»^(١). ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾، أي: إنما أبطأنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْمَاءَهُمْ﴾، أي: يبين لهم مال أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمِرُوهُمْ فَاشْدُوا الرِّوَابَ فَإِذَا مَتَّ بِعَدِّ وِإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الرَّعْدُ أَوْرَاقَهُا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنصِرْكُمْ وَيُغْنِي أقدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى مُرْشِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَتَعَمَدُونَهُ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، أي: إذا واجهتموهم فاحضدوهم حَضْدًا بِالسَّيْفِ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَثْتُمْهُمْ﴾، أي: أهلكتموهم قَتْلًا ﴿فَتَشَدُّوا الرِّوَابَ﴾ الأَسَارَى الَّذِينَ تَأْسِرُونَهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ وَإِنْفِصَالِ الْمَعْرَكَةِ مُخَيَّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ، إِنْ شِئْتُمْ مَنَنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَاطْلِقْتُمْ أَسَارَهُمْ مَجَانًا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ بِمَالٍ تَأْخُذُونَهُ مِنْهُمْ وَتُشَارِطُونَهُمْ عَلَيْهِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى عَاتَبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَسَارَى يَوْمَئِذٍ لِیَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، وَالتَّقَلُّلُ مِنَ الْقَتْلِ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّىٰ يُنْخِزَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ لَوْلَا كَلِّبْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَدَاؤَ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨]. ثُمَّ قَدْ ادَّعَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْمُخَيَّرَةَ بَيْنَ مَفَادَةِ الْأَسِيرِ وَالْمَنْ عَلَيْهِ - مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]... الْآيَةَ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالضُّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ. وَقَالَ الْآخَرُونَ - وَهُمْ الْأَكْثَرُونَ - : لَيْسَتْ مَنْسُوخَةٌ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا الْإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ الْمَنْ عَلَى الْأَسِيرِ وَمُفَادَاتِهِ فَقَطْ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ. وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: بَلْ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ إِنْ شَاءَ، لِحَدِيثِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ - النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ مِنْ أَسَارَى بَدْرٍ.

[٦٠٧٦] وَقَالَ ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - حِينَ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: «إِنْ تَقْتُلَ تَقْتُلَ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَمْنَنُ تَمْنَنُ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلِّ تَعَطَّ مِنْهُ مَا شِئْتَ»^(١). وَزَادَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَقَالَ: الْإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ قَتْلِهِ أَوْ الْمَنْ عَلَيْهِ، أَوْ مَفَادَاتِهِ أَوْ اسْتِرْقَاقِهِ أَيْضًا. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مُحَرَّرَةٌ فِي عِلْمِ الْفُرُوعِ، وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِنَا «الْأَحْكَامُ»، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ نَصَعَ لِكُرْبَتِهِ أَوْزَارَهَا﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَكَأَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ :-

[٦٠٧٧] «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّىٰ يَقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالَ»^(٢).

[٦٠٧٨] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَلِيمَانَ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُرَشِيِّ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَنَّ سَلْمَةَ بْنَ نُفَيْرٍ أَخْبَرَهُمْ: أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ: «إِنِّي سَبَيْتُ الْخَيْلَ، وَالْقَيْتُ السَّلَاحَ، وَوَضَعْتُ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا، وَقُلْتُ: لَا قِتَالَ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ -: «الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ يُرْفَعُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيَقَاتِلُونَهُمْ، وَيُرْزَقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. أَلَا إِنَّ عَفْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامِ، وَالْخَيْلَ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ سَلْمَةَ بْنِ نُفَيْرٍ السَّكُونِيِّ، بِهِ.

[٦٠٧٩] وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْبَغَوِيُّ: حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ زُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَهَاجِرٍ، عَنْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٩ ومسلم ١٧٦٤ وأبو داود ٢٦٧٩ والنسائي ١٠٩/١ - ١١٠ وأحمد ٤٥٣/٢ وابن حبان ١٢٣٩.

(٢) تقدم تخريجه في سورة النور آية ٥٥.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٠٤/٤ وإسناده حسن لأجل إسماعيل بن عياش، فإنه صدوق في روايته عن أهل بلده - الشام - وتوبع عند النسائي في «الكبرى» ٤٤٠١ وكرره من وجه آخر ٨٧١٢ وإسناده صحيح.

الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشِي، عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عن النُّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: فَتُحَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَتُحَّ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سُبِّتَ الْخَيْلُ، وَوُضِعَتِ السَّلَاحُ، وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، قَالُوا: لَا قِتَالَ، قَالَ: «كَذَّبُوا»، الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، لَا يَزَالُ اللَّهُ يُرْفَعُ قُلُوبَ قَوْمٍ يِقَاتِلُونَهُمْ، فَيُرْزَقُهُمْ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَغَفَّرَ دَارَ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّامِ»^(١). وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد، به. والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفييل كما تقدّم. وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحزب إلى الأبقى حرب.

وقال قتادة: «حَتَّى تَنْصَحَ الْمَرْثَةَ أَوْزَارَهَا»، حتى لا يبقى شركك. وهذا كقوله تعالى: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: «حَتَّى تَنْصَحَ الْمَرْثَةَ أَوْزَارَهَا»، أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله - عز وجل - . وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوشع في طاعة الله - عز وجل - . وقوله عز وجل: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَمَرْتُمْ مِنْهُمْ»، أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، «وَلَكِنْ لِيَبْلُوَّا بِمَقْعَدِمْ بَعْثُكُمْ»، أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعيّة الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْمُرُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْقَادِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢، والتوبة: ١٦]. وقال في سورة براءة: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُودَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ»^(٢) وَيَذْهَبَ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(٣). ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين، قال تبارك وتعالى: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعْطِيَ أَعْمَالَهُمْ»، أي: لن يذهبها بل يكثرها ويُتميها ويُضاعفها. ومنهم من يجزي عليه عمله في طول بزرجه، كما ورد بذلك الحديث الذي، رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال:

[٦٠٨٠] حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مرة، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ عِنْدَ أَوْلَى قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ: يُكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُزَوِّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُؤْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَمَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ»^(٢). تفرد به أحمد رحمه الله.

[٦٠٨١] حديث آخر، قال أحمد أيضاً: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَجِيرِ بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معد يكرب الكِنْدِيِّ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنْ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: أَنْ يَغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوِّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوِّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُسْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»^(٣). وقد أخرجه الترمذي وصحّحه، وابن ماجه.

(١) المتن صحيح. والإسناد ضعيف، فيه عننة الوليد، والصواب كونه من حديث سلمة بن نفييل كما ذكر ابن كثير، وبكل حال المتن محفوظ.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٢٠٠/٤ وإسناده غير قوي لأجل عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان لكن له شواهد. انظر المجمع ٥/٢٩٣ - ٢٩٤ وانظر الآية.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ١٦٦٣ وابن ماجه ٢٧٩٩ وأحمد ١٣١/٤.

[٦٠٨٢] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وعن أبي قتادة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «يُغْفَرُ للشَّهِيد كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ»^(١) وَرُوي من حديث جماعة من الصحابة.

[٦٠٨٣] وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قال رسول الله - ﷺ - : «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»^(٢). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ﴾، أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٣). وقوله عز وجل: ﴿وَيُصَلِّحُ بَالِمَمِّ﴾، أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَمَمٌ﴾^(٤)، أي: عرفهم بها وقدهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومسكنهم، وحيث قَسَمَ اللهُ لهم منها، لا يُخِطُّونَ كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وَرَوَى مَالِكٌ عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة. وقال مقاتل بن حيان: بَلَّغْنَا أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي كَانَ وَكِيْلًا بِحَفِظِ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا يَمِشِي بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْجَنَّةِ، وَيَتَّبِعُهُ ابْنُ آدَمَ حَتَّى يَأْتِيَ أَقْصَى مَنْزِلٍ هُوَ لَهُ، فَيَعْرِفُهُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى أَقْصَى مَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ دَخَلَ مَنْزِلَهُ وَأَزْوَاجَهُ، وَانصَرَفَ الْمَلِكُ عَنْهُ، ذَكَرَهُنَّ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، - رَجَمَهُ اللهُ - .

[٦٠٨٤] وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الثَّاجِي، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَتَقَاصُونَ مِظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّوا وَنُقُوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدُهُمْ بِمَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ بِمَنْزِلَةٍ فِي الدُّنْيَا»^(٥).

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَشَأُوا اللهُ يُصَرِّكُمْ وَيَتَّبِعُ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٦)، كقوله عز وجل: ﴿وَلْيَسَّرْ اللهُ لَكُمْ يَسْرَؤَكُمْ﴾، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّبِعُ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ كما جاء في الحديث:

[٦٠٨٥] «مَنْ بَلَغَ ذَا سُلْطَانِ حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاقَهَا، ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ﴾، عكسُ تَتَبِيتِ الْأَقْدَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ اللهُ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ - ﷺ - .

[٦٠٨٦] وقد ثبت في الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «تَعَسَّ عَبْدِ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدِ الدَّرْهِمِ، تَعَسَّ عَبْدِ الْقَطِيفَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَّ، وَإِذَا شَبَّكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(٧)، أي: فلا شفاه الله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْأَلُ أَهْلَهُنَّ﴾، أي: أحببها وأبطلها. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾، أي: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمُ وَاللَّكْفَرِينَ أَمْثَلَهَا﴾^(٨) ذَلِكَ

(١) صحيح . أخرجه مسلم ١٨٨٦ .

(٢) حسن . أخرجه أبو داود ٢٥٢٢ وابن حبان ٤٦٤١ ، وانظر «صحيح أبي داود» ٢٢٠١ .

(٣) صحيح . أخرجه البخاري ٢٤٤٠ وأحمد ١٣/٣ و٦٣ و٧٤ وابن حبان ٧٤٣٤ .

(٤) تقدم تحريجه في سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

يَأَنَّ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١١﴾ وَكَانَ مِنْ قَرَابَةٍ مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ مِنْ قَرَابَتِكَ إِلَهِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكُنْهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ - يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله - ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ آتَيْنَاهُمَا﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ﴿١١﴾.

[٦٠٨٧] ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي - ﷺ -، وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا. وأجابهم عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عدت لأحياء. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هبل، اعل هبل. فقال رسول الله - ﷺ -: «ألا تخببوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال: «ألا تخببوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾، أي: في دنياهم، يتمنّون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً، ليس لهم همّة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: [٦٠٨٨] «المؤمن يأكل في معنى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، أي: يوم جزائهم. وقوله عز وجل: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرَابَةٍ مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ مِنْ قَرَابَتِكَ إِلَهِي أَخْرَجَكَ﴾، يعني مكة، ﴿أَهْلَكُنْهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله - ﷺ - وهو سيّد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله - عز وجل - قد أهلك الأمم - الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يؤقر على الكافرين به في معادهم، ﴿يَضَعُكَ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَرَابَتِكَ إِلَهِي أَخْرَجَكَ﴾، أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

[٦٠٨٩] وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حنّش، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي - ﷺ - لما خرج من مكة إلى الغار، وواراه، فالتفت إلى مكة - وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك». فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرّمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل

(١) تقدم تحريجه في سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩٦ وابن ماجه ٣٢٥٦ عن أبي هريرة، وأخرجه مسلم ٢٠٦٢ عن أبي موسى.

بَدْخُولِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ - ﷺ -: ﴿وَكُلِّينَ مِنْ قَرَبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَابَتِكَ أَلَيْسَ الْكُرْبَانُ كَأَهْلِ بَيْتِكَ أَكْرَمَكَ أَهْلَكَهُمْ فَلَكَ نَاصِرٌ لَهُمْ﴾ (١١).

﴿أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنَّهُمْ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥).

يقول تعالى: ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: ليس هذا كهذا. كقوله تعالى: ﴿أَفَنْ يَمْلِكُ أَنتُمْ أَنْتُمْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْفُلُقُ كَمَنْ هُوَ آخِزٌ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْمَى النَّارِ وَأَعْمَى الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١٥) [الحشر: ٢٠]. ثم قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ - قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾، أي: نعمتها، ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾، قال ابن عباس، والحسن، وقاتدة، يعني غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني: غير مُتَنِّين. والعرب تقول: آسِنَ الماء: إذا تَغَيَّرَ رِيحُهُ.

[٦٠٩٠] وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾: «يعني الصافي الذي لا كَدْرَ فِيهِ» (٢). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجِّرُ من جَبَلٍ من مِسْكٍ. ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾، أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة.

[٦٠٩١] وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوعِ الماشية» (٣).

﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾، أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا عَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُذْفَرُونَ﴾ (١٤) [الصافات: ٤٧]. ﴿لَا يُسَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ﴾ (١٥) [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْعَاتٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ (١٥) [الصافات: ٤٦].

[٦٠٩٢] وفي حديث مرفوع: «لم تعصمها الرجال بأقدامها» (٤).

﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾، أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم، والريح.

[٦٠٩٣] وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل» (٥).

[٦٠٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُرَيْرِي، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه

(١) المرفوع له شواهد يصح بها، إسناده وإو، فيه حنش واسمه الحسين بن قيس، وهو متروك، والوهن فقط في كونه قاله عند الغار، وفي ذكر نزول الآية.

(٢) لم أقف على إسناده، وهو غريب كونه مرفوعاً.

(٣) لم أره مسنداً، ولا يصح، فلو صح لذكره المفسرون وغيرهم.

(٤) ذكره المصنف على أنه مرفوع. وقد أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» ٢٥/٦ عن سعيد بن جبيرة من قوله. وهو أشبه، والله أعلم.

(٥) هو طرف أثر ابن جبيرة المتقدم.

قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «فِي الْجَنَّةِ بَحْرُ اللَّبْنِ، وَبَحْرُ الْمَاءِ، وَبَحْرُ الْعَسَلِ، وَبَحْرُ الْخَمْرِ، ثُمَّ تَشْتَقُّ الْأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدَ»^(١). ورواه الترمذي في صِفَةِ الْجَنَّةِ، عن محمد بن بَشَّارٍ، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجُبَيْرِيِّ، به. وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٦٠٩٥] وقال أبو بكر بن مَرْذُوبٍ: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيْدٍ أبو قُدَّامَةَ الْإِيَادِيَّ، حدثنا أبو عمران الْجَوْنِي، عن أبي بكر بن عبد الله بن قَيْسٍ، عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «هذه الأنهار تَشْخُبُ من جَنَّةِ عَدْنٍ في جَوْيَةٍ، ثم تَصْدَعُ بعد أنهاراً»^(٢).

[٦٠٩٦] وفي الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الْفِرْدَوْسَ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تَفْجُرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٣).

[٦٠٩٧] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مُصْعَبُ بن إبراهيم بن حمزة الزُّبَيْرِي، وعبد الله بن الصقر السُّكْرِي قالوا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الجزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عِيَّاش، عن ذَلْهَمِ بن الأسود، عن عبد الله بن حاجب بن عامر بن الْمُتَنَفِّقِ الْعُقَيْلِي، عن أبيه، عن عَمِّه لَقِيْطِ بن عامر، قال دلهم: وحدثني أيضاً أبي الأسود، عن عاصم بن لَقِيْطِ أن لَقِيْطِ بنَ عامرٍ خَرَجَ وافداً إلى رسول الله - ﷺ - قلت: يا رسول الله، فَعَلَامَ تَطْلُعُ من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مُصَفَّى، وأنهار من خمر ما بها صُدَاعٌ ولا نُدَامَةٌ، وأنهار من لبن لم يَتَغَيَّرِ طَعْمُهُ، وماء غير آسن، وفاكهة لَعَمْرُؤُا إِلَهَكَ ما تَعْلَمُونَ وخَيْرٌ من مثله، وأزواج مُطَهَّرَةٌ». قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مُضْلِحَات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تَلْدُونَهُنَّ مثلَ لَدَاتِكُمْ في الدنيا وتَلْدُونَكُمْ، غير أن لا تَوَالِدَنَّ»^(٤).

[٦٠٩٨] وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن عُبيدٍ، عن يزيد بن هارون، أخبرني الجُبَيْرِيُّ، عن معاوية بن قره، عن أبيه، عن أنس بن مالك قال: لَعَلَّكُمْ تَطْنُونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي في أَخْدُوْدٍ في الأَرْضِ، والله إنها لَتَجْرِي سائحةً على وجه الأرض، حافاتهما قِبابُ اللؤلؤ، وطيئها الْمِسْكُ الأَذْفَرُ. وقد رواه أبو بكر ابن مَرْذُوبٍ، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعاً^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، كقولُه عز وجل: ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَأَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فُكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَمَقَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي: مع ذلك كله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ﴾، أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو الدرجات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً﴾، أي: حاراً شديداً الحرُّ، لا يُسْتَطَاعُ، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، أي: قَطَّعَ ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياداً بالله تعالى من ذلك.

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٥٧١ وأحمد ٥/٥ وإسناده حسن لأجل حكيم بن معاوية.

(٢) إسناده غير قوي لأجل الحارث بن عبيد، والجوية: الحفرة.

(٣) متفق عليه، وتقدم.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤/١٣ - ١٤) رقم ١٦٢٠٦ والطبراني ٢١١/١٩ وقال الهيثمي: رواه عبد الله والطبراني بنحوه وأحد طريقتي عبد الله إسناده متصل ورجالها ثقات.

(٥) فيه مهدي بن حكيم. لم أجده له ترجمة. والصواب أنه موقوف كما قال المنذري في «الترغيب» ٥٤٨٤.

أَسْرَزْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).

[٦١٠٢] وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس، تَوُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).

[٦١٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَرْجِسَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَأَكَلْتُ مَعَهُ مِنْ طَعَامِهِ فَقُلْتُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَلَكَ». فَقُلْتُ: أَسْتَغْفِرُ لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكُمْ، وَقَرَأَ: «وَأَسْتَغْفِرُ لَذِيكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى نُغْصِ كَتِفِهِ الْأَيْمَنِ - أَوْ: كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ، شُعْبَةُ الَّذِي شَكَ - فَإِذَا هُوَ كَهَيْئَةِ الْجُمُعِ عَلَيْهِ التَّكْلِيفُ^(٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ طُرُقٍ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ. بِهِ.

[٦١٠٤] وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى: حدثنا مُحْرِزُ بْنُ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا عِثْمَانُ بْنُ مَطَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَفُورِ، عَنْ أَبِي نَصِيرَةَ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصُّدَيْقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَأَكْثَرُوا مِنْهُمَا، فَإِنْ إِبْلِيسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَالِاسْتِغْفَارِ. فَلَمَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالْأَهْوَاءِ، فَهَمَّ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ»^(٤).

[٦١٠٥] وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله - عز وجل - : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٥). والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً. وقوله تبارك وتعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّكُمْ»، أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومُسْتَقَرِّكُمْ فِي لَيْلِكُمْ، كقوله تبارك وتعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ» [الأنعام: ٦٠]. وقوله: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَمْلِكُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [هود: ٦]. وهذا القول إليه ذهب ابن جرير، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: مُتَقَلِّبِكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَمُتَوَكِّكُمْ فِي الْآخِرَةِ. وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومتوَكِّمكم في قُبُوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

(١) صحيح. أخرجه مسلم (٧٧١) (٢٠٢) وأبو داود ٥٠٩ والترمذي ٣٤٢٢ وأحمد ١٠٢/١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢١ ومسلم (٢٧٠٢) (٤٢) والنسائي ٤٤٦ من حديث ابن عمر.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١١٢/٢٣٤٦ والترمذي ٢٣ والنسائي في «التفسير» ٥١٦ وأحمد ٨٢/٥.

(٤) إسناده ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلى ١٣٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٧٤: فيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف اهـ وله علة ثانية: فيه عبد الغفور هو ابن عبد العزيز الواسطي، اتهمه ابن حبان بالوضع. وعلة ثالثة: أبو رجاء مولى أبي بكر مجهول.

(٥) ضعيف. أخرجه أحمد ٧٦/٣ والحاكم ٢٦١/٤ من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً، وإسناده ضعيف لضعف دراج في أبي الهيثم.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تَمَنَّوْا شرعية الجهاد، فلما فَرَضَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وأمر به نَكَلَ عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِئَةٌ مِنْهُمْ يَخْفَوْنَ النَّاسَ كَخَفِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَفِيَةً وَقَالُوا لَوْلَا رَأَيْنَا إِرْكَاتٍ وَعَسَائِدَ الْفِتَنِ لَوَلَّا أَهْلُ الْقُرْبَىٰ لَمُنَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَآ قِيلَ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧]. وقال عز وجل هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴿٧٨﴾﴾، أي: مشتتلة على حُكْم القتال، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مِّنْكُمْ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، أي: من فرغهم وزعجهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مُشْجَعاً لهم: ﴿فَأَوَّلُ لَهْرٍ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: وكان الأولى بهم أن يسمَعُوا وَيُطِيعُوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾، أي: جَدُّ الحال، وَحَضَرَ القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: عن الجهاد ونكَلْتُمْ عنه، ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تَسْفِكُونَ الدَّمَاءَ، وتَقَطِّعُونَ الأرحام. ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَمُوا وَعَصَمُوا بِصَرْفِهِمْ ﴿٧٩﴾﴾، وهذا نهى عن الإسناد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المَقَالِ وَالْفِعَالِ وَبَدَلِ الأموال. وقد وردت الأحاديث الصَّحاح والحسان بذلك، عن رسول الله - ﷺ - من طُرُقٍ عَدِيدَةٍ، ووجوه كثيرة.

[٦١٠٦] قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مزرذ، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فلما فَرَّغَ منه قامت الرحم فأخذت بِحَقْوِ الرِّحْمِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فقال: مَهْ! فقالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة. فقال تعالى: ألا تَرْضَيْنَ أن أَصِلَ من وَصَلَكِ، وأَقْطَعِ من قَطَعَكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٧٩﴾﴾^(١). ثم رواه البخاري من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مزرذ، به، قال رسول الله - ﷺ -: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٧٩﴾﴾». ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرذ به.

[٦١٠٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن علقمة، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبي بكر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من ذنبٍ أُخْرِجَ أن يُعَجَّلَ اللهُ عقوبته في الدنيا مع ما يَدْخِرُ لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»^(٢). ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل - هو ابن علقمة - به. وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح».

[٦١٠٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد الترمي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان رضي الله عنه، عن رسول الله - ﷺ - قال: «من سَرَّه التَّسَاءُ في الأجل، والزيادة في الرزق، فَلْيَصِلْ رَجْمَهُ»^(٣). تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٣٠ و ٤٨٣١ و ٤٨٣٢ و مسلم ٢٥٥٤ وأحمد ٣٣٠/٢ وابن حبان ٤٤١.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٩٠٢ والترمذي ٢٥١١ وابن ماجه ٤٢١١ وأحمد ٣٦/٥ و ٣٨/٥ وإسناده حسن لأجل عيينة بن عبد الرحمن، وله شواهد كثيرة تقدمت.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٢٧٩/٥ وإسناده لين لأجل ميمون بن موسى، لكن له شواهد منها حديث أنس عند مسلم ٢٥٥٧.

[٦١٠٩] وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصلٌ ويقطعون، وأعمى ويظلمون، وأحسبُ ويُسَيِّئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تُتْرَكُونَ جميعاً، ولكن خُذْ بِالْفَضْلِ وَصَلِّمْ، فإنه لن يزالَ معك ظهيرٌ من الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما كنتَ على ذلك»^(١). تَفَرَّدَ به أحمد من هذا الوجه. وله شاهدٌ من وجهٍ آخر.

[٦١١٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا فطر، عن مُجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنَّ الرحمَ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، وليس الواصلُ بالمكافئ»، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَتْ رَجِمَ وَصَلَّهَا»^(٢) رواه البخاري.

[٦١١١] وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثُمَامَةَ الثَّقَفِيِّ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «تَوْضَعُ الرَّجِمُ يومَ الْقِيَامَةِ لها حُجَّةٌ كحُجَّةِ الْمِغْزَلِ، تتكلم بِلِسَانٍ طَلِقٍ ذَلِكِ»^(٣)، فَتَصِلُ مِنْ وَصَلِهَا وَتَقَطُّعُ مِنْ قَطْعِهَا»^(٤).

[٦١١٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو - يَبْلُغُ به النَّبِيُّ - ﷺ - قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرجمُ سُجُنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتْهُ»^(٥). وقد رواه أبو داودَ وَالتِّرْمِذِيُّ، من حديث سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار به. وهذا هو الذي يُزَوَّى بِتَسْلُسُلِ الْأَوْلِيَّةِ، وقال الترمذي: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

[٦١١٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشامُ الدُّسْتَوَائِيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ: أن أباه حَدَّثَهُ: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض، فقال له عبدُ الرحمن: وَصَلْتِكَ رَجِمًا، إنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: أنا الرحمن، خَلَقْتُ الرَّجِمَ وَشَقَقْتُ لها اسماً من اسمي، فَمَنْ يَصِلُهَا أَصَلَّهَا، وَمَنْ يَقَطِعُهَا أَقَطَعَهَا فَأَبَتْهُ - أَوْ قَالَ: مِنْ بَتِّهَا أَبَتْهُ»^(٦). تَفَرَّدَ به من هذا الوجه. ورواه أحمدٌ أيضاً من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن الرِّدَادِ - أَوْ أَبِي الرَّدَادِ - عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه أبو داودَ وَالتِّرْمِذِيُّ، من رواية أبي سلمة، عن أبيه. والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

[٦١١٤] وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس، عن الحجاج بن يونس، عن الحجاج بن الفَرَاغِصَةِ، عن أبي عَمَرَ البصري، عن سَلْمَانَ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الأرواحُ جنودٌ مجتَدَّةٌ، فما تعازَفَ منها اتلفَ، وما تناكَرَ منها اختلف»^(٧).

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١٨١/٢ وإسناده غير قوي لأجل حجاج، لكن أصله عند مسلم ٢٥٥٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٩١ وأبو داود ١٦٩٧ وَالتِّرْمِذِيُّ ١٩٠٨ وأحمد ١٩٣/٢ وابن حبان ٤٤٥.

(٣) حجة المغزل: صنارته المعوجة في رأسه التي يعلق بها الخيط. ولسان ذلق: فصيح.

(٤) أخرجه أحمد ٢٠٩/٢ وإسناده ضعيف لجهالة أبي ثمامة، وفي الباب أحاديث بغير هذا السياق.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٩٤١ وَالتِّرْمِذِيُّ ١٩٢٤ وأحمد ١٦٠/٢ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٦) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٩٤ وَالتِّرْمِذِيُّ ١٩٠٧ وأحمد ١٩٤/١ من طرق متعددة، وله شواهد.

(٧) صحيح. أخرجه الطبراني ٦١٧٢ وقال الهيثمي ١٣١٠١ رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد باختصار وله شواهد

كثيرة وهو صحيح..

[٦١١٥] وبه قال رسول الله - ﷺ -: «إِذَا ظَهَرَ الْقَوْلُ، وَخُزِنَ الْعَمَلُ، وَاتَّالَفَتِ الْأَلْسِنَةُ، وَتَبَاغَضَتِ الْقُلُوبُ، وَقَطَعَ كُلُّ ذِي رَجْمٍ رَجِمَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ»^(١).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَىٰ آذُنَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذَنَهُمْ﴾ (٢٧) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨)

يقول تعالى أمراً يتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)، أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطَبَّقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

[٦١١٦] قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله - ﷺ - يوماً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يقرجها. فما زال الشاب في نفس عمر - رضي الله عنه - حتى وُلِّي، فاستعان به^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَىٰ آذُنَيْهِمْ﴾، أي: فارفوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، أي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: غرهم وخدعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، أي: مالؤهم وناصرحومهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله - عز وجل -: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، أي: ما يسرون وما يخفون، الله مُطَّلِعٌ عليه وعالمٌ به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذَنَهُمْ﴾ (٢٧)، أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعضت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالغنم والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذَنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]... الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: بالضرب ﴿أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ يَوْمَ تَجُوزُ عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَانَهُمْ﴾ (٢٩) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِئْسِمَهُمْ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠) ﴿وَلَسَبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١)

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ٦١٧٠ وفي «الأوسط» كما في «المجمع» ١٢٢٤١ وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم احد. وفيه حجاج بن فرافصة، لين الحديث. وشيخه مجهول.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٤٠٨ عن عروة مرسلًا، ورجاله ثقات، لكن المرسل ضعيف عند أهل الحديث.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْتَهُمْ﴾ (٣٢)، أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سيوضح أمرهم ويجلّيه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة، فبيّن فيها فضائحهم وما يعتيدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تُسمى الفاضحة. والأضغان: جنم ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بتصره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَنَّهُمْ بِيَمِينِهِمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء - يا محمد - لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحنلاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وقلّت لسانه.

[٦١١٧] وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل. وتكلّمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول «شرح البخاري»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين (١).

[٦١١٨] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو - رضي الله عنه - قال: خطبنا رسول الله - ﷺ - خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «ثم يا فلان، ثم يا فلان، ثم يا فلان» - حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً - ثم قال: «إن فيكم - أو منكم - منافقين فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمي مقتع قد كان يعرفه، فقال: مالك؟ فحدثه بما قال رسول الله - ﷺ -، فقال: بعداً لك ساير اليوم (٢).

وقوله عز وجل: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ﴾، أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى تَلْمِزُوا الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتَتَّبِلُوا أَكْبَارَكُمْ﴾. وليس في تقدّم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا زيب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم: أي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (٣٢) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤) ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُبَ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٧٠٢ من حديث جندب بن سفيان، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٦٧٦: فيه حامد بن آدم، وهو كذاب اه وفيه محمد بن عبد الله العزمي، وهو متروك. وله شاهد من حديث عثمان، أخرجه القضاعي ٥١٠، وفيه حفص بن سليمان واو.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٧٣/٥ والطبراني ٢٤٦/١٧، وقال الهيثمي في «المجمع»: فيه عياض بن عياض عن أبيه، ولم أر من ترجمهما اه قلت: ذكرهما ابن حبان في «الثقات» ٢٦٧/٥، ولكن ابن حبان معروف بتوثيق المجاهيل. والمتن منكر. فالصواب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشهر بالمنافقين، وإنما أعلم حذيفة فقط بأسمائهم، وسمي صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يُخبر تعالى عن كَفَرٍ وَصَدَّ عن سبيل الله، وخَالَفَ الرسولَ وشَأفه، وارتدَّ عن الإيمان من بعد ما تَبَيَّن له الهدى: أنه لن يَضُرَّ الله شيئاً، وإنما يَضُرُّ نفسه ويَحْسُرُها يوم مَعَادِهَا، وَسَيُحِبُّ الله عَمَلَهُ فلا يُثِيبُهُ على سَالِفٍ ما تَقَدَّمَ من عَمَلِهِ الذي عَقَبَهُ برذته مِثْقَالِ بَعُوضَةٍ من خَيْرٍ، بل يَحِبُّهُ ويمَجِّهُه بِالْكَلِمَةِ، كما أن الحَسَنَاتِ يُذَهِبُنَ السَيِّئَاتِ.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المَرْزُوبِيُّ في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قُدَامَةَ، حَدَّثَنَا وكَيْعٌ، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحابُ رسول الله - ﷺ - يَظُنُّونَ أنه لا يَضُرُّ مع (لا إله إلا الله) ذَنْبٌ، كما لا يَنْفَعُ مع الشْرِكِ عَمَلٌ، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخَافُوا أن يُبْطِلَ الذَنْبُ العَمَلَ.

ثم رَوَى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بَكَيْرِ بن معروف، عن مقاتل بن حَبَّان، عن نافع، عن ابن عُمر قال: كنا - معشَرُ أصحاب رسول الله - ﷺ - نرى أنه ليس شيءٌ من الحَسَنَاتِ إلا مَقْبُولٌ حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فقلنا: الكِبَائِرُ المَوْجِبَاتُ والفَوَاحِشُ، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كَفَفْنَا عن القولِ في ذلك، فَكُنَّا نخَافُ على مَنْ أَصَابَ الكِبَائِرُ والفَوَاحِشُ، ونرجو لمن لم يُصِيبَهَا.

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مُبْطِلٌ للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، أي: بالردة. ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْتُوا بِمَآثِرٍ وَمِمَّ كَفَرْنَا فَكَفَرْنَا فَكُنَّ كُفْرًا فَكُنَّ كُفْرًا فَكُنَّ كُفْرًا فَكُنَّ كُفْرًا﴾، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾... الآية.

ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهْتَبُوا﴾، أي: لا تَضَعُفُوا عن الأعداء، ﴿وَدَعُوا إِلَى السَّلْوِ﴾، أي: المُهَادَنَةَ والمُسَالَمَةَ وَوَضَعَ القتالَ بينكم وبين الكفار في حال قُوَّتكم وكثرة عَدَدِكُمْ وَعُدَدِكُمْ، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهْتَبُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ﴾، أي: في حال غُلُوبِكُمْ على عَدُوِّكُمْ، فأما إذا كان الكفار فيهم قُوَّةً وكثرةً بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحةً، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله - ﷺ - حين صَدَّه كَفَارُ قُرَيْشٍ عن مكة ودَعَوْهُ إلى الصلح وَوَضَعَ الحربَ بينهم وبينه عَشْرَ سنين فأجابهم إلى ذلك. وقوله جلت عظمته: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارَةٌ عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، أي: ولن يُحِبِّطُهَا وَيُبْطِلُهَا وَيَسْلُبُكُمْ إِيَّاهَا، بل يُؤَيِّدُكُمْ ثَوَابِهَا ولا يَنْقُصُكُمْ منها شيئاً. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لُحْمٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنَّا وَتَنَفَّقُوا يُؤَيِّدُكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ يَسْتَلِكُمْ هَؤُلَاءُ فَيَحْفَظْكُمْ يَتَحَلَّوْا وَيَخْرِجْ أَعْيُنَكُمْ﴾ (٣٧) ﴿هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِشَيْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨)

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لسانها: ﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لُحْمٌ وَلَهُوَ﴾، أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنَّا وَتَنَفَّقُوا يُؤَيِّدُكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، أي: هو

عَنِّي عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئاً، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَوَاسِئَةً لِإِخْوَانِكُمُ الْفُقَرَاءَ، لِيَعُودَ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَيَرْجِعَ ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ.

ثم قال جل جلاله: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّرُوا﴾، أي: يُجهدكم تبخلوا: ﴿وَيُخْرِجْ أَمْشَكَكُمْ﴾، قال قتادة: قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضعاف. وصدق قتادة، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله تعالى: ﴿هَاتِنَا هَذِهِ تَدْعُونَ لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾، أي: لا يجب إلى ذلك، ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾، أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْمَتَّقُ﴾، أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتُرُ الْفُقَرَاءَ﴾، أي: بالذات إليه. فوصفه بالغني وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾، أي: عن طاعته وأتباع شزعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

[٦١١٩] وقال ابن أبي حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»^(١). تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه ابن حبان ٧١٢٣ والطبري ٣١٤٤٢ و٣١٤٤٣ و٣١٤٤٤ وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ٣/١ من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف، فيه مسلم بن خالد الزنجي، وهو ضعيف وتابعه عبد الله بن جعفر عند الترمذي ٣٢٦١ وأبي نعيم ٣/١ وابن جعفر، ضعيف الحديث، وأخرجه الترمذي ٣٢٦٠ من وجه آخر، وفيه راو لم يسم. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣٣٤/٦ وأخرجه أبو نعيم ٥/١ من طريق آخر وإسناده ضعيف. فلعل الحديث يحسن بهذه الطرق، أو يقرب من الحسن، والله أعلم. وعجز الحديث أخرجه البخاري ٤٨٩٧ و٤٨٩٨ ومسلم ٢٥٤٦ من حديث أبي هريرة. لكن فيه «من أبناء فارس» بدل «الفرس» وانظر «الصحيحة» ١٠١٧.



وَهِيَ مَدِينَةٌ

[٦١٢٠] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة قال: سمعتُ عبد الله بن مفضل يقول: قرأ رسولُ الله - ﷺ - عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيتُ لكم قراءته^(١)، أخرجاه من حديث شعبة به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنَزِّلَ لَكَ رِجْسًا مِّن سَمَوَاتِهِ وَيُجِبْ لَكَ إِحْسَابًا مِّن دُونِ الْحِسَابِ ﴿٢﴾ وَنَصَرَكَ اللَّهُ تَبَرًّا ﴿٣﴾ ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله - ﷺ - من الحُدَيْبِيَّةِ في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قَابلٍ، فأجابهم إلى ذلك على تكروه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة، إن شاء الله تعالى. فلما نحر هذيه حيث أحصر ورجع، أنزل الله - عز وجل - هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أو غيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحُدَيْبِيَّةِ. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحُدَيْبِيَّةِ.

[٦١٢١] وقال البخاري: حدثنا عبید الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تُعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحُدَيْبِيَّةِ، كُنَّا مع رسول الله - ﷺ - أربع عشرة مئة، والحُدَيْبِيَّةِ بئر، فترحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فأتانا فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرت لنا ما شئنا نحن وركائنا^(٢).

[٦١٢٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح؛ حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رسول الله - ﷺ - في سفر، قال: فسأته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد علي، قال فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يابن الخطاب، نزلت رسول الله - ﷺ - ثلاث مرات

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٨١ ومسلم ٧٩٤ وأبو داود ١٤٦٧ وأحمد ٥٤/٤ - ٨٥ وابن حبان ٧٤٨.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٤١٥٠.

فلم يَزِدْ عليك؟ قال: فَرَكِبْتُ راحلتي فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزْلٌ فِيَّ شَيْءٌ، قال: فإذا أنا بمناد: يا عُمَرُ. قال: فرجعتُ وأنا أظنُّ أنه نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، قال: فقال النبيُّ - ﷺ -: «نَزَلَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»^(١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقٍ، عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هَذَا إِسْنَادٌ مَدِينِيٌّ [جيد] لَمْ نَجِدْهُ إِلَّا عِنْدَهُمْ.

[٦١٢٣] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةَ أَحَبِّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ». ثُمَّ قَرَأَهَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالُوا: هِنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ بَيْنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَا يُفَعَّلُ بِكَ، فَمَاذَا يُفَعَّلُ بِنَا؟ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿فَوَرَأَى عَظِيمًا﴾^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ بِهِ.

[٦١٢٤] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَيْسَى، حَدَّثَنَا مُجَمِّعُ بْنُ يَعْقُوبَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَحْدُثُ عَنْ عَمِّهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ عَمِّهِ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ - وَكَانَ أَحَدَ الْقُرَّاءِ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ - قَالَ: شَهِدْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ فَلَمَّا انْتَصَرْنَا عَنْهَا إِذَا النَّاسُ يُنْفِرُونَ الْأَبَاعِرَ، فَقَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا لِلنَّاسِ؟ قَالُوا: أَوْجِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -. فَخَرَجْنَا مَعَ النَّاسِ نُوجِفُ^(٣)، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى رَاحِلَتِهِ عِنْدَ كُرَاعِ الْعَمِيمِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، وَفَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «إِنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَفَتَحَ». فَكُفِّتْ خَيْبِرُ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا مِنْ شَهِدِ الْحُدَيْبِيَّةِ؛ فَكُفِّتْهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ الْفَأُ وَخَمْسَمِئَةٍ [مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةٌ] فَارَسَ، فَأَعْطَى الْفَارَسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا^(٤). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْجِهَادِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ يَعْقُوبَ، بِهِ.

[٦١٢٥] وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَزِيْعٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَحْرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: لَمَّا أَقْبَلْنَا مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَعْرَسْنَا فَمِنْهَا، فَلَمْ نَسْتَيْقِظْ إِلَّا بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ، فَاسْتَيْقِظْنَا وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - نَائِمٌ - قَالَ: فَقَلْنَا: أَيْقِظُوهُ. فَاسْتَيْقِظَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: «افْعَلُوا كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ مَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ». قَالَ: وَفَقَدْنَا نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَطَلَبْنَاهَا فَوَجَدْنَاهَا قَدْ تَعَلَّقَتْ خِطَامُهَا بِشَجْرَةٍ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَرَكِبْتُ، فَبَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذْ آتَاهُ الْوَحْيُ، قَالَ: وَكَانَ إِذَا آتَاهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ أَخْبَرْنَا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ، بِهِ.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٧٧ والترمذي ٣٢٦٢ والنسائي في «التفسير» ٥١٩ وأحمد ١/٣١.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٤١٧٢ ومسلم ١٧٨٦ والترمذي ٣٢٦٣ وأحمد ٣/١٢٢ و١٣٤ و٢٥٢.

(٣) الوجيف: ضرب من سير الخيل والإبل.

(٤) أخرجه أحمد ٣/٤٢٠ وأبو داود ٢٧٣٦ والحاكم ٢/١٣١ وصححه الحاكم على شرط مسلم، وذكره الألباني في «ضعيف أبي

داود» ٥٨٧.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٧ والنسائي ١/٨٨٥٤ وأحمد ١/٣٩١ والطبري ٣١٤٥١.

[٦١٢٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن زياد بن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: كان النبي ﷺ - يُصَلِّي حتى تَرَمَ قَدَمَاهُ، فقيل له: أليس قد غَفَرَ اللهُ لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١)؟ أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث زياد، به.

[٦١٢٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ - إذا صَلَّى قَامَ حتى تَنْفَطِرَ رجلاه، فقالت عائشة: يا رسول الله، أتصنَعُ هذا وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً»؟!^(٢). أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به.

[٦١٢٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخزاز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد بن بشر حدثنا يسعز، عن قتادة، عن أنس قال: قام رسول الله ﷺ - حتى تَوَرَّمت قدماه - أو قال: ساقاه - فقيل له: أليس قد غَفَرَ اللهُ لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣). غريب من هذا الوجه.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتَا مُبِينًا ﴿١﴾﴾، أي: بَيِّنًا ظَاهِرًا، والمراد به صَلَاحُ الْحُدُوبِيَّةِ، فإنه حَصَلَ بسببه خَيْرٌ جَزِيلٌ، وَأَمِنَ النَّاسُ واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان. وقولُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التي لا يُشَارِكُهُ فيها غيره. وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غُفْرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشریف عظيم لرسول الله ﷺ - وهو - صلوات الله وسلامه عليه - في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يَنْلُهَا بَشَرٌ سِوَاهُ، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوعَ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى، وأشدَّهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بَرَكْتَ به الناقَةُ:

[٦١٢٩] «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يُعْظَمُونَ به حُرْمَاتِ اللهِ إلا أجبتهم إليها»^(٤). فلما أطاعَ اللهُ في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال اللهُ تَعَالَى له: ﴿إِنَّا فَتَنَّاكَ فَتَا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُرِيكَ بِمَنْتَهُ طَلَبَكَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَوَعَدْنَاكَ اللَّهُ نِعْمًا عَظِيمًا ﴿٢﴾﴾، أي: بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح:

[٦١٣٠] «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(٥). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبتُ أحدًا عصى اللهُ تَعَالَى فيكَ بمثل أن تُطِيعَ اللهُ فيه.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩ والنسائي ٢١٩/٣ والترمذي ٤١٢ وابن ماجه ٤١٩ وأحمد ٤/٢٥٥.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٣٧ ومسلم ٢٨٢٠ وأحمد ٦/١١٥.

(٣) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) متفق عليه، وتقدم.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٨ والترمذي ٢٠٢٩ وأحمد ٢/٢٣٥ وابن حبان ٣٢٤٨ من حديث أبي هريرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ۗ ظَلَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾، أي: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة. وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم الله إيماناً مع إيمانهم. وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب. ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانصر من الكافرين فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وقد تقدم حديث أنس حين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ما كسبن فيها أبداً، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويعفو، ويستتر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. كقوله جل وعلا: ﴿فَمَنْ دَخَلَ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الشُّرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ۗ ظَلَّ السَّوْءَ﴾، أي: يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكعبة، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾، أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. ثم قال عز وجل مؤكداً لقدريته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَمْسِلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَوْفَى أَعْرَاجًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾، أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾، أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب. ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أي: تسبحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَمْسِلًا﴾، أي: أول النهار وآخره. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ - تشریفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله جل وعلا: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: هو حاضرٌ معهم يسمع أقوالهم ويرى مكائهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ -، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ أَشَدَّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُغْنَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَوَدَّأَ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ فِي الْفُرُوسِ وَالْإِجْمَالِ وَالْفَرَسَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

[٦١٣١] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من سَلَّ سيفه في سبيل الله فقد بايَعَ الله»^(١).

[٦١٣٢] وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «في الحَجَرِ: «والله لبيعتنه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايَعَ الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢). ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَمَنْ نَكَكَ إِنَّمَا يَنْكُكَ عَلَن نَفْسِهِ﴾، أي: إنما يعود وبأل ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله - ﷺ - يومئذ قيل: ألف وثلاثمئة. وقيل: وأربعمئة. وقيل: وخمسمئة. والأوسط أصح.

ذَكَرَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ:

[٦١٣٣] قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا يَوْمَ الحديبية ألفاً وأربعمئة^(٣). ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به.

[٦١٣٤] وأخرجه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا يَوْمَئِذٍ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِئَةً، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبَعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، حَتَّى رَوَّأَ كُلَّهُمْ^(٤). وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله - ﷺ - أعطاهم سهماً من كيناته فوضعه في بئر الحديبية، فجاثت بالماء، حتى كفَّتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِئَةً، وَلَوْ كُنَّا مِئَةَ أَلْفٍ لَكُنَّا^(٥).

[٦١٣٥] وفي رواية في الصحيحين عن جابر أنهم كانوا خمس عشرة مئة^(٦).

[٦١٣٦] ورَوَى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة. قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مئة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة^(٧). قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم

(١) إسناده ضعيف لجهالة الفضل بن يحيى، وباقى الإسناد ثقات.

(٢) ضعيف. في إسناده ابن خثيم فيه ضعف حيث رفع أحاديث موقوفة، وهذا الخبر الراجح وقفه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٠ ومسلم (١٨٥٦) (٦٧) والنسائي في «التفسير» ٣٤١/٢ وأحمد ٣/٣٩٦.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٤ و ٥٦٣٩ ومسلم ١٨٥٦ (٧٢).

(٥) انظر البخاري ٢٧٣١ و ٢٧٣٢ و ٤١٥٢. وما سأتى في قصة الحديبية.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٢ ومسلم ١٨٥٦ (٧٣).

(٧) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٣.

يقول: خمس عشرة مئة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مئة. وروى العوفي، عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفاً وخمسة وعشرين. والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مئة.

[٦١٣٧] وهذا هو الذي رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن يحيى بن معين، عن شعبة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة ألفاً وأربعمئة^(١). وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير.

[٦١٣٨] وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعتُ عبد الله بن أبي أوفى [رضي الله عنه] يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمئة، وكانت أسلم يومئذ تُمنّ المهاجرين^(٢).

[٦١٣٩] وروى محمد بن إسحاق في «السيرة»، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المنصور بن مخزومة ومروان بن الحكم أنهما حَدَّثاهُ قالَا: خَرَجَ رسولُ الله - ﷺ - عامَ الحُدَيْبِيَّةِ يُريدُ زيارةَ البيتِ، لا يُريدُ قتالاً، وساقَ معه الهذلي سبعين بَدَنَةً، وكان الناسُ سبعمئة رجل، كُلُّ بَدَنَةٍ عن عشرة نَفَرٍ، وكان جابرُ بن عبد الله - فيما بَلَغني عنه - يقول: كنا أصحاب الحُدَيْبِيَّةِ أربعَ عشرةَ مئة^(٣). كذا قال ابن إسحاق وهو معدودٌ من أوهامه، فإنَّ المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضعَ عشرةَ مئةً كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ذَكَرُ سَبَبِ هَذِهِ الْبَيْعَةِ الْعَظِيمَةِ:

[٦١٤٠] قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله - ﷺ - عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة، فبَلَغَ عنه أشراف قُرَيْشٍ ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي، وقد عَزَفَتْ قريشٌ عداوتي إياها، وغَلِظِي عليها، ولكنني أدلك على رجلٍ أعزُّ بها مني، عثمان بن عفان. فَبَعَثَهُ إلى أبي سفيان وأشراف قُرَيْشٍ، يُخَبِّرُهُم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومُعْتَمِلاً لِحرمته. فَخَرَجَ عثمانُ إلى مكة، فلقية أبا بَنٍ سَعِيدِ بنِ العاصِ حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بَلَغَ رسالة رسول الله - ﷺ - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماً قُرَيْشٍ، فبَلَغَهُم عن رسول الله - ﷺ - ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - ﷺ - إني شئت أن تطوفَ بالبيتِ فَطُفَ. فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله - ﷺ - . واحتبسته قُرَيْشٌ عندها، فبَلَغَ رسولُ الله - ﷺ - والمسلمين أن عثمان قد قُتِلَ.

قال ابن إسحاق: فَحَدَّثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسولَ الله - ﷺ - قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا تبرح حتى تُناجزَ القومَ. ودعا رسولُ الله - ﷺ - الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناسُ يقولون: بايعهم رسولُ الله - ﷺ - على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسولَ الله - ﷺ - لم يُبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على الأَنفَرِ، فبايعَ الناسَ ولم يتخلف أحدٌ من المسلمين حَضَرها إلا الجَدُّ بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكانني أنظرُ إليه لاصقاً بإبطِ ناقته، قد ضباً

(١) صحيح. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٩٨/٤ وإسناده على شرط الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٥ ومسلم ١٨٥٧ (٧٥).

(٣) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٢٤١/٣ عن ابن إسحاق به، وابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، وقد صح عن المسور ومروان عند البخاري ٤١٥٧ و٤١٥٨ «خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة».

إليها يَسْتَرِبُّ بها من الناس. ثم أتى رسول الله - ﷺ - أن الذي كان من أمر عثمان باطل^(١).

[٦١٤١] وذكر ابن لهيعة، عن الأسود، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان شهيل بن عمرو، وخويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله - ﷺ -، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالثبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله - ﷺ -: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله - ﷺ - وأمر بالبيعة، فخرجوا على اسم الله تعالى قبايعاً. فسار المسلمون إلى رسول الله - ﷺ - وهو تحت الشجرة، فبايعوه على الأبيات أبدأً. فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموأجة والصلح^(٢).

[٦١٤٢] وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار. حدثنا تمتام، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما أمر رسول الله - ﷺ - ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله - ﷺ - إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله - ﷺ -: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله - ﷺ - لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم^(٣).

قال ابن هشام: وحدثني من أتق به عمّن حدثه بإسناد له، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى. وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: إن أول من بايع رسول الله - ﷺ - ببيعة الرضوان أبو سنان الأسدي.

[٦١٤٣] وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي قال: لما دعا رسول الله - ﷺ - الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي، فقال: أبسط يدك أبايعك. فقال النبي - ﷺ -: «علام تبايعني»؟. فقال أبو سنان: على ما في نفسك^(٤). هذا أبو سنان ابن وهب الأسدي.

[٦١٤٤] وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر، عن نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فارس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله - ﷺ - يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى فارس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله - ﷺ - يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله - ﷺ - وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر^(٥).

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ٢٤٦/٣ عن ابن إسحاق قال: حدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس. وهذا ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق لكن أكثره محفوظ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ١٣٣/٤ - ١٣٤ مرسلًا، وابن لهيعة ضعيف، لكن أصل الخبر له شواهد.

(٣) إسناده ضعيف لضعف الحكم بن عبد الملك.

(٤) مرسل. أخرجه البيهقي ١٣٧/٤ مرسلًا.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٨٦.

[٦١٤٥] ثم قال البخاري: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه: أن الناس كانوا مع رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس مُحَدِّقُونَ بالنبي - ﷺ - فقال - يعني عمر -: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحذقوا برسول الله - ﷺ - . فوجدتهم يُبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع^(١). وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دُحيم: حدثني الوليد بن مسلم، فذكره.

[٦١٤٦] وقال الليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ الْفَأْ وَأُرْبَعْمِثَّةً، فبايعناه، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَةٌ، وقال: بايعناه على الأَنْفَرِ، ولم يُبايعه على الموت^(٢). رواه مسلم، عن قتيبة، عنه.

[٦١٤٧] وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله الأعرج، عن معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي - ﷺ - يُبايع الناس، وأنا رافعُ غُصْنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: ولم يُبايعه على الموت، ولكن بايعناه على الأَنْفَرِ^(٣).

[٦١٤٨] وقال البخاري: حدثنا المكي بن إبراهيم، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة - قال يزيد: قلت يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تُبايعون يومئذ؟ قال: على الموت^(٤).

[٦١٤٩] وقال البخاري أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة قال: بايعت رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية ثم تَنَحَّيْتُ، فقال: «يا سلمة ألا تُبايع؟» قلت: قد بايعت. قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته، قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت^(٥). وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد. وكذا رَوَى البخاري عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد: أنهم بايعوه على الموت.

[٦١٥٠] وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع قال: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِئَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى جَبَاهَا - يَعْنِي الرُّكْبَى - فَمَا دَعَا وَإِنَّمَا بَصَقَ فِيهَا، فَجَاءَتْ فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا. قال: ثم إن رسول الله - ﷺ - دَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسْطِ النَّاسِ قَالَ: «بَايَعْتُمْ يَا سَلْمَةُ». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتكم في أول الناس. قال: «وأيضاً». قال: ورأيت رسول الله - ﷺ - عَزَلًا فَأَعْطَانِي حَجْفَةً - أَوْ ذَرْقَةً -

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٨٧ وصيغته التعليق، لكن وصله البيهقي، وما قبله يشهد له.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٥٦ والبيهقي ١٣٦/٤.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم (١٨٥٨) (٧٦).

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٦٠.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٧٢٠٨.

ثم بايَع حتى إذا كان في آخر الناس قال: «أَلَا تَبَايَعُ يَا سَلْمَةَ؟» قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتُك في أوَّل الناس وأوسطهم. قال: «وأيضاً». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حَجَفْتُكَ»^(١) - أو ذَرَقْتُكَ - التي أعطيتُك؟. قال: قلت: يا رسول الله، لقيني عامر عَزِلاً فأعطيتها إياه، فَصَحَّحَ رسول الله - ﷺ - ثم قال: «إنك كالذي قال الأوَّل: اللَّهُمَّ أَبْيَغِي حَبِيْباً هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي». قال: ثم إنَّ المشركين من أهل مَكَّة راسلونا في الصلح حتى مَشَى بعضنا في بعض فاصطلمحنا. قال: وكنتُ خادماً لطلحة بن عُبَيْد الله، أسقي فرسه وأجْثبه وأكل من طعامه، وتركتُ أهلي ومالي مُهاجراً إلى الله ورسوله. فلما اصطلمحنا نحن وأهل مَكَّة، واختلط بعضنا ببعض، أتيتُ شجرة فَكَسَخْتُ شَوْكَهَا، واضطجعتُ في أصلها في ظلِّها، فاتاني أربعة من مشركي أهل مَكَّة، فاجعلوا يَقْعُون في رسول الله - ﷺ - فَأَبْغَضْتُهُمْ، وتحولتُ إلى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَعَلَقُوا سِلاَحَهُمْ واضطجَعُوا، فبينما هُم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا لَمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ. فاخترطتُ سيفي، فشددتُ على أولئك الأربعة وهم رُفُودٌ، فأخذتُ سلاحهم وجعلته ضِعْثاً في يدي، ثم قلت: والذي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ - ﷺ - لا يرفعُ أحدٌ منكم رأسه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه. قال: ثم جنثُ بهم أسوقهم إلى رسول الله - ﷺ -، قال: وجاء عَمِي عامر برجلٍ من العَبَلات يقال له: مِكَرَزٌ من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله - ﷺ - في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله - ﷺ - وقال: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفَجْورِ وثناؤه». فَعَفَا عَنْهُمْ رسول الله - ﷺ - وأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾... الآية.^(٢) وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه، بسنده نحوه، أو قريباً منه.

[٦١٥١] وثبت في الصحيحين من حديث أبي عَوَانَةَ، عن طارق، عن سعيد بن المسيَّب قال: كان أبي ممن بايع رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابلٍ حاجين، فَخَفِي علينا مكانها، فإن كانت تَبَيَّنَتْ لكم فأنتم أعلم^(٣).

[٦١٥٢] وقال أبو بكر الحُمَيْدِي: حدثنا سُفْيَان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر قال: لما دَعَا رسول الله - ﷺ - النَّاسَ إلى البيعة وَجَدْنَا رَجُلًا منا يقال له: الجَدُّ بن قَيْسٍ مختبئاً تحت إبطِ بعيره^(٤). رواه مسلم من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن الزبير، به.

[٦١٥٣] وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سُفْيَان، عن عمرو سَمِعَ جابراً قال: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ الْفَأُ وأربعمئة، فقال لنا رسول الله - ﷺ - «أنتم خيرُ أهلِ الأرضِ اليوم». قال جابر: لو كنتُ أبصرُ لأريتكم موضع الشجرة. قال سُفْيَان: إنهم اختلفوا في موضعها^(٥). أخرجاه من حديث سُفْيَان.

[٦١٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا اللَّيْثُ، عن أبي الزُّبَيْرِ، عن جابر، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لا يدخلُ النَّارَ أحدٌ ممن بايَع تحت الشجرة»^(٦).

(١) الحجف: التروس من جلود بلا خشب والدرقة هي الحجفة.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (١٣٢) ١٨٠٧ والبيهقي في «الدلائل» ١٣٩/٤ - ١٤٠.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٦٤ ومسلم (٧٧) - ١٨٥٩.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم (٦٩) - ١٨٥٦ والبيهقي ١٣٦/٤.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٥٤ ومسلم (٧١) - ١٨٥٦ والبيهقي في «الدلائل» ١٩٧/٤.

(٦) صحيح. أخرجه أحمد ٣٥٠/٣ وإسناده على شرط مسلم، وعن عنة أبي الزبير في رواية الليث عنه عمولة على السماع.

[٦١٥٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخزومي، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعري، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، عن خدّاش بن عيَّاش، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدئه فإذا رجل قد أضل بعيره، فلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع^(١).

[٦١٥٦] وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرّة، عن أبي الزبير، عن جابر. عن النبي - ﷺ - أنه قال: «من يصعد النخلة نبيّة المُرّار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادل الناس بعد فقال رسول الله - ﷺ -: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فلنا: تعال يستغفر لك رسول الله. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل يشد ضالّة^(٢). رواه مسلم عن عبيد الله به.

[٦١٥٧] وقال ابن جرير: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت رسول الله - ﷺ - يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة: «ولن ينكر إلا وادها»، فقال النبي - ﷺ -: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدْرُ الْأَطْلِيلِ فِيهَا جِنًا﴾^(٣)». رواه مسلم.

[٦١٥٨] وفيه أيضاً عن قتيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر: أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار. فقال رسول الله - ﷺ -: «كذبت! لا يدخلها، فإنه قد شهد بدرًا والحديبية»^(٤). ولهذا قال تعالى في الشفاء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتْ فَاِنَّمَا يَنْكُحْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَلَيْهِ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَبُّهُ جَبْرًا عَظِيمًا﴾^(٥)، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٦) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ تَسْأَلُوهُ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾^(٧) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾^(٨) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٩)

يقول تعالى مخبراً لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم والشغل بهم، وتركوا المسير مع رسول الله - ﷺ - فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول - ﷺ - وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقيّة والمصانعة،

(١) صحيح. إسناده لين لأجل خدّاش، لكن تابعه غير واحد.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٨٠.

(٣) الآية من سورة مريم: ٧٢. والحديث صحيح. أخرجه مسلم ١٦٣ - ٢٤٩٦.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٢ - ٢١٩٥.

ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ أَلَلِهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أراه الله فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسر أئروكم وضمان أئروكم، وإن صانعونونا وتابعتونا. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتُستأصل شأفتهم، وتُستبأذ خضراؤهم، ولا يرجع منهم مُخِيرٌ، ﴿وَكَلَنْتُمْ ظُرُقًا فَشَكَّرْنَا وَلَمَّا جَاءَ بَرَاءُ مِنْكُمْ خَافَتْ الْقُلُوبُ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ وَمَجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فاسيدين. وقيل: هي بلغة عَمان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: من لم يُخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَزُومًا رَجِيمًا﴾، أي: لمن تاب إليه وأتاب، وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِرِ لِنَأْخُذْهُمَا ذَرُوعًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَهَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُسْتَوْثِقُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي - ﷺ - في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي - ﷺ - وأصحابه إلى خيبر يفتحنونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المنعم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومُجالدتهم ومُضابرتهم، فأمر الله تعالى رسوله - ﷺ - ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدرأ، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ﴾، قال مجاهد، وقَتَادَةُ، وجُوَيْر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَىٰ ظِلْمِ مَنْهُمْ فَاسْتَنْدِزْهُ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعَهُ أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلَ مَعَهُ عَدُوًّا إِنَّكَ رَضِيئُهُ بِالْقُعُودِ أَوْلَىٰ مَرَّةً فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ٨٣]. وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن غزوة الحديبية. وقال ابن جرير: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ﴾، يعني بتشبيطهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَهَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُسْتَوْثِقُونَ﴾، أي: أن تُشرككم في المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَنْ شَدِيدٍ يُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِْبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون من هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جببر، أو عكرمة - أو جميعاً - ورواه هشيم

عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جوير. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. وروى مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاة، ومجاهد، وعكرمة - في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يُعَيَّن فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج ححدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريري، عن معمر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿سَتَنصَرُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، قال: لم يأت أولئك بعد. وحديثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿سَتَنصَرُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، قال: هم البارزون.

[٦١٥٩] قال: وحديثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذُلف الأنوف، كان وجوههم المَجَانُ المطرقة». قال سفيان: هم الترك^(١).

[٦١٦٠] قال ابن أبي عمر: وجدت في مكان آخر: حدثنا ابن أبي خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله - ﷺ - «تقاتلون قوماً نعالهم الشعر»^(٢)، قال: هم البارزون، يعني: الأكراد. وقوله تعالى: ﴿نَقْتَلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾، يعني يُشْرَعُ لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصر عليهم، أو يُسْلَمُونَ فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ طَبِقُوا﴾، أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤذوا الذي عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني زمن الحديبية حيث دُعيتم فتخلفتم، ﴿بِعَذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعَمَى والعرج المستمِر، وعارض كالمَرَض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مَرَضِهِ مُلْحَقٌ بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تبارك وتعالى مُرَغِباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ مِنْ غَيْرِ الْجِهَادِ وَيُقْبِلْ عَلَى الْمَعَاشِ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار؛ والله تعالى أعلم.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عذتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

[٦١٦١] قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٩٢٩ ومسلم (٢٩١٢) (٦٢) وأبو داود (٤٣٠٤) والترمذي ٢٢١٥ وابن ماجه ٤٠٩٦ وأحمد ٢٣٩/٢ وابن حبان ٦٧٤٤.

(٢) لم يذكر ابن أبي عمر المكان الآخر هذا، بكل حال المرفوع صح في المتقدم، والموقوف ثابت أيضاً قبل حديث.

انطلقت حاجاً فمررت بقوم يُصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله - ﷺ - بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فاخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نُقدِرْ عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ - لم يعلموها وعَلَّمتموها أنتم، فأنتم أعلم! (١)

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾، وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَنبَتَهُمْ فَتَمَّازًا قَرِيبًا﴾، وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم. وما حصل بذلك من الخير العام والمستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ بِأَخْذِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٩).

[٦١٦٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى - يعني ابن عبيدة - حدثني إياس بن سلمة، عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله - ﷺ - : أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فشرنا إلى رسول الله - ﷺ - وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هينئذا لابن عفان، يطوف بالبيت ونحن هاهنا. فقال رسول الله - ﷺ - : «لو مكث كذا [و] كذا سنة ما طاف حتى أطوف» (٢).

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَإِنَّا لَوَاصِدُونَ (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُوهَا﴾، هي جميع المعانيد إلى اليوم، ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾، يعني فتح خيبر. وروى العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾، يعني صلح الحديبية. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾، أي: لم يتلکم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحریمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يَتَبَرَّونَ بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿وَنَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، أي: بسبب انقيادكم لأمره وأتباعكم طاعته، وموافقكم رسوله ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١)، أي: وغنيمة أخرى وفتح آخر

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٦٣.

(٢) إسناده ضعيف. فيه موسى بن عبيدة، وهو الزندي. ضعيف الحديث. والتمن غريب بهذا اللفظ.

مُعَيَّنٌ لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، قَدْ يَسِّرُهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَأَحَاطَ بِهَا لَكُمْ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَصِبُونَ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي هَذِهِ الْعَنَيْمَةِ، مَا الْمُرَادُ بِهَا؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ خَيْبَرُ. وَهَذَا عَلَى قَوْلِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إِنَّهَا صَلْحُ الْحَدِيثِيَّةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَابْنُ إِسْحَاقَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَكَّةُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ فَارَسُ وَالرُّومُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ كُلُّ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَيِّمِ بْنِ الْحَنْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَخْرَجُوا لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيَّهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾، قَالَ: هَذِهِ الْفَتْوحُ الَّتِي تَفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَنَّا لُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِيْلًا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٦٦٣) يَقُولُ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ لَوْ نَاجَزَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لَنَصَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَهَزَمَ جَيْشُ الْكُفَّارِ فَارًّا مُدْبِرًا لَا يَجِدُونَ وِيْلًا وَلَا نَصِيرًا، لِأَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَكُنْ مَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (١٦٦٤)، أَي: هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ، مَا تَقَابَلِ الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ فِي مَوْطِنٍ فَيُضِلُّ إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ، فَرَفَعَ الْحَقُّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ، كَمَا فَعَلَ تَعَالَى يَوْمَ بَدْرٍ بِأَوْلِيَاءِهِ الْمُؤْمِنِينَ، نَصَرَهمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مَعَ قَلَّةٍ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَدِهِمْ، وَكَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ وَمَدَدِهِمْ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦٦٥). هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ كَفَّ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ سُوءٌ، وَكَفَّ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بَلْ صَانَ كَلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ صُلْحًا فِيهِ خَيْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٦١٦٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ حِينَ جَاؤُوا بِأَوْلِيَّتِكَ السَّبْعِينَ الْأَسَارَى فَأَوْقَفُوهمْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَنظر إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «أرسلوهم يكن لهم بدءُ الفُجُورِ وِثْنًا». قَالَ: وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ... الآية (١).

[٦١٦٤] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَازُونَ، حَدَّثَنَا حَمَادُ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَّةِ هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَصْحَابِهِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي السَّلَاحِ مِنْ قَبْلِ جَبَلِ التَّنْعِيمِ يُرِيدُونَ غِرَّةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَخَذُوا - قَالَ عَفَانُ: فَعَفَا عَنْهُمْ - وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَّتَيْهِمَا، مِنْ طَرِيقٍ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ، بِهِ.

[٦١٦٥] وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحَبَابِ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ، حَدَّثَنَا ثَابِتُ الْبُنَّانِي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلِ الْمُرْزِيِّ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقَعُ مِنْ أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِعَلِيِّ: «اكَتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». فَأَخَذَ سَهِيلُ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَانَ الرَّحِيمَ. اكَتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ. قَالَ: «اكَتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». وَكَتَبَ: هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أَهْلُ مَكَّةَ. فَأَمَسَكَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو بِيَدِهِ وَقَالَ: لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولَهُ، اكَتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٣٣/١٨٠٨ وأبو داود ٢٦٨٨ والتِّرْمِذِيُّ ٣٢٦٤ والنَّسَائِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ» ٥٣٠ وأحمد ١٢٢/٣.

نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا. فدعا عليهم رسول الله - ﷺ -، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله - ﷺ - «هل جئتم في عهدٍ أحدٍ؟ أو: هل جعل لكم أحدٌ أمناً؟». فقالوا: لا. فحلى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١). رواه النسائي من حديث حسين بن واقد، به.

[٦١٦٦] وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، حدثنا جعفر، عن ابن أزي قال: لما خرج النبي - ﷺ - بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فاتاه عيثة أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمئة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك في الخيل». فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله - فيومئذ سمي سيف الله - يا رسول الله، ارم بي أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله جيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله جيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله جيطان مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، إلى قوله ﴿عَذَابًا لِيَسَاءَ﴾. قال: فكف الله النبي - ﷺ - عنهم من بعد أن أظفره عليهم، لبقايا من المسلمين كانوا أبقوا فيها، كراهية أن تطأهم الخيل (٢). ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أزي بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية، لأن خالد لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء لأنهم قاصوه على أن يأتي من العام القابل فيعتبر ويقوم بمكة ثلاثة أيام، ولما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح، لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عزمزم. فهذا السياق فيه خلل، وقد وقع فيه شيء، فليتامل، والله أعلم.

[٦١٦٧] وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قرشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمرهم أن يطبقوا بعسكر رسول الله - ﷺ - ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أحداً، فأتي بهم رسول الله - ﷺ - فعفا عنهم وحلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله - ﷺ - بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾... الآية (٣).

[٦١٦٨] وقال قتادة ذكر لنا أن رجلاً يقال له: ابن زئيم أطلع على النبي من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله - ﷺ - خيلاً فاتوه باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم: «هل لكم علي عهد؟ هل لكم علي ذمة؟» قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾... الآية (٤).

(١) أخرجه النسائي ٥٣١ وأحمد ٨٦/٤ - ٨٧ وإسناده حسن.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٣١٥٦٠ عن ابن أزي، وهذا مرسل. والتمن منكر. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ٣٤١/٤ - ٣٤٢: وفي صحته نظر، لأن خالد لم يكن أسلم في الحديبية.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٥٥٦ وإسناده ضعيف، فيه من لم يسم، لكن يشهد لأصله المتقدم قبل حديث واحد.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٥٥٩ وهذا مرسل. وتقدم غير حديث في سبب نزول الآية.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا لَنْ نَكْفُرَ بِمَا كُنَّا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّنَا نَكْفُرُ بِهِ كَمَا كُنَّا نَكْفُرُ بِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا إِنَّنَا نَكْفُرُ بِهِ كَمَا كُنَّا نَكْفُرُ بِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا إِنَّنَا نَكْفُرُ بِهِ كَمَا كُنَّا نَكْفُرُ بِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾
 ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كَلِمَةُ اللَّهِ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِمْ وَأَخْرَجُوا مِنْ دُونِ الْكَلِمَةِ الَّذِينَ نُنَادِيَهُمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾
 ﴿وَإِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قُرَيْشٍ ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله - ﷺ -: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكُمْ﴾، أي: وصدوا الهدى أن يصل إلى محلّه، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدى سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾، أي: بين أظهرهم ممن يحكم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتكم خضراءهم، ولكن بين أفئدتهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ﴾، أي: إنهم وغرامتهم ﴿بَعْضُهَا لِبَعْضٍ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾، أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ تَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَسْفِلُ الْعَذَابِ﴾، أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَدَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: لسأطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

[٦١٦٩] قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزُّبَيعِ - رَوْحُ بْنُ الْفَرَجِ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا حَجْرُ بْنُ خَلْفٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَوْفٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ جُنَيْدَ بْنَ سَبْعٍ يَقُولُ: قَاتَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَوَّلَ النَّهَارِ كَافِرًا وَقَاتَلْتُ مَعَهُ آخِرَ النَّهَارِ مُسْلِمًا، وَفِينَا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾، قَالَ: كُنَّا تِسْعَةَ نَفَرٍ: سَبْعَةٌ رِجَالٌ وَامْرَأَتَيْنِ^(١). ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ الْمَكِّيِّ بِهِ، وَقَالَ فِيهِ: عَنْ أَبِي جَمْعَةَ جُنَيْدِ بْنِ سَبْعٍ... فَذَكَرَهُ، وَالصَّوَابُ أَبُو جَمْعَةَ: حَبِيبُ بْنُ سَبْعٍ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ حَجْرِ بْنِ خَلْفٍ، بِهِ. وَقَالَ: كُنَّا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ وَتِسْعَ نِسَاءٍ، وَفِينَا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة، عن أبي حمزة، عن عطاء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً يقتلهم إياهم.

وقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا

(١) أخرجه أبو يعلى ١٥٦٠ والطبراني ٢٢٠٤ و٣٥٤٤ وقال الهيثمي ١١٣٤٦: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات.

(بسم الله الرحمن الرحيم)، وأبو أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، وهي قول: لا إله إلا الله.

[٦١٧٠] كما قال ابن جرير، وعبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير، عن أبيه، عن الطفيل - يعني ابن أبي بن كعب - عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: «لا إله إلا الله»^(١). وهكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة، وقال: «عَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ، وَسَأَلْتُ أَبَا زُرْعَةَ عَنْهُ فَلَمْ يَعْرِفْهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ».

[٦١٧١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب: أن أبا هريرة أخبره أن رسول الله - ﷺ - قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»، وأنزل الله عز وجل في كتابه، وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢) [الصافات: ٣٥]. وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، وهي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، وكتبهم رسول الله - ﷺ - على قضيبة المدة. وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري. والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾: الإِخْلَاصُ. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عباية بن ربيعي، عن علي: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الزهري: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: لا إله إلا الله ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِفُ شَيْءٌ عَلِيمًا﴾، أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

[٦١٧٢] وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبي زبر عن عبد الله بن العلاء بن زبر، عن بشر بن عبيد الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَوْ حَمِيَّتُمْ كَمَا حَمُوا لَفَسَدَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». فبلغ ذلك عمر فاعلظ له.

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٢٦٥ والطبري ٣١٥٧٩، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وسألت أبا زرعة عنه، فلم يعرفه إلا من هذا الوجه اهـ قلت: فيه ثوير بن أبي فاختة، وهو ضعيف. بل قال الثوري: هو ركن من أركان الكذب. راجع «الميزان» ١٤٠٨ والصواب في هذا الوقف على ابن عباس وغيره كما سيأتي.

(٢) وتقدم الحديث في شرحها، وقد أخرجه الطبري ٣١٥٧٨.

فقال: إنك لتعلم أني كنتُ أدخلُ على رسولِ الله - ﷺ - فَيُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ. فقال عُمَرُ: بل أنتَ رجلٌ عندك علم وقرآن. فاقرا وعلم مما علمك الله ورسوله^(١).

وهذا ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في قِصَّةِ الحُدَيْبِيَّةِ وَقِصَّةِ الصَّلْحِ:

[٦١٧٣] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسارٍ، عن الزهريِّ، عن عُرْوَةَ بنِ الزبير، عن المسوِّر بن مَخْرَمَةَ ومزوان بن الحكم قالوا: خرج رسولُ الله - ﷺ - يُريدُ زيارةَ البيتِ لا يُريدُ قتالاً، وساق معه الهذليُّ سبعينَ بَدَنَةً، وكان الناسُ سبعمئةَ رجلٍ، فكانت كل بَدَنَةٍ عن عَشْرَةٍ، وخرج رسولُ الله - ﷺ - حتى إذا كان بعُسفانٍ لقيه بشرٌ بن سفيانَ الكعبي، فقال: يا رسولَ الله، هذه قريشٌ قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلودَ النُمر، يُعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، وهذا خالدُ بن الوليدِ في خيلهم قد قدموه إلى كُرَاعِ العَمِيمِ. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «يا ويح قريش! قد أكلتُم الحرب، ماذا عليهم لو خَلَوْا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدُهم على الذي بَعَثني الله به حتى يُظهِرني الله أو تنفردَ هذه السالفة». ثم أمر الناسَ فَسَلَكُوا ذاتَ اليمينِ بين ظهري الحنضِ على طريق تُخرجه على نِيَّيةِ المُرَارِ والحُدَيْبِيَّةِ من أسفلِ مكة. قال: فَسَلَكَ بالجيشِ تلكَ الطريقِ، فلما رأت خيل قُريشٍ قُتْرَةَ الجيشِ قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش. فخرج رسولُ الله - ﷺ - حتى إذا سلك نِيَّيةَ المُرَارِ، بَرَكْتَ ناقته، فقال الناسُ: خَلَّتْ. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «ما خَلَّتْ، وما ذلك لها بخُلُقٍ، ولكن حبسها حابسُ الفيلِ عن مكة، والله لا تدعوني قريشُ اليومَ إلى خُطْبَةٍ يسألوني فيها صلَّةَ الرحمِ إلا أعطيتهم إياها» ثم قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسولَ الله، ما بالوادي من ماءٍ يَنْزِلُ عليه الناسُ. فأخرج رسولُ الله - ﷺ - سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قلب من تلك القَلْبِ، ففَرَزَه فيه فجاشَ بالماء حتى صَرَبَ الناسَ عنه بَعَطْنَ. فلما اطمأن رسولُ الله - ﷺ - إذا بُدِيل بن وَرْقَاءَ في رجالٍ من خُزَاعَةَ، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فَرَجَعُوا إلى قُريشٍ فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تَعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتالٍ، إنما جاء زائراً لهذا البيتِ مُعْظِماً لحقِّه، فاتهموهم.

وقال محمد بن إسحاق: قال الزهريُّ: كانت خُزَاعَةُ في عَيْبَةٍ^(٢) رسولِ الله - ﷺ - مُشْرِكها ومُسْلِمها، لا يُخْفُونَ على رسولِ الله - ﷺ - شيئاً كان بمكَّةَ، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوةً، ولا يتحدثُ بذلك العربُ. ثم بعثوا إليه مَكْرَزَ بن حَفْصِ أحدِ بني عامر بن لُؤَيٍّ، فلما رآه رسولُ الله - ﷺ - قال: «هذا رجلٌ غادر». فلما انتهى إلى رسولِ الله - ﷺ - كَلَّمَهُ رسولُ الله - ﷺ - بنحو مِمَّا كَلَّمَ به أصحابه، ثم رَجَعَ إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسولُ الله - ﷺ - فبعثوا إليه الحُلَيْسَ بن علقمةَ الكتاني، وهو يومئذ سيدُ الأحابيش، فلما رأى الهذلي يسيل عليه من غرض الوادي في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحيسِ وجهه، فبعثوا الهذلي فلما رأى الهذلي يسيل عليه من غرض الوادي في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحيسِ عن مَحَلِّه، رَجَعَ ولم يَصِلْ إلى رسولِ الله - ﷺ - إعظاماً لما رَأَى. فقال: يا معشر قُريش، قد رأيتُ ما لا

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٥٢٥ والحاكم ٢/٢٢٥ - ٢٢٦ وإسناده على شرط مسلم، لكن المتن شاذ لا يزداد على القرآن بمثله، وصححه الحاكم على شرطهما! وسكت الذهبي.

(٢) العيبة من الرجل: موضع سره.

يحل صدّه، الهدي في فلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن مَحَلِّه. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قُرَيْش، إني قد رأيت ما يَلْقَى منكم مَنْ تبعثون إلى مُحَمَّدٍ إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عَزَمْتُمْ أَنْكُمْ والذَّ وأني ولَدُّ، وقد سَمِعْتِ بالذي نابِكُمْ، فَجَمَعْتِ مَنْ أطاعني من قومي، ثم جئتُ حتى آسَيْتِكُمْ بنفسِي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بِمَثْمِهِمْ. فَخَرَجَ حتى أتى رسولَ الله - ﷺ - فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جَمَعْتِ أوباشَ الناسِ ثم جئتِ بهم لِيَبْضِيتِكَ لِنَفْضِهَا، إنها قُرَيْشٌ قد خَزَجْتِ معها العُوذَ المطافيل، قد لَبَسُوا جلود النَمور، يُعَاهِدُونَ اللهَ ألا تدخلها عليهم عَنوةً أبداً، وإيْمُ اللهَ لِكأنِّي بهؤلاء قد انكشِفُوا عنك غداً - قال: وأبو بكر قاعِدٌ خَلَفَ رسولَ الله - ﷺ -، فقال: امضُصْ بظُر اللاتِ! انْحُرْ نَنكشِفْ عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابنُ أبي قُحَافَةَ». قال: أما والله لولا يدُ كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها - ثم تناول لحيَةَ رسولِ الله - ﷺ - والمغيرةُ بن شعْبَةَ واقفٌ على رأس رسولِ الله - ﷺ - بالحديد، قال: فَفَرَعَ يده. ثم قال: أمسيك يَدُكَ عن لحيَةِ رسولِ الله - ﷺ - قَبْلَ - والله - لا تَصِلُ إِلَيْكَ. قال: ويحك! ما أفْظُكُ وأغْلَظُكُ! فتبسّم رسولُ الله - ﷺ - قال: من هذا يا محمد؟ قال - ﷺ - «هذا ابنُ أخِيكَ المغيرةُ بنُ شعْبَةَ». قال: أَعْدَرُ، وهل عَسَلْتِ سواتِكَ إلا بالأمس؟! قال: فَكَلَّمَهُ رسولُ الله - ﷺ - بمثل ما كَلَّم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأتِ يُريدُ حرباً. قال: فقام من عند رسولِ الله وقد رأى ما يصنَعُ به أصحابه، لا يتوضأُ وُضوءاً إلا ابتَدَرُوهُ، ولا يبصقُ بصاقاً إلا ابتَدَرُوهُ، ولا يسقطُ من شَعْرِهِ شيءٌ إلا أخذوه. فَرَجَعَ إلى قُرَيْشٍ فقال: يا معشر قُرَيْش، إني جئتُ كسرى في مُلكه، وجئتُ قيصرَ والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيتُ مَلِكاً قطُ مثلَ محمدٍ في أصحابه، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسَلِّمونه لشيءٍ أبداً، فَرَوْا رأيَكُمْ. قال: وقد كان رسولُ الله - ﷺ - قبل ذلك بَعَثَ خِرَاشَ بنَ أُمَيَّةَ الخَزاعِي إلى مكة، وَحَمَلَهُ على جَمَلٍ له يقال له: الثعلبُ، فلما دخل مكة عقرت به قُرَيْش، وأرادوا قتلَ خِرَاشَ، فمَنَعْتُهُمُ الأحابيشَ حتى أتى رسولُ الله - ﷺ - فدعا عَمَرَ ليعيته إلى مكة، فقال: يا رسولَ الله، إني أخاف قُرَيْشاً على نفسي، وليس بها من بني عُدِيٍّ أحدٌ يَمْنَعُنِي. وقد عَزَمْتِ قُرَيْشٌ عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزُّ مني: عثمانُ بنُ عفَّان. قال: فدعا رسولُ الله - ﷺ - فبعثه يُخبرهم أنه لم يأتِ لحرب أحد، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، مُعَظِماً لحرمة. فخرج عثمانُ حتى أتى مكة، فلقيه أباؤُ بن سَعِيدِ بنِ العاصِ، فنزل عن دابَّته وَحَمَلَهُ بين يديه وَرَدَفَ خَلْفَهُ، وأجاره حتى بَلَغَ رسالةَ رسولِ الله - ﷺ - فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيانَ وَعُظْمَاءَ قُرَيْشٍ، فبَلَغَهُم عن رسولِ الله - ﷺ - ما أرسَلَهُ به، فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوِّفَ بالبيتِ فَطُفِّفْ به. فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوِّفَ به رسولُ الله - ﷺ - قال: واحتبسته قُرَيْشٌ عندها، قال: وبَلَغَ رسولُ الله - ﷺ - أن عثماناً قد قُتِلَ.

قال محمد: فَحَدَّثَنِي الزهري: أن قُرَيْشاً بعثوا سُهَيْلَ بنَ عمرو وقالوا: ائت محمداً فصالحه، ولا يكون في صلحِهِ إلا أن يرجعَ عَنَّا عامَهُ هذا، فوالله لا تُحَدِّثُ العربُ أنه دَخَلَهَا علينا عَنوةً أبداً. فأتاه سُهَيْلُ بنُ عمرو، فلما رآه رسولُ الله - ﷺ - قال: «قد أراد القومُ الصلحَ حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسولِ الله - ﷺ - تَكَلَّمَا وأطالا الكلامَ، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلحُ، فلما التأم الأمرُ ولم يبقَ إلا الكتابُ، وثَبَّ عمرُ بنُ الخطابِ فأتى أبا بكرٍ فقال: يا أبا بكر، أوليس برسولِ الله؟ أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام تُعْطَى الذَّلَّةَ في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم عَزْرَهُ حيث كان فإنني أشهدُ أنه رسولُ الله. قال عمر: وأنا أشهدُ. ثم أتى رسولُ الله فقال: يا رسولَ الله، أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام تُعْطَى الذَّلَّةَ في ديننا؟ فقال: «أنا عبدُ الله ورسولُهُ، لن أخالفَ أمرَهُ ولن

يضيعني». ثم قال عمر: ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعتُ مخالفةً كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً. قال: ثم دعا رسول الله - ﷺ - علي بن أبي طالب فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم». هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله لم يرده عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم. دخل فيه. فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. وأنك ترجع عنا عامناً هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قاتل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الركب، لا تدخلها بغير السيوف في القرب، فبينما رسول الله - ﷺ - يكتب الكتاب، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله، قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله - ﷺ - فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرَب وجهه وقال: يا محمد، قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه - قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله - ﷺ - «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. قال: ويؤدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: ففَضَّ الرجلُ بابيه. قال: وَنَقَدَتِ القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله - ﷺ - يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الجِلِّ، قال: فقام رسول الله - ﷺ - فقال: «يا أيها الناس، انحزوا واحلِقُوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله - ﷺ - فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هذيك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله - ﷺ - لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحزون ويحلِقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح^(١). هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن ابن إسحاق بنحوه وفيه إغراب. وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، به نحوه وخالفه في أشياء.

[٦١٧٤] وقد رواه البخاري - رحمه الله - في صحيحه، فساقه سياقه حسنة مطولةً بزيادات جيدة، فقال

(١) أخرجه أحمد ٣٢٣/٤ - ٣٢٦ وفيه عنمة ابن إسحاق، وهو مدلس، ولأكثره شواهد وبعضه غريب كما ذكر الحافظ ابن كثير، وثمة شيء وهو أن ابن إسحاق ساق بعضه عن الزهري مرسلاً.

في كتاب الشروط من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني الزهري، أخبرني عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يُصدّق كل واحد منهما حديث صاحبه، قال: خرج رسول الله ﷺ - زمن الحديبية في بضع عشرة مئة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بمغفرة وبعت عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً جمَعُوا لك جُموعاً، وقد جمَعُوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانثوك. فقال: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم. وذراي هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» - وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراي هؤلاء الذين أعانوهم - فإن يأتونا كان الله قد قطع عُقناً من المشركين وإلا تركناهم محزونين». وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزوبين وإن نجوا يكن عُقناً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه - وفي لفظ: فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : الله ورسوله أعلم إنما جئنا معتمرين، ولم نجء لقتال أحد، ولكن من حال بيتنا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ -: «فروحو إذن» - وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله تعالى». حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ -: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ - حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حلّ حلّ، فألحّت، فقالوا: خلّات القصواء، خلّات القصواء. فقال النبي ﷺ -: «ما خلّات القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، فقال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم أستمم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: أستمم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جنتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد قاقبلوها ودعوني آت، قالوا: آتته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل من ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرايت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما

والذي نفسي بيده لولا يَدُكَ عندِي لم أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَتِكَ، قَالَ وَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ﷺ وَالْمَغِيرَةَ بِنِ شَعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السِّيفُ وَعَلَيْهِ الْمَغْفِرُ وَكَلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةَ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السِّيفِ وَقَالَ: أَخْرَيْدُكَ عَنِ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةَ رَأْسَهُ وَقَالَ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: الْمَغِيرَةُ بِنِ شَعْبَةَ، قَالَ: أَيُّ غَدْرٍ، أَلَسْتَ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ الْمَغِيرَةُ بِنِ شَعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَحْبًا قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَتَلْتَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَاسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتَ مِنْهُ فِي شَيْءٍ» ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمِقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنْخَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعْتَ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَّكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمْرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يَحْدُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ ﷺ فَرَجَعَ عُرْوَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتَ عَلَى الْمَلُوكِ وَوَفَدْتَ عَلَى كَسْرَى وَقِصْرٍ وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتَ مَلَكًا قَطَّ يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعْظُمُ أَصْحَابَهُ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدًا وَاللَّهِ إِنْ تَنْخَمُ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعْتَ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَّكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمْرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يَحْدُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رَشَدٍ فَاقْبَلُوهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتَهُ، فَقَالُوا: إِنَّتَهُ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ «هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يَعْظُمُونَ الْبَدَنَ فَابْعَثُوها لَهُ» فَبِعَثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يَلْبُونَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سَبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصُدُّوا عَنِ الْبَيْتِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتَ الْبَدَنَ قَدْ قَلَدْتَ وَأَشْعَرْتَ فَمَا أَرَى أَنْ يَصُدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فِقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: مَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتَهُ، فَقَالُوا: إِنَّتَهُ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «هَذَا يَكْرَزُ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ». فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ - فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو. وَقَالَ مَعْمَرٌ: أَخْبَرَنِي أَبِيوْبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا جَاءَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «قَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزَّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ - الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». فَقَالَ سَهِيلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». فَقَالَ سَهِيلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «وَاللَّهِ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». قَالَ الزَّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةَ يَعْظُمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ -: «عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفُ بِهِ». فَقَالَ سَهِيلٌ: وَاللَّهِ لَا تَحْدُثُ الْعَرَبُ أَنَا أَخَذْنَا ضَغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. فَكَتَبَ، فَقَالَ سَهِيلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنْ رَجُلٍ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو يَرشُفُ فِي قُبُودِهِ، قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سَهِيلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَنْ أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبْدَأُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «فَأَجِزْ لِي». فَقَالَ: مَا أَنَا بِمَجِيزٍ ذَلِكَ لَكَ. قَالَ: «بَلَى فَاغْفِرْ». قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ يَكْرَزُ: بَلَى قَدْ أَجْزَنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيُّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَرَدَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُدَّ عَذَابًا شَدِيدًا

في الله - عَزَّ وَجَلَّ - . قال عُمَرُ - رضي الله عنه - : فأتيت نبي الله - ﷺ - . فقلت : ألسنت نبي الله حقاً؟ قال : «بلى» . قلت : ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال : «بلى» . قلت : فلم نُعطى الدينَةَ في ديننا إذا؟ قال : «إني رسولُ الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصري» . قلت : أولستُ كنت تُحدِّثنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال : «بلى» ، أفأخبرتكَ أنا نأتيه العام؟ . قلت : لا . قال : «فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به» . قال : فأتيت أبا بكرٍ فقلتُ : يا أبا بكر ، أليس هذا نبيُّ الله حقاً؟ قال : بلى . قلتُ : ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال : بلى . قلتُ : فلم نُعطى الدينَةَ في ديننا إذا؟ قال : أيها الرجلُ ، إنه رسولُ الله ، وليس يعصي ربَّه ، وهو ناصره ، فاستمسك بقرْزِهِ ، فوالله إنه على الحقِّ ، قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال : بلى . قال : أفأخبركَ أنك تأتيه العام؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوفُ به .

قال الزهريُّ : قال عُمَرُ : فَعَمَلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً . قال : فلما فَرَجَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِأَصْحَابِهِ : «قَوْمُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا» . قال : فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مراتٍ !! فلما لم يَقمَ منهم أحدٌ دخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحبُّ ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحرَ بطنَكَ وتدعوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فَعَلَ ذلك ، نَحَرَ يديه ، ودعا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فلما أَرَأَى ذلك قاموا فَتَحَرَّوا وجعل بعضهم يَحْلِقُ بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتلُ بعضاً عَمًا ، ثم جاءه نِسوةٌ مؤمنات ، فأنزل الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَحَسِّنْ لَهُنَّ سُبُلَ النِّكَاحِ وَأَلْبِسْنَهُنَّ بِسَاتِرَاتٍ مِنْ ثِيَابِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا حِلٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الممتحنة: ١٠] . فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةٍ . ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهُوَ مُسْلِمٌ ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلْبِهِ رَجُلَيْنِ ، فَقَالُوا : الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتُمْ لَنَا . فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ ، فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ لَهُمْ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيْدًا ، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ ، فَقَالَ : أَجَلُ ! وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيْدٌ ، لَقَدْ جَرَّبْتُ مِنْهُ ثُمَّ جَرَّبْتُ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ : أَرْنِي أَنْظِرْ إِلَيْهِ . فَأَمَكَنَهُ مِنْهُ فَضْرِبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : حِينَ رَأَاهُ : «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُغْرًا» . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ : قُتِلَ - وَاللَّهِ - صَاحِبِي ، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ . فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ - وَاللَّهِ - أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ . فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : «وَيْلٌ أُمَّهُ مِنْ عَزَبِ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرَدُهُ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ ، قَالَ : وَتَفَلَّتْ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهْلٍ ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَفَقَتَلُوهَا ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ . فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - تَنَاسُدُهُ اللَّهُ وَالرَّجِيمُ لَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ : «فَمَنْ آتَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ» . فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَيْهِمْ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿حِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ، وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرُؤُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقْرُؤُوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ ^(١) . فَكَذَا سَأَلَهُ الْبُخَارِيُّ هَاهُنَا . وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِيرِ ، وَفِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَفِي الْحَجِّ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرِ وَسُفْيَانَ بْنِ عَيِّنَةَ ، كِلَاهُمَا عَنِ الزُّهْرِيِّ ، بِهِ ، وَوَقَعَ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ عَنِ الزُّهْرِيِّ ، عَنِ عُرْوَةَ ، عَنِ مَرْوَانَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٢٧٣١ وَ ٢٧٣٢ وَأَبُو دَاوُدَ ٢٧٦٥ وَ أَحْمَدُ ٣٢٣/٤ - ٣٢٨ وَابْنُ حَبَانَ ٤٨٧٢ مَطْوَلًا ، لَكِنْ بَعْضُ الْفَافِظَةِ

والمُسَوِّر بن مُخْرَمَةَ، عن رجالٍ من أصحابِ النبي ﷺ - بذلك . وهذا أشبهُ والله أعلم . ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تَبَايُنٌ في مواضع، وهناك فوائد يَتَّبِعِي إِضَافَتُهَا إِلَى مَا هَاهُنَا، وَلِذَلِكَ سَقْنَا تِلْكَ الرِّوَايَةَ وَهَذِهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

[٦١٧٥] وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِيُّ، حدثنا يَغْلَى، حدثنا عبد العزيز بن سِيَاهٍ، عن حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا وَائِلٍ أَسْأَلُهُ فَقَالَ: كُنَّا بِصِفَيْنَ فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَعَمْ. فَقَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ: اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ - يَعْنِي الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ - وَالْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عَمْرٌو فَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قِتَالُنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ فَقَالَ: «بلى». قَالَ: فَفِيمَ نُنْعَى الدِّينَةَ فِي دِينِنَا وَتَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا؟ فَقَالَ: «يا ابن الخَطَّابِ، إني رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا». فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، فَقَالَ: يَا بَنَ الْخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا. فَتَزَلَّتْ سُورَةُ الْفَتْحِ. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، وَمُسْلِمٌ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ طُرُقٍ أُخَرَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ سَفِيَانَ بْنِ سَلْمَةَ، عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، بِهِ. وَفِي بَعْضِ الْفَاطَةِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا الرَّأْيِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَقْدَرَ عَلَى أَنْ أُرْدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَمْرَهُ لَرُدَّدْتُهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَزَلَّتْ سُورَةُ الْفَتْحِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ^(١).

[٦١٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا حَمَّادُ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ أن قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ - فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ - لِعَلِيٍّ: «اكَتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا تَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكَتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. فَقَالَ: «اكَتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ». قَالَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكَتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «اكَتُبْ: مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ». وَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ - أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَا تُرْذَهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنْكُمْ زَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنْكُمْ فَابْعَدَهُ اللهُ»^(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلْمَةَ، بِهِ.

[٦١٧٧] وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني سَمَّاكُ، عن عبد الله بن عباس قال: لما خَرَجَتِ الْحُرُورِيُّةُ اعْتَزَلُوا، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ صَالِحُ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لِعَلِيٍّ: «اكَتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «امْحُ يَا عَلِيُّ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، امْحُ يَا عَلِيُّ وَاكَتُبْ: هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». وَاللَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ، وَقَدْ مَحَا نَفْسَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ ذَلِكَ يَمْحَاهُ مِنَ النَّبُوَّةِ، أَخْرَجَتْ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارِ الْيَمَامِيِّ، بِنَحْوِهِ.

[٦١٧٨] وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير بن حرب، عن محمد بن عبد الرحمن بن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٤ و٣١٨٢ ومسلم ١٧٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١١٥٠٤.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٤ وأحمد ٣/٢٦٨.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٠٣٧ وأحمد ١/٣٤٢ وإسناده حسن رجاله رجال مسلم، لكن في عكرمة وسماك مقال، ومع ذلك للحديث شواهد.

أبي لَيْلى، عن الحَكَم، عن مِقْسَم، عن ابن عَبَّاس - رضي الله عنهما - قال: نَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يوم الحُدَيْبِيَّةِ سَبْعِينَ بَدَنَةً فِيهَا جَعَلَ لِأَبِي جَهْلٍ، فَلَمَّا صُدَّتْ عَنِ الْبَيْتِ حُنْتُ كَمَا تَحْنُ إِلَى أَوْلَادِهَا^(١).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

كان رسولُ الله - ﷺ - قد أَرَبِي في المنام أنه دَخَلَ مَكَّةَ وطَافَ بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحُدَيْبِيَّةِ لم يَشْكُ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تَفَسَّرُ هذا العام، فلما وَقَعَ ما وَقَعَ من قَضِيَّةِ الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يَعُودُوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تُخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوفُ به؟ قال: «بلى، فأخبرتكَ أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنك آتية ومُطَوِّفٌ به». وبهذا أجاب الصديق - رضي الله عنه - أيضاً حَذُو القُدَّةِ بالقُدَّة. ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقولُه عز وجل: ﴿عَامِنِينَ﴾، أي: في حال دخولكم. وقولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا مُحَلِّقِينَ ومُقَصِّرِينَ، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم مَنْ حَلَقَ رأسه وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَرَهُ.

[٦١٧٩] وثبت في الصحيحين أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «رَجِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمُقَصِّرِينَ يا رسول الله؟ قال: «رَجِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمُقَصِّرِينَ يا رسول الله؟ قال: «والمُقَصِّرِينَ» في الثالثة أو الرابعة^(٢).

وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مُؤَكَّدَةٌ في المعنى، فأثبت لهم الأمنَ حالَ الدخول، ونفى عنهم الخوفَ حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وكان هذا في عُمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع؛ فإن النبي - ﷺ - لما رَجَعَ من الحُدَيْبِيَّةِ في ذي القعدة رَجَعَ إلى المدينة فأقام بها ذا الحِجَّةِ والمحرم، وخرَجَ في صَفَرٍ إلى خيبرَ ففتحها اللهُ عليه، بعضها عَنوةٌ وبعضها صلحاً، وهي إقليمٌ عظيمٌ كثيرُ النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقَسَمها بين أهل الحُدَيْبِيَّةِ وحدهم، ولم يشهدوا أحدٌ غيرهم إلا الذين قَدِموا من الحبشة، جعفرُ بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يَغِبْ منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دُجَانَةَ سِمَاكَ بنَ خَرَشَةَ. كما هو مُفَرَّرٌ في موضعه. ثم رَجَعَ إلى المدينة. فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خَرَجَ معتمراً هو وأهل الحُدَيْبِيَّةِ، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهذلي، وقيل: كان سِتِّينَ بَدَنَةً. فلبى وسار وأصحابه يُلَبِّون. فلما كان قَرِيباً من مَرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رُعبوا رُعباً شديداً، وظنوا أن رسولَ الله - ﷺ - يغزؤهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وَضَعِ القتالِ عشر سنين، ودَهَبُوا فأخبروا أهلَ مَكَّةَ، فلما

(١) أخرجه أحمد ٣١٤/١ - ٣١٥ وإسناده ضعيف، محمد بن عبد الرحمن سيء الحفظ، وأصل الحديث محفوظ دون عجزه «فلما صدق».

(٢) متفق عليه، وتقدم.

جاء رسولُ الله - ﷺ - فنزل بمرَّ الظهران حيث ينظرُ إلى أنصابِ الحرمِ بعثتُ السلاحَ من القسيِّ والنبيلِ والرماحِ إلى بطنِ يَأْجِجَ، وسارَ إلى مَكَّةَ بالسيوفِ مُغَمَّدةً في قُرْبِهَا، كما شارَطَهُمْ عليه. فلما كان في أثناءِ الطريقِ بعثتُ قريشَ بِكَرَزَ بنِ حَفْصِ فقال: يا مُحَمَّدُ، ما عَرَفْنَاكَ تَنْقُضَ العَهْدَ. قال: «وما ذاك؟» قال: دخلتُ علينا بالسلاحِ والقسيِّ والرماحِ. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يَأْجِجَ». فقال: بهذا عَرَفْنَاكَ، بالبِرِّ والوفاءِ. وَخَرَجَتْ رُؤُوسُ الكُفَّارِ من مَكَّةَ لثلاثِ ينظُرُوا إلى رسولِ الله - ﷺ - وإلى أصحابِهِ غِيظاً وَحَتَقاً. وأما بَقِيَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ من الرجالِ والنساءِ والولِدانِ فجلسوا في الطُرُقِ وعلى البُيُوتِ ينظُرُونَ إلى رسولِ الله - ﷺ - وأصحابِهِ، فَدَخَلَهَا - عليه الصلاة والسلام - وبين يَدَيْهِ أصحابُهُ يُلَبُّونَ، والهُدْيُ قد بعثه إلى ذِي طَوًى، وهو رَاكِبٌ ناقتهِ القِصْواءِ التي كان رَاكِبِهَا يومَ الحُدَيْبِيَّةِ، وعبدُ الله بنُ رَواحَةَ الأنصاريِ آخِذٌ بِرِمامِ ناقةِ رسولِ الله - ﷺ - يَتَّقُودُهَا، وهو يقول:

باسمِ الذي لا دينَ إلا دينُهُ
خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ
كَمَا ضَرَبْنَاكُم عَلى تَنزِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَن خَلِيلِهِ
في صُحُفٍ تُثَلِّي عَلى رَسولِهِ
يا رَبِّ إِنِّي مُؤمِنٌ بِسَبِيلِهِ

فهذا مجموعٌ من رواياتِ مُتَّفِقَةٍ.

[٦١٨٠] قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبدُ الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما دَخَلَ رسولُ الله - ﷺ - مَكَّةَ في عُمرةِ القضاءِ، دخلها وعبدُ الله بن رَواحَةَ آخِذٌ بِخطامِ ناقتهِ - ﷺ -، وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ
خَلُّوا فَكُلَّ الخَيْرِ في رَسولِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُم عَلى تَأويلِهِ
ضَرَبْنَا يُزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِهِ
إِنِّي شَهِيدٌ أَنَّهُ رَسولُهُ
يا رَبِّ إِنِّي مُؤمِنٌ بِسَبِيلِهِ
كَمَا قَتَلْنَاكُم عَلى تَنزِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَن خَلِيلِهِ^(١)

[٦١٨١] وقال عبدُ الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: لما دَخَلَ رسولُ الله - ﷺ - مَكَّةَ في عُمرةِ القضاءِ مَشَى عبدُ الله بن رَواحَةَ بين يَدَيْهِ، وفي رواية: وابنُ رَواحَةَ آخِذٌ بِعَقرِزِهِ، وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ
بأنَّ خَيْرَ القَتْلِ في سَبِيلِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُم عَلى تَأويلِهِ
ضَرَبْنَا يُزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِهِ
قَدْ نَزَلَ الرُخْمَنُ في تَنزِيلِهِ
يا رَبِّ إِنِّي مُؤمِنٌ بِسَبِيلِهِ
كَمَا قَتَلْنَاكُم عَلى تَنزِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَن خَلِيلِهِ^(٢)

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» ٣/ ٣٢٠ - ٣٢١ وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٤/ ٣٢٣ وهذا مرسل، لكن يقويه ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٨٤٧ والبزار ٢٠٩٩ وأبو يعلى ٣٥٧١ وابن حبان ٤٥٢١ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

[٦١٨٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل - يعني ابن زكريا - عن عبد الله - يعني ابن عثمان - عن أبي الطفيل، عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - لما نزل مَرَّ الظهران في عُمرته بَلَغ أصحاب رسول الله - ﷺ - أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحزنا من ظهرينا فأكلنا من لَحْمِهِ، وحسونا من مَرِّهِ أصبَحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَةً. قال: «لا تفعلوا ولكن اجتمعوا لي من أزوادكم». فجمعوا له ويسطوا الأتطاع، فأكلوا حتى تَرَكُوا وَحَقًا كُلَّ واحدٍ منهم في جِزَابِهِ. ثم أقبل رسول الله - ﷺ - حتى دخل المسجد وقعدت قُرَيْشٌ نحو الحجر، فاضطجع بردائه، ثم قال: «لا يَزِي القوم فيكم عَمِيْزَةٌ». فاستلم الركن ثم رَمَلَ حتى إذا تَغَيَّب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قُرَيْشٌ: ما ترضون بالمشي، أما إنكم لَتَنفُزُونَ نَفَرَ الطباء، ففعل ذلك ثلاثة أطواف، فكانت سُنَّةً. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - فَعَلَ ذلك في حَجَّةِ الوداع^(١).

[٦١٨٣] وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، حدثنا أَيُّوبُ، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: قَدِمَ رسولُ الله - ﷺ - وأصحابه مَكَّةَ وقد وَهَنَتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ، ولَقُوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدِّم عليكم قومٌ قد وَهَنَتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ ولَقُوا منها شراً. وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله تعالى نبيَّه - ﷺ - على ما قالوا، فأمر رسولُ الله - ﷺ - أصحابه أن يَرْمُلُوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جَلْدَهُمْ، قال: فَرَمَلُوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يَمْشُوا بين الركنين حيث لا يراه المشركون، ولم يَمْنَعِ النبي - ﷺ - أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(٢). أخرجاه في الصحيحين من حديث حَمَادِ بْنِ زَيْدٍ، به. وفي لفظ: قَدِمَ النبي - ﷺ - وأصحابه صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ - أي من ذي القعدة - فقال المشركون: إنه يقدِّم عليكم وقد وَهَنَتْهُمْ حُمَى يَثْرِبَ. فأمرهم النبي - ﷺ - أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنع أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. قال البخاري: وزاد ابن سَلَمَةَ - يعني حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ - عن أَيُّوبَ، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: لما قَدِمَ النبي - ﷺ - لِعَامِهِ الذي استأمن قال: «ارْمُلُوا». لِيُرِيَ المشركين قوتهم، والمشركون من قِبَلِ قُعَيْقَعَانَ.

[٦١٨٤] وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سَعَى النبي - ﷺ - بالبيت وبالصفى والمروة، لِيُرِيَ المشركين قُوَّتَهُ^(٣). ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به.

[٦١٨٥] وقال أيضاً: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله - ﷺ - سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله - ﷺ -^(٤). انفرد به البخاري دون مسلم.

[٦١٨٦] وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا فُلَيْحُ - (ح) - وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فُلَيْحُ بن سليمان - عن نافع، عن ابن عمر أن

(١) أخرجه أحمد ٣٠٥/١ وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٦٠٢ و٤٢٥٦ ومسلم ١٢٦٦ وأبو داود ١٨٨٦ وأحمد ١/٢٩٤ - ٢٩٥ - ٣٧٣.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥٧.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥٥.

رسول الله - ﷺ - خرج مُعْتَمِراً، فحال كفارُ قُرَيْشٍ بينه وبين البيتِ، فَنَحَرَ هَدْيَهُ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ، وَلَا يَحْمِلُ سِلَاحاً عَلَيْهِمْ إِلَّا سُيُوفاً، وَلَا يُقِيمُ بِهَا إِلَّا مَا أَحْبَبُوا. فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحُهُمْ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا أَمْرَهُ أَنْ يَخْرُجَ، فَخَرَجَ^(١). وَهُوَ فِي صَاحِبِ مُسْلِمٍ أَيْضًا.

[٦١٨٧] وَقَالَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - فِي ذِي الْقِعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. قَالُوا: لَا نُقْرُ بِهَذَا، وَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «امْحُ رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أَمْحُوكَ أَبَدًا. فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْكِتَابَ، وَلَيْسَ يَحْسُنُ يَكْتُبُ فَكَتَبَ^(٢): «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ السِّلَاحَ إِلَّا السَّيْفَ فِي الْقِرَابِ، وَالْأَيْخُرُجُ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَأَنْ لَا يَمْنَعُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا». فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلَ اتَّوَا عَلِيًّا فَقَالُوا: قُلْ لِصَاحِبِكَ: اخْرُجْ عِنَّا فَقَدْ مَضَى الْأَجَلَ. فَخَرَجَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حِمْرَةَ ثُنَادِي: يَا عَمُّ يَا عَمُّ. فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكَ ابْنَةَ عَمِّكَ. فَحَمَلَتْهَا، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَخَذْتُهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ - ﷺ - لَخَالَتُهَا، وَقَالَ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ». وَقَالَ لِعَلِيِّ: «أَنْتَ مَنِّي وَأَنَا مِنْكَ». وَقَالَ لَجَعْفَرٍ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي». وَقَالَ لَزَيْدٍ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا». قَالَ عَلِيٌّ: أَلَا تَتَزَوَّجُ ابْنَةَ حِمْرَةَ؟ قَالَ: «إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ»^(٣). انْفَرَدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَلِيلٌ مَّا كُمْ تَعَلَّمُوا فَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَتَمًا قَرِيبًا﴾، أَي: فَعَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ وَالْمُصْلِحَةِ فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ مَا لَمْ تَعْلَمُوهُ أَنْتُمْ، ﴿فَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾، أَي: قَبْلَ دُخُولِكُمْ الَّذِي وَعِدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ - ﷺ - فَتَحًا قَرِيبًا، وَهُوَ الصَّلْحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِنُصْرَةِ الرَّسُولِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - عَلَى عَدُوِّهِ وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، أَي: بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عِلْمٍ وَعَمَلٍ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ مَقْبُولٌ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ، ﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أَي: عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمُسْلِمِينَ وَمُشْرِكِينَ، ﴿وَكَلَّمَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، أَي: أَنَّهُ رَسُولُهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ؛ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥٢.

(٢) كذا وقع في إحدى روايات البخاري، وقد حمل ذلك الجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم «أمر» ولم يكتب بيده. وتقدم الكلام على ذلك، والله الموفق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٥١.

سَطَكُمْ فَازَرِدْكُمْ فَاسْتَغْلَبَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الرِّزَاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل. ثم تثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ حَقِيقَةً أُولَئِكَ عَلَى الْكُفْرَيْنَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برباً بالأخيار، غَضُوباً غَبُوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَدَلُّوا أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ إِنَّ الْكُفَّارَ لَيْسُوا بِكُمْ غَنَاقَةَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

[٦١٨٨] وقال النبي - ﷺ - «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر»^(١).

[٦١٨٩] وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وشبك من أصابعه^(٢). كلا الحديثن في الصحيح.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَبَّيْتُمْ مَعَكُمْ سُجَّدًا يُبْتِغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال. ووصفهم بالإخلاص فيها لله - عز وجل - والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال جل جلاله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٧]. وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: سيماهم في وجوههم، يعني: السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه. فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

[٦١٩٠] وقد أسنده ابن ماجه في سننه، عن إسماعيل بن محمد الطلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(٣). والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء من الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠١١ ومسلم ٢٥٨٦ وأحمد ٢٧٠/٤ وابن حبان ٢٣٣ عن النعمان بن بشير.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٦ ومسلم ٢٥٨٥ والترمذي ١٩٢٨ وأحمد ٤٠٥/٤ وابن حبان ٢٣١ من حديث أبي موسى.

(٣) لا أصل له في المرفوع. أخرجه ابن ماجه ١٣٣٣ وابن حبان في «المجروحين» ٢٠٧/١ والقضاعي ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ و ٤١١ و العقبلي ١٧٦/١ والخطيب ٣٩٠/٧ و ١٢٦/١٢ و ٣٨/١٣ وابن عدي ٩٩/٢ - ٣٤١ و ٣٠٣/٦ - ٣٤٨ من حديث جابر. وكرره القضاعي ٤١٤ وابن الجوزي ١١٠/٢ من حديث أنس. قال ابن الجوزي: قال العقبلي: هذا حديث باطل لا أصل له. وقال ابن عدي: لا يعرف إلا بثابت بن موسى الزاهد. وقد سرقه من جماعة ضعفاء منهم =

وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسرُّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وَقَلَّتْ لِسَانَهُ. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: مَنْ أَصْلَحَ سِرِّيْرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ تَعَالَى عِلَالِيَّتَهُ.

[٦١٩١] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي: قال: قال النبي - ﷺ -: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(١). العرزمي متروك.

[٦١٩٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان»^(٢).

[٦١٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن محمد بن زهير، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»^(٣) ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زهير، به.

فالصحابة - رضي الله عنهم - خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في ستمهم وهدبهم. وقال مالك رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا. وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله - ﷺ - وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال هاهنا: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ»، ثم قال: «وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَبِيعٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ»، أي: فزأخه، «فَأَنْزَلْنَاهُ»، أي: شدّه «فَأَسْتَفْظَنَّا»، أي: شبّ وطال «فَأَسْتَوَيْنَا عَلَى سُوْقِهِ يُمِجُّبُ الزَّرْعَ»، أي: فكذلك أصحاب محمد - ﷺ - أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ». ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله - في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في

= عبد الحميد بن عبد الله، وإسحق بن بشر الكاهلي، وموسى بن محمد. وذكره السخاوي في «المقاصد» ١١٦٩ وقال: لا أصل له. وإن روي من طرق. لكن قرأت بخط شيخنا - ابن حجر - في بعض أجوبته: إنه ضعيف بل قواه بعضهم، والعمد الأول، وقد أظن ابن عدي في رده، ومثلوا به في الموضوع سهواً. قال ابن طاهر: ظن القاضي أن الحديث صحيح لكثرة طرقه، وهو معذور لأنه لم يكن حافظاً اهـ. قال السخاوي: واتفق أئمة الحديث: ابن عدي، والدارقطني، والعقيلي، وابن حبان، والحاكم، على أنه من قول شريك، قاله لثابت بن موسى الزاهد، لما دخل عليه اهـ باختصار. وقد صوب فيه ابن كثير الوقف. مع أنه ذكره أولاً بأنه من قول بعض السلف. يعني هو من كلام التابعين، أو من دونهم.

(١) تقدم تخريجه. وهو ضعيف جداً.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٨/٣ وتقدم تخريجه في سورة لقمان: ١٢.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٢٩٦/١ وأبو داود ٤٧٧٦ من حديث ابن عباس. وفيه قابوس بن أبي ظبيان. قال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال ابن حبان: رديء الحفظ، ينفرد بما لا أصل له اهـ فالخير غير قوي، وهو الالضعف أقرب، والله أعلم. وله شاهد من حديث ابن سرجس، أخرجه الترمذي ٢٠١٠ بسند لين.

فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِمَسَاءةٍ كَثِيرَةٍ، وَيَكْفِيهِمْ ثَنَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَرِضَاؤُهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾، «من» هذه لبيان الجنس ﴿مَغْفِرَةً﴾، أي: لذئوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعد الله حقاً وصدق، لا يُخْلَفُ ولا يُبَدَّلُ، وكلُّ من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحدٌ من هذه الأمة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وجعل جنات الفردوسِ مثواهم، وقد فَعَلَ.

[٦١٩٤] قال مسلمٌ في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تُسَبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مدَّ أحدِهم ولا نصيفه»^(١).

أخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ



وَهِيَ مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَأَنْقَرُوا لِلَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

هذه آيات أَدَبَ اللهُ بها عباده المؤمنين فيما يُعَامِلُونَ به الرسول - ﷺ - من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: لا تُسْرِعُوا في الأشياءِ بين يديه، أي قبله، بل كونوا تَبَعاً له في جميع الأمور حتى يدخلَ في عموم هذا الأدبِ الشرعيِّ.

[٦١٩٥] حديثٌ معاذٍ رضي اللهُ عنه حيث قال له النبي - ﷺ - حين بَعَثَهُ إلى اليمن: «بِمَ تَحْكُمُ؟» قال: بكتابِ اللهِ، قال: «فإن لم تجد؟». قال: بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهدُ رأيي. فَضْرَبَ في صدره وقال: «الحمدُ لله الذي وَفَّقَ رسولَ اللهِ لما يُرْضِي رسولَ اللهِ»^(١). وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. فالغرضُ منه أنه أحرَّ رأيَه ونظَرَه واجتهاده إلى ما بعد الكتابِ والسُّنة، ولو قَدَّمه قبلَ البحثِ عنهما لكان من بابِ التقدِيمِ بين يَدَيِ اللهِ ورسوله.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، لا تَقُولُوا خلافَ الكتابِ والسُّنة. وقال العوفيُّ عنه: نهوا أن يَتَكَلَّمُوا بين يَدَيِ كَلَامِهِ. وقال مجاهدٌ: لا تَفْتَأَتْوا^(٢) على رسولِ اللهِ - ﷺ - بشيءٍ حتى يقضي اللهُ تعالى على لسانه. وقال الضحاكُ: لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقال سفيانُ الثوري: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقولٍ ولا فِعْلٍ. وقال الحسن البصري: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، قال: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذَكَرَ لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزلَ في كذا كذا. وكذا لو صنَّع كذا، فبكره اللهُ ذلك وتقدم فيه. ﴿وَأَنْقَرُوا لِلَّهِ﴾، أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي: لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾:

(١) تقدم تخريجه، وإسناده ضعيف.

(٢) افتات الكلام: ابتدعه.

هذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ - فوق صوته . وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

[٦١٩٦] قال البخاري: حدثنا بسر بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - رَفَعَا أصواتهما عند النبي ﷺ - حين قَدِمَ عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخرُ برجلٍ آخر - قال نافع: لا أَحَقُّظُ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي . قال: ما أردت خلافتك . فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية . قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ - بعد هذه الآية حتى يَسْتَفْهِمَهُ، ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر، - رضي الله عنه^(١) . - انفرد به دون مسلم .

[٦١٩٧] ثم قال البخاري: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قَدِمَ رَكْبٌ من بني تميم على النبي ﷺ - فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن مغبذ . وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر: ما أردت إلى - أو: إلا خلافي - فقال عمر: ما أردت خلافتك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، حتى انقضت الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية^(٢) . وهكذا رواه هاهنا منفرداً به أيضاً .

[٦١٩٨] وقال الحافظ أبو بكر البزار في مُسْنَدِهِ: حدثنا الفضل بن سهل، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بن منصور، حدثنا حُصَيْن بن عَمْرٍ، عن مُحَمَّدِ بن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ، قلت: يا رسول الله، والله لا أَكَلِمَتِكَ إلا كَأَخِي السَّرَارِ^(٣) . حُصَيْن بن عَمْرٍ هذا - وإن كَانَ ضَعِيفاً - لكن قَدَرَوْنَاهُ من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة بنحو ذلك، والله أعلم .

[٦١٩٩] وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عَوْن، أنبأني مُوسَى بن أنس، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ - افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ . فأتاه فوجده في بيته مُنْكَسِراً رأسه، فقال له: ما سأئك؟ فقال: سُراً، كان يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، فقد حَبِطَ عَمَلُهُ، فهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبي ﷺ - فأخبره أنه قال كذا وكذا - قال موسى: فرجع إليه المَرَّةُ الآخِرَةَ ببشارة عظيمة فقال: «إذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكلك من أهل الجنة»^(٤) . تفرد به البخاري من هذا الوجه .

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٤٨٤٥ .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ٤٨٤٧ والترمذي ٣٢٦٦ والنسائي في «التفسير» ٥٣٤ .

(٣) أخرجه البزار ٢٢٥٧ والحاكم ٧٤/٣ من حديث أبي بكر . وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: حُصَيْن واو . وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٤٩: حُصَيْن بن عمرو الأحمسي متروك . وثقته العجلي، وبقية رجاله ثقات اهـ . وورد عن أبي هريرة عن أبي بكر، أخرجه الحاكم ٤٦٢/٢، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا . وورد عن ابن عباس ذكره الواحدي ٧٥٥ بدون إسناد . فالحديث يتقوى بشواهد، كما ذهب إليه ابن كثير، والله أعلم .

(٤) صحيح . أخرجه البخاري ٤٨٤٦ .

[٦٢٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ - وكان ثابت بن قيس بن الشَّامِسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ فقال: أنا الذي كنتُ أرفعُ صوتي على رسولِ الله - ﷺ - حَبِطَ عملي، أنا من أهل النار. وجلس في أهله حزينا، ففقدته رسولُ الله - ﷺ - فانطلق بعضُ القومِ إليه فقالوا له: تَفَقَّدَكَ رسولُ الله - ﷺ - مالك؟ قال: أنا الذي أرفعُ صوتي فوق صوت النبي - ﷺ - وأجهزُ له بالقول، حَبِطَ عملي، أنا من أهل النار. فاتوا النبي - ﷺ - فأخبروه بما قال. قال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنَّا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يومَ اليمامةِ كان فينا بعضُ الانكشاف، فجاء ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ وقد تحنَّطَ ولبسَ كَفَنَهُ، فقال: بِشِمْمَا تُعَوِّدُونَ أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتِلَ^(١).

[٦٢٠١] وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾... إلى آخر الآية جلس ثابت في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي - ﷺ -، فقال النبي - ﷺ - لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ اشتكى؟» فقال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى. قال: فاتاه سعد فذكر له قول رسول الله - ﷺ -، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتُم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله - ﷺ - فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «بل هو من أهل الجنة». ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي، عن حبان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به قال: ولم يذكر سعد بن معاذ. وعن قطن بن نسير، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ. حدثنا هُرَيم بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية... واقتصر الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ وزاد: فكنَّا نراه يمشي بين أظهرنا رجلٌ من أهل الجنة^(٢). فهذه الطرق الثلاث مُعلَّلة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرَّد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً، لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

[٦٢٠٢] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾، قال: قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، قال: فمرَّ به عاصم بن عدي من بني العجلان فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتخزف أن تكون نزلت في وأنا صبيُّ رَفِيعِ الصَّوْتِ. قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله - ﷺ - قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي ابن سلول فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي فشدِّي عليّ الضبَّة بمسما، فضرِّبته بمسما حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله - عز وجل - أو يرضى عني

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١٣٧/٣ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم ١١٩ ح ١٨٧ و ١٨٨، وذكر سعد بن معاذ في هذا الحديث غريب. تفرَّد به حماد بن سلمة، وخالفه جماعة عند البخاري ومسلم فلم يذكروا فيه «سعد بن معاذ»؛ وحماد، وإن كان ثقة، فقد تغير حفظه بأخرة، وقد وهم في أشياء. فحديثه هذا شاذ، والمحموظ ما تقدم من عدم ذكر سعد، والله أعلم.

رسول الله - ﷺ - . قال: وأتى عاصم رسول الله - ﷺ - فأخبره خبره، فقال: «اذهب فادع لي». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله - ﷺ - يدعوك. فقال: اكسر الضبية. قال: فخرجا، فاتيا النبي - ﷺ - فقال له رسول الله - ﷺ -: «ما يبكيك يا ثابت؟» فقال: أنا صيبت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَسْوَأَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. فقال له النبي - ﷺ -: «أما ترضى أن تعيش خميداً، وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت بئسرى الله ورسوله - ﷺ -، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله - ﷺ -. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْمِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾... الآية^(١). وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله - عز وجل - عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله - ﷺ - .

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي - ﷺ - قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكرهه في حياته، لأنه محترم حياً وفي قبره صلوات الله وسلامه عليه دائماً. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وقوله عز وجل: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري.

[٦٢٠٣] كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يكتسب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض»^(٢). ثم نذب الله - سبحانه وتعالى - إلى خفض الصوت عنده، وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْمِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾، أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر - رضي الله عنه - : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين يُنادونه من وراء الحُجرات، وهي بيوت نساؤه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال

(١) أخرجه الطبري ٣١٦٦٩ وفيه أبو ثابت لم أجد له ترجمة لكن لأكثر هذا المتن شواهد.

(٢) تقدم في سورة النور آية ١٥.

جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد ذُكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي فيما أوردّه غير واحد.

[٦٢٠٤] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس: أنه نادى رسول الله - ﷺ - من وراء الحُجراتِ فقال: يا محمد - وفي رواية: يا رسول الله - فلم يُجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدي لزين، وإن دمي لشين. فقال: «ذاك الله - عز وجل»^(١).

[٦٢٠٥] وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمّار الحسين بن خريث المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا محمد، إن حمدي زين ودمي شين. فقال: «ذاك الله - عز وجل»^(٢). وهكذا ذكره الحسن البصري، وقتادة مرسلًا.

وقال سُفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب وليد بن عطارِد - أو بشر بن عطارِد وليد بن غالب - وهما عند الحجاج جالسان - فقال بشر بن غالب وليد بن عطارِد: نزلت في قومك بني تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾، قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبّير فقال: أما إنه لو علم بأخر الآية أجابه: ﴿يَسْتُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد.

[٦٢٠٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البجلي، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعيش بجنّاحه. قال: فأنيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حُجرتِه فجعّلوا يُنادونه وهو في حُجرتِه: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣). قال: فأخذ رسول الله - ﷺ - بأذني فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد»^(٣). ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ يَنْبَأُ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَتُصِيحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ
 فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ
 عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحفظ له، لئلا يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذباً أو

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤٨٨/٣، ٣٩٣/٦ والطبري ٣١٦٧٩ والطبراني ٨٧٨ وإسناده على شرط البخاري ومسلم، وصرح أبو سلمة بالتحديث عن الأقرع. وكذا صححه السيوطي في «الدر» ٨٨/٩ وله شواهد.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٢٦٧ والنسائي في «التفسير» ٥٣٥ والطبري ٣١٦٧٦ و٣١٦٧٧ وإسناده حسن صحيح.

(٣) أخرجه الطبري ٣١٦٧٨ والطبراني ٥١٢٣ والواحدي في «أسباب النزول» ٧٥٧، ومداره على داود الطفاوي، وهو غير قوي، وحسنه السيوطي في «الدر» ٨٨/٦ - ٨٩.

مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه. وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد فُوزت هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري، والله تعالى الحمدُ والمنَّةُ. وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبَةَ بن أبي مُعَيْط، حين بعثه رسول الله - ﷺ - على صدقات بني المُصْطَلِق. وقد روي ذلك من طُرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها.

[٦٢٠٧] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سَمِعَ الحارث بنَ ضَرَارِ الخَزَائِمِي يقول: قَدِمْتُ على رسولِ الله - ﷺ - فدَعَانِي إلى الإسلام، فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ بِهِ. ودَعَانِي إلى الزكاة فأقَرَرْتُ بها، وقلت: يا رسولَ الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فَمَنْ استجابَ لي جمعتُ زَكَاتِهِ. ويُرسِلُ إليَّ رسولُ الله رسولاَ لِإِبَانِ كَذَا وكذا لِيَأْتِيكَ ما جَمَعْتُ من الزكاة. فلما جمعَ الحارثُ الزكاةَ مَمَّن استجابَ له، وبلغَ الإِبَانُ الذي أراد رسولُ الله - ﷺ - أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرسولُ فلم يَأْتِهِ، فَظَنَّ الحارثُ أنه قد حَدَثَ فِيهِ سَخَطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بِسَرَوَاتِ قومه فقال لهم: إن رسولَ الله - ﷺ - كان وَقَّتَ لي وقتاً يُرْسِلُ إليَّ رسولَهُ ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسولِ الله - ﷺ - الخُلْفُ، ولا أرى حَبْسَ رسولِهِ إلا من سَخَطَةٍ. فانطلقوا فَنَأَيْ رسولَ الله - ﷺ - وبعث رسول الله - ﷺ - الوليد بن عُقبَةَ إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطريقِ فَرِقَ - أي: خاف - فرجعَ فأتى رسولَ الله - ﷺ - فقال: يا رسولَ الله، إن الحارثَ مَنَعَنِي الزكاةَ وأرادَ قتلِي. فَضْرَبَ رسولُ الله - ﷺ - البعثَ إلى الحارث، وأقبلَ الحارثُ بأصحابه حتى إذا استقبلَ البعثَ وفصلَ عن المدينةَ لَقِيَهُمُ الحارثُ، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشِيَهُم قال لهم: إلى مَنْ يُعِشُم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسولَ الله - ﷺ - بعثَ إليك الوليدَ بنَ عُقبَةَ، فزعم أنك منَعْتَهُ الزكاةَ وأردتَ قتله. قال: لا، والذي بعثَ محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أَتَانِي. فلما دخلَ الحارثُ على رسولِ الله - ﷺ - قال: «مَنَعْتَ الزكاةَ وأردتَ قتلَ رَسُولِي؟» قال: لا، والذي بَعَثَكَ بالحق ما رأيته ولا أَتَانِي، وما أَقبلْتُ إلا حينَ احتبسَ عليَّ رسولُ الله - ﷺ -، خَشِيتُ أن يكونَ كانتِ سَخَطَةٌ من الله ورسوله. قال: فنزلتِ الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ قَائِلٌ بِئَلِيكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حِكْمَةٌ﴾^(١). ورواه ابن أبي حاتم عن المُنذِرِ بنِ شاذَانَ التمار، عن مُحَمَّدِ بنِ سابقٍ به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارثُ بنَ ضَرَارِ، كما تقدم.

[٦٢٠٨] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جعفر بن عون، عن موسى بن عُبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله - ﷺ - رجلاً في صدقات بني المُصْطَلِق بعد الوُقْعَةِ فَسَمِعَ بِذَلِكَ القومِ، فَتَلَفَّوهُ يُعْظَمُونَ أَمْرَ رسولِ الله - ﷺ -، قالت: فَحَدَّثَهُ الشيطانُ أَنَهُم يُريدون قتله، قالت: فَرَجَعَ إلى رسولِ الله - ﷺ - فقال: إن بني المصطلق قد مَنَعُوا صدقاتِهِم. فَغَضِبَ رسولُ الله - ﷺ - والمسلمون، قالت: فبلغَ القومَ رجوعُهُ فَأَتُوا رسولَ الله - ﷺ - فَصَفُّوا له حينَ صَلَّى الظهر، فقالوا: نعوذُ بالله

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢٧٩/٤ ٤٨٨/٣ والطبراني ٨٧٨ وقال الهيثمي ١١٣٥٢ رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال «الحارث بن

من سَخَطَ اللهُ وَسَخَطَ رَسُوْلُهُ، بعثت إينا رجلاً مُصَدِّقاً فَسُررنا بذلك، وَقَرَّتْ به أَعْيُننا. ثم إنه رَجَعَ من بعض الطريق، فَخَشِينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزلوا يُكَلِّمونه حتى جاء بلالٌ فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلْوَةٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَنَصِيحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿١﴾﴾.

[٦٢٠٩] وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضاً مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَىٰ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لِيَأْخُذَ مِنْهُمْ الصَّدَقَاتِ، وَإِنَّهُمْ لَمَّا أَنَاهُمْ الْخَيْرُ فَرَحُوا وَخَرَجُوا يَتَلَقُّونَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَإِنَّهُ لَمَّا حَدَّثَ الْوَلِيدَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا يَتَلَقُّونَهُ رَجَعَ الْوَلِيدُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ مَنَعُوا الصَّدَقَةَ. فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ ذَلِكَ غَضَباً شَدِيداً، فَبَيْنَا هُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنْ يَغْزُوهُمْ إِذْ آتَاهُ الْوَفْدُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا حُدْنَا أَنْ رَسُولَكَ رَجَعَ مِنْ نِصْفِ الطَّرِيقِ، وَإِنَّا خَشِينَا أَنْ مَا رَدَّهُ كِتَابٌ جَاءَ مِنْكَ لِعِظَابِ غَضَبِنَا عَلَيْنَا، وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ. وَإِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - اسْتَعْشَمَهُمْ وَهَمَّ بِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَذْرَهُمْ فِي الْكِتَابِ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلْوَةٍ فَتَبَيَّنُوا﴾... إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ (٢).

[٦٢١٠] وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَىٰ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لِيُصَدِّقَهُمْ، فَتَلَقَّوهُ بِالصَّدَقَةِ، فَرَجَعَ فَقَالَ: إِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ جَمَعَتْ لَكَ لِقَائِكَ - زَادَ قَتَادَةُ: وَإِنَّهُمْ قَدْ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ - فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَّبِعْتِ وَلَا يَعْجَلْ. فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَنَاهُمْ لَيْلاً، فَبَعَثَ عُيُونَهُ، فَلَمَّا جَاؤُوا أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَسَمِعُوا أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَنَاهُمْ خَالِدٌ فَرَأَى الَّذِي يُعْجِبُهُ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَخْبَرَهُ الْخَيْرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ. قَالَ قَتَادَةُ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «التَّبَيُّنُ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» (٣). وَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، مِنْهُمْ: ابْنُ أَبِي لَيْلَى، وَبِزِيدِ بْنِ زُوْمَانَ، وَالضَّحَّاكُ، وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَغَيْرُهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، أَي: اَعْلَمُوا أَنْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَعَظَمُوهُ وَوَقَرُّوهُ، وَتَأَدَّبُوا مَعَهُ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ أَعْلَمَ بِمِصَالِحِكُمْ، وَأَشْفَقَ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ، وَرَأَى فِيكُمْ أَنْتُمْ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٦]. ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مُرَاعَاةِ مِصَالِحِهِمْ فَقَالَ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَبِّئْكُمْ﴾، أَي: لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لِأَدَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ عَنِّيكُمْ وَخَرَجَكُمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰكُمْ الْإِيمَانَ وَرَزَقَكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أَي: حَبِيبُهُ إِلَىٰ نَفْسِكُمْ وَحَسَنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ.

[٦٢١١] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا بِهِزٌ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَسْعَدَةَ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «الْإِسْلَامُ عِلَاقِيَّةٌ، وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ». قَالَ: ثُمَّ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣١٦٨٥ وَفِيهِ مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ الرِّبْذِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ لَكِنْ يَصْلُحُ لِلْإِعْتِبَارِ بِهِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣١٦٨٦ وَفِيهِ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ ضَعِيفٌ، لَكِنْ لِأَصْلِهِ شَوَاهِدٌ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣١٦٨٧ عَنْ مُجَاهِدٍ وَكَرَّرَهُ ٣١٦٨٨ عَنْ قَتَادَةَ وَهَذِهِ الْمُرَاسِيلُ تَقْوِي الرِّوَايَاتِ الْمُتَّصِلَةَ، الْمُتَّقَدِّمَةَ آتِئاً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»^(١). ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾، أي: وبغض إليكم الكفر والفُسُوقَ - وهي: الذنوب الكبائر، والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدرّج لكمال النعمة. وقوله تعالى: ﴿أَوْلَيْتُكَ هُمْ أَلْيَدُونَ﴾، أي: المُنْتَصِفُونَ بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رُشْدَهُمْ.

[٦٢١٢] قال الإمام أحمد: حدثنا مزوان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن ابن رفاعة الزُرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله - ﷺ -: «استنوا حتى أثنى على ربي - عز وجل -». فصاروا خلفه صفواً، فقال: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضيل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت. اللهم أسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك، ورزقك. اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إني أسألك النعيم يوم القيامة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفُسُوقَ والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذي يكذبون رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِكَ، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوثوا الكتاب، إله الحق»^(٢). ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مروان، بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، به.

[٦٢١٣] وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»^(٣). ثم قال: ﴿فَصَلِّاَيْنَ اللَّهِ وَيَسْمَعَةً﴾، أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِئَةَ إِلَى اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض: ﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا﴾

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ١٣٤/٣ وابن حبان في «المجروحين» ١١١/٢ وأبو يعلى ٢٩٢٣ والبزار ٢٠ وابن عدي ٢٠٧/٥. ومداره على علي بن مسعدة، وهو مختلف فيه. قال الهيثمي في «المجموع» ١٦٠: وثقه ابن حبان، والطيالسي، وأبو حاتم، وابن معين. وضعفه آخرون اهـ قلت: وما نقله الهيثمي عن ابن حبان فيه نظر. فلم أجده عنده في «الثقات» بل ذكره في «المجروحين» وقال: كان ممن يخطئ، على قلة روايته، وينفرد بما لا يتابع عليه، فاستحق ترك الاحتجاج بما لا يوافق الثقات. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها غير محفوظة. وقال البخاري: فيه نظر اهـ وقال أبو داود: ضعيف. وقال النسائي: غير قوي. فالجمهور على توثيقه، وأنه تفرد بهذا الحديث، وهو إلى الضعف أقرب، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٤٤٥ وأحمد ٤٢٤/٣ وإسناده لين، ابن رفاعة هو عبيد، ويقال عبيد الله، وثقه العجلي وابن حبان فقط.

(٣) صحيح. أخرجه الترمذي ٢١٦٥ والنسائي ٣٤٣ وابن ماجه ٢٣٦٣ وأحمد ١٨/١ وابن حبان ٧٢٥٤ من حديث عمر بن الخطاب، وهو حديث صحيح.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴿٩﴾، فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الْاِقْتِتَالِ. وبهذا استدلال البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم.

[٦٢١٤] وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن بن علي، عن أبي بكر أن رسول الله - ﷺ - خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١). فكان كما قال - صلوات الله وسلامه عليه - أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة. وقوله: «فإن بنتاً لحدهما على الأخرى فتقبلوا ألي تبنى حنن تيرء إله أمر الله»، أي: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه.

[٦٢١٥] كما ثبت في الصحيح عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرتك إيَّاه»^(٢).

[٦٢١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعتُ أبي يحدث أن أنساً قال: قيل للنبي - ﷺ -: لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله - ﷺ - وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي - ﷺ - قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح جمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لجمار رسول الله أطيب ريحاً منك. قال: فقضب لعبد الله رجال من قومه، فقضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجرید والأيدي والتعال^(٣)، فبلغنا أنه أنزل فيهم: «وإن طافانك من المؤمنين أفنتلوا فأصلحوا بينهما»^(٤). ورواه البخاري في الصلح عن مسدد، ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه.

وذكر سعيد بن جبیر أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والتعال، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما. وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: عمران، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالتعال، فنزلت فيهم هذه الآية. فبعث إليهم رسول الله - ﷺ - وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله تعالى. وقوله عز وجل: «فإن فأتت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبُّ المقسطين»^(٥)، أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، «إن الله يحبُّ المقسطين»^(٦).

[٦٢١٧] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا»^(٧). ورواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به. وهذا إسناد جيد قوي، رجَّاه على شرط الصحيح.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٠٤ وأبو داود ٤٦٦٢ والنسائي ٢٥١ وأحمد ٤٤/٥ وابن حبان ٦٩٦٤.

(٢) تقدم في سورة المائدة آية ٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٩١ ومسلم ١٧٩٩ وأحمد ١٥٧/٣، وأبو يعلى ٤٠٨٣.

(٤) أخرجه النسائي ٥٩١٧ - ٤٦٠/٣ وإسناده صحيح.

[٦٢١٨] وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: «المُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الْعَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا»^(١). زَوَّاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أَي: الْجَمِيعُ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ.

[٦٢١٩] كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(٢).

[٦٢٢٠] وَفِي الصَّحِيحِ: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٣).

[٦٢٢١] وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضاً: «إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلِكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ»^(٤). وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

[٦٢٢٢] وَفِي الصَّحِيحِ: «مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاضُلِهِمْ كَمِثْلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ»^(٥).

[٦٢٢٣] وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضاً: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(٦).

[٦٢٢٤] وَقَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحِجَّاجِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مُصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، يَأْتُمُّ الْمُؤْمِنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ كَمَا يَأْتُمُّ الْجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ»^(٧). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَلَا بَأْسَ بِإِسْنَادِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ﴾، يَعْنِي الْفِئَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وَهَذَا تَحْقِيقٌ مِنْ تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ لِمَنْ اتَّقَاهُ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا يُسَاءُ مِنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نُلْحِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بَيْتِ الْأَسْمِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

يَنْهَى تَعَالَى عَنِ السَّخْرِيَّةِ بِالنَّاسِ، وَهُوَ احْتِقَارُهُمْ وَالاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ.

[٦٢٢٥] كَمَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «الْكِبْرُ يَطْرُقُ الْحَقَّ وَغَمَضُ النَّاسِ - وَيُرَوَّى: وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٨). وَالْمَرَادُ مِنْ ذَلِكَ احْتِقَارُهُمْ وَاسْتِصْغَارُهُمْ، وَهَذَا حَرَامٌ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنْهُ الْمُحْتَقَرُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا يُسَاءُ مِنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، فَتَنْصُ عَلَى نَهْيِ الرِّجَالِ، وَغَمَطُ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٢٧ والنسائي في «الكبرى» ٣٠٠/٦ وأحمد ١٥٩/٢، وابن حبان ٤٤٨٥.

(٢) تقدم في سورة الإسراء آية ٥٣، وهو في الصحيح.

(٣) تقدم تخريجه، وهو في الصحيح.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٣٢ و٢٧٣٣ وأبو داود ١٥٣٤، من حديث أبي الدرداء.

(٥) متفق عليه، وتقدم في سورة الفتح: ٢٩.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٦ ومسلم ٢٥٨٥ والترمذي ١٩٢٨ وأحمد ٤٠٥/٤ من حديث أبي بردة.

(٧) أخرجه أحمد ٣٤٠/٥ وإسناده حسن في الشواهد.

(٨) تقدم تخريجه في سورة البقرة آية ٦١ وسورة آل عمران آية ٢٢.

[٦٢٢٩] وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»^(١). رواه مسلم والترمذي - وصححه - من حديث سفيان بن عيينة، به.

[٦٢٣٠] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الثرمطي العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحققي، وإذا تكلمت فامضي»^(٢).

[٦٢٣١] وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن زيد قال: أتني ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمراً. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به^(٣). سمّاه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

[٦٢٣٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا ليث، عن إبراهيم بن نسيب الخولاني، عن كعب بن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دحّين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهذهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دحّين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل! فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها»^(٤). ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد، به نحوه.

[٦٢٣٣] وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كذبت أن تُفسدhem». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله - ﷺ - نفعه الله بها^(٥). رواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري، به.

[٦٢٣٤] وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن جبير بن نفير، وكثير بن مرة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب، وأبي أمامة، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدhem»^(٦). «ولا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٦٥ ومسلم ٢٥٥٩ (٢٣) والترمذي ١٩٣٥ والطيلالي ٢٠٩١٠ وعبد الرزاق ٢٠٢٢٢ وأحمد ١١٠/٣ و١٦٥ و١٩٩ وابن حبان ٥٦٦٠.

(٢) أخرجه الطبراني ٣٧٢٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٤٦: فيه إسماعيل بن قيس، ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٩٠ وإسناده على شرط البخاري ومسلم، زيد هو ابن وهب.

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٧٥٨ وأبو داود ٤٨٩١ وأحمد ١٥٣/٤ وابن حبان ٥١٧، وهو حديث مختلف فيه؛ صححه الشيخ شعيب في «الإحسان»، وذكره الألباني في «الضعيفة» ١٢٦٥، والجزم بضعفه فيه نظراً؛ والأشبه أنه حديث حسن أو يقرب من الحسن، والله أعلم.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٨٨ وإسناده حسن، راشد فيه كلام لكنه ثقة.

(٦) حسن. أخرجه أبو داود ٤٨٨٩ وإسناده لين، جبير بن نفير، وابن مرة، وابن الأسود، من التابعين. حديثهم مرسل. وأما المقدم وأبو أمامة فصحبايان. فحديثهما موصول. وسعيد بن عمرو، مقبول لكن توبع في «المستدرک» ٣٧٨/٤، وابن عياش، صدوق في روايته عن أهل بلده - الشاميين - وهذا منها، ومن فوقة ثقات. فحديثه هذا حسن إن شاء الله.

بَمَسَّوْا، أي: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَبْنَئُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَفَعِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يُستعمل كل منهما في الشر.

[٦٢٣٥] كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباداً لله إخواناً»^(١). وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصرْم. رواه ابن أبي حاتم عنه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع.

[٦٢٣٦] كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٢). ورواه الترمذي عن قتيبة، عن الدراوذي، به. وقال: «حسن صحيح». ورواه ابن جرير عن بُنْدَارِ، عن عُثْرٍ، عن شعبة، عن العلاء. وهكذا قال ابن عُمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قرة.

[٦٢٣٧] وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأَقَمِرِ، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي - ﷺ - «حسبك كذا وكذا» - قال غير مُسَدَّدٍ: تعني قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لَمَزَجَتْه». قالت: وحكيك له إنساناً فقال - ﷺ -: «ما أحبُّ أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا»^(٣). ورواه الترمذي من حديث يحيى القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأَقَمِرِ، عن أبي حذيفة سلمة بن ضهبية الأزحبي، عن عائشة، به. وقال: «حسن صحيح».

[٦٢٣٨] وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي - ﷺ - أي: أنها قصيرة - فقال النبي - ﷺ - «اغتبتها»^(٤). والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والتصيحة. كقوله - عليه السلام - لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر:

[٦٢٣٩] «ائذنوا له، بشئ أخو العشيرة»^(٥).

[٦٢٤٠] وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فضعفوك، وأما أبو الجهم فلا يضر عصاه عن عاتقه»^(٦). وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم يقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد

(١) تقدم تخريجه قبل خمسة أحاديث.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٤ والترمذي ١٩٣٤ وأحمد ٢/٣٨٤ و٣٨٦، ورجاله رجال مسلم، لكن عبد العزيز فيه لين، ولكن لحديثه شواهد، وتوابع عند الطبري ٣١٧٤١.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٥ والترمذي ٢٥٠٢ وإسناده على شرط مسلم.

(٤) أخرجه الطبري ٣١٧٤٩ وفيه حسان بن مخارق الشيباني، وقد وثقه ابن حبان وحده، ولم يدرك عائشة.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٥٤ و٦١٣١ ومسلم ٢٥٩١ (٧٣) وأبو داود ٤٧٩١ والترمذي ١٩٩٦٠ وأحمد ٦/٣٨ وابن حبان ٤٥٣٨ من حديث عائشة.

(٦) متفق عليه، وتقدم.

فيها الزجر الأكيد، ولهذا شَبَّهَهَا تبارك وتعالى بِأَكْلِ اللَّحْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ، كما قال تعالى: ﴿أَيُّبُكُمْ أَدُّكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي: كما تَكْرَهُونَ هذا طبعاً، فَاكْرَهُوا ذاك شرعاً؛ فَإِنَّ عَقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا. وهذا من التفسير عنها والتحذير منها.

[٦٢٤١] كما قال - عليه السلام - في العائِدِ فِي هَيْبَتِهِ: «كَالْكَلْبِ يَبْقِيءُ ثُمَّ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ»، وقد قال: «ليس لنا مثلُ السُّوءِ»^(١).

[٦٢٤٢] وَتَبَّتْ فِي الصُّحَّاحِ وَالْحَسَّانِ وَالْمَسَانِيدِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الْوُدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بِلَدِكُمْ هَذَا»^(٢).

[٦٢٤٣] وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا وَاصِلُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا أَسْبَاطُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «كُلُّ الْمُسْلِمِ مِنَ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، مَالُهُ وَعَرَضُهُ وَدَمُهُ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ بْنِ أَسْبَاطِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ».

[٦٢٤٤] وَحَدَّثَنَا عِثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا الْأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

[٦٢٤٥] وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ. فَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى فِي مَسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ دِينَارٍ، حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ سَلَامٍ، عَنْ حَمْرَةَ بْنِ حَبِيبِ الزِّيَّاتِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: «حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ فِي بَيْوتِهَا - أَوْ قَالَ: فِي خُدُورِهَا - فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٥).

[٦٢٤٦] طَرِيقٌ أُخْرَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَاجِيَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنْ أَوْفَى بْنِ دَلْهَمٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ». قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَلَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمَ حَرَمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ^(٦).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٢٢ من حديث ابن عباس، وعجزه، هو صدر الحديث.

(٢) تقدم ترجمته.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٦٤ (٣٢) وأبو داود ٤٨٨٢ والترمذي ١٩٢٧.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٤٨٨٠ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٥) جيد. أخرجه أبو يعلى ١٦٧٥ وأبو نعيم في «الدلائل» ٣٥٦ وإسناده قوي في الشواهد.

(٦) جيد. أخرجه الترمذي ٢٠٣٢ وابن حبان ٥٧٦٣ وإسناده حسن لأجل أوفى بن دلهم، وله شواهد.

[٦٢٤٧] قال أبو داود: وحدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بَقِيَّةُ، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المُستَوْرِدِ أنه حَدَّثَهُ: أن النبي - ﷺ - قال: «مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكَلَهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا فِي جَهَنَّمَ، وَمَنْ كَسَى ثَوْباً بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ فِي جَهَنَّمَ. وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سَمْعَةَ وَرِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سَمْعَةَ وَرِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). تفرد به أبو داود.

[٦٢٤٨] وحدثنا ابن مَصْفَى، حدثنا بَقِيَّةُ وأبو المغيرة: حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جُبَيْر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَزَتْ بِي مَرْزَتْ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخِيمُشُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٢). تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي. به.

[٦٢٤٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال: «ثم انطلق بي إلى خلقٍ من خلقِ الله كثير، رجالٍ ونساءٍ مُؤَكَّلٍ بهم رجالٌ يَعْمِدُونَ إلى عُزْضٍ جَنَّبَ أَحَدَهُمْ فَيَحْذُونَ مِنْهُ الْحُدُودَ مِثْلَ الثَّلَعِ ثم يَضَعُونَهَا فِي فِئِ أَحَدِهِمْ، فيقال له: كُلْ كَمَا أَكَلْتُ، وهو يَجِدُ مِنْ أَكْلِهِ الْمَوْتَ - يا محمد - لو يَجِدُ الْمَوْتَ، وهو يَكْرَهُ عَلَيْهِ. فقلت: يا جَبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قال: هَؤُلَاءِ الْهَمَّازُونَ لِلْمَازُونَ أَصْحَابُ النَّيْمَةِ. فيقال: «أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهَتْهُ»، وهو يَكْرَهُ عَلَى أَكْلِ لَحْمِهِ»^(٣). هكذا أورد هذا الحديث، وقد سُقِنَا بطوله في أول تفسير سورة سبحان والله الحمد والمئة.

[٦٢٥٠] وقال أبو داود الطيالسي في مُسْنَدِهِ: حدثنا الربيع، عن يزيد عن أنس: أن رسول الله - ﷺ - أمر النَّاسَ أَنْ يَصُومُوا يَوْمًا وَلَا يُفْطِرُونَ أَحَدًا حَتَّى آذَنَ لَهُ. فَصَامَ النَّاسُ، فَلَمَّا أَمَسُوا جَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فيقول: ظَلِلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ صَائِمًا، فآذَنَ لِي فَأَفْطَرُ. فيأذَنُ لَهُ، ويَجِيءُ الرَّجُلُ فيقول ذلك، فيأذَنُ لَهُ، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ فَتَاتَيْنِ مِنْ أَهْلِكَ ظَلَلْنَا مِنْذُ الْيَوْمِ صَائِمَتَيْنِ، فآذَنَ لِهَمَا فَلْيُفْطِرَا. فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ أَعَادَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «مَا صَامَتَا، وَكَيْفَ صَامَ مَنْ ظَلَّ يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاسِ؟ إِذْ هَبَ فَمَرَّهْمَا إِنْ كَانَتِ صَائِمَتَيْنِ أَنْ يَسْتَقِيئَا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عََلَقَةً فَأَتَى النَّبِيَّ - ﷺ - فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَوْ مَاتَتَا وَهَمَا فِيهِمَا لِأَكْلِهِمَا النَّارَ»^(٤). إسناده ضَعِيفٌ، وَمَتْنٌ غَرِيبٌ.

[٦٢٥١] وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨١ وفيه بقية بن الوليد، مدلس، وقد عنعن، فالإسناده ضعيف لكن للحديث شواهد انظر «الصحيحة» ٩٣٤.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٨ وأحمد ٣/٢٢٤ وإسناده صحيح على شرط مسلم، وله شواهد.

(٣) في إسناده أبو هارون واسمه عمارة بن جوين، وهو ضعيف لكن الحديث في مقام التهريب. وفي الباب أحاديث كما ترى، والله أعلم.

(٤) أخرجه الطيالسي ٢١٠٧ وابن أبي الدنيا في «الصمت» ١٧٠ وفي «ذم الغيبة» ٣١ وإسناده ضعيف لضعف يزيد ابن أبان الرقاشي.

يُحَدِّثُ فِي مَجْلِسِ أَبِي عُثْمَانَ التُّهْدِي عَنْ عُبَيْدٍ - مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ - أَنْ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنْ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَاهُنَا امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا. وَإِنَهُمَا كَادَتَا تَمُوتَانِ مِنَ الْعَطَشِ قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَوْ سَكَتَ، ثُمَّ عَادَ. قَالَ - أَرَأَيْهِ قَالَ: بِالْهَاجِرَةِ - . فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَهُمَا - وَاللَّهِ - قَدْ مَاتَتَا أَوْ كَادَتَا تَمُوتَانِ. فَقَالَ: «ادْعُهُمَا». فَجَاءَتَا، قَالَ: فَجِيءَ بِقَدْحٍ - أَوْ عُسٍّ - فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: «قِيئِي». فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصِدِيدٍ، حَتَّى قَاءَتْ نِصْفَ الْقَدْحِ ثُمَّ قَالَ لِلْأُخْرَى: «قِيئِي». فَقَاءَتْ قَيْحًا وَدَمًا وَصِدِيدًا وَلِحْمًا وَدَمًا غَيْبًا وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلَأَتْ الْقَدْحَ. فَقَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمَا، وَأَفْطَرْتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، جَلَسْتُ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى فَجَعَلْتَا تَأْكُلَانِ لَحُومَ النَّاسِ»^(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ وَابْنِ أَبِي عَدِي، كِلَاهُمَا عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ طِرْخَانَ التِّيمِيِّ، بِهِ مِثْلُهُ أَوْ نَحْوَهُ.

[٦٢٥٢] ثُمَّ رَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ مُسَدِّدٍ، عَنْ يَحْيَى الْقَطَانَ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ أَظُنُّهُ فِي حَلْفَةِ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ سَعْدِ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - : أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِصِيَامٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ فِي نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: فَلَانَةٌ وَفَلَانَةٌ قَدْ بَلَّغْنَا الْجَهْدَ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «ادْعُهُمَا». فَجَاءَ بَعْسٌ^(٢) - أَوْ: قَدْحٌ - فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: «قِيئِي» فَقَاءَتْ لَحْمًا وَدَمًا غَيْبًا وَقَيْحًا، وَقَالَ لِلْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمَا، وَأَفْطَرْتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، أَنْتَ إِحْدَاهُمَا لِلْأُخْرَى فَلَمْ تَزَالَا تَأْكُلَانِ لَحُومَ النَّاسِ حَتَّى امْتَلَأَتْ أَجْوَاهُمَا قَيْحًا»^(٣). قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: كَذَا قَالَ عَنْ سَعْدٍ، وَالْأَوَّلُ - وَهُوَ عَيْدٌ - أَصَحُّ.

[٦٢٥٣] وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ الضَّحَّاكِ بْنِ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا أَبِي أَبُو عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ جَرِيرٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ ابْنِ عَمٍّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ، [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]^(٤) أَنْ مَاعِزًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ رَزَيْتُ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حَتَّى قَالَهَا أَرْبَعًا، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ قَالَ: «زَيْتٌ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «وَتَدْرِي مَا الرِّزَا؟» قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مَا يَأْتِي الرَّجُلُ مِنْ أَمْرَانِهِ حَلَالًا. قَالَ: «مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؟» قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «أَدْخَلْتَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا كَمَا يَغْيِبُ الْمَيْلُ فِي الْمُكْحَلَةِ وَالرُّشَاءُ فِي الْبِثْرِ؟» قَالَ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَمْرٌ بِرَجْمِهِ قُرْجِمَ، فَسَمِعَ النَّبِيَّ - ﷺ - رَجُلَيْنِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدْعُهُ نَفْسَهُ حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ. فَسَارَ النَّبِيُّ - ﷺ - ثُمَّ مَرَّ بِجَيْفَةِ حِمَارٍ فَقَالَ: «أَيْنَ فِلَانٌ وَفِلَانٌ؟ أَنْزَلَا فِكْلًا مِنْ جَيْفَةِ هَذَا الْجِمَارِ». قَالَا: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يُؤْكَلُ هَذَا؟! قَالَ: «فَلَمَّا نَلِئْنَا مِنْ أَخِيكَمَا آتَفَا أَشَدَّ أَكْلًا مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَنَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمَسُ فِيهَا»^(٥). إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٤٣١/٥ وأبو يعلى ١٥٧٦ والأصبهاني في «الترغيب» ٢٢١١ والبيهقي في «الدلائل» ١٨٦/٦ وإسناده ضعيف. فيه راو لم يسم.

(٢) العس: القدح العظيم.

(٣) ضعيف. أخرجه البيهقي ١٨٦/٦ وفيه راو لم يسم أيضاً. وقد أخطأ الراوي فقال عن سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بدل «عبيد». وأياً كان فالإسناد ضعيف، والمتن غريب. والله أعلم.

(٤) سقط من كافة النسخ، والاستدراك من مسند أبي يعلى.

(٥) إسناده ضعيف لجهالة ابن عم أبي هريرة وبهذا الإسناد أخرجه أبو داود ٤٤٢٩ والبيهقي ٢٢٧/٨ - ٢٢٨ عن ابن عم أبي هريرة عن أبي هريرة به. وأخرجه عبد الرزاق ١٣٣٤٠ وأبو داود ٤٤٢٨ وابن الجارود ٨١٤ والدارقطني ١٩٦/٣ - ١٩٧ وابن حبان ٤٣٩٩ و ٤٤٠٠ والبيهقي ٢٢٧/٨، عن أبي الزبير عن عبد الرحمن بن الصامت عن أبي هريرة. وعبد الرحمن هذا يقال له: ابن هضاض، وابن هضاب. وهو غير مشهور وثقه ابن حبان وحده، وقال الحافظ في التقریب: =

[٦٢٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي، حدثنا واصل - مولى ابن عيينة - حدثني خالد بن عرفطة، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كُنَّا مع النبي ﷺ - فارتفعت ريحٌ جيفةٌ مُتَيْتَةٌ، فقال رسول الله ﷺ -: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَتَعَابُونَ النَّاسَ»^(١).

[٦٢٥٥] طريقٌ أُخْرَى، قال عَبْدُ بنِ حَمِيدٍ في مُسْنَدِهِ: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفُضَيْل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان - وهو طلحة بن نافع - عن جَابِر قال: كُنَّا مع النبي ﷺ - في سَفَرٍ فَهَاجَتْ رِيحٌ مُتَيْتَةٌ، فقال النبي ﷺ -: «إِنَّ نَفْرًا من المَنَافِقِينَ اغْتَابُوا نَاسًا من المُسْلِمِينَ، فَלذَلِكَ بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ». وربما قال: «فَلذَلِكَ هَاجَتْ هَذِهِ الرِّيحُ»^(٢).

[٦٢٥٦] وقال السدي في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمُ أَذْكَرٌ أَنْ يَأْكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ زَعَمَ أَنَّ سَلْمَانَ الفَارِسِي كَانَ مع رَجُلَيْنِ من أَصْحَابِ النبي ﷺ - في سَفَرٍ يَخْدُمُهُمَا وَيَخْفُ لُهُمَا، وَيَنَالُ من طَعَامِهِمَا، وَأَنَّ سَلْمَانَ لَمَّا سَارَ النَّاسَ ذَاتَ يَوْمٍ وَبَقِيَ سَلْمَانٌ نَائِمًا لَمْ يَسِرْ مَعَهُمْ، فَجَعَلَ صَاحِبَاهُ يَكْلِمَانِهِ فَلَمْ يَجِدَاهُ، فَضَرَبَا الخَبَاءَ فَقَالَا: مَا يُرِيدُ سَلْمَانٌ - أَوْ: هَذَا العَبْدُ - شَيْئًا غَيْرَ هَذَا: أَنَّ يَجِيءُ إِلَى طَعَامٍ مَقْدُورٍ، وَخَبَاءٍ مَضْرُوبٍ! فَلَمَّا جَاءَ سَلْمَانٌ أَرْسَلَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يَطْلُبُ لَهُمَا إِدَامًا، فَانطَلَقَ فَاتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ قَدَحٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَعْثَنِي أَصْحَابِي لِتُؤَدِمَهُمْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَ: «مَا يَصْنَعُ أَصْحَابُكَ بِالْأَذْمِ؟ قَدْ اتَّهَمُوا». فَرَجَعَ سَلْمَانٌ يُخْبِرُهُمَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَانطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَا: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَصَبْنَا طَعَامًا مِنْذُ نَزَلْنَا. قَالَ: «إِنكَمَا قَدْ اتَّهَمْتُمَا بِسَلْمَانَ بِقَوْلِكُمَا». قَالَ: وَنَزَلَتْ: ﴿أَيُّهُمُ أَذْكَرٌ أَنْ يَأْكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ إِنَّهُ كَانَ نَائِمًا^(٣).

[٦٢٥٧] وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» من طريق حبان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العربُ تخدمُ بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهتئء لهما طعاماً، فقالا: إن هذا لنؤوم فابقظاه فقالا له: ائت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأديمانك. فقال: «إنهما قد اتهدما». فجاءا فقالا: يا رسول الله، بأي شيء اتهدمنا؟ فقال: «بلأخ أحيكما، والذي نفسي بيده إنى لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله. فقال: «مُرَاهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمَا»^(٤).

= مقبول. وقال الذهبي في الميزان: لا يعرف من هو. وقال عنه البخاري: لا يعرف إلا بهذا الحديث. وقال النباي في «ذيل الكامل» من لا يعرف إلا بحديث واحد، ولم يشتهر حاله، فهو في عداد المجهولين. والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الجيفة فالإسناد ضعيف، مداره على عبد الرحمن ابن عم أبي هريرة، وهو مجهول، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٥١ والبخاري في «الأدب المفرد» ٧٣٢ وابن أبي الدنيا في «الصمت» ٢١٦ وإسناده ضعيف، عرفطة وثقه ابن حبان وحده، وطلحة فيه لين، وقال علي المدني وشعبة: لم يسمع من جابر سوى أربعة أحاديث، قلت: وتلك الأحاديث الأربعة أخرجها البخاري في «الصحيح» وليس هذا منها.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» ١٠٢٨ والبخاري في «الأدب المفرد» ٧٣٣ وهو معلول كسابقه، والمتن غريب.

(٣) هذا معضل. أسنده ابن أبي حاتم كما في «الدر» ١٠٢/٦ عن السدي. وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» ٤/٣٧٤: ذكره الثعلبي بدون إسناد، ولا راوٍ. وورد عن ابن أبي ليلى نحوه اهـ. فالخبر ضعيف حيث لم يرو بإسناد متصل.

(٤) لم يسق المصنف إسناده بتمامه. وحبان فمن فوقه ثقات كلهم، فلينظر فيما دون حبان، فإن المتن غريب بل هو باطل في حق أبي بكر وعمر، ثم إن قول الإنسان لمخدومه «لنؤوم» ليس بغيبة، وقد صح عنه ﷺ أنه قال ذلك لحذيفة وغيره. وقد ورد نحو هذا في حق رجل لم يسم، وليس في حق أبي بكر وعمر. وهذا أخرجه أبو يعلى ٦١٥١ والطبراني في =

[٦٢٥٨] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ أَكَلَ مِنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا قُرْبَ لَهُ لَحْمُهُ فِي الآخِرَةِ، فيقال له: كَلِمَةٌ مِيتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا - قال - فيأكله وَيَكْلَحُ وَيَصِيحُ»^(١). غريب جداً.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ﴾، أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واحشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تَوَّابٌ على من تاب إليه، رَحِيمٌ بمن رَجَعَ إليه، واعتَمَدَ عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقْلَعِ عن ذلك، ويعزَمَ على ألا يعود. وهل يُشْتَرَطُ الندمُ على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يُشْتَرَطُ أن يتحلل فإنه إذا علمه بذلك زُبماً تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يُنَبِّئَ عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يَرُدَّ عنه الغيبة بِحَسَبِهِ وطاقته، فتكون تلك بتلك.

[٦٢٥٩] كما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان: أن إسماعيل بن يحيى المَعَاوِرِيُّ أخبره أن سَهْلَ بن معاذ بن أنس الجُهَنِيِّ أخبره، عن أبيه، عن النبي - ﷺ -: قال: «مَنْ حَمَى مُؤْمِناً مِنْ مَنَافِقِ يَعْيبُهُ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. وَمَنْ زَمَى مُؤْمِناً بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جَسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»^(٢). وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله - وهو ابن المبارك - به بنحوه.

[٦٢٦٠] وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث: حدثني يحيى بن سليم أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله - ﷺ -: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنٍ يَحِبُّ فِيهَا نَصْرَتَهُ. وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنٍ يَحِبُّ فِيهَا نَصْرَتَهُ»^(٣). تفرد به أبو داود.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ

اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل، ويعد القبائل مراتب آخر كالفضائل والعشائر والعمائر والأفخاذ، وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد

= «الأوسط» ٤٦١ من حديث أبي هريرة، وفيه محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف جداً قاله في «المجمع» ١٣١٤٤. وورد من حديث ابن مسعود أخرجه الطبراني ١٠٩٢ وقال في «المجمع» ١٣١٤٥: رجاله رجال الصحيح اهـ والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣١٢٩ وقال الهيثمي: فيه ابن إسحق مدلس، ومن لم أعرفه اهـ ولعله في «المسند الكبير» لأبي يعلى. حيث لم أجده في الصغير، ولا عزاه له الهيثمي.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٨٨٣ وأحمد ٤٤١/٣ وإسناده ضعيف، سهل بن معاذ ضعيف ابن معين، وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» ٢٠٦/٢، ولعجزه شواهد راجع «الترغيب» ٤١٩٠ - ٤١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨٨٤ وأحمد ٣٠/٤ وابن أبي الدنيا في «الصمت» ١/٢٤٠ وإسناده ضعيف لجهالة إسماعيل بن بشير، وهو في ضعيف أبي داود ١٠٤٠.

لُخِصَتْ هَذَا فِي مُقَدِّمَةِ مَفْرَدَةِ جَمْعَتِهَا مِنْ كِتَابِ «الْإِنْبَاءِ» لِأَبِي عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَمِنْ كِتَابِ «الْقَضْدِ وَالْأَمَمِ» فِي مَعْرِفَةِ أُنْسَابِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ. فَجَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّرْفِ بِالنَّسَبِ الطَّيْنِيَّةِ إِلَى آدَمَ وَخَوَاءَ سِوَاةٍ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَمَتَابَعَةُ رِسُولِهِ - ﷺ - . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ التَّهْمِيَةِ عَنْ الْغِيْبَةِ وَاحْتِقَارِ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا، مُتَّبِعًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾. أَي: لِيَحْضُلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ، كُلُّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، كَمَا يَقَالُ: فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ مِنْ كَذَا وَكَذَا. أَي: مِنْ قَبِيلَةِ كَذَا وَكَذَا. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: كَانَتْ حَمِيرٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَى مَخَالِيفِهَا وَكَانَتْ عَرَبُ الْحِجَازِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى قَبَائِلِهَا.

[٦٢٦١] وَقَدْ قَالَ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عِيْسَى الثَّقَفِيِّ، عَنْ يَزِيدٍ - مَوْلَى الْمُتَّبِعِيَّةِ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصَلُّونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ؛ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاءَةٌ فِي الْمَالِ، مَنَسَاءَةٌ فِي الْأَثَرِ»^(١) ثُمَّ قَالَ: «غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾، أَي: إِنَّمَا تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالأَحْسَابِ. وَقَدْ وَرَدَتْ الأَحَادِيثُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - .

[٦٢٦٢] قَالَ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ، عَنْ عُيَيْدِ اللَّهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟» قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاهُمْ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ. قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوَسِّفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ! قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسَأَلُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فُقِهُوا»^(٢). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ طَرَفِ عَبْدِ بْنِ سَلِيمَانَ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ حَدِيثِ عُيَيْدِ اللَّهِ - وَهُوَ ابْنُ عُمَرَ الْعُمَرِيُّ - بِهِ.

[٦٢٦٣] حَدِيثٌ آخَرٌ، قَالَ مُسْلِمٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: حَدَّثَنَا عَمْرُو النَّاقِدُ، حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ، عَنْ يَزِيدِ بْنِ الْأَصَمِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٣). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَنَانَ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ هِشَامٍ، بِهِ.

[٦٢٦٤] حَدِيثٌ آخَرٌ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ بَكْرِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: إِنْ النَّبِيُّ - ﷺ - قَالَ لَهُ: «انظُرْ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

(١) أخرجه الترمذي ١٩٧٩ ورجاله ثقات معروفون سوى عبد الملك بن عيسى، فإنه مقبول كما في التقريب. ولعجزه شواهد كثيرة، وانظر «الصحيفة» ٢٧٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٣.

(٣) تقدم في سورة الحج، آية: ٣٧.

(٤) أخرجه أحمد ١٥٨/٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٧٨: رجاله ثقات إلا أن بكر بن عبد الله المزني، لم يسمع من أبي ذر اهـ فالإسناد ضعيف. لكن له شاهد من حديث أبي سعيد أخرجه البزار ٢٠٤٤ و ٣٥٨٣ وقال الهيثمي ١٣٠٧٩: رجال البزار رجال الصحيح اهـ، وفي الباب أحاديث.

[٦٢٦٥] حديث آخر، قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائي، سمعت محمد بن حبيب بن خزاش العصري يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالقوى»^(١).

[٦٢٦٦] حديث آخر، قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس - يعني ابن الربيع - عن شبيب بن عزقة، عن المستظل بن حصين، عن خديفة قال رسول الله - ﷺ -: «كلكم بنو آدم و آدم خُلِقَ من تُراب، وليُنْتَهَيَنَّ قوم يُفَخَّرُونَ بأبائهم أو ليَكُونَنَّ أهونَ على الله من الجفلان»^(٢). ثم قال: لا نعرفه عن خديفة إلا من هذا الوجه.

[٦٢٦٧] حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا لفظاً، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله - ﷺ - يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمنحجن في يده، فما وجد لها منأخاً في المسجد حتى نزل - ﷺ - على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأبيحت. ثم إن رسول الله - ﷺ - خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعلمها بأبائهم، فالناس رجلان: رجل برّ تقي كريم على الله. وفاجر شقي هين على الله، إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»^(٣). ثم قال: - أقول قولِي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم^(٤). هكذا رواه عبد بن حميد، عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد، عن موسى بن عبيدة، به.

[٦٢٦٨] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح عن عتبة بن عامر أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيئاً بخيلاً فاحشاً»^(٥).

[٦٢٦٩] وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، به. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(٥). وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

[٦٢٧٠] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سمالك، عن عبد الله بن عميرة زوج دزة ابنة أبي لهب، عن دزة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي - ﷺ - وهو على

(١) إسناده ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ٣٥٤٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٨٠: عبد الرحمن بن عمرو، متروك اهـ وكذبه غير واحد، وقال الحافظ في «الإصابة» ١٨/٢: هذا إسناده متروك اهـ.

(٢) أخرجه البزار ٢٠٤٣ و ٣٥٨٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٠٨٩: فيه الحسن بن الحسين العربي، وهو ضعيف اهـ لكن للحديث شواهد كثيرة. والجعل: حيوان كالخنفساء.

(٣) فيه موسى بن عبيدة الردي، وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد يتأيد بها إن شاء الله.

(٤) أخرجه أحمد ١٤٥/٤ والطبراني ٢٩٥/١٧ وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف لكن للحديث شواهد.

(٥) أخرجه الطبري ٣١٧٧٢ وإسناده كسابه.

المنبر فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال - ﷺ -: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله - عز وجل -، وأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»^(١).

[٦٢٧١] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله - ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى^(٢). تفرد به أحمد رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عَلِيمٌ بِكُمْ، خَبِيرٌ بِأَمُورِكُمْ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُفْضِلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْكِفَاءَةَ فِي النِّكَاحِ لَا تَشْتَرُطُ، وَلَا يُشْتَرَطُ سِوَى الدِّينِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ﴾. وَذَهَبَ الْآخَرُونَ إِلَى أُدْلَةٍ أُخْرَى مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ الْفِقْهِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ فِي «كِتَابِ الْأَحْكَامِ»، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقُولُ: أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ: غَيْرُكَ أَوْلَى بِهِ مِنْكَ، وَلَكَ مِنْهُ نَسَبٌ.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ﴾ (١٦) ﴿يَعْتُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل - عليه السلام - حسن سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان. فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

[٦٢٧٢] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله - ﷺ - رجلاً ولم يُعْطِ رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تُعْطِ فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي - ﷺ -: «أو مسلم» - حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي - ﷺ - يقول: أو مسلم - ثم قال النبي - ﷺ -: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلي»

(١) أخرجه أحمد ٤٣٢/٦ وإسناده لين، شريك ساء حفظه لما تورى القضاء، وسماك فيه كلام.

(٢) أخرجه أحمد ٦٩/٦ وأبو يعلى ٤٥٥٢ من حديث عائشة، وفيه ابن لهيعة، وقد ضعفه الجمهور. وقال الهيثمي في «اللمع» ١٣٠٨١: هو لين، وبقيه رجاله ثقات.

منهم فلا أعطيه شيئاً مخافة أن يكتبوا في النار على وجوههم^(١). أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، به. فقد قرئ النبي - ﷺ - بين المسلم والمؤمن فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلتنا في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري والله الحمد والمثني. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكوا الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقاتدة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري - رحمه الله - ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهِرُونَ الإيمان وليسوا كذلك. وقد روي عن سعيد بن جببر، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنْ قَوْلًا أَسَلْنَا﴾، أي: استسلمنا خوف القتل والسبأ. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله - ﷺ -.

والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعُتِفُوا وفُضِحُوا، كما دُكِرَ المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسَلْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾، أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَلْتَمْتُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾، أي: لمن تاب إليه وأتاب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: إنما المؤمنون الكمل، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: وبذلوا مهجهم ونفاس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، أي: في قولهم إذا قالوا: إنهم مؤمنون، لا كعص الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة.

[٦٢٧٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو بن الحارث، عن أبي السَّمْح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: إن النبي - ﷺ - قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه الله - عز وجل -^(٢)» وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، أي: أتخبرونه بما في ضمائركم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْبَابِ﴾، أي: لا يخفى عليه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسَلُوا﴾، يعني الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ، يقول الله تعالى راداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي: في دعواكم ذلك.

[٦٢٧٤] كما قال النبي - ﷺ - للأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧ ومسلم ١٥٠ وأبو داود ٤٦٨٣ والنسائي ١٠٣/٨ و١٠٤ وأحمد ١٦٧/١.

(٢) أخرجه أحمد ٨/٣ ح ١٠٦٦٦ وإسناده ضعيف، له علتان: الأولى رشدين بن سعد، وهو متروك. ودراج ضعيف وبخاصة في روايته عن أبي الهيثم، وهذا منها.

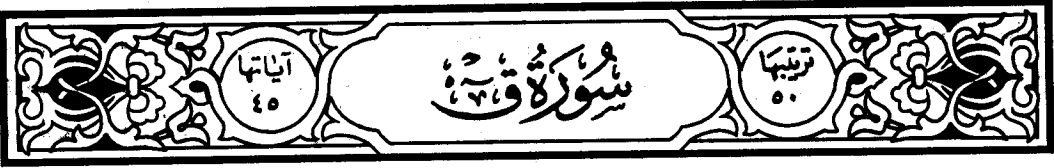
بي؟ وكشتم متفرقين فالفكم الله بي؟ وعائلة فأغناكم الله بي؟^(١) . كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن.

[٦٢٧٥] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن محمد بن قيس، عن أبي عون، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاءت بثو أسد إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك. فقال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ فِيهِمْ قَلِيلًا، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى أَسْنَتِهِمْ». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تُمَنُّوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلَىٰ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه^(٢)، ولا نعلمه روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير هذا الحديث. ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

آخر تفسير سورة الحجرات، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

(١) تقدم في سورة الأنفال آية ٦٣.

(٢) إسناده حسن، رجاله ثقات، وأخرجه النسائي في «التفسير» ٥٣٩ من طريق آخر، وفيه عطاء بن السائب يصلح للاعتبار به، وله شواهد انظر تفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريجي.



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحُجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من (عمّ)، فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المُعْتَبَرِينَ فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سنّته، باب تحزيب القرآن ثم قال:

[٦٢٧٦] حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا قُرْآنُ بن تمام (ح) - وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حَيَّانَ - وهذا لفظه - عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يَعْلَى، عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده - قال عبد الله بن سعيد في حَدِيثِهِ -: أوس بن حُدَيْفَةَ - ثم اتفقا قال: قَدِمْنَا على رسول الله - ﷺ - في وَفْدِ ثَقِيفٍ، قال: فنزلت الأحلاف على المُغِيرَةَ بن شعبة، وأنزل رسول الله - ﷺ - بني مالك في قُبَيْلِهِ. قال مُسَدَّدٌ: - وكان في الوفد الذين قَدِمُوا على رسول الله - ﷺ - من ثَقِيفٍ - قال: كان رسول الله - ﷺ - كُلَّ لَيْلَةٍ يَأْتِينَا بعد العشاء يُحَدِّثُنَا - قال أبو سعيد: قائماً على رجله حتى يُرَآوَحَ بين رجله من طول القيام، فأكثر ما يُحَدِّثُنَا ما لَقِيَ من قومه قُرَيْشٍ، ثم يقول: «لا سَواءَ وكنا مُسْتَضْعَفِينَ مُسْتَذَلِّينَ - قال مُسَدَّدٌ: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سِجَالُ الحرب بيننا وبينهم، نُذال عليهم ويدلون علينا». فلما كانت ليلة أبطأ علينا عن الوقت الذي كان يَأْتِينَا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة! قال: «إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله - ﷺ -: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمسة، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده^(١). ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن يعلى، الطائفي به. إذا عَلِمَ هذا فإذا عَدَدْتَ ثمانياً وأربعين سورةً فالتى بعدهن سورة ق. بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبزاءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وآلم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والنجاشية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ق وهو الذي قلناه، والله الحمد والمئة.

(١) أخرجه أبو داود ١٣٩٣ وابن ماجه ١٣٤٥ وأحمد ٤/٣٤٣، وإسناده لين، عبد الله بن عبد الرحمن ضعفه قوم ووثقه آخرون، وعثمان وثقه ابن حبان وحده، وروى عنه غير واحد، وقال الحافظ في «التقريب»: مقبول. والحديث في «ضعيف أبي داود» ٢٩٧.

[٦٢٧٧] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك، عن ضَمْرَةَ بن سعيد، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله: أن عُمَرَ بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله - ﷺ - يقرأ في العيد؟ قال: بقاف؛ واقتربت^(١). ورواه مسلم، وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك به. وفي رواية لمسلم، عن قَلْبِجٍ عن ضَمْرَةَ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ، عن أبي واقد قال: سألتني عُمَرَ، فذكره.

[٦٢٧٨] حديث آخر، وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرَّارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تُثَوِّرنا وتُثَوِّر النبي - ﷺ - واحداً سنتين، أو سنةً وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ إلا على لسان رسول الله - ﷺ -، كان يقرؤها كل يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس^(٢). رواه مسلم أيضاً من حديث ابن إسحاق، به.

[٦٢٧٩] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خُبَيْبِ، عن عبد الله بن محمد بن مغن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت (ق) إلا من في رسول الله - ﷺ - يخطب بها كل جمعة. قال: وكان تُثَوِّرنا وتُثَوِّر رسول الله - ﷺ - واحداً^(٣). وكذا رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، به. والقصد أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب؛ والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا نَجْوَى عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء التي تقدم ذكرها في أوائل السور، كقوله: (ص - ت - ال - ح - ط - س) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿ق﴾: جَبَلٌ محيط بجميع الأرض، يقال له: قاف. وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يُصدَّق ولا يُكذَّب. وعندني أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلاله قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي - ﷺ - وما بالعهد من قديم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته!

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٨٩١ وأبو داود ١١٥٤ والترمذي ٥٣٤ والنسائي ١٨٣/٣ - ١٨٤ وابن ماجه ١٢٨٢ وأحمد ٢١٧/٥ - ٢١٨ وابن حبان ٢٨٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٧٣ ح ٥٢ وأحمد ٤٣٦/٦.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٨٧٣ ح ١ وأبو داود ١١٠٠ والنسائي في «التفسير» ٥٤٠ وأحمد ٤٣٥/٦.

[٦٢٨٠] وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا حَرْجَ»^(١)، فيما قد يُجوزُه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويُحکم عليه بالبطلان، وَيُغَلِّب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كُتُب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمئة، حتى إن الإمام أبا مُحَمَّد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي - رحمه الله - أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيِّ: حَدَّثَنَا لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأَرْضِ بَحْرًا مَحِيطًا بِهَا، ثُمَّ خَلَقَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الْبَحْرِ جَبَلًا يُقَالُ لَهُ: (قَاف) السَّمَاءُ الدُّنْيَا مَرْفُوفَةٌ عَلَيْهِ. ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الْجَبَلِ أَرْضًا مِثْلَ تِلْكَ الْأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ خَلَقَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ بَحْرًا مَحِيطًا بِهَا، ثُمَّ خَلَقَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ جَبَلًا يُقَالُ لَهُ: (قَاف) السَّمَاءُ الثَّانِيَّةُ مَرْفُوفَةٌ عَلَيْهِ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرْضِينَ، وَسَبْعَةَ أَبْحُرٍ، وَسَبْعَةَ أَجْبُلٍ، وَسَبْعَ سَمَوَاتٍ. قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]. فإسنادُ هذا الأثر فيه انقطاع، والذي رواه ابنُ أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَاف﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، عز وجل. والذي ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله تعالى: ﴿صَ - تَ - حَمَ - طَرَ - الْمَرْءَ﴾ ونحو ذلك. فهذه تُبعد ما تقدّم ع ابن عباس. وقيل: المراد قُضِيَ الأمر والله، وأن قوله جل ثناؤه: ﴿قَاف﴾ دلّت على المحذوف من بقية الكلام كقول الشاعر:

قلت لها: قفي فقالت قاف

وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟. وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾، أي: الكريم العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. واختلَفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَيْثُ كُلُّ﴾. وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدّم في قوله: ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [١] بِلِ اللَّيْنِ كَثُرُوا فِي عَزْرِ وَيُقَاتِي ﴿ وهكذا قال هاهنا: ﴿قَ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾ [١] بِلِ جَبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢٢]، أي: وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس. ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَوَلَمْ يَتَنَبَّأُوا أَنَّا نَأْتِيهِمْ بَعِيدًا﴾ [٢]؟ أي يقولون: أيننا مبتنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا ثراباً، كيف يُمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه، قال الله تعالى زاداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كَنْزٌ حَيْثُ كُلُّ﴾، أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾،

أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم، ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (٥)، أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمرج: المختلف المضطرب المتلثس المتكثر خلاله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَبِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٦) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿الذاريات: ٨ - ٩﴾.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُؤُوسَ وَأَنْبِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) ﴿تَبِيرَةً وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَبْدٍ مِّنْهُمْ نِعْمَتَهُ﴾ (٨) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (٩) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبِيدُهُ﴾ (١٠) ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا كَذَلِكَ الْفُرُوجُ﴾ (١١) ﴿

يقول تعالى مُتَّبِعًا للعباد على قُدْرَتِهِ العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تَعَجَّبُوا مُسْتَبْعِدِينَ لوقوعه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا﴾، أي: بالمصباح، ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ - قال مجاهد: يعني من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّجِجِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٢٠) ثم أتبع البصر كَرْتَيْنِ بَقَلْبِكَ الْبَصَرَ حَاشِيًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿الملك: ٣ - ٤﴾، أي: كليل، أي: عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُؤُوسَ﴾، وهي: الجبال، لثلاث تَمِيدَ بأهلها وتضطرب، فإنها مُقَرَّةٌ على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنْبِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رِزْقًا لِّعَمَلِكُمْ لَنَذَكَّرَنَّهُمْ﴾ (١١) ﴿الذاريات: ٤٩﴾، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾، أي: حسن المنظر ﴿تَبِيرَةً وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَبْدٍ مِّنْهُمْ نِعْمَتَهُ﴾ (٨) ﴿أي: ومشاهدة خلق السموات وما جُيِلَ فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي: خاضع خائف وجل رجوع إلى الله - عز وجل - . وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾، أي: نافعاً: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾، أي: حدائق من بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، وهو: الزرع يُزَادُ لِحَبِّهِ وَأُدْحَارُهُ. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾، أي: طوالاً شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لِّمَا طَلَعَ نَبِيدُهُ﴾، أي: منضود ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾، أي: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا﴾، وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزهيم وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تَهْتَزُّ خَضْرَاءَ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يُحْيِي اللهُ الموتى. وهذا المُشَاهَدُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ بِالْجِسْمِ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرَهُ الْجَاحِدُونَ للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْزَبٌ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ إِلَهاً يَلْبَسُهُمْ بِقَدِيرٍ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٢) ﴿الاحقاف: ٣٣﴾. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَائِبَةً إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِذْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَحْيَى الْمَوْقِفِ إِنَّهُ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٣) ﴿[نصفت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَمُؤَدُّوهُمُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ (١٣) ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ (١٤) ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (١٥) ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) ﴿

يقول تعالى مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ بِمَا أَحْلَهُ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنَظَرَاتِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ قَبْلَهُمْ، مِنَ النَّقْمَاتِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَا عَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْعَرْقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، ﴿وَأَمَّا رَبُّ الرَّيِّ﴾ وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان، ﴿وَتَمُودُ﴾ ﴿١٧﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِسْرَافُ لُوطُ ﴿١٣﴾، وهم أمته الذين بيعت إليهم من أهل سُدُومَ ومعاملتها في العُورِ، وكيف حَسَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِمُ الْأَرْضَ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بِخَيْرَةٍ مَتَنَّةٍ خَيْبَةً، بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ، ﴿وَأَمَّا قَوْمُ الْأَيُّكُوَّةِ﴾، وهم قوم شُعَيْبٍ - عليه السلام -، ﴿وَقَوْمُ نِجْمٍ﴾، وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان، بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والشكر. ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ﴾، أي: كلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ وَهَؤُلَاءِ الْقُرُونِ كَذَّبَ رَسُولَهُ، وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَقَوْلِهِ جَل وَعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ، فَهَمُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ، ﴿لَحَقَّ وَبِعِدِّ﴾، أي: فَحَقَّقَ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ. فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أَوْلَئِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَبِينًا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، أي: أَفَأَعْجَزْنَا ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ حَتَّى هُمُ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ؟، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَدِيدٍ﴾: وَالْمَعْنَى أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يُعْجِزْنَا وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَصَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَوَيْسَى خَلَقْنَاهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَيْبِي﴾ ﴿١٨﴾ قُلْ يُجِيبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٨ - ٧٩].

[٦٢٨١] وقد تقدّم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يُعِيدني كما بَدَأني، وليس أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»^(١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَمِيدٌ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَلِيدٌ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُ بَنِي آدَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

[٦٢٨٢] ثبت في الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ»^(٢). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، يَعْنِي مَلَائِكَتَهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ. وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْعِلْمِ فَإِنَّمَا فَرُّ لَثَلَا يَلْزَمُ حُلُولَ أَوْ اتِّحَادَ، وَهَمَا مُتَّفِقَانِ بِالْإِجْمَاعِ، تَعَالَى اللهُ وَتَقَدَّسَ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَقْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضَرِّ: ﴿وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنَّ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ [الواقعة: ٨٥]، يَعْنِي

(١) وهذا الأثر لا يصح عن ابن عباس. فهو منقطع بين أبي حاتم ومحمد بن إسماعيل. وفي الإسناد أيضاً ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف الحديث. والأثر من الإسرائيليات المردودة.

(٢) تقدم تخرجه في سورة الروم: ٢٧.

ملائكته . وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله - عزَّ وجلَّ - . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حَبْلِ وريده إليه بإقذار الله جل وعلا لهم على ذلك ، فَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً .

[٦٢٨٣] وكذلك : «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(١) ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق . ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِذْ يُلْقَى الْتَفِيلَانِ ﴾ ، يعني المَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتُبَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ . ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِدًا ﴾ ، أي : مُرْصَدًا ﴿ مَا يَلْفِظُ ﴾ ، أي : ابن آدم ﴿ مِنْ قَوْلِهِ ﴾ ، أي : ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، أي : إلاً ولها من يُرَاقِبُهَا ، مُعَدٌّ لذلك يكتبها ، لا يترك كلمة ولا حركة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَيْنَا لَحَافِظِينَ ﴾ ﴿ كِرَامًا كَبِيرِينَ ﴾ ﴿ يَتْلُونَ مَا تُعَلَّمُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] . وقد اختلف العلماء : هل يكتب المَلَكُ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ ؟ وهو قولُ الْحَسَنِ وقَتَادَةَ ، أو إنما يكتب ما فيه ثوابٌ وَعِقَابٌ كما هو قولُ ابن عباس؟ على قولين ، وظاهر الآية الأولى ، لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

[٦٢٨٤] وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي ، عن أبيه ، عن جده علقمة ، عن بلال بن الحارث المُرْزَنِيِّ قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَنْظُرُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ . وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَنْظُرُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ ، يَكْتُبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ . قال : فكان علقمة يقول : كم من كلامٍ قد منعه حديثُ بلال بن الحارث»^(٢) . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، من حديث محمد بن عمرو ، به ، وقال الترمذي : «حسن صحيح» . وله شاهد في الصحيح .

وقال الأحنف بن قيس : صاحبُ اليمين يكتبُ الخيرَ ، وهو أميرٌ على صاحبِ الشمال ، فإن أصاب العبدُ خطيئةً قال له : أمسيك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها ، وإن أبى كتبها . رواه ابن أبي حاتم . وقال الحسن البصريُّ وتلا هذه الآية : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِدًا ﴾ : يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفةً ، ووَكَّلْتُ بك مَلَكًا كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخرُ عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظُ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظُ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا ميتٌ طويت صحيفتك ، وجعلت في عُثْقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمِنَهُ طَلْعُهُ فِي عُرْوَةٍ وَنُفِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابُهُ يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٣ - ١٤] . ثم يقول : عدل - والله - فيك مَنْ جعلك حَسِيبَ نَفْسِكَ . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، قال : يكتب كُلُّ ما تكلم به من خير أو شر ، حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عُرضُ قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ، وألقي سائرهُ ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْشُوا لِلَّهِ مَائِمْئَةً وَيُئِثُّ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٩] . وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يَبِينُ فِي مَرَضِهِ ، فَبَلَغَهُ عَنْ طَاوُوسٍ أَنَّهُ قَالَ : يَكْتُبُ الْمَلَكُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْاِثْنَيْنِ . فلم يَبِينُ أَحْمَدُ حَتَّى مَاتَ ، - رحمه الله - . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ جَدًّا ﴾ ، يقول تعالى وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق ، أي : كشفت لك عن اليقين الذي

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٢٥٢٨ وتقدم في البقرة : ٢٨٤ .

(٢) تقدم تخريجه .

كُنْتُ تَمْتَرِي فِيهِ ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدًا﴾، أي: هذا هو الذي كُنْتُ تَفْرُ مِنْهُ قَدْ جَاءَكَ، فَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ، وَلَا فَكَأكَ وَلَا خَلَاصَ.

وقد اختلفَ المُفسِّرونَ في المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدًا﴾ (١٦) فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو: وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد - سبلان - أخبرنا عباد بن عباد، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جدّه علقمة بن وقاص أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: حَضَرْتُ أَبِي وَهُوَ يَمُوتُ، وَأَنَا جَالِسَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَأَخَذَتْهُ غَشِيَّةً، فَتَمَثَّلْتُ بَيْتَ مِنَ الشَّعْرِ:

مَنْ لَا يَزَالُ دَمُّهُ مُقْتَمًا فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مَرَّةً مَذْفُوقًا

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدًا﴾ (١٦). وحدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن البهي قال: لما أن نُقِلَ أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه - جاءت عائشة - رضي الله عنها - فَتَمَثَّلْتُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الشُّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الضُّدْرُ

فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ قَوْلِي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدًا﴾ (١٦). وقد أوردت لهذا الأثر طُرُقًا كثيرة في سيرة الصديق عند ذكر وفاته، - رضي الله عنه -.

[٦٢٨٥] وقد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات» (١). وفي قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدًا﴾ قولان، أحدهما: أن (ما) ها هنا موصولة، أي: الذي كنت منه تَحِيدُ - بمعنى تَبْتَعِدُ وتَنَاقَى وتَفِرُّ - قَدْ حَلَّ بِكَ وَنَزَلَ بِسَاحَتِكَ. والقول الثاني: أن (ما) نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا التَّحِيدُ عنه.

[٦٢٨٦] وقد قال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا محمد بن علي الصائغ المكي، حدثنا حفص بن عمر الجدي، حدثنا معاذ بن محمد الهذلي، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن سُمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض بدين، فجاء يسمى حتى إذا أغيا وابتهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، ديني. فخرج وله حصاص» (٢)، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات» (٣). ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ﴾ (٢٠)، قد تقدّم الكلام على حديث النفخ في الصور (٤) والفرع والصق والبعث وذلك يوم القيامة.

(١) تقدم تخريجه في سورة الحجرات آية ٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥١٠ من حديث عائشة وتقدم.

(٣) الحصاص: شدة العدو.

(٤) ضعيف. أخرجه الطبراني ٦٩٢٢ والعقيلي ٢٠٠/٤ وأعله بمعاذ بن عمدة الهذلي، وقال: فيه نظر، ولا يتابع على رفعه. وذكره الذهبي في «الميزان» ٢١٥٧ في ترجمة حفص بن عمر الجدي، ونقل عن الأزدي قوله: منكر الحديث جداً اهـ ثم أسنده العقيلي من طريق آخر عن سمرة موقوفاً وصوبه.

[٦٢٨٧] وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْيَنِ قَدْ التَّمَّ الْقَرْنَ وَحَتَّى جَبَّهَتْهُ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤَدَّنَ لَهُ». قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟؟ قال: «قولوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». فقال القوم: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(١). ﴿وَحَلَمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١)، أي: مَلَكٌ يَسُوقُهُ إِلَى الْمَحْشَرِ، وَمَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير. ثم روى من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال: سَمِعْتُ عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ يَخْطُبُ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَحَلَمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١)، فقال: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى اللَّهِ، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا عَمِلَتْ. وكذا قال مجاهد، وقنادة، وابن زيد. قال مطرف، عن أبي جعفر - مولى أشجع - عن أبي هريرة: السائق: الملك، والشهيد العمل. وكذا قال الضحاك والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾ (٢٢).

أحدها: أن المراد بذلك الكافر، رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثاني: أن المراد بذلك كلُّ أحد من بَرٍّ وَفَاجِرٍ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدُّنْيَا كَالْيَقِظَةِ وَالدُّنْيَا كَالْمَنَامِ. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبي - ﷺ -. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو. والمراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾، أي: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾، أي: قَوِيٌّ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا، حَتَّى الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ. قال الله تعالى: ﴿أَتَمِيعٌ يَوْمَ تَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٢٢) [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٢٣) ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِي﴾ (٢٤) ﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّزِيدٍ﴾ (٢٥) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨) ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٢٩)

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾، أي: مُعَدُّ مُحْضَرٌ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته.. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة - فعند ذلك يحكم الله - سبحانه وتعالى - في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِي﴾ (٢٩). وقد اختلف

النحاة في قوله: ﴿أَلْيَا﴾، فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية، كما روي عن الحجاج أنه كان يقول: يا حَرْسِي، اضربا عُنُقَهُ. ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجراني - يا ابن عَفَّان - أنزجر
وإن تشركاني أخم عِزْضاً مَمْنَعاً

وقيل: بل هي نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد، لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عِزْضَةِ الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بالقائه في نار جهنم وبئس المصير. ﴿أَلْيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾: مُعَانِدٍ للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَنَّاعٍ لِلتَّيْبَرِ﴾، أي: لا يُؤدِّي ما عليه من الخُفُوقِ، ولا يَبْرُ فيه ولا صِلَةً ولا صدقة، ﴿مُتَّبِعٍ﴾، أي فيما يُنفِقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: ﴿مُتَّبِعٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره. ﴿مُتَّبِعٍ﴾، أي: شاك في أمره، مُرِيب لمن نظر في أمره. ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهُاً آخَرَ﴾، أي: أشرك بالله فعبَد معه غيره، ﴿فَأَلْيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

[٦٢٨٨] وقد تقدّم في الحديث «أن عُنُقاً من النار يبرز للخلائق فينادي بصوت يُسمعُ الخلائق: إني وُكِّلْتُ بثلاثة، بكلُّ جبارٍ عَنِيدٍ، ومَن جعل مع الله إلهاً آخرَ، وبالمُصَوِّرِينَ. ثم يَطْوِي عليهم»^(١).

[٦٢٨٩] قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية - هو ابن هشام - حدثنا شيبان، عن فِزَّاس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن نبي الله ﷺ - أنه قال: «يُخْرِجُ عُنُقَ مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ، يَقُولُ: وَكُلْتُ الْيَوْمَ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ، وَمَن جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهُاً آخَرَ، وَمَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ. فَتَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، فَتَقْدِفُهُمْ فِي عَمْرَاتِ جَهَنَّمَ»^(٢).

﴿قَالَ قَيْتُ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وغيرهم، هو الشيطان الذي وكل به، ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُنَا﴾، أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يَتَبَرَّأُ مِنْهُ شَيْطَانُهُ، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُنَا﴾، أي: ما أضللتنا، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا فِي سَلَكٍ بَعِيدٍ﴾، أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْلُحَىٰ وَعَدَّكَوًّا فَأَفْلَيْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُوا وَلِئِمَّوْا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْضِعُوا لَدَيْهِ﴾، يقوله الربُّ - عزَّ وجلَّ - للإنسي وقريته من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْلَيْتُنَا وَلَكِنْ كَانُوا فِي سَلَكٍ بَعِيدٍ﴾، أي: عن منهج الحق. فيقول الربُّ - عزَّ وجلَّ - لهما: ﴿لَا تَخْضِعُوا لَدَيْهِ﴾، أي: عندي ﴿وَقَدْ قَدَسَتْ إِلَيْكَ بِالْوَيْدِ﴾، أي: قد أعدرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيّنات والبراهين. ﴿مَا يَبْدُ الْقَوْلُ لَدَيْهِ﴾، قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلتَّيْبِدِ﴾، أي: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجّة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٥) وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ بَعِيدٍ (٣٦) هَذَا مَا تُوَعِدُونَ

(١) تقدم تخريجه في سورة آل عمران آية ١٧٣ وسورة الكهف آية ٩٩.

(٢) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم: ١٥.

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْبَاطِنَ إِجَاءً وَيَقْلِبُ مُتَبِئًا ﴿٣٣﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

يخبرُ تعالى أنه يقولُ لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلُؤُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فهو - سبحانه وتعالى - يَأْمُرُ بِمَنْ يَأْمُرُ بِهِ إِلَيْهَا وَيُلْقَى، وهي تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، أي: هل بقي شيءٌ تزيدوني؟ هذا هو الظاهرُ من سياق الآية، وعليه تدلُّ الأحاديث:

[٦٢٩٠] قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حَزْمِيُّ بن عُمَارَةَ، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبي - ﷺ - قال: «يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ»^(١).

[٦٢٩١] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لَا تَرَالُ جَهَنَّمَ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رُبَّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ، فَيَسْكِنَهُمْ فِي فُضُولِ الْجَنَّةِ»^(٢). ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه. ورواه أبان العطار وسليمان الثيمي، عن قتادة، بنحوه.

[٦٢٩٢] حديث آخر، قال البخاري؛ حدثنا محمد بن موسى القَطَّان، حدثنا أبو سفيان الجميري سعيد بن يحيى بن يحيى بن مهدي، حدثنا عوف، عن مُحَمَّد، عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَفَعَهُ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُوقِفُهُ أَبُو سَفْيَانَ -: «يُقَالُ لَجَهَنَّمَ: هَلْ امْتَلَأَتْ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ - عِزَّ وَجَلَّ - قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ»^(٣). رَوَاهُ أَيُّوبُ وَهْشَامُ بْنُ حَسَّانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيْرِينَ، بِهِ.

[٦٢٩٣] طريق آخر، قال البخاري؛ وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن هَمَّام، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أَوْثَرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَالِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضَعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ. قَالَ اللَّهُ - عِزَّ وَجَلَّ - لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيَزْوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلَمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ»^(٤).

[٦٢٩٤] حديث آخر، قال مسلم في صحيحه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش،

(١) أخرجه أبو يعلى ١١٣٨ و ١١٤٦ وأحمد ٤٠/٣ والبخاري ٣٥٠٠ و ٣٥٠١ والطبراني في «الأوسط» ٣٢٠، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٦١٣: أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح. وسبقه المنذري إلى ذلك فقال في «ترغيبه» ٣٦٠٤: رواه أحمد والبخاري، وفي إسناديها عطية العوفي وهو ضعيف، ورواه الطبراني بإسنادين رواه أحدهما رواة الصحيح اهـ وفي الباب من حديث أبي هريرة، أخرجه الترمذي ٢٥٧٧ وقال: حسن صحيح غريب اهـ فهو شاهد لما قبله يرقى إلى درجة الحسن.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٨ و ٧٣٨٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦٦١ ومسلم ٢٨٤٨ والترمذي ٣٢٧٢ وأحمد ١٣٤/٣ و ١٤١.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٤٩.

عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «احتجبت الجنة والنار، فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم. ففضي بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعدب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها»^(١). انفرد به مسلمٌ دون البخاري، من هذا الوجه، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد رواه الإمام أحمدٌ من طريق أخرى، عن أبي سعيد بأبسط من هذا السياق، فقال:

[٦٢٩٥] حدثنا حسنٌ وروحٌ قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبید الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ -: قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلني الجبارة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أي رب، يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله - عز وجل - للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي، وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها فيلقى في النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها - عز وجل -، فيضع قدمه عليها، فتتنزوي وتقول: قذني، قذني. وأما الجنة فيلقى فيها أهلها ما شاء الله أن يلقى، فينشئ الله لها خلقاً ما يشاء»^(٢).

[٦٢٩٦] حديث آخر، وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا عتبة بن مكرم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن زر بن حبیش، عن أبي بن كعب أن رسول الله - ﷺ -: قال: «يعرفني الله - عز وجل - نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عني، ثم أمدحه مذخة يرضى بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر أمتي على الصراط - مضروب بين ظهري جهنم - فيمرن أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهي الأعمال. وجهنم تسأل المزيء، حتى يضع فيها قدمه، فيتنزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الحوض» قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك. وآيته أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنساناً فيظلم أبداً، ولا يُصرف فيروى أبداً»^(٣). وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الحماني، عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد»^(٤)، قال: ما امتلأت. قال: تقول: وهل في من مكان يزداد في؟ وكذا رواه الحكم بن أبان، عن عكرمة: «ونقول هل من مزيد»: وهل في مدخل واحد؟ قد امتلأت! قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يُقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: «هل من مزيد». وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا فعند هؤلاء أن قوله تعالى: «هل امتلأت» إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتتنزوي وتقول حينئذ: هل بقي في من مزيد يسع شيئاً؟ قال العوفي، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٥٠.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٧.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٣/٣ وفيه عطاء بن السائب، وقد اختلط وسمع منه حماد قبل الاختلاط وبعده، والظاهر أن هذا مما سمعه قبل الاختلاط فإن المتن محفوظ له شواهد وطرق.

[٦٣٠١] وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في مُسنَدِه: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عُبَيْدة، حدثني أبو الأزهر معاوية بنُ إسحاق بن طلحة، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ عُمَيْرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: أتى جبرائيلُ بمرآةٍ بيضاء فيها نُكْتَةٌ إلى رسولِ اللَّهِ - ﷺ -، فقال رسولُ اللَّهِ - ﷺ -: «ما هذه؟» فقال: هذه الجمعة، فَضَلَّتْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، فالناسُ لكم فيها تَبِعٌ، اليهودُ والنصارى، ولكم فيها خيرٌ، ولكم فيها ساعةٌ لا يُؤاَفِقُهَا مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللَّهَ بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ، وهو عندنا يومُ المَزيدِ. قال النبيُّ - ﷺ -: «يا جبريلُ، وما يومُ المَزيدِ؟» قال: إِنَّ رَبَّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ فِي الْفِرْدَوْسِ وادياً أَمِيحاً فِيهِ كُتُبُ الْمِسْكِ، فإذا كان يومُ الْجُمُعَةِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَحَوَّلَهُ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، عَلَيْهَا مَقَاعِدُ النَّبِيِّينَ، وَحَفَّتْ تِلْكَ الْمَنَابِرُ بِمَنَابِرٍ مِنْ ذَهَبٍ، مُكَلَّلَةٌ بِالْيَاقُوتِ وَالزُّبُرِجِدِ، عَلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ. فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ، فيقولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: «أنا رَبُّكُمْ، قد صَدَقْتُمْكُمْ وَغَدِي، فَسَلُونِي أُعْطِيكُمْ. فيقولون: رَبَّنَا، نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ، فيقولُ: قد رَضِيتُ عَنْكُمْ، ولكم عَلَيَّ مَا تَمَنَيْتُمْ، ولدي مَزيدٌ. فهم يُحِبُّونَ يومَ الجمعةِ لما يُعْطِيهِمْ فِيهِ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ، وهو اليومُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ، وفيهِ خَلَقَ آدَمَ، وفيهِ تَقَوَّمَ السَّاعَةَ»^(١). هكذا أوردَه الإمامُ الشافعيُّ في كتابِ الْجُمُعَةِ مِنَ الْأَمِّ، وله طُرُقٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -. وقد أوردَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رِوَايَةِ عَثْمَانَ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بِإِسْطِ مِنْ هَذَا، وَذَكَرَ هَاهُنَا أَثَرًا مُطَوَّلًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَوْقُوفًا، وفيهِ غَرَائِبٌ كَثِيرَةٌ.

[٦٣٠٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لهيعة، حدثنا دَرَج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسولِ اللَّهِ - ﷺ - قال: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْحِجَّةِ لَيَنْكِيءُ فِي الْحِجَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ، ثُمَّ تَأْتِيهِ امْرَأَةٌ فَتَضْرِبُ عَلَى مِثْقَلِهِ، فينظرُ وَجْهَهُ فِي حَذَاهَا أَصْفَى مِنَ الْمَرَأَةِ، وَإِنْ أَدْنَى لَوْلُؤَةٌ عَلَيْهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. فَتَسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَيُرِدُّ السَّلَامَ، فيسألُها: من أنتِ؟ فتقول: أنا من المَزيدِ. وإنه لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً، أَدْنَاهَا مِثْلُ النِّعْمَانِ مِنْ طُوبَى، فَيَنْقُذُهَا بِبَصَرِهِ حَتَّى يَرَى مِخْ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، وَإِنْ عَلَيْهَا مِنَ التَّيْجَانِ إِنْ أَدْنَى لَوْلُؤَةٌ مِنْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢). وهكذا رواه عبدُ اللَّهِ بنُ وهبٍ عن عمرو بنِ الحارثِ، عن دَرَج، به

= ليس بشيء. وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ليس حديثه بشيء. وقال أبو داود: سمعت أحمد يضعفه. وقال النسائي: ليس بقوي. وقال ابن معين: لا بأس به. وقال أبو حاتم: ثقة لا بأس به. وضعفه حميد بن الأسود. وذكره العقيلي في الضعفاء. اهـ فالرجل مختلف فيه. والمتن غريب، ولذا قال ابن القيم في «حادي الأرواح» ص ١٦٧: إنساده على شرط الصحيح، لكنه غريب جداً اهـ وقال الترمذي عقبه: اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: في الجنة جماع، ولا يكون ولد، هكذا روي عن طاووس ومجاهد والنخعي. وقال محمد - البخاري - قال ابن راهويه: حديث «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة واحد كما يشتهي» ولكن لا يشتهي. قال البخاري: وقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: إن أهل الجنة لا يكون لهم فيها ولد. اهـ. الخلاصة: تبين من كلام إسحاق أنه على فرض صحة الحديث. لكن ليس فيه وقوع ذلك، وإنما فيه بيان أن الآخرة هي محل الخوارق، ومشى الألباني على ظاهره فذكره في «صحيح ابن ماجه» ١٩٣٥٠٠ والله أعلم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الشافعي ٣٧٤ وإنساده ضعيف، فيه موسى بن عبيدة الرليذي، وهو واو. لكن ورد من وجوه آخر وقد تقدم تخريجه. وانظر «مسند أبي يعلى» ٧/٢٢٩ و«المجمع» ١٠/٤٢١. والله الموفق.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قبل هؤلاء المنكرين: ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾، أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثأروا والأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾، قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها. ويقال لمن طوف في البلاد: نقَّب فيها. قال امرؤ القيس:

لَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْأَقَاقِ حَتَّى رَضِيْتُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾، أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمَعُوهُ، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لِمَا كَذَّبُوا الرُّسُلَ؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد، ولا مناص ولا محيص. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ﴾، أي: لعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، أي: لب يعي به. وقال مجاهد: عقل، ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي استمع الكلام فوعاه، وتَعَقَّلَهُ بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ﴾، يعني: لا يحدث نفسه بغيره ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال: شاهد القلب. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد، يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾، فيه تقرير للمعاد، لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قدير على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى. وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسئونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾. أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَمِيًّا يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَأْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ بَنَاهَا ﴿٣٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧]. وقوله عز وجل: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائ، ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي - ﷺ - وعلى أمته حوْلاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسرائ بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

[٦٣٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ - ﷺ - فَنظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّكُمْ فَتَرَوْنَ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ الْأَتْعَابُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

وقبل غروبها، فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(١). ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾، أي: فَضَلْ له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(٢). ﴿وَأَذِّنْ الشُّجُورَ﴾ قال ابن أبي نجیح، عن مُجاهد، عن ابن عباس: هو التسييح بعد الصلاة.

[٦٣٠٤] ويُؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلىٰ والثميم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يُصلُّون كما نُصَلِّي، ويصومون كما نَصُوم، ويتصدقون ولا تتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتهم من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تُسبِّحون وتحمدون وتكبرون ذُبرَ كُلُّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا. ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء»^(٣).

والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ الشُّجُورَ﴾، هما الركعتان بعد المغرب، وروي ذلك عن عمر وعلي، وابنه الحسن وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة. وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي والحسن وقتادة، وغيرهم.

[٦٣٠٥] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمره، عن علي رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله - ﷺ - يُصَلِّي على أثرِ كُلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: ذُبرَ كُلُّ صلاةٍ^(٤). ورواه أبو داود والنسائي، من حديث سفيان الثوري، به. زاد النسائي: ومُطَرَّف، عن أبي إسحاق، به.

[٦٣٠٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا ابن فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس قال: بث ليلةً عند رسولِ الله - ﷺ - فصَلَّى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا ابنَ عباسٍ. ركعتين قبل صلاةِ الفجر إِدبارِ النجوم، وركعتين بعد المغرب إِدبارِ السجود»^(٥). ورواه الترمذي عن أبي هشام الرقاعي، عن محمد بن فضيل، به. وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

[٦٣٠٧] وحديث ابن عباس وأنه بات في بيت خالته ميمونة وصَلَّى تلك الليلة مع النبي - ﷺ - ثلاث عشرة ركعة^(٥)، ثابت في الصحيحين وغيرهما. فأما هذه الزيادة فغريبة لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورشدين بن كريب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفاً عليه، والله أعلم.

(١) تقدم تحريجه، وإسناده ضعيف لأجل ضعف ابن لهيعة، ودرّاج.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٣ وأحمد ٣٦٢/٤ والطبراني ٢٢٢٤٠ وابن حبان ٧٤٤٣.

(٣) متفق عليه، وتقدم تحريجه.

(٤) أخرجه أبو داود ١٢٧٥ وأحمد ١٢٤/١ وفيه عاصم ضعفه غير واحد.

(٥) إسناده ضعيف. وفيه رشدين بن كريب. جاء في «الميزان» ٢٧٨١: قال أحمد: منكر الحديث. وقال علي المدني وجماعة:

ضعيف. وقال البخاري: منكر الحديث اهـ. والحديث في الصحيحين ليس فيه لفظ «يا ابن عباس...».

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِنَّا مِنَ الْمَمِيتِينَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾، قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله تعالى يامرؤن أن تجتمعن لفضل القضاء. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾، يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداث، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِنَّا مِنَ الْمَمِيتِينَ ﴿٤٣﴾﴾، أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهن عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾، وذلك أن الله - عز وجل - ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفع إسرافيل فيه خرّجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله - عز وجل -: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللدبغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله - عز وجل - ﴿مُهَيَّيَّاتِينَ إِلَى النَّالِقِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْسَبَةٍ وَتَنْظُرُونَ بِأَسْفَهٍ لَوْلَا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

[٦٣٠٨] وفي صحيح مسلم، عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»^(١).

وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَفِجٍ بَالِصِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كَفِيفٍ وَجِدَةٌ إِنْ أَلَّ اللَّهُ مَتِيعٌ بِصِيرٍ ﴿٧٨﴾﴾ [القمان: ٧٨]. وقوله جل وعلا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: نحن أعلمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ تَمَرَأْنَا أَنْ يَخْبِتَ مِنْكَ إِعْيَابُ سِدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَأَعِذْ بِرَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. وقال مجاهد، وقاتدة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، أي: لا تتجبر عليهم. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قاله لقال: ولا تكن جبّاراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ. قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا، بمعنى أجبره. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ﴾، أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَلِنَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله جل جلاله: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٦١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. ﴿إِنْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَجْنَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) متفق عليه، وتقدم في آخر آل عمران.

[البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمَبْشِرٍ فَذِكْرُ الْفُرْقَانِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ﴾ . كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعبيدك، ويرجو موعودك، يا بار يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ (١) ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ (٢) ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (٣) ﴿فَالْمَعْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ (٤) ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (٥) ﴿وَإِنَّ الْبَلَدِينَ لَورِيعٌ﴾ (٦) ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ اللَّيْلِ لِنُجُومٍ﴾ (٧) ﴿إِنَّكُمْ لَعِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٨) ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ (٩) ﴿قِيلَ الْخَرْصُونَ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُقٍ سَاهُونَ﴾ (١١) ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الْدِينِ﴾ (١٢) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (١٣) ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجُونَ﴾ (١٤)

قال شعبة بن الحجاج، عن سيمالك، عن خالد بن عزرعة أنه سمع علياً - وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، أنه سمع علياً - وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنباتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ (١)؟ قال: الريح. قال: ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ (٢)؟ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (٣)، قال: السفن. قال: ﴿فَالْمَعْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ (٤)؟ قال: الملائكة.

[٦٣٠٩] وقد روي في ذلك حديث مرفوع؛ فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هاني، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ (١)، فقال: هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله - ﷺ - يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ (٢)، قال: هي السحاب، ولولا أنني سمعت رسول الله - ﷺ - يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْمَعْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ (٤). قال: هي الملائكة، ولولا أنني سمعت رسول الله - ﷺ - يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (٣). قال: هي السفن، ولولا أنني سمعت رسول الله - ﷺ - يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب منة، وجعل في بيت، فلما برأ دعا به فضربه منة أخرى، وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالإيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً. فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فحل بينه وبين مجالسة الناس^(١). قال

(١) باطل. أخرجه البزار ٢٢٥٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٦٥: فيه أبو بكر بن أبي سبرة، وهو متروك اهـ. وله علة ثانية سعيد بن سلام العطار، ذكره الذهبي في «الميزان» ٣١٩٥ وقال: كذبه ابن نمير. وقال البخاري: يذكر =

أبو بكر البرزاني: فأبو بكر بن أبي سبرة لَيِّنَ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث. قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صبيغ بن عسبل مشهورة مع عمر، وإنما ضربته لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعثناً وعناداً، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة، وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يخلِك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحمالات وقرأ: السحاب كما تقدم، لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُنْزُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلَالاً

فأما ﴿فَالْمُرِّيَّتِ تَبْرَأُ﴾ (٣) فالمشهور عن الجمهور - كما تقدم - أنها السفن تجري ميسرة في الماء جزياً سهلاً. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً: الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله - عز وجل - على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُؤَدُّهُ لَصَادِقٌ﴾ (٤)، أي: لخبر صدق، ﴿وَأَنَّ الْيَزْنَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَزَقَهُ﴾ أي: لكائن لا محالة. ثم قال تعالى: ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمُبْكِ﴾ (٥)، قال ابن عباس: ذات البهائم والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو صالح، والسدي، وقتادة، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، وغيرهم. وقال الضحاک، والمنهال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزروع إذا ضربته الريح، فينسيج بعضه بعضاً طرائق، ذلك الحُبك.

[٦٣١٠] قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبي - ﷺ - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إن من ورأيكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورأته حُبك حُبك» يعني بالحُبك: الجعودة^(١).

وعن أبي صالح ﴿ذَاتِ الْمُبْكِ﴾: الشدة. وقال خُصيف: ﴿ذَاتِ الْمُبْكِ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ﴿ذَاتِ الْمُبْكِ﴾: حُبكت بالنجوم. وقال قتادة: عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن عمرو البكالي، عن عبد الله بن عمرو: ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمُبْكِ﴾ (٧)، يعني: السماء السابعة. وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال تزجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهائم، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - فإنها من حُسنها مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، مُتسعة الأرجاء، أليفة البهائم، مُكَلَّلة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ (٨)، أي: إنكم - أيها المشركون المكذبون للرسول - لفي قولٍ مُخْتَلِفٍ مُضْطَرِبٍ، لا

= بوضع الحديث. وضعفه النسائي وغيره. وقال أحمد: كذاب. وقال العجلي: لا بأس به - وله علة ثالثة ابن المسيب لم يدرك عمر. لكن هذه العلة غير قادمة، مراسيل ابن المسيب جيد.

(١) أخرجه الطبري ٣٢٠٤٨ عن أبي قلابة عن رجل من الصحابة عن النبي ﷺ، وجهالة الصحابي لا تضمر، إذا صح الإسناد إليه. وإسناد هذا الحديث إلى أبي قلابة صحيح، لكن يخشى أن يكون أبو قلابة سمعه من رجل مجهول عن رجل من الصحابة، فإن أبا قلابة كثير الإرسال والرواية عن من لم يلقه. والمراد بالكذاب هنا «الدجال» وقد صح هذا الحديث بغير هذا السياق. والله أعلم.

يَلْتَمِمْ وَلَا يَجْتَمِعُ. وقال قتادة: ﴿إِنَّكَ لَيَ قَوْلٍ تُخَلِّبُ﴾ (١٥)، ما بين مُصَدِّقٍ بِالْقُرْآنِ وَمُكَذِّبٍ بِهِ. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (١٦)، أي: إنما يَرُوجُ عَلَى مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ، إِنَّمَا يَنْقَادُ لَهُ وَيَضِلُّ بِسَبَبِهِ وَيُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ هُوَ مَافُوكٌ ضَالٌّ غَمْرٌ لَا فَهْمَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْكَوْثُ وَمَا تَتَّبِعُونَ﴾ (١٦) مَا أَشْرَعَ عَلَيْهِ بِقَتِيلَيْنِ (١٦) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَسِيمِ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (١٦): يُضِلُّ عَنْهُ مَنْ ضَلَّ. وَقَالَ مَجَاهِدٌ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (١٦): يُؤْفَنُ عَنْهُ مِنْ أَيْفَنَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يُصْرَفُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ مَنْ كَذَّبَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ الْمُرْضُوعُونَ﴾ (١٧)، قَالَ مَجَاهِدٌ: الْكُذَّابُونَ. قَالَ: وَهِيَ مِثْلُ الَّتِي فِي عَبَسَ: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ﴾ (١٧). وَالْحَرَّاصُونَ: الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا تُبْعَثُ، وَلَا يُوقِنُونَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قِيلَ الْمُرْضُوعُونَ﴾ (١٧)، أَي: لِعِنِ الْمُرْتَابُونَ. وَهَكَذَا كَانَ مَعَادُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْحَرَّاصُونَ أَهْلُ الْغَيْرَةِ وَالظُّنُونِ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِمْ سَاهَوْتَ﴾ (١٨)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ وَاحِدٌ: فِي الْكُفْرِ وَالشُّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ. ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٩): وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشُكًّا وَاسْتِيعَادًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (١٩). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُ وَاحِدٌ: ﴿يُفْتَنُونَ﴾. يُعَذَّبُونَ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى النَّارِ. وَقَالَ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ كَمَجَاهِدٍ أَيْضًا، وَعِكْرَمَةَ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: يُفْتَنُونَ يُحْرَقُونَ. ﴿ذُقُوا فَلْيَنْتَكِرُوا﴾، قَالَ مَجَاهِدٌ: حَرِّقْكُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ: عَذَابِكُمْ. ﴿هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَعْتِكُمْ﴾، أَي: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتُحْقِيرًا وَتُصْغِيرًا؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٥) ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنذَرْتَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُمْ إِذْ هُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِمَّنْ أُنزِلَ مَا يَهْبِئُونَ (١٧) وَإِلَّا لَأَسْأَرَ هُمْ يَسْتَفْتَرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ ءَآيَاتٌ لِّبَصِيرَتِهِمْ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) قُرْبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَطِقُونَ (٢٣)

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين لله - عز وجل - : إِنَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ يَكُونُونَ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ، بِخِلَافِ مَا أَوْلَيْتَكَ الْأَشْقِيَاءَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنذَرْتَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَي عَامِلِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ الْفَرَائِضِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أَي: قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمُ الْفَرَائِضُ كَانُوا مُحْسِنِينَ فِي الْأَعْمَالِ أَيْضًا. ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ حَمِيدٍ: حَدَّثَنَا مِهْرَانُ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنذَرْتَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، قَالَ: مِنَ الْفَرَائِضِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قَبْلَ الْفَرَائِضِ يَعْمَلُونَ. وَهَذَا الْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ، وَلَا يَصِحُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ رَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو الْبَزَّارِ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَذَكَرَهُ. وَالَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ءَأَخِذِينَ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فَالْمُتَّقُونَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَاتِ وَالْعُيُونِ آخِذُونَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ، أَي: مِنَ النَّعِيمِ وَالسَّرُورِ وَالغَبِطَةِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أَي: فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ﴾ (١١). ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِمَّنْ أُنزِلَ مَا يَهْبِئُونَ﴾ (١٧)، اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ (مَا) نَافِيَةٌ، تَقْدِيرُهُ: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ لَا يَهْبِئُونَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ تَكُنْ تَمْضِي عَلَيْهِمْ لَيْلَةٌ إِلَّا يَأْخِذُونَ مِنْهَا وَلَوْ شِئْنَا، وَقَالَ

قتادة، عن مُطَرِّف بن عبد الله: قَلَّ لَيْلَةٌ تَأْتِي عَلَيْهِمْ لَا يُصَلُّونَ فِيهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، إِمَّا مِنْ أَوْلَاهَا وَإِمَّا مِنْ أَوْسَطِهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَلَّ مَا يَرْقُدُونَ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ لَا يَتَهَيَّجُونَ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ: كَانُوا يُصَلُّونَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ: كَانُوا لَا يَنَامُونَ حَتَّى يُصَلُّوا الْعَتَمَةَ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنْ (مَا) مُصَدَّرِيَّةٌ، تَقْدِيرُهُ: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مُجُوعُهُمْ وَنَوْمُهُمْ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾ كَابَدُوا قِيَامَ اللَّيْلِ، فَلَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَقَلَّهُ، وَتَشَبَّهُوا قَمَدًا إِلَى السَّحَرِ، حَتَّى كَانَ الْاسْتِغْفَارُ بِسَحَرٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾ كَانُوا لَا يَنَامُونَ إِلَّا قَلِيلًا، ثُمَّ يَقُولُ: لَسْتُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَقُولُ: عَرَضَتْ عَلَيَّ عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ بَايَعُونَا بَوْنًا بَعِيدًا، إِذَا قَوْمٌ لَا تَبْلُغُ أَعْمَالُهُمْ، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَعَرَضْتُ عَلَيَّ عَلَى عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ يُكْذِبُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيُرْسِلُ اللَّهُ، يُكْذِبُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَوَجَدْتُ مِنْ خَيْرِنَا مَنْزِلَةً قَوْمًا خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ: قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ لِأَبِي: يَا أَبَا أَسَمَةَ، صِفَّةٌ لَا أَجِدُهَا فِيْنَا، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْمًا فَقَالَ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾، وَنَحْنُ - وَاللَّهُ - قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا نَقُومُ. فَقَالَ لَهُ أَبِي: طُوبَى لِمَنْ رَقَدَ إِذْ نَعَسَ، وَأَتَقَى اللَّهَ إِذَا اسْتَيْقَظَ.

[٦٣١١] وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انجفل الناس إليه، فكنث فيمن انجفل فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أطيعوا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

[٦٣١٢] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنِي حُيَيْبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبَلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرْفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا»، فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ «لِمَنْ آلانَ الْكَلَامِ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ اللَّهُ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامًا»^(٢).

وَقَالَ مَعْمَرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾^(٣) كَانَ الزُّهْرِيُّ وَالْحَسَنُ يَقُولَانِ: كَانُوا كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يُصَلُّونَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾^(٤): مَا يَنَامُونَ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾^(٥) ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿مِنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ﴾^(٦) وَرِأْيَ الْأَمْثَارِ ثُمَّ يَسْتَفْرِوْنَ^(٧)؛ وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ بُغْدٌ وَتَعَسُفٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رِأْيَ الْأَمْثَارِ ثُمَّ يَسْتَفْرِوْنَ﴾^(٨) قَالَ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ يُصَلُّونَ. وَقَالَ آخَرُونَ: قَامُوا اللَّيْلِ، وَأَخْرَجُوا الْاسْتِغْفَارَ إِلَى الْأَسْحَارِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فَإِنْ كَانَ الْاسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ.

[٦٣١٣] وَقَدْ تَبَّتْ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبُ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فِيمَعْطَى سَوْؤُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(٩). وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٤٨٥ وابن ماجه ٣٢٥١ والحاكم ١٣/٣ وهو حسن، وله شواهد.

(٢) فيه ابن لهيعة ضعيف الحديث. لكن له شواهد، وتقدم تخريجه، والله الموفق.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١١٤٥ و٦٣٢١ و٧٤٩٤ ومسلم ٧٥٨ وأبو داود ١٣١٥ والنسائي ٤٨٠ وابن ماجه ١٣٦٦ وأحمد

عن يعقوب، أنه قال لَيْتَنِي: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا أَخْرَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ .
وقوله تعالى: ﴿رَبِّيَ أَنْزَلَهُمْ حَقًّا لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٦): لما وَصَفَهُم بِالصَّلَاةِ تُثْنِي بِوَصْفِهِم بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ
وَالصَّلَاةِ، فقال: ﴿رَبِّيَ أَنْزَلَهُمْ حَقًّا﴾، أي: جِزَاءً مَقْسُومًا قَدْ أَفْرَزُوهُ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، أَمَا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ،
وهو الَّذِي يَبْتَدِئُ بِالسُّؤَالِ، وله حَقٌّ، كما قال الإمام أحمد:

[٦٣١٤] حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ يَعْلَى بْنِ أَبِي
يَحْيَى، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهَا الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ
جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» (١) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ. ثُمَّ أَسْنَدَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي
طَالِبٍ. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ الْهَيْزَمِيِّ بْنِ زِيَادٍ مَرْفُوعًا. وَأَمَّا الْمَحْرُومُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: هُوَ الْمُحَارَفُ
الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ. يَعْنِي لَا سَهْمٌ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ، وَلَا كَسْبٌ لَهُ، وَلَا جِرْفَةٌ يَتَقَوَّتُ مِنْهَا.
وَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ: هُوَ الْمُحَارَفُ الَّذِي لَا يَكَادُ يَتَيْسَّرُ لَهُ مَكْسَبُهُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ
مَالٌ إِلَّا ذَهَبٌ، قَضَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو قَلَابَةَ: جَاءَ سَيْلٌ بِالْإِمَامَةِ فَذَهَبَ بِمَالِ رَجُلٍ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ
الصَّحَابَةِ: هَذَا الْمَحْرُومُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَنَافِعٌ - مَوْلَى ابْنِ
عَمْرِ - وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: الْمَحْرُومُ الْمُحَارَفُ. وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالزَّهْرِيُّ: الْمَحْرُومُ الَّذِي يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا،

[٦٣١٥] قَالَ الزَّهْرِيُّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ،
وَالْتَمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمَسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ» (٢) وَهَذَا الْحَدِيثُ
وَقَدْ أَسْنَدَهُ الشَّيْخَانُ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الَّذِي يَجِيءُ وَقَدْ قَسِمَ الْمَغْتَنَّمُ،
فَيَرْضَخُ لَهُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ
فَجَاءَ كَلْبٌ فَانْتَزَعَ عُمَرَ كَيْفَ شَاءَ فَرَمَى بِهَا إِلَيْهِ وَقَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّهُ الْمَحْرُومُ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ
مَا الْمَحْرُومُ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمَحْرُومَ هُوَ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ، وَقَدْ ذَهَبَ مَالُهُ، سِوَا مَا كَانَ لَا
يَقْدِرُ عَلَى الْكَسْبِ، أَوْ قَدْ هَلَكَ مَالُهُ أَوْ تَمَرَّهَ بِأَفْءَةٍ أَوْ نَحْوِهَا. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ
الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا، فَجَاءَ قَوْمٌ لَمْ يَشْهَدُوا الْغَنِيمَةَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:
﴿رَبِّيَ أَنْزَلَهُمْ حَقًّا لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٦). وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ مَدَنِيَّةٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مَكِّيَّةٌ شَامِلَةٌ لِمَا
بَعْدَهَا.

وقوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢٠)، أي: فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ
الْبَاهِرَةِ، مِمَّا قَدْ ذُرِيَ فِيهَا مِنْ صَنُوفِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْمِهَادِ وَالْجِبَالِ، وَالْقَفَازِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ،
وَإِخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَالْوَأْنِيهِمْ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُرَى، وَمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُقُولِ
وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَمَا فِي تَرْكِيهِمْ مِنَ الْحِكْمِ فِي وَضْعِ كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ فِي
الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مَحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبِّيَ أَنْشَيْكَ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١)، قَالَ قَتَادَةُ: مَنْ تَفَكَّرَ
فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ وَكَلِّتَ مَفَاصِلَهُ لِلْعِبَادَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّيَ أَلَمَلَهُ رَفَقَةً﴾ يَعْنِي الْمَطْرَ، ﴿وَمَا
تُرْعَدُونَ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: قَرَأَ وَأَصْلُ الْأَحْدَبِ هَذِهِ

(١) فِيهِ يَعْطَى ضَعِيفٌ، لَكِنْ لَهُ شَوَاهِدٌ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ.

(٢) صَحِيحٌ. هَذَا مَرْسَلٌ وَوَرَدَ مُوَصُولًا عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ١٦٣٢ وَالنَّسَائِيُّ ٨٥/٥ - ٨٦ وَابْنُ حِبَانَ ٣٣٥١، وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحِينَ».

الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُعَدُّونَ﴾ (٢٤) فقال: ألا أَرَى رِزْقِي فِي السَّمَاءِ وَأَنَا أَطْلُبُهُ فِي الْأَرْضِ؟ فَدَخَلَ حَرِيَّةً فَمَكَثَ ثَلَاثًا لَا يُصِيبُ شَيْئًا، فَلَمَّا أَنْ كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ إِذَا هُوَ بِدَوْخَلَةٍ مِنْ رُطْبٍ - وَكَانَ لَهُ إِخٌ أَحْسَنُ نِيَّةً مِنْهُ، فَدَخَلَ مَعَهُ فَصَارَتَا دَوْخَلَتَيْنِ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَابَهُمَا حَتَّى فُرِّقَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَحَقٌّ لِحَقِّ نَبَلِّ مَا أَنْتُمْ تَنْطُقُونَ﴾ (٢٥)، يُقَسِّمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ كَائِنْ لَا مُحَالَةَ وَهُوَ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، فَلَا تَشْكُرُوا فِيهِ كَمَا لَا تَشْكُرُونَ فِي نُطْقِكُمْ حِينَ تَنْطُقُونَ. وَكَانَ مَعَاذَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هَذَا لِحَقٌّ كَمَا أَنْتَ مَا هُنَا.

[٦٣١٦] قَالَ مُسَدَّدٌ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: بَلَّغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: «قَاتَلَ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبَّهُمْ ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوا»^(١). وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ بُنْدَارٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ، فَذَكَرَهُ مُرْسَلًا.

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ ضَيِّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٦) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمْنَا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَخَفُ وَبَشَّرُوهُ بِعَلْمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ (هُود)، وَ(الْحَجَر) أَيْضًا. وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ ضَيِّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٦)، أَي: الَّذِينَ أَرَادَ لَهُمُ الْكِرَامَةَ. وَقَدْ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِ الضِّيَافَةِ لِلنَّزِيلِ، وَقَدْ وَرَدَتِ السَّنَةُ بِذَلِكَ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا سَلَّمْنَا قَالَ سَلَّمَ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَى وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ، فَرُدُّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْ رَدُّوهُ﴾ [النساء: ٨٦]، فَالْخَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ: جَبْرِئِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمِيكَائِيلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ، عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾، أَي: انْسَلَّ خِيفَةً فِي سُرْعَةٍ، ﴿فَجَاءَهُ بِعِجَلٍ سَمِينٍ﴾ أَي: مِنْ خِيَارِ مَالِهِ. وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجَلٍ حَسِينٍ﴾ [هود: ٦٩]: مَشْوِيٌّ عَلَى الرَّضْفِ، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: أَدْنَاهُ مِنْهُمْ، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تَلَطَّفَ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرَضَ حَسَنًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَضَمَتْ آدَابِ الضِّيَافَةِ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِطَعَامٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِسُرْعَةٍ، وَلَمْ يَمْتَنِّ عَلَيْهِمْ أَوْلًا فَقَالَ: نَاتِيكُمْ بِطَعَامٍ؟. بَلْ جَاءَ بِهِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءٍ، وَأَتَى بِأَفْضَلِ مَا وَجَدَ مِنْ مَالِهِ، وَهُوَ عِجَلٌ قَتِيٌّ سَمِينٌ مَشْوِيٌّ، فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، لَمْ يَضَعُهُ، وَقَالَ: اقْتَرِبُوا، بَلْ وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَمْرًا يَشُقُّ عَلَى سَامِعِهِ بِصِغَةِ الْجَزْمِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، عَلَى سَبِيلِ الْعَرَضِ وَالتَّلَطُّفِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَفَضَّلَ وَتَحْسِنَ وَتَتَصَدَّقَ فَافْعَلْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، هَذَا مُحَالٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْآخَرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَنَكَرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا نَخَفُ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ لَوِطٌ ﴿٢٨﴾ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَصَجَّكَتْ﴾ أَي: اسْتَبَشَّرَتْ بِهَلَاكِهِمْ، لِتَمَرُّدِهِمْ وَعَتْوِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ. ﴿قَالَتْ يَنْتَبِهُنَّ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٣٢١٩١٠ وَهُوَ ضَعِيفٌ. لِكُونِهِ مُرْسَلًا، وَمَرَاثِيلُ الْحَسَنِ وَاهِيَةٌ.

عَجِبْتَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكَنُكُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَيِّدٌ حَيِّدٌ ﴿٧٧﴾ [مؤد: ٧٠-٧٣]. ولهذا قال سبحانه وتعالى هاهنا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ بِقُلُوبِهِمْ﴾، فالبشارة له هي بشارة لها، لأن الولد منهما، فكل منهما بشار به، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَأَتْ أُمَّرَأَتُهُ فِي صَرْقٍ﴾، أي: في صَرْحَةٍ وَعَيْطَةٍ وَرَبَّةٍ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدي، وهي قولها: ﴿يُنَوِّتُنَّيْ أَأَيْدٍ﴾، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾، أي: ضربت يديها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط، وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: علم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِتُرِيدَ عَلَيْهِمْ حِسَابًا مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَّا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

قال الله مخبراً عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتَهُ بَشِيرًا بِمُحَمَّدٍ قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ يخبرهم أعرس عن هداً إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَبُّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَدَابِ غَيْرِ عَرُودٍ ﴿٧٨﴾ [مؤد: ٧٤-٧٦] وقال هاهنا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾، أي: ما شأنكم وفيهم جنتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾، يعنون قوم لوط، ﴿لِتُرِيدَ عَلَيْهِمْ حِسَابًا مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً﴾ أي: معلمة عند ربك للمُسْرِفِينَ، أي: مكتتبه عنده بأسمانهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَأَنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وقال تعالى هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، من لا يفرق بين مُسْمِنِ الإِيمَانِ والإِسْلَامِ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم، ولا ينعكس فانفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك في كل حال. وقوله تعالى: ﴿وَرَكَّا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلّتهم بحيرة مُتِنَّةً حَيِثَّةً، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، الذين ﴿يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ جِنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَبَدَّنْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَلَدُّرٌ مِّن شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيِّ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعْتَرَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّلْجَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَفْتَحُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحِيَ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾، أي: بذليل باهر وحُجَّةٍ قاطعة، ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً. وقال مجاهد: تعرّز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾، أي: بجُموعه التي معه، ثم

قراً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَاءٌ إِلَيْكَ رَبِّي سَدِيدٌ﴾ [مرد: ٨٠] والمعنى الأول قوتي كقوله تعالى: ﴿ثَأْنِي عَظِيمٌ. يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: معرض عن الحق مُسْتَكْبِرٌ. ﴿وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ جَحُونٌ﴾، أي: لا يخلو أمرك فيما جتنتي به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْتَدْنَا لَهُ جَهَنَّمَ وَنُحُودَهُ فَتَشَبَّهَتْهُمُ﴾، أي: القيناهم ﴿فِي النَّارِ﴾، وهو البحر، ﴿وَهُوَ يُلِيمُ﴾، أي: وهو ملومٌ كافرٌ جاحدٌ فاجرٌ مُعَانِدٌ. ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤٧﴾، أي: المُفْسِدة التي لا تُنتِج شيئاً قاله الضحاك، وفتادة، وغيرهما. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا نَذَّرْنَا مِنْ قَبْلِهِ أَنَّ تَعْلِيَهُ﴾ أي: مما تُفْسِدهُ الرِّيحُ ﴿إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾، أي: كالشيء الهالك البالي.

[٦٣١٧] وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثني عبد الله - يعني ابن عيَّاش القِثْباني - حدثني عبد الله بن سليمان، عن ذرَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدْفِي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ - «الريح مُسْخَرَةٌ مِنَ الثَّانِيَةِ - يعني من الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يُهلك عاداً أمر خازنَ الرِّيح أن يُرْسِلَ عليهم ريحاً تُهلك عاداً، قال: أي رَبِّ، أُرْسِلَ عليهم الرِّيحُ قَدَرٌ مَنَحَرَ الثُّور؟ قال له الجَبَّارُ تبارك وتعالى: لا، إِذَا تُكْفَأُ الأَرْضُ وَمِنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أُرْسِلَ عليهم بِقَدْرِ خَاتَمِ، فهي التي يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿مَا نَذَّرْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾ ﴿٤٧﴾»^(١) هذا الحديث رفعه منكر، والأقرب أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عمرو، من زابليته اللَّتَيْنِ أَصَابَهُمَا يَوْمَ التِّزْمُوكِ، والله أعلم. قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، قالوا: هي الجَنُوب.

[٦٣١٨] وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبَةَ، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «نُصِرَتْ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتَ عَادَ بِالذُّبُورِ»^(٢).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَعُوا حَتَّى جِئْتُمْ﴾ ﴿٤٨﴾، قال ابن جرير: يعني إلى وقتِ فَنَاءِ آجَالِكُمْ. والظاهرُ أَنَّ هذه كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَبَعُوا أَمْرَ الْعَدِيِّ فَأَعَدْتَهُمْ صَبْعَةً أَلْدَابِ الْمُنُونِ﴾ [فصلت: ١٧] وهكذا قال ها هنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَعُوا حَتَّى جِئْتُمْ﴾ ﴿٤٨﴾ فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَعَدَّتْهُمُ الصَّبْعَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذابَ ثلاثةَ أيام، فجاءهم في صبيحةِ اليوم الرابع بكرةُ النهار، ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَارٍ﴾، أي: من هَرَبٍ ولا نُهوضٍ، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾، أي: ولا يَقْدِرُونَ على أن يَنْتَصِرُوا مما هُم فيه. وقولُهُ عز وجل: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلِ﴾، أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء، ﴿إِنِّي كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، وكل هذه القِصَصِ قد تَقَدَّمت مبسوطة في أماكن كثيرة، من سورٍ مُتَعَدِّدةٍ؛ والله تعالى أعلم.

﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَسْهُودُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَمَرَوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مُتَّبِعاً على خَلْقِ العَالَمِ العُلُوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا﴾، أي: جعلناها سقفاً محفوظاً ربيعاً ﴿بِأَيِّدٍ﴾، أي: بِقُوَّةٍ. قاله ابن عباس، ومجاهد، وفتادة، والثوري، وغير واحد. ﴿وَأَنَا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: قد

(١) إسناده ضعيف والمتن منكر. وتقدم ترجمته في الروم: ٤٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤١٠٥ ومسلم ٩٠٠ وتقدم في الأحزاب: ٩.

وَسَعْنَا أَرْجَاءَهَا وَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ، حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾، أَي: جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا
لِلْمَخْلُوقَاتِ، ﴿يَتِمُّ الْمَهْدُونَ﴾، أَي: وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجَلَيْنِ﴾، أَي: جَمِيعُ
الْمَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجٌ: سَمَاءٌ وَأَرْضٌ، وَلَيْلٌ وَنَهَارٌ، وَشَمْسٌ وَقَمَرٌ، وَبَرٌّ وَبَحْرٌ، وَضِيَاءٌ وَظِلَامٌ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ،
وَمَوْتُ وَحَيَاةٌ، وَشَقَاءٌ وَسَعَادَةٌ، وَجَنَّةٌ وَنَارٌ، حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَلَكُودُ نَذَارُونَ﴾
أَي: لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿فَيُرَوُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: الْجُؤُوا إِلَيْهِ، وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ،
﴿إِنِّي لَكُرَيْمَةٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، أَي: لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ﴿إِنِّي لَكُرَيْمَةٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٦﴾ أَوْ أَصَوًّا بَدِءَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾
فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٨﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ
الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى مُسَلِّيًا نَبِيَّهُ - ﷺ -: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المُكذِّبون الأولون لِرُسُلِهِمْ:
﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٦﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوْ أَصَوًّا بَدِءَ﴾، أَي: أَوْصَنُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَي: لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَغَاءَةٌ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ كَمَا
قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾، أَي: فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ، ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، يَعْنِي فَمَا
تَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾﴾، أَي: تَنْتَفِعُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ، ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، أَي: إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَتِي، لَا لِاحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ.
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أَي: لِأَلْيَقُرُّوا بِعِبَادَتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، وَهَذَا
اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِلَّا لِيَعْرِفُونِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أَي: لِأَلْيَعْبُدُوا
وَقَالَ السُّدِّيُّ: مِنَ الْعِبَادَةِ مَا يَنْفَعُ وَمِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [القمان:
٢٥] هَذَا مِنْهُمْ عِبَادَةٌ، وَلَيْسَ يَنْفَعُهُمْ مَعَ الشَّرْكِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا
أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

[٦٣١٩] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ وَأَبُو سَعِيدٍ قَالَا: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينُ»^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالحَدِيثُ إِسْرَائِيلِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».
وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَنْتُمْ الْجَزَاءَ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ
أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ، بَلْ هُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ.
[٦٣٢٠] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا عُمَرَانُ - يَعْنِي ابْنَ زَائِدَةَ - بِنَ شَيْطٍ - عَنْ

(١) صحيح شاذ. أخرجه أبو داود ٣٩٩٣ والتِّرْمِذِيُّ ٢٩٤٠ والنَّسَائِيُّ فِي «الكَبْرِ» ٧٧٠٧ وَ ١١٥٢٧ وَأَحْمَدُ ١/٣٩٤ وَ ٤١٨
وَابْنُ حِبَّانَ ٦٣٢٩ وَأَبُو يَعْلَى ٥٣٣٣ وَالْحَاكِمُ ٢/٢٣٤ وَ ٢٤٩ سَكَتَ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ، وَهُوَ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ،
لَكِنَّ الْمَتْنَ شَاذٌ، فَإِنَّهُ يَخَالِفُ الْمَتْنَ فِي الْمَصَاحِفِ.

أبيه، عن أبي خالد - هو الوالبي - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى -: «يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»^(١). ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذي: «حسن غريب».

[٦٣٢١] وقد روى الإمام أحمد، عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبي شرحبيل، سمعت حبة وسواء ابني خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملاً - أو يبني بناءً - وقال أبو معاوية: يصلح شيئاً - فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما، فإن الإنسان تلهه أمه أحمز ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه»^(٢).

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفئت برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجذني، فإن وجدتنى وجدت كل شيء، وإن فئتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب، ﴿يَسْتَمِئُونَ﴾ أي: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع لا محالة ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾^(٣) يعني يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات. والله الحمد والمنة

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٢٤٦٦ وابن ماجه ٤١٠٧ وأحمد ٣٥٨/٢ وإسناده لين، فيه زائدة، وهو مقبول. وله شاهد حسن من حديث معقل بن يسار، أخرجه الحاكم ٣٢٦/٤ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٤٦٩/٣ وابن ماجه ٤١٦٥ وتقدم تخريجه في الروم: ٤٠.

فهرس المحتويات

٥ سورة القصص
٣٨ سورة المنكبوت
٦٤ سورة الروم
٩١ سورة لقمان
١١٥ سورة السجدة
١٢٨ سورة الأحزاب
٢١٨ سورة سبأ
٢٤٧ سورة فاطر
٢٧٠ سورة يس
٣٠٠ سورة الصافات
٣٣٢ سورة ص
٣٥٧ سورة الزمر
٣٩١ سورة غافر
٤١٨ سورة فصلت
٤٣٩ سورة الشورى
٤٦٣ سورة الزخرف
٤٨٣ سورة الدخان
٤٩٨ سورة الجاثية
٥٠٦ سورة الأحقاف
٥٣٢ سورة محمد
٥٤٧ سورة الفتح
٥٧٨ سورة الحجرات
٦٠١ سورة ق
٦١٨ سورة الذاريات
٦٢٨ فهرس المحتويات